

كيف دأقنا عن عراجا وصحبه

مجلس الكتاب
ملك الأساطير الدكتور
روزي زكي بطرس



م. عبد الغال

تأليف: م. م. برودي
ترجمة: عبد الحميد سليم



اهداءات ٢٠٠٣
أسرة أ.د/رمزي حكي
القاهرة

كيف دافعا عن عربي وصحة

(قصة مصر والصين)

تصميم الغلاف : محمد عبد العال

الاخراج الفنى : البير جورجى

الإشراف الفنى : راجيه حسين

كيف دافعا عن عربي وصحية

(قصة مصر والمصريين)

بقلم كبير محام: م. أ. بروودي
ترجمة وتحقيق: عبد الحميد سليم

الله ينصرك يا عربي

د. صبيحة جواهر مصر في يوليو ١٨٨٢ هـ



المهنة المصرية المسماة للكتاب

١٩٨٧

لوثيقة أشطرب على ترجمتى وأضع مكانها النص العربى بلغة عصره دون ما تحريف ، فاذا لم أجد الاصل العربى (وهى حالات قليلة) ، أبقيت على ترجمتى العربية لما سبق أن ترجمه مترجمو « برودلى » عن الاصل العربى وقت وجوده تحت أيديهم ، ويرجع اطمئنانى الى ترجمة مترجمى « برودلى » الى حقيقة أن مترجميه كان اختياره لهم اختيارا موفقا ، اذ أن « برودلى » بعد نقله لنشاطه من « فندق شبرد » الى « بيت المفتى » بحى الجمالية ، كان أول أمر اهتم به بعد جمعه للموظفين الذى سيعاونونه فى مكتبه من كتبة وناسخين - اهتم بإنشاء قلم للترجمة لعلمه أنه سيقع عليه العبء الاكبر من العمل ، فأسند رئاسته الى مستشرق اسمه مستر ادوارد بولدين Mr. Edward Baldwin (١) ، وعمل تحت رئاسته وطينان أرمينيا الجنسية هما : « نجيب إيكاريوس » و « جوزيف قنواتى » (٢) ثم استدعى من روما مترجما رابعا هو مستر سانتلانا Mr. Santillana (٣) ، وكانوا يجيدون اللغتين العربية والأجنبية كما كانت تتميز ترجمتهم عن العربية بالدقة التامة حتى أنه لو أعيد ترجمتها الى العربية لما اختلفت عن النص العربى الا قليلا ، وخير لك أن تكون تحت يدك وثيقة مترجمة هى أقرب الى الاصل ، عن أن لا تكون تحت يدك وثيقة على الاطلاق .

وعدم وجود بعض أصول الوثائق العربية التى كان من المفروض وجودها فى كتاب « برودلى » (نظرا لأن ترجمتها الانجليزية واردة بالاصل الانجليزى) ، يدفعنا الى احتمال أن يكون « برودلى » قد أنجزها لنفسه نظرا لما أحس به من قيمتها الوثائقية (والمعروف أن الانجليز كانوا أسبق منا فى مجال تقويم الوثائق) ، وهذا القول ليس من قراغ اذ أن تقرير « عرابى » الذى قدمه لمحاميه وكان قد كتبه فى سجن الدائرة السنية فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢م (١٦ ذى الحجة ١٢٩٩ هـ) لم أجد أصله العربى بين الأصول العربية المصنقة بكتاب « برودلى » المحفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، وانما وجدته مصورا عن مخطوطة بخط عرابى مودعة بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة

(١) التحق بعد ذلك بخدمة هكس باشا ، ورافقه فى حملته التأديبية للمهدى فى السودان ، ولكن المهدى انتصر على الحملة وأبادها حتى آخرها وكان هو من بينها (المحقق) .
(٢) هو الجلد الاكبر للأب جورج شحاته قنواتى ، العلامة المحقق لكتب التراث العربى (المحقق)

(٣) كان فى الاصل يشغل منصبا مرموقا بالحكومة الفرنسية ، فلما اختلف معها غادرها الى روما حيث استقر به المقام هناك (المحقق) .

سوى الرجوع الى من سبقنى من مؤرخى هذه الفترة وأسعدهم الحظ بالاطلاع على هذه الدوريات من نصف قرن مضى قبل أن تبلى (وأخص بالذكر منهم الأستاذين عبد الرحمن الرافعى ومحمود الخفيف ، وكلاهما اطلعا على كلتا الدوريتين ونقلنا عنهما) ، ومما لا شك فيه أن كلا الأستاذين الرافعى والخفيف من المؤرخين المدققين الثقات ، وهذا هو ما دفعنى الى الرجوع اليهما ، دون سواهما ، فى استكمال تحقيقى .

ومع كل هذا الجهد فى التحقيق ، الا أن المرء يحس أثناءه بمتعة ما بعدها متعة ، وأكثر امتاعا من ذلك هو ما يتكشف لك من أسلوب كتابة العصر الذى يبحث فيه (القرن التاسع عشر) ، نظرا لما كان يتميز به العصر الذى كانت تشوب كتابته بعض العبارات التركىة (نظرا لتبعية البلاد - من خلال خديويها - للدولة العلية (تركيا) ، أسوق منها على سبيل المثال لا الحصر هذه الأمثلة :

● **مسميات ادارية :** (أ) نظارة (وزارة) ، الجهادية (الحربية) النافعة (الأشغال العمومية بعد اضافة الزراعة عليها) ، الحقانية (العدل) ، الروزنامة (بيت المال) ، الدواوين (الادارات والمصالح الحكومية) ، القومسيون (اللجنة) .

(ب) حضرتلرى (المحترم) ، دولتلو (صاحب الدولة) ، سعادتلو (صاحب السعادة) ، حضرة فخامتلو دولتلو (حضرة صاحب الفخامة والدولة - وكانت هذه الصيغة يكتب بها الى جناب الخديو) ، المايين الهمايوى (المعية السلطانية) ، مهردا - خديو (باشكاتب الخديو) ، مستحفظين (ضباط الحجز) ، نوبتجى الخديو (حامل نرجيلة الخديو) ، قواسة الخديو (فرقة حملة الأقواس بحرس الحضرة الخديوية) .

● **عبارات ادارية :** جناب المجتشم (حضرة المحترم) ، الرقيم (المؤرخ) ، أعرضت (أشرت الى) ، الضبطية (مأمورية الشرطة) ، الأوروباوى (الأوروبى أو الأجنبى) ، الفرائض (الفروض) ، المخابرة (التخاطب) ، العقوبات (العقوبات) ، استنطاق (استجواب) ، التدخل (التدخل أو التوسط) ، ما اتضح ببوصلة سعادتكم (ما جاء بخطاب سعادتكم) .

● **رتب وعبارات عسكرية :** (١) صاغقول الماسى (قائد فرقة) بمباشى (عقيد) ميرلوا (أميرالاي) .

(ب) التجسريدة (الحملة) ، المقتلة (القتل) ، العساكر او

فاننا نرجو ممن هم معقود عليهم الأمل وممن ييدهم مسئولية اتخاذ القرار أساسا ، ألا يتجاهلوا بالمرّة الدروس التي قد تعلموها من دراستهم الدقيقة لتأريخ الوطنية المصرية .

أيها القارئ العزيز ! اننى سأحاول أن أوضح لك فى كتابى هذا شيئا عن المصريين من خلال « منظارهم » المصرى . ان عبارة « مصر للمصريين » كما اعتدنا سماعها مستخدمة قد لا يحس المرء بما لمعناها من عمق مثل احساسه بها « كشعار » على راية عرابى وصحبه ، اذ كانت تعنى شيئا كبيرا ، وهذا هو بالضبط ما أرجو أن يسمح لى القارئ أن أوضحه له . وأنا كمؤلف أعرف أحوال مصر من خلال « المنظار » المالى كان لى رأى ، وان مثل هذه الموهبة موهبة ابداء الرأى من خلال منظار ملون ، قد وهبت بالمثل لأناس أتجاسر وأصفهم بأنهم يمثلون مختلف السياسات والدبلوماسية والنفوذ الفرنسى والمصالح الثابتة والأفكار الانجليزية المصرية ، ومختلف أصدقاء ما كان يتردد فى الشرفات التاريخية لفندق شبرد Shepherd بالقاهرة . كل هؤلاء السادة كان عندهم صبر الانصات ، وكان لهم معرضهم ، كما كان لهم سوقهم المفتوحة التى يعرضون فيها بضاعتهم ، وجدت المنبر شاغرا للمحظة ، خطوت ، ولعلها كانت شجاعة منى أن أخطو الى المكان الشاغر ولبست « منظارى المصرى » ، ومن هذا المنبر فاننى أدعو الشعب البريطانى الكريم لمشاهدة « بانوراما » الوطنية المصرية ، وسيتكشف الأمر عن أن الشخصيات الرئيسية فيها سيعاونها موكلو الأخيرين ، اننى أعد القارئ بأكثر من هذا ، أعد باننى سأتيح له من وقت لآخر ، أن يتعرف على ما وراء المظهر الخادع لفن السياسة المصرى .

اننى سأبذل قصارى جهدى ألا أجهد من يأتون لمشاهدة ما عندى من « صندوق الدنيا المصرى Egyptian raree show » اننى أكاد أتخيل أن بعض المشاهدين سيشكون من أن ما أقدمه لهم من الكوميديا كثير ، فى حين أن ما أقدمه لهم من التراجيديا ليس بالقدر الكافى ، ولكن دعونى ، ولكن دعونى أرد على الفور على هؤلاء النقاد الصرخاء ، فأقول بأنه تحت الطابع العميق للمرح يكمن كل الأساس الأصلى للمجتمع الشرقى ، ويواجهك فى كل اتجاه ، ولو أننى محوت كل ما يثير الضحك فى قصتى لفشلت فى تسليّة قرائى وفى تثقيفهم معا . ان الحقيقة والحياة متطلبان على حد سواء ، ولذلك ، فسيكون من الأفضل لى أن أنزع منظارى المصرى من البداية . اننا نعيش عصر المراسلات الخاصة والسرعة فى صنع التاريخ ، وأنا أشك كثيرا اذا كان الناس اليوم لديهم من الوقت ما يسمح لهم أن يستوعبوا الموضوعات السياسية الواقعية ويناقشوا

مدى أسهم ما لحق بجيش « عرابى » من أبناء الشعب من سوء معاملة واذلال وتحقير بعد موقعة التل الكبير . أسهم بنصيب فى تحطيم أمل « الكولونيل هكس » الضائع . وما لم تكن انجلترا مستعدة لأن تهيب « بداية طيبة » لهذا البلد دون ما تأخير ، فإن مغادرتها لها سيكون أمرا مستحيلا .

فى السنة الماضية ، كان نصيبى أن أكتب قصة الغزو الفرنسى لـ « تونس » (١) ، أما اليوم فأنا أضع بين يدي قرائى روايتى عن دفاعى عن « عرابى » وصحبه ، التى استلزمت بطبيعة الحال ، تقديم بيان عن الحركة الوطنية المصرية التى صار فيها « عرابى » الزعيم . بموجب الموافقات الضمنية التى خولتها له مصر بأسرها .

لقد كان العقد التاسع من القرن التاسع عشر فترة بالغة الأهمية فى تاريخ شمال أفريقيا . لقد شهد غزو فرنسا لـ « تونس » واحتلالها الدائم لها ، كما شهد الحملة الانجليزية على مصر ، وسيتوقف الكثير ، بلا شك ، على القرارات التى ستتصل اليها انجلترا فيما يتصل بطبيعة بقائها فى هذا البلد ، فلو كان بقاؤها مؤقتا ، وآخذة فى اعتبارها دائما أن تبدأ البلاد « بداية طيبة » ، كما أكد ذلك رئيس وزرائها مستر جلدستون Mr. Gladstone ، ففى هذه الحالة قد لا أكون مبالغا فى تاريخ الأيام الأخيرة لـ « طرابلس الغرب Tripoli » بليبيا فى سنة ١٨٨٤ (٢) ولسقوط امبراطورية مراکش (المغرب) فى سنة ١٨٨٥ (٣) ، ولن يكون هناك ما يمكن أن ينقذ شمال أفريقيا من أن يصبح منطقة جذب للعدوان الأوروبى عليه .

-
- (١) تونس' بماضيها وحاضرها ، آخر الحروب البونيقية، Tunis Past and Present، The The Last Punic Wars مجلدات) : لندن ١٨٨٢ ، وكلمة Poenicus Punic كلمة لاتينية محرفة عن أصلها الاغريقى Phonix (فينيقيا) وهو الاسم الذى كان يطلق على قرطاج Carthage فى المصرين اليونانى والرومانى (تونس الحالية) وكانت الحروب سجلا بين روما وقرطاج على السيادة على جزر البحر المتوسط ، وقد امتدت على ثلاث حقبة تاريخية : الأولى ٢٣ سنة (٢٦٤ - ٢٤١ ق.م) والثانية ١٧ سنة (٢١٨ - ٢٠١ ق.م) والثالثة ٣ سنوات (١٤٩ - ١٤٦) . وكان أخطرها الحقبة الثانية التى أبرزت شخصية هانيبال Hannibal القرطاجى الذى هزم روما فى غفر دارها فى معركة كاناي Cannae (٢١٦ ق.م) ، هزمه القائد الرومانى سكيو Scipio فى معركة زاما Zama فى ٢٠٢ ق.م ، وكان لهذه الهزيمة خطرها فى قضائها التام على سيادة قرطاج على جزر البحر المتوسط . (المحقق) .
- (٢) احتلت إيطاليا ليبيا فى سنة ١٩١٢ بعد هزيمة تركيا فى الحرب التركية الإيطالية ١٩١١/١٢ ، ونالت ليبيا استقلالها سنة ١٩٥١ .
- (٣) احتلت فرنسا المغرب سنة ١٩١٢ واستقلت سنة ١٩٥٦ . (المحقق) .

« متوال Mutwal في ٢٨ سبتمبر ١٨٨٣

عزيزي مستر برودلي

بالرغم من انني قد وعدتك بأن أحرر لك خطابا بالانجليزية خلال ستة أشهر ،
فانني أحرره الآن رغم أن هذه المدة لم تنقض بعد ، ولكنني اطلعت على خطابك الى صديقي
عراي فوجدتك تخبره فيه أن يطلب مني أن أحرر لك خطابا كما سبق أن طلبت مني .
انني اكتب اليك هذه السطور القليلة لترى ما اكتب . أنا الآن على خير مايرام ، وأرجو
أن يكون حالك كذلك أنت الآخر ، وأنا سعيد أن أعرف أنك لم تنسني .

أنا دائما

صديقك المخلص

محمود سامي «

بينما كتب لي يعقوب سامي ، الذي كان وكيل نظارة الجهادية وقت
أن كان عراي ناظرها :

« ويفرتوي هاوس Wavertree

جزيرة سليف Slave Island

كولومبو في ٢٠ سبتمبر ١٨٨٣

سيدي العزيز

أود أن أخبرك في هذه السطور القليلة أنني لم ألق منك أي خطاب منذ فترة
طويلة . أنا الآن أدرس القليل من اللغة الانجليزية ، معلمى اسمه « أبو سالي » وهو
يعمل بالحكومة ، ويقوم بالتدريس لي ساعتين فقط في الصباح . انه ليسعدني أن أطمئن
على صحتك لذلك أرجو أن تتكرم وتبعث لي بخطاب بالانجليزية يطمئني عن صحتك .
التي لا اتحدث الانجليزية بعلاقة ولكنني اتحدثها قليلا . هذا هو خط يدي حررت به
خطابي هذا لتطلع عليه ، وقد أرفقت مع خطابي خطابا من ابنتي كتيته أيضا بالانجليزية
وبخط يدها . انني في صحة جيدة وكذلك أسرتي في صحة جيدة هي الأخرى .

انني ،

صديقك المخلص

يعقوب سامي

١٠ م . برودلي المحترم .

تحت عنوان « الخديو والعصاة » أيد فيه بصراحة أن يعامل العصاة معاملة حازمة على اعتبار أن ذلك إجراء ضرورى ومناسب لحفظ كرامة الخديو فى المستقبل . وجاء فى خطاب سير صمويل : « ان أوروبا والعالم أجمع ليساركون فى التصفيق الذى هو خليق بمهارة واستراتيجية سير جارنيت ولسلى Sir Garnet Woaseky (١) التى لا تعرف التردد . ان السؤال الذى يثار الآن هو « ما هو مصير عرابى والزعماء العصاة ؟ » ان من يتحدون القانون يجب أن يتحملوا العقوبة التى يحددها القانون وبدون أى استثناء لما تقتضيه هذه الضرورة الرادعة . . . لن يكون هناك ما هو أخطر على المصالح الحقيقية لمصر من أن ننصح بالاعتدال فى معاملة المهزومين . وفى العقلية الشرقية أن الرأفة دليل على الضعف ، ويجب أن يتعلم المصريون بالمثل الرادع الذى لا هوادة فيه ، أن الخديو هو الرئيس الشرعى وأنه يمثل حكومة مصر وأن العصيان على سلطانه هو الخيانة العظمى ، وأن عقوبة الخيانة العظمى ستوقع دون ما اتاحة لفرصة تأجيل تنفيذها أو العفو عنها ، واذا كان عرابى وزعماء العصيان الأخير (٢)

(١) هو فائد إيرلندى من قادة الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٨٢ ، لم تكن له اية مهارة عسكرية ، حارب عرابى فى معركة القصاصين وكسبها بطريق غير مشروع ، اذ قبل بدء المعركة كسب بالرشوة البدو لجانبه ، كما كسب لجانبه ايضا أحد قادة عرابى وهو الخائن على بك يوسف خنفس الذى سرق التخطيط الذى خطه عرابى بنفسه للمعركة واصلها الخائن لولسلى مقابل خمسة آلاف جنيه انجليزى مزيفة ، وكانت قوة المصريين ١٨٠٠٠ جندي والقوة الانجليزية ٢٥٠٠ جندي ومعهم الدون كونوى Duke of Connaught وكانت الخطة المصرية أن يقود الخائن على يوسف وسط الجيش المصرى ويتقدم فيسحق الجيش الانجليزى ويأسر الأمير ، فبعد قبضه للرشوة المزيفة ترك الخائن ميدان القتال فهيا الفرصة لكسر جناحى الجيش المصرى ، فكانت النتيجة هزيمة العرابيين . ومما ينهض دليلا على مدى احكام التخطيط المصرى للمعركة ، أما سير تشارلز ويلسون Sir Charles Wilson (القنصل الانجليزى فى مصر) لما زار عرابى فى السجن أثنى على خطته فى المعركة (وكان قد علم بسرقتها منه) ، وقال له لو أنها نفذت لهزم الجيش الانجليزى أيضا هزيمة .

ومع ما ذكرناه من اجراء غير مشروع قام به ولسلى ، الا أننا لا نهضه حقه فى أن كانت له مؤلفات عسكرية منها : دليل الجيب للجندى Soldier's Pocket IBook و نابوليون Napoleon (١٨٩٥) ، وترجمة ذاتية Marlborough (١٨٦٩) فى جزئين عنوانها ، قصة حياة جندي The Story of a Soldier (١٩٠٣) (المحقق

(٢) عبارة « العصيان الأخير » أراد بيكر أن يذكر بها أن كان هناك عصيان سابق لهذا العصيان تمثل فى مسيرة الجيش بجميع فرقه الرابطة بالقاهرة ، بقيسادة عرابى ، الى ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ (فى عهد الخديو اسمعيل) مطالبة بتحقيق مطالب الجيش والامة : صرف برواتب الجيش المتأخرة وبلاغ عسداد الجيش الى ما هو محدد فى فرمانات السلطانية وهو ١٨٠٠٠ جندي ، وعزل نظارة رياض باشا وتعيين شريف باشا

سيحاكمون أمام محكمة عسكرية ويعاقبون ، فانه لا جدال في أن هذا من سلطة الخديو ، ويشترط أن يساندها لمدة لا تقل عن اثني عشر شهرا ، جيش احتلال بريطاني كاف » .

وما كدت أنتهى من قراءة وجهة النظر الدراكونية (١) . هذه فيما يتصل بقضية « عرابي » وصحبه ، حتى وصلنى خطاب ، فنحيت الجريدة جانبا لأقضى الخطاب ، كان الخطاب الذى تلقينته من مستر آلجرتون بورك Mr. Algernon Bourke (٢) ، وكان يحوى العرض الذى لم أكن أتوقعه أبدا وهو أننى يجب أن أتوجه فورا الى القاهرة على نفقة مستر ويلفريد سكوت بلنت Mr. Wilfre Scawen Blunt (٤) ، وطبقا لتعليماته ، للدفاع عن « العصاة » الذين نصب لهم سير صمويل بيكر المحكمة وأدانهم ونفذ فيهم أحكامه نظريا طبقا لقانون صارم .

فى هذا الوقت كان عرابي أسير حرب احتجزته القوات البريطانية ، اذ بعد دخولها العاصمة المصرية سلم عرابي نفسه وسيفه الى الجنرال لو General Lowe دون ما اراقة للدماء ، وفعل صديقه ورفيقه طلبه باشا مثلما فعل ، وعقب تسليمهما تولى حراستهما بعناية جنود بريطانيون

« الخواطر الدينية ضد الرقابة الثنائية ، ويخلص منه الخديو قبل أن تبدأ محاكمته ، وتنفيذا فورا ، فاجبيت ، فهل يعتبر هذا الاجراء الوطنى السليم عصيانا ؟ - (المحقق) .

(١) الدراكونية : نسبة الى دراكون Drakon المشرع الاغريقى الذى عاش فى القرن السابع ق م ، والذي اشتهر بقوانينه الصارمة - (المحقق) .

(٢) كان « آلجرتون بورك » عضوا بمجلس العموم البريطانى ، وكان يلعب اسدفاؤه ب Button (البرعم) وكان صديقا حميما ل بلنت Blunt لقربتهما من ناحية ثم لتقارب أعمارهما ، وكان من المهتمين بالقضية المصرية ، كان يعمل بجريدة التايمز Times لا كواحد من محرريها بل كضابط اتصال بين شينرى Chenery رئيس تحريرها وقتذاك والشخصيات السياسية التى كان يعرفها جميعها الى جانب معرفته التامة بدنيا المال ، والمجدير بالذكر أن عمه هو لورد روبرت بورك Lord Robert Bourke الذى كان زعيم المعارضة فى البرلمان الانجليزى ووكيل خارجيتها آنذاك . (المحقق)

(٤) كان « بلنت » سياسيا انجليزيا نشيطا وشاعرا ، بعد أن خدم فى السلك الدبلوماسى البريطانى لأحد عشر عاما (١٨٥٨ - ٦٩) شغلته القضايا المناهضة للإمبريالية ، ثم زاد اهتمامه بالصراعات الوطنية فى مصر والهند وأيرلندا . كان من أشد المؤيدين لعرابي وقضيته الوطنية المصرية ، بل انه كلف المحامين الانجليزين المشهورين : برودلى Broadley ونايپير Napier بالتوجه الى مصر على نفقته الخاصة للدفاع عنه ، وكان له انتاج فكرى تمثل فى ديوانى شعر : سونيتات حب بروتيو Tove Sonner of Proteus (١٨٩٠) وايستر Esther (١٨٩٢) ، كما ألف كتابا سياسيا يعد احسن ما كتبه من مؤلفات بل ويعد مرجعا فى تاريخ مصر السياسى ، عنوانه : التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر Secret History of the English Occupation of Egypt (١٩٠٧) (المحقق)

وأودعا غرفة من الغرف السفلية في قصر عابدين ولا شك أن استسلام عرابي الفوري قد أثار دهشة الجمهور البريطاني (١) ، إذ كان من المتوقع ، بكل تأكيد ، أن تكون هناك محاولة أخيرة ، لفترة ، للمقاومة أمام القاهرة ؛ وأنه ؛ حتى لو كان كل شيء قد فقد في التل الكبير ، فلربما كان من السهل عليه تدمير الاتصالات التلغرافية وإطالة عمليات القتال في أعالي الصعيد ، أو كان في استطاعته - في سهولة ، أن يحتفى (مثلما فعل بعض من أتباعه) عبر قفار الصحارى الليبية أو يلجأ إلى الأنعيم القوي « محمد السنوسي » على الحدود الجنوبية لطرابلس الغرب * عندما

(١) كان اجراء حكيما من عرابي أن استسلم على الفور : إذ أنه ظهر يوم الهزيمة (١٣ سبتمبر ١٨٨٣) كان أعضاء المجلس العرفي مجتمعين منذ ساعات طويلة في قصر النيل انتظارا لأبناء المعركة ، وبينما هم جلوس حضر عرابي وفي صحبته على الروبي ، وعقد اجتماع حافل للمجلس ضم أعضاء المجلس العرفي وبعض الأمراء والكبراء ، وشرح لهم عرابي أسباب الهزيمة ، ثم استشار الحاضرين فيما يجب عمله هل الاستمرار في المقاومة أو التسليم ، وكان الرأي الذي استقر عليه المجلس هو إنشاء خط دفاعي في ضواحي العاصمة . وتنفيذا لهذا الرأي ذهب عرابي إلى العباسية بصحبة محمد مرعشلي باشا باشمهندس الاستحكامات ومحمد رضا باشا قائد لواء الفرسان واللواء حسن باشا مظهر لاختيار الموقع الملائم لخط الدفاع ، وطلب من مرعشلي باشا وضع تصميم لإنشاء خط دفاعي أمام المطرية شرقى عين شمس ليمتد إلى الجبل وشمالا إلى ترعة الاسماعيليه ثم ينقطع إلى النيل عند قم رباح ترعة الاسماعيليه بالقرب من شبرا * ثم ذهب عرابي ومن معه إلى مركز الطوبجية ، فلما استعرض العساكر الموجودة هناك لم يجد الا ألف رجل من خفراء البلاد بلا ضبط ، ونحو أربعين نفر سوارى في مركز عساكر الخيالة مع أحمد بك ، فلما شاهد عرابي ذلك علم أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من ويلات الحرب والدمار . فلما رجع عرابي ومن معه إلى المجلس العرفي يقصر النيل ، أخبر الحاضرين بما شاهده ، فاستقر رأي الحاضرين على التسليم وكتابة عريضة إلى الخديو يلتمسون فيها المفو عنهم ، ويقدمون له الخضوع ويعتذرون عن أفعالهم الماضية فحرروا العريضة وأمضاه عرابي ومن معه وأرسلوها مع وفد مؤلف من رهوف باشا حاكم السودان وبطرس غالى وكيل الحقاية وعلى باشا الروبي ويعقوب سامى باشا وكيل الجهادية . فلما وصل جيش الاحتلال القاهرة كان عرابي وصحبه مجتمعين في دار على فهمى باشا ، الذى كان لا يزال جريحا ملازما بيته بعد اصابته في معركة القصاصين ، فتلقى عرابي برقية من قائد العباسية يخبره فيها أن القاهدين الانجليزى يطلب منه تجريد الجنود من أسلحتهم ، فأمره عرابي بالتسليم . ولما انفض الاجتماع خرج عرابي بصحبة طلبة باشا ومحمود سامى باشا البارودى متجهين إلى ثكنات الجيش فى العباسية ، بناء على نصيحة جون لينه الفرنسى الذى كان معهم عند زيارتهم لزميلهم الجريح ، على أنه لم يتوجه إلى الثكنات الا عرابي وطلبة عصمت ، وقابلا القائد الانجليزى وسلموا سيفيهما ، فامر باعتقالهما باحدى غرف الثكنة ، ثم سارت كتيبة من الفرسان الانجليز ليلا إلى القلعة عن طريق الجبل واحتلتها ثم احتل الانجليز بعد ذلك ثكنات قصر النيل وقشلاق عابدين ، ثم احتل الانجليز بعد ذلك مواقع الدفاع الأخرى دون مقاومة (انظر الرافى : أحمد عرابي : ص ص ١٩٣ - ١٩٧) - (المحقق) *

وصلت لندن أولى أنباء أسره لم يكده يصدقها أحد ، بل ان جامعى المانشستات التى تشده القارىء فى الصحف المسائية أسبقوا النبأ ، بثاقب وعيهم ، بكلمتى « أشيع » أو « روى » ، بل ان باعة الصحف رغم قلة حرصهم (وكانت بضاعتهم لها رواج مثمر لم يسبق له مثيل) كانوا حريصين على اغفال ذكر ذلك الجزء من الأنباء عند نداءهم على جرائدهم للجمهور المتحمس للحرب والمؤيد لها ، ومع ذلك ، فلقد كان صحيحا تماما أن عرابى أسره ، وأن الخديو حليف بريطانيا المخلص ، وندماء دموى الأخلاق مشغولون الآن بالاسكندرية ليرتبوا بأسرع ما يمكن لأسلاك التليفونات التى أعيد اصلاحهم ، أن تسعفهم بها - أن يرتبوا حملة واسعة الانتشار ، للاتصال بأهم أصدقاء الخديو والمتعاطفين معه ، لتكون بمثابة حملة استهلال لدخوله مظفرا الى القاهرة - « المدينة المنصورة » .

ولم يكن عرابى أسيرا فحسب . بل كانت حياته أيضا فى خطر . لقد كان أول تعبير عن رأى الشعب الانجليزى فى مصير عرابى - وقد أعلنه وسط فرحته المفاجئة بالنصر - كان تعبيراً لم يكن خليقا بالانجليز : اذ سمعنا للحظة فقط عن الضرورة القصوى للانتقام منه وانتهاز هذه الفرصة السانحة وايقاع العقوبة عليه ليكون عبرة . هذه العبارات مع غرابة التفوه بها ، غالبا ما كانت تصدر من أفواه رجال يؤمنون بالعقيدة السياسية التى يدعونها هم أنفسهم العقيدة الليبرالية Liberal Creed (١)، وقد وردت تلغرافات غزيرة ومتلاحقة من مصر تحمل نفس هذه النغمة وعقد مراسلو الصحف المتحمسون لقاءات مع توفيق وشريف ورياض ليتعرفوا على وجهات نظرهم فى معاملة المهزومين ، فكانت اجاباتهم موحدة - حياة عرابى يجب أن تكون ثمنا لفشله ، عرابى وصعبه يجب أن يموتوا .

وللحظة وللحظة فقط ، بدا كما لو أن المبدأ الدموى هو الحل الملائم والذى ارتضته الغالبية ، ومع ذلك فما لبث أن ظهر رد فعل لهذا الاتجاه ، وكان أساسا رد فعل قام به رجل واحد هو مستر بلنت Mr. Blunt . لم يكن بلنت خجلا على الاطلاق من أن يدعو « العاصى »

(١) ونسوق مثلا لهذا ما كتبه سير جوليان جولد سميث Sir Julian Goldsmid يوم ٢٦ سبتمبر اذ قال : « اذا كنا قد سلمنا زعماء الثورة الى الخديو ، فمن الواضح أن الواجب يقتضى أن يترك له معاقبتهم نظير جريرتهم طبقا للقانون المصرى ، ونتيجة لذلك ، فمن واجبا ألا تتدخل فى الحكم الذى لا شك أنه سينفذ على عرابى وعلى غيره من الزعماء الرئيسيين فى أية دولة أوربية ، وهو حكم الاعدام ٠٠٠ وفى الشرق ، ينظر الى الرافعة على أنها ضعف وتدعو آخرين الى اقتراح مخاطر متهورة فاشلة ، ولذلك فالننى أحث الى أنه ينبغي ألا ندع فرصة لاحساس بعطف أو شفقة أو رحمة أن تتسلل وتعوق تنفيذ حكم الاعدام » .

عرايى صديقه وأنه خلال المراحل المبكرة للحركة الوطنية فى مصر كثيرا ما كان يقدم له المشورة والنصح ، ولكن كان كل ذلك فى الوقت الذى كان فيه مستر جلاستون Mr. Gladstone لا يزال يؤمن بشرعية مطامح المصريين . لقد تعلم مستر بلنت وزوجته خلال تجولاتها وسط خيام سوريا والجزيرة العربية أن يحبا ويقدرا الجنس العربى ، وقد تعاطفا مع عرايى لأنها كانا يعتبرانه قائدا أميناً لشعب مظلوم يناضل من أجل الحرية . ان الخطر الوشيك الذى يتهدد عرايى الآن قد استوجب سخط واحتجاج مستر بلنت البليغ ، وما لبثت أنى وجدت استغاثته صدى . لم يطالب مستر بلنت الا بأن محاكمة عرايى يجب أن تكون محاكمة عادلة ولما كان الرأى العام الانجليزى كريما دائما ، فانه أيد فى هذه القضية مطلب مستر بلنت - قد يكون عرايى مذنباً ولكن يجب أن يسمع دفاعه قبل النطق بمصيره ، وما لبث دعاة اغتنام الفرص أن وجدوا أنفسهم قلة ، وبدأت الصحافة كلها تقريبا ، تصرخ حائرة على محاكمة منصفة وبحث . متقص .

(١) كان من بين الشخصيات القيادية فى حركة الإصلاح الليبرالى فى انجلترا فى القرن التاسع عشر . كان الابن الرابع لتاجر اسكتلندى يتجر فى تجارة الرقيق جمع منها مالا وفيرا وبخاصة أثناء حروب نابليون . تلقى جلاستون علومه فى اينون Eton واكسفورد Oxford . ودخل البرلمان فى سنة ١٨٣٢ ، متجاهلا بذلك رغبة الأسرة فى أن يكون قسيسا انجليكانيا .

شغل وظيفة بسيطة فى أول وزارة رأسها سير روبرت بيل Sir Robert Peel فى سنة ١٨٣٨ ، وفى سنة ١٨٥٣ شغل منصب وزير الخزانة فى الحكومة الائتلافية التى رأسها إيرل أبردين Earl of Aberdeen . وكان فى مساندة جلاستون لتحرير التجارة والمشروعات ما حرر الصناعة والتجارة من الاجراءات التى كانت تكيلها ، وبأسلوبه الفتح عهدا لم يسبق له مثيل من الرخاء القومى .

كان جلاستون مؤمنا بأن حرية العبادة وحرية التعبير مصاحبتين وملازميتين بحرية التجارة والمشروعات وأن ضمير الفرد يجب أن يحل محل سلطة الكنيسة والدولة ، ومن هذا المنطلق الليبرالى قبل جلاستون أن يعمل فى سنة ١٨٥٩ فى وزارة لورد بالمستون Lord Palmerstone رغم كراهيته له شخصيا وعدم ثقته فيه . وقد بدأت شعبية جلاستون فى الظهور بمخاطبته طبقه البروليتاريا على أنهم أسمى من يقدر القيم الأخلاقية .

وبعد وفاة بالمستون فى أكتوبر ١٨٦٥ خلفه فى رئاسة الحزب الليبرالى إيرل راسل Earl Russel ثم خلفه بعد ذلك فى رئاسة الوزارة ، وما أن اعتزل السلطة فى ديسمبر ١٨٦٧ حتى تولى جلاستون رئاسة الحزب وبعد ذلك شكل أول وزارة له . وعقب رئاسة جلاستون للحزب الليبرالى اهتم بقضايا البلاد وفى مقدمتها المشكلة الأيرلندية ، وبعد نجاحه فى كثير من الإصلاحات ، حارب من أجل الدخول فى معركة الانتخابات فى سنة ١٨٧٤ ، ونجح فيها ، وأسندت اليه رئاسة الوزارة أكثر من مرة ، وتوفى فى مايو ١٨٩٨ عن سبعة وثمانين عاما - (المحقق) .

ولم يحصر مستر بلنت جهوده في كلمات فحسب ، بل عقد عزمه ليس فقط على أن يتحمل وحده ، اذا لزم الأمر ، كافة مصاريف الدفاع عن أصدقائه المصريين ، بل وألا يضع حداً أياً كان للنفقات التي افترض أن يتجشمها . وفي هذا الوضع الحرج للأحداث وقبل أن يهيب بالحكومة وبالجمهور مطالباً بضمان محاكمة عادلة ، عرض على ، من خلال صديقنا المشترك ، مستر بورك ، أن أتولى قضية الدفاع عن عرابي . ربما كان هناك رباط قوى من الوحدة فيما بيننا قد يكون مسئولاً الى حد ما عن هذا العرض المغري غير المتوقع : فقد كنا كلانا متفهمين تقريبا فيما بيننا لقضية عرب شمال افريقيا ، وكنا كلانا نؤمن بكل تأكيد بأن قضيتهم قضية عادلة ، وكنت قد كرست نفسى منذ شهر فبراير ١٨٨١ المهمة تأريخ مسيرة العدوان الفرنسي على تونس ، وقيمت بما تمليه على مهنتي بالدفاع عن مسيو ليفي Mr. Levy في القضية التي كادت تنسى الآن وهي قضية النفيسة Enfida (١) وعن الراحل باي تونس محمد الصادق ، خلال الرحلة العنيفة للغزو الفرنسي التي سبقت قبوله لقيام جمهورية تحت الحماية . وخلال صيف العام الماضي (١٨٨١) نشرت بيانا تفصيليا عن الغزو الفرنسي لولاية تونس Tunisian Regency (الاستيلاء على قرطاج Carthage طبقا للتعبير الدبلوماسي لمؤتمر برلين) تحت اسم « آخر اسم حرب بونيقية » . والعلاقة القائمة بين الأحداث الراهنة في تونس وتلك الأكثر حداثة في مصر علاقة وثيقة ، وظهرت الحركة الوطنية في مصر ، بسرعة ، في أعقاب تقدم العدوان الفرنسي على تونس ، ولم تمض الا فترة وجيزة فقط قدرها اثنا عشر شهرا بين قصف « صفاقس » وضرب « الاسكندرية » بالمدافع ، بل كادت تتماثل آمال ومطامح وأخطاء وأحزان عرب شمال افريقيا في تونس وفي مصر . ولا بد لي من أن أعترف الآن أنني أحس بأنه من الصعب على الرد على نقد أصدقائي الفرنسيين عندما يسألونني في خبث عما اذا كنت لا أزال أعتقد أن غارتهم على تونس كانت

(١) هي قطعة أرض ، كانت مساحتها مائة ألف فدان ، تقع ما بين « تونس » و « سوسة » ، وكان « الباي » قد وهبها ل « خير الدين » ، فلما أقصى الأخير عن الحكم ، باع هذه الأرض الى الشركة المرسيلية (من رعايا فرنسا) في نوفمبر ١٨٨٠ ، وذلك قبل رحيله الى « تركيا » ، فلما علم بذلك « ليفي » (وهو يهودي من أصل تونسي) ، وكانت أرضه مجاورة لها ، طالب بحق الشفعة في شراء تلك الأرض ، وما زاد القضية تعقيدا أن « ليفي » كان قد يجنس بالجنسية البريطانية ، فطلب مساعدة بريطانيا له ، فأيده قنصلها ريد Reed وتولى الدفاع عن القضية المحامي الريطاني « برودى » وكسبها ، وبذلك انتصر القنصل البريطاني على زميله روستان Rousian القنصل الفرنسي - (المحقق) .

فى الواقع « آخر » حرب بونيقية أم أننى اقترح تعديل كلمة « آخر » الى « قبل الأخيرة » .

كنت على أهبة العودة مرة أخرى الى تونس عندما تلقيت عرض بلنت ، ولم أضيع وقتا فى الذهاب لمقابلته بخصوص الموضوع . كان عملى فى تونس قد منعنى من أن أتابع متابعة وثيقة المراحل المبكرة للأحداث فى مصر ، وأستطيع أن أؤكد لقرائى أننى لم تكن لدى وقتها أفكار سابقة أو تعاطف شديد لصالح موكلى المقبل لم أكن أو من إيماننا كبيرا فى مقدرة عرابى أو فى دوافعه الوطنية ، ولم أكن قد تخلصت تماما من انطباعى المضاد عنه ، انذى كاد أن يكون نتيجة حتمية لما ألتهمة يوميا من جرعات كبيرة من مراسلات خاصة معادية . عندما التقينا مستر بلنت وأنا عصر يوم ١٩ سبتمبر ، حثنى مستر بلنت بما وهبه الله به من نشاط ، على أن أتوجه الى مصر فورا فى مهمة أرادنى أن أضطلع بها . أما عنى أنا ، فقد فكرت على التقيض من ذلك ، فكرت أنه سيكون أكثر فائدة للقضية وأكثر تمشيا مع رسميات مهنتى أنى أحاول الحصول على مقدم أتعابى مباشرة من عرابى قبل أن أتوجه الى القاهرة . لم يكن جام غضب بريطانيا (الذى كان أثناء تقدم العمليات العسكرية فى مصر يزداد توقدا بوجه عام) يعرف الرحمة . اننى أعتقد الآن انه لم يكن من الانصاف أن تنهال على مستر بلنت ما انهال عليه من حملات صورته بأسلوبها الصحفى على أنه « الحليف الانجليزى لعرابى » ، بل ان نبىلا لوردا ، وصنف بلنت ، فى براعة ، فى معرض نقاش وقور فى مجلس اللوردات ، بأنه « ليس الا » عرابيا آخر يرتدى سترة انجليزية رسمية » . لقد أحسست أن قبولى لمقدم أتعابى من عرابى نفسه سيحسن ويعزز وضعى فى مصر ، ويتيح لى فى الوقت نفسه بأن أطالب بصورة أفضل بكل قوة تعاطف الرأى العام أكون فى صالحه . وبعد تشاور طويل ، وافق مستر بلنت على اتباع الأسلوب الذى اقترحته ، وتم الاتفاق على أننى يجب أن أتوجه فورا الى تونس ، وهناك ، فى منتصف طريقي الى مصر ، انتظر وصول مقدم أتعابى الذى طلبت الحصول عليه ؛ وفى الوقت نفسه كتب مستر بلنت الى عرابى الرسالة التالية التى تشرح كل خطئه :

٢٢ سبتمبر ١٨٨٢

الى عرابى باشا

الهم احفظك فى الضراء والسراء . أنت كجندى ووطنى . ستدرك الأسباب التى حالت بينى وبين الكتابة اليك أو ارسالى أية رسالة لك خلال الحرب التعيسة الأخيرة ، والآن ، أما وقد انتهت الحرب ، فأننى آمل أن أوضح لك أن صداقتنا لم تكن مجرد كلمات فحسب ، اذ يبدو من المحتمل تقديمك للمحاكمة اما بتهمة العصيان أو بتهمة

اخرى غيرها ، طبيعتها لم أعرفها بعد ، وما لم يكن الدفاع عنك دفاعا قويا وبارعا فستواجه الكثير من المخاطر بأن يجعل بالحكم عليك ، ولذلك ، فقد قررت ، طبقا لموافقتك ، ان احضر الى القاهرة لاساعدك بكل ما يمكنني ان أقدمه من أدلة ، وسسرافقتي محام انجليزى ، أمين وعالم ، ليتولى الدفاع عنك ، وقد أحطت علم الحكومة الانجليزية بمقصدي ، ولذلك ، أرجوك ، بدون ما تأخير ، ان توضحني بأن أتولى هذا الأمر نيابة عنك ، لأن موافقتك الشكلية ضرورية ، وسيكون من الأفضل لو بعثت لى بتلغراف وان تبعث لى أيضا بخطاب توضحني فيه ان أعين محاميا باسمك • ان كثيرين من الانجليز من ذوى العقلية الليبرالية من ذوى المناصب الرفيعة سيشاركوننى فى تحمل كافة مصاريف القضية ، وتستطيع ان تعتمد على شخصيا لتعلم ان أسرتك ، طوال فترة أسرك ، لن تترك فى عوز • والى لأرجو الله ان يمنحك الشجاعة على تحمل الأذى بالصبر •

و • س • ب •

[هذه الرسالة لم تصل عرابى على الاطلاق ، ويبدو أنها ضلت طريقها دبلوماسيا •]

الفصل الثانى

لقاء فى آسنيير Asnières على نهر السين

بعد ذلك بيومين ، غادرت لندن متجها الى تونس ، وكان اهتمامى بالشئون المصرية قد زاد ، بطبيعة الحال ، الى حد ما ، لاحتمال (ولم يكن بعد الا احتمالا) أن أتولى الدفاع عن عربى ، وأثناء اقامة قصيرة لى فى باريس ، توجهت لزيارة خديو مصر السابق ، وقد كان مقيما وقتها فى حى مجاور لمكان اقامتى ، وقدمت له خطابا من ابنه الأمير ابراهيم يقدمنى له . ولقد سررت بالغ السرور من حديثى مع اسماعيل باشا ، رغم أن حديثه لم يشجعنى كثيرا بالنسبة لمهمتى المقبلة فى البلد الذى كان هو فيه يوما ما أعتى حكامه . وقت زيارتى له ، كان يقطن فيلا سورها أبيض تطل على نهر السين Seine عند آسنيير . ولم يكن القصر الذى ينزل به يميزه عن غيره من القصور أمثاله فى شارع سانت دينيس Rue St. Denis ، وكان رقمه من بينها رقم ١١٨ ، سوى أنه كان معروفا بأنه القصر ذى الشرفة Château de la Terrasse ، وكان مالكه ميسيو آرثور Mr. Arthur ، وقد أثنى السمسار بأزهى طراز من التنجيد الفرنسى الحديث . وقد استخدم هذا القصر لأكثر من مناسبة كماوى مؤقتا للملك أقصوا عن عروشهم . وكانت ساعات الحائط العديدة والأواني المعدنية المكفنة والزهور الصناعية والستائر المتعددة الألوان وستائر الأبواب Portières ، تذكر المرء فى آن واحد بقصور القسطنطينية وبشارع وردور Wardour بلندن ، ولكن كان لها ما يعوضها الى حد ما من حديقة ظليلة ومشهد لنهر منعطف تحتها . استقبلنى اسماعيل باشا فى صالون من صالونات الطابق الأول ، صورة طبق الأصل من الغرف التى تحتها ذات الزخارف الزاهية . كان اسماعيل باشا يحمل

سنوات عمره الاثنى عشر والخمسين في صحة جيدة ، وكان شعره الخفيف قد بدأ يخطه اللون الرمادى ، وهو لا يزال يرتدى الطربوش التركى كما كان يرتديه من قديم الزمان ، وكانت لحيته الصخرة (١) قد قصرت كثيرا وشذبت بعناية ، وكان قد ازداد بدانة بعض الشيء منذ نكباته ، وكان فى الامكان ملاحظة هذا النخير أكثر بسبب قامته التى لم تزد عن خمس أقدام ، وكان لا يزال حريصا على ارتداء معطف الفروك Frock Coat الذى لا يتخلى عنه ، وكان يلبس دبابيس وزراير مرصعة بالجواهر . كان اسماعيل باشا يتحدث الفرنسية بسرعة ومع الكثير من الایماءات الفرنسية ، وكان دائما يغلق إحدى عينيه عندما يكون منتعشا . كان همدوءه وأسلوبه الجليل يشهدان كلا الاهتمام والتعاطف ، ويبدو أنه كان مشوقا لأن يتحدث بالتفصيل عن مجنة مصر ، وأبدى رأيه فى كل النقطة التى توقفت بصراحة وبدون أدنى تردد أو تحفظ . لقد بدأ حديثه بملاحظة أن ما أدهشه هو أن ينظر اليه الآن فى انجلترا نظرة حاكم متهم بتعصيده المصالح الفرنسية فقط طوال حكمه فى مصر . وقال : « لقد كان كل شىء انجليزيا يوما ما فى مصر ، وكان الرجل الانجليزى على رأس كل مصلحة تقريبا ، وقد استمر هذا الوضع حتى قدوم مستر كيف Mr. Cave (٢) ، وكان مستر كيف وانجلترا يرغبان فى تعاون فرنسا ومشاركتها ، وفى النهاية حصلت انجلترا على أكثر مما أرادت من تعاون ومشاركة فرنسية ، ولكن كان الخطأ خطأ وحدها وليس خطئى أنا » .

وفى حديثه بوجه عام عن الرقابة الشنائية ، علق بعد ذلك قائلا :
« كانت الفكرة فى الأصل ممتازة ، ووافقت عليها على الفور ، وكان من الممكن أن تعمل الرقابة على خير ما يرام وبصورة مرضية جدا ، لو أن

(١) الصخرة Cluburn (بضم الصاد وتسكين الحاء) السمرات النحاسية (المحقق)
(٢) كان « كيف » عضوا بالبرلمان الانجليزى ، أوفدته حكومته فى سنة ١٨٧٥ على رأس بعثة من المالىين ، تلبية لطلب الحديو اسماعيل الذى أوعز به الى قنصل انجلترا العام مستر ستوتون Mr. Stauten ، لدراسة الحالة المالية فى مصر ، أملا فى اعادة ثقة البيوت المالية الأوربية فى مصر ، خاصة بعد شراء انجلترا لأسهم مصر فى قناة السويس . ولم يلجأ اسماعيل ، كمادته ، فى أداء هذه المهمة الى فرنسا نظرا لطروجه من حربها مع ألمانيا (التى بدأت سنة ١٨٧٠) منهوكة القوى . وقد قدم « كيف » تقريره الذى أوضح فيه سوء الحالة المالية فى مصر التى كان من بين أسبابها القروض المتوالية والاسراف فى حملات حربية لا فائدة منها ، واقترح كشرط ضرورى الى اصلاح انشاء رقابة مالية بحرم الحديو قراراتها ولا يعقد قرضا الا بموافقتها . ولما علمت فرنسا بذلك أوفدت أحد موظفيها المالىين مسيو فيله Viller لمساعدة الحديو اسماعيل على تنظيم مالىته وحتى لا تنفرد انجلترا بالتدخل فى شئون مصر . (المحقق)

المراقبين حصروا حماسهم واهتمامهم فى اختصاصاتهم المالية ، ولكنهم كانوا من الوهلة الأولى ، وكلاء سياسيين فى كثير أو قليل ، وكانوا يريدون أن يحكموا البلاد بالاضافة الى ادارتهم لايراداتها . لقد كان الموظفون الفرنسيون يتدخلون دائما فى شئوننا الداخلية أكثر من زملائهم الانجليز بالدرجة التى دفعتنى مرة لأن أقول لنا بليون الثالث Napoleon III « ان ممثلكم يتدخل كثيرا فى شئون مصر حتى انه لا يترك لزميله الانجليزى فرصة ليتدخل بالمرة سواء رضى أو لم يرض » . وعندها صار المراقبون يفرضون تعيين أو تنحية القناصل العاملين ، خولوا لأنفسهم سلطة محفوفة بالخطر لها نتائج خطيرة فى المستقبل » . وكان اسماعيل باشا يعتقد أن النتيجة التى كانت متوقعة والننى أثرت على أذهان المصريين هى تعيين موظفين أوروبيين عديدين فى الوظائف الحكومية بصورة جاوزت التقدير . لقد كان الأسلوب الذى وزع به هؤلاء الموظفون الأوروبيون هو المسئول أساسا عما لحق بالبلاد من ضرر ، وقال : « لقد وضعت أنا الأوروبيين من كافة الشعوب فى مختلف فروع خدمات الادارة المصرية ، ولكنى كنت أراعى دائما الكفاءة الفردية العالية للمعينين . لم يشك أحد من هذا ، ولكن لما جاء الوقت الذى كان يعين فيه الأوروبيون جملة ، لا لشيء الا لأنهم أوروبيون » ومحميون « فحسب ، بغض النظر عن مؤهلاتهم الشخصية أو قدرتهم على القيام بأعباء الواجبات الموكلة اليهم ، عندئذ ، نظر الى الوضع بحق على أنه حيف بالغ الخطورة فعلا » .

ثم وصف اسماعيل الحركة الوطنية بقوله : « اننى لا أومن للحظة ، فى صدق أو مدى أو وطنية ما يطلقون عليه الشعور الوطنى بوضعه الراهن اليوم ، بالرغم من أن الوطنية المصرية الحقيقية قديمة قدم التاريخ . ان الجيل الحالى من الوطنيين المصريين جن جنونه لافتقاره الى زعيم قوى ، وفشل قضيتهم ما هو الا نتيجة طبيعية لضعف الحكومة المصرية من ناحية ، ونجاح المؤامرات التركية من ناحية أخرى . والوحدة الاسلامية ليست ابدا جديدا ولكنى لم أسمع عن نشاطها على الاطلاق . ومن وقتها ترك العنان لمختلف المشاورات ، ونحن الآن نواجه النتائج . كنت دائما أضع لى ترتيبي بوسيلة أو بأخرى ، كيف أتحكم وأوجه الحماس الدينى لرعاياى فى مصر ، ولكن عندما تأتى كلمة الأمر من القسطنطينية وليس من القاهرة ، يصبح الحماس الدينى تعصبا دينيا ، ومن ثم كان الوجود والتأثير والنجاح المؤقت لشخص فى وضع « عرابى » ، أمرا ممكنا . اننى أتذكر عرابى جيذا (١) . ان انطباعى عنه انطباع غير مرضى . يمكن

(١) لم يكن الخديو اسماعيل مغطئا فيما قاله ، لانه يذكر ل « عرابى » اشتراكه فى فورتين : اولاهما فى فبراير ١٨٧٩ ، وكان الباعث على شكواهم من تاخر روايتهم ،

تصوير « عرابى » فى كلمة يطلقها الفرنسيون وهى مخادع blagueur فهو يتكلم ولا يفعل الا القليل ، ولكن أشجع رجال حربه هما « على فهمى » و « عبيد العالم » ، فهما جنديان بحق ، ولكنى أشك اذا كان عرابى نفسه أو أى واحد منهم يمكن أن يعرف تعريفا ذكيا « الوطنية » أو « الشعور الوطنى » اننى مشدود كيف أن نصف أوربا تميل الى اعتباره المنقذ المنتظر لبلاده . ان الحقيقة هى أن الشعب المصرى يجب أن يتكىء على شىء ويتبع شخصا ما . لقد كانت الحكومة المصرية ضعيفة بصورة ميثوس منها ، وكان « عرابى » وصحبه يعرفون ذلك . لقد حقق هو وموالوه ثلاثة نجاحات واضحة وبارزة (١) ، وقد شهد المصريون هذا ، ورأوا أكثر من هذا أن ممثلى الدولتين العظميين ، من الناحية العملية يؤيدون له . لقد أشار عرابى ، فى انتصار ، الى هذه الحقائق ، وذكر للمصريين أن فى استطاعته أن يعيد وسيعيد مصر للمصريين ، ولم يكن غريبا ، فى مثل هذه الظروف ، أن يتمسكوا به على اعتبار أنه السفينة الأقوى . لقد كانت الحركة التى رأسها منذ البداية تلقى تشجيعا فعلا من القسطنطينية ، ولكن كان أمرا بعيد الاحتمال تماما أن كان السلطان نفسه أو أحد من نظاره المسئولين ، على اتصال مباشر اما به أو بأعوانه ، اذ ان الاتصال المباشر ليس مظهرا من مظاهر التآمر التركى ، لأن النتيجة المطلوبة يمكن أن تتحقق بدونه .

أما عن نظام الحكم الجديد فى مصر ، فكان رأى اسماعيل فيه واضحا كل الوضوح ، اذ ذكر أن مصر ستستقل عن الباب العالى ، وهو مؤمن بأن الحماية البريطانية ليست أمرا محتوما فحسب بل هى أحسن شىء لرفاهية

= وإحالة ٢٥٠٠ منهم الى الاستبداد ، فذهب نحو ٦٠٠ ضابط يتبعهم لفيى من طلبة مدرسة الجهادية ونحو ٢٠٠٠٠ جندى الى مبنى نظارة المالية بحجة مظلمتهم ، الى « نوبار » وسير ريفرز ويلسون Sir Rivers Wilson ناظر المالية ، فهجموا على « نوبار » واعتدوا عليه بالضرب ، واعتدوا على سير ريفرز ، وحبسوا نوبار ورياض (وكان وقتها ناظرا للداخلية) كما حبسوا أسير ريفرز ، وكان نتيجة هذه الثورة سقوط نظارة نوبار ؛ أما ثالثتهما ، فهى المظاهرة العسكرية التى توجهت الى سراى عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، وطالبت بعزل رياض وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية (١٨٠٠٠ جندى) ، وأذهن الخديو لمطالب الجيش ، فتولى شريف النظارة وشكل مجلس النواب ، ووصل عدد الجيش الى النصاب المحدد له بالفرمانات السلطانية . (المحقق)

(١) فى هذه العبارة إشارة الى مسيرة الجيش التى قادها عرابى الى سراى عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ (وكان اسماعيل لا يزال خديوى مصر) ، ونجحت فى تحقيق مطالبها التى انحصرت فى ثلاثة بنود : (١) عزل رياض باشا (٢) تشكيل مجلس النواب (٣) إبلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية (١٨٠٠٠ جندى) ، وقد تحققت هذه المطالب الثلاثة جميعها ، فعزل رياض وتولى النظارة بدلا منه شريف باشا ، وفى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ افتتح مجلس النواب ، كما وصل عدد الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى . (المحقق)

البلاد ، وفي اعتقاده أن الحماية ستعتمد أساسا على قوة الحكومة المحلية التي تدين للحماية بالتبعية . لقد كان هبوط المسعى والفوضى في تونس : النتيجة الطبيعية لحماية شيء وهمي . ان خديويي المستقبل يجب أن يحكموا بسلاح قوى ، ويتقبلوا تحمل المسؤولية الشخصية ، لأن النظار الذين يتحملون المسؤولية مازال من النادر وجودهم في مصر .

ان مجلس النواب يجب أن يستشار فقط في أمور الترتيبات الداخلية ، أما أن تعطيه سلطة الرقابة أو حتى التدخل في السياسات الخارجية فسيكون انتحارا له . وكان اسماعيل باشا يساوره قليل من الشك في أن حكومة قوية فعلا في مصر ستكون لديها اليوم فرصة أكبر للمنجاح في ظل حماية انجليزية حقيقية عن أن تكون تحت سيادة تركية وهمية وتحدث الخديو السابق ، بمرارة بالغة عن موضوعين آخرين - ابنة توفيق وعن مستقبل الامبراطورية العثمانية ، فقال : « من أجل توفيق قبلت البسط » وأذلت نفسى لسبعة عشر عاما أمام جلالة السلطان . لقد حصلت من أجله على الفرمان الذي كثيرا ما كنت أتمناه وهو أن تكون الوراثة مباشرة في فرعى ، ولكنه أظهر نفسه أنه خلو من العقل والقلب والشجاعة *ni tête, ni coeur, ni courage* ، وكل هذه الحصا متطلبة لحكم مصر . انه ابني ، ولا أقول عنه أكثر من هذا . ان أيام الامبراطورية التركية معدودة (١) . وقد استسلمت الخلافة ، اليوم ، في الحقيقة للنتائج المؤسفة لمؤامرة الوحدة الاسلامية ، ولا تلبث أن تلحق السلطنة بها . ان ما عجل بانهيائهما كليهما : الدبلوماسية الضعيفة التي ساعدت فرنسا على اثاره السخط في طرابلس الغرب Tripoli ، وكانت سببا في اراقة الدماء في مصر » .

(١) لقد صدقت نبوءة الخديو اسماعيل ، اذ لم تمض أكثر من أربعين سنة على حديثه مع « برودلي » حتى تحولت « الامبراطورية » العثمانية الى « جمهورية » تركية تحت رئاسة كمال أتاتورك Kemal Atatürk (١٨٨١ - ١٩٣٨) ، وكان حكمه ديمقراطيا ، ومن أبرز انجازاته أنه فصل بين الكنيسة والدولة ، والغى : (١) نظام تعدد الزوجات (٢) حجاب المرأة (٣) ارتداء الطربوش والملابس الوطنية (٤) الألقاب ، (٥) استخدام الحروف العربية واستخدم بدلا منها الحروف اللاتينية ؛ وأحبط الشيوعية ، وكان أول من طبق نظام أخذ احصائيات النفوس ، وطور الصناعة ، وبوجه عام ، جعل تركيا دولة غربية . (المحقق)

غادرت باريس فى اليوم التالى متجها الى تونس • وكانت زيارتى
لمصر التى تلت ذلك قد صححت لى أشياء كثيرة عرفتھا فى لقائى القصير
مع حاكم كان يوما ما حاكما ناجحا ، ولكنى ما لبثت أن وصلت الى نتيجة
مختلفة اختلافا واسعا عن وجهة نظره فيما يختص بطبيعة ومدى قوة تلك
المرحلة من المطامح الوطنية المصرية التى خلقت من « أحمد عرابى » زعيما
للشعب •

الفصل الثالث

من تونس الى الاسكندرية

بلغت تونس مبكرا صباح يوم ٢٧ سبتمبر ، وكان الوضع السياسي هناك قد طرأ عليه تغيير طفيف أو لم يطرأ عليه تغيير منذ أن غادرتها من ثلاثة أشهر مضت ، وكان مسيو كامبون Mr. Cambon الذي خلف مسيو روستان Mr. Rouston (١) ، يعتقد أنه من المناسب انتهاز سياسة تكاد تعتبر تحسينا للنشاط العسكرى لسياسة سلفه : اذ لجأ الى نوع من اللامبالاة المعوقة والمثيرة للفتن وذلك ليدفع بالقوتين (٢) الى امثال سريع لرغبته الشخصية ولرغبة حكومته فى الغاء الامتيازات الأجنبية - آخر مظهر متبق واضح لمصالحهما فى البلاد ، وفى الوقت نفسه ، ترك الأوروبيون والتونسيون بالمثل ليواجهوا فى أحسن صورة ممكنة نتائج البلبلة السائدة ، وينتظروا فى صبر : أفضل الأوقات التى وعدهم بها مسيو كامبون عندما تحكم الامبراطورية الفرنسية وحدها وتكون لها اليد الطولى فى البلاد . وكانت الصحف التركية (حتى نفس ليلة معركة التل الكبير : وطنية متعمدة المناادة بالوحدة الاسلامية) قد وصلت باسم وشهرة « أحمد عرابى المصرى » الى كل جزء من تونس التى صارت مؤخرا بعد غزوها ، تحت الوصاية الفرنسية ، لقد كان التونسيون يتضرعون

(١) شغل مسيو روستان منصب القنصل الفرنسى لتونس منذ سنة ١٨٧٤ ، ويعيد أول مخطط لغزو تونس من الجزائر سنة ١٨٨١ واعترافا من فرنسا بخدماته أنعمت عليه بمنصب الوزير المقيم بتونس ، وظل يشغله حتى سنة ١٨٨٢ عندما خلفه كامبون فيه .
(المحقق)

(٢) المقصود بالقوتين هنا : انجلترا ثم الباب العالى - (المحقق)

الى الله فى المساجد والأضرحة فى القيروان المقدسة لكنى ينصر الله عرابى ، وكان الزعيم التونسي العجوز الأعرج « على بن خليفة » لا يزال ملتزما ومؤمنا ، ولكن فى قنوط ، بالوعود الخلافة التى وعدها الخليفة السلطان العثماني خاصا بالحدود الطرابلسية . وبدأت مرة أخرى تنسب الشجاعة بين التونسيين ، فليقده كنت تسمع عربيا يهمس لأخ عربى مثله متسائلا : « هل يمكن أن يظهر فى النهاية منقذ فى العالم الاسلامى ؟ » .

عندما عرف عرب تونس أن الرجل الذى عقدها عليه كل الآمال قد هزم وأنه أسير الآن ، أحسوا تماما كما أحس اخوانهم المصريون ، بمرارة القنوط . ولا شك أن انتصار انجلترا فى مصر قد وفر على فرنسا غزوا ثالثا لتونس كما حطم فى المهد ثورة عربية كانت ستمتد من القاهرة الى الجزائر . لقد كان من نتيجة فوز القوات البريطانية فى معركة التل الكبير أن جعلت انسحاب جزء كبير من جيش الاحتلال الفرنسى فى تونس اما أمرا تمليه الحكمة أو تمليه الضرورة .

وطوال الأيام القليلة التى بقيتها فى تونس تبادلتنا : مستر بلنت وأنا ، رسائل تلغرافية مستمرة فيما يتصل بالفرص المختلفة التى سيسمح بها للدفاع حقيقى عن « عرابى » . ولم يزد من قلقي الا ما كانت تعلنه وكالة هافاس Havas بانتظام اما عن سرعة بدء المحاكمة وتوقع تنفيذ الحكم على موكل ، أو توكيده استبعاد حضور المحامى الأجنبي الذى سيمتولى الدفاع عنه . وفى الوقت نفسه كان معاونى المنتظر مارك نابير Mark Napier (١) قد وصل الى القاهرة ، وبمساعدة مستر ايف Mr. Eve (٢) كان يبذل أقصى جهوده ليبدأ اتصاله بالأسير نفسه . على أن فترة القلق ما لبثت أن انتهت أخيرا : إذ فى ٩ أكتوبر وصلنى تلغرافان موجزان من زميلى فى القاهرة ، « تلقينا وعدا بالاتصال به ،

(١) نبيل برطاني ، وهو المحامى الثانى الذى اختاره مستر بلنت ليعاون برودلى فى مهمة الدفاع عن عرابى ، وصحبه فيما بعد ، وكان سبب اختيار بلنت له أنه واسع الاتصالات والحصول على معلومات ، الى جانب علمه التام بالقانون ، وكان من السهل عليه استخدام الأساليب الدبلوماسية باعتباره ابن دبلوماسى برطاني سابق ، فضلا عن تحدثه الفرنسية بطلاقة ، كانت مهمته أن يذهب الى القاهرة ، ويستطلع الجو وذلك بالاتصال فوراً بمستر ماليت Mr. Malet قنصل بريطانيا العام فى القاهرة ويخبره بأنه محامى عرابى ويعرض على رؤية موكله ، فلو رفض ماليت فله أن يحتج على ذلك ، ولكن من حسن الطالع أنه وفق فى مهمته ، فبعث بتلغراف الى برودلى ينبجل قدومه للقاهرة . (المحقق)

(٢) هو محام آخر كان قد رافق « نابير » فى سفره الى مصر ، ولكنه لم يبق طويلا ، إذ مالبت أن غادرها بعد وصول « برودلى » بقليل . (المحقق)

احضر فوراً ، وكان الثانى من مستر بلنت « سمحوا بالمحامى . ابدأ فوراً » .

دما زاد فى سوء الطالع أنه لم تكن هناك باخرة مسافرة الى مالطة Malta ، ولم أبدأ رحلتى أخيراً الا يوم الخميس التالى (١٢ من سبتمبر) . وكان من بين القلة المسافرين الذين رافقونى : قنصل فرنسى عائد ، رغم أنه malgré lui الى منصبه فى مالطة ، ويبدو أنه أثناء اقامته بها تعرض لاهانة اذ أنه استدعى أمام قاضى وطنى نظرا لاهانة القنصل الفرنسى للمحكمة ، ومن جراء ذلك كان لا يتوقف ، فى فترات احباسبه بدوار البحر ، عن شتم المالطيين (وكان دائم الوصف لهم بأنهم الزنوج les nègres) وشتم جمهوريته التى أعادته ثانية فى قبسوة بالغة ليعيش بينهم ، وشتم الحكومة البريطانية التى رفضت فى غير ما انصاف أن تنتقم لأخطائه ! ، ثم حول شتمه الى « عرابى » لأنه لم يسعده الحظ بما فيه الكفاية ليضرب الانجليز ، وأكد لى أن مهمتى لا طائل تحتها لأن الأسرى سيضربون بالرصاص بكل تأكيد قبل وصولى ، وأضاف : « هذا لو كان الانجليز سيفعلون مثلما نفعل نحن الفرنسيين فى ظروف مماثلة » . وفى غسق الليلة التالية وصلت باخرتنا ميناء فاليتا Valetta ، وعلى الفور ، عبرت الشوارع التى أعرفها حق المعرفة ، وهى شوارع ذات سلالهم ، واتخذت طريقى الى جرانده أوتيل Grand Hotel ، حيث توقعت أن ألقى تعليماتى الأخيرة من مستر بلنت . حيانى سالفو Salvo . رئيس الندل ، وكنت أعرفه من قديم ، حيانى بابتسامة عريضة . لقد لاحظت أن نبأ مهمتى قد وصل مالطة بالفعل .

قال لى سالفو : « ان المالطيين مغتبطون جدا لتوجهك للدفاع عن عرابى ، ولكن من المؤكد أن سيكون القائد الانجليزى قد شنقه قبل أن تصل الى مصر » ، وبذلك لم يكن سالفو أقل تشبيهاً من صديقى القنصل الفرنسى ، ولكنه سلمنى تلغرافين واحداً من لندن والثانى من القاهرة يحثانى بالاسراع ما أمكننى ذلك ، الى وجهتى . وفى الصباح التالى صحت مبركاً لأننا كنا متى ستغادر الباخرة ميناء مالطة متجهة الى الإسكندرية ، ولدهشتمنى البالغة علمت أنه ليس هناك موعد محدد بالمره ، وأننى تأخرت يوماً واحداً عن موعد الوصول الاسبوعى للباخرة القادمة من صقلية Sicily فقلت راجعاً وأنا أحس بخيبة الأمل طوال سيرى بشوارع الملك Strada Reale - وهو فى مالطة مثل شارع ريجنت Regent Street فى لندن - واذ من باب أحد المحلات تحييتنى شخصية من الشخصيات العامة المحلية ، صديقى مستر بيترو باولو بورج Petro Paolo Borg تاجر التبغ الناجح ، الذى يتجر فى الدننلا والمرجان والمصوغات الفضية

الفصل الرابع

القاهرة

ما أن خرجت من شارع ضيق مزدحم حتى وجدت نفسى فجأة أمام مشهد مقفر كان يوما ما الميدان الكبير . كثير من البيوت الخربة قوضت والحجارة كومت باتقان بجانب الطريق . ومن حين لآخر ، كان « جمالون » مقفر ، أو علامة احترقت أو لوحة نحاسية مهشمة تحدد مكان دكان معين أو مكتب معين ، وشاهدت أكثر من رقعة اسم محطة لقنصلية مدمرة لا زالت معلقة بالحوائط التي تكلسبت . ما كنت لأتخيل هذا المدى الذي بلغه الخراب . ومع ما تبقى من الاسكندرية كانت لا تزال تحتل مكانة المدينة الأولى في القطر المصري . كان وسط الميدان الكبير مليئا بحوانيت خشبية وأكوخ ، وأكبر جانب منها يبدو أنه كان مخصصا لبيع المشروبات الروحية ، وبين الأطلال ، وبعيدا عن اعاقة مانحي التصاريح وأمورى الضرائب ، انتعشت الحركة في خمار « جورج أمير ويلز » و « البار الأمريكى » و « البحار البريطانى » و « التل الكبير » و « أسلحة ولسلى » ، كما أقام باريسى أشقر مقهى كبيرا عبر الرصيف ورفض فى غناد أن يتحرك من مكانه ما لم يدفع له تعويض مادي .

وما لبثت أن وصلت محطة السكة الحديد ، وكان كل شيء فيها فى ارتباك ، ولكنى دبرت أمورى لأسجل أمتعتى ولأضمن مقعدا فى قطار خاص يصل القاهرة بعد الظهر . وبينما كنت أنتظر على الرصيف ، استرعى انتباهى شيء أو شيئين بصورة خاصة . لقد لاحظت فى المقام الأول أن احتلال بريطانيا لمصر له ما له من فطنة (لو صح لى أن أدعوه كذلك) . لقد شاهدت جنديين انجليزين فى الاسكندرية ، أحدهما يقوم بالخدمة فى المدينة والآخر يقوم بالخدمة عند نهايتها . فى تونس

اعتدت على صوت ورؤية الغزاة المستمرة ، قعقة المهاميز على الرصيف وزيادة الطلب على احتساء شراب الآبسنث absinthe (١) في المقاهي التي كان يتردد الجند عليها كثيرا ، والموسيقى والدوريات التي لا ينقطع مرورها جيئة وذهابا . اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من القول (فى مجال المقارنة بين الغزوين الفرنسى لـ « تونس » والانجليزى لـ « مصر ») أن خطة غزو انجلترا لمصر لم تسبب الا القليل من الحازة فى القلوب ، والتناقض بين الجمهور المصرى والجمهور التونسى تناقض واضح جدا ، ففى أحدهما المظهر الرئيسى هو الملايشن القاتمة ، زرقاء داكنة أو سوداء ، أما الآخر فملايشه زاهية وبيضاء تبهر البصر . أما بالنسبة لأشكالهم فإن أصدقاءى التونسيين هم بكل تأكيد يفضلونهم . وقبل أن أبدأ رحلتى اشتريت جريدتين مصريتين ، وقد جاء فيهما أن المهاجرين (كما كانوا يدعون) الذين غادروا مصر فى أفواج فى يونيو ، عائدون اليوم بكامل قوتهم ، وكانت العربى التى ركبت فيها مكتظة الى أقصى حد .

وبعد بضعة دقائق من مغادرتنا للإسكندرية مررنا بخطوط عرابى ، وكانت التحصينات عند كبر الدوار لا تزال على حالها بصورة واضحة . كان رفاقى فى السفير ودودين وثرثارين ، أحدهم معام فرنسى من القاهرة كان عائدا اليها مع كل أفراد أسرته . لقد اعترف بأنه يمكن أن يقال الكثير دفاعا عن عرابى ، وأشار الى أن أشخاصا كثيرين من ذوى المناصب الرفيعة سيصلون الى تسوية لموضوعه ، واعترف لى بصراحة أن بين يدي قضية عظيمة un beau procès ، وكان يجلس عن يسارى أستاذ ايطالى يدرس الكيمياء - تيمادى فى الحديث معى . لقد كان من رأيه أن عرابى مخطيء بصورة عامة ؛ بل ذهب الى أبعد من هذا ، الى أنه عرض على بعض الاقتراحات الغامضة ، وتمنى لى النجاح فى مهمتى ، ثم اتجهت لقراءة جرائدى . كانت بكل تأكيد أقل تشجيعا على قراءتها من سماعات لأحاديث رفاقى فى السفير . لقد وجدت فى جريدة « الجازيت المصرية » ، وهى جريدة الرأى العام الانجليزى فى مصر ، وجدت خطابا مطولا موقعا عليه باسم « ت. روجرز بك E.T. Rogers Bey ، لا يمكننى أن أمنع نفسى من أن أنقل منه بعض اقتباسات . لقد بدأ الخطاب على هذه الصورة :

سيدى ،

لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن اكتب اليك بضعة أسطر ، باعتبارك رئيس تحرير الجريدة الانجليزية الوحيدة بمصر ، لأعبر عن رأى القاطع ، سيكون هناك اجهاف للمعالة

(١) شراب مسكر ، شديد التأثير ، مقطر من الخمر Wine والشيح Wonmwled وهو شراب شعبى فى فرنسا (المحقق) .

لو سمح لمستشارين انجليز ومحامين انجليز بالدفاع عن زعيم العصاة ، عرابي ، ان أعضاء المحكمة الانجليزية لمهارتهم البلاغية يمكنهم بمنطقهم ان يجعلوا الأسود يبدو أيضا والعكس بالعكس ، وهم في حاجة بالمثل الى محامين آخرين هم بالمثل بارعين في المغالطات القانونية ليقتنعوا القاضي والمعلمين بحقيقة اللون مثار الخلاف ، اننى اقول انه سسيكون هناك اجهاض للعدالة لانه بعد ان يكون المستشار الانجليزى قد عبر عن رأيه القانونى ، فلن يكون هناك لانسان من جانب المدعى العام القدرة على أن يعارض حججه .

هذا الكلام كان فيه اطراء على أية حال ، ولكن الكاتب ما لبث أن انتقل من المحامين الى الموكلين ، فقال :

Bis dat qui cito dat

هناك حكمة قديمة تقول : خير البر عاجله

وهي تنطبق عشر مرات على القضية الراهنة ، بل ان أى تأخير للقصاص يزيد فى اجهاضه ، لأن شعب البلاد في حالة هياج نائر ولن يعطيه الا الاعداء الفوري لزعما المصيان الأصليين .

ومن المؤكد انه يجب أن نترف أن النظار بالنفى النزاهة وبالنفى الوفاء الموجودين الآن فى نظارة الحديو (١) ، يعرفون خصال شعب هذا البلد افضل من الانجليز الذين لم يكن لهم وجود فى مصر من قبل او الذين لم يمض على وجودهم أكثر من بضعة أسابيع او حتى شهر . وقد أعلن الفريق الأول أن البلاد لا يمكن أن تهدأ ما لم يكف العصاة عن جرائمهم ، بينما يريد الفريق الثانى أن يقدم العصاة للمحاكمة طبقا للمبادئ الانجليزية التى لن تدوم لأشهر بل لسنوات ، كما حدث فى قضية النبل المتعن المتوكل القوي فى دارتمور Dartmoor (وكانت جريته بسيطة جدا بالمقارنة بما فعله زعماء المصيان الراهن) اذ حوكم مرتين ، واستمرت كل واحدة منهما لمدة شهر ، فلو اتخذ إجراء مماثل مع احمد عرابى ومحمود سامى وغيرهما من العصاة ، فستدوم محاكمتهم لسنوات ما فى ذلك من شك ، ولكن هذا لا يمكن أن يسمح به لأن الإنجليز المستوطنين فى مصر لسنوات والذين هم جديرون بلقب انجليز مصريون ، يعرفون خصال المصريين كما يعرفها النظار ، وهم يتفقون معهم تماما فى ضرورة ايقاع العقاب على من هم خليقون به .

ان أهالى القرى التى لا يزال العصاة يبعثون اليها بخطب ثورية ، والتى لا يزال الأوربيون يلقون فيها الاهانات عندهم مرورهم بها ، لا يعتقدون أن عرابى أسير ، وهم لا يعتقدون أنهم اقترفوا ، خطأ فى قتلهم المسيحيين ،

(١) اذ بعد استقالة نظارة البارودى فى ٢٧ مايو ١٨٨٢ ، بعد موافقة الحديو توفيق على المذكرة الشائئة التى تقدم بها قنصلا بريطانيا وفرنسا ، وكان أول بنودها استقالة النظارة الحاكمة للبلاد (ظلت مصر بلا نظارة ، فتولى الحديو توفيق مهام رئاستها ، فلما وقعت حادثة ١١ يونيو ، اتجهت الأنظار الى وجوب تأليف نظارة جديدة تضطلع بأعباء الحكم وتضع حدا للفوضى التى عمت البلاد فوافق اسماعيل باشا راغب على تولي رئاستها ، مع بقاء عرابى ناظرا للجهادية والبحرية (بناء على طلب الحديو نفسه ، تحقيقا لرغبة الشعب) - (المحقق) .

ولا فى نهبيهم ممتلكاتهم ، وهم لن يقتنعوا بخطأ أساليبهم حتى يحاكم زعماء العصيان ويلقون جزاءهم .

ومن خلال قراءة للجريدة الفرنسية المعاصرة للجازيت المصرية ، علمت أن كثيرا من الناس كانوا يعدون أنفسهم للمجيء الى القاهرة ليشهدوا المحاكمة المنتظرة ، وأن ناظر الحفائية قرر أن يصدر دعوات شخصية لـ ٣٠٠ شخص وأن الدعوات قد طبعت بالفعل ، وكان الطلب عليها أكثر من الطلب على تذاكر حضور افتتاح « أوبرا عايدة » فى دار الأوبرا الخديوية .

كانت درجة حرارة الجو مرتفعة جدا ، والغبار لا يحتمل ، وكنا قد أتينا بحق على كل ما فى الجريدتين المحليتين الصادرتين باللغتين الانجليزية والفرنسية ، من أخبار ، وكنا قد استنفدنا مناقشة كل وجه من أوجه السياسات المصرية عندما طالعنا الأشجار الخضراء فى ميادين شبرا . وماذن القلعة ، كما شاهدنا من بعيد الأهرامات ، وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا فى القاهرة . وكان الارتباك هنا يفوق ما قابلته فى الاسكندرية ، ولكنى فى النهاية تسبلت الى إحدى السيارات العامة أحمل معى متاعى القليل (وكان أهم جانب منه يتكون من كتب قانونية جلييلة المنظر) . نقلتني السيارة الى الفندق الجديد New Hotel حيث قررت البقاء فيه حتى يمكننى رؤية زميلى المحامين : ايف Eve وناپير Napier . والفندق الجديد (الذى أعتمد أنه كان يسمى يوما ما الفندق الخديوى Hotel Khedivial) ، وهو واحد من الفنادق التذكارية العديدة التى شيدت فى الأيام الزاهية لحكم الخديو اسماعيل . لقد كان قصرا مستوفيا لكل المقاصد والأغراض : كان يطل على حدائق الأزبكية وعلى أجمل حى فى القاهرة ، ولكن كمكان للتأمل ، فهو بصراحة يعجز أن يكون كذلك ، ولا يمكنه على الإطلاق أن يضاهى موقع فندق شبرد Shephard بما فيه من راحة وظلال ، وما يصاحب مناظره بما يذكر بعالم الماضى بآثاره . ان فندق شبرد يفوق كل فندق فى الشرق . وما كدت انتهى من فك أمتعتى حتى حضر زميلاي . (وكنت قد بعثت اليهما بتلغراف من الاسكندرية) ، واتفقنا على أن نتوجه الى الحدائق المتاخمة ، لنعقد أول اجتماع للتشاور فى الدفاع عن عرابى .

الفصل الخامس

أولى مشاوراتنا

قبل لقائنا يوم ١٨ أكتوبر لم يسبق لى من قبل أن رايت « مستر نابير » على الإطلاق ، ولكن معرفتى بـ « مستر ايف » كانت معرفة عابرة ، وكان أول تعارف لى به فى جو ودى فى شارع الملكة العظيمة Great Queen St مما ساعد الى حد كبير فى ذلك الاتحاد فى الخطط والأفكار التى كانت ضرورية لنجاح القضية . كان أول سؤال وجهته ، وكان سؤالاً متوقفاً : ما هو الاجراء الذى اتخذتموه ؟ فرد على مستر نابير على الفور بأن أعطاني بياناً واضحاً عما قام به من أعمال ، فقال : « صباح يوم ٢٩ سبتمبر تصادف أن كنت فى مكتبى الكائن برقم ٦ شارع محكمة فجتري Fig-Tree فى حي تمبل Temple وكانت محض المصادفة هى التى أعادتني من أجازة طويلة كنت أفضيها فى جولة فى شمال فرنسا ، أعادتني قبل موعد انتهائها . وفى اليوم المذكور لم أكن أتوقع زوارا على الإطلاق ، وحوالى الحادية عشر من على الكاتبن لابريمادى Captain Laprimadie (وكيل مستر بلنت) وسألنى اذا كان فى استطاعتى أن أسافر الى القاهرة فى نفس ذلك المساء ، وأن أبذل جهدى للحصول على تصريح لمقابلة عرابى ، استعدادا للانضمام اليك عندما سيكون من واجبتنا ، لو سمح لنا بذلك ، أن نترافع عنه مشتركين ، عند محاكمته أنت ككبير المحامين وأنا كالمحامى الأصغر . وبعد اجتماع قصير مع مستر بلنت وزوجته ، وافقت وأعددت نفسى لمغادرة لندن راكباً قطار البريد الاسبوعى . وعند وصولى الى كاليه Calais ، وجدت أن كل الأماكن كانت مملوكة فى عربات النوم الى برنديزي Brindisi ، ولكن مع ترتيب خاص مع الحارس سويت كل شئ ، وبعد ستة أيام وطئت قدمى

تقديمه للمحاكمة عن الاتهامات السبق ذكرها بمقتضى وطبقا للشروط التى سلم المدعو عرابى باشا نفسه لسير جارتيت ولسلى قائد جيش صاحب الجلالة البريطانية فى مصر لدى صاحب السمو الحديو .

تحرر هذا فى التاسع من اكتوبر سنة ١٨٨٢ ، بفندق شبرد بالقاهرة .

رئيشارد ايف

توقيع ثان

مارك فـ . ناير

معام ، تمبل ، لندن

واستطرد مستر ناير قائلا : « وبالرغم من الاعلان ، لم يجب رياضى باشا ما طلبناه ، فأعطيناه مهلة حتى الثلاثاء ، ولكن فى اليوم التالى عدنا الى مكتب ناظر الداخلية فأخبرنا : « سير ادوارد ماليت » أن « رياضى » اعتبر ض بأن المحامى الذى سيتولى الدفاع عن المواطنين المصريين وليس من الأجانب وأنه (أى ماليت) بعث الى وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office بتلغراف ليتلقى مزيدا من التعليمات . لقد كان شيئا يبعث على الفرحه ، مع ذلك ، أن نعلم من « سير تشارلز ويلسون » أن عرابى علم بوصولنا ، وكان راضيا عن أن أكون محاميا عنه . وفى المساء ، سلطت احتجاجا قصيرا وبعثت به الى « سير ادوارد ماليت » لأننى أعتقد أن من الأفضل أن أكون فى الجانب الأخط .

وفيما يل نص الاحتجاج :

فندق شبرد ، القاهرة

١١ اكتوبر ١٨٨٢

سيدى ،

انى اعتقد انه واجب حتمى على ، معام لعرابى باشا ان اعرض عليك احتجاجى التالى على سلوك الترافع

وفيما يل ما يعد اكثر اسباب الشكوى خطورة :

١ - ان عرابى باشا منذ ان سلمته السلطات البريطانية الى السلطات المصرية (وكان ذلك ، على ما اعتقد ، بتاريخ ٤ اكتوبر) تعرض لحبس صارم كما تعرض ايضا لسلسلة من الاستجوابات الدقيقة ، لقد رفضوا السماح له بحرية الاتصال ، أو الاتصال بالمرء ، بأصدقائه ومساعديه القانونيين .

ب « سير ادوارد ماليت » . وأن على أن أنتقل من اليوم التالى ومعنى أمتعتنى الى فندق شبرد .

وفى انتظار العربى التى سبتقلنا ، قمنا بجولة فى المبنى الذى استخدم فى سنة الأشهر الماضية كمجلس نواب مصرى . ولعله من سخرية القدر العجيبة أن نفس المبنى يجرى اعداداه الآن لافتتاح محاكمة زعيم العصاة . والمنظر بديع ، منظر كراسى القضاة المكسوة بالمخمل الأخضر ، كما كانت هناك مقاعد مريحة وألواح كسوتها من الجوخ الأخضر خصصت لمشاهدين يصل عددهم الى ثلاثة آلاف ، ومنبر مهيب للمدعى العام ، ومنصة فى مكان ظاهر ليوضع عرابى لى مكان مرتفع أمام الشعب . لم يكن هناك نوع من الاعداد لاستراحة أى محام من محامى الدفاع . لقد أنفق على هذا الاعداد ماله ببذخ ليضفى على القاهرة منظرا جديدا . كان من المتوقع أن يحتل نفس هذه القاعة مجلس الشيوخ المصرى ليشهد محاكمة عرابى ولكن لم يشأ القدر له بذلك ، وبعد مضى سنة شهد هذا المكان اجتماع برلمان مصرى آخر ، ولكن فى هذه المرة كانت تحت رعاية انجلترا ، ولورد دافرين Lord Dufferin (١) .

(١) لورد دافرين دبلوماسى إيرلندى ، تلقى ثقافته العليا فى أكسفورد . تقلد مناصب دبلوماسية عديدة منها : قنصل عام كندا ، سفيرا لبلاده فى روسيا وتركيا وايطاليا وفرنسا وحاكما عاما للهند . كان يبعث به حل المشكلات ؛ كانت بداية نجاحه الدبلوماسى لما مثل بريطانيا فى مفاوضات الدول الستة فى القسطنطينية حول مذبة المسيحيين فى سوريا ، ثم أعقب هذا نجاح آخر عندما طلب منه لورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا التوجه الى مصر لتقصى الحقائق فى قضية عرابى ، وكان له الفضل الأكبر فى الوصول بالقضية الى دور المصالحة وتخفيف حكم الاعدام الى النفى الى سيلان . أنعم عليه فى سنة ١٨٨٨ بلقب ماركيز دافرين وآفا Marquess of Dufferin and Ava صدر له كتاب فى الرحلات عنوانه « رسائل من خطوط العرض العليا Letters from High Latitudes » وصف فيها رحلته الى ايسلندة Iceland

(المحقق)

الفصل السادس

شرفة فندق شبرد

بعد غسق مساء يوم ١٨ أكتوبر ، زرنا ثلاثتنا « سير ادوارد ماليت » الذى كان يقطن فى فيلا جميلة فى ضاحية الاسماعيليه بالقاهرة . وطبقا للأسلوب الشرقى ، كان يقف ببابه حارس انكشارى تركى أو ألبانى فى ملابس فخمة لونها أزرق وذهبى ويتحدث الانجليزية بطلاقة ملحوظة . وبعد حديث دام بضع دقائق مع « سير ادوارد ماليت » لاحظت أنه كان قد أحجده من كل قلبه الموضوع المتار vexata quaestio الخاص بمصير عرابى . ودافعت لفترة قصيرة ، أثناء حديثى معه ، وببلاغة ما أمكننى ذلك ، عن نوايانا الطيبة تجاه الحكومة المصرية ، وأعربت له عن رغبتنا الجادة فى المساعدة فى أن تأخذ العدالة مجراها ، طالما أن هذا متواءم مع الواجب الذى ندين به لموكلينا ، وفى الوقت نفسه ، دافعت بقوة عن النمط الذى اتبعه الفرنسيون فى تونس ، وتساءلت : « ألم يعين غزاة الولاية ، بصورة لا تتغير ، محامين أوروبيين لأولئك المواطنين من أبناء هذا البلد الذين اختاروا أن يسموهم عصاة وحاكمتهم محكمة عسكرية لمعارضتهم ، بكل ما مكنتهم بنادقهم ومدافعهم العنيفة من مناهضة بعثة الحضارة التى غزت أرض أجدادهم ؟ ألم يشترك حتى المساجين فى مذبحه عوين الزرقا Oued Zerga (١) التى حدثت فى العام الماضى وتولى

(١) كانت منطقة « عوين الزرقا » تبعد عن مدينة تونس بما يقرب من ٧٠ ميلا ، وكانت أول خطة قام بها الاحتلال الفرنسى لتونس هو ربط البلاد من أقصاها الى أقصاها عن طريق سكة حديد ، وبدأ الخط من « تونس » ولم تلق قوات الاحتلال أية مقاومة حتى وصلت الى « عوين الزرقا » (وكانت المحطة السادسة) ، واذا بالأهالى ينفضون على قوات الاحتلال ونزعوا قضبان السكة الحديد وأحرقوا عرباتها بمن فيها حتى تفجعت أجسامهم .

الدفاع عنهم محامون فرنسيون ؟ » واستطردت قائلاً : « ألا يمكن سواء لانجلترا أو لمصر أن يفعلوا أقل من ذلك لرجل التقينا به وجهاً لوجه في ساحة القتال ؟ » كنت آمل أن تكون قد تركنا « سير ادوارد ماليت » نصف مقتنع أو على الأقل موثق بأن المحامين الانجليز لن يكونوا بالغى الخطورة كما افترض ذلك روجرز بك Rogers Bey (١) .

ومن فيلا « سير ادوارد ماليت » قفلنا راجعين الى فندق شبرد فى الأريكية بالمدينة . لقد كان ، تقريباً ، المبنى الوحيد فى القاهرة الذى أستطيع أن أصفه وصفاً دقيقاً ، وقد لعب هذا المبنى دوراً هاماً فى القصة التى أقوم بسردها ، بل اننى واثق أنه لعب دوراً فى كل حادثة لها صلة بتاريخ مصر السياسى فى أى وقت طوال الثلاثين سنة الأخيرة (٢) .

فندق شبرد قصر يتكون من طابقين ، وهو مهدم بعض الشيء ، أشبه بقصر التيه ، يقع على الجانب الأيسر من الشوارع المؤدى من محطة السمكة الحديد الى وسط المدينة . غرفاته الفسيحة تحيط بمربع ، والحديقة التى تتواسطها تظللها أشجار النخيل الفارعة والنباتات المتسلقة الخضراء المنعشة ، وهناك سلم قصير مكون من بضعة درجات يقودك من الشارع الى شرفة عريضة رطبة مسقوفة ، أرضيتها من المرمر ، ومن خلالها يؤدى المدخل الرئيسى الى باز المرطبات الذى يفتح على غرف الطعام . لقد شهد فندق شبرد أزهى أيامه عندما كانت القاهرة بمثابة فندق فى منتصف الطريق للرحالة الانجليز الهنود الكرماء الذين كانوا دائمي العبور بها فى جيئتهم وذهابهم بين الاسكندرية والسويس والنيو هيس والاسكندرية . لقد احترق منذ نيف وسبعة عشر عاماً ، ولكن ما لبث أن نهض مرة أخرى من رماده . والمؤسسون الأصليون لفندق شبرد ، كادوا يكونون فى طي النسيان الآن . كان مؤسسه الفعلى « هر زيك Herr Zech » ، ولم تدم اقامته كثيراً فى القاهرة ، وآثر الإقامة فى أوروبا ، أما وكيلاه

فالتقم الفرنسيون منهم باحراق الأمال وقطع رؤوسهم وتعليقها على سونكى البنادق تنكيلا بهم . (المحقق)

(١) كان روجرز بك دبلوماسياً بريطانياً . عمل قنصلاً فى دمشق ثم نقل ليعمل بالقسم المالى بالسفارة البريطانية فى القاهرة . كان مولعاً بالدراسة الشرقية ، يذكر عنه بلنت فى كتابه : « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » أنه هو الذى دله على عالم من علماء الأزهر وقتذاك يدعى الشيخ محمد خليل ، الذى علمه اللغة العربية ، واتضح لـ « بلنت » من تردد الشيخ محمد خليل عليه أنه عالم واسع الأفق فخور بدينه وبعقيدته ، ولم يجد فى ذلك غرابة اذ أنه كان أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده . (المحقق)

(٢) يقصد به عهد حكم الحديويين : عباس (١٨٤٨ - ٥٤) وسعيد (١٨٥٤ - ٦٣) واسماعيل (١٨٦٣ - ٧٩) . (المحقق)

« مستر جروس Mr. Grosse » و « سينيور لويجي Signor Luigi »
 فهما يسهران بكل كفاءة على تحقيق مطالب النزلاء . وتعد شرفة فندق
 شبرد أكثر من ردهة استراحة عادية أو منظر بهيج تقضى فيه عطلة شرقية
 لذينة dolce for niente - هي مجتمع مصرى ، وعندما نسمع فى
 لندن أن « الرأى الأوروبى فى مصر عميق التأثير » وأن « المصالح الأروبية
 مهددة من أساسها » وأن « الرأى الأوروبى يقر » أو « الحساسية الانجليزية
 المصرية ناثرة » فسنعرف أن نزلاء شرفة شبرد قد تحدثوا ، بل إن
 الكراسى المريحة المتعددة الأشكال والتي تملأ أكثر تلك الفرندات
 verandahs رطوبة ، تعد ذات صلة وثيقة بماضى وحاضر ومستقبل
 مصر . وتشكل درجات الفندق حاجزا منيعا (١) ، لا يجرؤ أن يتخطاها
 صبية الحمارين والباءة المتجولون بصخبهم . اننى لا أعتقد أنه طوال
 تاريخ فندق شبرد ، لم تكن شرفته أكثر امتلاء على الإطلاق ولا أكثر حيوية
 مما كانت عليه ليلة ١٨ أكتوبر ، إذ كان البار داخلها محشودا بصغار
 الضباط من جيش الاحتلال ، بينما كان يجلس فى الخارج فى ضوء غسق
 الحريف القصير « بيكر باشا » ، الذى كان قد قدم لتوه من القسطنطينية
 ليتولى لفترة قيادة البراعم الجديدة للجيش المصرى ، كما كان من بين
 الجالسين « دكتور و. هـ. راسل Dr. W. H. Russell » ، المدير السابق
 للمراسلات الخاصة ، ومستر كامرون Mr. Cameron مندوب جريدة
 ستاندرد Standard ، والكولونيل سينج Colonel Syngé ، ضحية
 قطاع الطرق الألبان ، وكثير غيرهم من الرجال ذوى المكانة والشهرة .

ولم يكن هناك غير موضوع واحد للمناقشة ذلك المساء : هل
 سيترافع عن « عربى » محامون أورييون ؟ أجابت أغلبية ضخمة على هذا
 السؤال ، بالنفى ، وبصوت عال ، لأن عربى لم يكن له الاقلية من الأصدقاء ،
 بل كادت شرفة فندق شبرد ترفض الاقتراح بالاجماع ، وبطبيعة الحال ،
 أعلن الصدى التلغرافى فى لندن أن « الرأى العام الأوروبى فى مصر كان
 معارضا بشدة لأى جديد لا يتواءم مع هذا » . وكان من أشد أعداء عربى
 فى مجلس الشيوخ الليل فى شبرد ، أذكر أنه كان ضابطا من ألمانيا ،
 التحق بهيئة الجيش الانجليزية ، وكان شخصية لها شهرتها الواضحة
 بصورة خاصة ، بدليل ما كان يرتديه عادة من عدد من النياشين . لم

(١) استخدم المؤلف للتعبير عن كلمة حاجز لفظ "rubicon" ، وهو لفظ لم يعد
 مستهلا الآن ، ولكن له دلالة تاريخية ، إذ أن اللفظ نسبة الى جدول مائى يحمل نفس
 هذا الاسم ويقع الى شمال إيطاليا ويفصل بلاد الغال الالبية Cisalpine Gaul
 (فرنسا الحالية) عن إيطاليا ، وما ينهض دليلا على خطوته أنه لما عبره يوليوس قيصر
 Julius Caesar اندلعت حرب أهلية . (المحقق)

الفصل السابع

مناوشات من البداية

فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى (١٩ أكتوبر) أعددت العدة للانتقال من الفندق الجديد New Hotel الى فندق شبرد ، وقبل أن أغادر « الفندق الجديد » تبادلنا حديثا طريفا مع مديره المساعد السويسرى الذى ، فى الوقت الذى كان يعترف فيه بالنظام الرائع المستتب فى القاهرة ، خلال الحرب التى دامت سنتين يوما ، كان يتحدث عن كراهيته المريعة ، بصورة خاصة لعربى ، وكان كريما بما فيه الكفاية ليحذرني من أننى فى حالة نبرئتى لساحة موكلى ، أن أتجنب المرور بالاسكندرية فى رحلة عودتى ، اذ ربما أَدفع أنا شخصا عقوبة سوء أعماله ، بعد أن استقرت اقامتى الجديدة فى فندق شبرد ، قمت بزيارة « مستر مويرلى بيل Mr. Moberley Bell » مراسل جريدة التايمز Times ، الذى كان « قريبا بنفس الفندق ، بينما توجه « مستر نابير » الى قصر عابدين ليتأكد من الملابس الصحيحة المتصلة باعتقال عربى أو استسلامه .

وبعد تناول الغداء ، كنت أجلس فى هدوء فى الشرفة الشهيرة ، عندما وصلتني بطاقة . كان الاسم الذى تحمله اسم لشخص غريب على « مسيو أوكتاف بوريللي Monsieur Octave Borelli وتحت الاسم كتابة بالرصاص بخط سير ادوارد ماليت » وكانت على الوجه التالى « أقدم لك مسيو بوريللي المستشار القانونى بنظارة الداخلية » . وقبل أن يلاحظ أى من أصدقائى الجدد ، مراسلى الصحف ، غيايى ، كنت فى اجتماع مع « مستشار الطرف الآخر » . كان مسيو بوريللي واحدا من أكثر الرجال سحرا ولطفا ممن التقيت بهم على الإطلاق . لقد سبق له

أن تقلد منصبا رفيعا فى الجهاز التنفيذى فى فرنسا واختلف مع النظام الجمهورى فى آرائه ، ومن دافع نفوره منهم جاء الى مصر ، وفى مدى أربع سنوات وصل الى المنصب القضائى الأول فى البلاد . كان مغتبطا بمعرفتى ، وكان يعرف كل شئ عن خلافاتى فى تونس مع « مسيو روستان » (١) ، وكان واثقا أننا ينبغي أن نرتب كل شئ فيما بيننا فى بهجة وسرور كأهل بيت en famille وسرعان ما أدركت حقيقتين بالغتى الأهمية :

الأولى : أن الحكومة المصرية قد وافقت على السماح لواحد أو أكثر من المعتقلين السياسيين أن يعطينا مقدم الأتعاب .

والثانية : أن زميلنا المحامى المصرى لا يحفل كثيرا بأية شروط وافق هو عليها ، اذا كان فى الامكان التجنب تماما لنشر غسيل سياسى قدر علانية أو التخفيف منه فى تبصر . لقد اقترح على ، عن طريق اتفاق متبادل ، أن نرتب لنوع من التقنين لاجراءات الدفاع ، فأجبت أنه لن يناسبنا خير من ذلك ، ثم اقترح على ، مرة أخرى ، أن ينحصر استجواب الشهود فى التحقيق الابتدائى أو المعلومة الابتدائية ، وأن الدليل سيقرا فقط أمام المحكمة العسكرية ، ولكنى ، لأسباب استراتيجية ، تظاهرت بالاعتراض ، فقال لى مسيو بوريللى : « ولكن يا صديقى العزيز mon cher ami ليس مسموحا لك بأن تتكلم أو حتى أن تلمح الى السياسات ، اذ أن هذا ، وهو ما أوكدك ، سيقوض أهمية القضية الى حد كبير ، ولكن لو أنك تخليت عن استجوابك علانية ، فانتى أفكر فى أن أسمع لك بقليل وقليل جدا من الكلام وأسمع بتلميح طفيف وطفيف جدا الى السياسات المعاصرة » ، وعلى الفور وافقت على الاقتراح ، اذ أننا سنكسب بذلك ثلاث ، فوائد هامة ، أعنى ، التصريح بتحقيق ابتدائى أو معلومة ابتدائية ، وهو أمر يحظره القانون الفرنسى ؛ ثم حق مخاطبة المحكمة ، وأخيرا وهو الأهم ، المجادلة من وجهة النظر السياسية . وبدون أن أدري ، كنت قد ضمنت شروطا أكثر تقدما فى آراء وزارة الخارجية البريطانية ، اذ علمت بعد ذلك أن رسالة مؤرخة ١٣ أكتوبر والتي لابد أنها وصلت القاهرة فى اليوم الذى أعقب اجتماعى مع مسيو بوريللى ، عبرت عن رأى حكومة جلالة الملكة وهو : « لن يسمح بأية مجادلات أو براهين فيما يتصل بالدوافع أو الأسباب السياسية تبريرا للجريرة المتهم فيها ، ولكن يسمح فقط

(١) بخصوص قضية « النفيضة » التى سبقت الاشارة اليها فى حينها (انظر الفصل الأول من هذا الكتاب) . (المحقق)

البند الثالث : كافة أوراق التحقيق الابتدائي توضع فى أقلام القومسيون تحت طلب المدافعين .

البند الرابع : يجوز للمدافعين عن المتهمين أن يقدموا للقومسيون الشهود الذين يرون لزومهم ويطلبوا منه سماع شهاداتهم فى شأن أى مسألة متعلقة بالدعوى بحضورهم وحضور المتهمين وتسمع اذا شهادات الشهود المذكورين سواء سبق سماعها أو لم يسبق .

البند الخامس : يجوز لكل من المدعى بالتهمة أو المدافع عنه المتهم أن يقدم الشهادات التى سمعت فى البلاد الخارجة عن القطر المصرى فى المحاكم أو الجهات الأخرى وتعتبر هذه الشهادات كالشهادات التى أخذت بالقومسيون .

البند السادس : يجب على المدافعين أن يأتوا فى مجرى الدعوى بكامل السرعة والاستعجال وأما ظهرت رغبتهم أن يستطيلوا مدة الدعوى الى عهد غير محدود فرييس القومسيون له الحق أن يأمر بختم التحقيق .

البند السابع : اجراءات المرافعة هى قسم ملتصق بالتحقيق الابتدائي الذى يقفل بابه نهائيا بمقتضى اتفاق من الطرفين أى من جهة المدعى أو المدعى عليه أو يكون قفله بمقتضى أمر من الرئيس فى الحالة المنوه عنها فى البند السابق .

البند الثامن : يجتمع المجلس الحربى سبعة أيام بعد ختم التحقيق الابتدائي ختما نهائيا ولا يجوز طلب مهلة ثانية لأى سبب كان انما للمحكمة الحربية أن ترخص بتأخير افتتاح الدعوة عندما تمس الحاجة الى ذلك .

البند التاسع : لا تسمع شهادة أى شاهد أمام المجلس الحربى سواء كان بناء على طلب من طرف المدعى أو من طرف المدعى عليه ولا بناء على أمر المجلس من تلقاء نفسه .

البند العاشر : فى اليوم الثامن من بعد ختم التحقيق الابتدائي تبتدىء المرافعة أمام المجلس الحربى وعلى الرئيس وقتئذ أن يأمر بتلاوة ورقة الاتهام وأوامر الاستنطاقات وكافة الأوراق المتعلقة بالدعوى باللغة العربية وحين انتهاء التلاوة يأذن الرئيس للمتهمين وللمدافعين عنهم بالتكلم، وعند انتهاء ما يقوله المدافع عن المتهمين يجاب مندوب القومسيون اذا اقتضى الحال ذلك ، ويجوز للمتهمين وللمدافعين عنهم أن يجابوا مرة أخرى وبعد ذلك يقفل فى الحال باب المرافعة انما يجوز للمدعى والمدافعين عن المتهمين لغاية قفل المرافعة أن يقدموا نتيجة أقوالهم تحريرا :

البند الحادى عشر : الحكم الذى يصدر من المحكمة يتلى علنا .

البند الثانى عشر : للمدافع الحرية التامة فى المرافعة انما لرئيس المجلس الحربى أن يمنعه من التكلم اذا أبدى أقوال أو ملحوظات خارجة عن موضوع الدعوى أو استعمل عبارات تشتمل على سب أو قذح فى حق الحكومة وجهاتها .

وما أن تمت تشكيلات التوقيع حتى بدأ « بوريللى بك » ، بطبيعته البالغة الطيبة ، فى البحث عن القرار الذى يسمح لنا ، بعد بضع ساعات ، أن نكون فى حضرة « أحمد عرابى » .

الفصل الثامن

عرايى فى السجن

لقد صار أمرا ضروريا الآن أن نحصل ، بدون أدنى تأخير ، ما أمكن ، على خدمات كتبة ومترجمين وخدم ، وأن نعد أنفسنا لاقامة طويلة بمصر . لقد كانت المهمة مهمة صعبة ، لأن العمل الذى عرضنا القيام به يلزم من قبلوا القيام به ، بنوع من العزلة الاجتماعية عن حزب البلاط الذى هو فى موقع السلطة الآن . ولم يكن « حسن » وهو أحد المصريين من مالكي الحمير ، يعير أهمية لمثل هذه الأمور . كان يحب عرايى وصحبه . كان يكن ازدراء قلبيا وعلنا لحزب الخديو ، ويحترم الانجليز كغزاة منتصرين وكصدر مؤكد للدخل . منذ أن بدأ حياته سايسا كان همه الرئيسى جمع شهادات من عملائه الأوربيين ، فليده شهادة من أمير ويلز Prince of Wales ، الذى رفعه « بقشيشه » السخى على الفور من أدنى درجة فى مهنته من صبى حمار الى أرقى فئة ، فئة مالكي الحمير ، واعترافا بجميله ، أطلق اسمه على أول عضو فى اصطبله . وبالرغم من ذلك كان « حسن » وطنيا ، وبصوت عال كان يصيح « الله ينصرك يا عرايى » كما كان يصيح به أقرانه ، وقد بذل « حسن جلبابه » الأزرق الداكن الى رداء من الحرير وليس عمامة صفراء ، وعين عنده نائب حمار ليشرف على أعماله ، ونصب نفسه ناقل رسائل لنا Courier ومنجزا لكل ما نحتاج اليه من أعمال Factorum ؛ وكادت تكون انجليزيتة كلاسيكية ، ولكنه كان مترجما ممتازا . كان أمينا الى أقصى درجة ، ويستطيع أن يرى الغريب مدينة القاهرة والأهرامات خيرا من أى من غرمائه ، وكان يتمتع بثقتنا الكاملة وثقة موكلينا الذين كانوا يخشون بوجه عام السوريين والأقباط . وكثيرا ما اعتدت أن أتحدث الى

« حسن » المخلص عن المحنة التي مر بها بلده . وقد عبر لى « حسن » مرة عن وجهات نظره السياسية ، اذ قال : « عرابى رجل طيب جدا ، لقد حاول أن يفعل الخير لمصر ، ولكن « عرابى » ليس على شاكلة « حسن » ، اذ عندما يأخذ « حسن » حمارة الى الأهرامات يفكر كيف يعود بالحمارة ثانية ، أما « عرابى » فقد جاء بنا الى « كفر الدوار » و « التل الكبير » ولكنه لم يفكر أبدا فيما سيحدث بعد ذلك » .

لقد عينا كرئيس للمترجمين عندنا : شابا مستقيما من ولاية ويلز ، يدعى « ادوارد بلدوين ايفانز Edward Baldwin Evans » الذى تعرف على ابن مقاطعته مستر ستانلى Mr. Stanley (١) فى صحارى السودان وقضى زمنا فى استكشاف ساحل البحر الأحمر ، وعاد الى مصر مع الفرقة الهندية . لقد قدم لنا خدمة جليلة وبقي معنا حتى النهاية . وقد توجه مستر ايفانز مع هكس باشا Hicks Pacha لمحاربة المهدي (٢) ، كما أننا دبرنا أيضا تعيين كاتين أرمنيين هما « نجيب ايكاريوس » و « يوسف قنراتى » ، وكلاهما مترجمان وناسخان جيدان .

(١) هو أحد الصحفيين الانجليز الذين اجتهدتهم أفريقيا لاستكشاف مجاهلها ، وقد تهيأت له هذه الفرصة عند كلفته جريدة « نيويورك هيرالد » بجولة صحفية طويلة تبدأ بتغطية احتفالات مصر بافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) تعقبها زيارة لمنابع النيل وكتابه تقرير صحفى عن المناطق السياحية فى افريقيا التى تجذب اهتمام السائح الأمريكى ، ثم زيارة للقدس فالقسطنطينية فالقزم Crimea فبحر الخرز Caspian Sea ، فزيارة لبلاد الروس (ايران الحالية) فالهند ، وبعد الانتهاء من هذه الجولة ، يمكنه أن يبحث عن د. ليفتجستون Dr. Livingstone المستكشف الذى انقطعت أخباره . وقد وفق استعانى فى مهمته تماما والتقى بـ « ليفتجستون » فى سنة ١٨٧١ وقدم له مساعدات بشرية لاستكمال استكشافه حتى توفى يوم أول مايو ١٨٧٣ ، وبعد وفاة « ليفتجستون » واصل ستانلى اكتشافاته فيها حتى كانت وفاته سنة ١٩٠٤ . وقد أصدر كتابا فى ست لغات فى سنة ١٨٩٠ عنوانه « فى مجاهل افريقيا In Darkest Africa » (المحقق)

(٢) عقدت « هكس باشا » قيادة الحملة العسكرية المنتهية من القاهرة الى السودان لمحاربة المهدي ، وكان قوام هذه الحملة عددا قليلا من الأوربيين من بينهم مراسلى جريدتى التايمز Times وجرافيك Graphic اللندنيتين ، الى جانب ما يقرب من ٧٠٠٠ من المشاة و ١٠٠٠ من الخيالة وأكثر من ٥٠٠٠ رجل لحمل المؤن عبر الصحراء ومعدات عسكرية تشمل مدافع جبلية ومدافع سريعة . ولكن بالرغم من ضخامة هذه الحملة ومعداتنا وعناصرها ، فقد منيت بهزيمة منكرة على يد الأمير النجوى ، أحد أتباع المهدي . ويرجع السبب فى هذه الهزيمة الى أن غالبية جنودها كانوا ممن حكم عليهم بالسجن لاشتراكهم مع عرابى ، فلما بعث بهم الى السودان كانوا مصنفين فى الأغلال وظلوا كذلك طوال الحملة ، فكان ماتهم الموت المحقق . لأنهم جند عزل . وكان لهزيمة « هكس » دوى أسى كبير فى انجلترا ، فكانت الصحف الانجليزية تدعوها مرة هزيمة defeat وثارة تدعوها كارثة disaster . وإحيانا تعتبرها مصيرا . fate (المحقق)

القاهرة فى ٢١/١٠/١٨٨٢

أرجو ان تسمح لى بأن أقدم لكم ابن عرابى باشا

سىدى العزيز ،

المخلص

س. و. ويلسون

وبعد بضع دقائق ، دخل حجرتى شاب نحيف ضعيف البنية فى الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره ، بشرته أذكن من بشرة المصرى العادى ، وكل ذكاء للتعبير شوهه تلف كامل فى احدى عينيه وحول فى الأخرى . اننى لا يمكننى أن أنسى نظرتة الحجولة المنقبة ، ولدقيقة بدا أنه غير قادر على الكلام . بذلت جهدى كى أهدي من روعه ، ونظرا لأنه لم يكن أحد من مترجمينا موجودا ، أحسست بمزيد من الراحة عندما اكتشفت أنه يعرف اللهجة العربية التونسية . لقد ذكر لى قصة مؤلمة عن سوء معاملة أمه ، وأن كل أفراد عائلته أبه تعرضوا لسوء المعاملة منذ دخول الانجليز القاهرة ، بل وأكثر من ذلك بعد استسلام عرابى للخديو ، يبدو أن اجراء قد اتبع كدلالة على بداية حكم اربابى حقيقى .

وما كاد المحاميان « ايف » و « نابير » ينضمنا لنا ، حتى حضر رسول من عند « بوريللى بك » يحمل التصريح التالى :

الى الببائى عثمان شريف ، مدير السجن بالدائرة السنية

يسمح لخصرات المحامين « برودلى » و « ايف » و « نابير » مع مترجمهم بزيارة « احمد عرابى » كلما حضروا الى السجن .

(توقيع) رياض

ناظر الداخلية

وعلى الفور أطلعت محمد بن أحمد عرابى على هذا التصريح ، الذى حتى وسط دموعه ، هلل بمجيئه على أنه فآل طيب ، وبدون أدنى تأخير يممنا شطر المبنى المعروف بالدائرة السنية .

وفى شارع ظليل يقود من الميدان الذى يحوط دار الأوبرا الحديدية الى ميدان الاسماعيليه ، وجدنا قصرا ضخما مؤلفا من طابقين يمكن استخدامه كاصلاحية أو مستشفى أو حتى كفسدق . وللمبنى بوابة

ضخمة فى الوسط تؤدي بك على الفور الى مربع مبلط بنى حوله القصر، لتصل الى طرقات تؤدي الى غرف على الطابق الأرضى . وهناك سلم عريض جدا يصل بك الى غرف وردحات الطابق العلوى . والغرف على جانب واحد من القصر تطل على الشارع بميدانه الذى تزينه أشجار الدلب Plane trees . ونوافذ الغرف الأخرى اما تفتح على المربع أو على بعض ساحات خلفية . ويدعى هذا المكان الدائرة السنية ، لأن تلك الدائرة استخدمته يوما ما مكاتبها ، كما أن هذا المكان استخدم بدوره كفندق عملاق ، ومؤسسة للطباعة وكمخزن للوازم المسرح وسقط المتاع . كانت غرفه العديدة بجدرانها التى طليت بمزيد من اللون الأبيض الناصع البياض وطرقاتها الطويلة ، تؤهلها بكل تأكيد ، وبما يبعث على الإعجاب ، ليكون سجننا . وقد وصلت الحكومة المصرية الى نفس هذا الرأى واستولت عليه دون موافقة المالك وطلته كله من جديد وخلعت النوافذ ووضعت مكانها قضباناً قوية ، كما وضعت أقفالاً على الأبواب ، وكان وجود هذا المبنى سببا فى مجيء « عربى » وحوالى مائة من صحبه اليه فى اليوم السابق لوصول مستر « نابير » الى القاهرة . وفى مواجهة الدائرة السنية ، يوجد بهو كبير فى الطابق الأرضى مبلط بالرخام ويملا جانبا كاملا من المربع ، واحتل حرس من الجنود البريطانيين يرأسهم أوتباشى ، احتلوا البوابة الكبيرة والغرفة الملاصقة لها مباشرة .

وعلى السلاسل ، قابلت « سير تشارلز ويلسون » ، كانت الطرقات يراقبها جنود مصريون ، كلهم ، على ما أعتقد ، أتراك وجراكسة .. مسلحون بالبنادق . كان الجو لا يزال دافئا ، وكانوا يرتدون ملابسهم الرسمية البيضاء . وفى مواجهة قمة السلم يؤدي باب من الطريقة (التى تمتد بطول المبنى كله) الى قومسيون التحقيق . كانت الغرفة المجاورة على اليمين تستخدم كمكتب ، والى جوارها كانت زنزانة « محمود سامى باشا » والى جوارها أيضا زنزانة « عربى » . وقد خصصت الغرفة المقابلة على الجانب الآخر من القومسيون ، خصصت لنا بعد ذلك ليستريح فيها مترجمونا . وكانت على الأبواب لافتات لا عناية فيها كانت تحمل كتابات بالعربية : أحمد عربى رقم ١ ، محمود سامى رقم ٢ ، الخ . . . ولما كانت النوافذ محكمة الغلق ، فقد كاد المعتقلون أن يختنقوا من شدة الحرارة ، ولعلاج هذا ثبتت أسياخ من الحديد على باب كل زنزانة يقصد التهوية . كانت زنزانة عربى فى طريق التشييد عندما وصلنا ، ولكى ندخل الغرفة كان علينا أن نزحف تحت سلم خشبى ، وسط سحابة من الغبار والجير . كانت الغرفة المحتجز فيها حوالى اثنتا عشرة أو أربع عشرة قدما مربعة وشاهقة الارتفاع جدا . كانت تضيئوها

نافذتان ضيقتان تطلان على الشارع ، وإن كانت تظلمها الى حد ما السياج
الحديدي والشيش نصف المغلق . وعلى الفور ظهر الكولونيل ويلسون ،
واذ برجل طويل القامة قوى البنية ينهض من على سجادة فى أقرب
ركن من الغرفة للنافذة ، نهض ليحيينا . ثم قدمنا « سير » ويلسون
الى موكلنا وبناء على طلب سير تشارلز ويلسون ، أمر « عثمان أفندى » ،
مدير السجن ، الحراس بأن يحضروا لنا منضدة صغيرة وبعض الكراسى .
كان الأثاث الوحيد الموجود فى الغرفة قبل قدومنا : سجادة شيرازى
جميلة وستارة ناموسية ومرتبة وبعض الوسائد وسجادة صلاة مطرزة
ومصحف ، وبعض الأواني النحاسية والحزفية ، وأرجو أن يؤخذ وصفى
لمحتويات الغرفة على أنه شكوى ، اذ ان الشرقى نادرا ما يحتاج لأكثر من
هذا . كان عرابى يرتدى بنطلونا مدينا وقميصا أبيض وسترة ، وأحيانا
ما كان يغير السترة ويرتدى بدلا منها معطفا استانبوليا أسود أو معطف
فروك تركى ، وكان يمسك فى يده فى عصية بمسبحة صغيرة ، وقد
بذل ما فى وسعه ليحيينا فى سماحة بالغة ، ما أمكنه ذلك . وبعد أن
تركنا سير تشارلز ويلسون ، قدمت لـ « عرابى » خطابا من مستر بلنت
كان مستر ناير قد جاء به . لقد استأذنا فى أن يقرأه (١) .

وعند قراءته للخطاب أتيت لى فرصة ممتازة لكى أدرس وجه
شخص سمعت عنه أوربا الكثير . فى سكونه ، كاد يكون وجهه فى تجهم
ثابت مع تقطيب للحاجبين ما كان يثير الا انطبعا عن كآبة ممقوتة ،
ونكنى سرعان ما اكتشفت أنه كان نتيجة تفكير عميق ودائم ، عن أن
يكون اكتئابا أو حدة مزاج ، وجدير بالذكر أن عادة عرابى فى تفكيره
الدائم قد أوجدت له أعداء كثيرين من بينهم من يحكمون عليه من أول
نظرة ، أما اذا ما انفرجت أساريره بالانتعاش فان التغيير الذى يطرأ
على تعبيره يكون عجيبا جدا حتى أنك قل أن تعرف فيه نفس الشخص .
كانت عيناه تشعان ذكاء حادا وابتسامته جذابة بصورة خاصة . بشرته
أفتح من بشرة ابنه ، ولكن أنفه مفلطح جدا وشفتيه غليظتان فلا تسمح
له بأن يصف نفسه بأنه رجل وسيم . ومن الواضح أن قامته تزيد على
ست أقدام ، عريض المنكبين فى تناسب . لقد تغير مظهره تغيرا ملموسا
إثناء اعتقاله : فقد نمت لحيته الرمادية . وعلى طريقة الفلاحين ، كان
حول راسه وشم على شكل شريط ، وندر ، بل كان من المحال تماما ،
أن كان يتخلى عن الامساك بمسبحة سوداء صغيرة ، اذ انه كان يحركها

(١) الخطاب ، على ما اعتقد ، يكاد يكون نسخة ثانية من ذلك الخطاب الذى سبق
أن بعته اليه مستر بلنت منذ شهر مضى تماما .

فلما استجاب عرابي للاجراء الشكلي على الفور ، دعوته أن يمنحنا بقتة الكاملة ويتحدث بلا تحفظ عن دفاعه • كان أول تعليق له أنه في نهاية المعركة (على شاكلة ما فعله كثير غيره من القادة الذين لم يكتب لهم النصر) سلم سيفه وشرفه الى الجنرال لو General Lowe ، وقد فعل هذا في ثقة تامة من أن خصومه السابقين في ميدان القتال ، وليس أعداؤه السياسيون ، سيكونون حكام مصيره • لقد حافظ على استتباب النظام وراعى ما يتبع في الحروب في الدول المتحضرة وتعامل مع أسراه بانسانية وشفقة • هل كان من حقه أن يطالب بأن تعامله انجلترا معاملة أفضل من المعاملة التي تلقاها على أيدينا ؟ أليس وجودنا اليوم رغم أنف أعدائه دليلا على أنه لم يكن مخطئا تماما ؟ لقد قاد المصريين في نضال من أجل الحرية وحقق نجاحا جزئيا عندما أوقفت أسلحتنا تقدمه ، ونفس المطامح التي كان هو ، طبقا لارادة الشعب بأسره ، رمزا لها ، تحطمت في هزيمة التل الكبير ، ثم سحقته سحقا ميثوسا منه القسوة التركية والجرسية التي أعقبت الهزيمة • لقد قال لي « عرابي » : لو تحررت الأمر لاكتشفت ولكن في مقدورك أن تبرهن على أن مصر كلها كانت معي : الأسرة الحديوية ، المسنون من عهد محمد علي ، العلماء ، والجيش والفلاحون ، ولكن في وجودي في السجن والأسر ومع التعذيب والتهديدات ، من الذي يعترف بهذا لصالحى الآن ؟ ان هذا لا يدهشني ، اذ أن أبنائي أنفسهم أنكروني في مواجهتي أمام قومسيون التحقيق ! بعد ذلك ، أعطانا « عرابي » بيانا تفصيليا عن متاعبه الشخصية عندما سجن (١) ، وكانت ملاحظته أنه اذا كان هو قد عومل بهذه الصورة ،

(١) عقب ذلك قدم لي البيان التالى المكتوب عن الموضوع :

« صديقى العزيز والمحامى عنى مستر برودلى دام كماله •

انه بناء على ما تيقننه من حسن مقاصد دولة انكلترا نحو مصر سلمت سيفي ونفسي الى ذمة وشرف الانكليز عن يد الجنرال لوى (٢) بالنيابة « عن القايد العمومى للجيش الانكليزى الجنرال ولسلى حالة كون كان فى نفس مصر من المساكر المصرية خمسة وثلاثون ألف نفر وفى باقى الجهات مثلهم وبنا » على ذلك مكثت مع المساكر الانكليزية مكرما عشرين يوم من ابتدا ليلة ١٥ سبتمبر سنة ٨٢ لغاية ٤ أكتوبر سنة ٨٢ وفى يوم ٥ أكتوبر صار سجنى « وفى السجن المصرى فحصل لى من الامانة ما يباه شرف انكلترا وشرف كل انكليزى وذلك بأنه فضلا عن تفتيشى من خدامين وأغوات « سراى الحديو وتردد ذلك التفتيش أربع مرات ثم قلعونى الجزمة من أقدامى فى يوم واحد وفى ليلة ٩ أكتوبر الساعة ثمانية ونصف بعد أن تمت « فتح على الباب ودخل على نحو عشرة أو أزيد من الناس وقال أحدهم يا عرابى أعترف من أنا فقلت لا من أنت وماذا تريد منى فهذا الوقت فقال أنا « ابراهيم أغا الذى كنت داير وراه يا كلب يا خنزير وتفل على ثلاث مرات وصار =

فماذا يمكن أن يتوقعه أو يأمل فيه أتباعه أن يعاملوا به ، وهم الأقل قدرا منه ؟ لقد ذكر ان المصريين خجولون بطبيعتهم وضعاف الأجسام . لقد وتروا أعصابهم للنضال الذى خسروا فيه وأحسوا الآن برد فعل القنوط المر . وفى طول وعرض مصر بأسرها ، أودع أتباعه فى السجن ، وكل من عرف البلاد سوف يفهم تأثير هذا على عقول الناس ، وهو نفسه استجوبه القومسيون ولم يكن فى استطاعته أن يرد فى قليل أو كثير على الذى سجلوه ضده . ومن كل ما رأى كان يخشى أن أشجع أتباعه - أشخاصا أمثال محمود سامى ويعقوب سامى - سيجبنون تحت التعذيب المعنوى والجسمانى الذى يلاقونه وتحت وضعهم الراهن المزرى الذى لا أمل من ورائه . وبالنسبة لسلوكه الشخصى ، اعتقد أن عنده دفء طيب ، وقال « لقد قسمته الى قسمين - ما حدث قبل ١١ يوليو وما حدث بعد ذلك . لم أكن فى أى وقت أدعى أبدا : عاصيا . لقد شاركنا الخديو رأينا أننا سنرد على النيران البريطانية . وعبر السلطان مرارا وتكرارا عن رضاه عما اتخذته من اجراءات وبعد ذلك صار الخديو سجينكم واستمرت أنا اتبع أوامر مجلس النظار التى أقرتها وأيدها البلاد بأسرها والتى أقرها السلطان كذلك . وإذا كان الخديو والسلطان هما رئيساى ، فقد أكون عدوا لكم ولكنى لم أكن عاصيا لهما . ان كل ما أقوله لكم هو أننى أأمل أن أكون قادرا على أن أقدم البرهان . اننى لا أخشى شيئا ، اذ انه لا دخل لى بالثورة التى قامت فى الاسكندرية فى يونيو الماضى أو بالحريق المتعمد incendiarism الذى أعقب ضربها بالمدافع » .

وعد عرابى بأنه بمجرد تمكنه من رؤية ابنه ، سيتفق معه على اعطائنا الأوراق اللازمة لصالح قضيتة . لقد قال انه كان متلهفا لأن يضع بين أيدينا كافة المستندات اللازمة للدفاع عنه لو أننا زدناه

= يسبنى ويشتمنى حتى تصورت أنه مأمور بقتل في هذه الليلة « ومكثت على ذلك نحو ثمان دقائق وخرج من المحل الذى أنا مسجون وحيث أن حصول ذلك منما لا ترتضيه ذمة وشرف انكثرتا خصوصا » للملى الذى سلم نفسه اعتمادا على شرف الدولة الانكليزية فقد حررت هذا بما حصل لى من الاهانة . »

٢٩ أكتوبر ٨٢ أحمد عرابى

ختم

خاتم يحمل اسم أحمد عرابى

(١) يقصد جنرال لو General Lowe (المحقق)

بأدوات الكتابة ، ولكنه كان يأمل منا ألا ننسى في الوقت نفسه رفاهه
المسجونين ، حتى لو كانوا قد دفعوا لتجريمه دفعا . ان كل ما كان
يريد في سجنه هو ضوء حتى يعمل بالليل وأن يسمحوا لحادمه أن
يحضر له طعامه مباشرة . ومع ابتسامة متجهمة أوضح لنا مخاطر امرار
طعامه بين أيدي الديدبانات الجراكسة ، وذكر لنا كيف أن صديقه
« عبه العال » كادوا أن يسموه في مرحلة مبكرة من الحركة الوطنية ،
ولذلك لم يكن أمرا يبعث على الاستغراب أن يرجونا عرابي ، تحت ظل
هذه الظروف ، أن نبذل كل جهد للحصول على موافقة بأن يوضع حرس
انجليز داخل وخارج السجن . وبعد انتهاء لقائنا الذي دام قرابة ثلاث
ساعات ، غادرنا السجن بانطباع مشجع جدا من حديث وسلوك موكلنا
المشهور . وفي هبوطنا الردهة بين صف من الجنود الأتراك والجراكسة
القائمين بالخدمة ، سمعنا رفسة قوية عند باب زنزانة مجاورة ، عرفت
بعد ذلك أنها كانت زنزانة « طلبية باشا » الذي كان يحاول بلا جدوى
أن يجذب انتباهنا . لقد اشترك مع رفيقه « عرابي » في ارسال تلغراف
الى « مستر بلنت » ، وعندما رأنا من ثقب الباب أراد أن يعبر عن
أن مصلحته المؤكدة في تولي المحامي الانجليزى لقضيته .

ليستخدمها ، وتموينا ضخما من أدوات الكتابة . كان عرابي أكثر ابتهاجا مما كان عليه في زيارتنا السابقة له ، وطلب منا أن نبعث بتحياته الى « سير ادوارد ماليت » مع اعراب منه عن أسفه على أنه لا يستطيع أن يقدمها له شخصيا كما فعل ذلك في العام الماضي . لقد أوضحت له مدى الأهمية البالغة لأى دليل وثائقي يمكن أن يقدمه في دفاعه ورجونه أن يعطينا دليلا على ائتمانه لنا بأن يثق فينا ثقة تامة . لقد أطنبت في الحديث ، بعض الشيء عن العلاقات بين المستشار القانوني وموكله كما نفهمها في إنجلترا ، وأشارت الى الخطورة البالغة في أية تحفظات من جانبه ، ويبدو أن عرابي اقتنع بها قلناه له . لقد كان مجرد جوابه « لضمان ما تريده ، يجب أن أرى ابني وخادمي محمد بن أحمد . ما زال عندي كثير من الأوراق في أمان وإن كانت كمية قد أخذت من دارى بالقاهرة ومن خيمتى فى التل الكبير » .

وعند مغادرتنا له ، اتصلت بمدير السجن « بمباشى عثمان شريف » وطلبت منه تحقيق رغبة عرابي ولكنه رفض بشدة أن يسمح لا لابن ولا للخادم بدخول الزنزانة . ان هذا الانسان ذا المنصب الهام سبق أن شارك هو نفسه فى الدفاع الوطنى ولكن المسئولين تغاضوا عن عدم تبصره على اعتبار أنه خطأ من أخطاء غالبية الأتراك والجراكسة ، لأنه من المستحيل على « توفيق باشا » حتى مع مساعدة جيش الاحتلال له أن يزوج بكل المصريين فى السجن ، وكان « عثمان أفندى » بمثابة نوع من الترمومتر السياسى عندما بدا أن الخديو قد استرد نفوذه وأنه قادر على كل شيء ، كان « عثمان أفندى » فى غفلة هو راض عنها فى ذات الوقت الذى جاء فيه الشماشرجية وحملة الغلايين (الجركسية) اليباشروا غرضهم الدنى ، لقد عامل المساجين فى مجاملة رقيقة بعد السماح لنا بالدخول كمحامين لهم . لقد أحس بقلق شديد ، لم يكن خلوا تماما من غرض ، على مستقبلهم عندما صرّف النظر عن الاتهامات الأكثر خطورة وبعد المحاكمة الرسمية صار أريحييا بصورة مطلقة بل وكان وطنيا . وفى نفس الصباح التالى وجدته مشغولا ومنهمكا بإضافة عبارة « باشا » بحروف كبيرة للفتات أبواب زناناتهم الخاصة بهم . وفى مصر ليس هناك أقوى من السلطة وبوجه عام ، لقد أدى « عثمان أفندى » واجبه على أكمل وجه ، وكنت بالغ السرور عندما تدخل « سير تشارلز ويلسون » ليقاف ترقبته السابقة لأوانها للعمل بقوة السودان ، كاعتراف رسمى عن تساهله البالغ تجاه من هم محتجزون عنده .

وفى محنتنا لجأنا الى « سير ادوارد ماليت » « وسير تشارلز

ويلسون » ولم نفعل ذلك من فراغ . فى نفس الليلة اصطحب خادم عرابى الأمين ، الخادم الزنجى الخلاسى » محمد بن أحمد « اصطحب كلانا سير تشارلز ويلسون ، وأنا الى زنزانة سيده . قبل محمد فى احترام كم الباشا وأراه ورقة أحضرها معه ، لم أكن أعرف ما هى ، وقتها ، ولكنى أعرف ما هى الآن : أميرة مصرية كانت تؤيد بحرارة القضية التى صارت الآن لا أمل فيها كتبت له خطابا مهورا بتوقيعهما ، نصحت فيه « عرابى » بأن يضع ثقته الكاملة فى « مستر نابير » وفى شخصى وأن يعطيهم كل المستندات التى لايزال يحتفظ بها . بعد ذلك ، وصف عرابى لخادمه الأماكن المختلفة التى سيجد فيها الأوراق ، وأصدر اليه أمره أن يطلب من ابنه أن يعطيها لنا « بدون خوف أو تردد » . لم ألتق فى مصر بانسان استحق فى نظرى احتراماً أكثر من هذا الانسان المسكين « محمد بن أحمد » ، الذى رافق عرابى منذ ذلك الوقت حتى المنفى . لعله لم يكن يملك من حطام الدنيا سوى جلباب أزرق وسترة من قماش مهلهل ليغطي بها جلبابه ، ولم تكن التهديدات ولا الرشا فى استطاعتها أن تززع من ولائه لسيده الذى كبا . كانت الدنيا قد أظلمت عندما غادرنا السجن ، وسألت « محمد بن أحمد » فى قلق متى يعتقد أنه يمكن أن يأتينى بالأوراق ، فقال انه سيستغرق الليل بطوله لينفذ أوامر الباشا وانه ليس لديه شك فى امكان احضارها لى فى الصباح . لقد عبرت له عن مدى أهمية المهمة التى أؤتمن عليها ، ثم لحقنى بـ « مستر نابير » فى فندق شبرد ، وفى الوقت نفسه كان زميلاي مشغولين تماما . ف مستر « ايف » أعد ، طبقا لأسلوب المحامين الانجليز ، ملخصات الدعوى الشكلية التى تسلم لنا نيابة عن « عرابى » ، أعدها « ايف » قبل مغادرته القاهرة الى انجلترا فى اليوم التالى ، وكان « مستر نابير » قد نقل من التقارير الرسمية البريطانية (١) رواية واضحة وموجزة عن الأحداث فى مصر خلال عشر السنوات الماضية . لقد أحسست الآن بالحاجة المطلقة لأكثر من مترجم عادى قادر على مساعدتنا فى القضية ، ومترجم يمكن أن يترجم بسهولة الى العربية ومنها . مثل هذا الشخص يجب البحث عنه اذا كان علينا أن نقدم بيانات مكتوبة بالعربية الى المحكمة وهو

(١) هى التقارير التى كانت ترد الى وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office (وتختصر فى هذه الصورة F.O.) من قناصلها الموم ومندوبيها الساميين فى دول العالم التى بها سفارات أو قنصليات لها ، وتعرف هذه التقارير الرسمية باسم الكتب الزرقاء Blue Books ، ولكنى آثرت أن أسميها بمسماها الواقى وهو التقارير الرسمية . ومما ينهض دليلا على خطورة هذه التقارير أن كان يستشهد بها فى الرد على المناقشات والاستجوابات التى كانت تثار فى البرلمان بمجلسيه : العموم واللوردات . (المحقق)

الفصل العاشر

انحراف عن التقارير الرسمية البريطانية

لا بد لي أن أستأذن قارئى اذا كنت سأترك عرابى للحظة مشغولا ببياناته التى يكتبها فى سجن الدائرة السنية ، لكى أصور له ، بكل ما يمكنى من ايجاز ، مجرى الأحداث التى جاءت به الى هناك . اننى أعتقد ، سواء كنت صائبا فى اعتقادى أو خاطئا ، أن بيانا موجلا بهذه الصورة أمر ضرورى لنقل فكرة صحيحة عن الظروف التى أحاطت على الفور باختفاء القادة الوطنيين ، لفترة على الأقل ، من مسرح السياسات المصرية . والتاريخ يدون اليوم بسرعة ، ولما كانت الحقائق تتزاحم على بعضها البعض بسرعة مذهلة ومحيرة ، فإن الذاكرة فى حاجة الى قدر كبير من المساعدة تمكننا من أن نلحق بالخطوة التى كنا نتحرك تجاهها . ولكى نتفهم بحق وضع « عرابى » فى الوقت الذى أصغه فيه ، يجب علينا أولا ، أن نلقى نظرة على الماضى .

ولكى نفعل ذلك ، فانه يكفى تماما الرجوع الى التقارير الرسمية البريطانية Blue Books ، لأنه من الغريب القول أنه يمكن تجميع دفاع ممتاز جدا عن موكل ، من صفحاتها هى وحدها . وصناعة التقارير الرسمية البريطانية هى ادارة للأدب ، وهى احدى الملامح الأساسية لعصر المراسلات الخاصة والتدوين السريع للتاريخ الذى نعيش فيه ، وهدفها أن تكشف عن القليل ما أمكن وأن تجعل غير المهمل مهمل والمعوج مستقيما وأن تخلق انطباعات سارة من طبيعة غامضة وغير واضحة فى كثير أو قليل ، ولو كان من الممكن اصدارها فى أوقات معينة فى مجلدات سنوية أنيقة ، لما أحاطتنا علما بشئ على الإطلاق ولكن الضرورة الملحة

هى التى تدعو الى اصدارها فى مواعيد غير ثابتة فى فترات تسمح بضياح كثير من الحقائق ، فمثلا مستر سيمور كى Mr. Seymour Keay لم يخدمه فى اخراج كتيبه الممتاز (١) الا ضوء من التقارير الرسمية البريطانية التى كشفت النقاب بصورة أكثر فعالية عن حقيقة مالية مصر ، ولو أنه أصدر كتيبه مبكرا عن هذا ، لكنت أميل الى الاعتقاد بأن الحرب فى مصر كان فى الامكان تفاديهها ولما كنت قد قبلت الدفاع عن « عرابى » بالمرة . ومن الغريب القول بأنه على الرغم من أنه لم ينظر كاتب واحد من كتاب نفس هذه التقارير حتى ولو نظرة تسامح لمطامح الوطنية المصرية ، الا أنها يمكن أن يشيد منها تاريخ مفيد لمراحلها الأخيرة (لأن القضية ذاتها يرجع تاريخها الى زمن ما قبل اعتلاء توفيق باشا العرش) ، ومما يؤسفنى أننى لا أجد من الوقت متسعا لأطبق مرة أخرى بالتفضيل للاختبارات الفاحصة التى ابتكرها « مستر كى » ، ولكنى سأحاول مستعينا بهذه التسجيلات ، أن أكتب السرد الموجز الذى أعتقد أن له أهمية بالنسبة للقصة التى أخذت على عاتقى أن أرويها :

يرتفع فجأة ، تقريبا ، ستار المسرحية الرسمية والتقليدية لمأساة مصر . نحن لا نسمع شيئا عن الظروف التى صاحبت محاولة القاء القبض على أشخاص : عرابى وزميلين أميرالايين فى فبراير ١٨٨١ ، أو أسى الأهالى والعسكريين الذى ولد الضجر المتزايد والذى أعطى للقضية الوطنية شكلا عمليا متفاقما . وعن هذا المشهد من التذبذب والنفاق والتآمر الملتوى والطفيان النزق صممت التقارير الرسمية البريطانية . يبدأ تاريخ التقارير الرسمية البريطانية بالمظاهرة التى نادت بتحقيق مطالب الجيش *military pronunciamento* وكان ذلك فى التاسع من سبتمبر ١٨٨١ ، ويبدو ، فى الواقع ، أنها لم تكن أكثر من عرض عسكري ، ولم يكن هناك من شيء ليكشف أن الجنود الذين شاركوا فيها كانوا مزودين حتى بالدخيرة ، وكان وضعهم بكل تأكيد لا ثائرا ولا مخلا بالنظام .

وكان الأميرالاي عرابى يمثل مطالب الشعب التى كانت ثلاثة فى عددها :

أولا : عزل رياض باشا .

ثانيا : تشكيل مجلس النواب .

(١) نهب المصريين Spoiling the Egyptians ، لندن ، الناشر س . كيجان بول . وشركاه . ١٨٨٢ C. Kegan Poul, Co.

السفن الحربية المياه المصرية • وقبل أن يغادر عرابى القاهرة ، زار المراقب الانجليزى مستر (الآن سير) أوكلاند كولفن Sir Auckland Colvin الذى كان لسلوكه وأسلوبه أفضل انطباع عند عرابى • ومنذ ١٠ سبتمبر ، يبدو أن عرابى قد صار بالتصويت الضمنى لأبناء وطنه الزعيم المعترف به « للقضية الوطنية » - وهو تعبير صار يستخدم من وقتها بصورة متكررة ومتداولة فى المكاتبات الرسمية ، بالرغم من أن نفس التعبير قد أدين من وقتها بأنه اختلاق تعوزه الفطنة •

ومرة أخرى ، اتخذت الشئون المصرية مظهر سلام خادع • لقد استهلكت السنة الجديدة (١٨٨٢) بثلاثة أحداث هامة ، أعنى ، افتتاح الحديو لمجلس النواب بخطاب يفيض وطنية لا حياة فيها ، ثم تعيين عرابى (وكان لا يزال وقتها الأميرالاي عرابى بك) وكيلًا لنظارة الجهادية : تقديم انجلترا وفرنسا لمذكرة مشتركة متماثلة • ويبدو أن «لورد جرانفيل قد وقع لسوء الحظ ، رغم احتجاجه الشديد ، فى فخ أوقعه فيه مسيو جامبيتا M. Gambetta (١) الذى ابتدع المشروع المعنى ، باعتبار أن أداة موأمة لتدعيم مطامح فرنسا على ضفاف النيل ، ولكنه ، وبالقصور القدر ، عاش فقط ليشهد أشد النتائج مرارة بالنسبة له وفرنسا (٢) • وفى هذه المذكرة الثنائية ، أعلنت فرنسا وانجلترا متشددتين أنهما قد صممتا على استتباب الأمور فى مصر وتأيد الحديو •

وننتقل الآن الى مناقشة طويلة معقدة وحادة عن القواعد الجديد لتنظيم مجلس النواب • فى ١١ يناير ، كتب لورد جرانفيل أو بعث بتلغراف بأن « حكومة جلالة الملكة لا ترغب فى أن تلجأ الى منع مجلس

(١) كان رئيسا لوزراء خارجية فرنسا وقتها ، ولكن وزارته لم يكتب لها النجاح ولم تجد التأييد الكافى لها ولذلك لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر (من نوفمبر ١٨٨١) حتى يناير ١٨٨٢) ، وخلفه من بعده مسيو فريسسنه M. defreycinet • (المحقق (٢) يجب أن تأخذ فى اعتبارنا دائما أنه طبقا للسياسة الخارجية الفرنسية المتوارثة والتي لا يطرأ عليها أبدا أى تغيير ملموس ، أن مصر جزء من امبراطورية ضخمة فى المستقبل - امبراطورية قرطاج الغالية (الفرنسية) Carthage Gauloise لقد كتب نابليون الثالث Napoleon III وكله أمل فى الوقت الذى تترسخ فيه سيادة فرنسا عند سفح جبل أطلس ، عندما تبدد للعرب أنها تدبير من السماء ، وعندئذ يتردد صدى مجد فرنسا من تونس الى الفرات • ويؤكد الكتيب الشعبى « تحديد العسكرية الفرنسية La Régénération Militaire Française فى شجاعة ، أن إفريقيا (وهو الاسم الذى كان يطلق من قديم على تونس) تنتمى اليوم الى فرنسا ، وبمساعدة ما بها من جمال وهجين ، تستطيع فرنسا أن تذهب الى السودان ، ومن تونس تذهب الى الفرات ، بل لقد ذكر مسيو فرنسييه (رئيس وزراء فرنسا الذى أعقب جامبيتا مباشرة) فى وضوء تام للكولونيل فلاتر Cal. Fletters أنه لابد من تكوين حزب فرنسى فى السودان •

حسن اخلاصكم وشدة غيرتكم الوطنية ، واني لم اكلفكم باحتمال اعباء هذا المسند العظيم الا لعلى بعيتكم ، ووثوقى باخلاصكم التام المؤيد بما ابديتكم من الخدمات الصادقة فيما تقلبتم فيه من المصالح المتنوعة ، واني موافق على ما احتواه تقريركم من المبادئ المهمة التي هي اساس للعدل ورابطة للنظام ، وكافلة باستقرار الأمن ، وشموله جميع سكنة الديار المصرية ، وارى مثل ما رأيتم أن من الضروري أن تهتم حكومتى باجراء الاصلاحات القضائية والادارية ، وتأسيس قانون مجلس النواب على النحو المبين فى تقريركم وتوسيع دائرة المعارف العمومية والزراعة والتجارة والصناعة ، واني مستعد على الدوام لمساعدتكم كل المساعدة على تنجيز جميع ذلك بصدق النية واخلاص الطوية ، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه خير البلاد وراحة العباد .

٤ فبراير ١٨٨٢

وكادت تكون خطة محمود سامي ، المسكين ، موجزا نبوئيا لتقرير « لورد دافرين » ، ولملاحظة مدى هذا التقارب يمكن قراءة الاثنى جوبا الى جنب .

غادرنا « سير ادوارد ماليت » (١٧ مارس) ، ومرة أخرى أوجت الأمور بمظهر سلمى ، وصار المسئول من بعده « مستر كوكس Mr. Cookson » الذى تحدث فى ٢٠ مارس عن « عرابى » على أساس أنه من المحتمل أن قاوم المؤامرات التركية لعودة « حليم » للعرش الخديوى . وفى ابريل عاد « سير ادوارد ماليت » ، واذا بهدوء الموقف تعكر صفوة المؤامرة الجركسية على حياة « عرابى » التى تبين أنها كانت حقيقية ولم تكن مختلفة والتى أقر حقيقتها الخديو توفيق ورأى فيها خطرا معقلا لنفسه من المصدر ذاته . وفى رسالة « سير ادوارد » الرسمية بتاريخ ٢٣ ابريل كتب يصف هذا « الامير الشاب المحبوب » بأنه لون من طراز الحاكم الدستورى، ولكنه لاحظ أنه « قد استتحت لينصب نفسه على رأس الحركة الوطنية ، وهو طريق قد يجبره على أن يتخلص من الموظفين الاوربيين » . وقد حوكم الجراكسة ، وكانت النتيجة ببساطة هى النفى بعد أن خفف الخديو الحكم الذى حكم عليهم به أصلا (١) .

(١) بعد انتهاء الدورة النيابية لمجلس النواب ، علم عرابى فى ابريل ١٨٨٢ من « طلبة باشا عصمت » قائد اللواء الاول ، أن بعض الضباط الجراكسة يأنمرون به ويدبرون الأمر لقتله وقتل رؤساء الضباط الوطنيين والنظار ؛ فعرض عرابى الأمر على النظار ثم على الخديو ، فتقرر اجراء تحقيق ، فعقد مجلس عسكري برئاسة (الفريق) راشد باشا حسنى ، وبلغ عدد المتهمين أربعين ضابطا ، وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى ناظر الجهادية السابق . وسيق المقبوض عليهم الى ثكنات قصر النيل . وفى ٣٠ ابريل ١٨٨٢ أصدر المجلس حكمه فى القضية بالنفى المؤبد الى أقاصى السودان مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ، مع مراعاة تفريقهم فى الجهات التى ينفون إليها ،

فى بادئ الأمر أن تستقيل ، ولكن بعد ذلك ببضعة أيام (٢٥ مايو) قدم
النظار استقالتهم من نظاراتهم على أساس أن « توفيق باشا » قد قبل
المذكرة المشتركة ، خلافا لنصيحة النظار الجماعية له ، وعليه ، فقد طلب
من وكلاء النظارات أن يستمروا فى مباشرة مهام نظاراتهم ، ومع ذلك ،
فقد أيدت المؤتمرات الشعبية « عرابى » وأعيد لمنصبه ناظرا للجهادية ،
ووصل الأسطول الى مياه الاسكندرية ليكون مطابقا فى تأييده المعنوى
للمذكرة الثنائية . عندئذ لجأ الخديو ، دون معارضة ظاهرية من ممثلى
الدولتين العظميين ، لجأ مرة أخرى الى الباب العالى ليعث له بوفد عثمانى
امبراطورى . وفى ٣ يونيو غادر « درويش باشا » « وأحمد أسعد » ، مع
حاشيتهما ، القسطنطينية . لقد كانت شكوى الأدميرال الانجليزى من أنه
شيدت استحكامات جديدة بالاسكندرية ، وقدم احتجاجا للسلطان ، الذى
تلقى تأكيدا تلغرافيا من الخديو أنه لم يحدث شئ من هذا القبيل . وينفى
عرابى الآن وبشدة أنه لجأ الى أى تأثير غير مشروع لاثارة أى هياج لاعادته
لتولى منصبه ، بالرغم من أن « سير ادوارد ماليت » يدحض ذلك ، رغم
أنه لا يوجد أى دليل يؤكد هذا . ووصل « درويش » (٧ يونيو) وكانت
وجهته القاهرة .

فى هذا الوقت ، يبدو أن انجلترا قد وضعت بعض ثقتها فى فعالية
التدخل التركى ، لأنه فى يوم ٨ يونيو ، كانت سيادة السلطان على مصر
معترفا بها اعترافا تاما ، وقد علمنا أن « موسوروس باشا » قد تأكد له
أن « انجلترا راغبة فى الحفاظ على حقوق جلاله السلطان التى هى حقه » ،
ويبدو أن درويش باشا بدأ مهمته باللعب على الخديو وعلى الوطنيين ، ولم
يفعل شيئا غير هذا ، ونحن باطلاعنا الآن على الرسائل الرسمية نجد أن
« عمر باشا لطفى » ، آخر خليفة لـ « عرابى » وناظر الجهادية المصرى
الفعلى ، كان فى القاهرة وقتها ، ولم يكن بالرسائل ما يوضح متى عاد
عرابى لتولى منصبه .

ومن المؤكد أن « عمر لطفى » كان فى الاسكندرية يوم ١١ يونيو
عندما اندلعت ثورة خطيرة (عرفت من وقتها باسم مذبحة الاسكندرية) .
وقد قتل كثير من الأوربيين والوطنيين قبل أن يتمكن الجنود من قمع
الشغب . لقد نقلت التقارير الرسمية البريطانية بصورة واضحة الانطباع
بأن « عمر لطفى » كاد يكون شاهدا سلبيا للمشهد (١) ، وهى تقرر

(١) شهد الكاتبان الأخوان أونوفريو Brothers Onefrio أنها رايها عمر لطفى على
بعد بضع ياردات من « مستر كوكسن » عندما أوقعه رجل أرضا اثر ضربة من هراوة ، =

بصورة واضحة تماما أن الشعب كان مدبرا ولم يكن عرضيا (١) ، وأنه قل أن تجد أى اختلاف بين سلوك المستحفظين ، أو البواليس وبين سلوك الشعب ، وأن القوات وحدها قد باشرت من تلقاء ذاتها استتباب النظام والحيلولة دون قيام شغب من جديد .

وفى اليوم التالى ، عقد مؤتمر فى القصر الخديوى بالقاهرة ، وفى حضور الممثلين الأجانب والخديو ، دخل درويش باشا وعرابى فى اتفاق مشترك وملزم « عن مسئوليتهم الشخصية فى حفظ النظام فى مصر وطاعة الخديو الذى يتلقى تعليماته من سلطاننا المهيب أمير المؤمنين » .

كانت المحنة تقترب الآن اذ لم يتوقف عرابى قط عن الشكوى من « التهديد الدائم » لوجود الأسطول ، فى الوقت الذى بعث فيه « سير بوشامب سيمور Sir Beauchamp Seymour » برسالة فى أثر رسالة عن « التهديد الدائم » للطوابى . وقد ذكر درويش لد « سير ادوارد ماليت » ، ساخرا ، أنه من المفروض أن يتركز الجيش فى الاسكندرية ، حتى اذا قاوم ، لو استدعى الأمر ذلك ، يمكن تحطيم مقاومته عند أول ضربة » . ووثق « سير ادوارد ماليت » بكلامه ! وكان « الخديو » و « درويش » يوم (١٣ يونيو) فى الاسكندرية . وكان من الواضح أن شيئا يجب أن يؤدى ويؤدى بسرعة ، فاقترح « لورد جرانفيل » أنه « يجب دعوة الباب العالى للانضمام الى القوتين العظميين فى انزال قوات فى مصر » ، ولكن « سير ادوارد ماليت » (فى ١٧ يونيو) فى الساعة الحادية عشرة ، نصح بدعوة « الحزب الوطنى » القديم ، الذى كانوا ينكرون حتى وجوده .

= ورغم أن عمر لطفى كان حوله جند أو رجال بوليس (اذ لم يكن واضحا أيهما) لم يفعل شيئا ليساعد كوكسن .

١٠ هذا غير صحيح ، وفيما يلى ما يوضح كيف بدأت المذبحة : وقع شجار يوم الأحد ١١ يونيو ١٨٨٢ نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، بين أحد المالطين من رعايا الانجليز وأحد السكندريين يدعى « السيد العجان » ، وكان المالطى هو البادى بالعنوان ، فقد كان للوطنى حمار ركبته المالطى وأخذ يطوف به من الصباح متنقلا من قهوة الى أخرى وانتهى طوافه عند شمارة قريبة من قهوة القزاز بالقرب من مخفر اللبان آخر شارع السبع بنات ، فطالب الوطنى المالطى بأجرة ركوبه فلم يدفع له سوى قرش صاغ واحد ، فجادله فى قلة الأجر ، فما كان من المالطى الا أن أشهر سكيننا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على اثرها ، وقع الحادث فى الزقاق الكائن خلف قهوة القزاز ، فهرع رفاق القتل الى ذلك المكان يريدون أن يمسكو بالقاتل ولكنه فر الى أحد المنازل المجاورة ، وأخذ المايطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث - يلقون النار على الأهلى من الأبواب والنوافذ فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح نثارت نفوس الجماهير تطلب الانتقام لمواطنيهم وتحركت طبقات الدهماء للاعتداء على الأوربيين عامة ، فاخذوا يهجمون على كل من يلقونه منهم قى الطرقات أو فى الدكاكين ويوسعوهم ضربا ، وكان سلاحهم فى هذه المعركة العصى والهاوات . (المحقق)

وقد استدعى النواب للوصول الى تعبير عن رغبات البلاد ، وكان هناك وعد بوضع دستور ، واتفق الجميع على « قيام اتحاد بين النواب والحزب العسكرى ، وأن تكون كلمات سرهم « الوطنية والقانون » . وبعد كثير من المسيرات السياسية والمسيرات المضادة قرر الخديو (١٧ يونيو) تشكيل نوع من حكومة ائتلافية تحت رئاسة « راغب » ، وكان موظفا سابقا فى عهد أبيه . وقد ضمت النظارة الجديدة « عرابى » وواحدا أو اثنين من أعضاء نظارة سامى المقالة ، وقد اتخذت هذه الخطوة تحت تأثير ألمانيا والنمسا ، ولكن انجلترا وفرنسا رفضتا الاعتراف بالنظار ، ووصلت تعليمات الى « مستر كارتررايت Mr. Carwright » (الذى كان قائما بأعمال سير ادوارد ماليت) أثناء إصابته بالحمى) بأن يكون اتصاله فقط برئيس النظار ، وبالاهتمام فقط بحماية أرواح الرعايا البريطانيين .

ووسط هذا الاضطراب ، بدأ الخديو توفيق كموضوع لعبة شد حبل دبلوماسى : اذا أمره درويش باشا كما أمره السلطان ، بالعودة الى القاهرة ، بينما منعه « سير آرشيبيولد كولفن Sir Archibald Colvin » من مغادرة الاسكندرية .

لم يشبث شئ من همة رئيس مجلس النظار الذى ناهز الشمانين عاما ، أن يصدر (فى ٢٠ يونيو) برنامجا عادلا ومتحررا : العفو عن كافة الجنح السياسية باستثناء الاشتراك فى حوادث ١١ يونيو ، ويحكم الخديو حكما دستوريا طبقا لمرسوم اسماعيل باشا الصادر فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ (بمعنى آخر ، بموافقة ومشورة نظاره) ، ولن يعاقب فرد الا بمقتضى تشريع قضائى ، وينبغى على ناظر الخارجية وحده ، من الآن فصاعدا ، أن يتصل رسميا بالوكلاء السياسيين الأجانب . وبعد ذلك بأسبوع (فى ٢٦ يوليو) فكر السلطان فى أن يبعث بقوات من عنده . فى هذا الوقت ، يجب أن نذكر أنه لا الخديو ولا أى من أصحابه اشتتم حتى أدنى شك فى اشتراك عرابى فى حوادث الشعب التى حدثت فى يونيو ، ولم ينهض أى دليل من الأدلة المقدمة فى أية صورة من الصور ، لتأكيد ذلك ، وهو فى النهاية تلقى النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ، من السلطان ، بل ان « لورد دافرين » عندما توجه الى قصر يلدز Yildiz Kiosk يطلب تفسيراً لتفكير السلطان فى ارسال قوات تركية الى مصر ، اضطر لأن يرضى نفسه بتوكيد تكهنى بأنه « سيحين الوقت الذى سيصفق فيه تصفيقا حادا على المسرحية » ، وبعد ذلك بعث توفيق الى « عزيزه » راغب باشا بموافقة الكاملة على تقريره كما سبق له أن وافق منذ أربعة أشهر على تقرير « عزيزه » محمود سامى ، وفى ١٠ يوليو قدم درويش الى مستر

كارترايت احتجاجا قديرا فعلا ضد الوضع الاستفزازي الذي اتخذته الأسطول البريطاني ، وقد ذكر فيه درويش ان الخديو اما أن يصمد أو يسقط مع نظارته . ومنذ ثلاثة أيام مضت (ولا شك أن ذلك كان تحت تأثير درويش) أعلن توفيق نفسه لـ « مستر كولفن » انه لا يمكن أن يتخلى عن مصر « اذا ما هاجمتها قوة أجنبية » ، وبعث بتلغراف الى الباب العالي بأنه « ليست هناك كلمة صدق » في التقارير التي وصلت القسطنطينية والتي تقول بأن طوابي الاسكندرية قد زيد في استحكاماتها بعد تلقي أوامر بذلك ، وأن هذا يخالف الواقع .

لم يرد بالتقارير الرسمية البريطانية ذكر عن الاجتماعات التي عقدت برئاسة « الخديو » و « درويش باشا » ، وإن كان هناك بيان كامل عن ضرب الاسكندرية ، وهناك تعبير عن المزيد من الهلع في استخدام المفاوضات عديمة النفع ، وفي استخدام الراية البيضاء « لكسب الوقت » . وقد وصلت تعليمات للمندوبين البريطانيين في كل من القسطنطينية والاسكندرية (حيث وضع الخديو نفسه تحت الحماية البريطانية) بالاصرار على أن يعلننا رسميا أن عرابي عاص . ويحول السلطان مجرى الحديث في الوقت الذي أكدت فيه الصحافة التركية الموهوبة ، وفي جرأة وبدون ما خوف من تكذيب لها ، أن « القوات التركية في طريقها الى مصر لحماية الأهالي الوطنيين من العدوان الأجنبي الغاشم » ، ومجدت تمجيدها عاليا في ورع ووطنية « عرابي » . وتردد الخديو ، ثم أخيرا عزل « عرابي » وعين « عمر لطفى » في منصبه ، ووعد بإصدار عفو عمومي عن يهودون لولائهم ، وأخيرا ، في ٢٤ يوليو (بعد أسبوعين تقريبا من ضرب الاسكندرية) أعلن أن « عرابي » عاص ، وذلك في منشور علق على الجدران بشوارع اسكندرية ، تميز بالغموض وعدم الاقناع . وفيه قال الخديو (١) .

(١) لم يكن هذا المنشور الا تبريرا من الخديو لعزله لعرابي ، اعسالا بنصيحة « كارتريت » له وتنفيذا لتعليمات « لورد جرانفيل » ؟ أما قرار العزل فقد نشر في الوقائع المصرية العدد الصادر في ٢١ سبتمبر ١٨٨٢ وفيما يلي نصه بعد الديباجة : « ان ذهابكم الى كفر الدوار مستصحباً العساكر واخلاء ثغر اسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك ، وتوقيف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا ومنع ورود البوستة الينا ومنع حضور المهاجرين الى وطنهم باسكندرية واستمراركم في التجهيزات الحربية وارتكابكم عدم الحضور بطرفنا بعد صدور أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم ، فقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوما » .

وجدير بالذكر أن الخديو عين عمر باشا لطفى ناظرا للجهادية والبحرية خلفا لـ « عرابي باشا » . (المحقق)

« ليعلم كل من يقرأ هذا الأمر سبب عزل أحمد عرابي باشا ، ذلك أنه بعد عشر ساعات من ضرب الشواطئ ، حطمت طوابينا وحطم أربعمائة مدفع من مدافعنا وقتل القسم الأكبر من رجال مدفعيتنا أو عطلوا بينها لم يفقد الأسطول الانكليزي الا خمسة رجال ولم تصب سفنه اصابات ذات بال ، وجاءنا حينذاك أحمد عرابي يعلن اليينا النبا المؤلم عن تحطيم طوابينا . وقد طلب الأميرال الانكليزي منا اخلاء طوابي العجى والدخيلة والمكس لتحتلها جنوده ، ولما كان مجلس النظر منعقدًا بحضور درويش باشا ، فقد تقرر أنه لا يمكن اخلاء الطوابي الا بأمر من صاحب الجلالة الشاهانية السلطان ، وأنه على عكس ذلك صار من الضروري العمل على تدبير وسائل الدفاع عنها وذلك بوضع حاميات جديدة. تمتع نزول الجنود الأجنبية ، وفي نفس الوقت ، أرسلنا لتلغراف بذلك الى الباب العالي ولكن عرابي باشا توجه الى جهة باب رشيد باسكندرية دون أن يتخذ أى اجراء حرجى. فأرسلت اليه أحد ياورى ليذكره أنه يجب عليه ارسال امدادات الى الطوابي المذكورة ، فأجاب بأنه لا يستطيع أن يرسل جنديا واحدا وأمر الجند بأن ينسحبوا معه وعسكر في كفر الدوار فأرسلوا المدينة بغير دفاع وفي اليوم التالي نزلت القوات الانكليزية عند الاسكندرية أهم بقعة في بلادنا واحتلت المدينة بدون اطلاق طلقة واحدة ، وهى حقيقة مشيئة فى شرف الجيش المصرى ، ولا تقع شينها الذى لا يمحى الا على مسببها - على « عرابي باشا » . . . الى آخر ماجاء بالقرار الذى يوضح بمعنى آخر ، ان اعلان « عرابي » عاصيا مرده الى أنه لم يقرب الانجليز عند اسكندرية .

والجدير بالذكر أن كل حقبة من شئون الشرق يتخللها ، الى حد كبير ، عنصر هزلى ، ولم تسلم التقارير الرسمية البريطانية من هذه العدوى بالمرة ، ومن ثم فأننى مضطر ، على مضض ، لأن أتوقف عن متابعة الخطابات التى بعث بها « لورد دافرين » من القسطنطينية . ان وصفه الطريف الرفيع لغرائب المؤتمر ، وعن محاولاته الحصول على قرار ضد عرابي ، وعن المفاوضات التى نجحت فى الحيلولة دون توجه جيش تركى الى مصر ، لهُو جدير بأن يعتبر صورة أكثر شعبية من أن يكون مجرد تسجيل رسمى . وهى مع تهكمها وسخريتها العذبة تكاد تشفق علىها بمرح أعرض ، نوعا ما ، ما كانت تذكره جريدة القصر Court Journal من أنباء كانت متأخرة عن أوانها Post-dated والتى كان يحورها أحد الشبان الموهوبين من السلك الدبلوماسى - اسمه مستر جيرالد هـ . بورتال Mr. Gerald H. Portal والتى تذكر لنا تفاصيل أسوأ لقاء لربع ساعة mauvais quart d'heure مع الحديو توفيق فى الرمل يومى ١١ و ١٢ يوليو ، والتى بدت فى الرزاة المتطلبة فيها على اعتبار أنها الوثيقة رقم ٤٧١ ضمن مجلد التقارير الرسمية البريطانية رقم ١١ لسنة ١٨٨٢ . والمقتبسات التالية تعطى فكرة طفيفة . عما تضمنته من مواهب كاتبها :

لقد اتضح بعد ذلك « أن رئيس خبازى القصر توجه الى عرابي باشا وأخبره ان الحديو وحزبه ، اعتقادا منه بأن الجيش المصرى كان يعانى معاناة قاسية - كان غاية فى

«السرو» en état royannant ، وطلب مقاومة القوات حتى لا تهاجم القصر

وبعد فترة قصيرة من انصراف طلبة باشا ، أحيط قصر الرمل فجأة بالخيالة والمشاة ، وكانوا في مجموعهم حوالي ٤٠٠ ، في أحسن ملابس ، وكثير منهم كانوا بلا سراويل وغيرهم بدون سترات . وكان أول ما فكر فيه من في القصر عنهم أنهم من البدو الذين أعلنوا ولاهم في الصباح ، ولكن ما لبث أن اكتشفوا أن حوالي ٢٠٠٠ جنيه استرلينى قد وزعها أعوان عرابي بينهم وبين غيرهم من الموالين للخدو لضمان تقيهم . ونتيجة لذلك ترك الخديو بلا حول له مع قلة من أتباعه . عم الهلع القصر ، وصار الخدم جميعهم متلاحمين من الخوف . وقد أظهر الخديو نفسه أقصى ضبط للنفس وأقصى هدوء ، واستبدل خفه بجلاء طويل ، ثم أمر بإحضار بندقيته له ، وفعل درويش مثلما فعل (هل استبدل الحف بجلاء طويل ؟) معلنا ، والسموع في مآقيه نيتة في أن يموت تحت قدمي سموه .



وعقد اجتماع عام في القصر للمداولة في مخاطر الموقف :

فصح درويش باشا بأنهم يجب أن يهربوا الى « بنها » ثم يتوجهوا منها الى « السويس » ، وكان البعض يفضلون الذهاب الى القاهرة ولكن الخديو لا يمكن أن ينصت الى هذه النصيحة .

ولقد استقر الرأي في النهاية على أن أهم نقطة هي احاطة علم الأدميرال بالوضع ، وأن يكون هناك ، أن أمكن اتصال بالأسطول . استمرت هذه الحالة من التشكك والقلق حتى الصباح التالي عندما أعلن (في ١٣ يوليو) البباشى (قائد) القوات منيب أفندى ، أعلن عن ولاءه للخدو ، استدعى للحضرة الخديوية ووجه صاحب السمو حديثا حازما ومؤثرا على المواقف حتى دمعت عيناه ، ثم استدعى الضباط الذين كانوا في منجته للحضرة الخديوية ، واقسموا جميعهم بالولاء للخدو ، وقبلوا يد صاحب السمو كما قبلوا يد درويش باشا .

وأعقب ذلك توزيع الخديو للنياشين ، وعادت الثقة في أعظم صورة .

ثم أرسل « زهران بك » الى الأدميرال لأخبار فخامته أن صاحب السمو يريد أن يركب « المحروسة » أو ما هو خير من ذلك ، التوجه الى قصر رأس التين ، اذا لم يكن القصر قد دمر .

وفي الساعة الواحدة عاد « زهران » بنبا أن الأدميرال قد وضع حراسة عند « القبارى » و « الترسانة » ؛ من جراء ذلك أرسل في الساعة الثانية « تکران بك » ليعلم للأدميرال أن الخديو سيبدأ في التوجه الى الترسانة في خلال ساعة .

وفي حوالي الساعة الرابعة ، وصل سموه الى قصر رأس التين ، وكان قد التقى به في الطريق كلا « سير ١٠ كولفن » و « مستر كارثرايت » ، بينما استقبله عند نهاية الدرج الأدميرال « سير بوشامب سيهور » .



بما يفوق الوصف فاستولى على أموال الضرائب وعزل كثيرين من موظفي الحكومة واستبدلهم بغيرهم في حالة كونه معزولا من وظيفته معدا للعقاب الصارم الشديد . ولقد راينا ان قلوب كثيرين من رعيتنا لا تزال قاسية مائلة الى عرابي بالرغم من أوامرنا السابقة فلذلك أصدرنا هذا المنشور الآخر معلنين فيه ان كل شخص ذا ضلع مع عرابي وميل اليه عددناه عاصيا مستحقا جزاء العصيان .

فرحمة بمصر وأهلها تستأنف الآن إعلاننا للمصريين عموما والجند خصوصا ان كل من أجر على عصياننا وانقياده لعرابي كان مذنباً أمام الله وغير مقبول العذر لدينا فنجوده من ولده وذريته من جميع الرتب والرواتب ومعينات التقاعد وسائر الامتيازات التي كان يتمتع بها . «

وتستمر التقارير الرسمية البريطانية (التي نشرت في الفترة السابقة لمحاكمة «عرابي») في سردها للأحداث فنقول انه حدث بعد ذلك أن « شريف » و « رياض » (الذي عاد من اقامته القصيرة في جنيف) خلفا « راغب » (في ٢٧ أغسطس) في حين أن عمر لطفي بقي زميلا لهما في نظارة الجهادية مكافأة له على ولائه للخديو ، وفي (٢٢ أغسطس) أعلن أن أوامر « سير جارنيت ولسلي Sir Garnet Wolseley » تكون لها نفس قوة أوامر صاحب السمو ، وبعد ذلك بفترة قصيرة (٢٨ أغسطس) طلب « لورد جرانفيل » من الحكومة المصرية ألا توافق على تنفيذ حكم الاعدام في أي أسير حرب يسلم نفسه لهم أثناء « العمليات العسكرية » بدون موافقة من إنجلترا . وتنتهي سلسلة التقارير الرسمية البريطانية ببيان عن المفاوضات التي أدت الى السماح بالدفاع عن عرابي وعن العديد من صحبه الذين سلموا على هذا الأساس الى السلطات المحلية. وهنا تنتهي قصة التقارير الرسمية البريطانية .

والنتيجة من قراءة هذه التقارير الرسمية قراءة متمعة لا تخلو من اعطاء مدلولة لها معناها عندما يفكر المرء في أنها تشكل صفحة في تاريخ إنجلترا ، ولم يرد بها ذكر عن أن طريق إنجلترا الى الشرق كان محفوا بالمخاطر لمدة طويلة ، ولم يرد ذكر شيء عن الالتزام « باستتباب النظام » الذي يبدو أنه النظر الانجليزى « للمهمة الحضارية mission de civilisation » للانهازية الفرنسية . ولقد لاحظ « مستر جاستن مكارثي Justin M'Carthy » (١) في صدق بالغ أن « التاريخ لا يذكر دائما على لسان مدبري أي حرب ، الدافع الحقيقي والموحي بالحرب ؛ وهو في الواقع لا يرى غالبا على حقيقته ولا مصرحا به ، حتى في آراء المشجعين عليها

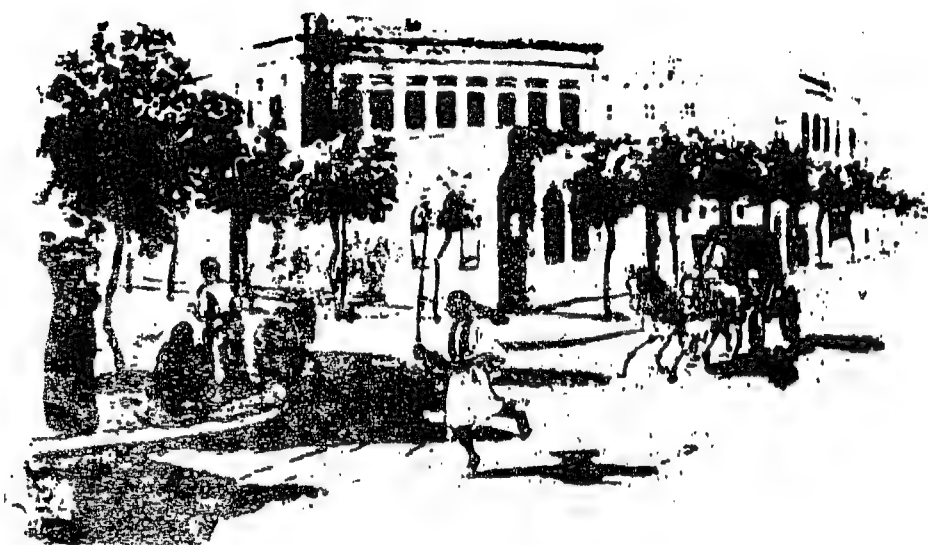
(١) انظر كتابه : « تاريخ زماننا A History of Our Own Times » ، لندن ،

١٨٨٢ ، المجلد الاول ، ص ١١٩ .

لزيارتنا فى الساعات المبكرة ، المثقلة ، فى الصباح أو فى عتمة الغسق
المصرى ، ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن وجود القوات الانجليزية قد
أزال كل الأسباب الحقيقية للخوف . لقد روى لنا ابن عرابى وخادمه ،
لعده أيام ، روايات محزنة عن كيف أن أسرة « عرابى » تعرضت
للاضطهاد وأنهم اختبئوا فى بيت فى حى مغمور من أحياء المدينة .
وجاءنا « بشير » وهو عبد نوبى يعمل عند « طلبه باشا » ، يطلب منا
تولى الدفاع عن سيده ، وختم على الطلب بخاتمه حتى يكتسب قوة
التوثيق عند تقديمه للمدعى . وفضل « مجاهد فهمى » ، ابن شقيق
على فهمى باشا أن يقدم طلبا مماثلا نيابة عن عمه ، كما فعل أيضا الصبى
ضئيل الجسم أسود العينين ذو الأربعة عشر عاما واسمه « سعيد » بوجهه
الذى كشف عن الدم الزنجى الذى كان يجرى فى عروقه ، اذ قدم
لنا طلبا نيابة عن أبيه « عبد العال » ، الذى لم يتخل عن واجبه ، أبدا
طوال الحرب حتى استسلم فى دمياط لا لشيء الا ليرحل الى السجن . فى
هذا الوقت ، كان الجركسى الشرير المدعو « عبد الرحمن أفندى » الذى
كان ، طبقا لحطة ، يسيىء معاملة أقارب العصاة المهزومين سيئى الحظ ،
وكانت شكايات زوارنا ، نتيجة لذلك ، تكاد لا تنتهى على أن هذا الطاغية
النزق ، ما لبث أن خمد بعد فترة ، لأن واضعى الحطة بدءوا يشكون
فيما اذا كان المساجين ، على أية حال ، ليسوا عديمي الحيلة ، كما كانوا
يتوقعون .

زرنا عرابى فى السجن أثناء صباح اليوم التالى (٢٥ أكتوبر)
ووجدناه مشغولا بكتابة مذكراته . كان يكتب بسرعة كبيرة ، ولكنه قال
لنا بصراحة أن ذاكرته أخيانا ما تخونه ، ومزد ذلك ، فى اعتقاده الى
الاستفزاز الذى مر به مؤخرا ، وكان عرابى يتوق الى أن تكون غرفته
اضاءة حتى يمكنه أن يكتب بعد أن يخيم الظلام ، ولكن طلبنا رفض ، من
جاء محاولة مزعومة كانت تستهدف ادخال الغاز فى السجن ، ولنفس
السبب منعت سلطات السجن خدم المسجونين من الاتيان بطعام لهم .
وكان موضوع الاضاءة دائما طلبا مثيرا للازعاج ، وحتى نهاية اقامتنا فى
مصر ، تقريرا ، كان حكرا على الحرس الذين كانوا يبيعون الكبريت لمن
كانوا فى الحجز عندهم ، بفائدة تصل الى بضعة آلاف فى المائة .

وكان عرابى شديد السخط من قصة الغاز ، وقد كتب المذكرة
التالية الى مستر Mr. Bell مراسل جريدة « التايمز » ، اذ تصور
« عرابى » أنها موجهة اليه ، فأراد أن يكذبها علانية :



(شکل ۲) - بیت عربی - مستشفی لیدی سترانچفورڈ

« جناب المحتشم والمحامي عنى مستر برودلى دام كماله

من حيث بلغكم بأن تابعى دخل عندى فى أوده السجن وترك فيها زجاجة مملوءة غاز لأجل حريق محلات السجن فينبغى أن تكذب هذا الخبر فانه محض افتراء حيث انى معروم بعد رؤية خادمى حتى النظر من يوم انتقالى الى السجن المصرى فى ٥ أكتوبر ١٨٨٢ وكيف يتصور أن احرق نفسى واموت مخالفا لأحكام الشرع وأنا ابن صاحب الشريعة نم كيف لم الفعل ذلك فى المدة التى أقمتها مسجوناً بطرف عسكر الانكليز حالة كون خادمى يخدمنى ليلاً ونهاراً من غير حرج فاذا كنت يأنست من ظهور الحق كنت هاجرت فى أرض الله الواسعة وكنت توجهت الى لندرة ملجأ الخائفين ولكنى سلمت نفسى الى شرف الانكليز وزمنها فى مصر وفرضت انى دخلت فى لندرة وأن لا خوف على وانما هذه اكنوبة بعدم مساعدتى بخدمة خادمى لأنه فى ذلك نوع من العذاب وشرف انكلترا يابى اهانتي بعد استسلامى ، احمد عربى ٢٨ أكتوبر ١٨٨٢

كان عربى فى غمرة سروره عند سماعه عن توقعات أننا سنتولى أيضاً الدفاع عن « على فهمى » و « عبد العال » ، نظراً لأن ثلاثتهم وقفوا فى مقدمة الحركة الوطنية منذ أن سجنوا وأطلق سراحهم فى تاريخ يرجع الى فبراير ١٨٨١ . وقد كتب عربى خطاباً موجز كتعريف لكل منهما ، راجياً من صديقيه أن يضعاً ثقتيهما الكاملة فينا مثلما فعل هو .

وفى وقت متأخر من النهار ، زارنا « بوريللى بك » ، ولم يكن يبدو فى بشاشته العادية ، وتحدث فى قنوط عن كثرة عمله وعن صعوبات المحاكمة ، وانتهى حديثنا فى مشروع وفاق مشترك على اثره اتصلت ب « سير ادوارد مالىث » ، ولكنه لم يأت بنتيجة لسبب غير معلوم ، ولم تكن الأمور قد نضجت بعد لتسوية من هذا النوع .

بعد الظهر ، قمنا بزيارة للمستشفى الانجليزى الذى أنشأته ليدى سترانجفورد Lady Strangford مكان الدار الضخمة التى استأجرها عربى يوماً ما ؛ وكانت ليدى سترانجفورد تعمل فى المستشفى بصورة لا تكمل لتخفف عن المعاناة التى كانت تسود قوات الاحتلال ، وكان مشهد جنازات جنود الاحتلال لا يثير حزن الانجليز يوماً بعد يوم ، ولقد اتخذ رسام فرنسى مشهور منظراً من هذه المناظر ليسكون موضوعاً لاحدى صوره التى سيعرضها فى صالونه القادم . ان رد فعل الارهاق ومتطلبات الحياة غالباً ما يكون خطيراً اذا ما توقف الانطلاق عن انارته . وفى القاهرة ، يبدو أن المرض قد ولدته بالفعل المشروبات السامة التى كانت تباع فى مقاصف المالبطين واليونانيين التى ظهرت حول كل معسكر .

عند دخولنا القاهرة ، كاد أثاث عربى أن يتحطم كله بحثاً عن أوراق

تكشف عن خيانة ، فالأرائك والوسائد قد شقت بطولها وخنعت الأرضيات وثقيمت الأسقف ، فلما طلبت « ليدى سترانجفورد » الدار أعطاهما لها الحديو (١) . اننى لم أسمع قط كيف حصل عليها عرابى نفسه . لقد كانت غرفها المطلقة الهواء والشاهقة الارتفاع (التى كانت من ثلاثة أشهر مضت مزدحمة بالزوار المعجبين بـ «عرابى») كانت أحسن ملاءمة لاستخدامها الراهن ، وأما ترتيبها الدقيق فكان يحقق كل الرغبات . لقد كان من الصعب أن نتصور ، ونحن فى هذه الدار ، المشاهد البسيطة للحياة البيئية لـ «عرابى» التى وصفتها ليدى جريجورى Lady Gregory أحسن وصف .

اننى أخشى أن تكون « ليدى سترانجفورد » قد سمعت كل شيء غير منصف فى حق عرابى ولم نسمع شيئا لصالحه . كانت لا تزال هناك قطة كبيرة سوداء أبيض ذيلها تقفح الحجرات بحثا عن قاطنى الدار القدامى ، وكان الاعتقاد بوجه عام أن القطة قد تملكها روح شريرة . لقد ذكرت أخت الحديو لصديقة « ليدى سترانجفورد » أنه سيكون بتدبير من عند الله لو أن عرابى مرض وجيء به الى المستشفى حتى يمكن تقديم قدح من القهوة على الطريقة الشرقية . لقد حاولت أن أثير اهتمام « ليدى سترانجفورد » بموكلى ، الذى بعث لها فى اليوم التالى بصورته وبرسالة ذكر فيها أنه لم يسعده شيء أكثر من استخدام داره القديمة فى هذا العمل الانسانى الجليل ، ولكنى لم أذكر لـ «عرابى» قصة أخت الحديو ، ولكنه رجاني أن أؤكد لفخامة الليدى الصفات الحميدة التى تتميز بها القطة التى كثيرا ما كانت تساء معاملتها .

وما لبث عرابى المسكين أن وجد عند « ليدى سترانجفورد » برهانا على شفقتها ، ذلك أن ابنا صغيرا لعرابى مرض ، فلم يتقدم طبيب وطنى مخلص ليعالج طفلا لشخص عاص . جاءنا « محمد بن عرابى » فى محنته ، وبدأ الأمر يستوجب تحركا عاجلا ، هرع خادمنا الأمين « حسن » يبحث

(١) قبل استلام ليدى سترانجفورد للدار كانت السراى دائمة استعجال ضبطية مصر لاخلاء دار الزعيم عرابى ، وفيما يلى صورة طبق الأصل لتلغراف السراى : « من مهرداد خديوى فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ الى مأمور ضبطية مصر . سبق تحرر لكم باخلا منزل الشقى عرابى بنا على الأمر وطلب منكم الافادة ولحد تاريخه لم ترد وحيث المنزل المذكور مقتضى ايجاله شغفانة صدقة للجرحين فبوصوله يجرى اللازم لاخلاء ويفاد حالا » (محفظة ٨ دوسيه نمرة ٧/٥٣ - دار الوثائق القومية بالقاهرة) وانه لمن الحسنة أن ينعت هذا الباشكاتب بضالته ، زعيما كان ملء الدنيا معقد آمال مصر بـ « الشقى » ، ولا شك أنه لم يكن ليجرؤ على نعته لزعيم أمته بهذا النعت ما لم يجد تشجيعا من ولى نعمة الحديو الذى كان يحرس قصره عساكر انجليز !! (المحقق) .

عن « دكتور جرانت بك Dr. Grant Bey ، كما لجأ « مسبر نابير » الى طبيب للدى سترانجفورد ، « دكتور سيفكنج Dr. Sievcking » ، وتوجه كلاهما على الفور فى مهمتهما الرحيمة . وعلى الفور ، أبرق ناقلو الأنباء الخصوصيون ، ممن لهم الخطوة عند القصر ، بهذا الوضع على أساس أنه برهان على عدم شعبية عرابى ، فى حين أن من كانوا يميلون الى العطف على عرابى علقوا على ما حدث بأنه مثل على قسوة أعدائه ، ولنختتم القصة كلها ، نقول ان كلا الطبيين الانجليزين بدءا نقاشا جديدا حادا فى « المجلة الطبية البريطانية » (١) عن من يكون له شرف معالجة طفل عرابى ، وعن ما يعانى منه الطفل . والفقرة التالية المنقولة عن جريدة « التايمز » اللندنية حسمت الموضوع فى النهاية ، بل انها قد حطمت تماما أى بهتان يمكن الرد به : -



(شكل ٣) - علي فهمي باشا

طفل عرابى - ترى المجلة الطبية البريطانية ان طفل عرابى الذى نرى الينا مؤخرا انه مريض مرضا خطيرا ، والذي رفض الأطباء المصريون علاجه لأسباب سياسية ، أنه تبين عندما تولى علاجه الأطباء البريطانيون أنه يعانى من تهيج جلدى حاد
Severe attack of itch

اننى وائق من أن مستشفى « ليدى سترانجفورد » ستزدهر لمدة طويلة فى القاهرة لتكون بمثابة تذكّار للجانب المشرق للاحتلال الانجليزى .

وفى الصباح التالى حصلنا على تصريح بزيارة موكلينا الثلاثة الجدد : « على فهمى » و « عبد العال » و « الشيخ محمد عبده » ، بالرغم من أن التصديق الرسمى على من سيترفع عنهم لم يصدق عليه بعد . وكان الاثنان الأولان يحتلان زنزانتين متجاورتين فى الطريقة التى تقع الى يمينها غرفة عرابى . أما عن « على فهمى » فهو نحيل الجسم ، ذكى المظهر داكن البشرة فى حوالى الأربعين من عمره وكان الانطباع عنه يبعث على السرور . لقد رحب بنا بحرارة ، وقد أسره خطاب عرابى له سرورا واضحا ، ورفع عدة مرات الى شفّتيه وجبهته . كان مرتديا رداء رماديا داكنا أو بالظو زرايره نحاسية عسكرية ، وكانت احدى ساقيه مضمدة بضامادات ، وكان يعرج بعض الشيء متألما من جرح أصابه فى القصاصين . كانت زنزانتة المسجون فيها تشبه فى مساحتها غرفة عرابى تماما ، مع فاروق واحد هو أن نافذته كانت تطل على ساحة السجن . لقد كان على استعداد لأن يوقع لنا على تفويض لتتولى أموره نيابة عنه ؛ كما اعترف لنا بأنه « ما من كاتب مثل عرابى » . لقد رجانا أن نؤدى له خدمة بأن نسمح له بأن يملئ مذكراته على أحد كتبتنا . وكان « على فهمى » واحدا من أكثر أصدقاء « عرابى » ولاء له ؛ وكان متزوجا من واحدة من حريم « الحديو اسماعيل » ، كان يوما ما ممن لهم الخطوة الكبرى عند « توفيق » ، وكان يرأس الحرس الحديوى ، وكانت امرأته موسرة الى حد ما ، وكانا يعيشان فى بيت من أجمل بيوت القاهرة . لقد خسر كل شيء ، ولم يكسب شيئا بترسمه خطا عرابى . لقد قال « على فهمى » مرة : « ان لدى كلمة واحدة لأقولها دفاعا عن نفسى - اننى مصرى . » . وأمام قومسيون التحقيق لم يتذلل ولم يضعف . لقد أجاب على كل سؤال فى حزم ، ولم يلجأ قط الى أن يتلمس لنفسه المآذير بأن يلقي اللوم على غيره ، وعندما انتهى استجوابه توجه الى المنفى دون ما تذهر . وفى أول لقاء لنا معه ، ذكر الشيء الكثير عن أخيه أكثر مما قاله عن نفسه ، لأن أخاه ، نظير اتهامه البسيط بأنه « قريب شخص عاص » ألقى به فى سجن فى أقاصى الصعيد . ذكرت هذه الحادثة ل « سير ادوارد ماليت » ، الذى عن طريق صلاته الطيبة ، أفرج عن شقيق « على فهمى » فورا .

أما عن « عبد العال باشا » فكان يمثل النقيض التام ل « على فهمى » ، فقد كان بدينا ، كاد يكون مورد الوجه ، صوته جهورى ، وكان تجسيدا



(شكل ٤) عبد العال حلمى باشا

للجندى اللفظ • استقبلنا فيما يشبه الصخب وصرح لنا بأنه لا يخشى
الآن شيئا • ولما زال الهرج الأول للقائنا ، شكنا لنا شكاية مرة عما حدث
له فى الأيام الأولى من سجنه (١) ويمكننى أن أذكر أنه على الرغم من

(١) قدم لى « عبد العال » هذا البيان : -

جناب حضرة المستر برودلى الأبوكاتور الوكيل عني فى المرافعة لظهور حقى
بما أنى أوضح لجنابكم بما حصل من الظلم والغدر والاستعباد الذى أصابنى من
الحضرة الخديوية من منذ استنيت وسأوضحها لجنابكم فيما بعد عند السؤال منى وإنما أوضح
لجنابكم الذى أصابنى وأنا فى السجن الذى أنا فيه الآن من الضرب والامانة وهو أولا
حضر لى ياوران وقواسه الحضرة الخديوية وليجروا تفتيشى بحالة غير مرضية وأخذوا منى
أوراقى ومفتاح الخزنة مغلوق منى والى بها النقود مغلوق مغلوق وكانت به أمانة عندى
وأوراق تلزمنى الآن فى التحقيق ضرورى والمفتاح المحكى عنه الآن هو موجود بطرف سعادة
مأمور الضبطية فأرجو جنابكم طلب المفتاح منه وتسليموا لنا لأخذ الأوراق اللازمة لى
وأىضا أخبر جنابكم أن فى ليلة سبعة وعشرون فى الشهر الذى معنا الساعة خمسة ونصف
عربى تقريبا حضر لى ابراهيم أغا تتولجى الحضرة الخديوية ومعه ثلاثة أشخاص الذى هو
الواسطة الوحيدة فى بث الدسائس والفتن من بعد دخوله عليا فى الأوده الذى أنا بها =

أن القصة الكاملة لـ « إبراهيم أغا التلنجي » قد أنكرها القصر في حقن ،
 إلا أن مفاتيح « عبد العال » أعيدت لي عقب ذلك ، نتيجة مطالبتني الملحة .
 وكان « عبد العال » في معطفه الأبيض بحزام وسطه العريض الذهبي
 وروبه الأسود أو الباركان baaracan يكاد يوحى بمظهر مهيب .

ولما كانت سلطات السجن قد رفضت اعارتنا أى مزيد من الأثاث
 نطلبه ، فقد اضطررنا لأن نزود كل موكلينا بقدر قليل من المناضد
 وكراسي من القش . كنا كل يوم نتوقع دائما أن نسمع شيئا مؤكدا من
 « بوريللي بك » ، ولكن لدهشتنا لم تصل أنباء منه . لقد كانت أوراق
 القضية ، بالنسبة لنا ، حتى الآن مجرد كتاب مختوم .

وفى الصباح التالي (٢٧ أكتوبر) ، رفض عثمان أفندي ، بصورة
 قاطعة ، أن يسمح لنا بقاء موكلينا الجدد ، على أساس أن التصريح لنا
 قد وقع اسماعيل أيوب باشا ولم يوقعه ناظر الداخلية وكان كل شيء
 يحتمل مظهر عواصف في انتظارنا ، فتوجهت مرة أخرى الى « سير ادوارد
 مالت » . بعد ما سمعته من عبد العال (وقد قص على قصة طويلة ، اتضح
 أنها صادقة تماما ، وعن محاولة دس السم له من بضعة أشهر مضت)
 أحسست أنني محق في الحث بشدة في ابعاد الحراس الجراكسة وأن
 يقدم طعام المساجين اليهم مباشرة وليس عن طريق هؤلاء الحراس .

وعند عودتي الى السجن ، حيائي مصري (قال انه من الرعايا
 الروس) وقدم لي نفسه بصفته زميلا à titre de confrère على أنه محامي
 « محمود سنامي » . رأيت أن أغفل ذكر أنه قبل وصولي ببضعة أيام ،
 تلقى كل سجين اعلانا بأنه سيحاكم في يوم محدد - ١٥ أكتوبر وعلى

« قرب عليا وقللي التا يا عبد العال انتا تعرفني أنا من فقلت له لا أعرف أنت من فقللي
 أنا إبراهيم أغا تلنجي الخديو بتاع التسع عشر ضابط الذي كانوا عندك في الآلاي وقرب
 عليا وتف في وجهي وضربني بالقلم على وجهي دوفعتين وقالولي اصبروا انتو وقعتم يا أولاد
 الكلب أنا رايج أوريكم وبعدها خرج من عندي ، ويتواجه هو ومن معه ، وهذا هو
 ما أجراه إبراهيم أوضحه لجنابكم فأولا أرجو طلب المفتاح وتسليمه لي لأخذ الأوراق اللازمة
 لي في التحقيق وثانيا النظر فما أصابني من إبراهيم أغا حيث أن المسجون الذي تحت
 التحقيق لا يوبخ لضربه ولا إهنته الى من بعد التحقيق » .

(توقيع) عبد العال حلمي

٢٩ أكتوبر سنة ٨٢ خاتم

كل منهم أن يقدم طلبا على الفور لاختيار محام من قائمة منسقة. تنتظم ٨٠ محاميا ، وكان تعليق عرابي الوحيد هو أنه سمع الشيء الكثير عن محاكمة مدحت باشا وأنه وقع في فخ مماثل « ، ولكن محمود سامي ، أضعفهم شخصية ، استسلم واختار محاميا عنه ، شابا في الثامنة عشرة من عمره من « رعايا الروسية » . وقد اقترح « زميلي » أن ندخل مباشرة في مناقشة خطتي في الدفاع ، ولكني رأيت من الأفضل ، كما لو كنت سلطانا ، « تغيير مجرى الحديث » ، وقد أظهرت الأحداث التي أعقبت ذلك أنني سلكت مسلكا حكيما .

وفي وقت متأخر بعض الشيء من النهار ، وصل التصريح المطلوب للسماح لنا بزيارة المساجين الجدد ، وقمت بأول زيارة لصديقي شخصي لد « مستر بلنت » وهو « الشيخ محمد عبده » وكانت اللقطة على باب زنزانته تصفه بأنه « جورناجي » أو صحفي . من أول نظرة أحسست نحوه باكتئاب بعض الشيء . لقد كان رئيس التحرير السابق لجريدة الوقائع المصرية الرسمية ، رجلا نحيفا ، ضئيل الجسم داكن البشرة ، ملابسه كلها بيضاء ويرتدي عمامة بيضاء ، وكانت عيناه شديديتي السواد ونافذتين وذقنه السوداء مقصوصة بعناية ، وكان كل ما في زنزانته ابريق من النحاس ومرتبة متواضعة جدا ومصحف . لقد بدا لي أن الشيخ محمد عبده كان يفتقد تماما الى الحماس الذي كان عليه « الأميراليات الثلاث » . وحتى بعد قراءته لخطاب « مستر بلنت » الذي أحضرناه معنا ، بدا عليه التردد . كان من الواضح أنه تحت تأثير الخوف من اليأس الذي ساور نفسه ، كان من الصعب علينا ، للحظة ، أن نتعرف فيه الكاتب الوطني فأكثر المتحدنين هجوما في اجتماعات المجلس (العرفي) الذي كان يتولى الحكم في القاهرة طوال حرب الستين يوما . كان الشيخ محمد عبده كثير التفكير ، ولكنه قرر في النهاية أن يجازف ببصيره مع الآخرين ، وما لبثت أن انبلجت الحقيقة . لم ينجح الشيخ محمد عبده من الزيارة الليلية للحراس الجراكسة ، ولكن بيانه عن الحادثة صيغ في لغة فائرة الحماس تنبئ عن تخوفه (١) . لقد استغرقنا بعض الوقت

(١) انني مع احترامي لعظمة الحديو المعظم حفظه الله أقول ان ابراهيم اغا التوتننجي دخل عندي في يوم الخميس ٢٥ ذي القعدة وشتمنى وكان معه حملة من شاوليشيته المليمة السخية جاءوا لأجل تفتيش أودتي وبعد التفتيش بغاية الدقة أخذوا من عندي ثلاث مجلدات مجلد من كتاب العقد الفريد في علم الأدب والمجلد الاول من تاريخ ما توسط من القرون ترجم من الفرنسي للعربي يطبع مصر ، ولما سألت حامل المجلدات الى أين تأخذ الكتب وقلت له ان كان ولابد من أخذها فأوصلها الى بيتي فقال هل لك بيت ومكنت بعد ذلك ثمانية عشر يوما لا يدخل عندي مكتوب ولا يقرؤ من أي نوع كان حتى جاء عندي

لكسب ثقة الشيخ محمد عبده ، ولكن عندما نجحنا في النهاية ، لم يكن من أحد ليتحدث بصورة أكثر شجاعة أو يعطينا معلومة أكثر ثقة منه هو ، وقبل مغادرتنا لزنزانتة ، رجأنا أن ندافع أيضا عن رئيسه القديم « أحمد رفعت بك » ، الذي كان دارسا ممتازا للغة الفرنسية ويمكن أن يقدم لنا مساعدة لها فائدتها .



شكل ٧ - المتعاطفون مع غرابي من الأهالي خارج سجن الدائرة السنية

أحد رجال الدولة الانكليزية يسأل عن حالي فطلبت منه الاذن بدخول المصحف فأذن لي به ، فكان بذلك فرح كائى خرجت من السجن .
١٤ ذى الحجة ١٢٩٩ (توقيع) محمد عبده

وفى الصباح التالي ، وجدت عرابى مشغولا جدا بتسجيل دفاعه ؛
 وفجأة صاح فينا متسائلا : «هل تريدون برهانا على أن أهالى مصر كانوا
 معى - انظروا هنا » وسحبنى الى النافذة ، ومن خلال الشبابيك الحصير
 المسمرة ، شاهدت عددا من النسوة والأطفال يبكون وهم وقوف على
 الجانب المقابل من الطريق ، لقد أخذ الحشد يزداد يوما بعد يوم حتى
 اضطر الحراس الى تفريقهم ، ولم أر « عرابى » متكدرا قط مثلما شهدته
 وقتها .

كنت قد حصلت على تصريح لابن « عبد العال » ليزور أباه ، وكان
 لقاؤهما فى السجن منظرا مؤثرا * تلقى عبد العال توكيدا من جديده بأن
 ستعود اليه مفاتيحه مرة أخرى ، وقد أصدر تعليماته للصبي بأن يفتح
 الخزانة ويعطينى صندوقا صغيرا بداخله أوراق * وتوجهت وفى صحبتى
 مستر ماكدونالد Mr. Macdonald مراسل الديلى نيوز Daily News
 الى دار عبد العال * كان بيتا جميلا قد من الصخر ويقع فى أطراف
 المدينة * لم يكن ينقص الدار من دلالات لتوضيح ما حل بقاطنيها من
 خراب : فالحديقة الصغيرة التى أمام الدار بنخيلها وريحانها صارت مهملة ،
 كما سمعنا أصوات نحيب داخلها * تناولنا القهوة فى تعريشة مهجورة.
 أقيمت فى الحديقة من الطوب والجص ، ثم أحضر لنا الأوراق الصبى.
 الصغير وكان اسمه « سعيد » *

مر أسبوع الآن منذ رأيت « عرابى » ، وعندما دخلت زنزانته فى
 اليوم التالى ، كان فى حالة نفسية مرتفعة * سألته عما اذا كان قد انتهى من
 عمله ، فرد على بتساؤل آخر : « هل تظننى آلة بخارية ؟ (١) » ، ولكنه
 فتح حافظة خطاباته ، وأرانى الأوراق كاملة ، بالاضافة الى خطاب أو
 خطابين كان قد وعد بكتابتهم ، وطلب منى فى الحاح أن أحضر له بعض
 الصحف المصرية * ترددت فى الرد لأننى كنت أعرف طبيعة محتوياتها ،
 فلما وجدته مصرا على طلبه وعدته بتحقيق طلبه ، وعلى أية حال كان عليه
 اذن أن يتعلم من خلالها درسا مرا عن تقلب الصداقة البشرية ، وعن
 البون بين الفشل والنجاح *

(١) لاحظ هنا تشبيه عصر « عرابى » ، اذ لم تكن الطائرة النفاثة قد عرفت بعد.
 حتى يشبه نفسه بها * (المحقق)

الفصل الثاني عشر

تقرير كتبه عرابي (١)

بدون الاستعانة بأية مذكرات مكتوبة أو أى مرجع من المراجع ، وطبقا لاقتراحه الشخصي ، ألف « عرابي » فى مدى ستة أيام ، تقريراً ضاعفاً عن قضيته ، وقد ألحقه فيما بعد بحواشى اضافية ، اذ وجدها لازمة ، كما أدخل عليه تصويبا أو تصويبين قبل أن يحين الوقت المحدد للمحاكمة . وإذا أخذ فى الاعتبار كافة الظروف التى ألف فيها هذا التقرير ، وأثر الاستفزاز الذى تعرض له والذى كان أثره على فكره بصورة لا يرقى إليها شك ؛ فان تقرير « عرابي » يشكل رداً ممتازا على من كانوا يصرون على اعتباره مغامرا عسكريا جاهلا كل الجهل .

يبدأ تقريره ببيان من الظلم الذى تعرض له المصريون بعبئه التقييل ، وكيف أن الشعب بكل قواه مدنيين وعسكريين التحم فى اتحاد عام من أجل الأمان المشترك ، ووضح كيف أن هذه الحالة السيئة التى كانت تسبب فيها الأمور قد تفاقمت وازدادت سوءاً من جراء نظام الطغيان والتآمر المغيظين ، الذى بدا أنه صار سمة الإدارة المصرية قبل مسيرة الجيش فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ المناذية بتحقيق مطالب الجيش والشعب معا . وكمثل للأحداث التى بدت أنها وحدها أكثر أهمية فى ذلك الوقت ، قص « عرابي » قصة « السيدة عائشة هانم » التى زعموا أنها تدخلت تدخلا غير ملائم بأسلوب غير طبيعى فى شئون الأسرة الخديوية ، وكان مآلها النقي الى أعالي البحر الأحمر أو جنوبه دون استجوابها أو محاكمتها .

(١) نشر الجزء الأكبر من هذا الفصل فى مجلة القرن التاسع عشر Nineteenth Century (عدد ديسمبر ١٨٨٢) ، وقد أعيد طبعه بتصريح من محرر المجلة « مستر جيمس نوتز Mr. James Knowles.

استناد النظارة الى محمود سامي ، على أثر موضوع الميزانية (١) بعد ذلك بأربعة أشهر ، وبخصوصه كتب المذكرة القديرة التالية :

« اننى لن أتعرض هنا لموضوع الميزانية فهو معروف للجميع . لم يلجأ المصريون قط الى التدخل فى دفعيات الوبركو المقرر للأسنانة أو الدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية ، وإنما كان كل ما طلبوه هو النظر فى القدر الباقي . ان الشعب جميعه طالب بهذا . هل يمكن لمثل هذه الأمنية أن تكون مثار لوم لو أنها كانت تخص شعبا آخر غير شعب مصر ؟ لقد كانت وحدها واحدة من أكبر الأحران التى كان الشعب المصرى يشن منها ، وكان يحس بها على حد سواء : الجيش والأهالى جميعهم » .

ثم ينتقل الى زمن مؤامرة الجراكسة فيقول :

« جرى تحقيق تلك المؤامرة الجركسية فى مجلس عسكري تحت رئاسة الجنرال الكبير راشد باشا حسنى الجركسى لكونه رجلا ذا شرف وذمة وأمانة ومن التحقيق اتضح عظم هذا الخبز وأن مصدره الحضرة الخديوية كما هو واضح بجرنال التحقيق وتوقعت عليهم الأحكام بإرسالهم الى البلاد السودانية نفيا مؤيدا . وعرض هذا الجنرال على الخديو وتلى عليه بحضور جميع النظار . ولما كانت بلاد السودان بها حرارة قوية شديدة لا توافق صحة الجراكسة المولودين فى بلاد باردة وأنها تكون سببا فى ضياع حياتهم ، طلبت من اخوانى النظار مساعدتى على انقاذهم من تلك الأحكام وإرسالهم الى بلادهم والى محل ما يرغبون خارج الحكومة المصرية برتبهم وشرفهم حرصا على حفظ الحياة حتى لن قصد اطلاق حياتى فأجابونى لذلك مع التعجب وعرضنا عريضة مختومة منا جميعا وعرضناها للحضرة الخديوية وتوجهت اليها جميعا نرجوها قبول هذا الرجا رحمة بهم .

وبعد ذلك ، يصف « عرابى » السبب الذى أدى ، فى اعتقاده ، بطريق مباشر ، الى الأحداث التى أفضت الى الحرب :

« فى مساء ذاك اليوم كنا فى وليمة بطرف عمر بك رضى ومعتنا ريس النظار محمود سامى باشا فجاءه خبر أن حضرة قنصل دولة انكلترا ، وفرانسوا الجنرالية حضروا بمنزله وأنهم يريدون مقابلته ، فقام فى الحال وتوجه اليهم وبرفقته ناظر الخارجية مصطفى باشا فهى فأخبره أن حياة الخديو والأورباوين مهددة فأجابهما أن حياتهم جميعا مكفولة بحياته وسألها عن أسباب ذلك فأجاباه أن الخديو أعلمهما بذلك وأن محمود باشا هدد الخديو بقوله له ان حياتك وحياة الأورباوين على خطر فانكر حصول ذلك وأخبرهما بما عرضه

(١) من المؤكد أن هذه الفقرة كانت فى موضعها هذا من التقرير الذى قدمه عرابى لحاميه مستر برودلى والتى ترجمها عنه مع تضمينها صيغة لائحة مجلس النواب ؛ ولكن لما عاود عرابى كتابة تقريره هذا وهو فى المنفى فى مدينة كولومبو ، أغفل ذكر هذا الموضوع تماما ؛ وأنتهز هذه الفرصة لأقدم شكرى الى الأستاذ الدكتور السيد محمود الشنيطى لاعطائى نسخة من تقرير عرابى « المعدل » الذى نشره سيادته مصورا عن الأصل المحفوظ بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن تحت رقم ١٤١٣٩٤ ضمن ما اقتنته المكتبة من أوراق مستر. بلنت Mr. Blunt (المحقق)

الخدو ويطلبون منه امرا بابقائى فى نظارة الجهادية كما كنت . وفى تلك الليلة ، حصلت مذكرات ومحاورات فى حالة البلاد وما كانت عليه فى الأزمنة الماضية وما حل بها من النكبات وما أبيع فيها من الدماء ، كل ذلك نتيجة الأحكام الاستبدادية وفى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، وفى أمر اللائحة التى قبلها الخديو فالكمل أجمع على طلب خلع الخديو اذا لم يرفض قبول اللائحة المذكورة ، وانصرف المجلس على ذلك . وفى صباح غد حضر لمنزلى رئيس مجلس النواب وسليمان باشا أباطة وسلمنى سليمان باشا بيده امرا من الخديو بابقائى ناظرا على الجهادية ، وظنوا أن بهذا الأمر يبطل مفعول اللائحة ولكن الظن لا يقضى من الحق شيئا ، ثم انى قدمت تشكراتى للخدوى وقبلنى بغاية البشاشة وصرت اباشر جميع الأشغال فى مدة انحلال النظارة التى هى عبارة عن عشرين يوم ولم يحصل فيها ما يكدر صفاء الراحة .

« وفى تلك المدة (٨ يونيو) ، حضر الوفد العثمانى تحت رئاسة دولتو درويش باشا وانزل فى سراى الجزيرة فهرعت اليه وجوه الناس ونبهائهم وعلماءهم ليسلموا عليه ويشكوا اليه ما هو حاصل من الخديو ومن لزوم مراعات أحكام الشرع الشريف فصار سجنهم الآن جميعا ظلما وعدوانا بل انتقاما حتى غصت السجون بالمديريات ومصر واسكندرية ، ثم بتفقد احوال العسكرية تحقق أن العسكرية محافظة على الطاعة والانتماء ولم يقع منهم ادنى شئ يوجب المسؤولية وبناء على ذلك طلب من الحضرة السلطانية نحو المائتين نيشان على ذمة ضبط الجيش مكافئة لهم على حسن سلوكهم وطلب لى ايضا النيشان المجيدى من الطبقة الاولى ذات الكوردون .

وسار كل شئ على ما يرام حتى كانت حادثة اسكندرية المحزنة الواقعة فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ .

« وبناء على أمر المعية بتعيين من يلزم من الجهادية لتحقيق تلك الحادثة ، تعين وارسل سعادة وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى وارسل الآلين بقيادة بطاريتين طوبجية وأورطتين سوارى لحفظ الأمن العمومى داخل اسكندرية وخارجها وقد لهجت جميع جرائل الأورباوين بحسن تيقظ عساكر الالات وسهرهم على حصول الأمن والراحة ... وقد سمعت من الحضرة الخديوية نبا عليما ورد من محافظ اسكندرية أن اصل هذه الحادثة رجل مالطى ورجل حمار من اهل اسكندرية وأنه باجتماع الناس اطلقت عليهم البنادق والطبنجات من الشبايك ، وبناء على ذلك تحرر منى خطاب الى وكيل الجهادية يعقوب باشا بما هو مشاع وأنه يتبصر فى حقيقة تلك الحادثة بغاية الحزم ويجهتد فى اظهار الفاعل الحقيقى مع المعاملة عن شرف الحكومة والعسكرية والميل الى اتباع الحق ، هذا ما علمته من أمر تلك الحادثة .

ثم عين راغب باشا رئيسا للنظارة ، ويستأنف « عربى » سرده فيقول :

« وقبل تشكيل هذه النظارة ، كان جارى تصليح وترميم الاستحكامات على حسب العادة السنوية ، فصدر أمر الخديو بناء على أمر الحضرة السلطانية بإبطال انشاء استحكامات فى اسكندرية بما أن ذلك يعد تهديدا للدونمة الانجليزية وإن لم يصير ابطالها تصرف الدونمة بالدافع على البعد حتى تهدمها وتحرقها حسب تبليغات كاتب سر سفارة انكلتري . بالاستئانة للمابين الهمايونى فصار ابطال جميع الأعمال حتى أن الخديو ارسل مندوبين

من طرفه لأجل تحقيق إبطال الأشغال وتحرر منه للاستانة بذلك ؛ وكنا نتعجب كيف أن الترميمات فى الطوابى العادية تعد تهديدا ، حضور المراكب الحربية واحاطتها بالشغور المصرية لا تعد تهديدا •

« وفى ٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ، بعد تشكيل هذه النظارة حضر النيشان المجيدى بفرمانه العالى الشان من الاستانة واستلمتهما من يد الخضره الخديوية اظهارا لرضائه عنى ، وأبلغه ممنونيته منى وأنه تحقق صدق خدماتى وانصرفت شاكرا لهذه المنه وأعرضت بتشكراتى تلغرافيا للمابين الهمايونى وتشرفت بررد جوابه تلغرافيا بإبلاغ معظومية الخضره السلطانية من حسن طاعنى وخلوصى وأن ذلك النيشان مكافئة لى على حسن سلوكى وصادقتى »

« وبعد استلامى النيشان ، كلفنى دولتو درويش باشا بأن أتوجه للاستانة لأعيش فى كنف الخضره السلطانية مع بعض اخوانى فأعرضت عليه أعدائى التى أخبرت عنها قنصل جنرال فرنسا وأنى أخشى أن الناس يمتنعونى من السفر بطريقه غير معقولة كما هو مشاهد لدولته من ازدحام الناس بالاسكندرية وحين مرورى لشدة تعقلهم بى وكذلك سعادة راغب باشا رئيس النظار تعلمه بما يحصل للناس من الدهشة وتوقيع ضرر عظيم اذا صار توجهى الى الاستانة عرف دولته بأن هذا التكليف لا يوافق المصلحة • ومما سبق تسطره يعلم أنى كنت محبوبا عند جميع الشعب المصرى محب الخير العموم موثوق بأمانتى وشرفى وأنه ليس لى غاية شخصية كما يزعموا المبطلون بل غايتى الوحيدة هى تحرير بلادى ورفاهية أهلها وتمتعهم بخيرها فى ظل حكومة شورية عادلة تعطى الحقوق لأربابها بدون فرق بين الأهلين والأجانبين حتى يكون جميع سكان مصر كالواحد بدون فرق بين تعدد المذاهب والاعتقادات اذا لكل انسان تجمعنا جامعة الانسانية ، ومما يدل على عدم تمكنى من الخروج من مصر اذ ذاك ما عرض تلغرافيا من رؤساء العساكر البرية والبحرية باسكندرية للخديو بشانئى يوم استعفاه نظارة محمود سامى باشا ، ومما يدل على أن الناس غير قابلين لتلك الالاحة اعتراف الخديو بالتلغراف الصادر من جنباه الكريم الى الرؤساء المذكورين ردا لما ورد منهم فى اليوم المذكور •

ثم يتعرض لعلاقاته مع صاحب الجلالة الشاهانية السلطان أثناء الأحداث الأخيرة فى هذا البلد • فيقول :

« ... اقول ان الخضره الخديوية كانت أرسلت ثابت باشا الجركسى (١) المشهور بالتعصب الجنسى الى الاستانة ليكون وكيله فيها ، فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨١ ، ولأجل تغيير افكار رجال الدولة من جهة العساكر المصرية حتى بذلك يتوصل الى تغيير الذات السلطانية • أشيع فى وائر الاستانة بأن العساكر المصرية خرجوا عن الطاعة وأنهم يريدوا تشكيل دولة عربية وانى متفق مع الانكليز على ذلك ، فكثر اللفظ بذلك حتى توجست شرا اذ لا معرفة لى بأحد فى الاستانة ليدافع عنى ويكذب ما نسب الى من الأباطيل ، واذا بحضره الشريف السيد أحمد أسعد وكيل الفراشة الشريفة المدينة المنورة عن السلطان حضر الى مصر فارفقته بعريضة تبرأت فيها لما نسب لى وللعيش بغير حق وورد الى من

(١) فى تقرير « عرابى » الذى قدمه لمحاميته مستر برودلى (والذى سجله فى كتابه • ولم أجد به بين وثائق الكتاب المحفوظة بدار الوثائق بالقاهرة) - أن الشخص الذى أرسل الخديو للاستانة كان « طلعت باشا » ولم يكن « ثابت باشا » • (المحقق)

سيادته جواب بقبول تلك العريضة مع طلب محافظتي على الطاعة استجلايا لرضى الحضرة السلطانية (١) .

وبعد ذلك يقدم عرابي بيانا موجزا عن الحرب ، فيقول :

« في الحرب العوان ، وما أدراك ما الحرب العوان ، هي « حرب الانكليز » ، الأئمة التي فيها نصراء الانسانية ، الأمة المحامية عن المظلومين ، الأمة المحررة لرقاب العباد المستعبدين ، الأمة المحافظة على اتباع الحق والقوانين ، (مع من) مصر ، البلاد التي لا ينكر أحد ما فيه أهلها من الاستعباد وما تجرعه من غصص الاستبداد ، البلاد التي طالما سقت دماء أهلها بغير وجه شرعي ، ولا حكم قانوني ، البلاد التي طغت حكامها وبغت وتفننت في أنواع المظالم ، البلاد التي لا يعتبر حكامها شرعا ولا قانونا ، البلاد التي عبدت حكامها من دون رب العالمين ، البلاد التي كانت تظن أن لا منقذ لها من جب الظالمين ولا موصلاها الى فضاء الانسانية الا دولة الكلترا الشفوقة على النوع الانساني فخاب أملها . وبعد أن قربت ابنائها من فم ذلك الجب وظنوا أنهم ناجين اذ جاءهم الحرب الانكليزية فوقع القبح على من خرج من الجب والقائه في قراره لتنهشه الأفاعي خلافا لما هو معهود في رجال الانكليز من الشفقة والرفقة على النوع الانساني . »

(١) نجد هنا أيضا اختلافا آخر بين ما رواه « عرابي » عن هذه الواقعة في تقريره الأول وبين ما أعاد كتابته وهو في المنفى بكونومبو ، الذي نسجله هنا على هذه الصفحات - اذ يقول في تقريره الأول أنه نظرا لأنه لا يعرف أحدا في الاستانة ، لجأ الى « الشيخ محمد طاهر » ، مستشار السلطان للشؤون الدينية (من خلال علي راغب) ، كما لجأ أيضا الى « أحمد راتب باشا » الذي كان له معه لقاء شخصي طويل عند مجئته الى مصر ، وذلك ليقوما بدحض أباطيل المخربين ، وقد أفلحا في ذلك وبعثا له برسالتين تؤكدان له نجاحهما في مساعهما ورضا السلطان عنه .

ويستطرد « عرابي » فيذكر أن « الشريف أحمد أسعد » لما جاء الى مصر الوفد العثماني برئاسة « درويش باشا » أكد لعرابي أن الحديو بعث بمندوب له الى السلطان يدعى فيها خروج « عرابي » وعساكره عن طاعته ، فقدم عرابي للشريف ملتصقا للسلطان يعلن فيه هو وعساكره عن ولائهم له وأنهم ليسوا بعصاة على الاطلاق ، وقدم الشريف الملتصق للسلطان ، وأبلغ عرابي بذلك . وبعد ذلك بعث عرابي بتلغراف (في ٦ أغسطس ١٨٨٢) الى « بسيم بك » (أحد حجاب السلطان) يذكر فيه أن « درويش باشا » بدلا من أن ينصح الحديو بالبقاء مع شعبه سمح له بالانضمام الى العدو ، وأن مدينة الاسكندرية سلمت الى الاميرال البريطاني .

ويتابع عرابي سرده ، في تقريره الأول ، فيقول انه عندما وصله (أي عرابي) نبا أن الباب العالي اقترح ارسال قوات تركية الى مصر ، مع علمه بأن هذا الاجراء قد يؤذى المصريين ، بعث الى « بسيم بك » تلغرافا جاء فيه أن مصر بها ما يكفيها من الرجال والسلاح والعتاد للدفاع عن البلاد ولحماية حقوق السلطان ، وأنه ومن معه مجمعين في قرارهم على الذود عن هذه الحقوق .

ويختتم عرابي سرده فيقول : « وطوال هذه المفاوضات أو بعدها ، وحتى هذا الوقت ، كان الباب العالي مقرا دائما لكل أعمالنا ، وكان السلطان بأفعاله وخطاباته يقرها دائما ، فكيف أكون اذن عصيا ؟ الا يعترف الانكليز أن السلطان هو صاحب السيادة على مصر ؟ » (المحقق)

« ذلك انه لما اعلننا الخديو أن حياته وحياء الأورباويين فى خطر ، حضرت المراكب الحربية من جميع الدول اى دول أوربا العظام ، وهاجرت الأورباويون من مصر الا قليلا منهم ، وهاجت افكار الناس جميعا لحضور المراكب ، واسف المصريون على فراق اخوانهم الأورباويين الذين كانوا معهم على وفاق تام ؛ ثم قيل بأن فى ترميمات الطوابى تهديد للدونمة الانكليزية دون باقى مراكب الدول الأورباوية الموجودة بسكندرية ، فابطل عمل الترميمات .

« ثم حضر الى قومندان عساكر اسكندرية • مخاطبة من جناب « الأميرال سيهور » الانكليزى بأنه جارى قفل بغاز ميناء اسكندرية بالأحجار وأنه ان لم يمنح رضى الأحجار فإنه يقابل هذا العمل بمثله ، فبامر الخديو ورأى النظر كتب له بأنه لا أصل لرمى الأحجار ولا لزوم لذلك ، وارسل اليه أيضا وكيل البحرية ورخص جنابه فى القبض على من يشل ذلك .

« ثم فى يوم عشرة يولييه سنة ١٨٨٢ ، حضر خطاب ثان من الأميرال المذكور الى القومندان المذكور بأنه جارى تركيب مدافع فى طابية صالح والمكس وقايد باى ، وأنه يريد تنزيل جميع الأسلحة الموجودة فى طوابى اسكندرية من العجوى الى برج قايد بك ، مع أن الطوابى المذكورة لا يكن فيها الا الأسلحة الموجودة بها من مدة محمد على باشا حتى التذافات الخشب اكلها السوس ولم يكن بها أسلحة جديدة أصلا الا الموجود فى طابية قايد بك من مدة اسماعيل باشا ، وان لم يجاب الى ذلك ، يضرب على الطوابى عند طلوع الشمس من يوم ١١ يولييه سنة ١٨٨٢ حتى يهدمها ويغربها .

« فعقد لذلك مجلس النظر والاختيارية من الدوات وتحت رئاسة الخديو ودرويش باشا وقدرى بك من الوفد العثمانى (١) ، وبعد المذاكرة تقرر ارسال نظر المالية ونظر الداخلية ووكيل البحرية واحد رجال المصية وكران بك ، الى الأميرال سيهور يتوجه فى أن الطوابى المذكورة لم يكن بها اشغال ولم يتركب فيها أسلحة مستجدة أبدا ، وهاهى مستعدة للكشف عليها من طرفه ، ومع ذلك فيسمح له بتنزيل ثلاثة مدافع من الطوابى المذكورة ارضاء لحاظه ، فتوجهوا المذكورين ورجعوا بالبلاغ الأخير وهو أنه لابد من تنزيل كافة المدافع وانما يتنازل فى كونه يسمح للعساكر المصرية أنها هى التى تجرى تنزيل المدافع عوضا عن العساكر الانجليزية .

« فبعد المداولة طويلا بالمجلس المذكور تقرر أن تنزيل أسلحة الطوابى الموسوعة من مدة خمسين سنة بلا موجب حربى : عار كبير لا يمكن تحمله ، ومع كوننا لا نريد حربا مع أى دولة خصوصا دولة الانجليز لكن بطريق المجبورية وحفظا للشرف اذا ضربت المراكب

(١) ذكر « عرابى » فى تقريره الذى كتبه وهو فى سجن الدائرة السنية ، أن الجانب المصرى الذى حضر الاجتماع كان أعضاؤه : راض باشا وأحمد باشا رشيد ، و عبد الرحمن بك رشدى وسليمان باشا أباطة وحسن باشا الشريعى ومحمود باشا فهمى واسماعيل باشا حقى ومرعشى باشا ورعوف باشا (الذى صار بعد ذلك رئيسا للمحكمة العسكرية التى حاكمت عرابى عن عصيانه) ومحمد باشا سعيد وقاسم باشا وإبراهيم باشا فريق وعرابى • (المحقق)

على الطوابى انما تكون المجاورة بعد خروج خمس أو ست ضربات من مدافع المراكب (١) *
وكان الخديو يظهر شدة الفيرة والحماس ولظالما قال اذا حصل ضرب فانه يحول بندقية ويكون
في مقدمة العسكر ، ثم انصرف المجلس على ذلك وعرض للاستئانة من طرف الخديو ودرويش
باشا بما تقرر *

« ولما آتت الساعة المعينة أطلقت كلة من مركبى الأميرال ثم تتابع الضرب من جميع
المراكب ، وبعد خروج نحو الخمسة عشر كلة من المراكب جاوبتها مدافع الطوابى واحتدمت
نيران الحرب مدة عشرة ساعات ونصف متوالية حتى تهدمت الطوابى جميعها لكونها من
الطرز القديم وسقطت مدافعها وتهدمت سراى رأس التين واحتترقت من نيران الككل مع
هدم كثيرا من البيوت التى داخل البلد خصوصا جهة محطة اسكندرية لأنه كثيرا من
مقذوفات المراكب الهائلة كانت متوجهة على طابية الدماس التى كنت بها مع جميع المنظار
وكانت المقذوفات تقع على البيوت المجاورة لتلك الطابية والمحطة المذكورة ، وبعد ذلك انقطع
الضرب من الطرفين *

« وفي اثناء اشتداد القتال كانت لآتينيا ياوران الخديو ومحبي الدين أفندي ياور
درويش باشا يترددون فى كل ساعة يشجعوننا ويبلغوننا سلام الخديو ودرويش باشا
ويهدحون العساكر على صبرهم وثباتهم مع عدم استعداد الطوابى وجودة أسلحة المراكب
الخارجية الانجليزية ونحن مع ذلك نتعجب من وجود الخديو فى سراى الرمل على شاطئ

(١) همش مستر برودلى لهذه العبارة بأنه حصل من أحد موكله على نسخة من قرار
الخديو الذى أعلن فيه الحرب ضد إنجلترا (وأنا أذكر بوصفى محققا اننى لم أجده ضمن
وثائق الكتاب المحفوظة بدار الوثائق بالقاهرة) ، وفيما يلى ترجمة لما سجله مستر برودلى
فى كتابه للقرار المفقود :

« ذكرت اتصالات وخطابات أميرال الاسطول الانكليزى أن ثمانية مدافع قد نصبت
فعلا فى طوابى السلسلة وقايتباى وصالح لاحقا لطلب وقف أعمال الاستحكامات باعتبار
أن هذا الاجراء يعتبر تهديدا للاسطول الانكليزى ، وأنه نتيجة لذلك ، يطلب الأميرال
من الحكومة المصرية التفويض له بانزال المدافع فى طابية رأس التين وعلى الطرف الجنوبى
من الميناء الشرقى ، فاذا رفضت الحكومة المصرية هذا الطلب فستضرب الطوابى عند شروق
شمس الثلاثاء ١١ يولييه *

« وقد قرر المجلس بعد تفكير عميق أن طابيتى السلسلة وقايتباى والمدافع المنصوبة
فى الميناء الشرقى لا يمكن أن تشكل أى تهديد للسفن الراسية فى الميناء الغربى وأنه
بناء على أمر جلالة السلطان ، وخلافا لما هو مزعوم ، لم تنصب أية مدافع حديثة فى المكان ،
كما لم تتخذ أية استعدادات حربية ، فضلا عن أى مطالب الأميرال مخالفة للقانون الدولى
العالم *

« وبالرغم من ذلك ، وحفاظا على العلاقات الطيبة القائمة بين الخديو ودولة انجلترا ،
ولتقديم برهان صادق على حسن نوايا الحكومة المصرية تجاهها ، قرر المجلس ازال ثلاثة
مدافع من الطوابى التى كان قد انجز العمل فيها ، ويمكن للأميرال أن ينزل هذه المدافع
فى طابية أو ينزل مدفعا فى ثلاثة طوابى مختلفة *

« وقد طلب من رئيس مجلس النظار أن يكتب الى الأميرال بهذا المعنى ، فاذا رفض
وأصر على نيته فى ضرب الطوابى ، فإن هذا الضرب لن يرد عليه الا بعد خمس كلة ،
فسيرد عليها بالنار ، والله خير الحاكمين يفصل بيننا وبينكم * » (المحقق)

البحر من غير مبالاة ولا خوف من المراكب كأنه لم يكن حرب بين حكومته وبين مراكب الانجليز ولكن لا عجب من أمر الله .

« ثم انه عند انقطاع ضرب المدافع ، توجهت مع النظار الى الخديو وأعرضنا لجناحه الرفيع ما حصل في هذا اليوم فشكر العساكر على ما أظهروه من الثبات ، وأعرضت له أيضا انه اذا كان الغرض هدم الطوابى فقد تهدمت واذا كان الغرض غير ذلك فهذا نصنع ؟ »

« فعقد مجلس النظار تحت رئاسة الخديو ودرويش باشا المندوب السلطاني في النظر فيما يصير اجراءه بعد اتلاف الطوابى اذا استمر القتال ، فبعد المداولة تقرر أنه اذا أطلقت المدافع من المراكب ففي الحال ترفع الرايات البيضاء من جميع الطوابى علامة التوقيف عن الضرب والشروع في المخابرات السلمية ، واذا ذاك يتوجه طلبه باشا وذكران بك في صندل بحري لطرف لركب الأميرال سيمور ويخبرانه بأن الحكومة المصرية لا يكن بينها وبين حكومة انكلترا ما يوجب تكدير الخطر فضلا عن الحرب بل دائما محافظة على حقوقها وحقوق دعاياها ، واذا كان الغرض الأصلي تنزيل المدافع فقد تهدمت الطوابى جميعها وتكسرت المدافع وأنه لا يكن عندنا قوة تدافع المراكب بل ولا تريد حربا ويأخذ رأيه عن ذلك ، وانصرف المجلس ليلا وعطيت التعليمات بذلك الى كافة الطوابى وتوجهت الى باب شرقي وبنت فيه .

« وفي صباح يوم ١٢ يولييه سنة ١٨٨٢ قبل الظهر ساعتين ونصف ابتدأت المراكب تضرب على البلد فرفعت الرايات البيضاء من كافة الطوابى ولكن المراكب لم تلتفت اليها الا بعد أن أطلقت نحو عدد ٢٥ او عدد ٣٠ كلة ثم بطل الضرب وتوجه طلبه باشا في البحر الى طرف الأميرال فقابلته مأمور من طرف الأميرال فآخبره بما قر عليه رأى الخديو والمجلس فبلغه المأمور أن جناب الأميرال يطلب استلام مدافع متجاوزة وهي طابية العجمي والمكس وطابية باب العرب لاتخاذها معسكرا للجيش الانجليزى وأنه يريد حضور امر بذلك من الخديو قبل الساعة ٣ بعد الظهر وان تأخر فانه يستأنف الضرب ثانية ويأخذ تلك المواقع قهرا وكان باقي عليها الوقت ساعة ونصف فقط .

« فرجع طلبه باشا مسرعا وتوجه الى الرمل وكنت توجهت اليها أيضا مع رئيس النظار ، وأعرض طلبه باشا طلب الأميرال على الخديو ، فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الخديو ودرويش باشا حضره اسماعيل باشا حتى المشهور بابي جبل من الاختيارية وأبو سلطان باشا ريش النواب وتقرر بالعرض عن ذلك للاستئانة حيث أن الفرمان السلطاني لا يجوز للخديو أن يعطى قطعة أرض من اراضي الحكومة الى أية دولة اجنبية ، وأن يعود طلبه باشا ليبلغ الأميرال ذلك ، فتوجه المذكور لكنه لبعد المسافة وقصر الوقت تأخر عن الميعاد المحدد وبوصوله الى ديوان البحرية ، وجد أن مندوب الأميرال حضر الى ديوان البحرية في الميعاد وترك هنا خبرا بأن الميعاد مضى ولم يأت جواب من الخديو وأنه عاد وسيستأنف الضرب على البلد ثانيا ، وأما الخديو فانه أمرني في المجلس بإرسال قوة الى جهة طابية العجمي ولا يمكنون العساكر الانجليزية من الخروج الى البر ، فأعرضت على جناحه بأن هناك أرض مكشوفة ومقدوفات المراكب لا تمكن عساكر البيادة من الدنو الى شاطئه فضلا عن قطع خط المواصلات ما بين اسكندرية وبينها ، فغضب لذلك وقال : لم جعلتم عساكر اذا كنتم لم تمنعوا عساكر العدو عن بلادكم ؟ ثم انصرف المجلس .

وبعد أن توجه « عرابي » الى منزل راغب باشا الكائن على شاطئ المحمودية ، استدعيا الى سراى الرمل ، ويصف ما حدث بعد ذلك فيقول :

« . . . ثم بعد أن مكثنا في بيت سعادته نحو ساعة ، جاءنا طلب من الخديو ، فتوجهنا معا الى سراى الرمل وأخبرنى الخديو بأنه حضر أربع بلوكات بيادة الى الرمل لأى سبب وحيث كنت لا أعلم حقيقة ذلك ، فاعرضت على جنابه بأنه لا علم لى الا أنه يمكن انهم حضروا لتقوية الفجر على السراى ، فقال لا يلزم وجودهم هنا وأن الفجر الموجود من قبل كفاية فدعهم يتوجهوا لتنادية خدمة فى الجيش أولى وأنفع ، فخرجت اليهم وطلبت الضابط المعين معهم وسألته عن أسباب حضوره وبأمر من حضر ، فأخبرنى أن رئيسه سليمان بك سامى أمره بالحضور لتقوية الفجر فأمرته بالتوجه الى آلايه لعدم لزوم العسكر بعرف الخديوى وأن الفجر الموجود من قبل كفاية ، وتركت وتوجهت الى جهة اسكندرية .

« فلما قربت من وابور المياه القريب من باب الشرق ، وجدت ازدحام شديد والعساكر مختلطة مع الأهالى والجميع متوجهين جهة المحمودية فكان الرجل لا يلتفت لزوجته والمرأة لا تسال عن طفلها والأطفال تصيح والنساء تبنى كانه يوم المحشر تدهش لرؤيته أرباب العقول فنزلت عن العربة وتخللت الناس ماشيا حتى وصلت الى باب شرق ، فوجدت عيد بك الميرالى وسألته عن هذه الحالة فقال أنه أشيع بأن المراكب ستضرب على البلد فخرج من كان باليا فيها وخرجت العساكر بأولادها وأزواجها بغير النظام وأنه يجمع عساكر الآلوية فأمرت بسرعة ومنع العساكر عن الخروج ثم اتى وقفت بنفسى فى الباب أمنع العساكر وليل فى سليمان بك سامى مع جانب من العساكر يريد إحراق البلد ، وأنه فى حالة جنون ، فأرسلت له حالا بالحضور فحضر معه نحو بلوكين غير منتظمين ، فسألته عنما نسب اليه من كونه يريد إحراق البلد فأنكر ذلك وقال أنه كان معه اورطة متفرقة فى الشوارع الموصلة الى المينا لمنع خروج عساكر المراكب الخريبة الى البر ولكن وجدت بعض العساكر معهم المشية لفترة فأمرته بضبط تلك الآلوية ومعرفة الذين وجدت معهم فجعلها وأولع النار فيها فأمرته بعدم إحراقها وحفظها حتى تسلم للمحافظة بعد معرفة أسباب وجودها مع من وجدت معهم ، ومازلت أجول بين العساكر وأذكرهم بالشرف والعار وأمنعهم عن الخروج وأمرهم بالمداومة على حفظ البلد . وكنت أرى كثيرا من العربان خارجين من البلد مع الأهالى وجميعهم حاملين السلاح ومعهم اشيات تظهر أنها جديدة وأنها لا تليق أن تكون من لوازم العربان سكان البادية وكأنه ما كان اجتماعهم حول سراى الخديو بالمرء الا لهذا الغرض ولا يبعد أنهم أخذوا بعض البضائع من الدكاكين وحرقوا البعض لعدم معلوميتهم بعواقب الأمور . ومازلت أمنع العساكر وأشجعهم على عدم ترك البلد ، وإذا بحضور حسن باشا الشريعى وسليمان باشا أباطة وحسين بك الترك ياور الخديو ومجربى الدين الفندى ياور درويش باشا وأخبرونى أن العساكر الذين بالرمل ولقت تحت السلاح سوارى وبيادة واحتاطوا بالسراى ، فلأى سبب حصل ذلك ، فدهشت لما سمعت هذا الكلام ، وبعد دقائق أرسلت طلبية باشا ليفرق العساكر عن السراى ويبحث عن السبب ، وتبرأت من هذا العمل ، وسألت سليمان بك سامى عن أسباب ارسال عساكر البيادة من آلايه الى الرمل ، فقال أنه وجد مراكب متوجهة جهة الرمل فأرسل لها أربعة بلوكات تقوية من نفسه بدون أمر .

« ولما توجه طلبية باشا الى السراى المذكورة لم يجد شيء من ذلك واتضح أن العساكر

رات مراكب متوجهة جهة طابية برج السلسلة القريبة من الرمل فظنوا أنها آتية لتسأخذ الخديو ، فحملوا أسلحتهم واحتاطوا بالسراى لحفظ الخديو ، فتشكر الخديو لذلك وأرسل حسين بك الترك ياور خديو مع سعادة طلبة باشا ليبلغنى سلام الخديو ولكنه ما وصل الى لا سيذكر ، ذلك أن معظم العساكر خرجت من البلد بصورة غير منتظمة ، ولم يتجمع عند باب شرقى الا القليل ، وحضر كثير من الضباط وفيهم نسيم بك قائمقام سواحل اسكندرية واخبروا أن المراكب آتت تحت برج السلسلة لتتمكن من الضرب على قشلاق باب شرقى ولتقطع خط الرجعة فرايت انه غير متيسر جمع العساكر فى هذه الحالة وأنه لا بد من اتخاذ موقع مناسب لتجمع العساكر وإزالة ما قام بأفكارهم من الدهشة والاضطراب ، فأمرت أمبرى الالابى هم عيد بك وسليمان بك سامى بأن يذهبوا بمن تجمع معهم من العساكر الى المحمودية بعد خروج جميع الأهالى ، وخرجت مع راغب باشا راكبا عربته غد مفرق السكة فنزلت من عربته حيث كان هو متوجه الى الخديو وأنا توجهت الى المحمودية ، ولازلت أسرع فى المسير بقصد أن أدرك أول الناس لأوقف العساكر حتى وصلت بعد المغرب الى كوبرى المحمودية المارة عليه السكة الحديدية ، وهناك انتخبت قطعة ارض خلف المحمودية ، ووجدت بروجى فأمرته بضرب علامة التجمع ولازالت العساكر تتوارد شيئاً فشيئاً الى الصباح ، والضباط الذين تركتهم باسكندرية ما حضروا بعساكرهم الا الساعة ٧ ليلا لعدم خلو الطريق حيث كانت شواطىء المحمودية مزدحمة بالناس والبهايم والعربات وغيرها ولكل يبكى ويصيح على ما حل به .

وفى الساعة الخامسة من الليل تقريبا ، حضر طلبة باشا وأخبرنى بأمر العساكر المقال بأنهم احتاطوا بالسراى وأنه ما وجد أثرا لذلك وأن الخديو مسرور وأرسل معه حسين بك الترك ليبلغنى السلام وأنه كان مرافقا له لحد الكوبرى ، ولكن لكثرة الازدحام وشدة الظلام وعدم معرفة الموقع رجع الى الرمل .

« وفى صباح يوم الخميس ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ ، رأيت أن الذى تجمع من العساكر لا يبلغ الثلث وأن معظم الجيش تقدم الى قدام وأن الموقع لا يصلح لأنه تحت نيران مقلوبات المراكب وخلفه الملاحه ، فتوجهنا بالعساكر حتى وصلنا الى محل يقال له عزبة خورشيد الكائنة فى جنوب محطة الملاحه بمسافة خمسة آلاف متر ، وهناك أقامت العساكر الى اليوم . الثانى ، فتجمع نحو نصفهم ، وفى اليوم المذكور كان أورسل وابورات مخصوصة من مصر الى الرمل لأجل ركوب الخديو وفامليته ومن ببعيته فيها ورجوعهم الى القاهرة ، فتوجهت الواپورات وعادت فوارغ ، واتضح أن الخديو توجه بعائلته ومن معه الى اسكندرية وأنه تحت الحرس الانجليزى .

« وفى يوم الجمعة ١٤ يوليو ، توجهت بالعساكر الى عزبة كنج عثمان وهناك اتخذت . المعسكر وتجمعت العساكر فيه وابتدىء فى أعمال التاريس ، وحيث انه فى ١١ يوليو يوم الضرب على اسكندرية كان تحرر اعلان بالتلغراف من رئيس مجلس النظارة الى كافة جهات الحكومة ان البلاد صارة فى حالة حرية وأن الحكومة صارة فى هيئة عرقية تحت احكام القوانين العسكرية حسب الأصول فكل من وقع منه ما يغفل بالراحة العمومية . يجازى على مقتضى الحكم العسكرى ، فترتب لذلك مجلس حربى بالجهادية .

« ولما أن الخديو توجه الى اسكندرية بعد خروج الأهالى والعساكر منها تحت الحرس الانجليزى ، فاما أن يكون اسيرا واما أن يكون انحاز الى الجيش المعارب ببلاده ، وفى كلا الحالتين لا يجوز ترك البلاد بلا حاكم حسب احكام الشرع الشريف الاسلامى اذ أن فى

من ذوات المعية الخديوية والاختيارية من الذوات المتقاعدين ، ونظرت فيه جميع الأوراق المنشورات التي صدرت من الخديوى وما كتبت منى . وبعد المداولة بالمجلس المذكور ، تقرر فيه بتوقيف الخديوى والا يسمع له أمر أصلا لكونه خرج عن حدود الشرع الشريف والقانون المنيف ، وتقرر أيضا بوجوب المدافعة عن البلاد والزامى بالحماية وبالرافعة عنها حيث كنت موجود مع العساكر بجهة كفر الدوار ، وختم بذلك على هذا القرار من جميع أعضاء هذا المجلس وتحرر منه تلغرافيا للحضرة السلطانية مع ذكر أسماء المشاهير من الموقعين على هذا القرار ، وصار اعلاني بذلك رسميا .

« فترتب مجلس ادارى للنظر فى أحوال البلاد من ضمنهم : حسين باشا وكيل الداخلية وبطرس باشا وكيل الحقانية ويعقوب سامى باشا وكيل الجهادية وأحمد باشا نشتات ناظر الدائرة السننية وغيرهم ، عبارة عن جمهورية مؤقتة لحفظ نظام البلاد الى أن تنقشع سحب المصائب المتكاثفة على مصر . كل ذلك ولم أحضر هذا المجلس ولم أشهده ولم يكن لي فيه رأى حتى انهم لقبوني بلقب حامى حمى البلاد المصرية ، وصاروا جميعا يخاطبوني بهذا العنوان ، ولكن أين المنصفون ، فهما ذكر جميعه يعلم بادننى تأمل أن هذه الحرب التي لم يسبق لها نظير فى سرعة تنوعها وتشكيلها بأشكال غريبة متباينة ، كانت شرعية قانونية وأنى مأمور بالحاربة بمقتضى قرار المجلس المشكل تحت رئاسة الخديوى وبمقتضى ما ذكر فى أمر الخديوى الصادر بمزى وأوامره التي نشرت فى شأن ذلك ، الدالة على أنه أمرنى بالمداومة على الحرب وعزلنى بسبب انهزام الجيش ، ومأمور بالمدافعة والمحامات عن البلاد بمقتضى قرار المجلس العام الذى هو عبارة عن الأمة المصرية على اختلاف أديانها ومذاهبها . وان الخديوى صار لا حق له فى الحكم على البلاد التي قرر أهلها بخروجه عن حدود الشرع والقانون .

« ومن المعلوم أن الجهاد على مقتضى الشريعة الاسلامية اما يكون بالنفس او بالمال او بالراى ، وقد أدت الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها ما يجب عليها فى سبيل المدافعة عن الوطن : فانهم قدموا انفسهم وأولادهم متطوعين عن طيب نفس ، وبدلوا أموالهم فى سبيل الشرف والوطن فممنهم من تبرع بنصف ماله ومنهم من تطوع بعاله أجمع ومنهم من تطوع بثلاثين رأس من الخيل وثلاثة آلاف أردب من الغلال ، يعلم ذلك من التلغرافات الواردة من أهالى المديريات بدون واسطة الى ديوان الجهادية والينسا بكفر الدوار ومن التلغرافات التي كتبت من طرفى للمتبرعين بالشكر لهم ، ويعلم أيضا من التلغرافات الواردة من حكام المديريات حتى أنه فى مدة ثلاثين يوم اجتمع نحو ألف نفس من العساكر والمتطوعين والعربان وملئت الأشوان بالدخائر الوفيرة واجتمع نحو الثمانية آلاف من الخيول والبغال من المتبرعين ونحو الأربعة آلاف جمل وكثير من النقود من غير واسطة . تلك غيرة لم يسبق لها نظير من عهد صدر الاسلام للآن .

« وأما الراى ، فجميع الذوات والعلماء واعيان البلاد كانت تائبنا بدون انقطاع فى كفر الدوار وحتى فى رأس الوادى . وكل وجود بما عنده من الراى وبناء علميا ذكر تكون الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها اما أنها محاربة بالحق والقانون واما أنها عاصية باغية بالقوة والظفر المناهين للحق والعدل ، هذا ، وأما ما تبرعت الناس به من البقر والجاموس والأغنام فهذا شيء لا يمكن تقديره ، ومن جملة التبرعات توارد الخوخ والعنب والبطيخ للجيش من جميع الجهات بدون انقطاع ، واضح ذلك بقيودات التلغراف بكفر الدوار والتل الكبير ورشيد ودمياط حتى ومن جملة المتبرعين دائرة رياض باشا وخيرى باشا مع كونهما

غائبين عن مصر ، وجميع دواير أعضاء العائلة الخديوية ، ومع كل ذلك ، كانت المخابرات الجغرافية التلغرافية لا تنقطع ما بين رأس التين وبين بعض الناس بمصر والاستانة الى أن حصل تبويط التلغراف أخيرا من جهة رأس التين ، وفيما ذكر تبصرة وذكرى للمنصفين .



ثم ينتقل « عرابي » ليعدد كل الإجراءات التي اتخذت لحفظ الأمن العمومي والمحافظة على أرواح وممتلكات الأوروبيين .

فكان يقبض على كل الناهبين ما أمكن ذلك ، ويبعث بهم الى المجلس العرفي مع خطابات توضح طبيعة جرائمهم ومقدار الأشياء المنهوبة الموجودة معهم لمجازاتهم ، ووضح ذلك في قلب الوقوعات في أركان حرب الذي كان بكفر الدوار .

« ... كما أنه حصل بمديرية طنطا هيجان من المهاجرين الاسكندرانيين قتل فيها بعض الأوروبيين بنفس المديرية ، من أجل ذلك صار استبدال المدير إبراهيم باشا آدمهم وأرسل الى المجلس لمحاكمته على عدم حفظ الأمن في المديرية ، وفي الحال أرسلت العساكر البسيادة والسوارى الى طنطا وزفته والمحلة وغيرها من مراكز المديرية فاستتببت الراحة وحصل الأمن . »

« ومن قبل ذلك كان تحرر منى منشورات الى كافة المديريات والمحافظات وجميع الدواوين : بالمحافظة على أرواح جميع الأوروبيين اللذين بالمدن منهم والذين بالأرياف في حفظ أموالهم . حيث أن من أقام منهم معنا آمنا فله ما لنا وعليه ما علينا وأنهم اخواننا في الانسانية حتى ولو كان الانكليزي اذ أنه لا يعد محاربا الا اللذين بأيديهم السلاح في ميدان الحرب ، ومن أراد منهم التوجه الى بلاده فعلينا حفظه وصيانتة كما نحافظ على أنفسنا وأولاده الى أن يبلغ مأمته حسب أحكام الشرع الشريف المحمدي . معلوم ذلك بدفاتر كل ديوان من دواوين الحكومة حتى أن من كان يريد التوجه منهم الى الاسماعيلية كان يتعين معهم عساكر لمحافظتهم ضد تلك الجهة ، يعسلم ذلك المسيو دلنيسب والمسيو مازتوا قنصل دولة إيطاليا بالقازيق والمسيو دبون قنصل فرنسا بها أيضا ، والتحريرات التي تحررت منى تلغرافيا بهذا الخصوص للجهادية والضبطية والمنصورة والقازيق وغيرها وبما حصل من تلك النوائج والتنبيهات كانت جميع الأهالي مع من بقى من الأوروبيين اخوة في غاية التودد حتى ترتب على ذلك إعادة كثير من الاسماعيلية وبورسعيد من التجار الأوروبيين الى مصر معلومة أسماؤهم بطرف إبراهيم بك فوزى مأمور الضبطية وقتها . وكذلك تحرر منى لضبطية مصر ومديريا تالوجه البحري بتوزيع مهاجري الاسكندرية على البلاد والبيوت الشهيرة وأن يدعوا الناس لاعانتهم وأن يسكنوهم في مساكن طيبة ويحسنوا اليهم غاية الاحسان في مدة هجرتهم وبذلك حصل لهم من اقبال الناس عليهم بالاكرام ما لا يقدر قدره . »

« وفي أوائل شهر أغسطس ١٨٨٢ وقع الضابط دادلي روتشير الانكليزي أسيرا في يد عساكر فرقة أبو قير فأرسله الى قومندان الفرقة المذكورة خورشيد باشا طاهر مكرما فاستقبلته واجلسته بجاني وأزلت روعه واتخذته صديقا في وكرمت مثواه ثم أرسلته الى مصر بأفادة للجهادية بأن يصير اقامته في محل يليق لاقامت الاشراف ويتعين له من يوائسه من الضباط الذين يعرفون اللغة الانكليزية ويكرمونه غاية الاكرام وأن يقبلوا منه »

التلغرافات والمحركات التي يكتبها لوالدته أو لرئيسه أو لأى جهة حتى ان والدة الضابط المذكور حررت لى تلغرافا من لندن تشكرنى على حسن عنايتى بولدها كما تحرر لها من طرفه وتخصص لاقامته السراى المعدة لتعليم اولاد الخديوى .

» ثم وقع أسيرا ضابط قيل أنه تليانى فصار اكرامه وأرسل أيضا بالافادة لاقامته مع روتشير لكونه كان مستخدما فى الجيش الانكليزى ، ثم جرى لى بضابط بحرى تليانى. وجدته داروية فرقة مريوط وهو منفردا ماشيا بارض الملاحه لا ملابس عليه اصلا الا قميص فقط ولا قدرة له على السير ، فالبسوه ملابس احدى العساكر وارسلوه مكرما فوجدته ضعيفا واقدامه متورمة من تأثيرات الأملاح عليها فأكرمته وارسلته استباليه كثر الدوار واستحضرت له ملابس مخصوصة من مصر ولازال هناك الى آخر يوم ولا ادرى محله الآن . وهذا الضابط كان خاطبني عنه مسيو دلسيس قبل وجوده ، وعند حضوره انقطعت المخابرات التلغرافية بين مصر والاسماعيلية فلم أمكن اعطاء خبر عنه كما أنه أبى أن يعطى عنه اخبار الى قنصل دولته وكذلك ضبط اثنين ضباط وواحد حكيم وتسعة عساكر كانوا خرجوا من فلوكة الى البر جهة أبى قير وارسلهم لطرفنا قومندان فرقة أبو قير مع الاكرام وبالتحقيق اتضح انهم نمساويين من مركب نمساوية وكانوا اتوا الى تلك الجهة عن غلط حصل عن عدم معرفة الخطة جيدا وجاءتنا مكاتبة من قنصل النمسا فى اسكندرية فارسلناهم مكرمين الى مركبهم يتحدئون بها لاقوه من الاكرام ، وكذا الاثنين ضباط اللذين صار ضبطهم بمعرفة طلائع فرقة الصالحية وارسلوا الى مصر بغاية الاكرام بما وجد معهم من النقود التى تبلغ ثلثمائة جنيه انجليزى ، وكذلك الضابط الذى وقع اسير يوم اختلاط سوارى الجيشين فى معركة القصاصين ارسل مكرما لاقامته مع دادلى روتشير . تلك كانت معاملتنا مع الأسرى ونحن متهمين بالتوحش . فما بالنا الآن لا نعامل بمعاملة مثلها ، ونحن مستسلمين بانفسنا لدولة عظيمة ذات شرف وذمة هى انجلترا وما بالنا وضعنا فى سجن خصمنا الذى طالما تمنى وقوعنا فى حالة كهذه كانه لم كان محارباً لدولة الانكليزى معنا ، فنكل الأمر فى فصل ذلك لنصراء الانسانية .

» واما احترامى للمنافع العمومية فمثبت بما حررته مرارا الى جناب مسيو دلسيس لتلغرافيا وما ورد لى من طرفه تلغرافيا بخصوص احترام قننة السويس كل الاحترام مادام ان المراكب الحربية لم تتخذ ميدانا للحرب ولازال الاحترام الى أن شغلته المراكب الحربية وأجرت الضرب على جهة نفيسة ، فكتب الى الموسيو المذكور من طرفى بأنه مادام القتال اتخذ ميدانا للحرب فقوانين الحرب تقضى علينا باعتباره كذلك فاجابنا بأن نعمل بما يسوغه لنا قانون الحرب ، هنالك تحرر تلغرافا من طرفى بذلك الى قومندان فرقة الخط الشرقى الجنرال الكبير راشد باشا حسنى وباشمهندس عموم الاستحكامات محمود باشا فهمى وباجراء سد التربة الحلوة والقنال ان أمكنهم ذلك حسب ما تقتضيه الاحوال الحربية . ومن الاطلاع على صور محركات جنابه الى ولده وزوجته فى باريس يعلم شدة حرصنا على احترام القنال المذكور وكذلك مداومة مراكب البوسطة على السفرية بعد حصول الحرب ، ولما حصل توقيف من العساكر عن السفر وتحرر لنا عن ذلك من وكيل السفر بالسويس فامرته تلغرافيا بمداولة السفرية حسب المعتاد حيث أن ذلك من المنافع العمومية مع تفهيم العساكر بذلك ، فكانت البوسطة منتظمة فى سيرها حين خروج العساكر الانجليزية الى السويس .

» وبالنسبة لحرصنا على احترام القنال لم كان ارسل الى الجهة الشرقية قوة عسكرية لحفظها لأننا كنا لا نتصور اصلا انتهاك حرمة القنال ، من أجل ذلك لم صمدار ايجاد

متاريس وطواب للمدافعة تحمى بعضها بعضا . فلما اتخذت الاسماعيلية مركزا للجيش الانجليزى وحصلت المعاربة مع العساكر المصرية الذين كانوا فى الحسمة لأعمال المتاريس فى يوم الجمعة الموافق ٢٥ أغسطس ١٨٨٢ ، والحيل الانجليزية اخذت عليهم خط الرجعة ، انهزما عساكرنا ومعهم راشد باشا وخالد باشا وأما المهندس الشهير محمود فهمى باشا فانه اخذ اسيرا لما ناله من شدة الأسف على ترك هذا الموقع المهم الذى لم تسمح له نفسه بتركه وفراره لاحاقه بالتل الكبير . هنالك توجهت فى يومها من كفر الدوار الى التل الكبير اكتفاء بوجود طلبة باشا بفرقة كفر الدوار وكذلك على باشا فهمى قام من مصر وعنه الاى الاول من البيادة الى التل الكبير لتقوية عساكره ، وتتابع ورود العساكر طوبجية وسوارى وبيادة واخذ فى عمل المتاريس والطوابى بقصد توصيلها من الصاخية الى التل الكبير الى الدار البيضاء الى جبل عتاقة بوضع تتمكن به العساكر من أن تحمى بعضها بعضا ، وبذلك يمكن المدافعة عن البلاد من غير خسارة كما حصل فى كفر الدوار ، ومع ذلك حصل حركتين حربيتين بجهة كوبرى القصاصين ثبت فيهما الجيشين المتحاربين ثباتا عظيما وجرح فى ثانيتهما الجنرال الكبير راشد باشا حسنى وسعادة على باشا فهمى فأوسلوا الى مصر وجاء بدلها على باشا الروبى ليكون قومندان للجيش ، ومن قبل أن نتمكن من اتمام عمل المتاريس كما ذكر ، عاجلتنا العساكر الانجليزية والهندية وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية السوارى التى تطير معها أينما طارت على حين غفلة فى ظلمة الفجر ، واشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين ، ثم انت فرقة سوارى بطوبجيتها من خلف الجيش ، فكان ذلك سببا لخدلان الجيش وتشتته فى يوم الأربعاء ٢٩ شوال ١٢٩٩ الموافق ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ ميلادية .

« ولما حصل هذا الخدلان ، توجهت من الجبل الى بلبيس ، وسوارى الانجليز على مقربة منى ، وهناك تقابلت مع على باشا الروبى ، فتوجهنا الى انشاص ثم ركبنا وابور السكة الحديد وتوجهنا الى القاهرة ، فوجدنا أهل المجلس جميعهم فى ديوان الجهادية وحضرات البرنسات حضروا أيضا بالديوان ، وبعد المداولة والتيقن من أن دولة الانجليز لا تريد الاستيلاء على مصر ، تقرر أنه حيث الأمر كما ذكر ، فلا لزوم للدفاع بعد ذلك اعتمادا على أن دولة الانجليز موصوفة بحب الانسانية والاعتدال فى كل أمر وانها متى تحققت الأمور ووقفت على أفكار أهل البلاد لا شك أنها تسعى فيما يوجب تحريرهم وراحتهم وحفظهم ، وبناء على ذلك كتب تلغراف من طرفى حكمدار فرقة العباسية المكونة من خمسة وثلاثين ألف عسكرى ، سعادة رضا باشا ، فى يوم ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ بأنه اذا حضرت عساكر الانجليز ترفع لهم الرايات البيضاء ويتقابل مع ريس العساكر الانجليزية ويخبره بانتهاء الحرب اعتمادا على شرف دولة الانجليز وحرصا على حفظ البلاد من الدمار .

« وعند الغروب انت عساكر السوارى الانجليزية والهندية فرفعت لهم الرايات البيضاء وتوجه رضا باشا لمقابلة الجنرال (لو Lowe) وكذلك ارسلت ابراهيم بك فوزى ضابط مصر لمقابلة الجنرال أيضا ، وارسل وفد قبل ذلك من قبل المجلس لمقابلة الجنرال (ولسلى Wolseley) فى بنها ، وبعد الغروب بساعة ونصف حضر ابراهيم بك فوزى المذكور واخبرنى بأن الجنرال (لو) الانجليزى يريد مقابلتى فى العباسية وكذلك قومندان فرقة عساكر كفر الدوار كان حضر فى هذا اليوم الى الديوان فجاءه تلغراف من قومندان فرقة العباسية بأن الجنرال . المذكور يريد مقابلته فى هذه الساعة وتوجهنا جميعا الى طرف الجنرال (لو) بالعباسية وكذلك ارسلت له على بك يوسف ريس الاى الاولى الذى فى القلعة حسب طلب جنابه .

« ولما تقابلت مع الجنرال ومعى طلبه باشا ، فقال الجنرال (لو) المذكور هل تقبلان ان تسلمنا انفسكم اسرى للدولة الانجليزية ، فقلنا نعم على شرط ان نكون فى ذمة دولة انجلترا وشرفها ، وخلصنا سيوفنا وسلمناها ليد الجنرال (لو) نيابة عن القائد العمومى ولسلى وقلنا له سلمنا سيوفنا وانفسنا الى ذمة انجلترا وشرفها ، فصوت اولادنا وصوت الانسانية يطالبون انجلترا وكل انجليزى بحقوقنا ، وجناكم بالنيابة عن الحكومة الانجليزية وعن كل انجليزى ، واعلم انه موجود بالعباسية خمسة وثلاثون ألف عسكرى ومثلهم فى كفر الدوار ورشيد ودمياط وغيرها ، ولكن حرصا على البلاد وحقتا للدماء واعتمادا على شرف انجلترا وانها لا تريد الاستيلاء على البلاد المصرية قد ابطنا المدافعة وسلمنا انفسنا لدمتكم وشرفكم ، فقبل ذلك منا ، وبقينا بطرفه ثلاثة ايام ، ثم حضرنا الى عابدين ومكثنا بطرف الكولونيل (ثين Thynne) لغاية ٤ اكتوبر ١٨٨٢ ونحن فى غاية الراحة ، ثم صار تسليمنا الى السجن المصرى فى يوم الخميس الموافق ٥ اكتوبر ١٨٨٢ ، فذاك اليوم كان يوما عظيما حيث فرقوا بينى وبين صاحبى طلبه باشا الذى كان يؤانسنى واؤانسى ، ووضعونى فى اودة لا شىء فيها ولا كرسى وقفلوها على فمكتش فيها حتى جاء خادمى فلم يسمح له السجن بدخول شىء غير سجادة وخاف .

« ثم دخل على الضابط الموكل باهانة المسجونين ، وفتشنى واخذ ما كان معى من الأوراق الخصوصية لارسالها لمجلس التحقيق ، وخرج هو ومن معه من رجال الاهانة ثم دخل بعده طائفة من حاشية الخديو اعرف منهم عثمان بك راشت ناظر الاسمطيل الخديوى ، وحسين افندى فوزى من قلم تشريفات خديوى ، وتقدم الى رجل من الأتراك اللذين يركبون دائما ويسبرون امام الخديوى المدين لاعدام الحياة عند اللزوم ، وصار يفتشنى ويخرج قميصى من تحت البنطلون فلم يجد معى الا احجبة كنت حاملها لحفل اولادى الأطفال من داء التشنج العصبى الذى كانوا يهوتون به ، فاخذها بمنف وقوة وكسحت الاول له دعنى اخرجها اليك فيقول لا انا مأمور ، بصوت مزعج ، حتى انه اخرج الجزمة من قدمى وفتشها ثم خرجوا .

« وبعد ساعة فتح الباب واذا بمحرر جريدة الأهرام اسمه (بشارة تقلة) فظننت انه جاء ليؤذننى ويهون على المصاب لكونه كان معنا قبل الحرب وكان يعلف بدينه وشرفه انه كواحد منا وانه من دعاة الحرية وكنا نجله ونكرمه ، واذا به اتى بوقاحته ليشمت بنا وقال لى بنفور : عرابى اى شىء سويت رايت اى شىء صار لك ، فعلمت انه ذو وجهين وانه لا شرف له ، فلم اجابه ، فتوجه .

« وبعد ساعة اخرى ، دخل طائفة ثانية من الأتراك اتباع دايرة الخديوى وبعض عساكر المراسلة اللذين هم بمعيتهم ، وفتشوا السجادة واللحاف والقوهم يميننا وشمالا ، وخرجوا واقاموا ليلتها غفراء على المسجونين ، وفى يوم ٦ اكتوبر توجهوا لاشغالهم .

« وفى ليلة ٩ اكتوبر الساعة ٨ افرنجى من الليل يوافق الساعة ثلاثة ونصف عربى تقريبا ، بعد ان خلعت حوائجى ونمت واذا بالباب قد فتح ودخل على جماعة نصوص العشرة اشخاص او اثني عشر شخصا ، لا حققتهم لشدة الظلام وقال قائل منهم بصوت قبيح هائل يا عرابى اما تعرفنى فظننت انهم مأمورين بقتلى ، الا انى تثبت وقلت له لست اعرفك فمن انت ؟ وما الذى تريده فى هذا الوقت ، فقال انا ابراهيم اغا ، وسبنى وشتمنى بقوله يا كلب يا خنزير انت كنت عايز ايه منى ؟ وثقل على ثلاث مرات ، وعلمت انه ابراهيم اغا تتونجى الخديو الذى كان توجه الى الشام هربا بسبب سرقة اللباس من سراى

عابدين لأجل عدم التحقيق مع محمد حسن الذى أرسل الى البحر الأحمر ليلقى فيه كما سبق ذكره .

« وما أنا فى اودة ذات منفذين من جهة واحدة عليها أقفاص من حديد وخارجهما شمسيات من خشب مسهرين لا ينفتحان أبدا ، وعند مجئ الطعام من البيت : صحن الخادم يأخذه منه أحد الأتراك غفراء السجن يفتح الباب ثم يدخل الطعام داخل الباب ، ويقفله سريعا ويتركنى وشأنى كانى وحش داخل قفص ، الا أن قفص الوحش متجدد الهواء دائما ويثور له ليلا ونحن محرم علينا القيادة وغيرها مطلقا مبالغة فى الاهانة .

« وكذلك صار القبض على جميع الضباط من رتبة البكباشى فصاعدا وبعض الصاغات واليوزباشى والملازمين وسجنوهم وكذلك على كثير من العلماء وأعضاء مجلس النواب والأعيان من العهد والتجار وغيرهم حتى غصت بهم السجون فى مصر واسكندرية والمدريات ، وظهر مصداق قول أعضاء مجلس النواب أن بقاء المجلس لا يكون الا بقاءى فان أنا خرجت من مصر فلا مجلس ولا بلاد بل بعد ازالة جميع الأعيان والمنتبهين من المصريين وتبعيدهم وخراب بيوتهم يصير أهالى مصر عبيدا أرقاء يستخدمون فى اقدر الخدمات .

« تلك المعاملة التى لم يسبق لها مثيل ، حيث أن الخديوى تسبب فى حضور المراكب الحربية الى مصر ثم كان أول مشاع الى الحرب ومحرض عليها حتى التمس علينا الأمر ، ثم انجاز للجيش المحارب لبلاده ، ثم استمر الحرب باسمه فكانت عساكر الانجليز تقاتل باسم الخديوى اعتمادا على أن الجيش المصرى عصاة ، والخديوى ينشر المنشورات بأن عساكر الانجليز لا تريد الاستيلاء على البلاد ، وهكذا تنوعت فى صفاتها وظهرت فى أشكال غريبة ، فاذا كان الجيش عاصيا ، على زعمهم ، فما بال الناس جميعا ؟ ينظرون الى كثير من الذوات الملكية مسجونين وكثير من العلماء الاعلام وأعضاء مجلس النواب وأعيان العهد والتجار ونبهاء الدواوين وغيرهم من الاهالى صار سجنهم حتى ملئت السجون بكافة المدريات والمحافظات وغيرها . واذا كان الجيش والمذكورين وباقى الأمة المصرية على اختلاف مذاهبها كلها على رأى واحد مشتركين فى أمر واحد وهو الحق فما بالنا نرى أول دولة مشيدة لأركان العدل والحق تقهر تلك الأمة سيئة البخت ارضاء لشخص واحد ، على أن هذا الشخص لا تجب شريعة قومه أن يكون اميرا عليهم أبدا ، هذا مع احترام دولة الكلترا للشرائع والأديان ، وكيف تكون تلك السيرة فى بطون التواريخ لدى عالم الانسانية ، فنكل الحكم فى ذلك لشرف الأمة الانجليزية .

« أن مصر لم تكن محاربة لدولة الانجليز اصلا ، ولكنها كانت مدافعة عن نفسها فقط حرصا على اعادة المودة مع دولة الجلترا المحافظة على حقوق المصريين منذ زمن مديد ، وطلبا لبقاء ابواب الصلح مفتحة واعتقادا على أنها متى ثبتت الحقيقة لا تظلم المصريين حقوقهم ، وحينئذ فى ذلك ما هو مشاهد فى تحسين حالة الزراعة وحفظ الثيل وعدم ما يخل بالراحة العمومية التى بها يتخيل أن البلاد لم يكن فيها حرب اصلا ، هذا مع حفظ أملاك الأوروبايين وزداعتهم فى العاصمة والأرياف ، وغير ذلك حصول التسليم مع وجود سبعون ألف من العساكر والمتطوعين وكثير من الأسلحة والذخائر الحربية ، فضلا عن كثرة الشرع والجسور والخلجان التى يستعان بها كثيرا فى المعاركات خصوصا فى مادة الثيل .

« فاذا كنت عاصيا فكيف أسلم نفسى مع وجود تلك القوات الكبيرة الكثيرة معى والبلاد مستعدة لاعانتى بالرجال والمال ؟ واذا تظلمت جميع الأسباب فكيف أسلم نفسى ؟

الفصل الثالث عشر

بعض موكلين آخرين

كان «وكيل» فنلق شبرد فى ذلك الوقت من بين النزلاء سبىء الحظ على سجن الدائرة السنية ، وكان هناك مزيد من النواح بين سيدات الأسرة الحديوية لأن «عثمان باشا فوزى» كانت له الخطوة عندهن بوجه عام . كان «عثمان» فى شبابه مملوكا من ممالك محمد على الكبير ، وكان فى شبخوته لا يزال الوكيل الأمين ومتولى كل الحسمات factorum لابنته «الأميرة زينب» (مالكة فنلق شبرد) وابنه الوحيد الباقي على قيد الحياة ، « الأمير حليم » . «عثمان» جركسى المولده تركى الثقافة والأراء ، « حليمى » فى السياسات ، ذكى ، دارس للفرنسية لمستوى محدود ، ونديم خفيف الظل bon-vivant ، كانت له شهرة لا تفارقه هى عثمان العجوز المجنون Old Dély Osman ، وكان الفريد فى مكانه وسط المصريين الوطنيين . لقد أيد عرابى ، وهذا صحيح ، ولكن فقط لأنه كان معقدا أملة أن تنتهى حركة عرابى فى تحقيق حلم حياته . أن يعتلى عرش البلاد ابن سيده : حليم . لم يكن يتعاطف مع مطامع المصريين ، ولكنه كان يظن أنها يمكن استغلالها وتحويلها الى ذريعة معقولة لتطبيق حكم لمؤامرات تركية ، وكان «عثمان» يمثل النفوذ القوى للحريم فى القاهرة والذي أعلن عن نفسه مناهضا للحكم القائم . وأثناء الحرب . اعتاد عثمان أن يذهب الى مقبرة «محمد على» ، ويهز بقوة التابوت الخشبي الذي يغطى قبره ويدعو بصوت عال خالق الخلق أن يبعث حفيدا آخر يكون جديرا بأن يكون حفيدا لمحمد على بحق ويقصى توفيق الضعيف عن العرش . وبناء على طلب «مستر جروس Mr. Grosse» ، الوكيل الأول للفندق ، وافقنا على أن نبذل كل ما فى وسعنا من أجل «عثمان باشا فوزى» ، ولأسباب سبق أن شرحتها ، قبلنا بالفعل مقدم آتاعاب «طلبة باشا» .

يعرب عن حبه لرئيسه اعراباً يكاد يحس به المرء . لقد قدم لنا ، على الفور ، تفويضه ، وبدأ فى املاء دفاعه .

لم يكن استقبال عثمان « العجوز » لنا مرضياً أصلاً . عند دخولنا زنزانته ، اذ برجل هزيل عجوز أشقر البشرة رومانى الأنف رمادى اللحية أشعثها ، ينهض ببطء من على سجادة فى ركن من الغرفة ، شرحنا له مهمتنا ، فقال متعجباً : « عرابى » واستطرد : « اننى لا أعرف الرجل ! ألا تدرك أننى كتركى وابن تركى لا يمكننى أن أشارك المصريين آراءهم ولا اهتماماتهم ؟ ألم تسمع أننى أعبد ذات الأرض التى يطؤها أى حفيد من أحفاد « محمد على » ؟ اننى عبده « توفيق » المفضل اننى لا أتخيل لأية لحظة لماذا أنا هنا . اننى أبرئ نفسى تماماً من عرابى ومن قضيتته . اقترحنا أن ننسحب من الموضوع ، عندئذ رفض . كان صديقه « مستر جروس » قد بعث الينا متوقفاً أننا يمكن أن نتولى الدفاع عن « عرابى » وعنه بدون أية مضايقة . ولأسباب واضحة لم نسمع عن « عثمان باشا » شيئاً أكثر من هذا حتى انتهت محاكمة عرابى . لقد اعتاد أن يركل باب زانزانه بشدة كلما مررنا به ، وفى اعتقاده أنه كان يتمنى ألا يكون سلوكه بهذا العنف على زملائه من المصريين المساجين .

أما « يعقوب سامى » (الذى قلعه لنا « سير تشارلز ويلسون ») فكان يمثل قلب وروح المقاومة فى القاهرة ، ورغم أنه تركى المولد ، إلا أنه ربط مصيره بمصير الوطنيين . ونظم بطريقة منسفة الامدادات الضخمة والتعزيزات الهائلة من كل أرجاء مصر التى أرسلت الى « عرابى » أولاً فى كفر اللوار ثم فى التل الكبير . وكان فى الوقت نفسه واحداً من الأرواح المتحركة فى المجلس الوطنى فى القاهرة . وعندما انتهى كل شيء رتب الأمور لاستسلام الفرق فى كافة أرجاء البلاد . ومن الغريب القول أنه منذ اللحظة التى ألقى فيها فى السجن صار نابط العزم تماماً ويأثساً تماماً . وعلى شاكلة الباقي أسبخت معاملته وهو فى زنزانته - ضرب وأهين وبصق عليه ، وأمام قومسيون التحقيق أهين اهانة متعمدة وكاد يجن من الخوف . لقد تنكر بلا حياء لقائده ولقضيتته . لقد روى لنا معاناته بدموع منهمة مريرة . وعندما قرأ خطاب عرابى كاد ينهار تماماً ، وأخيراً ، استجمع شجاعته ووقع بحماس تفويضاً لنا لنتولى الدفاع عنه ، وطلب منا أن نبليغ عرابى انه لا يستحق الكلمات الرقيقة التى وجهها عرابى اليه . « ويعقوب سامى » قصير القامة مبتلى الجسم ، بشرته شقراء وملامحه واضحة جيداً ومعبرة وكان معتاداً على لبس نظارة . لقد كونت أسمى رأى عن قدرته ومهاراته ، وبعد ذلك اكتشفت أن نافذة زنزانته تطل على ساحة مليئة بصناديق خشبية كبيرة مظهرها متين جداً ،

ولازلت أجهل استخدامها أو السبب في وضعها في مكانها . كان من شاهدها من المساجين يعتقدون أنها تشير الى وسيلة للتسليم للسجن بلا مراسم . اننى لن أنسى وجه « طلبة » المسكين عندما نقل الى غرفة في ذلك الجانب من المبنى نتيجة زعمهم بأنه كان كثير الثروة مع كتبة مصرف مجاور .

أما موكلنا الثامن ، فكان « أحمد رفعت بك » . كانت زنارته تكشف عن دلالات عن نمطه بالراحة التامة وعن ما فيها من انسجام . كانت زنارته التى يقيم فيها بها كتب ووسائد مطرزة وسجادة إيرانية ومراة وناموسية ممتازة ، وكلها أشياء تنبئ عن أقدر من أناقة نزيلها . هرع لاستقبالنا عند الباب شاب فى حوالى الثلاثين من عمره ، وجهه شاحب بعض الشيء ، ومظهره يكاد يكون أوربيا . كانت على محياه كل علامات الرضا الكامل . كان رفعت يتحدث الفرنسية كأحد أبنائها . قال لزه من اللحظة التى سمع فيها عن مقدمنا (وكان يحتل زنارته تطل على الشارع عند أقصى طرف السجن تقابل تماما الركن المقابل لـ «عرايى» ، وكثيرا ما كان يرانا فى الدخول والخروج من السجن) قر قراره على أن يجاهد بشجاعة ، رغم أنه زاره فى زنارته شخصيات مهددة له ومتوعدة منذ اللقاء القبض عليه . كان كل ما يطلبه هو قلم وحبر وورق ليقدم لنا دفاعا مكتوبا . لقد قص علينا فى أول لقائنا به جانبنا من تاريخ حياته ، قال : أبى هو «قانى باشا» الذى يعيش فى القسطنطينية ، كان ناظرا للمبالية أكثر من مرة ، وكانوا يطلقون عليه « التركي الأمين الوحيد » . تلقيت دراستى فى باريس ، واجتزت التدريبات اللازمة لتولى الوظائف القانونية ، ولكنى قبل أن أحصل على أجازتى العلمية ، عدت الى وطنى لأتزوج ابنة « كامل باشا » كبير التشرىفات الامبراطورية ، ثم عدت ثانية الى باريس ملحقا بالسفارة ، ولكنى فقدت وظيفتى لزيارتى للمنفين من حزب تركيا الفتاة Jeune Turquie ، وبعد ذلك عينت مديرا للمراسلات الأوروبية فى نظارة الخارجية للباب العالى ، ولكننى قررت أن أبحث عن مستقبل فى مصر أولا عيننى « اسماعيل باشا » (الحديو) وأخذت أتلقى تدريجيا الى أن رأس « محمود سامى » النظارة فى فبراير الماضى ، شغلت منصب سكرتير مجلس النظار ورئيس ادارة الصحافة . اننى تركى ، وليس لى من دافع لأن أقول لك ما ليس بصحيح . كان عرايى يسأله تعاطف مصر كلها ، كما أنه اكتسب تعاطفى أنا أيضا . كان عرايى قائدا ومتحدث بلسان الأهالى الذين استعبدوا وأخطئ فى حقهم خطأ عميقا ، والذين كانوا يناضلون من أجل الحرية وكانت مصر كلها معه فى نضاله . لقد غدر به الحديو وخدعه السلطان . ان القضية الوطنية

تصدعت اليوم تصدعا لا أمل فيه ، والمصريون على شاكلة كل الشعوب المغلوبة على أمرها ، جبناء ، ولا يمكنهم مقاومة الاحباط المعنوى الذى جرت عليه هزيمتهم التامة . من يجرؤ اليوم أن يشهد لصالحنا ؟ بل اننى ارتعدت وتلعثمت أمام قومسيون التحقيق الذى حاول فقط أن يدفع بى الى الاساءة الى سمعة رؤسائى . وبالرغم من كل هذا ، اذا كنا سنحاكم محاكمة عادلة فى وضوح النهار ، فستعلم أوروبا الطبيعية الحقة لخلق عرابى وستتضح قضيتته العامة ، بالرغم من سلطان أعدائه . ان عرابى ، اذن ، ليس فى حاجة لأن يخشى شيئا . كان لقاؤنا مع « أحمد بك رفعت » مشجعا بكل تأكيد . ثم عدت الى عرابى لأنقل له التقدّم الذى أحرزناه .

وعلى غير العادة وجدت مزاج « عرابى » الهادئ شديد القلق . كان قد أصر على قراءة جريدة « الجوائب Jowab » (وهى جريدة عربية تصدر فى القسطنطينية تحت رعاية شبيه رسمية) كانت قد مجدت منه كبطل حتى ليلة معركة التل الكبير ، ولكنها اتهمته ، كما كان متوقعا ، بالعصيان لحظة أن هزم ، وكان عدد الجريدة الذى وصل مؤخرا ، على غير العادة ، أكثر مرارة فى عداوته . رجائى « عرابى » أن أسمع له بالرد عليه . لم أرى معارضة قانونية لفعله هذا ، واذا به يحرر الخطاب التالى الى مدير « التايمز » بلندن ، مستر شىستري :

كتاب الى مستر شىستري ، مدير التيمس بلندن

رايت فى جريدة الجواب (١) نمرة ١١٠٥ تحت عنوان القبض على المفسدين فى مصر نقلا عما يتشدقون به كتاب الجرايد العربية من غير مبالاة انه صار القبض على عدد كذا من الضباط العصاة وكذا من عمد البلاد ومشايخ العربان وفلان القاضى وفلان النائب وفلان العالم وفلان المدير وفلان المأمور والمترجم والكاتب والتاجر وأودعوا السجن فى دعة الحوية اذا كانت العساكر هم العصاة فما بال جميع أعيان البلاد وعلمائها وقضاتها على اختلاف وظائفهم صار سجنهم واهانتهم واذا كانت الأمة على اختلاف أنواعها على رأى واحد فى أمر واحد هو تحرير البلاد والمدافعة عنها فلما يوسمون بسملة العصاة لهم الحق ان هذا لهم الظلم المبين وكيف نوصف بصفة العصاة والحرب كانت شرعيته قانونية بمقتضى قرار مجلس تحت رئاسة الخديوى ومندوب الحضرة السلطانية وبعد خلو اسكندرية من الأهالى والعساكر وتوجه الخديو اليها وانجازه الى الجيش المعارب لبلاده الأمر الذى تمقته جميع الشرائع أجمعت الأمة المصرية بأسرها على وجوب توقيف الخديو تخروجه عن أحكام الشرع الشريف والقانون الخفيف وعلى دوام المدافعة عن البلاد بمقتضى قرار عرض عنه للحضرة السلطانية ابعد هذا تكون عصاة فالق أقول اننا كنا مدافعين عن بلادنا مدافعة شرعية قانونية ومن قال غير ذلك فليس هو من الحق فى شيء بل هو عبدا للهوى والدراهم والدبنار وأن علماء

(١) « الجواب » جريدة كانت تصدر بالآستانة باللغة العربية لصاحبها أحمد فارس

الشدياق . (المحقق)

السفن الحربية المياه المصرية . وقبل أن يغادر عرابي القاهرة ، زار المراقب الانجليزى مستر (الآن سير) أوكلاند كولفن Sir Auckland Colvin الذى كان لسلوكه وأسلوبه أفضل انطباع عند عرابي . ومنذ ١١ سبتمبر ، يبدو أن عرابي قد صار بالتصويت الضمنى لأبناء وطنه الزعيم المعترف به « للقضية الوطنية » - وهو تعبير صار يستخدم من وقتها بصورة متكررة ومتداولة فى المكاتبات الرسمية ، بالرغم من أن نفس التعبير قد أدين من وقتها بأنه اختلاق تعوزه الفطنة .

ومرة أخرى ، اتخذت الشئون المصرية مظهر سلام خادع . لقد استهلكت السنة الجديدة (١٨٨٢) بثلاثة أحداث هامة ، أعنى ، افتتاح الحديو لمجلس النواب بخطاب يفيض وطنية لا حياة فيها ، ثم تعيين عرابي (وكان لا يزال وقتها الأميرالاي عرابي بك) وكيلا لنظارة الجهادية : ثم تقديم انجلترا وفرنسا المذكورة مشتركة متمائلة . ويبدو أن «لورد جرانفيل» قد وقع لسوء الحظ ، رغم احكامه الشديد ، فى فخ أوقعه فيه مسيو جامبيتا M. Gambetta (١) الذى ابتدع المشروع المعنى ، باعتبار أنه أداة موائمة لتدعيم مطامع فرنسا على ضفاف النيل ، ولكنه ، وبالقسوة القدر ، عاش فقط ليشهد أشد النتائج مرارة بالنسبة له وفرنسا (٢) . وفى هذه المذكرة الثنائية ، أعلنت فرنسا وانجلترا متشددتين أنهما قد صممتا على استتباب الأمور فى مصر وتأييد الحديو .

ونتقل الآن الى مناقشة طويلة معقدة وحادة عن القواعد الجديدة لتنظيم مجلس النواب . فى ١١ يناير ، كتب لورد جرانفيل أو بعث بتلغراف بأن « حكومة جلالة الملكة لا ترغب فى أن تلجأ الى منع مجلس

(١) كان رئيسا لوزراء خارجية فرنسا وقتها ، ولكن وزارته لم يكتب لها النجاح ولم تجد التأييد الكافى لها ولذلك لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر (من نوفمبر ١٨٨١) حتى يناير ١٨٨٢) ، وخلفه من بعده مسيو فريسسنه M. defreycinet . (المحقق) (٢) يجب أن نأخذ فى اعتبارنا دائما أنه طبقا للسياسة الخارجية الفرنسية المتوارثة ، والتي لا يطرأ عليها أبدا أى تغيير ملموس ، أن مصر جزء من امبراطورية ضخمة فى المستقبل - امبراطورية قرطاج الغالية (انفرنسية) Carthage Gauloise لقد كتب نابوليون الثالث Napoleon III وكله أمل فى الوقت الذى ترسخ فيه سيادة فرنسا عند سفح جبل أطلس ، عندما تبدد للعرب أنها تدبير من السماء ، وعندئذ يتردد صدى مجد فرنسا من تونس الى الفرات » . ويؤكد الكتيب الشعبى « تحديد العسكرية الفرنسية La Régénération Militaire Française فى شجاعة ، أن أفريقيا (وهو الاسم الذى كان يطلق من قديم على تونس) تنتمى اليوم الى فرنسا ، وبمساعدة ما بها من جمال وهجين ، تستطيع فرنسا أن تذهب الى السودان ، ومن تونس تذهب الى الفرات ، بل لقد ذكر مسيو فرنسييه (رئيس وزراء فرنسا الذى أعقب جامبيتا مباشرة) فى وضوح تام للكولونيل فلاتر Cal. Fletters أنه لابد من تكوين حزب فرنسى فى السودان .

النواب منعاً تاماً ودائماً من حق اقرار الميزانية » ولكنه أضاف بأنه يجب مراعاة الحذر ، اذ « لا بد وأن يؤخذ فى الاعتبار المصالح المالية التى تعمل حكومة جلالة الملكة من أجلها » ، وهو يسأل فى النياية عما ستكون عليه النتيجة لو أن المجلس سمح له بالتصرف فى الايرادات غير المخصصة لسداد الدين العام ، ويجيب « سير ادوارد ماليت » على الفور (١٦ يناير) بخطاب أو بتلغراف بأن المرتبات الرسمية التى لا تنظماً عقود تخضع لرقابة المجلس ، الذى قد يلغى مسيح الأراضى ويستغنى عن الكثير من الأوربيين من الادارات » ، وتوضح رسالة رسمية كتبت بعد ذلك بثلاثة أيام ، أن « سلطان باشا » رئيس المجلس وقتذاك (وهو وطنى حيسى ، وسيتردد ذكره كثيراً فى هذا الكتاب) كان يعلن مؤكداً ومراراً وتكراراً أنه لا يعمل بأية صورة تحت ضغط الحزب العسكرى ، بل ذلك الطريق الذى اقترحه ويؤيده ، أعنى تصويت المجلس على الجزء « غير المخصص » فى الميزانية ، الذى صدقت عليه الرغبة الجماعية للبلاد ، بوصف المجلس ممثلاً الحقيقى والمتحدث باسمها .

صار الموقف أكثر وأكثر توتراً ، وكان شريف باشا يبدو ضعيفاً فى تردده بين كلا الطرفين ، وفى يوم ٣ من فبراير بعد تلقي الحديو ملتصقاً من وفد عن مجلس النواب أقال النظارة التى كان يرأسها شريف ، وعين نظارة وطنية خالصة تحت رئاسة محمود باشا سامى ، ووزعت مناصب النظارة المختلفة على الوجه التالى : على صادق للمالية وأحمد عرابى للجهادية ومصطفى فهمى للخارجية وحسن شريعى للأوقاف ، ومحمود فهمى للأشغال العمومية وعبد الله فكرى للمعارف العمومية ، وبالرغم من معارضة المعتمدين الفرنسى والانجليزى ، تأييداً للمصالح المالية اللذين يعملان من أجلها ، إلا أن الحديو وافق فى ٨ فبراير على اللائحة الأساسية الجديدة للمجلس ، متضمنة بنود الميزانية : وفى اليوم نفسه ، قدم مصطفى فهمى مذكرة قانونية جداً ومقنعة جداً يعارض فيها تدخل القنصلين العامين الأجانب فى شئون ادارية هى شئون داخلية بحتة ، وفى الوقت نفسه تقريباً ، بعث السلطان بتلغراف الى الحديو مؤداه أنه (أى الحديو) يجب أن يترك هذه المناقشة الخاصة بالميزانية ، لمجلس النواب . وقد تقدم رئيس النظر الجديد الى الحديو بتقرير مئزن ولبق ، وتلقى فى اليوم التالى رداً عليه ، وأصل الخطاب هو اليوم فى حوزتى :

خطاب الجناب الحديوى المعظم أيده الله .

عزيزى محمود سامى باشا

ان فى قبولكم تاليف هيئة نظارة جديدة مع ما فى ذلك من عظم الأهمية دليلاً قوياً على

وجدنا « رفعت بك » مشغولا في كتابة دفاعه ، ويبدو أن زيارتنا له عادت لتلهب فيه حماسه القديم ، وكان قد رتب في ذلك الصباح ليرى ابنه الصبي . كان طفلا ذكيا في التاسعة من عمره ، كان يرتدي بذلة بهيجة ، وكان هو وأخواه اللذان يصغرانه ، وكانت أعمارهما الثامنة والسابعة ، قد طردوا عن مدرسة خديوية لغلطة لا تغتفر وهي أنهم أبناء رجل « عاص » ، وكان أكبرهم قد صلب ، في وقاحة ، ولاء شعب مصر الذي جرده لخديويه عندهما قدم بنفسه الى « عباس » ابن توفيق باشا ، وكان صبيحا في نفس عمره ، ملتبسا مكتوبا بخط يده لاطلاق سراح أبيه . وكان « رفعت » قد أعطانا في هذا اللقاء بيانا طريفا عن تصرفات درويش باشا طوال الشهر الذي كان مليئا بالأحداث والذي سبق ضرب الاسكندرية وقال : « اذا أردت برهانا على آراء السلطان فينا ، فأننى أستطيع أن أعطيك برهانا واحدا ، إذ أنه قبل الثاني عشر من يوليو بيوم أو يومين ، أعطانى درويش باشا دليلا على رضاء جلالة الامبراطور عن سلوكي كعضو في الحزب الوطني ، أعطانى « فرمانا » فيه ترقيتي الى رتبة الباشوية ، وإذ طلب منى أن احتفظ بهذا سرا في وقتها ، ولكن لى توجهت الى دارى بخطاب منى ، فاستعطيه لك زوجتى » .

وفي وقت متأخر من النهار ، توجهت الى دار « رفعت » ، وكان مبنى فسيحا كبيرا ، بالقرب من قصر عابدين ، كان يعيش فيه عيشة تكاد تكون أوربية ، فيه وجدت مربية فرنسية كانت تتولى تربية كل أطفاله ، وكان رفعت يفخر بأنه يمتلك مكتبة ممتازة ، خصصت لها غرفة واسعة . كانت تطل على حديقة ظليلة . منذ أن سجن قلبت رأسا على عقب بحثا عن خيانة مكتوبة ، وبعد حديث طويل مع المربية ، عن مصر والمصريين أفلحت في الحصول على الوثيقة المطلوبة التي أكدت تماما كل ما قاله « رفعت » وكشفت عن دليل آخر جديد في دعوى « العصاة » لتبرير موقفهم .

ولما كان « اسماعيل أيوب » قد وعدنا في لقائنا القصير معه : بسرعة الاتصال بكل الشهود الذين كانت قد سجلت اللجنة أسماءهم حتى ذلك الوقت ، واعداد الوثائق التي اقترح الاتهام الاعتماد عليها ، فقد عينا بالاضافة الى ما عندنا ، خمسة عشر كاتباً لينسخوها لنا بالعربية والفرنسية ، وقد خصص القومسيون غرفة صغيرة لتكون تحت تصرفنا ، مجاورة لزنزانة « رفعت » واشترينا مزيدا من المناضد وتموينا ضخما من الأدوات الكتابية ولوازم المكتب ، وكان ناسخونا الجدد ، بصورة أخصى من الأقباط والسوريين أو الفرنسيين ، ونظرا لأن الأمر لم يكن يستلزم سرية ، تركنا الاشراف والرعاية لمساعد « ميسو بوريلي » ، وكان شابا

مصريا ذكيا جدا ، حاصلا على ليسانس الحقوق licencié-en-droit

يدعى « حشمت » .

سلمت سجلات القومسيون في بطء شديد. في أول الأمر ، ولم أكن متعجبا من هذا ، فقد كان واضحا أن « بوريللي » يعتقد أن مثل هذه المهمة لم تكن تستحق مثل هذا الاهتمام الذي كرسبت من أجله تلك المواهب التي كان في استطاعتها أن تنشر أكثر من مرة ، دستورا مصريا في ليلة واحدة . ولما كان بوريللي غارقا في أعمال أكثر وزنا وأهمية ، لذا فقد ترك مجرد الأعمال التي يبت فيها تلقائيا ، تركها كلها لمرؤسيه . كان عرابي قد حكم عليه مسبقا d'avance ، وكان نجاح أعدائه هو أكبر برهان قاطع على « عصبائه » . ولم يكن من المتوقع من القضاة ذوى النظم الحزبية ، الذين كان عليهم أن يلعبوا دورا في المشهد الاستعراضي للمحاكمة الشكلية — لم يكن من المتوقع أن يكونوا بالغى الدقة بصورة تشككية في سؤال الشهود . إن كل ما كان يحتاج اليه الأمر هو ملف dossier أنيق يسر النظر ، محتوياته مكتوبة بخط واضح وعلى ورق ممتاز ، والملف يطرز بالحرير الأخضر ليخفى الكثير من عيوبه الداخلية ويحفظ مظهره . لقد اتضح أن الشهادات التي جمعت فيه كانت عديمة النفع من وجهة النظر القانونية ، وللمحصل على نسخة كاملة منها ، دفع « مستر بلنت » ما يقرب من خمسمائة جنيه ، وسيظل محتفظا بها لتكون دليل اثبات على أن العدالة كانت في غيبة في مصر ، وهي العدالة التي طالما نادى بها عرابي بلا جدوى . انها تصوير كامل لكل شيء مؤسف مع بليلة في الافكار عمت النظم التشريعية في الشرق . شائعة تجبعت فوق شائعة ورأى سجل عن رأى آخر ، وتعبير في أثر تعبیر ، أما الدليل المباشر الذي يمكن الاعتماد عليه ، والذي يعد ثقة فلم يكن له وجود بالمرة . ولم يكن المتهمون حضورا على الإطلاق عند سماع القومسيون وحده للشهود ضدهم ، كما أنه لم يحدث أن كان هناك استجواب للشهود بالمرة ، وكانت نصف الأدلة تقريبا مؤلفة من خطابات كتبت غيابيا in absentia ، بناء على طلب القومسيون ، وقد صرف النظر تماما عن تأدية اليمين . وبعض هذه الاقراءات التي جمعت من أجزاء مختلفة في مصر تماثلت كل كلمة من كلماتها بل وفي كل ترقيم فيها ، فقدمت بذلك برهانا ثابتا على تداول الاقراء « النموذجي » .

اننى لن أتعجب قرائي بمحاولة أن أصف بالتفصيل هذا التسجيل الشفيل للفرائب التشريعية من خلال ما اضطرت أن أكتب فيه لعدة أيام رهيبة . وبعد أن وزنها رجال أمثال « لورد دافرين » و « سير تشارلز ويلسون » ووجدوا أنها ناقصة ، فانه يمكننى أن أحذفها من قصة الدفاع

عن عرابى . كانت خلاصتها غاية فى البساطة : « كل فرد اعتقد اليوم أن « عرابى » عاص وأن « توفيق » حاكم مثالى - وأن ما فعله شعب مصر بأسره كان نابعا من خوفهم من عرابى ومن الجيش ، وأن بعض الأفراد « سنعوا » أن عرابى أحرق الاسكندرية واعتقدوا أنه « من المحتمل » أن تكون له يد فى مذابح يونيو ، ولم يساور الناس أدنى شك اليوم فى أن عرابى يستحق سوء معاملة بلده له ، لقد فشل فى مهمته ، ولذلك وجب عليه أن يعاقب » . وإقد ندر أن وجه سؤال لم يكن من النوع الذى يوصف فنيا بأنه سؤال يتضمن الجواب leading question ، وكادت تقدم كل صفحة شاهدا من داخلها على أن تأثرا غير سليم قد اتبع . لقد ضاعت أيام كاملة فى جمع تلك التفاهات المضحكة التى ليست بمستغربة عن الشرق . لقد استجوب عشرون شاهدا للبرهنة على أن المتهم « محمود سامى » قال أن الحديو عليه أن يحمل حقيبته Portmanteau ويذهب الى فندق شبرد » ، بينما وجه أخطر اتهام الى واحد من أعيان مديرية الشرقية لأنه قتل رميا بالرصاص بعض القبط والكلاب التى ألبست كسوة تمثل شخصيات « سير جارنيت ولسلى » و « سير بوشامب سيمور » ، ولا داعى لى لأن أذكر المزيد عن تسجيلات طرف واحد ex-parte ، أغنى تسجيلات الحكومة المصرية التى جمعتها كلها ضد عرابى وصحبه .

وفى مستهل شهر نوفمبر كان مكتبنا يعملان كل الوقت وفى نظام ، وكان الكتبة والمترجمون الذين كانوا يباشرون عملهم فى دارنا ، مشغولين بالبيانات التى قدمها لنا موكلونا ، وأما من كانوا يباشرون عملهم فى السجن فكانوا ينسخون بصورة آلية ملخص الدعوى (الذى عندهما استكمل كان ارتفاع أوراقه قرابة القدمين) ، وكان يوافيتنا بنباء تدرجيا محمد حمدى بك ، نيابة عن القومسيون وقد بذل « مستر بلنت » وزوجته أقصى جهدها ليساعدانا وهما فى انجلترا ، فقد كانت تصلنا مجموعات من مقطعات من الصحف (كومتها بعناية ليدى آن بلنت) مع كل برید ، حتى يمكننا أن نتابع بدكاء مناقشة القضية لدى أقوى محكمة للرأى العام فى انجلترا ، وكنا قد زدنا فى حينه بقدر كاف من الكتب القانونية الفرنسية والانجليزية التى تتناول موضوع المحاكمة القادمة وكانت تصلنا كل جريدة برلمانية عند ظهورها ، وكنت بحق شديد الانشغال بما ورد لى من اقتراحات من كافة الأرجاء بالنسبة للطريق الذى ينبغي على أن أسلكه ، وكان بعضها لها طابع غير عادى .

ويبدو أن السيدات الأمريكيات كن فى تنافس فيما بينهن فى الحصول على توقيع من عرابى بخط يده autograph ويتمنون له « نجاة آمنة من أعدائه » ، لأن أشده تعاطف عليه خارج مصر ، جاء فى

يدعى « سلامة بك » ، كان دارسا ممتازا للانجليزية وكان رئيسا للبريد والبرق أثناء الفترات العصيبة ، وبالرغم من ميوله الوطنية دبر للهروب بأسلوب بسيط هو اعتزاله العمل واعتزاله المجتمع .

لقد رأينا مرات عديدة مستر برنارد Mr. Bernard المراسل الخاص لجريدة نيويورك هيرالد New York Herald الذي كان يدعى أنه يحتكر ما كان يدعو تليفونات « ممتعة Picturesque » ، لقد أراني واحدة منها كانت تعلن عن قدمي ، وكانت في الحقيقة ممتعة جدا ، اذ كانت على النحو التالي :

« لقد وصل مستر ب . محامى عرابى ، وهو طويل القامة وسمين يتحدث كثيرا عن براءة موكله ، ويرتدى قمصانا حريرية ملونة مزدانة بأشرطة وشراريب ، بدلا من أن يرتدى قمصانا بيضاء وأربطة عنق » الخ . واستطرد يقول « ان الشرطة كان ينظر اليها على أنها رمز للمصير عرابى المحتوم ، واستمر التلغراف بنفس هذا الأسلوب من الكلام على مدى عدة سطور ، وكان كل هذا الوصف نظير ٤ شلنات عن كل كلمة . ولما كان « مستر برنارد » جمهوريا أميناً لذا ، كان شديد الميل لـ « عرابى » ، وفكر أخيرا فى خطة « لشرائه » عن طريق اتفاق ودى مع السادة جوردون بنيت Messrs. Gordon Bennett وبارنوم Barnum ، وقال برنارد : « ليس أيسر من أن ينقله يخت « بنيت » فى هدوء . وعلى مدى الاثنى عشر شهرا الأولى سيكتب عرابى ثلاثة أرباع عمود كل أسبوع لجريدة « هيرالد » عن السياسات المصرية ، ثم يستقبله « بارنوم » على رصيف الولايات المتحدة . اننا سندفع ٢٥٠.٠٠٠ جنيه استرليني وسنعطى عرابى ١٠٠.٠٠٠ جنيه استرليني سنويا . وأنا ، من جانبى ، نظرت الى الاقتراح على أنه نكتة ، ولكن بعد ذلك ، لما كان هناك تفكير فى النفى ، اذ بـ « مستر برنارد » يطرح هذا الاقتراح فى جدية رزينة على كل من « لورد دافرين » وسكرتيره . ومن الغريب أن أذكر أن « برنارد » لم يكن وحده الوحيد الذى نادى بهذه الفكرة ، فلقد سمعت من « سير ادوارد ماليت » أن الكونت زيزينيا Count Zizinia (اذا لم أكن مخطئ فى الاسم) عرض مبلغا مماثلا تقريبا نظير « امتياز خاص بعرض عرابى فى كافة عواصم مدن أوروبا على مدى سنة » .

ولم يكن المراسلون الفرنسيون جميعهم بغرباء عن مكتبنا ، بل ان « مسيو جبرائيل شارم M. Gabriel Charmes » من جريدة المجاذلات Journal des Débats الذى تبارزت معه جديسا عن المشكلة

التونسية ، كان من زوارنا ، وسيتردد الحديث عنه كثيرا في هذا الكتاب،
وكان هناك أيضا الفنان الفرنسي الخاص لجريدة « المصور Illustration »
الذي أراد أن ينتقم منى لعلمه بكراهيته المشهود عنها لضم « تونس »
لـ « فرنسا » ، فصورني في جريدته كعجوز خرف في الثمانين يحمل ريشة
قلم ضخم ، كالأسلوب الذي كان متبعاً في الأزمنة القديمة ، ويرتدي شعرا
مستعاراً ضخماً كالذي كان يرتدي زمن لويس الرابع عشر Louis XIV

الأوربيين وأعمالهم التي يفصد منها ايقاع الفتن والمشاغبات ويكون واقفا لهم بإمرصاد ويحافظ على بلاده وملته من أن يمسهما سوء ، فمن يفعل ذلك يرض جلالته متبوعنا الأعظم ويكون مقبولا لدى جلالته .

واني أرجوكم أن لا تؤاخذوني في عدم كتابة تفصيلات أخرى بغطاى هذا حيث أن أحمد راتب باشا حضر منذ ثلاثة أيام فقط ومع ذلك ففي تلك المدة القصيرة نظرا للأقوال التي صرح بها من حسن مقاصدكم الشريفة وعبوديتكم لجلالته - أظهر عظيم ثقته فيكم ، هذا ولقد وصلني بالأمس فقط الخطاب الذي أرسلته لي واتعشم بإمكان إرسال جوابه لكم في بريد الأسبوع الآتي متضمنا تفصيلات أكثر . وعلى كل حال فاحذروا من وقوع أى خطاب من الخطابات التي ترسلونها في أيدي الغير واجتهدوا في الحصول على مراسل مخصوص بيننا تتفقون فيه ، أما في هذه المرة فالأوفق هو تسليم هذا الخطاب ليد حامله .

خادمكم

في ٤ ربيع الآخر ١٢٩٩هـ

الشيخ محمد ظافر

و ٢٢ فبراير ١٨٨٢ م

وهذا خطاب آخر بنفس التاريخ من « أحمد راتب باشا » ياور وسكرتير السلطان وفيه يقول :

الى ناظر الجهادية المصرية احمد بك عرابى .

قد بلغت جلالته السلطان الأعظم المعاداة التي حصلت بيننا بالسكة الحديدية ما بين معطى الزقازيق والمعصرة عند عودتي الى الاستانة وقد أحدثت تلك المعاداة سورا عظيما عند جلالته وأمرنى أن أبلغكم تشكراته الملوكانية .

واني بلغت جلالته المعاملة الحسنة التي عوملت بها على يديكم والاكرام الذى رادته عناية مدة وجودى بالمعروسة وجلالته أظهر عظيم معظوميته حتى أن الرضا الذى حصل عنده القبح جلالته بحسن ولائكم وعبوديتكم اجعافا مضاعفة . هذا وقد سعى الناس فى جعل جلالته يفتكر انكم كنتم تسبون على خطة مخالفة للطريق القويم (ولا أدري كيف ذلك) ونجحوا فى تغيير فكرة جلالته نعوكم . وأما الآن بعد أن اوضحت لجلالته حقيقة المسألة - القسم لكم أن جلالته مناسف جدا لكونه سمع للأقوال الكاذبة والمختلفة التي بلغته عنكم والذي يثبت لكم ذلك هو أن جلالته أمرنى أن أحرر هذا لكم وأوضح لكم فيه الخواطر الآتية : لا أهمية فى من يكون بخديوى مصر - ويجب أن تكون أفكار والى مصر ومقاصده وسيرته بخالصة من الشوائب بحيث أن جميع حركاته تكون متجهة لصيانة مستقبل مصر وتوطيد عرى العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة وفي الوقت نفسه يجب أن يظهر الفيرة التامة والاخلاص فى تأييد حقوق البلاد ويلزم أن يتصف بهذه الصفات كل من يتربح من الولاة على الأريكة الخديوية .

« اسماعيل باشا » وأسلافه أولئك الذين رشوا « غالى باشا » و « وفؤاد باشا » ونايبيهم الحائنين فى الباب العالى - وبعد أن اغضبوا عيون أولئك الموظفين المذكورين اجترأوا على ظلم المصريين وضرب الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالصفط والقسوة - وزيادة على ذلك فإنهم تدابروا ديونا ثقيلة وجعلوا المصريين يثنون تحت نير العبودية . واليوم حالتهم فى نظر الدنيا تستدعى رافتنا الخصوصية لهم . فأمرز بأكمله فى غاية

يستحق رتبة الباشوية ، لذلك فأننا رقينا عرابى باشا الى هذه الرتبة ،
وقد منحناكم اياها ، لأنكم جديرون بها ، وقد صدر الفرمان الخاص بهذا
الموضوع من ديواننا الامبراطورى .

انتم اذن ، لأنكم أهل لهذا الفضل والشرف ، ولأنكم تقلدتم رتبة
« ميرلوا » ، يجب عليكم دائما أن تظهروا أعظم كفاءة ونشاط فى تنفيذكم
لكل أوامرنا ، وتظهروا كل ثبات وحذر وولاء ، كما يجب عليكم دائما
أن تحذروا أن تعملوا بأى اسلوب فيه اضرار بنفوذ الخليفة أو منافيسا
للقانون والعدالة .

(خاتم السلطان)

فرمان البراءة :

نظرا لما تتحلى به الشخصية الشريفة الطاهرة لعرابى باشا من
أمانة وكفاءة ومهارة وذكاء تام ، فأننا نحن العظيم بين العظماء وأمير
الأمراء الكرام ، نشعر أنه شئ لزام علينا أن نضاعف أفضالنا على ناظر
الجهادية على جيشنا المصرى الامبراطورى ، ولهذا فانه طبقا لهذا الفرمان
الامبراطورى الذى أصدرناه ، قد أنعمنا بعطفا بالنيشان المجيدى من
الطبقة الأولى على المذكور عرابى باشا ، وهذه البراءة المؤكدة لها قد صدرت
بناء على ذلك .

(خاتم السلطان)

هاتان الوثيقتان ، بالإضافة الى غيرهما من ذات الطابع ، تضمنت
من بين ما تضمنت ، خطابات وتلغرافات من « الباب العالى » و « قصر
يلدر » الى راغب باشا ومحمود سامى ، والتي كنا نأمل فى النهاية أن
نحصل عليها ، قد برهنت على أى ثقة السلطان فى عمل عرابى وعلى
استمرار الثقة فيه حتى نفس ليلة هزيمته . واننى لا أستطيع أن أؤكد ،
إذا كان هذا الدفاع يقلل ، فى أية صورة من الصور ، من حق « عرابى »
فى أن يحتل مكانه بين الوطنيين الحقيقيين . لقد كان يعترف دائما
بالسيادة والسلطان الدينى للباب العالى ، باعتبار أن هذا الأمر يواكب
الحركة التى كان يتزعمها . واستنادا الى هذا كتب « مستر بلنت »
عندما نشر ، عن ثقة ، منذ ستة أشهر قبل الحرب ، برنامج الوطنيين
المصريين :

هم يعترفون بالسلطان عبد الحميد خان سيدا لهم وملكهم وخليفته الفعلى أو رئيس الديانة الاسلامية ، كما انهم لا يقترضون ، طالما ان الامبراطورية قائمة ، ان يسدوا هذه العلاقة ، وهم يعترفون بحق الباب العالي فى الجزية التى حددها القانون ، وفى المعونة العسكرية فى حالة حرب اجنبية ، وهم فى الوقت نفسه ، مضممون تصميميا جازما على الدفاع عن حقوقهم وامتيازاتهم الوطنية وعلى ان يعارضوا بكل وسيلة فى ايديهم ، محاولات من يحاولون ان يبقوا عليها مرة أخرى مجرد ولاية باشوية تركية Turkish Pachlik انهم يشقون فى حماية القوتين الأوربيتين وبخاصة فى انجلترا ، فى استمرار ضمانهما لاستقلال مصر استقلالاً ادارياً . »

• عن هذا الاعتراف العقائدى لم يحد عرابى عنه قط .

أما الأوراق الباقية التى أعطاها لنا عرابى ، فقد أوضحت بصورة قاطعة تماماً (ولنستعر كلماته هو نفسه) .

« ان مصر كلها معه » . وقد أكدت الملتزمات والخطابات التى كانت تحل مئات (وأحيانا آلاف) التوقيعات والاختام من كبار الشخصيات من كل جزء فى البلاد ما بين أسيوط ومصب النيل أكدت موافقة الشعب على « نظارة الأمة » والايمان التام بالقائم بعرابى ، وتكثف السخط على المذكرة المشتركة (١) وعلى من « وافق عليها » ، ورغبة الحماس التى سرت بين المصريين فى أن يسيروا وراء الراية التى رفعها « عرابى » ، كما أن التماسات وخطابات أخرى قد صيغت بنفس الأسلوب ، تدفقت على مندوبى الامبراطور لتوضع تحت أقدام أمير المؤمنين . وقد احتفظ عرابى بنسخ أصلية من كثير من هذه . وقد وضع علماء الأزهر « توفيق » فى الميزان ، واكتشفوا أنه أقل قدرا ، وهم لذلك شاركوا أيضا فى الصيحة العامة التى كانت تردد : من طرف فى مصر الى طرف آخر ، تردد : « الله ينصرك يا عرابى » .

والرسالة التالية وردت من رئيس أعيان الشرقية (٢) :

ان النظارة التى تشكلت بموافقة مجلس النواب برئاسة محمود سامى باشا منذ اليوم الذى تسلمت فيه مقاليد الحكم ، سعت الى تحسين

(١) كانت معروفة بين الناس وقتها باسم « اللائحة » أو « اللائحة » على حد نطقهم لها ، وكانوا ينادون فى الشوارع قائلين « اللائحة اللائحة ، مرفوضة مرفوضة » ، معبرين عن تضامنهم مع الحكومة الوطنية التى كان عرابى فيها ناظرا للجهادية والبحرية . (المحقق)
(٢) لم أجد النص العربى لهذه الوثيقة ضمن وثائق كتاب برودى المخطوطة بدار الوثائق بالقلعة ، ولما كانت مثبته فى الأصل الانجليزى ترجمتها عنه بصورة تقر بها من الأصل العربى . (المحقق)

ظروف البلاد وناضلت لترسيخ مبادئ العدالة لتدعيم قواعد النظام
ولمحو أخطاء الأزمنة التي سبقت تشكيلها .

لقد تبنت أحسن الاجراءات فعالية لاستئصال الطغيان الذي حطم
البلاد وشوه جمالها . لقد بدأت مع كل ما أمكنها من مهارة وذكاء ،
فى انصاف من كانوا يسعون اليه ، ولذلك ، فنحن كبار رجال مديرية
الشرقية ، لما كانت لدينا أهم رغبة فى نفس هذه الأمور . فاننا نطالب
بالحفاظ على هذه النظارة حتى يمكنها أن تكمل اجراءاتها الطيبة التى هى
بمشيئة الله فى صالحنا ورثائنا . نحن نعاهد أنفسنا على أن نؤيد هذه
النظارة كما لو كنا ندافع عن شرفنا وممتلكاتنا وكل ما نعتز به . .

أما كبار رجال الاسكندرية فقد قالوا الآتى (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وصلى الله على رسول الله ، وبعد

نحن نؤمن يقينا بأن وجود الأسطول على مقربة من مدينتنا لا يمكن أن يكون لغرض
آخر غير تنفيذ المذكرة التى تقدم بها القنصلان العالمان لانجلترا وفرنسا الى الحكومة المصرية .

وفى المطالب التى طرحت فى هذه المذكرة وضعت محاولة لمهاجمة حقوق الشعب وحقوق
بلده وإلغاء فرمانات الباب العالى والتدخل بصراحة ووضوح فى شئون الادارة الداخلية
البلدية « انها تطالب أيضا بنفى المصريين وإعفاء من هم بظارنا ، وهذا لا يمكن أن يعنى
شيئا آخر سوى تملك بلدنا . لقد سمعنا أن سمو الحديو قد قبل المذكرة المعنية دون أن
يشتغل كلمة فيها . لقد فعل هذا بالرغم من أن تبعية مصر للباب العالى الذى منح حاكمها
التوجيه الكامل فى كافة أمورها الداخلية ، وأن الاستسلام للمذكرة فيه قضاء على الفسود
على امتيازاتنا وعلى امتيازات الباب العالى ، نحن أبناء الاسكندرية ، نرفض مذكرة القوتين
الظالمين وأن من يقبلها عليه أن يفصل كلية والى الأبد قضيته عن قضيتنا .

لنا نرفض أن نفصل أنفسنا عن الباب العالى وأن نربط أنفسنا بأية قوة أجنبية
حتى لو كان علينا أن نموت من أجل ذلك ، لأنه من الأفضل أن نموت من أجل حياة بلدنا
عن أن نعيش بينما بلدنا يموت . »

ويبدو أن خطابات من هذا النوع تدفقت من كافة أرجاء البلاد ،
من رشيد ، من الدقهلية ، من المنصورة ، من الغربية والفيوم ، وهى وإن
اختلفت صيغتها إلا أن موضوعها واحد - تأييد عرابى فى معارضته للمذكرة
المشتركة وفى احتجاجه على وصول الأسطول البريطانى ، وفى التماس

(١) لم أعثر على النص العربى لهذه الوثيقة ضمن وثائق كتاب برودى المحفوظة
بدار الوثائق بالقلمة ، ولما كانت مثبتة فى الأصل الانجليزى ترجمتها عنه بصورة تقريبها
من الأصل العربى . (المحقق) .

التدخل المفضل للسلطان . وقد انتهج شيوخ البدو منهج اخوانهم فى المدن ، وربما كانت التماساتهم أغرب الالتماسات جميعا ، ففى عشرين منها . مصير تونس يشهد اليه كائذار وكنموذج ؛ ولو أن هذه الوثائق نشرت للملأ مجلدا كاملا .

وبالنسبة لغرضى الراهن ، سأكتفى بذكر نموذج آخر من بين الوثائق ، هو حكم كبار علماء الأزهر الشريف (أقدم جامعة اسلامية فى الشرق على الحديو توفيق .

وفيما يلى استفتاء (١) :

أيها الأعيان وكبار العلماء ، يا من تقدمون المشورة الحكيمة للمسلمين ، يا من تحافظون على الشريعة الاسلامية نقية طاهرة ، وتراقبون تنفيذ سننها ، أنصتوا وأجيبوا على الأسئلة التى طرحها الشعب المصرى فى السطور التالية . قدموا المشورة السليمة ، هداكم الله للحق وسدد الله خطاكم وألهمكم الطريق المستقيم !

ما القول فى حاكم مولى من طرف سلطان المسلمين على أن يعدل فى الناس ويقضى بأحكام الله فنقضى العهد وأحدث الفتن بين المسلمين وشق عصاهم ثم انتهى به الأمر الى أن إختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين وطلب من الأمم الخارجة عن الدين القويم أن ينفذوا قوتهم فى بلاد الحكومة الاسلامية وحمل رعاياه على أن يدينوا ويخضعوا لتلك القوة الأجنبية وبذل عنايته فى المدافعة عنها ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن ذلك أبى وامتنع وأصر على الخروج عن طاعة السلطان والمروق من الشريعة . فهل يجوز شرعا أن يبقى هذا الحاكم حاكما حتى يمكن قوة الأجانب من السلطة فى البلاد الاسلامية أو يتعين فبهذه الحالة عزله واقامة بدل له يحافظ على الشرع ويدافع عنه ؟

الفتوى :

حمدا لله وصلاة وسلاما على مولانا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه المحبين له وبعد :

فى هذه الحالة يجب أن يعزل ويجب أن يعين أحد مكانه يحافظ

(١) لم أعثر ، بالمثل ، على النص العربى لهذا الاستفتاء ضمن وثائق برودلى المحفوظة بدار الوثائق بالقلمة ، ولما كان ماثبتا فى الأصل الانجليزى ترجمته عنه بصورة تقرره من الأصل العربى . (المحقق)

على الشرع ويدافع عنه ويحترم حقوق أمير المؤمنين مولانا الخليفة ، خليفة
الرسول سيد الخلق أجمعين .

لقد قال الله تبارك وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّ مِنْهُمْ » (١) ،
وقال تعالى جل وعلا « إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفُسَادٌ كَبِيرٌ » (٢)
وقوله جل وعلا : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » (٣)
وقوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٤) .
وقوله تعالى « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٥) ،
ومرة أخرى قوله تعالى : « بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا » (٦) .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ
تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ » (٧) ، وقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ فُقْدَ ضَلَّ
سَوَاءَ السَّبِيلِ » (٨) ، وقوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَحْدَهُ » (٩) ، وقال جل وعلا : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » (١٠) .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه أن من يعظم
شعائر الله في الأرض سيكرمه الله يوم البعث ومن يهين الله فما له من
مكرم يوم القيامة .

والحمد لله القوى العليم وصلى اللهم وبارك على سيدنا رسول
الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

-
- (١) المائدة : ٥١ (المحقق) .
 - (٢) الأنفال : ٧٣ (المحقق) .
 - (٣) المائدة : ٤٤ (المحقق) .
 - (٤) المائدة : ٤٧ (المحقق) .
 - (٥) المائدة : ٤٥ (المحقق) .
 - (٦) النساء : ١٣٨ و ١٣٩ (المحقق) .
 - (٧) المتحنة : (المحقق) .
 - (٨) المتحنة : (المحقق) .
 - (٩) المتحنة : ٤ (المحقق) .
 - (١٠) المتحنة : ٦ (المحقق) .

وأعقبت الفتوى توقعات ثمانية من كبار علماء الأزهر الشريف كان على قمتهم « الشيخ محمد عlish » الذى توفى فى أوائل محنته ، والذى صار خليفته الشرعى « حسن العدوى » وكان أكثر المسجونين شهرة ممن قابلتهم بسجن الدائرة السنية .

لقد كانت أوراق عرابى ، على ما أعتقد ، أكثر من كافية لدفع أى اتهام بالعصيان بالمعنى الدارج للكلمة ، انها توضح الى أى مدى لو أنه عصى بالمرّة فانما كان عصيانه على إعتبار أنه زعيم لحمسة ملايين (١) من الأهالى وأنه كان على رأس الشعب المصرى بأسره .

(١) تعداد سكان جمهورية مصر العربية الآن فى هذا العقد الأخير يقترب من الخمسين مليون نسمة . (المحقق) .

الفصل الخامس عشر

قواعد المرافعات ومعركتها

لقد استهل شهر نوفمبر بأقوى دلالات ، من جانب مسيو بوريللي وقومسيون التحقيق ، على أن كليهما كانا يتوقان الى الهروب ما أمكنهما من قواعد المرافعات التي كانا قد اتفقا عليها نيابة عن الحكومة ، والتي قبلتها أنا نيابة عن موكلتي . لقد رأينا فيها ، على العكس من ذلك ، ملاذنا ، وقررنا الالتزام بها التزاما تاما ، نتيجة لذلك . وعند توجهنا الى السجن كالمعتاد (٢ نوفمبر) أدعشنا أن نجد القومسيون في اجتماع وقور ، بالرغم من أنه تبعنا لاتفاقنا ، كان من المفروض الآن أن نكون حضورا ، حتى على أقصى حد ، حضور استجواب الشهود . لقد شاهدنا «محمود فهمي» ناظر الأشغال العمومية وكبير المهندسين في نظارة عرابي شاهدناه يدخل الغرفة وسط صفين من الجنود عندما وصلنا لتونا . بعثت بمذكرة الى «مسيو بوريللي» أسأله فيها ما يعنى كل هذا . رجانا أن نكون صابرين وأكد لنا بشدة انه لا يرى لهجة خيانة في العبارة التي تفوه بها «محمد فهمي» في حق الخديو من أن عليه أن يرحل بحقيبتة ، وأنها ليست ببالغة الأهمية لحشيات القضية .

ولما كنت مصمما على تقديم احتجاج رسمي للقومسيون ، بعث القومسيون بـ «مسيو بوريللي» رسولا لي لوضع الأمور في نصابها ما أمكن ، وانتهى الموضوع باتفاق مكتوب اتفقنا بموجبه على أن القومسيون يجب أن يعد ، خلال أربعة أيام ، اعتبارا من ٣ نوفمبر ، لأن يستمع في جلسة مغلقة in camera الى الشهود الذين سبق استدعاؤهم ، «ولا أحد غيرهم» ، بعد هذا يجب على القومسيون أن يعلن الممثلين القانونيين للمتهمين ، اذا كانت هناك أسس كافية لاستمرار التحقيق . (بند) من ذات اليوم وبعد ذلك التاريخ ، لو اتضح بفض سنجل القضية أن الأمر يستلزم استئناف

التحقيق ، « يمكن أن يستأنف فقط » في حضور المتهمين ومحاميهم ،
وتمشيا مع الاتفاق الموقع بيننا يوم ٢١ أكتوبر « (١) » .

وفى الوقت الذى كانت تسير فيه المفاوضات قدما ، تأجل انعقاد
القومسيون ، وأخذ « مسيو بوريللى » يتحرك جيئة وذهابا للمشاورة
مع الرئيس . وفى النهاية وقع الاتفاق بين كلينا فى مكتب مجاور متصل
بغرفة المحكمة بباب مفتوح . وعندما انتهى الاتفاق ، قدم لى « اسماعيل
أيوب » نهائيه فى حضور زملائه ، وستظهر أهمية ما حدث عن قريب .
وبعد ذلك بعشرة أيام ، وصلت تعليمات للقومسيون من « رياض باشا »
تنكر أنهم كانوا على علم سواء بهذا الترتيب أو بالاتفاق الأول الذى كان
فيه « بوريللى بك » طرفا نيابة عن الحكومة الخديوية .

وبينما كنا ننتظر فى الردهة ، وجدت فجأة من يخاطبني بلغة
انجليزية سليمة . كان محدثي مصريا قصيرا القامة ممتلئ الجسم ،
برونزي البشرة جدا ، يرتدى بدلة بحرية قديمة ممزقة ، وكان يحرسه
باعتناء جندى على كل جانب من جانبيه ، ولكي يبعد عني الشك فى أمره ،
حرك شفثيه بصعوبة . ومع توقفات كثيرة ذكر لى القصة التالية :
اسمى « على راغب » ، كنت ملازما ثانييا فى خدمة ادارة البواخر
الخديوية . وفى مناسبات عديدة ، طلب منى أن أقوم بتوصيل خطابات
الى « عرابى » من « قصر يلدز » . مرة أو مرتين حملت ردوده ، وبعد
ضرب الاسكندرية قبض على عند وصولي الاسكندرية . كانت معي بعض
خطابات بالشفرة ليست مرسلة الى عرابى ولكنها تخص أشخاصا
آخرين ، وكنت لا أعرف شيئا عن محتوياتها ، فأصدرت محكمة
الاسكندرية العسكرية يحكمها على بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات
أقضيها فى السودان ، وهذا معناه الموت لى ولذلك فأننى أرجوك أن
تستدعيني كشاهد لصالح عرابى . اننى سأشهد لصالحه لقد كان
الزعيم المختار لنا جميعنا نحن المصريين وان كان قد تخلى عنه الجميع الآن
هل يمكنك أن ترفع ضد الحكم الذى صدر على ؟ » .

بعد ذلك طلبت استدعاء « على راغب » كشاهد فأصدر اليه
القومسيون أمرا على الفور بأن يتوجه الى السودان ، ولكن « سير تشارلز
ويلسون » أوقف تنفيذ تفسيره هذا ، وحاولت أنا بلا جدوى لأحرك
السلطات لصالحه ، ولكن كان هذا أمرا ميثوسا منه ، ولقد كان الحكم
عليه لمدة خمسة عشر عاما وليس لعشر سنوات كما توهم ، ولكن ماذا
حدث له منذ ذلك الوقت ؟

(١) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب . (المحقق)

لقد قضيت الأيام التي أعقبت ذلك في قراءة مختلف البيانات التي قدمها لى المسجونون ، وفي فحص تلك الشهادات التي دبرنا الحصول عليها من القومسيون . لقد بدت أدوات الدفاع المتين جاهزة في متناول أيدينا ، وصار من الصعوبة بمكان على الحكومة المصرية أن تخفى الوضع الصادق للقضية ، ما لم (كما علق عرابي نفسه في براعة تامة) تستطع اختراع « سلسلة يمكن أن تربط فيها خمسة ملايين من الناس » (١) . وأثناء بحث مجهود عن نسخة كاملة من جريدة المرشد المصري Le Moniteur Egyptien (وتكاد تكون سجلا خطيرا يمتثل للتقارير الرسمية البريطانية Blue Books) تعرفت بـ « مسيو ليون جابلان M. Léon Jablin » الذي كان يوما ما رئيس تحريرها . اننى لم آخذ منه فحسب ما أريده ، بل أمدنى أيضا ، دون أن أسأله ، بالكثير من المعلومات الجديدة ذات القيمة بالنسبة لموكلتي وقضيتهم . كان « مسيو جابلان » قد نشر في الربيع كتيباً ممتازاً من تأليفه شرح فيه آراء وأهداف الوطنيين وكان عنوان كتيبه « مصر الحديثة L'Egypte Nouvelle » وكان جديراً بالقراءة حقاً . عندما رأيته ، كان يبيع كل ما يملكه استعداداً لعودته الى وطنه ، وقال لى : « ان رياض باشا وأنا لا يمكن أن نعيش الآن في بلد واحد » .

وكان من حسن طالعى أيضاً أن التقيت بـ « مستر ماك كولوج Mr. McCulogh » وكان دارساً ممتازاً للغة العربية ، وواحداً من أذكى الموظفين في مكتب البريد المصري . لقد كان على وشك « الموت » عند جرد خيمة عرابي ، وكان عميق التأثير مما رآه من آلاف التلغرافات التي وجدت فيها والتي كانت أبلغ دليل على ذبوع قضيته . ولم يكن « ماك كولوج » يؤمن بـ « عرابي » على الإطلاق حتى تلك اللحظة ، أما الآن فلم يعد يعتقد فيه فحسب بل صار متحمساً أيضاً للدفاع عنه . وباستثناء الخديو وأمه ، قل أن تجد رجلاً أو امرأة من الأسرة الحاكمة لم يبعث له يعرض عليه مالا أو معدات للمعسكرات أو يبعث بتلغرافات أو خطابات مديح لرعيم الشعب . لقد اطلع « ماك كولاج » على هذه التلغرافات والخطابات ، بل انه نسخ بعضها منها ، وفيما يلي نموذج منها :

(١) إشارة الى تعداد سكان مصر في ذلك الوقت . (المحقق)

من البرنس ابراهيم بالقاهرة الى عرابى باشا ، بكفر الدوار (١)

الى سعادة حامى حى الديار المصرية احمد باشا عرابى ، اننى اقدم لسعادتكم اخلص واحر التحيات وتحياتى العامة ، راجيا ان تيعثوا بمثلها الى رؤساء الجيش والى كل الضباط والعساكر النابهن المهرة . اننى اقدم لكم تشكراتى الحارة والدائمة على خوفكم على بلدنا العزيزة التى هى اغل ما فى الوجود عند المصريين جميعا . اننى مفتعل أن رجال بلدنا قدموا انفسهم بهدف الدفاع عنها ضد العدو . اننى اعزو هذا الى محاولتكم الطيبة ، التى عزوها النصر . اننى ادعو الله ان يديم عليكم سعادتكم ويتوجه بالنصر والسلامة وان يصلنى عنكم دائما تقرير عن صحتكم وسلامتكم وعن استمرار النصر حليفكم ، والهزيمة المنكرة للعدو الشرير . اللهم امتحننا النصر بشغاعة الرسول عليه السلام ، ان الله هو المل القدير .

هذا الكتاب

« ابراهيم »

ملك الأستاذ الدكتور

رفى زكى بطرس

ومن خلال الاتصالات المفيدة التى كان يقوم بها « مستر روبرت أوليفانت Mr. Robert Oliphant » أحد كتبتنا ، التقينا بصورة مستمرة ب « مستر جاروود Mr. Garwood » الذى كان حتى عهد قريب مدير حركة مرور السكة الحديد فى القاهرة والاسكندرية ، وقد حصلنا منه على كثير من التفاصيل بالنسبة لفردية الأسلوب الماهر الذى كان ينتهجه عرابى والذى أدى الى استتباب الأمن والسلام فى القاهرة حتى يوم هزيمته . وحتى أثناء الحرب كانت حسابات شركة السكة الحديد حتى ذلك اليوم مدونة بدقة فائقة ، ولم يوضع قرش واحد من الايرادات فى غير محله ، بل الى نفس هذه الدفاتر يمكن أن توضح فى النهاية أن « مصر كلها كانت مع عرابى » بالفعل كما كانت معه بالقول ، ولقد ضرب لنا « جاروود » أمثلة عديدة تدعم توكيداته ، فقص علينا قصة غريبة عن مغامرة جددت له قبل بداية العداوات ، اذ قال :

« فى الليلة السابقة لتوجه عرابى الى الاسكندرية ، كنت أجلس مع « مستر أوليفانت » فى شرقه فندق شبرد عندما اقترب منا شخص تركى كان يتحدث الفرنسية وكان معروفا لنا على أنه من الشخصيات الطفيلية المترددة على مكاتب الحكومة ، طلبنا له مشروبا وانضم الرجل الى جماعتنا . وبعد بضع ملاحظات عن الموضوع الذى كان يحتل اهتمام الناس وقتذاك ، قال لى شيئا فجأة : « ألا ترغب فى الحصول على مكافأة

(١) لم اعثر على النص العربى لهذه الوثيقة ، ضمن وثائق كتاب برودى المحفوظة بدار الوثائق بالقلمة ، ولما كانت مثبتة فى الاصل الانجليزى ، ترجمتها عنه بصورة تقريبها من النص العربى . (المحقق)

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رفى زكى بطرس

في غير ما رحمة ، ووضعت مكانها ألواح من الخشب . اننى أذكر جيدا كيف أخذنى « على فهمى » المسكين الى نافذة ززانته التى كانت تطل على المربع الأوسط للمبنى ، وهو يقول لى : « ألا تريد أن تعرف أى لون من الناس يحكموننا ؟ تطلع هناك ! هل تريد أن تعرف كيف تنفق أموال مصر ؟ انظر هناك ! » .

وفى اليوم الذى أعقب بدء هذه الاستعدادات (٥ نوفمبر) قابلت مرة أخرى فى طرقة السجن : « يوسف كامل » محامى « محمود سامى » . لقد طلب منى أن يزور موكله ، ولذلك اصطحبته معى الى الزنزانة التى كان ينزل بها . كان رئيس النظار السابق أقصر قليلا من الطول المعتاد ، كان شاحب الوجه ، ووجهه كاد يكون صورة مهذبة للوجه التركى (رغم أنه كان يدعى أن دمه مزيج من الدم المصرى والتركى وأن أسرته استقر بها المقام فى مصر على مدى ثلاثة أجيال على الأقل) ، ويبدو أنه كان يحس بموقفه الراهن بصورة واقعية تماما . كان اسمه الكامل « محمود سامى البارودى » ، والبارودى معناها صانع البارود ، وهى كنية فقدت معناها الآن . وفى تدقيقى فى الشخصية الواهنة التى أمامى ، كان من الصعب على أن أصدق القصة القائمة التى يثيرها دائما أعداؤه ضده عن انتقامه لخطأ زيچى . كانت زوجته الثانية - وهى أميرة من الأسرة اليكنية تربطها قرابة من بعيد بالأسرة الخديوية - قد أظهرت أعرق الحب لزوجها أثناء محنته . « ومحمود سامى » فى وضعه الراهن ، أملت عليه الحكمة أن يتبادل التحيات الرسمية مع كلا الطرفين . ولم تمضى عدة أسابيع حتى شاءت لى الظروف أن أعرف المزيد عن « محمود سامى » .

أنا الآن كثيرا ما أشاهد « اسماعيل أيوب » ، الذى استخدم الكثير من المراهنات ليغيرينى بأن أغير اجراءات المرافعة ، والذى فشل تماما فى فهم معنى الاستجواب . وطبقا لاعتقاده الأمين ، أن شخصا فى وضع اجتماعى وضيع أو شخصا « وطنيا » معينا قد يعامل معاملة مهينة سافرة ، فى حين أنها تعتبر خيانة عظمى لو لم يعامل « الباشا » أو ال « بك » فى أى وضع من الأوضاع ، على أنه « مخلص » ويخاطب بلغة تدل على غاية الاحترام . لقد بدأ يتضح له أيضا ببطء ، أنه تبعا لقواعدنا الخاصة بالمرافعة ، أنه قد خول لنا الآن الحق فى استجواب كثير من الناس عن المناصب الرفيعة ، بما فى ذلك الخديو نفسه الذى قدم هو ، مع رياض وشريف ، تشهيرات مكتوبة ، من طرف واحد ex-parte ، ضد العصاة ، وكان من الواضح أن « اسماعيل أيوب »

لم يكن مستريحا . لو كان عرابى سيحاكم محاكمة عادلة ، فهو فى الواقع لا يمكنه أن يفهم ، لماذا قدم الانجليز الى مصر بالمره .

ولما كان القومسيون قد أصر على ألا يعلن عن انعقاده ، فلقد كان لزاما علينا أن نبدأ فى الاتصال ، لأننا لو لم نفعل شيئا ، لكنا واثقين من أننا سنتهم بالتأخير . طلبنا أن يسمح لنا بأن نرى شهودا آخرين من بين المسجونين الذين اقترحنا استدعاءهم كشهود ، ولكن ما طلبناه قوبل بالرفض على الفور . طلبنا متواضعين أن نعرف بموجب أى قانون سيحاكم موكلونا ، فكان الجواب ينحصر فى كلمتين «القانون العسكرى» . قدمنا طلبنا باستدعاء الشهود ولكننا لم نحصل على رد بأية صورة من الصور .

وفى يوم ٧ نوفمبر دعينا لاجتماع القومسيون ، وكان من الملاحظ أنه حتى القهوة والسجائر التى كانت تشكل كالمعتاد «فاتحة» للمناقشة ، عجزت عن أن تضيف أى جو ودى على سير المناقشات ، وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا نمر بعملية استجواب تهدف الى تحطيم قواعد المرافعة التى وضعناها . كم سيطول استجوابنا للشهود ؟ ومن هو فعلا الذى سيطرح الأسئلة ؟ وتفسير من سيكون ملزما ؟ هل سيسمح للمسجونين بالكلام ؟ هل يمكننا أن نعرض على أن نقدم للقومسيون « أوراق عرابى » فورا ؟ أليس المسجونون فى انجلترا يدانون بعد استجواب بسيط ؟ لنفرض أننا أربكنا الشهود فى الاستجابات ، ثم دفعهم « بوريللى » لأن يناقضوا أنفسهم عند اعادة استجوابهم ، فاية شهادة سيصدقها القومسيون ؟ وفى اليوم التالى ، قدمنا الى « اسماعيل باشا أيوب » ردا كتابيا حكيما صيغ فى أقصى لغة ودية ، مع التزام تام بالاتفاق الذى دخلنا فيه مع « بوريللى بك » الذى مثل فيه الحكومة المصرية .

وصل اليوم مترجمنا « مستر سانتيلانا Mr. Santillana » الذى بقدرته العظيمة مقرونة بتمكنه الشام من اللغة العربية ، اكتسب ثقة المسجونين ، بل انه أثار إعجاب القومسيون ، وصار على الفور متحمسا لمشاركتنا فى أعمالنا الدهوبة المتزايدة .

لقد حدثت الآن حادثة غير مستساغة : كان مدير الشرقية من الأقرباء المقربين لرياض باشا ، وكان قد أقصى مرة من منصبه ، فراوده الشك فى أن اثنين من كبار أهالى المديرية لهما يد ، الى حد ما ، فى تدبير اقضائه ، ولكن مالبث أن تنكسر القدر لهذين الاثنين عندما عاد « فريد باشا » مديرا للزقازيق مرة أخرى ، فساء وضع الاثنين ، ولم يكن خصما « فريد باشا » سوى « أمين بك شمس » « وأحمد بك أباطة »



(شكل ٨) - صورة توضح آثار التدمير في ميدان محمد علي بالاسكندرية

(وكلاهما من أنصار عرابي الأقوياء) ، وأودع كلاهما السجن في القاهرة ، اذ هل يمكن أن تفلت هذه الفرصة النادرة لانتقام بسيط موات ؟ ، ثم رحل كل من « شمس » و « أباطة » الى الزقازيق وصارا تحت حنان رحمت غدوهما السابق . أما عن أنهما ألقيا في السجن مكبلين في زنزانة مظلمة بلا فراش ينأمان عليه فهذا أمر لا ينكره أحد ، ولكن ذاعت قصة مؤداها أنهما أجبرا على تنظيف السجن والا عوملا معاملة لا انسانية ومهينة لكرامتهما . وكان من بين الموظفين العديدين الذين يعملون عند « شمس » كاتب سورى يدعى « نيقولا كرمي » ، طالب بأن يتمتع بحقه كأحد رعايا بريطانيا باعتبار أنه حفيد آل كرمي Curmi أحد مواطني مالطة Malta . كان كرمي في داره في بيروت أثناء

الاضطرابات الأخيرة ، فلما عاد الى الزقازيق وجد سيده في السجن وأسرته يخيم عليها الحزن والأسى ، وكانوا جميعهم ينتابهم الدعر بحق .

سمع « كرمى » عن تولينا الدفاع عن « عرابى » ، فصمم على أن يرى اذا كان فى استطاعتنا أن نفعل شيئا لتخفيف الحكم على سيده ، وبناء على رغبة أسرة « شمسى » جاء الى القاهرة . وبعد ظهر يوم ٨ نوفمبر ، زارنا ليعرف اذا كان فى استطاعتنا أن نتولى الدفاع عن « شمسى » . لقد تعقبته الجواسيس بعد انصرافه من عندنا وألقت القبض عليه بتهمة اثارة الفتن ، وبالرغم من أنه مسيحى وأحد رعايا بريطانيا ، وبالرغم من أنه كان متغيبا عن البلاد أثناء الحرب ، فقد أرسل فوراً بالقطار الى الاسكندرية ، ورحل الى بيروت باعتبار أنه مشاغب سياسى خطير ، وفى اليوم التالى تلقينا تلغرافين يأتين من « كرمى » المسكين وهو فى طريق رحلته القهرية نحو الجنوب ، ولم يكن فى استطاعتنا أن نفعل شيئا ، ولم يكن فى استطاعة « سبر ادوارد ماليت » (وهذا ما كان يؤسفه ، على ما اعتقد أن يتدخل فى حق الخديوي المطلق Khedivial prerogative فى طرد الأشخاص المشتبه فيهم ، من بلاده .

لقد بدت آمالنا قائمة تماما . لقد صار قومسيون التحقيق معاديا لنا بصورة علنية ، ويبدو أنه كان مصمما على أن يفرض علينا اجراء من وحيه هو ، اذ أن « بوريلى بك » الذى كنا قد وصلنا معه الى اتفاق ، بدا أنه يميل بشكل واضح لأن يفعل شيئا ، ولو قليلا ، ما أمكنه ذلك ، بالقضية ، وكان كل ما استطعنا أن نحصل عليه هو سجلات الدعوى ، حصلنا عليها على دفعات بسيطة ، لمنع أى فحص عام للقضية . لقد تحطم موقفنا الى حد كبير من جراء الارهاب المتعمد الصريح الذى اقترف فى حق « كرمى » . وبدأ الشعب فى انجاسترا على استعباد لأن يثير هياجاً للتأخير الذى عزى الى رغبتنا فى الدخول فى مجادلات لا طائل تحتها . وإزاء ما كاد يملكنا من يأس ، حررنا الخطاب التالى الى جريدة « التايمز » :

الى رئيس تحرير التايمز :

سيدى ، - حتى نحول دون سوء فهم خطير فى انجلترا ، فاننا نتجاسر ونرجو ان تسمح لنا ان نقول بضع كلمات عن موضوع المحاكمة المقبلة : يبدو أن شعورا أو آخر قد قام فى انجلترا أن العصيان هو ذاته لم ينكر نفسه وأن الصعوبة الوحيدة هى التصرف النهائى مع الشخصيات القيادية له . اننا نأسف لأن واجبنا لا يسمح لنا ان نتعجل نفس التسوية التى لها أهميتها البالغة بالنسبة لمصر ، بقبول هذه النتيجة .

ان المسجونين لينكرون انه كان هناك عصيان بمعناه القانونى ، اذ هم يتسولون ، وسيبرهنون ، لو سمح لهم بذلك من بيدهم الامر ، ان الباب العالى قد اقر أعمالهم من

ستقع على كاهلهم بصورة أساسية مسئولية مستقبل مصر ليعرفوا الحقيقة كاملة وليتصرفوا
على الأحداث الراهنة وليتمجّلوا مجرد محاكمة شكلية لا لشيء إلا لأن « عرابي باشا » يقع
حجر عثرة في الطريق .

ونحن يا سيدي خدامك المطيعان

١٠٠٠ م. برودي

المحاميان

مارك ف. نابير

القاهرة في ٨ نوفمبر ١٨٨٢

[في نفس ذلك المساء وصل لورد دافرين الى القاهرة]

الفصل السادس عشر

مجيء لورد دافرين

بالرغم من الصعوبات التى سردناها فى الفصل السابق ، الا أن انقشاع السحب من وقت لآخر كان يساعده فى ادخال البهجة علينا وسط متاعبنا ، وكان كثير وكثير من الشواهد التى فى صالح عرابى على وشك الظهور . لقد حصل « مستر نابير » على بعض الأدلة القيمة للوقائع التى أعقبت ضرب الاسكندرية ، بل لقد اعترف لنا « ويلسون بك Wilson Bey » ، وهو مهندس حكومى ، بأن الأسلوب الذى اتبعه عرابى فى حراسة داره (أى دار ويلسون) كان أسلوبا يفوق كل مدح ، بينما كان رؤساء طائفة دينية أو طائفتين دينيتين ، كانوا على استعداد للاعتراف بالمعاملة النموذجية الطيبة التى عوملوا بها أثناء الحرب .

بل ان الاهتمام المكثف بالمحاكمة الذى كان يحس به ، قد أخذ فى التناقص بصورة ملموسة فى وجود الاثارة التى سببها ايفاد « لورد دافرين » الى مصر ، فلقد كان الحديو ونظاره على علم تام بأن لورد دافرين كان قد أحبط دبلوماسية « قصر يلدز » الملتوية ، ومن ثم فقد كان قدومه المنتظر الى مصر مبعث خوف وارتعاد . ووسط التوقعات العصبية البائدة ، اعتقد أنه ، حتى « اسماعيل أيوب » قد بذل جهده ليعطى أعضاء القومسيون الشديدى الاجهاد ، فرصة قصيرة ليستريحوا فيها وليروا أى اتجاه ستتخذ الأمور الآن . ويبدو أن ايفاد « لورد دافرين » الى مصر ، الذى لم يكن متوقعا على الاطلاق ، كان وقعه كوقع « دش سياسى political shower-bath » على مختلف الأحزاب المتنافسة ، التى صار كل منها ، بأمل فى بعض النفع من الوضع الجديد المتطور للامور ،

والذى كان على وشك أن يفتتح تحت رعاية aegis انجلترا . كان الحديو ، قبل كل شيء ، قلقا وغير مستريح نفسيا ، لأنه أحس بأن لورد دافرين لابد أنه عرف القدر الكبير جدا عن هدف القسطنطينية من المؤامرة التركية البالغة التعقيد التى تحاك حول مصر . لقد قرر « نوبار باشا » أن يسرع بالعودة الى البلد الذى تبناه ، ليفتن سيادة اللورد بأحاديثه السطحية المعادة عن النظم المالية والإصلاحات القانونية . لقد كان « رياض » و « شريف » (وهما ناظران على النقيض من بعضها البعض) قلقين ليريا على أى منهما سيقع الاختيار حتما ، بينما « الوطنيون » المقهورون فى زناناتهم ، كانوا يثقون فى حماس فى أن بعض العدل وبعض الراحة النفسية لهم ستكون نتيجة اقدموه .

وفى وسط هذا الصخب من التفكير ، اتخذ لورد دافرين ، فى هدوء ، قصر اقامته المؤقت فى قصر النزهة المموه بالذهب ، فى نهاية ميدان شبرا الظليل ، وعاش فى نفس الغرف التى نزل فيها جيلان من أعضاء الوفود التركية خلال الاثنى عشر شهرا الماضية .

وفى واحدة من هذه الغرف استقبل لورد دافرين : « مستر ناير » وأنا ، صباح يوم ١١ نوفمبر . لقد أتاح لى على الفور الفرصة الكاملة لعرض قضيتى . وبعناية رويت كل حادثة حدثت منذ يوم قدومنا حتى لحظة هذا اللقاء . لقد أنصت فى صبر بالغ الى كل ما كان على أن أقوله ، وهو ، كخبير دبلوماسى ، لم يقل الا القليل جدا هو نفسه ، وعند ذلك ، أحسست ، وأنا مقتنع كل الاقتناع ، أن « الوطنيين » لم يعودوا فى حاجة بعد لأن يقنطروا من أن العدالة ستأخذ مجراها .

وبعد ظهر اليوم التالى ، تلقينا (ردا على التماس من التماساتنا العديدة) ثلاثة طرود ، كنا متأكدين أنها كانت تحوى كل الأوراق التى تخص كلا من « عرابى » و « يعقوب سامى » و « أحمد رفعت » ، وعلى الفور طلبت من « عرابى » أن يحدد أيا من الوثائق يعتبر أهميتها فى الدفاع عنه ، فتبين أنه لم يكن فيها ما يهم ، اذ كانت تحوى خطابات وتلغرافات ، الخ . . . تماما كما وصفها « مستر ماك كولوج » ، كانت أشبه بشكل أو بآخر ، بأوراق مسافر رتبها كيفما اتفق بعد تفتيشه فى منطقة مدور in transitu ، وأما الباقي منها فكانت لا ثقل عنها فى عدم جدواها . وكان « عرابى » يلتزم دائما بصمت البسالة البالغة ازاء الفرنسيين الذين كانوا متعاطفين معه ، ولكن من بين الأوراق التى قدمها لى أعضاء القومسيون وجدت بمحض المصادفة ، خطابا غريبا مؤرخا بتاريخ يسبق شهر يونيو ببضعة أيام ، كتبه « فوازان بك Voisin Bey »

وهو قد كان ، فى خدمة الحديد ، يصف نفسه على أنه « ضابط بحرى سابق ancien officier de marine » ، ذكر فى خطاب لـ « عرابى » أنه كان على ظهر احدى السفن الحربية الفرنسية المدرعة ، وأنه قابل أميرالها وهو الآن فى وضع يؤكده فيه لـ « الوطنى المخلص المدافع عن بلاده » أن الأسطول الفرنسى لم يأت الا ليراقب تحركات الانجليز ، وليست به نية على الاطلاق لمهاجمة المصريين . ويقول « فوزان بك » انه لم يعد وسيلة أن يعرف الضباط الفرنسيين بالوضع الحقيقى للقضية و « السلوك الباسل لزعيم الشعب المصرى » . وهكذا نجده فى خطاب « فوزان بك » مثالا صادقا لأولى ثمار المعاهدة الانجليزية الفرنسية .

ولقد شهد اليوم التالى بداية العام الهجرى الجديد عند المسلمين ، بداية القرن الرابع عشر الهجرى . ومن عادة المسلمين أن يستبشروا خيرا ببداية كل عام هجرى جديد ، ولكن فى الظروف التى كانت تمر بها البلاد ، لم يكن حتى صوت أى نبوءة ليلهب الحماس لسماعها فى القاهرة . لقد فكر قومسيون التحقيق أنه من المناسب أن يسجل التاريخ باستصدار منشور manifesto ، فأرسل إلينا ما يمكن اعتباره لائحة ، استبدل فيها قواعد جديدة تماما ومبتكرة عما سبق الاتفاق عليه بيننا وبين « بوريللى بك » ، وفيما يلى ملخص موجز لنصوصها : - سيستأنف التحقيق فى أية حالة يوم ٢٥ نوفمبر ، والقضية ككل ستضم الاستجابات وتقدم المستندات ويجب ، تحت كل الظروف وبدون أى عذر محتمل ، أن يستكمل فى مدى ثلاثين يوما ، ويمكن للمحامين أن يستجوبوا الشهود ، فقط ، من خلال الرئيس الذى يمكنه أن يرفض أى سؤال يعتقد أنه غير مناسب ، والمتهمون يمكنهم فقط أن يعينوا محامين عنهم وذلك بعد استكمال الاستجواب الابتدائى ، ويجب على محامى الدفاع أن يسلموا مستندهم الوثائقى الى قومسيون التحقيق قبل استكمال أعماله .

ولم يكن فى الامكان تجاهل معنى مثل هذا التغيير الأساسى للجبهة . لقد صار عمل ما يقرب من شهر بأكمله بلا نتيجة ، لأن نفس الأمل فى محاكمة عادلة قد صارت أمرا مشكوكا فيه ، وازاء ذلك ، لم يكن فى وسعنا أن نفعل شيئا سوى أن بعثنا بردنا التالى الذى يحمل احترامنا (١)

(١) القاهرة فى ١٢ نوفمبر ١٨٨٢

الى سعادتلو اسماعيل باشا أيوب ، رئيس قومسيون التحقيق الابتدائى
يا صاحب السعادة ،

نود أن نحيط علم سيادتكم بأننا تسلمنا رسالتكم المؤرخة بتاريخ اليوم ونحن نتعجل منحيكم علما أنه بالنيابة عن موكلينا ، ومع احترامنا البالغ لكم ،

الى « اسماعيل أيوب » ، ونوجه أنظار لورد دافرين الى الموضوع . وقد أعقبنا خطابنا الى رئيس القومسيون باتصالات أخرى ، موجّهين أنظاره الى مختلف التساؤلات التي تركها بلا اجابة عليها ودوافعنا الى اعتبار أن « قواعد المرافعات » وحدها ملزمة ورسمية ، والتي يمكن أن نعتترف بصراحة أننا ندين بها الى « الخبرة العظيمة وروح الوفاق والاستبصار القانوني المعهود في سعادتلو » بوريل بك » .

وفي الوقت نفسه ، استمر موكلون يعملون في اعداد دفعهم وهم لا يشعرون تماما بالعاصفة التي كانت تثار حولهم . وقد جمع « الشيخ محمد عبده » ، لصالحنا ، تحليلا ذكيا لمريدة « الوقائع الرسمية » ، التي كان رئيسا لتحريرها ، وزودنا بالقدر الكبير من المعلومات عن الأيام الأولى للحركة الوطنية ، وفي صورة جلية واضحة وصف كيف صار « عرابي » البطل الشعبي لمصر ، وكيف أن الوفا من الآباء المصريين سموا أبناءهم باسمه ، في الوقت الذي أضفى فيه اسم « توفيق » من البلاد .

ولأسباب ، سأذكرها الآن ، صار « رياض باشا » أكثر جرأة وأكثر تعويقا ، حتى أنه رفض أخيرا ، في ١٤ نوفمبر ، دخولنا الى كل موكلينا فيما عدا « عرابي » ، بدعوى أنه وصل خطاب مجهول يذكر أن بعض كتبتنا كانوا مستمرين ، بدون علمنا ، في تيسير الاتصال بين بعض المسجونين وأصدقاءهم بقصد إثارة انتفاضة شعبية ، على أنه ، بعد ذلك ، تدخل « سير تشارلز ويلسون » على الفور ، نيابة عنا ، واقترح رفع الحظر .

فإننا نرفض قبول البنود الواردة في رسالتكم باعتبار أنها تختلف تماما عن الترتيبات التي توصلنا اليها مع سعادتلو « بوريل بك » نيابة عنكم ونيابة عن حكومة سمو الحديو ، حتى يكون في استطاعتنا أن نقدم البراهين اذا طلب منا ذلك .
إننا نأسف غاية الأسف لأن احساسنا الشديد بواجبنا تجاه موكلينا ، يمل علينا ، لذلك ، أن نقف مثل هذا الموقف ، ونسجل رفضنا التام لما ورد في خطابكم من بنود ، من أجلها ، نرفع الأمر ، وكلنا ثقة ، الى أسمى احساس بالعدالة ، الى صاحب السمو الحديو ونظاره الذين بموافقتكم (وبموافقتكم وتبنيكم للموضوع) أعطوا قوة قانونية للاتفاق الذي أبرمه نيابة عنكم سعادتلو « بوريل بك » .

ونحن يا صاحب السعادة

خادمك المتواضعان

(توقيع)
٢٠٠١ برادلي
مارك تاير
المحاميان

ولقد حدثت أحداث جديرة بالأهمية في السجن في ذلك اليوم .
لقد قص علينا « عرابي » حليما غريبا حلم به أثناء الليل أفزع بعض
الشيء ، ونظرا لثقتنا في « عرابي » لم نشر فيينا الضحك روايته لحلمه .
لقد كان عرابي مصرياً واسع الاطلاع ، قديرا ، ومصريا موهوبا ، وهذا
صحيح ، وهو مصري ولا أكثر من ذلك . ويعتقد الشرقيون دائما ، في
كثير أو قليل في الرؤى ، منذ أيام شاول Saul (١) وداود David
اللذين كانا شخصيتين في زمنهما . وليست هناك غرابة في أن يتحدث
عرابي عن حلمه ، لقد حلم أنه في الليل هاجمه ثعبان ضخم ، وهو في
زنزائنه ، وكان رأس الثعبان كهيئة السلطان عبد الحميد وذيله على هيئة
الحديد توفيق ، وأخيرا قتله عرابي بسيفه . لقد هز هذا الحلم كيان
عرابي تماما .

وقد حدث مشهد غريب في زنزانة « عبد العال » . لم يكن أمرا
أقل من محاولة إجرامية خطيرة . منذ عدة أشهر كان حارسه ، وهو شاب
جرمسي يدعى « محمد حسني » (وكان قد اعتاد فعلا أن يصطحب
« سعيد » ، ابن عبد العال الصغير ، الوصي عليه ، في زيارته لمكتبنا)
قد اكتشف متلبسا بمحاولة وضع السم للباشا في فنجان الشاي
الذي كان يتناوله في المساء . وقد تأجلت قضية السجن بصورة أو
بأخرى ، وفجأة استكملت ، وقرئت قوائم طويلة بالشهود وأخيرا حكم
عليه أثناء انعقاد الجلسة céance tenante ، بالحبس إحدى عشرة
سنة يقضيها بالقرب من النيل الأبيض . وفي اليوم التالي زارني رجل
عظيم جدا ، شخص يدعى « حسين باشا » (أحد أعضاء المحكمة
العسكرية) زارني وقال لي أنه عين وصيا على الشاب اللطيف ، بدلا من
« عبد العال » ، وبناء على توجيه من موكل ، ذهبت بعد ذلك الى منزل
« عبد العال » وفتحت خزينته وأخرجت منها ٣٠٠٠ جنيه مصري
سلمتها لوكيل « حسين باشا » . وقد رجاني الحارس ، وكان لا يزال
طليقا ، بلا جدوى ، أن أعطيه عشرة جنيهات لنفسه ، لأنه كان يقول
في صدق واضح ان هذا المبلغ هو المحتمل تماما أن يكون كل ما سيراه
من ماله .

وفي طرقة السجن ، بعد ظهر ذلك اليوم ، التقيت بـ « اسماعيل
أيوب » . لقد أراد أن يفهمني أنه لم يكن يحمل حقدا أو ضغينة ، وكان
يدعو الله في حماس أن تسوى خلافاتنا كلها تسوية دبلوماسية بصورة

(١) أول ملوك اسرائيل . (المحقق)

أو بأخرى وفى هذه الأثناء ، صعد مسجونان اثنان السلالم فى حراسة
مشددة ، وكان الاثنان هما : « سليمان بك سامى » و « حسن موسى
العقاد » ، الذى كان قد قدم ذلك اليوم من جزيرة كريت
Crete ان المحنة الكبرى لمصير عرابى قد حلت ، ولكن حلمه ثبت أنه فال حسن
على أية حال .

بمحاكمة محايدة • اننا لا يمكن أن نقبل احتمال أية مغالطة في الموضوع -
ان انجلترا والشعب الانجليزى هم قضائنا الحقيقيون • اننى لا أخشى
أن أتكلّم بصراحة الآن •

ان الأوروبيين مخطئون خطأ ذريعا لأنهم يحاولون أن يفهموا الشرق
فى ضوء أفكار وصلت اليهم من فترة سابقة ، خلقها لون مختلف من
التعليم كما خلقتها ظروف اجتماعية مختلفة اختلافا عريضا ، ولهذا
السبب سيظل الشرق غامضا بوجه عام - سيظل كتابا مختوما ؛ بل ان
بعض الكتاب ليتخيل أن الفوارق السياسية كتلك الفوارق القائمة بين
أحزاب « المحافظين » و « الليبراليين » و « الراديكاليين » لها وجودها
فى مصر حين أنه ليس هناك سوى حزب سياسى واحد سواء فى هذا
البلد أو فى الشرق - اننى سأدعو هذا الحزب « حزب المتعطشين للعدالة
le parti des affamés de justice » الذى ينتمى اليه الرجال الأتداء من
كل الطبقات حتى أصغر الفلاحين المزارعين بل وحتى الفلاحين أنفسهم •
وتبعا لتنوع ذكائهم ، كلهم راغبون فى المشاركة فى الفوائد التى تعود
على مثل هذه التنظيمات السياسية التى تمتلكها أوربا ؛ أن يحكمهم العدل
والمساواة وأن يشهدوا ادارة أمينة بعيدة عن الفساد ، تضع حدا لسوء
استخدام السلطة ، وتحس بأقل احساس ممكن بمعاناة « الكورباچ »
لأبدانهم • ان « المتعطشين للعدالة » يطلبون باختصار الأمن لأرواحهم
وشرفهم وممتلكاتهم •

« هذا التعطش للعدالة هو الفكرة الكبرى التى تملكت قلوب
الشرقيين ، طالما أن المعالم القديمة التى حطمتها الزمن قد صارت عاجزة
عن حمايتهم من المضايقات ومن الطغيان ، ولكن الحاجة الى أية تنظيمات
شعبية حقيقية مقرونة بعدم وجود محاكم تمارس عملها بالعدل ، وبقوانين
عادلة ، قد أضعفت الفكرة السياسية التى حاولت وصفها وحصرتها فى
أنها رغبة شديدة الحياء sentiment très timide » •

« لقد بدت كما لو كانت نجما فى الشتاء ، حالما تظهر سرعان
ما تختفى بين السحب ، وكان أول برهان ملموس على وجودها هو
إصدار السلطان عبد المجيد لفرمان Hatt Hamayun of Gulhané الذى
ضمن لرعايا الامبراطورية أمن الحياة والشرف والملكية ، وعندما امتد العمل
به فى مصر ، رغم معارضة « سعيد باشا » ، صارت « الرغبة الحية »
أكثر جراءة ، وبدأت زيادة الاتصال بأوربا والأوروبيين تخلق فى المصريين
احساسهم بوطنيتهم •

« واعتلى توفيق العرش ، مع كثير من التصريحات عن نواياه فى

افتتاح عهد جديد من الأعمال ليكون عهد حكم دستوري حازم . ولكن المظهر الخادع للتنسيق والرخاء ما لبث أن حجب نوره خطئان كبيران - الحل الجائر « لمشكلة المقابلة » (١) ثم الافراط في توظيف الأوروبيين . والمصري لا هو لثيم ولا هو بالمتعصب . انه لا يكره الأوربي الذي يرى فيه لونا من التفوق ، ولكن لو أن المصري نحى عن الطريق في استخفاف ولو أن أوربيا منح أجرا يفوقه مرتين أو ثلاث مرات أو حتى أربع مرات على أدائه عملا (من المفروض أن يؤديه مصري) أو بالأحرى على دفعه مصريا لأداء عمل مصري لأنه (أى الأوربي) قد أضمن على أدائه ، ولا يشكر المصري على أدائه ، لا يثور المصري (لأن المصري لن يثور أبدا) ولكنه سيصعب شكواه في أذن صديق قائلا : « ياله من ظلم !!
«quelle injustice !

ثم جاء طغيان وسوء ادارة « عثمان باشا رفقى » ناظر ديوان الجهادية الذى دبر لاطلاق اسم « الجركسى Cirassian على الحزب الذى اقامه قسرا ، وأما « رياض باشا » ، فقد كان مما يسعده أن يوقف تيار التبرم ما أمكنه ، ولكن الوقت كان متأخرا جدا الآن . ان المظالم العسكرية العميقة الراهنة ما لبث أن انضم اليها بالمثل الطوفان القوى لسوء معاملة المدنيين وهما معا شكلا المرحلة الأخيرة للوطنية المصرية . ان اعلان مطالب الجيش Pronunciamento فى فبراير (٢) الذى نجم عنه فسقط تغيير ناظر النظار أعقبه اعلان سبتمبر (٣) الذى جر الى سقوط النظارة بكاملها . وفى الفترة الزمنية بين الأحداث كان شعور السخط الذى عم الجيش قد ضخمه اكتشاف مؤامرات معينة من جانب « يوسف كامل باشا » مدير الدائرة الخاصة ليغرى ضباط آلايه للتخلص من أميرالايهم عبد العال (٤) .

(١) كان قانون المقابلة يعطى للمزارعين دافعى الضرائب مقدما الحق فى الاعفاء نصف المربوط عليهم من الضرائب ، فلما ألغى هذا القانون ، كان معناه مصادرة أموال المزارعين الذين أدوا نصف المربوط عليهم فى الضرائب للحكومة ، الأمر الذى ألحق بهم خسارة كبيرة ، قدرها مستر كى Keay فى كتابه « نهب المصريين Spoiling the Egyptian » (ص ٤٩) بما يصل الى ١٧ مليون جنيه ، هذا بالإضافة الى ما تكبدته هؤلاء المزارعون من دفع ضرائب عن الأراضى المصادرة بلغت ١٧٠٠٠٠٠٠ جنيه استرليني سنويا ، حصلت من ما يقرب من مليون مزارع لتدفع الحملة أسهم قناة السويس الأجانب !!

(٢) فى هذا التاريخ (٢ فبراير ١٨٧٩) ثار الضباط فى عهد الحديو اسماعيل على نظارة نوبار . (المحقق)

(٣) تاريخ هذا الاعلان هو ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، وكان ذلك فى عهد الحديو توفيق . (المحقق)

(٤) تبرهن الأوراق التى أعطاها « عبد العال » ، على وجود هذه المؤامرة . (المؤلف)

حين أن الجمعية الثانية ، واسمها « التوفيق الخيرية » ، كان يرأسها ابن الحديو الأصغر ، وكان نائب الرئيس : رئيس النظار الجديد ، محمود باشا سامي ، وبالرغم من أن النقاش السياسي كان محظورا طبقا للوائح ، إلا أن هذين المكانين الملاذيين ، صارا الآن (وبعلم السلطات الكامل بذلك) مشهدا لسلسلة أعياد fêtes زاهية ، فيها تلقى خطب في اثر خطب ، خطب تصور في ألوان حية العهد الجديد المقبل على مصر ، وحرية دخول المصريين كافة المناصب الحكومية ، واقتراب نهاية التدخل الأجنبي والاستعلاء الاجتماعي . لقد فتن المصريون بالآمال التي كانت تنتظرهم ، وأفسحت الرغبة الحية sentiment timide المجال لأمل أكثر وثوقا منه . لقد أخذت جدران قاعات الاجتماعات تردد مرارا وتكرارا عبارة « عاش الحديو » .

» بدت النظارة الجديدة التي رأس فيها « عرابي » نظارة الجهادية ، بدت ، أكثر حل ملائم للمشكلات القائمة . لقد صوروه من لا يعرفونه على أنه ثائر ناجح يكره العنصرين التركي والجركي ، أما من كانوا يعرفونه فقد رأوا فيه مدافعا عن نفس فكرة العدالة . لقد صار اسمه في بضعة أشهر راية ، كل من الجيش وكبار رجال البلاد على استعداد لأن يلتفوا حولها . كانت قلة من الناس لهم علاقات وطيدة ب « عرابي » أكثر مني . لقد أعلنت ، من غير ما تردد ، أنني كنت أراه رجلا أميننا مستقيما ، مكرسا جهوده تماما لوطنه ولعقيدته . لم يكن عرابي لا دبلوماسيا عظيما ولا سياسيا عبقريا ، ولم تكن عنده القدرة ، وهو القائد العسكري ، ليقاوم القوة العظمى لبريطانيا ، ولكنه كمصري أمين حقا وغير طموح حقا ، كان قادرا على أن يقود أبناء بلده في حربهم الصليبية من أجل العدالة .

» أنني أذكر جيدا أول مساء بعد تشكيل النظارة الجديدة ، عندما تقابلنا جميعا في دار « محمود سامي » . عرض « بوريللي بك » مشروعا خططه ليكون برنامجا للنظارة ، وفيه تجنب ببراعة المشكلة الحاسمة ، مشكلة الميزانية ، وكان « عرابي باشا » يجلس قبالته ، فأظهر بوضوح الأهمية الحيوية لهذه المشكلة من وجهة النظر المصرية ، وعدلت مسودة المشروع بناء على رغبته ، وبذلك أقره الحديو .

» وسارت النظارة في طريقها على ما يرام حتى حدثت المؤامرة الجركسية التي بدت أنها قلبت فجأة كل شيء رأسا على عقب ؛ أنني أعني بها المؤامرة المفتضحة لوضع السم في طعام « عبد العال » عن طريق حارسه الجركي الشاب المدعو « حسني » ، وأعقب ذلك مؤامرة على معيار أكبر ضد « عرابي » ، ولم أكن حاضرا جلسات المجلس (العسكري) التي

توقش فيها الموضوع ، ولكنني أعددت ، بعد ذلك ، مسودة ملتئم طالب فيه النظار أنفسهم بتخفيف الحكم .

« وصارت العلاقات بين الحديو والنظارة : باردة ، وكان من الصعب تجنب صدع مكشوف . ولقد دونت بمهارتي الوظيفية ، تسجيلا لعديد من المناقشات الحادة ، ودبر وفاق بطريقة أو بأخرى ، عندما حدث ما أثار فزعنا (يوم ٢٥ من مايو) عندما قدم القنصلان الفرنسى والانجليزى مذكرتين متماثلتين ، يطلبان فيها : ابعاد « عرابى » عن مصر ، واقالة النظارة . وطبقا لأوامر رؤسائي ، أعددت ردا مناسباً أملوه على ، ورفعته « محمود سامى » و « مصطفى فهمى » الى الحديو . ولمدة طويلة ، كان واضحا أن « توفيق » مصمم على أن يضع ثقته فى أوربا وأن يتخلى تماما عن القضية التى كان متأثرا ، بل وكاد يكون فخورا بتأييدها ، ويطحن ذات المطامح والآمال التى كان هو نفسه قد أسهم فى الحض عليها . ولقد صممت النظارة على رفض المذكرة فى الوقت الذى قرر الحديو قبولها . ولقد كان هناك حل وحيد ممكن وهو استقالة النظارة ، ومع ذلك ، فلقد ساند الرأى العام « عرابى » بكل قوته حتى أنه أعيد تعيينه ناظرا للجهادية بعد ذلك بيومين ، وبناء على طلب القنصلين العاملين : تعهد بضمان الأمن العام .

« وبعد ذلك بأسبوعين ، جاء درويش باشا (١) الى مصر .

« وفى العاشر من يونيو ، أرسلوني الى القصر ، حيث وجدت صاحب السمو مع مستر سينادينو M. Sinadino الصراف ، وسالا باشا Sala Pacha مدير ادارة حظر تجارة الرقيق . لقد ذكر لى سموه أن هذين السيدين هما شاهدها ، وطلب منى أن أقدم له ما يدل على وفائى ، أن أعطيه السجل الرسمى لمحضر اجتماع مجلس النظار الأخير ، الذى سبق أن أشرت اليه . عند مغادرتى القصر ، أخذت أفكر أن فى تحقيق هذا المطلب سيشكل ما يقرب من أن يفقدنى ثقة رؤسائي السابقين ؛ فتوجهت لزيارة « عرابى » ، باعتبار أنه الوحيد فيهم الذى لا يزال فى السلطة ، وأخبرته بالأمر الذى تلقته . فى تلك اللحظة ، كانت الوثائق المعنية فى حوزتى ، فقال لى عرابى اننى يمكننى أن أعطى الحديو صورة موثقة ، ولكنه (أى عرابى) سيعتبرنى مسئولا رسميا لو أننى تخليت عن الأصول التى كانت تشكل السجل الوحيد لمسلك النظارة ؛ ونتيجة لهذه التعليمات ، كتبت لسكرتير الحديو أشرح له

(١) انظر الصفحات التالية .

الاجتماع الأخير (اجتماع الداخلية) على ارسال وفد وطنى الى الاسكندرية للتأكد من حقيقة الأمور ، وفى حالة ما اذا لم يكن الحديو ونظاره مسجونين فعلا ، يطالبهم الوفد باستكمال مهام وظائفهم فى القاهرة ، وقد أرسلت نسخة من هذا القرار ، تلغرافيا ، الى القسطنطينية .

« وقبل التأكد من كل شىء تأكدا تاما ، ذكرت تلغرافات وخطابات واردة من عرابى باشا أن الحديو (الذى كان فى تلك اللحظة اما سجيناً أو لاجئاً) قد عزله من منصبه ، كما أنه ألغى قرار الحرب ، التى كانت فى الحقيقة مستمرة . لقد طلب عرابى أن يعرف رغبات البلاد فيما يتصل بالطريق الذى ينبغى عليه أن يتبعه .

زاد عدد حاضرى الاجتماع زيادة ملحوظة عمن حضروا الاجتماع الأول (اذ حضره حتى أمراء العائلة الحديوية والبطارقة ورؤساء مختلف الطوائف الدينية ، الى جانب كبار رجال الدولة) وقرروا تأييد « عرابى باشا » ضد ارادة الحديو الذى كان يعمل مخالفا للشرائع المدنية والدينية لحكم الاسلام ، وأن تستمر الاستعدادات للحرب حتى يصل رد من السلطان الذى أرسل اليه تلغرافيا بتقرير رسمى procès-verbal عما اتخذ من اجراءات .

« وبعد هذا الاجتماع ، لم تظهر أبدا أية اختلافات فى الرأى ، ولم يكن عرابى فى أعين المصريين يعدو أكثر من خادم للبلاد ومدافع عنها - كان ممثلاً لحمة ملايين من الناس الذين كانوا يقاومون غزو أرض أجدادهم ضد جيش أجنبى ، بل ان الأشخاص الذين كانوا يعارضون وجهات نظره يوما ما ، شاركوا تماما الرأى العام ، بل اننى لأذكر أن « يعقوب باشا صبرى » ، الذى كان يوما ما مملوكا من ممالك « عباس باشا » ومواليا شديد الولاء و « توفيق » ، أنه كان يقول صراحة أنه « حتى وقت ضرب الاسكندرية كنت دائما الى جانب الحديو ضد عرابى ، ولكن الآن بعد أن انحاز الحديو الى الانجليز ، فانه ليس من صالح المسلمين أن يبقوا عليه (يقصد الحديو توفيق) بعد اليوم . » وفى اجتماع عند « حسين الدرمللى » سألت مرة ، قاضى قضاة القاهرة (الملا أفندى) (١) حول نفس النقطة فأجابنا بتوكيد تام أنه « لا الحديو فحسب ، بل السلطان نفسه ، يدين بوضعه كحاكم وخليفة ، لارادة شعب الامبراطورية » .

« ان الحماس الذى أظهرته كل طبقات الشعب من الأمراء والأميرات .

(١) هذا هو اللقب التركى الذى كان يطلق على قاضى القضاة . (المحقق)

حتى أصغر الأطفال ، ليتحدث عن نفسه . وان سجلات الحكومة لتنهض دليلا لا تدحض على هذا الموضوع ، بل ان هناك أيضا ، بالفعل ، موظفين حكوميين فى استطاعتهم أن يقولوا الكثير عن ذلك ، أما أحدهما فهو : « خليل بك عفت » الذى لا يزال مديرا لمديرية المنيا ، وكان أول من أرسل تعزيزات ومؤن من القمح ، وقد فعل هذا مع حماس شديد وكفاءة بالغة ، حتى أنه صدر منشور بالجريدة الرسمية بمساندة عرابى ، واعتبار « خليل بك عفت » مثالا ونموذجا للوطنى الحق ، أما المثل الثانى ، فهو « عثمان باشا غالب » الذى هو اليوم رئيس ضبطية القاهرة ، والذى كان منذ ثلاثة أشهر مضت ، تقريبا ، مديرا لأسبوط - أرسل ١٠ر٠٠٠ أردب من القمح الى معسكر عرابى . وفى كل مسجد وفى كل بيت فى مصر ، كان المصلون يدعون يوميا راجين التوفيق لقواتنا ، بل ان « اسماعيل باشا أيوب » صحبنى الى كفر الدوار لنهني عرابى بعيد أضحي سعيد وبنصر قريب (١) وعندما كنت أودى واجبى تجاه بلد تبنيته ، كنت أعمل بنفس الأسلوب الذى يتبعه الآلاف من الشخصيات البالغة الأهمية الذين هم أحرار بل ويتقلدون اليوم مناصب رفيعة ، وفعلت كل ما أمكننى للحفاظ على حسن النظام ، ومن أجل هذا الهدف أوقفت فى المطبعة الأهلية كثيرا من المقالات التى كانت تميل الى إثارة التعصب الدينى والفرقة وزيادة الكراهية الطاغية للأجانب .

« اننى أترك مصرى ، وكلى ثقة تامة ، فى أيدي انجلترا ، لأنها عاجلا أو آجلا ، ستنصف ، بكل تأكيد ، قضية الوطنية المصرية المتصدعة الآن . أية ثقة يمكن أن أضعها فى قضاة يحاكموننى اليوم عن أفعال شاركوا فيها هم أنفسهم منذ ستة أسابيع مضت ؟ وما لم تساعدنا انجلترا ، فسيكون ملاذ الساعين وراء العدالة فى مصر أبعد مما كان من قبل » .

الفصل الثامن عشر

رواية وكيل نظارة عرابى (١)

« اسمى » يعقوب سامى . أنا تركى المولد ، ومنذ شبابى توظفت فى الجيش وديوان الجهادية . لقد شهدت معارك كثيرة فى ميدان القتال ، وفزت بعدة ميداليات ونياشين . منذ ثلاث سنوات مضت ، على شاكلة كثير من رفاقى ، تزوجت سيدة من حريم الخديو . فى الأيام الأولى من حركة عرابى ، كنت قليل التعاطف معه ، وفى الحقيقة ، تلقيت ضربة سونكى فى فخذى أثناء الاضطرابات التى أعقبت الافراج عن « الأميراليات الثلاثة » عندما هرب « عثمان باشا رفقى » الى غرفة فى الطابق الأعلى ، وأغلق الباب على نفسه ، وتركنى لأواجه الجند الساخطين ، ولكن جاء الوقت الذى صارت فيه المطاعم التى ظننتها يوما ما مطاعم « عرابى » وحده - صارت مطاعم مصر كلها ، ثم انضمت الى « عرابى » بكل قلبى . اننى خجل أن أقول أننى تنكرت للقضية التى من أجلها حاربنا ، وأسأت الى « عرابى » أمام أعضاء القومسيون الذين عينهم الخديو للنظر فى قضيتنا . لقد فعلت ما فعلته لأننى عانيت من معاملة أفقدتني أحاسيس لفترة من الزمن ، وقد قررت أن أنكر ما دفعت لذكره ، وفى الواقع ، كانت أفعالى الذاتية هى أحسن نقيض للكلمات التى انتزعت منى . انتزاعاً : فلا يمكن لانسان أن ينظم ، وهو فى خوف ، آلاى ميرة

(١) لم أعثر على النص العربى لهذه الوثيقة ضمن وثائق كساب برودل المحفوظة بدار الوثائق بالقلمة ، ولما كانت مثبتة فى الأصل الانجليزى فقد ترجمتها عنه بصورة تقريباً من النص العربى . (المحقق)

commissariat من ١٠٠٠٠٠ رجل . وقبل أن أروى سلوكى كوكيل
نظارة مصرى سابق لديوان الجهادية بالقاهرة ، سأشرح لك كل ما حدث
منذ استسلامنا ، لأننى ما لم أفعل ذلك قلن أكسب احترامك أبدا :

« عندما عاد عرابى الى القاهرة بعد هزيمته ، صممنا جميعا ألا نستمر
فى مقاومة أحسبنا الآن أنها لا أمل فيها . توجهت لمقابلة القادة الانجليز
وقمت بتنفيذ استسلام ٣٥٠٠٠ فرقة بالقرب من المدينة بكامل رضاهم .
وما أن أدت هذه المهمة على الوجه الأكمل ، حتى تلقيت بعدها مكافآت
رسمية من الحديو ، ثم تقدمت الى كفر الدوار حيث أقيمت كلمة فى
الضباط المصريين وأوضحت لهم استحالة استمرار الحرب ، وتبعا
لنصيحتى الجادة حذوا حذو قوات القاهرة ، وأعرب الضباط الانجليز
عن عظيم رضاهم عن كل ما فعلته . وبعد أن بقيت بضعة أيام فى
المعسكر ، أمرت أن أتوجه الى الاسكندرية ، وصحبت الكولونيل القائد
البريطانى ، بكل احترام ، الى محطة القبارى .

« وعندما وصل القطار ، نزل منه « حسن أفندى فوزى » ، مساعد
رئيس التشريعات الحديوية ، وعندما رآنى صاح فى قائلا : « انزل من
عربتك واذهب مع ذلك الضابط » مشيرا الى جركسى يدعى « محمد لاما » ،
الذى كان قد جرم ونفى من قبل لتأمره على اغتيال عرابى . كان مع
هذا الرجل كثير من رجال البوليس الذين سيجبونى مع كل صورة من
صور الامتھان ، خلال شوارع المدينة ، وبعد أن سجنحت فى مدرسة رأس
التين ، اقتادونى سيرا على الأقدام الى محطة السكة الحديد ووضعت فى
عربة بضاعة تستخدم فى نقل الشحم والزيت ، فكان من المستحيل على
أن أجلس ، ثم نقلت بعد ذلك الى سبنسة القطار ، وهكذا أحضرونى الى
القاهرة مع « على باشا روى » و « محمود باشا فهمى » وغيرهما ،
وقادونا خلال الشوارع المزدحمة وسط صفين من الجنود يرأسهم ضابط
جركسى ، حتى وصلنا الى السجن العام ، وفيه زوجا بنا فى غرفة صغيرة ؛
ولقد مر خمسة عشر منا بالكثير من سوء المعاملة هناك لمدة خمسة أيام ،
ثم جاء ضباط انجليز ليرونا ، ثم جرى بنا الى هنا الى سجن الدائرة
السنية . وبعد ظهر يوم وصولنا ، جاء أربعة من حاشية الحديو حاملين
السيوف ، اندفعوا الى زنزانتى ، وفى قسوة هاجمونى ، وكانت أفعالهم
يشاهدها من الباب نفس ذلك الشخص المدعو « حسن أفندى فوزى » ،
وفى النهاية انصرفوا ، ولكن الحراس خارج زنزانتى اعتادوا على أن يدقوا
على الباب فى فترات متباعدة طوال الليل حتى يمنعونى من النوم الذى
لم أذق منه أكثر من بضع دقائق فى مجموعها . وفى الوقت نفسه ،
توجه البوليس الى منزلى مرتين ، ونقلوا كل أوراقى ، وأهينت أسرتى

أيضا ، فى كل صورة ممكنة ، وفجأة ذات يوم فتح باب زنانتى ، وأحضرونى أمام أعضاء القومسيون الجالسين فى الغرفة المجاورة لزنانتى ، وكثيرا ما كانوا يتحدثون جميعهم فى وقت واحد ، وكان حديثهم دائما فى أسلوب متوعد • وفى اجابتي على أسئلتهم ، أعتقد أننى قلت أننى فعلت ما فعلت خوفا من عرابى • لم يكن هذا صحيحا ، وأنا أريد أن أصبح اجاباتي ، لأننى لم أعد بعهد فى خوف على حياة أطفالى ، التى أثرت على أكثر من الخطر الذى أواجهه شخصيا (١) •

« ولا شك أن غيرى سردوا عليك ، مختلف الأحداث التى أدت الى ضرب الاسكندرية ، ومقاومة القلاع ردا على الضرب • ولما كنت جنديا ولست سياسيا ولا مؤرخا ، فاننى سأحدث فقط عن أسلوب الدفاع عن مصر الذى نظم فى القاهرة ونصيبى فى نفس الأسلوب • فى المقام الأول ، ذكر رئيس النظار أن الحرب قد أعلنت ، وبعد ذلك أخبرنا الحديو أنه أعلن السلام ، وأخيرا ، أرسل لنا عرابى تلغرافا أن الحديو فى الحقيقة كان أسيرا وأن العدوات مازالت مستمرة ، وقد تقرر عقد اجتماع للمجلس العرفى ، يضم كل طبقات الأهالى لمناقشة أى طريق سينتجج ، وبهذا الأسلوب استقر رأى على ارسال وفد الى الاسكندرية بقصد دعوة النظار للعودة الى القاهرة ، واذا كان هناك ما يستوجب اجتماع المجلس العرفى مرة أخرى للتداول فى الأمر ، ولكن فى الوقت نفسه الاستعدادات للحرب يجب ألا تتوقف •

« وعلى الفور ، جئى بقطار خاص الى قصر النيل واستقله أعضاء الوفد متجهين الى الاسكندرية ، وأحيط « عرابى باشا » علما بالقرار الذى اتخذته المجلس ، وطلب منه تسهيل مرور الوفد الى الاسكندرية حتى يمكنه الحصول على معلومات عن الوضع الصحيح للأمور • وبعد سفر الوفد ، قرر وكلاء النظارات أن مجلسا مكونا من أنفسنا ليس بكاف ، وأن حضور الأعيان المتقدمين فى السسن ، الذين شاركوا فى ادارات أخرى ، والذين كانوا أكثر حنكة منا ، كان حضورهم ضروريا ، وأن الشباب الذين لهم قدراتهم يجب أن يحضروا أيضا • ونتيجة لذلك ، أصدر المجلس العرفى قرارا باختياره سعادتلو « جعفر باشا » رئيس المحكمة التشريعية ، وعند عودة سعادتلو « اسماعيل باشا أبو جبل »

(١) بعد ذلك يستمر يعقوب سامى فى ايضاح الجانب الفعال الذى قام به اسماعيل

باشا أيوب وبقية أعضاء المحكمة فى تنظيم الدفاع الوطنى •

من الاسكندرية عين أيضا مع سعادتلو « مرعشلى باشا » وسعادتلو « ابراهيم باشا خليل » والى جانب هؤلاء ، اختير « ابراهيم باشا سامى » ، و « أحمد باشا نشأت » ناظر الدائرة السنية ، و « رياض باشا » مدير تقسيم القاهرة ، و « حسن باشا مظهر » مدير المدفعية ، و « اسماعيل باشا أيوب » ، و « راشد باشا حسنى » قائد فرقة ، و « خليل باشا » و « على بك يوسف » ، أميرالاي الفرقة الثالثة مشاة ، و « أحمد بك نير » أميرالاي الفرقة الثانية خيالة ، و « أحمد بك رفعت » سكرتير مجلس النظار ، و « محمود بك رمضان » رئيس كتبة الدائرة السنية . هذا المجلس العرفى الذى تشكل من الاعضاء الوارد ذكرهم آنفا ، كان يجتمع كل ليلة بديوان الجهادية خلال شهر رمضان وذلك لفحص أوراق كل ادارة ، وباتفاق عام ، لاصدار الردود الملائمة لنفس الادارات .

« وأثناء وجود هذا المجلس ، كان الأمن العام مكفولا ، ولم يذكر قط أن شخصا واحدا قد سلب منه أى شىء . وبعد بدء العداوات بفترة من الزمن ، جاءنى القنصلان الروسى والايطالى فى ديوان نظارة الجهادية وذكرنا لى أن لهما رعايا يصل عددهم الى ٢٠٠٠ شخص ، وهم يرغبون السفر الى الاسماعيلية ، ولكنهم كانوا يخافون من أن يغتالوا فى الطريق على يد أشخاص متهورين من الاسكندرية أو غيرهم من قطاع الطرق . وعلى الفور ، رتبنا لهم القطارات اللازمة عند قصر النيل وعند محطة مصر ، وبعثنا معهم بمرافقين من الضباط والجنود لحمايتهم على الطريق الى الاسماعيلية ، ولو أنك تحررت الأمر من هذين القنصلين لاقتنعت بالخطوات التى اتخذتها لحماية حياتهم ولأمنهم العام . وبعد وقت (لا أذكر تاريخه) وصلت رسالة تقول أن عرابى باشا قد عزل من منصبه كناظر للجهادية ، ووصل خطاب آخر من « عمر باشا لطفى » ذكر فيه أنه عين ناظرا للجهادية خلفا ل « عرابى » ، وكان مرفقا بالخطاب صورة من أوامر الحديو بتعيينه فى هذا المنصب . وضعت أنا هذه الأوراق أما المجلس ، وكان مشكلا من الأشخاص ذوى المناصب الذين سبق ذكرهم ، الذين قرروا أنه طالما أن هذا هو أهم موضوع ، ونظرا لأن الوفد الذى توجه الى الاسكندرية لاستدعاء النظار لم يعد ، فمن الواجب دعوة الجمعية العمومية المكونة من الأمراء فى القاهرة وكافة النبلاء والقضاة والحكماء وكبار تجار المدينة ، ومديرى المديريات وأربعة أو خمسة أشخاص من البارزين فى كل مديرية ، من بينهم القضاة وكبار التجار ، الى جانب كبار الشخصيات العامة والعلماء ، وقضاة السويس ودهياط وكل مكان ، وذلك للتشاور فى عزل الحديو ل « عرابى باشا » .

« لقد كتب الى هؤلاء جميعا ، والتقوا فى ديوان الداخلية ، ولما اكتمل

اجتماع المجلس ، نهض « على باشا الروبى » وكيل النظارة لشنون السودان ، وتحدث ، ولكنى لم أتمكن من سماع حديثه نظرا لأننى كنت أجلس بعيدا فى نهاية القاعة التى كانت تضم أكثر من ٤٠٠ شخص . وبعد أن جلس ، أخذت مكانى ، بوصفى كرئيس ، وسط الجمعية ، وذكرت أنه قد وردت مذكرة من ديوان الحديو تذكر أن سموه قد أصدر قرارا بعزل « عرابى باشا » ، كما قرأت بصوت عال محتويات اتصالات عرابى باشا السابق ذكرها ، وشرحت ما كتبه «عرابى باشا» الى المديريات والادارات فيما يتصل بهذا الأمر ، وقلت : ما رأيكم بالنسبة لهذا العزل ؟ « واستطردت : « هل اذا صدرت أية أوامر من الحديو : تنفذ أم لا ؟ ادلوا برأيكم » . واذا بالجمعية بأسرها ، وفى صوت واحد تعلن أن عرابى باشا يجب ألا يعزل ، وأضاف : « ونظرا لأن الحديو قد لجأ الى الغزاة فان أوامره لاغيه » .

« هذا القرار ترجم بعد ذلك كتابة فى حضور الجمعية ، كتبه كاتب نظارة الداخلية الذى رشحه « حسين باشا » وكيل نظارة الداخلية ، وعلى الفور ، وقع عليه الأعضاء تحت اشراف هذا الباشا نفسه ، ثم توجهت أنا بعد ذلك الى ديوان الجهادية لأتولى أعمال الديوان ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام ، أحضر لى سعادتلو « حسين باشا » قرار الجمعية العمومية مع القرار السابق أيضا ، كى يحفظا فى الأرشيف .

« وطبقا لروح هذه القرارات ، كان مديرو المديريات والمصريون جميعا مطالبين باتخاذ الاستعدادات وتزويد الجنود بالمؤن بأقصى سرعة . وقد بعث سعادتلو مدير أسيوط ، « عثمان باشا غالب » (وهو الآن مدير البوليس) بتلغراف يذكر فيه أن الأوامر العليا لشعب المديرية ، الذين هم تحت رئاسته ، هو اسهامه اختياريا منه للحرب ، قمحا بحد أقصى عشرة آلاف أردب ، وعددا من الخيول والجمال » كما ورد تلغراف آخر من سعادتلو « دأنش باشا » مدير مديرية الغربية ، يفيدنا بأن كل شعب مديريته قدموا كمساهمة اختيارية منهم كل ما قررت المديرية أن تبعث به من قمح وماشية ، أعنى ، أنهم رفضوا أن يقبلوا ثمنها لها . وعلى هذه الصورة تلقينا باستمرار رسائل من مديرى المديريات ومن المشايخ ومن أهالى كافة المديريات ، مظهرة مدى حماس الشعب فى تقديم المساهمات الاختيارية والمساعدات التى قدموها بارسال الاحتياطى والمجندين الجدد ، فى حين أنه وقت الحرب الحبشية ، أثناء حكم الحديو السابق ، كان من المتعذر جمع عشر هذا العدد من الرجال ، ومن هذا يمكن ملاحظة أن الحركة كانت متحدة تماما من جانب الشعب المصرى فى الدفاع عن وطنه وعن حياته » .

الفصل التاسع عشر

الشيخ محمد عبده - عالم وصحفي

ربما كان الشيخ محمد عبده أكثر رجل موهوب في فئات الوطنيين المصريين . كان كاتباً رشيق القلم ، دارساً متعمقاً في الدراسات العربية ومحدثاً بليغاً ومؤثراً . كان تأثيره له تقديره بين أكثر الطبقات تعلماً من أبناء وطنه . ومما لاشك فيه ، أنه ساعد مساعدة كبيرة في جعل الرأي العام عاملاً واقعياً في التقدم المصري . لم يكن الشيخ محمد عبده شخصاً متعصباً خطيراً ، أو كان له خطره في تحمسه الديني ، لأنه كان ينتمي إلى أعرق مدرسة في الفكر الإسلامي ، كانت تتمسك بعقيدة سياسية قريبة للنظام الجمهوري البحت pure republicanism كما كان الرئيس الغيور للمحفل الماسوني Massonic Lodge وكانت وطنيته البعيدة عن الأثرة هي وحدها التي منعت بعضاً من رفاقه ، الأكثر حماسة من أن يصرحوا عن استيائهم لعدم تمسكه بالتقاليد بالصورة التي تثير مزیداً من الشكوك حوله ، حتى أن صديقه « عرابي » صرح مرة أن « الشيخ محمد عبده أنسب له أن يرتدى قبعة عن أن يرتدى عمامة » .

كانت شخصية محمد عبده في مجموعها مثلاً لقوة ثقافية عظيمة غيم عليها لفترة : ضعف معنوي وفيزيائي ، وعقليته وجسمه بالمثل يبدو أنهما طحنا ، بعد ما استبان له من آمال ضاعت وكفاح عنيف لا طائل من ورائه . وعلى شاكلة زملائه ، أهين وأسيئت معاملته في السجن ، ولكن تقريره الذاتي عن معاناته كان ضعيفاً ومبهماً ، بالمقارنة بتقاريرهم . وقرب الأيام الأخيرة من سجنه ، بدا أنه قد أفاق من صدمة

اعتقاله لأول مرة . وبدأ يعاملنا بالثقة التي حاولنا أن نكون جديرين . بأحفيثها ، وأحيانا ، كاد أن يكون من الصعب علينا أن نصدق اذا كان الشيخ محمد عبده هو واضع التفسيرات الجريئة الحية لأهداف وموضوعات الوطنيين المصريين التي قدمها منذ ما يقرب من ستة أشهر مضت الى « مستر بلنت » . سيكون أمرا من الصعب ، بالمثل ، على الانجليز في بلادهم أن الاحباط الكامل للعزائم الناجم عن خيبة الأمل المقرونة بالخطر والتعذيب الجسماني ، يكون له تأثيره على أقوى وأشجع العقول المصرية . ان منظم الزيارات المسائية للمسجونين السياسيين في زناناتهم ، بعد نقلهم الى الحجز المصرى ، كان يدرك ، بلا شك ، أهميتهم العظيمة ، من وجهة نظر الشرق ، فى نجاح المحاكمة المقبلة . لقد ساهموا بأكثر صورة مادية فى هزيمة نفس الموضوع الذى كان من المقصود أن يؤثر فيهم .

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة دفاعه بأسلوب المدارس للنسبة العربية ، ولقد أثارت ، كعمل أدبي ، اعجاب مترجمنا « مستر سائتلانا » الى حد كبير ، وانى كنت أرى أنها أقرب لأن تكون تبريرا عن أن تكون دفاعا . ان الوضع الذى اتخذ بصورة فطنة يكاد يكون وضعا لا يمكن دحضه قانونيا وفنيا . وطوال كل « دراما » الثورة المصرية كان دوره هو بصورة واضحة كل الوضوح ، دور تابع يطيع وأمين ، وقبل رفع الستار ، كان قد صار رئيس تحرير الوقائع المصرية . ومع هذه الكفاءة من أول الأمر الى نهايته ، كان يطيع أوامر رؤسائه الشرعيين الذين كانوا يتعاقبون الواحد تلو الآخر على خشبة مسرح الأحداث . وتصبح روايته طريفة فقط عندما يصل الى موضوع آرائه وخبرائه الشخصية . وبالنسبة لاعفائه من مزاوله واجباته العامة ، فان نص تبريره هو الطاعة السلبية للسلطة القديرة وفى دفاعه عن سسلوكة كمواطن عادى ، يردد نفسه فى قياس بارع مقنع :

... ان وطنيتى ووطنية « سلطان باشا » واحدة ، وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، فقد اصبح « سلطان باشا » ذا لقب « سير » ، وحصل على مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه استرلىنى ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة واهلا للمناء عليها ١١٩ ٠٠٠ اذن يكون سلوكتنا علينا أهلا للمناء عليه ؟ فلماذا ياترى أزج فى السجن منغلغرا محاكمتى على وطنيتى بينما يصبح « سلطان باشا » حائزا رتبة الشرف الانكليزية وحاصلا على مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه استرلىنى ؟

كان تقرير « الشيخ محمد عبده » عن العلاقة الوثيقة بين « سلطان باشا » و « عرابى » عنصرا هاما فى تاريخ الحركة الوطنية ، وحتى زمن

« اعلان » عابدين لمطالب الجيش ، كانت وجهات نظر « الشيخ محمد عبده » معارضة تماما لوجهات نظر « عرابي » الذي كان يعتبره الرمز الناجح للآراء العسكرية البحتة ، وهو يقول ان الاجتماعات الشعبية المختلفة التي عقدت للمطالبة بوضع دستور للبلاد ، عقدت تحت رئاسة « سلطان باشا » ، وأعقبه قيام الدستور على الفور ، الذي غير وضع « عرابي » من قائد للجيش الى قائد لـ « مصر » ، وفي ذلك يكتب الشيخ « محمد عبده » : -

... أصبحت و « سلطان باشا » والبلاد المصرية قاطبة من أتباع عرابي ... ومن ذلك الوقت رايت يوما بعد يوم أعيان القاهرة وكبار العلماء والسيوخ ومشاهير الشخصيات في مصر ، دائما في خدمة « سلطان باشا » و « عرابي بك » . رايت « سلطان باشا » كريم الوفاة في بيته من وقت لآخر ، وعرابي بك وزملائه ، ولشيوخ مشهود لهم بالتقوى والعلم ، انتهزوا فرصة قيام عهد جديد فبدؤوا بتقديم التماس بعزل شيخ الاسلام ، شيخ الجامع الأزهر ، وكانت الصحف مجمعة على مدحهم ، وأكدت ان البلد مقبلة حقا على تحقيق حرياتها ، وان كل فئات الشعب كانت تصبح بدوح « عرابي » ، وكانوا يصفون الحركة بأنها مولد من جديد للبلاد ، بل لقد استدعى « شريف باشا » ، للفرافيا « اديب أفندي اسحق » ، وكان مديرا وعالما قديرا يعمل بجريدة عربية تصدر في باريس اسمها « مصر القاهرة » ، وكان معارضا دائما لـ « رياض باشا » ، على اعتبار انه رجل خان وطنه للانجليز ، وقابلت هذا السيد أول ليلة وصل فيها ، وسمعته يقول في اجتماع مكتظ بالناس : « ان عرابي بك قد حقق بالفعل عملا مجيدا » ، وكان هذا العالم قد عين رئيسا لقلم الترجمة بنظارة المعارف العمومية ، ثم رقى الى كاتب ثان بالجمعية المصرية بناء على طلب « سلطان باشا » نفسه .

وصار « سلطان باشا » يدعى الآن « أبو بلده » ، وكان موضوع أحاديثه الوحيد هو السيادة التي ليست في محلها : لأجنبي بيننا ، وبيننا كان يصيح « مصر للمصريين » كنت أنادي واعظا بالسلام والتآخي لقد وفئت وحدى ، بينما « سلطان باشا » وصحبه لم يكلوا أبدا عن التودد لعرابي . وفي الوقت الذي بقيت فيه في داري ، كان « أبو بلده » يعد الآن وليمة للضياف ، مودعا « عرابي » في طريقه الى « رأس الوادي » ، ويساعد « عبد العال » للسفر الى دمياط وصار عرابي ناظرا للجهادية وسط التصفيق الحاد لـ « سلطان باشا » وصحبه الذين عقدوا اجتماعا خاصا من الأعيان لتهمته « عرابي » على ترفيقته الجديدة . وسرت مرتين اشاعة ان « سلطان باشا » قد رضخ لضغط عسكري لا مبرر له ، ومرتين رجاني « سلطان باشا » أن أنفي في الجريدة الرسمية بشدة ، الوشاية المعيبة المعزوة الى شخصه باعتباره مواطنا صالحا .

ثم كتب « الشيخ محمد عبده » بعد ذلك عن أحداث الحرب يقول :

هل يقدر احد أن يشك في كون جهادنا وطنيا بعد أن أزره رجال من جميع الأجناس والأديان ، فكان يتألف المسلمون والاقباط والاسرائيليون لتجده بعماس غريب وكل ما أوتوه من حول وقوة ، لاعتقادهم انها حرب بين المصريين والانجليز ؟ ... انني لم أعلم

انه قبل ان الحديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاها . وبأمره ، وقد رسخ هذا الاعتقاد عندما علم الناس أنه أقال عرابى من منصبه لأنه لم يمثل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز أثناء لنزول غزاة من البحر .

وفي أثناء ذلك طفق العلماء يقرأون البخارى فى الأزهر ومسجد سيدنا الحسين . ويدعون بالنصر لعساكر « عرابى » وبالهزيمة للانجليز . وكان أمام الحديو الشيخ الصالح العالم « الابيضى » فى طليعة الملتهمين غيرة ووطنية ، فنشر قصيدة « ابراهيم دريد » فى غارة التثار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى « المنعم » وهى عبارة عن دناء وابتهاال ، وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه ، فكان من الناس من يقرأها ويتلوها بعد قراءة « البخارى » ، وقد طلب الى أن نشرها فى الجريدة (يقصد الوثائق المصرية) حتى يطلع عليها الجيش ايضا ، وقد كان عمله هذا مشروعا ، إذ أن من المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب اسلامية ضد الكفار . وعند رجوع الحديو الى مصر بعد انتهاء الحرب ، خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته !! .

وقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء وسائر أفراد الخاشية الحديوية - حتى النساء - بالخيال والحبوب والنقود اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة - غيرة وحمية فى جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة للجيش ولسائر الأشغال العسكرية .

وقد أرسل « عثمان باشا غالب » مدير أسيوط ، فى ذلك الزمن ، ورئيس بوليس العاصمة الآن ، بضعة ألوف من أراذب الحبوب من مديريته ماعدا الخيسول وغيرها من الحيوانات ، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء نظارة الجهادية وها هو ذا كما قلنا آنفا ، رئيس العاصمة بأمر بوليس الحديو ؟ ! .

وهذا شأن « خليل بك عفت » الذى تعين مديرا بأمر ناظر الجهادية ، فظهر غيرة ونشاطا استحق عليهما الشكر الجزيل فى الجريدة الرسمية ، وها هو ذا نراه الآن مدير المنيا ، بأمر الحديو ؟ ! .

وقد بذل من أذكر أسماءهم فيما يلى : أموالهم بسخاء فى سبيل الحرب ، اما مباشرة او بواسطة دواتهم وهم :

الرئيس « جميلة » ، أخت الحديو وحرم المرحوم سعيد باشا ، و « خيرى باشا » ، وصيف الحديو ، و « على باشا مبارك » ، ناظر الأشغال العمومية الآن ، و « يوسف باشا جندوى » أحد أعضاء لجنة التموين ، و « محمود بك » كاتب (أو أمين) أسرار الحديو و « حيدر باشا » ناظر المالية الفعل .

وأسماء هؤلاء وردت فى أعداد الجريدة الرسمية ، وإذا كانت سجلات المديريات لا تزال موجودة ، فيمكن استقراء ما تبرع به كل واحد منهم بالتحديد .

وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاها واختيارهم ، متسولين لمقاتلة الانكليز ، وقد شمل هذا الحماس الاقباط ، وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم ، وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بهدح عرابى ، وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا .

سوف تثق به وستنقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك ان اساطيل الدول في ميساء
اسكندرية ، وان عقول الناس في هياج وأن الحرب قريبة الوقوع بين الأوربيين وغيرهم ...
والآن ، فاختر لنفسك هل تخدم « عرابى » فى ضمائه هل تخدمنا ؟ »



« وفى يوم هذه الحادثة (١) ، توجهت الى السراى ، فرأيت موظفيها فى جدال عظيم
مما حدث ، وكانوا يبالفون فى رواية الأخبار ، ويضحكون من عهد « عرابى » بالحفاظة
على الأمن العام . ومن المعلوم ان موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت
الأخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا باخزن الكآبة جهدهم .

« وبعد اثنى عشر يوما من هذا التاريخ ، كنت فى الاسكندرية ، فسمعت الناس أجمع
يقولون ان المحافظ « عمر لطفى » سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد ، لأنه كان مقيما فى
البلد ولم يصدر أمرا بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة الا بعد مضى الوقت ، ولم يطلب
مساعدة العسكر النظامى مع أنهم كانوا على مقربة منه ، واجمع الناس على أن عمله هذا
مؤثر به من الخديو ، وعلمنا ايضا انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ
يتمشى من مكان الى آخر ، اذا بأوربى فى شباك وفى يده مسدس فقال له احد البدو :
'أومى هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له ارمه ، فاطلق البدوى عليه الرصاص فقتله ، وكثير
من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقاربه فى ذلك اليوم الأسود .

« وقد سمعت ايضا انه حرض بعض الناس اثناء المذبحة وشجعهم على ذلك وانه
اشار الى البوليس الا يتدخلوا قائلا : « خليهم يموتوا اولاد الكلاب » .

« ولم تسأل اللجنة التى تألفت للنظر فى أسباب هذه الفتنة « عمر لطفى » عن شئ .
مما حدث مطلقا ، بل كان الخديو قد أوعز اليه أن يستغفى بدعوى المرض .



« كان عمر لطفى محافظ الاسكندرية زمن الفتنة ، وقد أهمل أمر القيام بحفظ الأمن
العام عل أنه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه ، هذا اذا لم نقل أنه هو المعرض عليها ،
فاذا كان ما فعل اطاعة لأمر « عرابى » كما ادعى ، مع أن وظيفته تابعة رأسا الى الخديو -
لأن الخديو اصدر أمرا مخصوصا صرح فيه أنه بعد استعطاء نظارة محمود سامى ، أفضت
امور الداخلية وشؤونها الى السراى - فكيف كان تعيينه ناظرا للجهادية جزاء لطاعة
« عرابى » وعصيانته لسيده الخديو ؟ واذا كان الأمر اهمالا منه ، فكيف يصح مع اهماله
وعدم كفاءته تعيينه ناظرا للجهادية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالا واحدا على ما جرى مع انه
كان يجب ان يكون اول من يسأل ؟ .

« لا ريب فى أن استقراء سير الحوادث ، يظهر أتم الظهور ، ان الخديو ، بالاشتراك
مع « عمر لطفى » ، كانا سبب هذه الفتنة ، أى مذبحة الاسكندرية . »

(١) المقصود به : مذبحة الاسكندرية . (المحقق)

ان الحذر والخوف اللذين يظهرهما « الشيخ محمد عبده » ، بصورة مطردة ، يعطيان نقلا لما أعلنه حتى انه ليندر أن أجدهما فى أى تقرير قدمه شخص آخر فى موقعه ، وحتى يطرأ تغيير أساسى فى الظروف الاجتماعية للمصريين فلن نستطيع ان نحل لغز ١١ يونيو ، ومختلف المظان المتصلة به سنتظل موضوع رأى واحتمال ، ومع ذلك فانه من الصعب أن نعتقد أن شخصا مثل « الشيخ محمد عبده » ، الذى أسبق شكواه من أنه كان يبصق عليه فى السجن ، بتقديمه فروض الاحترام لسمو الخديو ، قد وضع مثل هذا المبدأ ، ما لم يكن عنده بالفعل استبصار عميق فى خبايا « مؤامرة قصر » مصرية . وهناك شئ واحد يمكننى أن أؤكدده شخصيا ، هو تأكيد الغير لروايته ، وهم الذين لم تكن لديه وسيلة ممكنة ليتصل بهم .

وفى مساء أول يناير ١٨٨٣ ، ودعت فى الظلام « الشيخ محمد عبده » ، الذى هرب اخيرا مع ثلاث سنوات نفى من مصر ، ومنذ ذلك الوقت ، سمعت أنه كان يعيش فى فقر وبؤس فى بيروت . واذا كان لمصر أن تسير وحدها أو أن تبدأ بداية طيبة ، فلا يمكن لها أن تتخلى بسهولة عن رجال أمثال « الشيخ محمد عبده » - عالما وصحفيا .

الفصل العشرون

كيف استجوب قومسيون التحقيق رفعت بك

لقد بدا على الفور أن وصول السجينين من « كريت » (اللذين سبقت الإشارة إليهما من قبل) قد أهد قومسيون التحقيق بحماس وغير عاديين . لقد قرروا فجأة أن يسيروا. قدما في شيء ، واننى أعتقد أنه من سوء حظ راحة بالهم تماما أن كان هذا الشيء هو الاستمرار فى استجواب « أحمد بك رفعت » السكرتير السابق لمجلس النظارة والذي كان يوما ما مراسلا لجريدة « الطان Temps » . ففى وقت مبكر من صباح يوم ١٦ نوفمبر ، تلقيت رقعة بالعربية موجهة من القومسيون الى « صديقنا المحبوب مستر برودى » تطلب منى الحضور الى القومسيون فى الساعة العاشرة .

وبعد أن قدمت التحية كالمعتاد من قهوة وسجائر ، دخل « رفعت » المسكين ، وكان يبدو بالغ العصبية ، واستراح على كرسى بجوارى ، ولقد تأكد لى أننى بمصافحتى لموكلى قد خرجت عن حدود اللياقة التى يلتزم بها الأعضاء . اننى لى أنسى على الاطلاق طرفة عين « اسماعيل أيوب » الخبيثة التى لا أخطئها ، وهو يخرج ، بصورة متعمدة جدا ، نسخة قديمة وقذرة جدا من جريدة « الطان » تحوى بالفعل مقارنة بعيدة عن أية مداينة بين الحضارة الفرنسية والأعيمة الانجليزية المنطلقة من قلم « رفعت » الوطنى . قال رئيس القومسيون موجها الحديث الى شخصى : « يا عزيزى ، بعل هذا ، أعتقد أن من واجبك أن تتخلى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل » ؛ وألقى بجريدة قديمة وقذرة جدا عبر بحر من الجوخ الأخضر يفصل بيننا ، وقرأت المقال ، وكتبت بضع كلمات

الخدويوية ، وحررت اذا هذا التبغراف ، ومن تأمل فى فحواء يجد أنه ليس ببيان أفكارى الخصوصية الذاتية بل بيان الحالة التى كانت عليها البلاد ، وأكرر أن ما قلته من تلك الحالة هى عين الواقع وقتها ، وأما من مخصوص عضوية سعادة أفندم باشا ، فولو أنه لا يمكن الادعاء أن لسعادته أختام على المحاضر أم لا ، انما كنت أعرف أن سعادته كان عضوا فى المجلس العرفى مثل باقى الدوات العظام حتى وانه فى يوم الجمعة ٣ شوال ١٢٩٩ هـ الموافق ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ م توجه سعادته معنا ومع سعادة رعوف باشا وسعادة عثمان باشا فوزى وسعادة اسماعيل باشا محمد وسعادة حسين باشا الدرمللى ، وبابور مخصوص بكفر الدوار للتبريك لعرابى باشا بالعيد ، وعند وصولنا هناك توجهنا جميعا لآخر خط الاستحكامات ووجدناها مستوفاة حتى وعند وجودنا ظهر وابور (انجليزى مدرع) من جهة الملاحه وكان يظن انه جاء لمناوشة (وكانت مدافعنا على استعداد لأداء عملها) فأدونا جميعا الحضور فى ذلك (بل أن سعادتكم شكوتكم وقتها من أنكم باعتباركم جنديا سابقا لم يسمح لكم بالمشاركة فى القتال) ، ولم نترك الاستحكامات للرجوع فى ثانى يوم فى الفجر الا بناء على اصرار طلبية باشا ، فكل هذا كان يؤيد أن سعادة اسماعيل باشا أيوب كان من أعضاء المجلس العرفى .

الرئيس : (يعرف كل شخص ، بمن فى ذلك جناب الخديو ، أننى ذهبت الى هناك . لقد كانت رحلة بهدف الاستطلاع) الجواب الذى قلته لم يكن موافقا للسؤال ، ففيه صراحة هل كتبت البند الذى نحن بصددته عن أفكارك خاصة أو بناء على تكليف بتحريره من أحد ؟

أحمد وفعت : عرضت أن ذلك أفكارى وأفكار الجميع فى ذلك الوقت وتحريره كان بعلم يعقوب باشا سامى ، اذ قال لى أن أبين الحالة كالمشاهد لى ، وجميع ما احتواه البند المذكور هو أفكارى ومعتقدى .

الرئيس : حيث أنك كنت ريس قلم المطبوعات ومن وظائف ملاحظة الجرايد الجارى نشرها ، فنشر فى جريدة « الطائف » وجريدة « المفيه » عبارة قذح وذم فى حق الحضرة الخديوية ، وقد تلى عليك جملتان مندرجتان بعددين من جريدة الطائف احدهما معنونة (فعل الخديوى) والأخرى معنونة (سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا)

ويوجد كثير خلاف هذين العددين فلم سمحت بذلك ولم تراع واجبات وظيفتك ؟

(أحمد رفعت : أطلعوني عليهما) .

(طرح عددان من الجريدة بدون تاريخ ، وكانت المقاتلان فيهما قد كلا الخديوي والانجليز) .

أحمد رفعت : أجاب بنوع خصوصي عما صار تلاوته وما شابه ذلك ، وبنوع عمومي عن كيفية قيسامي بوظائفي ، فمن جهة النوع الخصوصي أقول أن كل ما حرره الطائف وخلافه من الجرايد كان نتيجة هيجان الأفكار ضد الحضرة الخديوية وتأييد هذا الهيجان بالمجلس العمومي في الداخلية وتعتمد فيه توقيف أوامر سموها حين صدور الأمر من الاستانة ، وهذه الأفكار كانت حاصلة عند جميع الأهالي حتى الأطفال في الطرق وليست خاصة بجريدة أو جريدتين فقط ، وأما النوع العمومي ، فأقول اني من بعد صدور تلغراف سعادة راعب باشا بأن الحرب ابتشبت بين الدولة الانجليزية والمصريين وأن القطر صار تحت حكم القانون العسكري ، وبعد ورود افادة من الجهادية مقيدة في دفتار الداخلية بأن لا يدرج شيء بالجرايد الا بعد الاطلاع على ما بها ، فكتب أودي وظيفتي كالواجب وأعرض على المجلس العرفي أولا فأولا ما كنت أرى فيه أهمية ، وكان مطمح الأنظار عدم تحرير شيء يهيج التعصب الديني أو الطعن الشخصي الغير سياسي فقط حتى ، ولما رأيت في أحد الأيام « حسن أفندي الشمسي » حرر مقالة أدرك فيها عبارات تعصبية وطعن شخص عذوته رسميا أمام المجلس وانفصل من بعد ذلك من « المفيد » ، ثم ، وجريدة « الفسطاط » حررت مرة أخرى مقالة تحتوى على تعصب ديني محض ، فبحضور سعادة « بطرس باشا » و « عريان بك » وجميع أعضاء المجلس تقرر قفلها بناء على ما عرضته ، وبذلك أظن أني لم أقصر في أداء واجبات مأموريتي .

الرئيس : حيث أنك قلت أنه لما أدرج « حسن أفندي الشمسي » في جريدة « المفيد » مقالة مخالفة عذوته وكذوته رسميا ، وكذلك لما تعمدت جريدة الفسطاط حدودها تقرر بقفلها بناء على ما عرضه ، أما ما نشر في جريدة « الطائف » وخصوصا في العددين اللذين تليا عليك قلت ان هذا موافق لأفكار العامة حتى الأطفال ، فيعلم من ذلك أنك استحسنيت أنت أيضا عبارات الجريدة المذكورة ؟

أحمد رفعت : عرضت أن المجلس العام المنعقد بالداخلية الذي كان يحتوي على جميع وجهاء وأعاظم العلماء والذوات ورؤساء المذاهب المختلفة والبرنسبات ، قرر توقيف أوامر الحضرة الخديوية ، وقال في المحضر السابق ختمه من الجميع بأن الحضرة الخديوية خالفت الشرع الشريف والقانون المنيف ، وحيث أنني أحل أبناء هذا القطر . فكيف يمكنني أن أخالف الجميع حتى أخالف أفكارى وما أنا مشاهده وأجازى « الطايف » ؟

الرئيس : يعلم إذاً أن الذى تحرر ونشر بجريدة الطايف وقع عندك موقع القبول ؟

أحمد رفعت : حيث لم يمكنى فهم المراد من وقوع ذلك عندى موقع القبول فأرجو اقالتي من الاجابة عن ذلك لأن ما قلته فيه الكفاية .

الرئيس : لما سئلت أولا عن محاضر بعض جلسات مجلس النظار التي طلبها منك الجنباب الخديوى وامتنعت من اعطائها اليه قلت ان « أحمد عرابى » نبه عليك بعدم اعطائها وتسليمها ، فكيف مع وجود الحضرة الخديوية ومع كون أحمد عرابى ناظر جهادية وبه فقط تحتاج بهذه الحجة وتمتنع عن الادعاء لأوامر الحضرة الخديوية ؟

أحمد رفعت : سأجوب عن سؤال سعادتك ، انما أرجو أن يسمح لى بإبداء بعض ملحوظات تراءت لى عند اطلاعى على محضر استجوابى فى يوم ٧ و ٩ من الشهر الماضى حيث وجدت به بعض تحريكات ناشئة لابد من عدم تفهمى كما ينبغى أو من غلط حصل فى التبيين وهذه الملحوظات هى :

الرئيس : جابوب عن السؤال الذى سئلت عنه ولا تخرج عن موضوعه .

أحمد رفعت : (سأفعل هذا) لما اطلعت على صورة محضر استجوابى فى يومى ٧ و ٩ من الشهر الماضى ، وجدت أن السؤال المذكور فيه تحريف لأنه لما سألنى وقتها « بوريللى بك » بعلم واذن سعادتك جابوبته بأن الحضرة الخديوية لما طلبت منى أن أسلم لأحمود بك خليل المحاضر المذكورة وذلك بحضور «موسيو امبرواز سينارينو» و « وسبالا باشا » لم أقتنع بل امتثلت كل الامتثال ، انما حيث وظيفتى هى كاتب تلك المحاضر كان (عرابى) فى ذلك الوقت ناظر جهادية وبحرية الحضرة الخديوية ، فتوجهت ومعنى المحاضر قصد اخباره فقط (ثم أعطيها للحضرة الخديوية) (ولكن عرابى

أمرنى ألا أسلمها والا تحملت المسؤولية شخصيا لو فعلت) ،
وبدلا (من ذلك) أقدم صورها فقط ، فحينئذ حررت مکتوبا
بالحالة لمحمود بك خليل لأجل عرض ما حصل على الاعتبار
السنية واخبارى بما يصدر به المنطق الكريم نحو تقديم صور
مصدق عليها منا بمطابقتها للأصل كما هو جار حتى فيما يتعلق
بالمحاضر الرسمية ، هذه هي الحقيقة . وورد لى جواب منه
شغوى أنه لا لزوم للصور .

الرئيس : فى أحد الأيام كنت موجودا بأودة « حسين باشا الدرمللى »
بديوان الداخلية وجالسا أمامه على كرسى ، وكان حسين باشا
يقول لك انه بلغة أنه مندرج بجريدة افرنجية صورة تلغراف
وارد للحضرة السلطانية من جناب البرنس بسمارك (يهنئه فيه
على الحلف الذى عقد بين تركيا وألمانيا) يهنئه بوجود قوتين
يصادمان بهما من عاداه ، احدهما تركية والاخرى مصرية ،
(يمتنى) أن (يظل) العساكر المصرية منصورين والانجليز
دواما منهزمين ، وأن الانجليز استحضروا وابور مشحون كلاب ،
وأنه بلغه أن الجناب الخديوى تندم ومن كثرة الأفكار صار
ضعيفا جدا ، فجأوبته قائلا « لا قدر الله لو عاد الجناب الخديوى
لمصر فيقابل العالم بأى وجه ؟ ولو فرضنا المستحيل وحضر ، فهل
يجد له محل أو أوده يجلس بها ؟ » فهل حصل ذلك حقيقة ؟

أحمد رفعت : انى لم آكن مثلكرا .

الرئيس : موجود هنا رسالة مکتوب عليها فى أولها : « الجنة تحت ظلال
السيوف » ومطبوعة بالحجر ونشرت ، فحيث انك كنت رئيس
قلم المطبوعات ، فهل تعلم بها ، بصفتك المذكورة ، وهل ضبطت
بالبوستة أو بخلافها أم لا ؟

أحمد رفعت : لم أعلم شيئا بخصوص هذه الرسالة بصفتي مدير قلم
المطبوعات ، انما بلغنى أن نظارة الجهادية كانت أجرت ضبطها
من البوستة ، ومع ذلك يسأل من يعقوب باشا سامى عنها .

الرئيس : هل تعلم من أين حضرت هذه الرسالة ؟

أحمد رفعت : لم أعلم .

الرئيس : فى أحد أجوبتك السابقة قلت ان التهديدات التى كانت
حاصلة من الزمرة العسكرية سمع بها شخصان أو ثلاثة تعرفهم
ولم تبين أسمائهم ، فمن هم ؟

الثانية هي ترجمة التلغرافات التي وردت في شأن أخذ السويس ومكتوبة بخطي أيضا .

الرئيس : حيث أنك اعترفت أن الأوراق التي صار اطلاعك عليها انشئت عباراتها بمعرفتك وبعضها مكتوب بخطك ومختوم على جميعها منك ماعدا الصور ، فهل ما ذكر فيها هو اعتقادك وأفكارك أم مخالف لأرائك الشخصية وتكلفت فقط بالتحريير والختم عليها بالجبر أو بدونه ؟

أحمد رفعت : عرضت أن تحرير وإرسال تلك التلغرافات كان بناء على قرار وإستصواب المجلس العرفي أى أعظم ذوات ورجال الحكومة المصرية من عهد المرحوم محمد على باشا ومن الذوات الكرام المستجدين ، وأزيد على ذلك قولى أن لزوم المخاطبة مع الاستانة كان تقرر بالمجلسين العموميين اللذين انعقدتا فى الداخلية حتى وأن المجلس الأول الذى انعقد للنظر فيما يتعلق بلزوم دواعى التجهيزات تكلم بطيريك الأرمين وسعادة عبد اللطيف باشا فى شأن لزوم المخاطبة مع الاستانة ، وأما تعيينى عضوا فى المجلس العرفي فكان بناء على تخريرات رسمية وزدت لى من وكيل الداخلية الذى هو رئيسى الرسمى ، فلهذه الأسباب وبهذه الصفات ختمت أنا أيضا ولم أجبر على ختمها ولا على تحريرها ، بل كانت مطابقة وموافقة لأفكارى .

الرئيس : من ضمن ما ذكر بتلك الأوراق أن المجلس العرفي قرأه على سيد القنال ، فهل كان هذا مطابقا لأفكارك أيضا ؟

أحمد رفعت : نعم ، كان ذلك موافقا لأفكارى وكان من مقتضيات الحرب ، ولكننى كتبت متأسفا على هذه الضرورة .

الرئيس : ذكر أيضا فى إحدى الأوراق المحررة للمباين الهمايونى أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا اسكندرية واتهموا العساكر المصرية بذلك ، فهل كنت تعلم حقيقة أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا اسكندرية وألم تزل معتقدا ذلك أم لا ؟

أحمد رفعت : ما كنت أعلم أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا حقيقة اسكندرية وعددت نفسى سعيدا أن علمت أن ما نسب للعساكر المذكورين غير حقيقى ، ولا أظن أيضا أن العساكر المصريين هم الذين ارتكبوا هذا الفعل الشنيع .

الرئيس : حيث أنك ما كنت تعلم أن العساكر الانكليزية هم الذين أحرقوا اسكندرية ، فكيف أخبرت بذلك المابين الهمايوني ؟

أحمد رفعت : عرضت أن الاخبار كان بناء على قرار من المجلس العرفى ، وكان المشاع كنا ، فى ذلك الوقت .

الرئيس : الاشعار الذى أرسل من المجلس الى المابين الهمايوني بما نسب للانكليز كان بناء على اشاعة أو بناء على تلغرافات ؟

أحمد رفعت : يسأل عن ذلك من ريس المجلس العرفى ، أما أنا فما كنت أعلم هذه المسألة الا بناء على اشاعة .

الرئيس : حرق اسكندرية معلوم ومشهور ، وقلت فى أحد أجوبتك السابقة أنك علمت أن الانكليز لم يحرقوها ، ولا تظن أن العساكر المصريين فعلوا هذا الأمر ، فمن اذا الذى حرقها ؟ اذ أنه لا يعقل أنك تجهل من حرقها مع أنك عضو فى المجلس العرفى الذى تولى ادارة البلد زمنا مديدا .

أحمد رفعت : المجلس العرفى كان مستقره بالقاهرة والمواصلات كانت منقطعة بين اسكندرية وبين مصر ، وبصفتى الشخصية لم أعلم هذا الكتاب . أن الانكليز لم يحرقوا البلد الا بعد دخول الجيش وتحققت ذلك ملك الأستاذ الدكتور خاصة من المدعو « بلال أغا » تابع حرمنا باسكندرية الذى كان رمزي زكى بطرس هناك فى وقت الواقعة ، وليس من خصائى البحث بمن حرق اسكندرية أو معرفته .

الرئيس : حيث أنك قلت ان « الاغا » التابع لحرمك الذى كان باسكندرية أخبرك بعد عودته بأن الانكليز لم يحرقوا اسكندرية ، فطبعاً علمت أيضاً منه أو من خلفه فاعل هذا الأمر .

أحمد رفعت : لم أر الاغا المذكور ، انما تحقق نفى ما أسند للانكليز من جهة حرق اسكندرية ، بلغنى مذ كنت فى الضبطية .

الرئيس : فمن بلغك ذلك ؟

أحمد رفعت : بلغنى من خادمى الذى كان يحضر بطرفى هناك .

الرئيس : ألم يخبرك أيضاً عن الذى حرق اسكندرية ؟

أحمد رفعت : لم أسأله عن ذلك ولم يخبرنى ، كما أن معرفتى ما قلته آنفاً كان صدفة وليس بناء على استقهام منى .

الرئيس : مذكور فى احدى الأوراق التى اطلعت عليها واعترفت بها أن

المجلس العرفى تبه على محافظ السويس باخبار الاميرال الانكليزى الذى كان هناك أن الحكومة موجودة فى مصر ، فكيف مع وجود الحضرة الخديوية التى لم توجد المجلس المذكور تنبهوا على المحافظ المشار اليه باخبار الاميرال الانكليزى الذى حضر بأمر الخديوى أن الحكومة الرسمية هى الحكومة الموجودة فى مصر ؟

أحمد رفعت : عرضت أول أمس أن أوامر الحضرة الخديوية كان صار توقيفها بمقتضى قرار عموى صادر من أعظم العلماء والوجهاء وجميع المديرين ونواب الأهالى والبرنسات والرؤساء الروحانيين، فبناء على ذلك ، كانت الهيئة المسيرة أعنى المجلس العرفى هى بالفعل الحكومة الرسمية المؤيدة برضا جميع الأمة المصرية التى كانت تبذل الأرواح والأموال بدون مراعاة الاختلاف فى الجنس والدين للمجاهمة عن الوطن ، فبناء على هذه الأسباب كان حرر المجلس العرفى وبالجمله وأنا من ضمنه ، التلغراف المذكور (ومن قبله أرسل تلغراف الى الاستانة) وأما التنبيه على وكيل محافظة السويس (وهو ما تشيرون اليه) مصدر من طرف رئيس المجلس مباشرة .

الرئيس : هل ختمت على القرار الصادر من الجمعية التى ذكرتها فى جوابك السابق بإيقاف أوامر الخديوى أم لم تختم ؟ وفى حالة الإيجاب هل ختمت برغبتك ورضاك أو بالجبر ؟

أحمد رفعت : القرار كان باتحاد الآراء وباختيار الجميع حتى ومن ضمنهم سعادة يعقوب باشا جرى المعلوم انتسابه للحضرة الفخيمة الخديوية وبابا أحمد باشا ، وختمت برضاى بدون جبر وحصلت محادثة بينى وبين يعقوب باشا المشار اليه .

(الرئيس : تأجل الاستجواب الى الغد .)

وصلت الأمور الى ذروتها فى الجلسة المؤجلة . كم كان الوفاء سائدا ، حتى أن القهوة والسجائر قد استغنى عنهما ، وبدأ الرئيس بقراءة تقرير يبلغ فى حجمه حجم كراسية صغيرة brochure

الرئيس : علم من أجوبتك السابقة التى أبديتها وقت استجوابك فى أول دفعة أن التهديدات التى سمعتها والأحوال التى شاهدها نحو حريق اسكندرية وغير ذلك ، أثرت عليك حتى توقعت

حصول أمور في مصر من قبيل ما وقع في اسكندرية واتفقت مع « على باشا شريف » على الالتجاء بطرفه مع حريمك وأولادك من باب الأيتون ، وقلت أنك كنت خائفا من القوة « العسكرية » التي كانت تحت يد زمرة العسكرية لتنهوهم ، وأيدت قولك بما سمعته من يعقوب سامي بحضور ناس من تهديده اياكم بأخذ البوليس من مصر والمستحفظين والتوجه بهم لمحل المحاربة وترككم بدون حارس لكم ، ان لم تكونوا ، أعنى معشر الملكية ، يدا واحدة مع الجهادية ، ولاسيما قوله لكم انه اذا كانوا الملكية أعداء للجهادية من خلف العدو والآخر من أمام ، فيهلك هو وباقي رؤساء العصبة العدو الداخلي قبل الخارجي ، ولما سئلت أخيرا ، علم من أجوبتك أن الأقوال التي نشرت « بالطايف » بالقدح والذم في حق الحضرة الخديوية والعبارات التي اندرجت بها لتهميج الأفكار كانت موافقة لأرائك ، وكذلك التوقيع منك على محاضر الجمعيات التي انعقدت بالداخلية كان برغبتك ورضاك ، ووصفت ذلك المجلس العرفي الذي قيل عنه أنه كان آلة في يد الجهادية أنه هو بالفعل الحكومة الرسمية ، فما سبب هذا التناقص : هل كانت أفعال الجهادية تروءك مرة وتطمئنك مرة أخرى ؟

احمد رفعت : لما سئلت يوم الخميس عن مسئلة المحاضر التي طلب تسليمها مني ، كنت عرضت أن لي تصحيحات وكلام يختص بصورة محضر استجوابي في يومى ٧ و ٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، الذى صار وقتها بغير حضور موسيو برودلى المحامى عنى ، وما عرضت ذلك في يوم الخميس الا بالنظر لكون مسئلة المحاضر كانت من المسائل التي سئلت عنها في اليومين المذكورين ، فسعادتكم أمرتم وقتها بأن الكلام على وجه العموم في استجوابي هو خارج عن الموضوع الذى سئلت عنه وأن ليس لي الحق الا في التكلم عن المسألة الخصوصية التي وجهت الى ، أعنى مسألة المحاضر ، وبما أن السؤال الموضح أعلاه هو مستنبط من جميع أجوبتي المندرجة في المحضر المذكور الذى لي فيه كلام طويل مؤيد بأدلة وأثباتات ولى تصحيحات سايبينها على مهل وهنا بالتطبيق على ما أجبت عنه في يومى الخميس والسبت بحضور جناب موسيو برودلى ، فأرجو من سعادتكم اما أن تسمحوا لي أن أبدي ملحوظاتي وأبين تصحيحاتي فيما يتعلق بالصورة المحكي عنها وبعدها ان كان سعادتكم تصرون على توجيه السؤال المذكور

أعلاه ، فانا مستعد للإجابة عنه بكل الصديق والحرية ، واما
سعادتكم تتفضلوا بسؤالى عن أمر معلوم مادة فمادة ، وعند
الإجابة عنها أبدي تصحيحاتي أولا فأولا .

(الرئيس : يمكنك أن تفعل ذلك كتابة)

(مستر برودلى : هل ستشكّل جانباً من المحضر ؟)

(الرئيس : نعم)

(اعترض كثيرون من أعضاء القومسيون على هذا الرد ، فسحب
الرئيس تصريحه) .

الرئيس : السؤال الذى وجهناه لك صريح ، فإنيك سئلت عن التناقض
الموجود بين أجوبتك السابقة المقول فيها أنك كنت خائفاً من زمرة
العسكرية وبين أجوبتك الأخيرة المقول فيها أنك أجريت ما أجرته
برغبتك ورضاك ، فأفد عن هذا السؤال .

أحمد رفعت : عرضت فى جوابى السابق أن تصحيحاتي وكلامي ستكون
مثبتة بحقائق ، فلو رخصتم لى سعادتكم أن أبديها كما جرت به
العادة من إعطاء الرخصة لكل مسئول أن يبدي ملحوظاته ويتكلم
بالحرية بشرط عدم خروجه عن الموضوع ، فبوقتها يعلم لسعادتكم
من تصحيحاتي ومن كلامى الذى سيكون متعلقاً بحقائق ليست
منكرة أن ليس هناك تناقض ، فأرجو من سعادتكم أن تعطونى هذا
الحق الذى لم يحرم منه أدنى شخص مسئول فى أدنى قضية ،
وهنا بالنسبة لأهمية المسألة المسئول فيها ولزوم معرفة الحقائق .

الرئيس : لم يمنع أحد من المسئولين عن إبداء أقواله ، بشرط عدم خروجه
عن السؤال الموجه اليه ، فقل ما ترغبه فى شأن ما سئلت عنه ،
بحيث لا تخرج عنه حد السؤال الموجه اليك .

(أحمد رفعت : لقد أسيتت معاملتى اساءة بالغة وأنا فى الحبس ، ذلك
أن تتونجى لم أعرف اسمه (٠٠٠٠٠) .

(الرئيس : اسكت ، ليس هذا هو السؤال . كلنا يعرف أنه لم يشك
أحد من التتونجى سوى عرابى وعبد الغفار) .

(سير تشارلز ويلسون : ليس هذا هو الواقع . اننى أشعر أن من واجبي
أن أقول اننى عند زيارتى الاسبوعية كان كل أو غالبية المسجونين
يشكون من زيارة هذا الرجل ومن سلوكه) .

(الرئيس : يجب أن نبحث في طلب «مسيو بوريللي» ، فهو النائب العام)

(مستر برودى : اننى أتجاسر وأطالبكم بتسجيل هذا أنه نظرا لأن اتفاقات

مسيو بوريللي على هذه الصورة قد أغفلت ، فاننى أرجو من المحكمة الآن أن تلتزم بتعهدات « مسيو بوريللي الرسمية » .

(الرئيس : يستدعى مسيو بوريللي) .

(يحضر مسيو بوريللي متأخرا ساعة) .

(مستر برودى : هل التجيء اليك يا سيدى ، اذا لم تلتزم المحكمة

بتسجيل الاجابة الكاملة لشخص متهم ؟) .

(مسيو بوريللي : نعم ، ولكن يجب أن يكون موجزا) .

(الرئيس : اذن ، طالما أن النائب العام يقول هذا ، فيمكن لرفعت بك

أن يجيب) .

أحمد رفعت : لما صار نقلنا من حبس الضبطية الذى استشهد على حالتنا

به بحضرة الكولونيل ويلسون ، وحضرنا فى هذا اللحل ، وضعونا

كل واحد فى محل مخصوص منفردا وعليه خفر ، ولم يسمح لى

بمقابلة أحد من الخارج ، ذلك بعد ما صار من اهانتنا بواسطة

شخص ضابط عسكري علمت فيما بعد أنه أحمد أفندى كمال

الصاغور اغاسى المأمور فى حبس الدائرة السنية ، وتلك الاهانة

هى أنه طلبنا للنزول فى حوش الضبطية صار اخبارنا أنه لازم أن

تنزل حالا لو بقفاطين النوم ثم لما لبسنا تكررت المراسلة فى أثناء

ذلك ، وحصلت أيضا الاهانة المذكورة لحسين باشا الدرمللى وكيل

الداخلية سابق . نزلنا فوجدنا الأفندى المذكور ، مسكنا من ذراعنا

وقال : « دا مين ده ؟ » ، فأجبت بأنه أحمد رفعت ، فعهدها أمر

الجاويشية بغاية العنف ، وقال : « خدوا ده وحطوه هناك » ، وأشار

الى الصف الأول . هذه ، هى الاهانة لا تعد شيئا يذكر بالنسبة

لما حصل فيما بعد ، وبعد ذلك ، بقيت أتفكر فيما أخبرنى عنه

ابراهيم بل فوزى مأمور الضبطية اذ ذاك ، فى أول يوم حبسى ،

حيث كان أتى حضرته من منزل سلطان باشا مرعوبا ومصفرا الوجه

وقال اننا لا نتعشم فى اجراء أذى تحقيق بل حتى وان حصل

فسيكون تحقيقا ظاهريا يحجر علينا فيه عن التكلم بالحرية وان

الموت هو واحد سواء كان الآن أو فيما بعد ، وعندها محمود باشا

سامى ، قال انه متفكر فى قطع عرق من ذراعه ليموت بسهولة .

فقال له ابراهيم بك فوزى ، « انت والحالة هذه خسرت الدنيا ،

الفصل الحادى والعشرون

سليمان سامى ، المعترف

ان القول المأثور « الحقيقة أغرب من الخيال » قل أن يجده تصويرا أصدق من قصة « سليمان سامى » . وما من حادثة غيرها لها صلة بالمشاهد الختامية للمأساة التى لعب فيها « عرابى » الدور الرئيسى يمكن اعتبارها ذات أهمية درامية وارتبطت هى نفسها بتفاصيل القبض على « سليمان » فى كريت ، وما أعقب ذلك من تحوله الى معترف بجرمه approver فى القاهرة ، ثم ما كان من اعترافه المقتضب جدا الذى بموجبه حكم عليه بعد ذلك بستة أشهر ونفذ فيه الحكم على المقصلة التى أقيمت بسرعة وسط أطلال « الميدان الكبير » فى الاسكندرية . اننى لم أر « سليمان سامى » الا مرة واحدة . كان ابنا لـ « داود باشا » ، وكان من قدامى الموظفين المصريين ، وأحيانا كانوا ينادونه « سليمان سامى » وأحيانا أخرى « سليمان داود » ، وأعتمد أن اسمه الصحيح هو « سليمان بك سامى بن داود » . وما لا شك فيه أنه قام بدور هام فى العمليات الحربية فى الاسكندرية ، ولم يعد هناك أدنى شك فى أنه أشرف بنفسه على حريق جزء من الحى الأوربى فى المدينة . وعلى شاكلة كل ضباط الجهادية غيره فى مثل رتبته ، كان معروفا عند « عرابى » ، الذى كان قبل قيام الحرب على صداقة به كانت أقرب لأن تكون حميمة ، وبعد الهزيمة فى التل الكبير ، اختفى مع شخص يدعى « حسن موسى العقاد » ، وهو تاجر قاهرى ومن ملاك الأراضى ، وكان معروفا عنه أنه مختص باضرام الحرائق العمدية . incendiary ، وأنه متعصب وان كان فى الحقيقة سياسيا مصرية نشيطا ، وأما عن أمانته فهى مثار شك . وفى أسلوب

جنونى لا يمكن تعليله ، وجد الاثنان طريقهما الى « كريت » ، وهناك
أمكن التعرف عليهما على الفور وألقى القبض عليهما . لقد بدا من هروبهما
الطائش أنه دليل قاطع على اقتراف ذنب ، وقد أعادتهما الحاكم التركي
الى مصر بما يلزم ذلك الموقف من حزم .

وقد تصادف أننى كنت فى طريقة سجن الدائرة السنية عند وصول
السجينين ، وقد بدا وجه « سليمان » داكنا تماما من الخوف ، ولم يكن
محييا ، على ما أذكر ، جذبا بصورة فريدة ، وكان يرتدى معطفا عسكريا
كاكى اللون وحذاء جلده لميع ، أما « حسن موسى » ، فكان يرتدى عمامة
بيضاء فى لون الثلج ورداء ضيقا لاصقا بجسمه قماشه فى لون الشكولاتة
(وهو رداء أظهره فى شكل وجيه بجسمه النحيل ومحياه الزيتونى ،
وبوجه الذى كان وجها نمطيا للمصرى) وكان يبدو أنه لا يعير اهتماما
بالمرءة ، وكان ينحنى انحناءة باسمية تدل على معرفة لكل من كان يلتقى
به . لقد كان معتادا تماما على مثل هذا اللون من الحياة ، لأن حياته
كلها كادت تكون قد أنفقت فى القبض عليه وفى النفى . وقد وضع
القادمان الجديدهان فى زنزانتين متجاورتين ، بعد زنازة « عبد العال » ،
وبعد ذلك غادرت أنا السجن وأنا لا أدري تماما ما هو متوقع أن يحدث .

وفى ذلك الوقت تماما ، كان عملنا دؤوبا بصورة خاصة . كنت
أفحص كل شهادة كانت تصل الى أيدينا ، وكنا نكسر أقصى وقت ممكن
لدراسة نقاط معينة عن الشريعة الاسلامية والقانون الدولى باعتبار أنها
ستكون مفيدة فى المحاكمة المقبلة . وكان « لورد هنرى ليشوكس
Lord Henry Lennox » فى ذلك الوقت موجودا فى القاهرة ، وأعرب
« عرابى » عن رغبته فى مشاهدته ، ومع ذلك فقد رد « رياض باشا »
أن رفض طلب السماح بالدخول ، وكان هذا الرفض هو ما فضله
« لورد هنرى » . وقد حدث هذا فى اليوم الذى أعقب وصول الأربين
الاثنين ، وقد استنفذت بضعة ساعات فى استجواب لا جدوى من ورائه
لـ « رفعت بك » ، وقد بدا هذا الاستجواب الآن ، مرة أخرى ، غاية فى
الأهمية فى اعتقاد أعضاء القومسيون .

كان الوقت متأخرا فى المساء عندما شاهدت « عرابى » الذى أخبرنى
أن شيئا غير عادى قد حدث . قال انه ما أن غادر « سير تشسبارلز
ويلسون » السجن ، حتى اجتمع أعضاء القومسيون الذين كانوا قد
تفرقوا ، اجتمعوا من جديد ، وظاوا فى المبنى حتى وقت متأخر من
المساء ، وكان فى استطاعته أن يسمع بوضوح أنه سيعقد اجتماع فى
« المغرفة المجاورة » ، وقد اتضح أن الاجتماع استمر بدون توقف طوال غداة
ساعات ، ومن خلال شبابيك الحصار المسورة ، رأى أكثر من واحد من

رسيل القصر ممصطى الجيساد غادين راحين بين سجن الدائرة السنية
والقصر .

كان « عرابى » على علم بالموافقة التى حصلنا عليها والتى كانت
خاصة الآن بالسماح بالحضور ، وكانت لهذه الموافقة أهميتها فى تلك
الاستجوابات ، وهو لذلك تشكك على الفوز فى أن لعبة غدر تحاك .
وقد أكد « رفعت بك » ، كما أكد صاغ سابق عبوس فى سلاح المشاة ،
يدعى « خضر بك خضر » (وكان يشاركه زنزانته وكان متهما فقط
بالمشاركة فى مسيرتى مطالب الجيش pronunciamentos (١) اللتين
صدر عفوا عنهما) أكيدا تماما كل ما قاله « عرابى » . لقد سمع « رفعت »
من الحراس ، فضلا عن هذا ، أن « سليمان سامى » قد استجوب على
مدى ست ساعات متصلة . لقد طلبت من المساجين الثلاثة أن يكتبوا تقريرا
عن كل ما حدث ، وعدت الى دارى وأنا فى غاية من الانزعاج من هذا
المظهر الذى يدل على الاجحاف الذى أدركت أننا نعامل به .

وفى المساء ، علمت حقائق معينة ، لها صلة بعودة « سليمان سامى »
الى القاهرة ، مكنتنى من أن أتوقع ، وكلى ثقة ، الخطوة التالية من جانب
غربائنا ، أعنى ، السماح لـ « سليمان بك » بأن يدلى بشهادته كمتعترف
بالجرم الذى اتهم به . ومنذ اللحظة التى قدم فيها الى الاسكندرية حتى
وصوله السجن فى القاهرة ، لم يغب لحظة واحدة عن أعين أعوان الحديو
الغيورين : فقد أخذ مدير مديرية الاسكندرية فى عربة مغلقة الى محطة
سكة حديد نائية بعض الشئ عن المدينة حتى وضع فى ديوان خاص فى
القطار ، وأرسل الى القاهرة تحت العناية الشخصية لنائب مدير مديرية
الاسكندرية . ولم يدم توترنا طويلا ، اذ فى صباح اليوم التالى زاد
الطلب على العدد الصادر من جريدة الجازيت المصرية The Egyptian
Gazette بصورة لم يسبق لها مثيل ، اذ اشتمل على بيان كامل ، صحيح
وفريد ، أعلن فيه « سليمان بك سامى » أنه المتعترف على نفسه بأنه حارق
الاسكندرية ، وقد ملأ البيان المقصود ثلاثة أعمدة فى الجريدة ، وعلى
أساس أن « له تنمة » ، وفى اليوم الذى أعقبه ، نشرت الجريدة جزءا
آخر من البيان غطى عمودين أيضا ، وعلى أساس أن « له تنمة » أيضا ،
ولكن لسبب أو لآخر ، لم تظهر التنمة على الإطلاق منذ ذلك الوقت حتى
الآن ، ومن المحتمل ألا تنشر .

ارتفع الاحساس الحزبى فى القاهرة ، مرة أخرى ، وكاد حكم شرفة

(١) المقصود بهما مسيرتى : فبراير ١٨٧٩ فى نظارة نوبار عهد الحديو اسماعيل ،

ثم مسيرة سبتمبر ١٨٨١ فى عهد الحديو توفيق . (المحقق)

فندق شبرد يكون اجماعيا : قصة « سليمان سامي » يجب أن تعامل ، بطبيعة الحال ، على أنها لا رجعة فيها ، وأن مصير عرابي يجب أن ينظر اليه ، بناء على ذلك ، على أنه قد تقرر . وأن التتبع السطحي التام لآخر عمل بارع « لاسماعيل أيوب » ، ولو أنه تتبع سريع ، ليوضح القدر الحقيقي ، أو بمعنى أصح ، التفاهة الحقيقية للبيان الذي صدر عن « سليمان سامي » والذي يكاد لا ينتهي . لقد حاول كثيرا أن يبرهن ، وقد رأيت على الفوز أن ادعاءاته يعوزها تماما الاثبات . لقد ادعى « سليمان سامي » أن « عرابي » أمره شفويا ، في حضور كثير من الأشخاص لا يستطيع أن يحدد لهم ، بأن يحرق الاسكندرية ، كما ادعى أيضا أن عرابي أرسله الى قصر الرمل ليقتل الحديو ، ولكنه في طريقه التقى بـ « سلطان باشا » (ولم يكن قد حصل بعد على وسام K.C.M.G. (١) ، وكان لا يزال أبو بلده) كما التقى بـ « حسن باشا شريعي » ، وعند رؤيته لهذين الشخصين لام نفسه واعترف بنبوته الاجرامية ، وتخلّى عن تصميمه المنطوي على العقوق ، وعاد من حيث أتى . أما بالنسبة لاضرار النار ، فكان واضحا أن توكيده كان محالا ، ودليل الاشتراك المشكوك فيه لا يمكن أن يحمل ادانة كالتحريض على القتل . كنت قد حصلت بالفعل على شهادتي « سلطان » و « حسن شريعي » ، ولم تكن أى من الشهادتين تتضمن أقل تلميح لمثل هذا الحادث ، ولم تكن الشهادتان تحويان ، على الأقل شهادة سلطان ، أى أساس بتوكيده صحتها .

ومع ذلك ، فقد كان ضروريا اتخاذ بعض الخطوات لحماية حقنا الذي ضمنه لنا اتفاقنا مع « بوريل بك » ، لقد بعثنا بخطاب الى « اسماعيل بك أيوب » يتضمن العبارات التالية :

« لقد علمنا من الصحف السبابة أن شخصين يدعيان « سليمان داود » و « حسن موسى العقاد » استجوبهما القومسيون كشاهدين ضد موكلنا « عرابي باشا » ، وكان ذلك في عدم حضورنا وفي عدم وجود المتهم ، ومخالفا لشروط الاتفاق الذي وقع في ٢ نوفمبر ، الذي وقعه سعادتلو « بوريل بك » نيابة عن القومسيون .

« ومع احترامنا ، نحن نحتاج على هذه الانتهاكات لاتفاق يربط كل الأطراف ، وبالتالي فإن الاجراء الذي استخدم في أية مرحلة عند مناقشة المحكمة للدليل الذي أمكن التوصل اليه ، مخالفا لما ينبغي اتباعه ، ونحن نعتبر هذا الدليل كان لم يكن فضلا عن بطلانه . »

(١) هذه الحروف اختصار لوسام قائد فرسان كتيبتى القديس مايكل والقديس جورج ، وفيما يلي الاسم الكامل للوسام :
(المحقق) knight commander of Saint Michel and Saint George.

ولم يكتب لهيئة المحكمة أن تدوم فرحتها التي لم تخفها وهم
نتفكر في خيانه « سليمان سامي » ، اذ ان كثيرا من الأشخاص الذين
أشار اليهم بالوصف أو لم يشر كشهود ، واجهوه في نفس اليوم التالي
ولكنهم لم يؤيدوا ، أفرادا وجماعات ، هذه القصة . ناقض « حسن
شريعى » وهو فى السجن ، « وسلطان باشا » وهو فى قصره ، ناقضا
بصراحة معلوماته الرومانتيكية عن لقائه بهما ، الذى ادعاه ، على طريق
الرميل . وجدت أن أوروبا ، شديد العداء فى آرائه للحركة الوطنية كان
حاضرا عندما جاء وفد القومسيون لاستجوابه « أبو بلده » باحترام
عن الموضوع ، فرد « سلطان » على السؤال الذى وجه اليه بانكار قاطع ،
وقد علق الزائر الأوربى على ذلك قائلا : « وأسفاه ، ان اجابة مختلفة
ربما كانت قد حسمت الموضوع كله » . ترى هل كانت بعض شكوك
الضمير تؤلم ذهن « سلطان باشا » حتى فى الساعة الحادية عشرة ؟
أعتقد ذلك .

هناك اختلاف شاسع بين مبادئ الماسونية Freemasonry
وتطبيقها فى إنجلترا ، ومبادئها وتطبيقها فى القارة الأوربية ، فالمنهج
الانجليزى لا يضم شيئا أكثر اثاره من : البر Charity والصحة
الطبية ، والماسونية الأجنبية تكاد تكون ، بصراحة ، مجالا مناسباً
وملائماً للنقاش السياسى ولكلتا الحيرتين السياسية والدينية . وكلتا
العقيدتين ليس بينهما أى شىء مشترك بالمرة سوى قليل من الاشارات
الظاهرية والمنظورة التى تنقل الى أذهان الذين يستخدمونها معانى
مختلفة تماما . ففى مصر ، آراء ماسونية القارة ، بشعاراتها الجمهورية :
إخاء Fraternité وحرية Liberté ومساواة Egalité
كان من الواضح أنها حجت لزم على الأقل عنصرا انجليزيا كانت له
الغلبة مرة فى العديد من محافلها Lodges وبالرغم من أنه لم
ينتم أحد من زعماء الحزب الوطنى للماسونية ، فان عددا كبيرا من
تابعيهم كانوا من بين الأعضاء النشطين والمتحمسين . لقد كان الشيخ
« محمد عبده سيد محفله Mostre af his Lodge وقد هرع كثيرا من النواب
البرلمانيين للانضمام الى الطريقة ، لقد وجد « رفعت » (وهو « ماسونى »
أبضا) ، وكان عادة ما يصف المصريين الوطنيين بأنهم « متعطشون
للانصاف hungry for justice ، وجدا اغراء عجيبا فى الصلة
الصوفية التى كانت توحد كل الرجال فى رباط مشتركة من الحرية ،
وكان يؤمن بأن نفس الأداة التى ساعدت الايطاليين فى نضالهم من أجل
الحرية والوحدة ، ستساعد ماديا القضية المصرية .

ولابد لي أن أشرح الآن خروجي المفاجيء عن الموضوع ، وحديثي عن « الماسونية المصرية » ، اذ في كل فترة من فترات بقائي بمصر ، وبصورة أخص عند كل محنة شديدة كان يمر بها مصير « عرابي » ، تلقيت سيلا من خطابات غفلا من التوقيع تعطيني كثيرا من الأفكار القيمة ، وتحيطني علما بكل ما كان يحدث في معسكر العدو ، وكان الجانب الأكبر من هذه الخطابات تحمل اشارات لا يمكن أن نخطئها في أصل « ماسوني » ، وبعض هذه الخطابات جاءتنا عن طريق البريد ، وغيرها كانت تترك في مكتبي من أشخاص غير معروفين ، وفي ه سنة اللحظة الدقيقة التي أصفها الآن ، تلقيت النصيحة التالية :



أخي المحترم

انتصارا للحق اشرف باخباركم بما يأتي : وهو أن سلطان باشا صرح امام جملة اشخاص أن عرابي باشا لم يحرق الاسكندرية ولم يأمر بحرقها وأنه تحقق له ذلك حينما توجه لمغارة عرابي باشا في صرف العساكر المحتاطين بسرأي الرمل في يوم ١٢ يوليو ١٨٨٢ وأنه رآه وقتها واقفا عند باب شرقي في غاية الكدر مما حصل من الحرق والنهب وهو يوبخ العساكر على ما أجروه كل التوبيخ وأنه مولع نار شديدة وهو يرمي فيها كل ما رآه مع العساكر من النهوبات وأن سلطان باشا لما ساله عن تسبب في الحريق أخبره بغاية الكدر أن السبب فيه سليمان سامي .

وللتحقق مما ذكرته يمكنكم ان تتوجهوا تزوروا سلطان باشا بمنزله وتساووه عن ذلك وهو لا شك عندي في انه يخبركم كما أخبركم هذا ورجائي ان تحرقوا خطابي هذا بعد اطلاعكم عليه ومنى على اخويتكم السلام .

أخيكم



ان الانتصار القصير الأمد الذي كان مرجعه الى النجاح الذي كان متوقبا في استجواب « سليمان سامي » يبدو أنه شجع القومسيون على أن يتحدى ، صراحة كل اتفاق لنا مع « بوريللي بك » . وفي طريقي الى سجن الدائرة السنية صباح يوم ١٩ نوفمبر ، وجدت أعضاء القومسيون على وشك استجواب شخص مالطي مسن وخائن ، جاء فجأة وبعد غيبة عن البلاد بخمسة أشهر ، وقد جمع بعض العبارات التي تفوه بها عرابي أثناء ضرب الاسكندرية ، وادعى أن لها معنى مستترا وغامضا . في أول الأمر ، حاول « اسماعيل أيوب » بقليل من الاقناع أن يؤكد تأكيد أكبر على حقيقة أن صاحب السعادة الشاهد كان

« باشا » وأن « الباشا لا يمكن أن يكذب » a Pacha could not lie « وفيما يلي الحوار الذي دار بيننا :

الرئيس : نحن نقصد اليوم أن نستجوب شاهدا جديدا ضد كل المسجونين .

مستر برودلي : اننى أتجاسر وأقرر ان هذا لا يمكن أن يتم ما لم تسمحوا بحضور المتهمين اذ أن هذا مخالف للتعديل الذى أدخل على اجراءات المحاكمة التى وافق عليها بوريللي بك فى ٢ من نوفمبر باسم القومسيون والمعمول بها منذ توقيعها .

الرئيس : (القومسيون يرفض هذا الاتفاق) المتهم لا يمكن أن يحضر .

مستر برودلي : اننى أود أن أشير الى أن « مسيو بوريللي » قد ترك اجتماع القومسيون ليوثق الاتفاق ، وأنه قد وقع فى غرفة مجاورة فى حضور بعض أعضاء المحكمة ، فإن الرئيس هنأنى على انهاى للموضوع ، وان المحكمة عقدت لبضعة أيام لكى يكون الاتفاق نافذ المفعول in force وليعمل بمقتضاه ، ويجب أن أوضح أيضا أن « مسيو بوريللي » قدم لنا رسميا على أنه المستشار القانونى المفوض لدى نظارة الداخلية والقومسيون .

الرئيس : سنكتب الى مسيو بوريللي .

وبعد ساعة تأخير ورد خطاب .

الرئيس : بناء على رأى مسيو بوريللي ، يمكننا أن نستمر فى استجواب الشاهد ، وهذا ما سنفعله .

مستر برودلي : لما كنت لا أوافق على هذا الانحراف عن القواعد المتفق عليها ، فاننى أرجو أن تسمحوا لى بأن أقدم طلب نقض باعتراض كتابى ، وأن انسحب .

وفى صحبتة مستر سانتيلانا Mr. Santillana ، قمنا بزيارة طويلة لـ « عرابى » الذى يبدو أنه لم يتأثر كثيرا باتهام « سليمان سامى » له ، بقدر ما كان تأثره بالغ العمق لما عرف بالخيانة التى كان هو ضحيته . وما لبثت أن اقتنعت أنا بصدق التوكيدات التى ذكرها لى عرابى . أما عن ادعاء « سليمان » أن « عرابى » كلفه بقتل الخديو ، فقد ذكر على الفور استحالة استحالة جوهريه ، اذ قال عرابى : « لم

وعشرين كلمة قد أطلقت ، وبقيت هنالك حتى جاء « طلبه باشا » فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وذكر لنا أن الأميرال البريطانى يريد احتلال ثلاث طواب هى طوابى « المكس » و « العربى » و « العجمى » وأنه يريد قرارا بتلك النتيجة من الخديو فى الساعة الواحدة والنصف

« عقد اجتماع برئاسة الخديو بحضور « درويش باشا » و « فدرى بك » ، المندوبين العثمانيين ، وبحضور « اسماعيل باشا حقى » و « طلبه باشا » والنيظار ، وبعد تدبر الأمر ، استقر الرأى على أن يرفع الأمر للسultan ، نظرا لأن الفرمان الامبراطورى لم يعط للخديو الحق فى أن يتنازل عن أى جزء من مصر لأية قوة أجنبية ، وأن يعود « طلبه باشا » الى الأميرال لاحاطته علما بهذا القرار ثم أمرنى الخديو بعد ذلك بأن أبعث بجنود ليحتلوا طابية « العجمى » حتى يمنعوا نزول الانجليز . عرضت على سموه الصعوبات التى منعتنى من أن أقوم بهذا الاجراء ظهر عليه الغضب وقال « كيف تكونون جنودا ، اذا لم تستطيعوا أن تمنعوا العدو من احتلال بلادكم ؟ » ثم انفض الاجتماع بعد ذلك ، وبعد ربع ساعة ، بعث الخديو فى طلبى ، وفى حضور « درويش باشا » سألتنى عن السبب فى حضور أربع فرق بيادة الى سراى الرمل : لم يكن عندى علم بهذه الحقيقة ، وذكرت له ذلك وقلت اننى أفترض أنهم قدموا لتعزيز حرس القصر ، فقال انه لم تكن هناك ضرورة لحضورهم وأن الحرس الذى كان موجودا من قبل فيه الكفاية تماما ، وأن من الأفضل اصدار الأوامر ليتوجهوا الى مكان آخر . خرجت من حضرتة وسألت عن الضابط القائد لهذه القسيمة فاكشف أنه كان « على أبو هاشم » من الفرقة السادسة بيادة ، سألته لماذا قدمت الكنايب الأربعة . وبأوامر من جاءت فاجابنى أن « سليمان سنامى » هو الذى أمرهم بتعزيز حرس سراى الرمل ، فطلبت منه العودة الى موقعه ، نظرا لأن خدماته غير مطلوبة هنا ، وأن حرس قصر الرمل فيه الكفاية تماما .

« وفى الساعة الرابعة ، انصرفت متجها الى الاسكندرية ، وفى طريقى قابلت عددا كبيرا من الناس هاربين من المدينة ، وعند اقترابى من باب شرقى ، رأيت حشدا كبيرا من الناس خليطا من الجنود والمواطنين نازحين متجهين الى المحمودية مع زوجاتهم وأطفالهم ، وكلهم يصيحون ويسؤالون عن السبب فى كل هذا ، قال لى البعض ، أن الانجليز سيطلقون النار على المدينة ؟ وقال آخرون ان الضرب قد بدأ بالفعل .

العربات متجهة الى هناك ، بعث بأربع فرق لتعزيز الحرس ، وقد فعل هذا من تلقاء نفسه دون أن يتلقى أية أوامر بشأنها .

« وبعد أن بلغ « طلبه باشا » قصر الرمل ، تفرق الجند ، وتشرف بمقابلة سمو الخديو ، وصار مؤكدا ، بعد التحري ، أن الجنود ، لما قيل لهم ان الأهالي المدنيين والعسكريين فى الاسكندرية يغادرون المدينة فى حالة فوضى ، أدركوا أن هناك بعض المخاوف على القصر ، ومن ثم أحاطوا به . لقد شكرهم الخديو على ما فعلوه ، وبعث بـ « حسين بك الترك » ياوره ، مع « طلبه باشا » ليعبروا لى عن تحياته . لم يجدنى الرسول ، وقد عرفت هذا من « طلبه باشا » ، وأحاطنى علما بذلك عندما التقى بى أثناء النهار .

« ولما وجدت أن من المحال إعادة الجنود الى الاسكندرية ، وأن قلة منهم فقط كانوا فى « باب شرقى » ، وأن كثيرا من الضباط من بينهم « نسيم بك » مدير الساحل بالاسكندرية ، أخبرونى أن البوارج قد اقتربت من طابية « السلسلة » لكى تضرب ثكنات « باب شرقى » وتقطع عليهم خط الرجعة . عندئذ فكرت فى أنه من الضرورى اختيار مكان مناسب يلتقى فيه الجنود ، ولذلك أمرت ضباط مختلف الكتائب بأن يتوجهوا ، مع الجنود الذين يمكن جمعهم الى مكان مناسب على ترعة المحمودية ، وتوجهت مع « راغب باشا » رئيس المجلس فى عربته حتى القصر حيث تتلاقى الطرق ، أمام مدافن المسيحيين ، هبطت من العربة ، نظرا لأن راغب باشا كان متوجها لمقابلة الخديو فى قصر الرمل ، وتوجهت أنا مسرعا نحو الشرعة ، لكى أكون أول من تواجهه هناك ، وحتى أحافظ على النظام بين الجنود ، واستمرت القوات فى الوصول الى هناك ما بين الغروب وبزوغ الفجر . »

لو كانت المحاكمة قد استمرت ، لكان لبيان عرابى حجته الثابتة ، على ما أعتقد ، ولكان « ابراهيم بك فوزى » قد أدلى بشهادته ، ولاستطاع واحد يدعى « حسن أفندى الشمس » (١) (رئيس التحرير السابق لجريدة عربية اسمها « المفيد ») أن يذكر صراحة أنه فى وقت من الاوقات ، عندما كان المسجونين لا يزالون بضبطية بوليس القاهرة كان هو واقفا بالقرب من « عرابى » و « محمود سامى » عندما جاء « سليمان سامى » اليهما ، وكاد يكون وقوفه بالقرب منه هو نفسه ،

(١) انظر مذكرات أحمد بك رفعت .

الفصل الثانى والعشرون

كيف تولينا الدفاع عن محمود باشا سامى

بعده ظهر يوم ١٩ نوفمبر ، سعدت بزيارة لم تكن متوقعة تماما من مستر برودوى Mr. Broadway ، الذى كان لعدة سنوات موضع ثقة كطبيب أسنان فى خدمة الأسرة الحديوية . بدأ « مستر برودوى » حياته كجندي ، ولكنه استطاع من عدة سنوات مضت ، الخلاص ، بفطنة بالغة ، من الخدمة فى مختلف الأسلحة الجيش ، سعيًا وراء مهنة أكثر ربحًا وهى حشو وخلق أسنان عظماء المصريين . من الواضح أن زائرى كانت له شخصية طاغية ، وقد علمت بعد ذلك أنه كان قد شن حرب افتراءات مهنية طويلة ومكلفة ضد منافس له طبيب مارس عام كان يقيم قبائله ، وكان قد وصف نفسه على لافتة من النحاس لازالت معلقة ، لم تكن أكثر إثارة من لافتة مستر برودوى التى كانت تحمل عبارة « طبيب أستان غير عادى للأميرة الأم وكل أفراد الأسرة الحديوية » . لم يضيع مستر برودوى أى وقت فى الدخول فى موضوع زيارته ، اذ قال : « أريد أن تدافع عن « محمود باشا سامى » ، أنا أحمل اليك رسالة من زوجته ، ولكننى أؤكد لك أن هناك شخصيات أعظم وراءها ، وكنت مضطرا لأن أنزع شعار تاج الأميرة الحديوية من على المظروف ، ولعلمك ، زوجة الباشا هى نفسها أميرة من العائلة اليكنية ، ولم يكن لدينا فكرة عن أنه كان كبش فداء لبقية المسجونين ، بل ان الأميرة العظيمة الأم (١) قد قرع عزمها على هذا ، وكانت كل الاميرات الأخريات قد قررن أن يدلن برأيهن

(١) الأم المبعلة ، أم اسماعيل باشا (الحديو السابق) .

ل « لورد دافرين » عن « توفيق باشا » . أرجوله ، اقرأ هذا ، وناولني مظهروفا ممزقا (٢) يحوى مذكرة قصيرة مختومة حديثا ومكتوبة بالعربية على الوجه التالى :

انى زوج محمود باشا سامى اوكل مسيو برودلى الاوبوكاتى الانغليزى بالمحل الدفاع عن زوجى المذكور لدى مجلس التحقيق والمجلس العسكرى ان لزم حضور أحد المجلسين او كليهما وفوضت له بالأمس فى كل ما يتعلق بالدفاع عن زوجى تفويضا تاما واتحمل ساير المصاريف التى تلزم بهذا الغرض ادفع له من مالى وكلنا بذلك وكالة تامة بحيث يكون هاذو الورقة حجة تامة تنشر فى كل وقت وزمان وكتب بقاهرة مصر .

(توقيع) زوجة محمود باشا عديلة

وقد صدق زوجها على ذلك فكتب :

انى اصادق على قول زوجتى حضرة عديلة خاتم بقبول جناب المحب الأفوكاتو الشهمير حضرة الموسيو برودلى معاميا على فى القضية المنظورة على ،

(توقيع) محمود سامى ١٣٠٠/١٢/٤ هـ .

سألت مستر « رودويى » : « ولكن ألم يسبق ل « محمود سامى » أن دفع أتعابا لمحام وطنى يدافع عنه ؟ » فأجابنى مستر برودويى على الفور : « تقصد ليشنقه » واستطرد « يوسف كامل كان شحاذا منذ شهر مضى ، وهو غنى حتى الآن ، ولو شنىق الباشا فسيكون أغنى رجل فى الواقع » . ولم يكن أمامى إلا أن أعربت عن أسمى أن لن تكون الأمور بالغة السوء كما تصور ، ولكنه لم يكن ليقبل أى رفض منى ، وقال ان الأميرة عديلة قد أخذت على نفسها عهدا بأن تنقل زوجها وأنها ستتوجه الى « ليدى دافرين » اذا لزم الأمر ، بل وستلقى بنفسها تحت قدمى « لورد دافرين » نفسه ، ولكنك ستدافع عنه كما ستدافع عن « عرابى » . لقد وعدت بمطالبة « اسماعيل أيوب » بالتصريح باللائم ، وبعد ذلك علمت أنه فى نفس ذلك المساء قدمت زوجة محمود سامى ملتبسها تعظيما لوجهة نظرها ، الى « لورد دافرين » . لم يعد « اسماعيل أيوب » اذا صياغة للتل هذه البدعة فى تغيير المحامين ، ولذلك كان لابد من معالجة الأمر معالجة دبلوماسية . بعد ذلك بثلاثة أيام (يوم ٢٣ نوفمبر) بعثوا فى طلبى فى سجن الدائرة السنية ، وهناك التقيت ب « يوسف كامل »

(١) مزق المطروء ، لان مستر برودلى كما ذكر « برودلى » ، لزم من عليه شعار تاج الأميرة الخديوية . (المحقق)

فى حالته الصححية العادية (١) ، وهو يغادر زنزانه موكله بشكل لم يكن متوقعا . أخبرنى « محمود سامى » بعد ذلك أن المحامى المصرى حاول بصورة جادة أن يبحته على أن « يستعطف » القومسيون بالتوقيع على بيان بتجريم « عرابى » باستخدامه اللاشعري للراية البيضاء فى الاسكندرية . استدعانى « اسماعيل أيوب » لمقابلته فى غرفته ، وبطرفة من عينه لا أخطؤها ، سلمنى الخطاب القصير التالى :

جناب المحب المحتشم مسيو برودلى الأبوكاتو

حيث أن يوسف أفندى كامل الذى كان عينه محمود سامى محامى عنه تطلب منازله عنه التوكيل حيث اعتراه عيا وتقدم مكاتبة من محمود سامى يرغب تعيين جنابكم محاميا عنه ولكون التحقيقات الابتدائية مع محمود سامى انتهت وبمقتضى البند الأول من قرار القومسيون الرقم ١٢ نوفمبر سنة ٨٢ وأعلن جنابكم فى اليوم المذكور أن اتهم من بعد نهاية التحقيقات الابتدائية معه يكون له الحرية فى انتخاب أبوكاتو لمدافعه عنه . وحيث أنه انتخب جنابكم فالقومسيون لا يمانع فى ذلك اتباعا لمنطوق القرار المحكمة عنه .

رئيس قومسيون التحقيق بهصر

٢٣ نوفمبر ١٨٨٢

خانم اسماعيل أيوب

ثم شاهدت بعد ذلك جهود زوجته المخلصة لم تذهب هباء (٢) ، فمن يوم القاء القبض على زوجها ، نقلت كل أثاثها الفاخر من غرفتها ، وكانت تجلس مرتدية خيشا وسط رماد كدلالة على فرط حزنها ، وكانت تعيش فقط على أمل عودته ، بيد أن الصحف الوطنية الموالية للقصر ، أخذت ، فى قبضة مهذبة ، تكثف من حين لآخر فى نشر قصص رومانتيكية عن حزن الزوجة على زوجها الغائب الذى وجد مفاتن جديدة بين جميلات سيلان Ceylon (١) . ان المقصود بمثل هذا الحب المنزه تماما عن أى غرض لا يمكن أن يكون انسانا قاسيا لا قلب له ، كما يصفه أعداؤه .

(١) هذه العبارة لم يكتبها المؤلف (مستر برودلى) جزافا ، وإنما أراد أن يوجه نظر القارئ بطريقه غير مباشرة ، إلى أن المحامى المصرى (يوسف كامل) لم يكن مريضا على الإطلاق ، كما ادعى ذلك اسماعيل أيوب فى رسائله المختصرة إلى برودلى ، والوجود على نفس هذه الصفحة . (المحقق)

(٢) أثناء المحاكمة فى القاهرة ، ذكرت الصحافة المصرية من حين لآخر أن زوجة محمود سامى قررت الانفصال عنه وطلبت الطلاق ، وليس هناك من شيء فى هذا الخبر يثبت للحقيقة على الإطلاق (المؤلف) ، وإن كنت أرى من سياق ما سردته المؤلف من خلاص الزوجة لزوجها ما يدحض ما سمعته المؤلف من شائعة لا شك أنها مغرضة تماما . (المحقق)

(١) سيلان هذا الاسم القديم لجزيرة جمهورية سرى لانكا Sri Lanka (المحقق)

كانوا قد استكملوا كتابة دفاعهم ، وكان الوقت يمر ببطء شديد ، وكانت القراءة المتسعة لما تصدره الصحافة المصرية الشهيرة الموالية للقصر (التي صار فيها عرابي الآن متهما اتهافا صريحا ببيعته لبلده للانجليز في التل الكبير) كانت تسبب الكثير من الغم حتى عارضتها . وسمحت لبعض من مترجمينا أن ينقلوا الى العربية مقتطفات من صحفنا الانجليزية التي كانت لديها الجراءة في رؤية القضية المصرية في ضوء الصواب والخطأ . وقد نشرت صورة في جريدة الأنباء المصورة Illustrated News شجعت المسجونين تشجيعا كبيرا . لقد زيلت بهذه العبارة « اعداد اليهود لمحاكمة عرابي » . وليس هناك من شيء أكثر صدقا من الحياة . لقد مثلت الصورة الفلاحين ورجال البوليس والجنود والضباط والباشوات ، وأخيرا وليس آخرا ، الريف بأسره the sticks ، كانوا ممثلين في هذه الصورة ، في حين كان كاتب قبطنى يجلس على الأرض وهو مشغول بتسجيل اعترافه . لما رأى عرابي هذه الصورة قال وهو يتنهد : « آه ، لو كنت أصدق أن الناس في انجلترا سيفهمون هذه الصورة ، لشعرت بالسعادة ، انهم سيرون فيها ما كنت أعنيه عندما كنت أصبح بلا جدوى مطالبها بالانصاف » .

في هذا الوقت ، تعددت لقاءاتنا بشخصيتين كان مقدرا لهما ، بعد ذلك ، أن يكتنبا عن مصر من وجهتي نظر مختلفتين ، اننى أشير بعبارتي هذه الى : « مستر ماكنزى ولاس Mr. Mackenzie Wallace » المراسل المشهور لجريدة التايمز Times في القسطنطينية ، والثاني « مسمو جبرائيل شارم Mr. Gabriel Charms » ، وكان وقتها يمثل جريدة كانت يوما ما لها نفوذها في مصر وهذه الجريدة هي « جريدة المرافعة Journal des Debats » وكان « مستر ولاس » شخص لا يكل في بحثه عن الحقائق ، وقد حاول ، في اخلاص ، أن يساعد ما أمكن ، في التعرف على مستقبل مصر من خلال ملاحظاته واقتراحاته المبنيّة على خبرته ، وقد وضعت تحت تصرفه أوراق عرابي ، وأعطيته كل المعلومات التي تمكنت من الحصول عليها فيما يتصل بتاريخ القضية التي كان يخارب من أجلها ، ولا شك أنه سمع من الطرف الآخر أكثر مما يمكن أن أقوله . وكان من الواضح أن « مستر ولاس » لم يتردد في الوصول الى قرار . ان ما أسماه أول الأمر « ثورة عسكرية تافهة an insignificant military revolt » ثم أسماه بعد ذلك « عصيان عسكري كبير a great military rebellion » ما لبث أن رآه بعد ذلك لا هذا ولا ذاك . لم يكن اختيار عرابي الا اختيار تقدير من البلاد بأسرها لقيادة حركة وطنية تماما ، نابعة من مفهوم واع ، وتميزت من بين مثيلاتها

الأخرى من الحركات باجماعيتها unanimity وشموليتها universality (١)

وباختصار ، يعترف « مستر ماكنزى ولاس » ، بصراحة جديرة بالفخر ، بأن كل مصر كانت مع عرابي ، وأن عرابي كان على رأس مصر كلها . انبنى أرحب بهذه الشهادة المحايدة عن وطنية عرابي الخالصة هو وصحبه ، وكم كنت أود أن اتفق مع « مستر ولاس » ، قلبياً ، بالنسبة للنتائج الأخرى التي توصل اليها . لقد أنصف مستر ولاس عندما أقر بحسن صيت عرابي الذي ، بعد أن كانت كل ثروة « جنة الفردوس » بين يديه ، لم يكن لديه من شيء ليتنازل عنه لأعدائه المنتصرين سوى بضعة فدادين ورثها عن أبيه كانت تدر عليه دخلاً لا يصل الى مائتي جنيه سنوياً . انه في اعتقادي أن لو كانت لدى « مستر ولاس » نفس الفرص لدراسة شخصية عرابي كنتلك الفرص التي أتيج لي الكثير منها ، لتعرف فيها على خصال أبعد سموا وأكثر واقعية من تلك الحصال التي يختص بها حالم أحلام أو مشرثر بأحاديث سطحية .

أما « مسيو جبرائيل شارم » ، فقد كانت له وجهة نظر مختلفة تماماً ، فمن رأيه أن عرابي قد فشل في ضرب الانجليز ، ونتيجة لذلك صار من المناسب معالجة الموضوع برمته كما اعتبرنا من « عرابي » و « الانجليز » ممقوتين وأضحوكتين في نظر الشعب الفرنسي العاطفي . لقد كان هذا الحكم متوائماً مع حالة « مسيو شارم » الذهنية وقت كتابته له ، اذ سبق له أن مجد في جريدته وفي كتاب أصدره ، معجد السياسة العسكرية لمواطنيه الفرنسيين في تونس ، وان كان ذات اسم تونس قد صار ، رغم جهود « شارم » ، اسماً مكروهاً من أقصى فرنسا الى أقصاها . لقد سبق لـ « شارم » أيضاً ، لسنوات طويلة ، أن استخدم قلمه في نراة نادرة ، في مساندة نظام كان معروفاً يوماً ما في مصر باسم الرقابة الثنائية Dual Control ، ولكن اذا كان « عرابي » عدوها الموعود قد هزم ، فلقد كان من الواضح أنها هي الأخرى مترنحة في سقوطها . وفي روح من الاثارة الطبيعية جدا ، جمع « مسيو شارم » لمجلة العالمين الاثنين Revue des Deux Mondes (٢) مادة لرواية كان يسره أن يدعوها « العصيان العسكري في مصر » (٣) . وعلى غير شاكلة مستر ولاس ، ولم يهتم مسيو شارم ، بل لم يسع وراء حقائق معتمدة ، اذ

(١) انظر : د . ماكنزى دلاس : مصر والمسألة المصرية

Dr. Mackenzie wallace : Egypt and the Egyptian Ggestion,

لندن ، ماكميلان وشركاه ، ١٨٨٣ .

(٢) مدد ٥ أغسطس وأول سبتمبر ١٨٨٣ .

(٣) وعنوانها بالفرنسية : Insurrection Militaire en Egypt

انه لتشويه صورة عرابى والانجليز ، كانت الوسيلة الأكثر فعالية هي الاعتماد فحسب على قلم جاهز وخيال خصب لا يثير شكوكا .

انه ليكفيننا مثل واحد لايضاح الطبيعة الواقعية لرواية مسيو شارم ، اذ انه يطالب الشعب الفرنسى أن يصدق.. فى جدية رزينة ، القصة التاللية عن علاقات « سير تشارلز ويلسون » بالحكومة المصرية فيما يتصل بموضوع سوء معاملة الأشخاص المتهمين فى السجن ، فهو يكتب : « ذات يوم ، وصل سير تشارلز ويلسون الى النظارة فى ثورة سخط وقال متعجبا : « انك وعدتني أن لن يتعرض المساجين للتعذيب ، ومع ذلك فقد حاقت بهم قسوة فريدة فى طابعها . لقد حرمتهم من الرقاد أثناء الليل بطوله ، فجنودك كانوا يمشون فى الردهات جيئة وذهابا بأحذيتهم الثقيلة ، ومن ثم فقد حرم على كل واحد منهم النوم . كيف تظن أن منهما تحت مثل هذه الظروف يمكن أن يجمع شتات أفكاره ويعد دفاعا سليما ؟ » (١) .

« وفى نفس المساء ، تلقى الحراس امدادا من الشباب ، وطولبوا بأن يتحركوا فى هدوء . وفى اليوم التالى ، عاد « سير تشارلز ويلسون » ، وقال « انه دائما نفس الشئ ، عرابى لا يستطيع النوم ، فزنايته منخفضة ورطبة وباردة ، وصحته فى خطر بالغ » ، وفى الليلة نفسها ، انتقل عرابى الى غرفة شاهقة الارتفاع ، جيدة الدفء ورجبة ، بمعنى آخر جديدة بنزيلها . وفى الصباح التالى ، كان « سير تشارلز ويلسون » مرة أخرى فى نظارة الداخلية ، وقال متعجبا : « أنت تتظاهر بأنك تنفذ اقتراحاتى ولكن سلوكك يبقى بلا تغيير . ان مرتبة عرابى حشنة جدا بكل تأكيد حتى أنه لا يمكنه النوم عليها » . وعلى الفور ، وضع على سرير عرابى أنعم مرتبة صوفية ، ومرة أخرى ، جاء « سير تشارلز ويلسون » ثانية ليوجه اتهاما ، اذ قال : « اننى أقر أن المرتبة جيدة ، ولكن ليست عنده ستائر الناموسية ، فالناموس الذى يثر طوال الليل حول رأسه يمنعه من كل تركيز فكري ويعوقه عن اعداده لدفاعه » ، فعلمت ناموسية فى غرفة عرابى ، ومع ذلك لم يكن « سير تشارلز ويلسون » راضيا ، ومرة أخرى قدم الى نظارة الداخلية وقال فى تعجب : « الآن ، أنا مؤمن بتعمدك ، انك مصمم على ألا تدع عرابى ينام بأى ثمن ، فناموسيته بها ثقب من خلالها تدخل الحشرات بسهولة أكثر من دخولها الغرفة ذاتها » . فتغيرت الناموسية ، ومع ذلك ، لم يكن « سير تشارلز ويلسون » راضيا ، فقد عاد مرة أخرى ، وقال فى تعجب : « يجب أن

(١) مجلة العالمين الاثنين ، عدد سبتمبر ١٨٨٣ ، ص ١١١ .

تعلم أن عرابى الآن وحيد ، وأن زوجته تريد أن تراه من حين لآخر .
 انها فى الواقع سلسلة من التعذيب لحرمانه من مفاتيح عيشته الخاصة
 les charmes de son intérieur . ان زيارات زوجته له ستكون
 سلوى وعزاء له معا . وفى تلك الليلة تسلمت زوجة عرابى الى زنزانه
 زوجها . وهنا تتوقف معلوماتى ، ولكننى أعتقد أن هذا الكولونيل
 الشجاع أحس بأنه مظهر من مظاهر الاجحاف أن لا يسمح لعرابى بشغل
 كل نساء حريمه الى السجن . ان الرياء الانجليزى وحده هو الذى منعه
 من أن يقدم طلبا قد يثير خجل الكثير من السيدات الانجليزيات اللاتي
 كن يتجمعن فى أعداد غفيرة فى القاهرة على بعد خطوات من سجن عرابى .

وليست بى حاجة لأن أقول انه ليست لأية كلمة من هذه القصة
 الطريفة ، أساس من الواقع ، كما أننى لا أظن أنه من الضروري أن
 أكرر مرة أخرى ذكر اسم « مسيو جبرائيل شارم » اللهم الا للرد بالمثل
 على قذف كان يظنه ملائما ، مع افتقار الى شهامة لم تكن نتوقعها من
 فرنسى له شهرته وذكاؤه ، لينهال به على سيده انجليزية (١) .

(١) المقصود بهذه السيدة : مسن ناير Mrs. Napier (زوجة مستر ناير ،
 المحامى الثانى لـ « عرابى ») التى كانت قد جاءت من انجلترا خصيصا لتشهد محاكمة
 عرابى ، ولما دخلت قاعة المحكمة كانت تجلس قبالة عرابى وكانت معها باقة ورد ، وشتمتها
 على مكتب أمامها ، وكانت تنوى أن تبعث بها الى عرابى بعد انتهاء المحاكمة بقدرا منها
 لهذا البطل ، ولكن شاءت الظروف أن جلس بالقرب منها رجل لم يكن لها سابق معرفة
 به ، وإذا بهذا الرجل يضع الباقة فى يد السجن فظان انها هى التى وضعتها فى يده ،
 وتكهرب الجو ، وكان « مسيو شارم » من بين مراسلى الصحف الأجانب الحاضرين لمحاكمة
 المحاكمة ، فألف عنها قصة بعيدة عن الحقيقة وصف فيها مسن ناير بالوفاة وبأنها ظهرت
 بمظهر عجوج (انظر تفاصيل الحادثة فى نهاية الفصل الخامس والعشرين من هذا
 الكتاب) - (المحقق)

الفصل الثالث والعشرون

مشروعات للمصالحة

كان الأسبوع الذي أعقب أول لقاء عمل مع « محمود سامي » مقادرا له أن يشهد كلا من بداية ونهاية محاكمة عرابي ولم تظهر في الأفق أية دلالات خارجية عن قرب أو توقع جل . أما ما اعتدنا عليه من تبادل الرسائل والاعتراضات مع أعضاء قومسيون التحقيق فلم يبد أى مظهر من مظاهر فتورها ، ولكن ابتدعت عراقيل جديدة - وكانت تمارس بقصد عاقبة دخولنا الى المسجونين ، بل ان « اسماعيل أيوب » أكد لنا بصورة جادة أنه لا يمكن بأى حال أن يقر بالسلطة الملزمة بتنفيذ الاتفاق المبرم مع مسيو بوريللي ، بالرغم من أنني في الوقت نفسه الذي قال فيه هذا القول ، كان معي في جيبى خطاب رسمي يذكر ضمنيا أنه أبلغ بالاعتراف بهذا الاتفاق اعترافا تاما .

وكان « عرابي » في انتظار « النطق عليه بالحكم » بثقة وبمزيد من الصبر ، وكان يقضى وقته سعيدا بما فيه الكفاية في القراءة أو الكتابة . أما « عبد العال » و « طلبية » ، فكان كلاهما مريضين مرضا حادا الى حد ما ، وكان أولهما يعانى من « حمى خبيثة » انتقلت اليه من مستنقعات دمياط ، وأما الآخر ، فكان يعانى من « ربو » مزمن من زمن طويل ، وكثيرا ما كنت أعتقد أن « طلبية » لن يعيش ليغادر مصر منفيًا ، ولقد تولى جراح انجليزى (١) علاجهما من مرضيهما مع عناية لم تفتر ، في

(١) الجراح المقصود هو الميجنور وورن Major warren ، وكان دكتور جاكسون Dr. Jackson من فرقة لورد والسلي Lord Wolseley قد زار عرابي وطلبية ، عدة مرات في عابدين قبل أن يسلمها انفسهما للسلطات المصرية .

سلطة السلطان غائبة ، والقرار التسلطي Fiat لنظارة الجهادية العثمانية Grand Sereskérat لم يكن حتى مطلوباً على الاطلاق ، كما أن مكانة مختلف الأعضاء المؤلفة منهم المحكمة لم تكن تصلح لتشكيلها التشكيل القانوني ، بل إن بعضاً منهم (بما فيهم الرئيس) قد استجوب فعلاً كشاهد ضد المتهمين أمام « اسماعيل أيوب باشا » على اعتبار أنه « قاضى احالة » Committing magistraite .

ولكن لم يكن هذا هو كل شيء . نفس أساس المحكمة العسكرية كان قاصراً ، إذ في ١٧ سبتمبر أصدر الخديو محمد توفيق ، في وقار ، أمره العالي بالتسريح الكامل للجيش المصرى l'armée Egyptienne est dissoute ، وبعد ذلك بعشرة أيام ، وبأمر عال ثان ، شكلت المحكمة العسكرية التي سيمثل أمامها موكلونا . ويعلن القانون العثماني بوضوح تام أن « الخدمة العسكرية وقت الحرب active service هي الخاصية المطلوبة من كل فرد عضو في محكمة شكلت وفقاً لهذه المطلبات . وإن محكمة عسكرية وجيشاً سرح يمثلان أمرين لا يستقيمان تماماً ، ومن ثم فلم يكن أمراً مستغرباً أن كان النظر في إنجلترا في حيرة حول هذا الموضوع ، ولا بد أن هذا التعجب قد بلغ الذروة مما اضطر سير ادوارد ماليت Sir Edward Malet الى أن يبعث (في ١٤ نوفمبر) بالتلغراف التالي :

« أخبرني تگران باشا Tigrane Pacha أن المحكمة العسكرية التي شكلت لمحاكمة عرابي وغيره من المسجونين » ليست مشكلة طبقاً لأي سند قانوني is not instituted under any legal code اللهم الا بمرسوم خديوي بمقتضى حق سموه ، وليس هناك بند في القوانين لعقد محكمة عسكرية ، ولكن هناك فقط بند بدعوة المجالس العسكرية لمحاكمة مذنبين عسكريين » .

ومن ثم ، كان هذا التلغراف مستنداً كافياً لبدء دفاعنا بحجة داحضة ضد مشروعية المحكمة وتشكيلها . بل لقد وجدنا عندنا دفاعات أخرى نستطيع أن ندعم بها موقفنا وهي : هل كان لانجلترا ، وإقده قبلت مرة استسلام عرابي لها كأسير حرب ، الحق في أن تسلمه الى أية سلطة أخرى غير سلطتها لتحاكمه تلك السلطة عن أفعال اقترفها في ميدان القتال ضد إنجلترا ؟ هل يمكن لأية محكمة عسكرية مصرية مثلاً (حتى ولو كانت مشكلة تشكيلة شرعياً) أن تدينه أو تدين أى فرد آخر ، لاستخدامه الراية البيضاء بصورة خاصة للأضرار بالقوات الانجليزية واينائها ؟ وانجلترا لن تدعى ، بكل تأكيد ، أنها تعمل « مع » الخديو .

في نفس الوقت عندما كانت طوابي الاسكندرية ، امتثالاً لأوامر الحديو ، كانت ترد ، ما أمكنها على نيران البوارج الانجليزية ؟

اننا يمكننا القول أننا كنا في موقف أحسن عندما لم نعارض في أربعة اتهامات معينة موجهة لموكلينا قصد « مسيو بوزيللي بك » أن يعتمد عليها أساساً : أولها على القائمة : « الاستخدام اللا شرعى للراية البيضاء مخالفاً بذلك القانون الدولي Law of Nations » ومن الغريب أن « بوزيللي بك » ، وهو المحامي الممتاز الى حد بعيد ، لم يدرك الفكاهة - العريضة المكشوفة ، البدهية - لمثل هذا الاتهام .

اذ قال بصراحة : « لقد كانت نكتة سخيضة un mauvaise plaisanterie » ابتدعت لتدخل عليكم السرور أيها الانجليز . لقد اعترف بوزيللي أنه كان عاجزاً تماماً عن أن يفهم بموجب أية سلطة قانونية ، يكون للمحكمة العسكرية الأكثر ريبة في تشكيلها ، أن تصدر حكمها على أمور لا تعلم بها الا شعوب على صلات مودة فيما بينها comity of nations ، وعلى علم بالقانون الدولي jus gentium ، ولكن لم يكن هذا هو كل شيء . اننا يمكننا أن نتساءل : « ألم يكن رفع الراية البيضاء في الاسكندرية (مساوية لرد المدافع المصرية على هجوم الأسطول الانجليزى ؟) . لقد لقي موافقة على الفور من قبل الحديو ، الذى تحت قوة الظروف يندد بهذا الفعل على أساس أنه منهم به ؟ هذه الحادثة التاريخية : حادثة رفع الراية البيضاء لا شك أنها أثارَت الى حد كبير « لورد ألكسندر » الذى ظن أنه قد خدع بها ، بيد أن نفس تبرمه الطبعي كان من الواضح أنه غير كاف لأن يضع الفعل الذى كان يشكو منه ، فى عداد الجرائم . ان الأجيال المتلاحقة من المشرعين كانوا يجدون دائماً مبرراً مشروعاً فى أن « الحرب خدعة » deceit in warfare . وأعلنوا أن ابراز راية الهدنة ليس مجرد عائق لأداء مثل هذه الأفعال ، على اعتبار أنها يمكن أن تؤدى قانونياً أثناء استمرار العدوات ، مثل سحب فرق أو جلب تعزيزات ، وبالمثل ، فان وجود مثل هذه الراية لا يستتبع أى التزام بالتوقف عن أى هجوم من جانب المتحاربين الذين فى مرمى نظرهم رفعت الراية . اننى أمسك عن اقتباس أى رأى من مراجع كثيرة لكبار الثقات القانونيين حول هذه النقطة الثابتة البرهان كل الثبات ، فيما عدا أحدتهم ، والذى ربما يعلم أكثر من يعتمد عليه منهم وهو « سير جارنيت ولسلي Sir Garnet Wolseley » ، الذى صدرت له ليلة سفره فى طريقه الى مصر ، وبالضبط ثلاثة أسابيع الا يوماً واحداً بعد ضرب الاسكندرية ، صدرت له الطبعة الرابعة من كتابه

« كتاب الجيب للجندى Soldier's Pocket Book » (١) فهو يصف فيه بدقة السلوك النمطي لحامل راية الهدنة على أنها « عملية لكسب الوقت » ، وفيها يكاد يعيش نشيطا في تنظيمه الدقيق للشراف ، ويتباطأ في رزانه « أثناء قيامه بالخدمة » ، « ويترجل متظاهرا بالبحث عن زلط في حوافر جواده » ، هذا ما يجب عليه أن يمارسه ليحقق نجاحا ، وهو يقول : ان القائد العام (٢) « يجب ألا يسمح للحظة لآية أفكار انسانية لا معقولة أو زائفة أو أية أفكار عاطفية عن الشهامة أن يكون لها تأثير على قراره . لا ترجىء للحظة واحدة أية حركة أو أية عملية قد تشترك فيها ، لأن العدو قد بعث اليك براية هدنة ، فقد يكون « هدنه هو كسب الوقت » ، حتى تصله تعزيزات أو تغيير جناح أو تنفيذ حركة التفاف » . وبعد بضعة أيام من نشر « كتاب الجيب للجندى » ، أعطى « سير جارنيت ولسلي » لرجال الصحافة بالاسكندرية مثلا فريدا في الاستفادة من أن « الحرب خدعة » . هل حقا أن ما قام بتدريسه جروتويوس Grotius وفاتل Vattel أقره « لورد ولسلي » في القاهرة من رفع الراية البيضاء لا يعد جريمة لمجرد أن المصريين مارسوه ؟

يكفي هذا القدر عن حادثة الراية البيضاء ، وعلى أية حال ، لقد امتزج بها بصورة بارعة ، حريق الاسكندرية . هذا الاتهام ، يمكن أن ينظر اليه في ضوءين واضحين : اما على أنه فعل استراتيجي كان لا بد منه أو أنه نتيجة حرق متهور بعيدا كل البعد عن أى تفكير عسكري . أما بالنسبة للنقطة الاولى ، فيمكن أن يقال الكثير في الدفاع عنها ، فالإتلاف في الحرب devastation in war مسموح به مثلما هو مسموح بتخديم الحرب ، فتدمير المدن وإتلاف الحقول أمام أى عدو غاز أو عدو مترقب وصوله مؤكدا ، كل هذا لقي بالمثل مشروعية سامية في الأحداث التاريخية السالفة ، بل ان هذه الأمثلة متناثرة بكثرة على كل صفحة تقريبا من صفحات مادونه تاريخ الحروب العصرية . ولم يكن « عرابي » محظورا عليه أن يقول شيئا بالكرة ، ولكنه منذ البداية أنكر في وقار الاتهام كله . لقد كان عبء البرهان على أعدائه ، وقد فُشلوا جميعا في أن يشبهوا بالحجة اتهامهم له . لقد كان في استطاعة « عرابي » أن يقدم

(١) عنوان الكتاب بالكامل هو : « كتاب الجيب للجندى في خدمة الميدان The Solidier's Pocket Book for Field Service » لندن ، ماكملان وشركاه (١٨٨٢) ، ص ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .
(٢) في الاصل الانجليزي للكتاب ، اختصر المؤلف عبارة « القائد العام » في ثلاثة حروف هي G.O.C ، اختصارا للرتبة العسكرية ل :
General Officer Commander (in chief)
(المحقق)

دليلا قويا في تبرئته لنفسه exculpation ، ولعله لم يكن في حاجة الى تبرئة ساحة نفسه ، ولكنه لو لم يفعل ذلك لبقى موضع شك في أمره الى الأبد . وعن موضوع مذابح ١١ يونيو لم تظهر أية بادرة لبرهان ، ومناقشة هذا الموضوع أكثر من هذا ليس الا ضياعا للوقت ، لأنه كان شكلا ، وبصورة قاطعة ، قد صرف عنه النظر .

وقد بقي فقط اتهام واحد من هذه الادانة المخططة تخطيطا عجيبا ، وهو الاتهام الذي وصف بـ « صور شتى : الاتهام » بالعصيان ، وهو الذي يوصف مرة على أنه « تسبب في اشهار المصريين للسلاح في وجه الحديو » وتارة على أنه « استئناف للحرب بعد خبر السلم » وتارة على أنه « اثاره حرب أهلية والقيام باتلافه الأراضي المصرية » وخط دفاعنا عن هذا الجزء كان واضحا ولا غموض فيه : فلقد كان « السلطان » بالنسبة لـ « عرابي » سيده his suzerain (أو كما قال مستر جلادستون Mr. Gladstone : حاكمه his sovereign) ، وكان « الحديو » رئيسه المباشر وممثل سيده أو حاكمه ، وقد بدأت الحرب بعد تفكير مترو وبالاتفاق المشترك بين « الحديو » ونظاره المسئولين و « درويش باشا » رسول السلطان . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، ان « الحديو » وقد أصبح في حصانته أو تحت حمايتنا ، ينقض قرار الحرب . ان ذات وضعه جعل كل أفعاله وأوامره في ذاتها ipso facto ، لاغية وباطلة null and void (١) . لقد صار الآن « رئيس دولة في الأسر » ، ومع ذلك فلقد كان هناك سبب اضافي لعدم اعتبار أوامره ملزمة أو فعالة . ان الاتفاق المشترك الذي حول سلطة البدء بالعداوات ، كان ينقصه التصديق على « نيا السلم » ، وحتى لو كان « لا يزال عميلا حر التصرف » ، فإن قراراته كانت تتطلب تأييد تصديق مجلس النظار ، ولكن نظاره كانوا لا يزالون متشبثين بقراراتهم الأصلية ، وأعلنوا استمرار الحرب بتلغراف طاف مصر بطولها وعرضها . ولقد كانت أفعال « عرابي » التي تلت ذلك دستورية تماما ، وقد رضى لارادة الشعب بأسره ، كما عبرت عنه الاجتماعات الوطنية الكبرى التي عقدت في القاهرة ، وحاكمه « السلطان » ، لم يظهر أية دلالات على رفض وقف الحرب ، وعندما أعلن الحديو (وكان من وجهة النظر المصرية ما زال أسيرا) عزل « عرابي » ، كما أعلن أنه عاص ، كان ذلك فقط على أساس أن مقاومته كانت عديمة النفع لغزاة وطنه ، ولم تصل لعنة السلطان anathema الى

(١) انظر : كالفو Calvo : القانون الدولي ، Le Droit International ، مجلد الرابع ، ص ٣٥٤ ، باريس ، ١٨٨١

مصر الا متأخرة فى ذات الأيام القليلة الأخيرة من النضال ، وكان هناك ما يدعو الى الشك فيما اذا كانت قد أذيعت رسميا بالمرّة . وبالإضافة الى هذه الحقائق ، عندنا الوصايا العامة التى وصلت عرابى بقرار من السلطان ، وفيها أوصاه بأن ينقذ مصر من أن يصبح مصيرها مصير تونس ، وأن يحميها بأقصى جهده من كل تعد على الحقوق المقدسة للخليفة . ولم يكن عرابى من الناحية القانونية « عاصيا » ، ومن الناحية السلوكية كان الاسم الوحيد الذى يمكن أن يطلق عليه هو افتقاره الى النجاح فى مهمته . وكان طبعيا جدا أن ينعتة الانجليز تماما مثلما اعتاد الفرنسيون من سنة مضت أن ينعتوا التونسيين بأنهم « عصاة insurgents » .

ولو أن القضية حكم فيها الى نهايتها ، لكان من واجبا بالتأكيد أن نحاول (أملا مقابل أمل) أن نرسى دافعا أعرض . لسلوك عرابى على الشريعة الاسلامية الغراء ، يكون ملزما بمثل لكل من شخصه وقضائه المسلمين . لقد كنت أشك أحيانا اذا كان حتى ولاؤهم الجديد انخالص يمكن أن يكون برهانا ضد ادعاء مثل هذا ، ان التبرير الكامل الذى يمكن أن يستند اليه عرابى من بين مبادئ القانون الدولى فى أوربا ، كان قادرا على معالجة ترفع أكثر فعالية وعلى ايضاح أكثر تنوعا فى ضوء تلك القوانين الدولية القديمة التى كانت قد أسسها هى البند الأول فى الثقة عند كل من « عرابى » ومتمهيه . « وعرابى » من البداية كان سلوكه فيه التزاما تاما بواجبات المسلم الحق ، فى حين أن من تجمعوا الآن ضده قد انتهكوا كل سنة من سنن العقيدة .

ان أحد الملامح المميزة للقانون الأوروبى هو سيادة السلطة العسكرية على السلطة المدنية زمن الحرب ، وطالما أن القانون العسكرى قد أعلن ، فان الأول ، بناء على المبدأ الرومانى القديم عن السلطة المطلقة *imperium* يطفى على الثانى والمفهوم الاسلامى لحالة الحرب مختلف تماما ، ومن ثم يكون الحكم على سلوك « عرابى » أثناء المعركة استنادا الى الدستور الاسلامى الصارم . وطبقا للمبدأ الاسلامى ، فان السلطتين المدنية والعسكرية ، لا يمكن التفكير ، على الاطلاق ، فى أنه ليس هناك من وفاق بينهما ، فكلهما له وجوده ، وكلاهما يمكن أن يعمل فى مجاله الصحيح من أجل الصالح العام والأمن العام للبلاد . ان من يعين قائدا للجيش له سلطة عليا مطلقة على الادارات الاخرى للدولة ! ويخول المقائد فقط انهيمنة الكاملة على العمليات العسكرية . هذا المبدأ غريب فى ذاته ، ويبدو أنه استنادا اليه تقرر بالفعل قيام حكومة مؤقتة فى القاهرة . وكان عرابى الشخص الوحيد الذى حول بادارة القوات ، ولكنه لم يكن ديكتاتورا على

الإطلاق ، بالمعنى التشريعى والسياسى للكلمة : اذ كان بجانبه ويرأسه مجلس الأعيان الذى استمد منه سلطته ، واليه كان يقدم بيانا عن أفعاله والذى (أى المجلس) احتفظ لنفسه بالرقابة وبادارة الاعمال المدنية للحكومة المصرية .

كانت أعظم قوة لدفاعنا ، فى المظهر القانونى البحث ، يماثلها تنوع الظروف التى كان لا بد لنا من أن نستغلها فى الحث على تخفيف الأحكام extenuation . لقد كان فى استطاعتنا أن نظهر بصورة قاطعة أن نضال « عرابى » القصير من أجل استقلال مصر ، ربما كان أشهر حرب انسانية عرفها تاريخ العصور الحديثة ، والتى يمكن أن تقارن بصورة كريمة ، بالعمليات الحربية للاجناس الأكثر تطورا والاكثر حضارة ، والتى أعطت بأنصاف ، قائد الوطنيين المصريين المنهزم الحق الشرعى فى أن يعطف عليه اعداؤه المنتصرون . لقد سبق أن أسرت اى سلوك عرابى ، أما « على فهمى » ، فقد بذل هو الآخر كل ما فى وسعه ليحمى مسيو دوشير Mr. De Chair أثناء سجنه فى مصر . لقد اعتاد أن يزوره يوميا وكان يبعث اليه بوجبات كانت تعدها له زوجته من بيته فى المدينة ، بل كان يزوده بملابس ثلاثم حرارة صيف مصر .

وكان كرمنا بالغا من « مسيو فردناند دلسبس Mr. Ferdinand de Lesseps » أن يبعث الى بملف كى أستعين به ، اذا لزم الأمر ، يحوى كل التلغرافات التى تلقاها من « عرابى » عندما كان فى الاسماعيلية ، الى جانب نسخة من خطاب كان قد بعث به الى « مستر بلنت » . وفيما يلى ما يقوله مسيو دلسبس عن عرابى :

« عندما كنا معا فى مصر فى أوائل العام ، كان عرابى نائرا للجهادية ، وقد تمت بزيارته فى مكتبه مرة . واثاء زيارتى له ، كان يحيط به كبار أهالى القاهرة ، وكانت ساحة قصر النيل تعج بالفلاحين ، بل ان غرف الانتظار كادت تكون مزدحمة بصورة غير مريحة ، وكان يبدو مثالقا اسمى مكانة فى تقدير الشعب له . وفى مساء نفس ذلك اليوم شاهدته فى المسرح يحتل مكانا فى المقصورة الحديوية بجانب الحديو .

« واثاء الحديث الذى دار بيننا ، اعتاد أن يقول الكلمات التالية : « اننى اعرف يا مسيو دلسبس أنك تعشق دائما « الحرية » و « التقدم » وهما الشيطان الوحيدان اللذان أريدهما لوطنى » . قابلته ايضا فى حفل اقامه الفندق الجديد New Hotel بمناسبة عيد الاستقلال الأمريكى ، عندما كان يرد على تشكرات الحديو .

« عدت بعد ذلك الى فرنسا ، ولم أعد الى مصر مرة أخرى الا بعد ضرب الاسكندرية ، ومن ذلك التاريخ حتى احتلال القوات الانجليزية للاسماعيلية لم أر عرابى قط ، اذ ان

الى التغاضي عما فات وان تتخلص من « كابوس » محاكمة عرابى بأى نمن .
لقد كان لدى سبب قوى فى الاعتقاد بأنه كانت تحت ألمانيا على الوساطة
فى « داونج ستريت Downing Street (١) بوجهة نظر تجنب ما هو
أشد رهبة وهو « نشر غسيل السياسة القذر » فى مصر .

وكانت الحكومة المصرية فى هذه الفترة أيضا ، قد وصلت الى
نفس رأى . وبعد ما كاد يكون متزامنا من فشل محاولة « محمود سامى »
فى مصالحة « عرابى » ، وفشل محاولة القومسيون فى انتهاك قواعد
المرافعة ، أبلغ « شريف » صراحة أن عقوبة الاعدام لن تنفذ على الإطلاق .
ولقد نقل « سير تشارلز ويلسون » الى « لورد دافرين » بأمانة :
الطبيعة غير الحاسمة للدليل الذى اعتمد عليه الاتهام الذى لا يعمل أكثر
من أن يؤيد ضد المتهم تهمة « العصيان الناجح ضد الخديو » . لقد كان
القلق الكبير الذى يلقى بال مجلس النظار المصرى الآن هو اخراج
« العصاة » من البلاد « جملة en bloc » (كتعبير الخديو هو نفسه)
بأسرع ما يمكن . و « رياض » لم يراجع نفسه أبدا فى مبدأ « لورد
دافرين » ، الذى أنكر فيه ذاته ، عن موضوع حقن الدماء ، وكان من
الواضح أنه ضعف من اللحظة التى أدركه فيها ، وكما سنرى بعد قليل ،
أنه بعد ذلك بعشرة أيام اعتزل العمل وتفرغ للحياة الخاصة .

لقد كنا ، نيابة عن المتهمين ، ميالين بالمثل للاتفاق على أى مشروع
معقول للمصالحة . اننى مقتنع بأن مصير المسجونين كان يتوقف كلية على
انجلترا ، وأن انجلترا لن تتدخل بالمرّة الا بالأسلوب الذى سبق أن
أوضحته ، وأن اطالة المحاكمة سيجر مصاريق باهظة ، من المحتوم أن
تنتكس الى شجار منهك ، وسينتهى بعد ذلك بصورة غير مرضية لموكليتنا
عن الحل الذى يمكن أن نتوقعه بصورة معقولة من ترتيب بالغ الأهمية
« خارج نطاق المحكمة » .

ويوم الاثنين ٢٧ نوفمبر وجدت ، نتيجة لذلك ، أن كل الأطراف
المهتمة بهذا الأمر فى مثل هذا الاطار من العقل وفى مثل هذه الحالة من
الرأى لتحقيق آمال قوية لحل سريع عن طريق المصالحة ، أما عن كيف
أن الحكومات البريطانية والمصرية والتركية ومحامى المسجونين ، اتجهوا
جميعهم فى هذا الاتجاه من التفكير ، فهذا ما سأحاول أن أوضحه .

(١) المقصود به « الخديو توفيق وشريف باشا ورياض باشا . (المحقق)

أصيب الثالث المصرى (١) بخيبة أمل مريرة وقاسية ، ولكن « شريف » ما لبث أن عقد عزمه على قبول ما هو محتوم بأحسن صفح ممكن ، وأما « توفيق » فقد وجد لفترة بعض العزاء فى مزاج بسيط مع الصحفيين الفرنسيين ، بينما آثر « رياض » اعتزال السياسة لفترة وأخذ يدبر الأمور فى صمت . وكان البديل الوحيد عند « لورد دافرين » فى بحثه عن ناظر له هو أن يختار بين ما يظهره « شريف » من أمانة فى العمل ووضوح يكاد يكون وضوحه كوضوح الشمس ، وبين ما هو واضح تماما بما عليه « نوبار » من تفاهة ونفاق ودماثة خلق bonhomme . وفى حكمة اختار أن يتمسك بأولهما . وقد تميز « لورد دافرين » بلطفه وألفته ورقة حديثه وبراعته فى أن يخفى عن الأنظار ارادته العنيدة وعزمه القوى على أن يشق طريقه وحده ، وكان أسلوبه فى معاملة النظارة المصرية أشبه بضغط يد حديدية تلبس بقفاز من المخمل ، اننى أعرف أن هذه العبارة مبتذلة بعض الشيء ولكن ليس هناك من تعبير آخر يسعبنى ليعرض تماما الفكرة التى أريد أن أنقلها . لقد أحس المصريون ، بذلك ، بلمسة اليد الحديدية ، ولكن القفاز المخملى حرمهم من كل قوة للشكوى . كان لورد دافرين يصغى بصبر عجيب لقصتى عن معركتنا مع قومسيون التحقيق ، وحتى يقرأ قراءة متمعة ، طلب منى أن أوافيه بمذكرات موجزة عن مختلف ملامح قضية عرابى والدفاع الذى اقترحنا أن نقدمه . لقد ركز تركيزا كبيرا على عجز الرأى العام عن أن يؤثر فى أية صورة على عمل وزارة الخارجية البريطانية ، ولكنه جعلنى أدرك بوضوح تام ، عن طريق الاستنتاج ، النقطة التى كنا نأمل فيها أن تعضدنا . . اننى أذكر أنه أطلعنى يوما ، مصادفة ، على رسالة من « لورد جرانفيل » عبر فيها عن رأى مؤداه أن « طول مدة الدفاع يجب ألا تترك لنا » ، فأحسست أيضا ، بطريقة تكاد تكون لا شعورية ، باليد الحديدية داخل القفاز المخملى .

ومن المواهب الخاصة التى وهبها الله لذهن « لورد دافرين » ، قدرته العجيبة على « التوفيق » و « التراضى » ، أما عن كيف أن موضوع المصالحة قد قفز أخيرا على السطح ، فهذا ما كنت عاجزا عن أن أذكره . اننى أعتقد أنه نشأ عن تلميح عابر الى اقتراحات « بوريللى » أيام مراسلته لى مستخدما صيغه القديمة : « عزيزى » و « زميلى العزيز » ، وحتى الوقت الذى كنت أكتب عنه ، لم أذكر كلمة واحدة عن الموضوع الى « عرابى » الذى كان ينتظر محاكمته فى هدوء وثقة . والى « لورد دافرين » و « لورد دافرين »

(١) المقصود به : الحديوى توفيق وشريف باشا ورياض باشا . (المحقق)

وحده ، يجب أن ترجع الفضل في ابتداء الاحتجاج الاسمى من جانب المذنب nominal-plea-of-guilt على الاجراء الذى تضمن كل ما يمكن أن أسأله عن « عرابى » (تحت ظروف وجدت أننى قد وضعت فيها) ، وعلى أية حال ، أنقذ من حيث المظهر ، كلا من سياسة انجلترا وهيبة من تحديه Protégé . ولقد ظهرت مواهب « لورد دافرين » بصورة واضحة فى هذه المهمة البسيطة مهمة المصالحة بالنسبة لقضية عرابى ، وكان لممارسته لها تأثير كبير جدير بالتقدير على الموضوع البالغ الأهمية ، موضوع مستقبل مصر . وكان الزمن وحده لازما للسماح لنفس قوة التوفيق والتراضى التى تلعب دورها كاملا . ولكن لم يكن مقدرا لها ذلك . ان خبر خطته المشهورة ، خطة إعادة التنظيم ، لم يكده يجف بعد حتى انسحبت فجأة « اليد المتسلطة » التى ربما بعثت الحياة فيها . ولعل كاتبها كان يعرف أن هذا مقدر له أن يحدث عندما كتبها ، وربما كان هذا مسئولا الى حد ما عن ملامح معينة فيها ما يذكر القارئ أحيانا بصورة لا يمكن مقاومتها ، لوثيقة سياسية أو للمز سياسى .

وقد تطلبت المصالحة المقترحة مناقشات طويلة ودقيقة ، ولكن عندما اتفق على شروطها فى النهاية أعطت مظهرا للبساطة النامة . والمصالح المتصارعة قد تمت المصالحة عليها ، قدر المستطاع ، بفضل « اليد المتسلطة » ، وظهرت الحكومة الخديوية على المسرح فقط لتنفيذ آليا ما سبق تنظيمه لها . وتمنعنى الحقيقة من أن أسجل حتى أقل قدر من المديح لسلوك المسئولين المصريين ، اذ أنهم اتبعوا ارشادات « لورد دافرين » بأقصى صورة ممكنة ، ولم يضيعوا أية فرصة ليجعلوا المسجونين يحسون بمرارة رحيلهم ، وبدلا من أن يستغلوا الموقف أحسن استغلال ويضمنوا لأنفسهم بذلك سمعة طيبة وشهرة من جراء ما قد يبدو أنه فعل كريم ، لم يضيعوا فرصة لدفع كل فرد للاعتقاد بأنهم كانوا مجبرين على أن يفعلوا ما فعلوه ، ومن ثم ، فقد لقي الصحفيون الفرنسيون ما شجعهم صراحة على وصف انجلترا ظلما بأنها ترغم الخديو على أن يبقى على أرواح رعاياه العصاة الذين كانت معهم ، من أول الأمر ، فى تحالف سرى على الموضوع المشئوم وهو احتلال البلاد بدافع من حقد خاص وهو « زيادة التفوق الطبعى لـ » فرنسا « natural preponderance of France » . لقد كان واضحا كل الوضوح أن هذه التصريحات كانت نابعة من القصر وليس من أى مصدر غيره . وأنا لا أستطيع أن أقول ما اذا كان توفيق باشا ورياض يمكن أن يحق له الاعتماد على مثل هذه السياسة الفريدة . ولم يكده يبدو أن قيام المصالحة صار مشكوكا فى أمره ، حتى سمحوا لـ « بوريللى بك »

بأن يوعز الينا بتلغراف يعلن فيه أنه « خير له أن يتخلى عن القضية عن أن يشارك في أضحوكة قانونية legal force » ، واستسلمت الصحافة المصرية الموالية للقصر لكل ما يرضى تماما مشاعر الفرنسيين المستوطنين في مصر . وفي اعتقادي ما من شيء يمكن أن يصور عدم الاستقرار الميثوس منه وزير القضية التي جئنا الى مصر لتأييدها ، أفضل من مؤامرة القصر الفاشلة التي ولدت ونظمت ونفذت تقريبا في وجود « لورد دافرين » ، والتي من وقتها بلغت ذروتها في التأريخات الرومانتيكية لمسيو جبرائيل شارم .

لقد كانت تفاصيل المصالحة على الوجه التالي : كل الاتهامات الأخرى الموجهة ضد الباشوات : عرابي ومحمود سامي وطلبة وعلى فهمي وعبد العال ويعقوب سامي ومحمود فهمي ، فيما عدا العصيان البسيط ستسحب ، وسيستندعون للمثول أمام المحكمة العسكرية بتهمة العصيان البسيط الذي بموجبه سيترفون بأنهم مذنبون . ولقد كان من المفروض أن تسجل عقوبة الاعدام في هذه الدعوى ، بيد أن المرسوم المعدل للعقوبة الى المنفى من مصر من المفروض أن يقرأ على الفور ، وسيفقد المسجونون رتبهم وأملاكهم (١) بموجب مراسيم لاحقة ، ولكن لن تصدر أملاك زوجاتهم ، وعلى المسجونين أن يتعهدوا بالتوجه الى أية جهة من الممتلكات البريطانية المحددة لهم ، ويبقون فيها حتى يسمح لهم بمغادرتها .

ونتيجة لمصادرة أملاكهم ، ستتكفل الحكومة المصرية بتخصيص راتب مناسب لاعانة السبعة المسجونين وعائلاتهم في المنفى ، وستتكفل الحكومة المصرية بنقل المنفيين على نفقتها الخاصة الى البلد المحدد لهم الإقامة فيه .

وقد أدرج « عبد الغفار بك » أميرالاي الخيالة ، أساسا ، في قائمة المسجونين ليعامل طبقا لنفس الترتيب السارى على الجميع ، ولكنه في آخر لحظة ، بناء على استيائه الشديد ، أحبط علما بأن يذهب حيث يشاء ، كما أن مدة نفيه ستكون ثمانى سنوات فقط .

وقبل شروط المصالحة ، كان هناك شيان ضروريان ، هما استشارة « مسيو بلنت » تلغرافيا ثم الحصول على موافقة من موكلينا أنفسهم .

(١) عندما وافقنا على هذه العبارة كنا نعتقد أن مثل هذه المصادرة كانت طبقا للشريعة الاسلامية ، ولكن بدت لنا الآن أنها انتهاك مباشر لـ « حقى شريف Hatti Shereef » أو للقانون النظامى Organic Law للإمبراطورية العثمانية ، ومخالفة لكل ما هو معروف قبل هذا في مصر . وعلى أية حال ، لم يكن لها تأثير على موكلينا ، إذ أنه كحقيقة ، لم يكن لهم (باستثناء واحد منهم) أية أملاك بالرة .

المعروف أن الحفاظ على أى شىء سرا فى بلد شرقى ، يكاد يكون أمرا مستحيلا ؛ ولكن مما يبعث على الدهشة خلافا لهذه القاعدة ، أنه لم يكن هناك أكثر من شك فى أن شيئا غير عادى يحدث وتنفوح راثحته فى مصر ما بين ٢٧ نوفمبر وأول ديسمبر ، عندما لقي المشروع ، فى الصورة التى شرحناها ، الموافقة التامة من كل الأطراف .

وفى ٢٩ نوفمبر ، بعد ترو مناسب ، بعث الينا مستر بلنت بموافقته ، وطلب منا أن نتذرع بحسن التصرف الكامل بالنسبة للأسلوب الذى سنتبعه . لقد أحس معنا أنه لا يمكن فى الوقت الراهن التوصل الى شروط أفضل ، وفى ثقة ، ترك التبرئة التامة لعرايى ، للتاريخ وللحكم الهادى فى المستقبل ، وحتى هذه المرحلة المتقدمة من المفاوضات ، لم نشر ل « عرايى » بأية فكرة ، على الاطلاق عن مجرد احتمال أن تكون هناك مصالحة . كان عرايى قد أعد نفسه لمحاكمته ، ويبدو أنه كان ينتظر المحاكمة بدون أدنى خوف . لقد كان قلقه الرئيسى هو على مصير من كان يدعوهم « اخوانه فى الأسر » .

وفى تلك الأثناء ، كان القومسيون يسير فى عمله الروتينى كما لو لم يكن هناك شىء غير عادى فى الأفق . لقد صارت الآن شدة ازدحام السجون فى أنحاء مصر مهزلة عامة ، وبات أمرا ضروريا تماما اتخاذ اجراء بشأنه . لقد انبثق قومسيون فرعى للبت فى مختلف القضايا ، فاطلق سراح المسجونين المشتبه فيهم مجرد اشتباه (وكانوا يشكلون فى الحقيقة أغلبية كبيرة) ، أطلق سراحهم بكفالة on bail أو بناء على تعهدات رسمية recognizances ، وقد انتدب « الميجور ماكديونالد Major Macdonald لمراقبة اجراءات سير القضايا ، نيابة عن الحكومة البريطانية » .

وفى صباح يوم ٢٨ نوفمبر (عندما كنا ننتظر فى قلق رد « مستر بلنت » على تلغرافنا) توجهت الى السجن حيث وجدت كلا القومسيونين يعملان بجد . كان « اسماعيل أيوب » مشغولا فى وضع اللمسات الأخيرة لـ « ملفات dossiers » الدفعة الأولى من المسجونين ، وكان كل متهم يستدعى بدوره الى الغرفة ويسأله القومسيون فى تهكم ، اذا كان يريد أن يتولى الدفاع عنه « محامون انجليز » . لقد التزم « عمر رحى » ، سكرتير عرايى ، الذى غرروا به بصورة مشينة ، لخيانة سيده السابق ، التزم بتعبير اسلامى بالغ القداسة ، اذ أعلن عن اعتقاده أن العدالة الحققة تقضيته تجعل كل مساعدة كافرة نافلة تماما فى بلد اسلامى ، وأعقب هذا القول أن عم المائدة المغطاة بالجوخ الأخضر تصفيق رقيق . وكان الثانى



شكل ١٠ - محمود فهمى باشا

فى دوره ، « محمود فهمى » ناظر الاشغال العمومية فى النظارة التى كان فيها عرابى ناظرا للجهادية - كان مهندس الخطوط المصرية فى كفر الدوار والتل الكبير ، كان « محمود فهمى » قصير القامة ، لا هو بالوسيم ولا هو بالقبيح ، كان ذاكن البشرة جدا ، فى الاربعين من عمره ، عيناه مرحتان براقتان . لقد ألقى القبض عليه عندما كان يأخذ فكرة عن تحركات الانجليز فى القناة ، وكان يدعى باستمرار ، بالرغم من بشرته الداكنة جدا وفرنسيته المتكسرة أنه أحد المستعمرين colon الفرنسيين يشرف على حقول قطنه . ووجه نفس السؤال التهمى ، وان كان فى صورة تعنيف ، الى « محمود فهمى » الذى كان من نشأة مختلفة كل الاختلاف عن « عمر رحى » ، أجاب محمود فهمى بغمزة من عينيه المرحتين السوداوين الماكرتين البراقتين ، أجاب بسرعة قائلا : « اننى لن يكون لى من المحامين سوى محامين أخى عرابى » ، فقال له « اسماعيل أيوب » فى ذعر واضح : « ولكن هل توافق على مثل هذا العمل ؟ » واستطرد « اننى يجب أن أحذرک مسبقا أننا سنستدعى الضباط الانجليز ليبرهنوا على أن محمود فهمى « كاذب بطبيعته an habitual liar » ، وأنه ، بتأكيد شهادة أكثر من عشرين شاهدا ، قد تجرأ وقال أن « أفندينا » عليه أن يحزم

أمتعته و يقيم فى فندق شبرد » واذ بترديد متعاطف لسخط مكبوت يسود المائدة المغطاة بالجوخ الأخضر . عندئذ أجبت قائلا : « حسن ، مع احترامى البالغ لسعادتكم ، فاننى لا أبالى بتهديدكم له حتى بما وصفتموه به ، وهو أمر يأسف عليه ، من آثام فظيعة مثل قولكم عنه أنه كاذب بطبيعته وأنه قال ان « أفندينا » عليه أن يحزم أمتعته و يقيم فى فندق شبرد . اننى ليسعدنى أن أتولى الدفاع عن « محمود فهمى » ، واذ بأصوات تتردد تنم عن السخط والفرع أشبه بفزع الورعين ، فقال « اسماعيل أيوب » متسائلا : « ولكن ، ألن تدافع أيضا عن « سليمان سامى » ؟ واستطرد : « قد يكون أحرق الاسكندرية ، ولكنه على أية حال لم يتكلم بامتهان صريح عن سمو الخديو » ، فأجبت قائلا : « كلا ، بكل تأكيد » ، وغادرت الغرفة فى صحبة موكل .

ولما صرنا وحدنا فى زنزانته ، نظرنا الى « محمود فهمى » للحظة ثم قال لى عن قصد : « أنت تعلم بطبيعة الحال اننى استسلمت عن طيب خاطر للانجليز » . لابد أن تعبيرى الشخصى قد كشف عن ربيتى السافرة حتى أنه انفجر ضاحكا فى صفاء قلب وقال لى : « اعذرنى ، ولكنى أردت فى الواقع أن أعرف أى نوع من الأشخاص الانجليز أنت » ثم سرد لى القصة الكاملة عن ايمانه ب « عرابى » ، وكيف أصبح عضوا فى مجلس النواب وفى الاجتماعات المشهورة التى عقدت فى الاسكندرية ، وعن متاريسه (سدوده الترابية) التى أقامها فى كفر الدوار والتل الكبير ، وزيارته المتخفية للخطوط الانجليزية وسوء الحظ الذى أوقعه فى الأسر ، وقال وهو يتنهد : « آه ، عرابى المسكين لا يمكن أن يعمل بدونى . لو أننى أكملت المتاريس فى التل الكبير لما استطاع أبناء وطنك أن يأخذوا البلاد بهذه السهولة » . وذكر لى قصة أول ليلة مضاهها كأسير حرب عند الانجليز ، فقال : « وضعونى تحت حراسة ضابط ، وقد هددنى الملازم الذى كان مسئولاً عني ، هددنى فى غلظة أننى لو تحركت لأطلق على النار ، فأجبتة بالفرنسية : « سيدى ، اننى قائد وأعسرف واجبى ، وما عليك الا أن تؤدى واجبك أنت » . وكان « محمود فهمى » واحدا من أقدر زملاء عرابى ، ولم يحجم مرة على الاطلاق عن اعترافه بعقيدته السياسية ، وتوجه مع كل أفراد أسرته الكبيرة من بنين وبنات الى المنفى دون أن يشكو من شئ . لقد سخر على فقدانه لكل من رتبته وأملاكه ، وبالرغم من أنه كان ناظرا مصريا للأشغال العمومية ، كانت يداه نظيفتين ، وكان كل ما لديه من متاع دنيوى لم يكن يستاهل أن يباع . لقد كان دخله الجديد كراتب يتقاضاه فى المنفى ، كان فى الواقع زيادة كبيرة فى الثروة . لقد كانت الخسارة الحقيقية هى القضية التى كان يحبها وفرصة

قيام حكومة مصرية ذاتية • لقد كان « محمود فهمى » الذكى الأمين البشوش - كان هو بالفعل روح المستعمرة المصرية فى كولومبو Colombo • لقد كان يربى أبناءه الذكور ليؤدوا واجبه كمواطنين مصريين عندما يحين الوقت • لقد وعدت « محمود فهمى » أن أبذل كل ما أستطيع من أجله ، ونصحته نصيحة بالغة الاخلاص بأن يعمل بالاتفاق التام مع عرابى •

وفى اليوم التالى (٢٩ نوفمبر) ذهبت الى السجن فى صحبة « مستر سيلنتوتا » ، وتوجهنا رأسا الى زنزانة عرابى ، وفى بضع كلمات موجزة ما أمكننى ذلك ، شرحت له الاتجاه الذى اتخذته الأمور ، وذكرت له باختصار شروط المصالحة المقترحة • بدا عليه بعض الذعر فى أول الأمر ، ولم يبد بكل تأكيد أى مزيد من الحماس يوحى برضاه عن أى ترتيب اتخذ • لقد اعترف صراحة بأنه كان يفضل المحاكمة ، اذ كان يريد أن تعرف كل أوربا بقصته وأن يواجه متهميه وجها لوجه فى محكمة علنية ، وتساءل : « ألا يمكن للضوء الذى يلقى الآن على الشئون المصرية أن تمهد السبيل الى الاصلاحات التى فشلت أجهزته فى تحقيقها ؟ » ، ثم شرحت له بعد ذلك مخاوفى من احتمال عسدم توسط انجلترا لو أن المحكمة المصرية حكمت عليه بالسجن طويل الأجل ، فأجاب : « هذا صحيح ، اننى أعرف تمام المعرفة أن مصيرى أنا وحدى يتوقف على انجلترا • • » وكان تفكيره الذى أعقب ذلك هو فى صحبة المسجونين ، وقال متسائلا : « لو اننى قبلت هذه الشروط التى تتحدث عنها ، ماذا سيكون مصير اخوتى المسجونين ؟ » فأخبرته بأننى لا أشك فى أنهم سيكون لهم نصيب فى الرأفة التى سيظهرونها نحوه ، ومرة أخرى تردد ثم قال لى متسائلا : « كيف يمكننى أن أقول اننى عاص ؟ » واستطرد : ألم أفعل طبقا لأوامر السلطان والحدود ؟ عندما لجأ الخديو الى الانجليز هل يمكنهم أن يدعونى عاصيا لا متثال لارادة الشعب المصرى ؟ » ان اجابة منطقية على هذا السؤال كان من الصعب الادلاء بها • اننى لاحظت فقط أنه هو نفسه قد أقر بأن مصيره يتوقف فحسب على انجلترا ، ولما كانت انجلترا قد أنفقت بضعة ملايين من الجنيهات فى قمع ما كان يحلولها أن تدعوهم عصاة ، فقد كان أمرا بعيد الاحتمال أن نظارها سيؤيدون أى حل يتضمن تسفيها Stultification تاما لأفعالهم هى أنفسهم ، وأضفت أنه ، من جانبى ، كنت مقتنعا أن تبرئته الكاملة لم تكن الا موضوع صبر وزمن وتحقيق مجايد ، ورد على ذلك قائلا : « ولكن هل سبق أن عاملت انجلترا عدوا مهزوما بمثل هذه الصورة من قبل ؟ » ، وفى هذه اللحظة تذكرت « مستر جلادستون » ، وكان فى تذكرى له ما أنقذنى ، فرويت

الى المستر برودلى ومستر نابير ، محامي عرابى باشا

بصفة كونى سلمت نفسى لامة الدولة الانكليزية وشرفها وكونى وانابامانتكجا كما
اننى وافق كل الوثوق بتزاهة وسعادة اللورد دوفرين وشرفه فانى افوض لكما ولسماعته
فيما يقتضى • معاملتي به ومعامله اخوانى السياسيين والاهلين المسجونين بما يلىق لشرف
انكثرا اذا تبين براءة ذمتنا مما نسب اليينا من الاعمال الوحشية ولهذا ازم تعبره لعرض
ذلك على سعادة اللورد المشار اليه •

(توقيع) احمد عرابى

٢٩ نوفمبر ١٨٨٢

ان داليل الثقة الذى أعطانيه « عرابى » الآن ، لم يكن دليلا عاديا ،
وبناء على مجرد توكيدى له ان كل شىء سيكون على ما يرام ، وافق على
الاعتراف بأنه مذنب فى الاتهام الذى كانت عقوبته الوحيدة الاعدام ،
أما بالنسبة لتعديل الحكم الذى سيعقب ذلك ، فقد اكتفى بكلمتى له
واعتمد عليها • لقد بدد كلا من تلغراف « مستر بلنت » وخطاب « عرابى »
كل سبب آخر للتردد ، وقد وافقنا باسم هوكلينا على خطة المصالحة
المقترحة •

ولما كان « بوريللى بك » قد تنحى الآن عن القضية ، فقد طلب
منى ان أصل الى اتفاق مع « تكران باشا Tigrane Pacha » (٢) (وهو
أحد وكلاء النظارة المصريين) لاتخاذ الاجراء الذى بموجبه يمكن تنفس
الاتفاق بين الأطراف بصورة ملائمة • لقد بذل « تكران » كل ما فى وسعه
لاخفاء الكمد الذى كان يحس به فى أداء هذا العمل ، وما لبث أن استكمل
عملنا • وكان أول شىء لابد من القيام به هو البحث عن بعض بنود فى
القانون العثمانى يمكن تطبيقها بالنسبة لحالة العصيان البسيط ، ولم
يكن أمرا صعبا ، اذ ان المادة ٩٦ من القانون العسكرى الامبراطورى
العثمانى والمادة ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى كانتا وافيتين بغرضنا
تماما ، فقد نصتا على ما يلى :

مادة ٩٦ - كل أفراد يبلغ عددهم ثمانية أو أكثر يثورون مستخدمين

(١) كان تكران أرمينيا ، وكان ابن أخت « نوبار » وتلميذه • لقد أخذ فى اعتباره
إراحة كل الأطراف حتى تلك اللحظة (بما فى ذلك رياض) وهو رجل قادر ، وكان يسير
على نهج مدرسة خاله السياسية ، وقد تولى نظارة الخارجية خمس مرات : (١) ١٨ يوليو
١٨٨٦ (بالنيابة) ؛ (٢) ١٤ مايو ١٨٩١ - ١٧ يناير ١٨٩٢ ؛ (٣) ١٧ يناير ١٨٩٢ ،
(٤) ١٥ يناير ١٨٩٣ - ١٨ يناير ١٨٩٣ ، (٥) ١٩ يناير ١٨٩٣ - ١٥ ابريل ١٨٩٤ •
(المحقق)

عرابى - ٢٧٣

الشكليات السابقة خلال اليوم التالى (٢ ديسمبر) ، وصيغة الوثائق الأخيرة اتفق عليها ، ورضيت الأطراف عنها . وغادرتنا « تكران » بعد التنبيه علينا بمراعاة ألا يكون هناك فى الغد عناق قبل الرحيل ولا أى مظهر لفرح لا يليق . لقد أحس هو أيضا بالتأثير غير المنظور لليد الحديدية فى القفاز المخملى ، وأثناء بعد الظهر ، سمح لـ « مستر نابير » ، لأول مرة بأن يزور عددا آخر من المسجونين ، وكانوا قد قدموا لنا مقدم الأتعاب ، وكان من بينهم « أمين بك شمس » الذى جئ به من الزقازيق .

وبعد جولة ممتعة فى ميدان شبرا مع « مستر بوميروى Mr. Pomeroy قنصل أمريكا العام (١) الذى أظهر لنا الكثير من كرمه أثناء إقامتنا بالقاهرة ، وانتهزت الفرصة وزرت نوبار باشا الذى تعرفت به فى باريس . وبعد حديث قصير عن الإصلاح القضائى وعن المال ، جرتنا الحديث الى موضوع الساعة - عرابى . استنكر نوبار استنكارا شديدا الضجة التى تحوط « عرابى » ، واقترح أن يطلق سراح « عرابى » وينفى حتى يصبح فى طى النسيان ، وذلك بعد أن ينال قصاصه الشخصى فى حضور ممثل جمعية ممثلة لمشايخ البدو . ولا شك أن الاقتراح له براعة الإبداع ، ولكن « نوبار » لم يذكر طبقا لأية مادة من قانونه الجديد ، يمكن أن يطبق عليها الحكم تطبيقا قانونيا .

(١) فى ذلك الوقت أيضا ، زار مصر ، جنرال ولاس General Wallace ، السفير الأمريكى فى القسطنطينية لقد كون ، بعد تحقيق دقيق ، رأيا مشجعاً جداً عن الوطنيين المصريين ، شاركه فيه معظم مواطنيه من ذوى الفكر الليبرالى .
الذى نحن بصددده .

الفصل الخامس والعشرون

ثلاث محاكمات قصيرة من محاكمات الدولة

فى وقت متأخر من مساء السبت ٢ من ديسمبر ، كان مختلف ممثلى الصحافة الأوروبية الموجودين فى القاهرة ، قد أحيطوا علما بأن محاكمة « عرابى باشا » ستكون فى اليوم التالى فى الساعة الثامنة تماما . ولم يمض على النبأ وقت طويل حتى ذاع بين الشعب كافة . وكاد يكون من المحال وصف شعور الدهشة الذى أحدثه هذا النبأ وقد بات معروفا بالتدريج . صحيح أن المراسلين الانجليز الذين أحيطوا علما قد تنبأوا فى تلغرافاتهم التى بعثوا بها فى اليوم السابق باحتمال التوصل الى نوع من المصالحة ، ولكن أهالى القاهرة الطيبين ، يبدو أنهم لم يكونوا على علم على الاطلاق بما كان على وشك أن يحدث . لقد تعاملت الحكومة الخديوية معاملة غير كريمة مع صديقتها القديمة الجازيت المصرية التى حرمت مرة واحدة مما اعتادت عليه من احتكارها للأخبار . لقد طالعت القراء فى الصباح الذى نعينه ، بالجزء الثانى أو الثالث من اعتراف « سليمان سامى » ولكنها لم تلمح أى تلميح عن النتيجة المرتقبة .

انبلج فجر يوم الأحد الحافل بالأحداث ، والذى كان عليه أن يشهد بداية ونهاية محاكمة عرابى . انبلج مع صباح شمس جميل من كل صباحات مصر . ولم يكن ضوء النهار يبدو عريضا حتى وصلنا السجن . كانت الساحة الفسيحة قد كنست وزينت طوال الليل ، وكان الحراس الأتراك والجراكسة قد ارتدوا « ملابس التشريفة gala attire » ، أما الحراس الشاويشية الانجليز ، فيبدو أنهم كانوا فى حيرة اذ لم يكونوا على علم بسبب هذه الحركة غير العادية ، وكنا نحن ، « مستر نابير »

وأنا ، قد أحضرنا معنا ، فى عهدة واحد من كتبنا ، الحقيبة الزرقاء التقليدية التى كانت تحوى الأردية المعتادة الميزة لمهنتنا . وما أن هبطنا من عربتنا حتى استقبلنا حارس طويل القامة ، اسكتلندى ، بتحية عسكرية وسألنا فى قلق عما إذا كان صحيحا أن مهمتهم فى السجن لن تلبث أن تنتهى وعما إذا كانت هناك أية فرصة لعودتهم سريعا الى انجلترا .

تلقانا « عثمان شريف » ، مأمور السجن ، بكل مظهر من مظاهر التعاطف المحترم ، وقادنا فى نشوة نصر الى القاعة الكبرى للمحكمة . وكانت أبوابها قد فتحت على مصراعها كما لو كانت تستقبل الناس وهى حائقة . كل ذرة من تراب أزيلت بعناية من على منصة القضاء الخشبية التى أحسن صنعها . كما أزيل التراب أيضا من على كراسى القضاة المبطنة قاعدتها بالمخمل وكان صديقنا القديم العجوز « اسماعيل أيوب » مشغولا بالإشراف على توزيع أفرخ نشاف ، وعلى إزالة التراب من على المكاتب المغطاة بالجوخ ، والتى خصصت لاستخدام محامى كلا الطرفين والصحافة والمسجونين . وكان « اسماعيل » متألقا الآن فى زى رسمى فخيم ، نفس قماشه يبدو أن تطريز الذهب يخفى بهاه ، وصدره يكاد يتقد ، بالمعنى اللفظى ، بكوكبة من النياشين والصلبان ، ولكنه ، مع ذلك ، تنازل وساعد بنفسه فى الترتيبات اللازمة ، وكانت أصداؤه قعقة سيفه التركى الطويل تملأ القاعة الفارغة ، وكان يلقى مساعدة نشيطة فى واجباته الراهنة من شخصيات لا تقل فى رتبته عن الضابط التركى الصغير « راغب بك » والذى (وهو ما كانوا يهمسون به) حارب فى التل الكبير والذى سبق أن رتب معى ، من أسبوع مضى ، نقل ثروة « محمد حسنى » قبل أوانه prococious ، من : « عبد العال » الى « حسين عاصم باشا » . استقبلنا « اسماعيل أيوب » بأعظم مظاهر المحبة القلبية ، وأكد لنا هامسا أن كل الأوراق الهامة قد أعدت بنظام ، الليلة الماضية . وقد أخبرنا « راغب بك » (وكان مرتديا أيضا رسميا أنيقا ، مزدانا بعدد طيب من نياشين متناثرة) وهو فى غاية من السرور ، أنه عين ، بهذه المناسبة ، رئيسا للتشريفات وكان خادمان أو ثلاثة مشغولين فى نشاط فى اعداد سبل الراحة للنظار المتوقع حضورهم ويملأون « صحن المحكمة » . وذلك بأن يعدوا لهم كراسى مريحة خيزرانية القاعدة . وبعد ذلك بقليل ، جاء مراسلو صحف : الجرافيك Graphic و « الأنباء اللندنية المصورة » « Illustrated London News » و « الدنيا المصورة » « Le Monde Illustré » والمصور « Illustration » حضروا الواحد فى أثر الآخر ، وبدءوا فى رسمهم بأسرع ما يمكنهم ،

تفاصيل قاعة المحكمة المصرية ، وقال لنا « اسماعيل أيوب » المسكين وهو ينهد ، انه يصعب عليه أن كل ما قام به من جهد سيذهب هباء وأن باشوات المحكمة العسكرية سيجلسون لحسن دقائق ويرسمهم الرسامون ويصجون خالدين .

بعد ذلك ، سعدنا الى زنزانة « عرابي » ، وكان قد ارتدى بالفعل سرواله العسكري ، ومغطا سنجابي اللون فاتحة ، وكوفية من الحرير الأبيض لفها حول رقبته . ولم يكن زيه يلفت النظر ، وكان يبدو مجهدا وقلقا . لقد بدا أن قدومنا قد أدخل عليه السرور ، وكان شديد الإعجاب بأرديتنا ، أردية المحاماة التي حيرته ، تماما مثلما تنبأت به جريدة الينش Punch اللندنية منذ بضعة أسابيع قبل أن يكون من المتوقع ارتداؤنا لها . لقد وقع « عرابي » وختم ، وكان على استعداد تام لذلك ، وقع الاعلان القصيرين اللذين كان قد أعدهما « مستر سانتلانا » ، وكان أولهما على هذه الصورة :

« من تلقاء نفسي وحسبما اشار به على الأفوكاتو المحامي عنى فاني اعترف على نفسي بالخيانة التي تليت على » .

٣ ديسمبر ١٨٨٢ (توقيع) احمد عرابي المصري خاتم

أما الثاني ، فكان يحوى الكلمات التالية :

« الى سعادة اللورد دوفرين »

اني اتعهد بأن اعطى قولى بصفة رجل عسكرى أن اقيم فى المحل الذى تهيئه لى الحكومة وحالى عند تركى مصر امتثالا لما صدر به الحكم على اعلن تشكرى لسعادتكم .

٣ ديسمبر ١٨٨٢ (توقيع) احمد عرابي المصري خاتم

وكان الوقت قد اقترب من السابعة ، وقد بلغنى أن أعضاء المحكمة العسكرية يودون أن يلتقوا بى فى غرفتهم التى كانت خلف قاعة المحكمة والتي كانوا مجتمعين فيها الآن ، قدمنى « اسماعيل أيوب » لكثير منهم ، وكانوا جميعهم على شاكلته هو نفسه ، يرتدون ملابس التشريرة الفخمة التى يرتدونها فى الأعياد ، وكان « رؤوف باشا » ، رئيس المحكمة ، طويل القامة نحيفا ، ذاكن البشرة ، فى الخمسين من عمره ، وكان يبدو فى قلقه وعدم راحته تماما كما لو كان سجيناً . لم يكن يرتدى الا نجمة ضابط عظيم مجيدى . لم يكن هناك شىء فريد لأسجله عن زملائه : « ابراهيم باشا الفريق » و « اسماعيل كامل باشا » و « حسين

الأقل ، بامتياز مشاهدة الحياد والعدل وانتظام العدالة وهي تدار تحت الرعاية الانجليزية » . وكان النظار قد تجمعوا الآن ، وأنا لا يسعني الا أن ألوم نفسي لأن فجائية كافة الاجراءات قد جعلتني أنسى الكثير من وعودى التي كنت قد أخذتها على نفسي فيما يتصل بحجز أماكن لمن سيشاهدون المحاكمة . لقد كتبت الى ليدى سترانجفورد Lady Strangford فى الصباح التالى ، تذكرنى بأننى أكدت لها ، « ثقة منى بـ « عرابى » ، أنها ستحتل أحسن مكان فى قاعة المحاكمة ، وأنه نظرا لأننى لم أحترم قسمى معها ، فهى لم تعد بعد اليوم تثق فى موكلى » . وفى الواقع ، لم يكن فى استطاعتى الا أن أخذو حذو « عرابى » وأعترف بجرمى . لقد رتبت مع « مستر نابير » أنه سيبقى مع « عرابى » حتى يحين الوقت الذى يظهر فيه المتهم فى المحكمة ، بينما توجهت أنا على الفور لأرى ماذا يمكن أن أقوم به من خدمة لـ « مسيو شارم » .

لم تكن هناك حاجة لممارسة التأثير على موضوع المقاعد ، اذ أن كل الحاضرين لم يزدوا على أربعين شخصا . لقد كان هناك : سير . أليسون Sir A. Allison وميجور هوتون Major Hutton (سكرتيره) وبعض ضباط أركان حرب ، بلوم باشا Blum Pacha من الادارة المالية ، ودكتور و . هـ . راسل Dr. W. H. Russell ، ومستر ماكنزى ولاس Lord Charles Mckenzie Walkence ، ولورد تشارلز بيرسفورد Berseford وجميعهم احتلوا مقاعد الى يمين المنصة . وجلس مباشرة أمام القضاة مستر بيل Mr. Bell من جريدة التايمز Times ومستر تشارول Mr. Chirol من الاسيتاندارد Standard ومستر ماكدونالد Mr. Macdonald من الديلى نيوز Daily News ومستر جودول Mr. Goodall من الديلى تيلجراف Daily Telegraph ، ومستر بيرنارد Mr. Bernard من نيويورك هيرالد New York Herald ، ومسيو شارم Mr. Charmes من جريدة المجادلات Journal des Déhats ، وحوالى خمسة عشر مراسلا آخر ، من بينهم سيدة كانت تؤدي مهمتها فى شجاعة لصالح جريدة سويسرية . ومن كان من المراسلين لم يخف عنه موعد المحاكمة ، زودوا أنفسهم بما يحتاجونه من مذكرات وأقلام رصاص ، الخ . . . وكان الانتظار على آخر من الجمر . وطوال ذلك الوقت كان ستة من مراسلى الجرائد المصورة يرسمون بسرعة محموعة . وفى الثامنة تماما ، دخل القاعة فى طابور التسعة القضاة أخذوا أماكنهم فى تسعة كراسى ذات مساند من الخشب الماهوجنى منجدة بالمخمل الأحمر ، وكانت كراسيهم خلف المنصة . احتل « سير تشارلز ويلسون » مقعدا الى اليمين من المكان المخصص للسجين ، وجلست أنا خلف مكتب أمامه تماما . وكانت منصة المدعى العام شاغرة . . .

وقبل انعقاد الجلسة الثانية للمحاكمة ، مباشرة ، وصل سكرتير لورد دافرين ، مستر نيكلسون Mr. Nicolson (الذى ازاء كرمه معنا طوال بقائنا فى القاهرة ، من المحال علينا أن نوفيه حقه من الشكر والعرفان) ، وكان يحمل رسالة شفوية مؤداها أنه لابد من تغيير فى الاعتراف الكتابي ، اذ لكى نبعد الشكوك عند الحكومة المصرية ، تحذف عبارة « الانجليزية » ، كما تحذف أيضا « كما أقدم تشكراتى الى سعادتكم » . لقد كان من رأى « مستر نابير » ومن رأى أنا نفسى ، أن مثل هذا التعديل لا يدخل أى تغيير مادى على روح القسم الذى أخذه « عرابى » على نفسه عن طيب خاطر (١) :

ان المحاكمة التى شهدتها « عرابى » الآن أمام عينيه ، كانت تختلف

(١) ثارت بعد ذلك مناقشة حول هذه النقطة ، الأمر الذى اضطر « مستر نابير » الى أن يبحث بخطاب تفسيرى الى « مستر بلنت » وكان قد طلب بالفعل أخذ موافقة عرابى على التغيير المقترح والا نفذ التعهد على ما هو عليه وفيما يلى ما كتبه مستر نابير من القاهرة يوم ١٦ ابريل :

التي وافقت على التغيير لتحاشي الصراع ، نظرا لأن المحكمة كانت تنتظر حضورى . ودون ما هدف بالمره الى تغيير طابع التعهد الذى تعهدت به ، واعتبره الآن بمثابة قسم أعطى ، وأعطى فقط بناء على طلب « لورد دافرين » ، باعتباره ممثلا لانجلترا . وانتهيت الى أن كلمة الحكومة فى قسم معطى لممثل بريطانيا يمكن أن تنطبق فقط على الحكومة التى يمثلها .

« والمسجونون الذين كان من المفروض أن ينفوا نفيا مؤبدا » صدر عليهم الحكم فى فترات فى الأسبوع التالى ، وقد قدموا الى « لورد دافرين » ، كل على حدة ، تعهدات مكتوبة بنفس منطوق كلمات عرابى .

« وفى النهاية ، وبعد أن غادر المسجونون البسلام ، بقليل ، فى طويقهم الى « سيلان » ، أخبرنى مستر نيكلسون أن « لورد دافرين » تيسيرا للأمور ، وثيقة وحيدة ، يجب أن تتضمن أيضا توكيدا أكثر رزانة وأكثر من مجرد قسم ، وسلمتى فى الوقت نفسه مسودة بالعربية كان قد أعدها مترجم لورد دافرين .

« هذا ، ومع تعديل لفظى طفيف ، ختم عليه المسجونون كلهم ، وأعيد تسليمه الى سعادة اللورد . ولم تكن تجوى أى تلميح الى الحكومة المصرية ، وقد اعتبرها المنفيون أنها قسم شخصى قطعوه على أنفسهم للورد دافرين .

« ولم يرد فى أى من هذه الوثائق ذكر للحكومة المصرية أو تفكير فيها من جانبى أو من جانب المسجونين ، ولم يكن قسم مكتوب أو غير ذلك مطلوبا من المسجونين من أى فرد لياية عن الحكومة المصرية ، بل على العكس من ذلك ، لقد أحيطوا علما فنسحب بأنهم لو عادوا الى مصر بدون تصريح ، فإن عقوبة الاعدام ستجدد ضدعم .

« ولو أن أى شئ أكثر من ذلك كان مطلوبا لايضاح الأمر ، فيستضج فى حقيقة أن أصل الوثيقة النهائية هى الآن فى حوزة وزارة الخارجية البريطانية ، انظر خطساب لورد دافرين رقم ٢٤ ، مصر ، رقم ٥ لسنة ١٨٨٣ ، وقد تركت نسخة واحدة مع الحكومة المصرية » .

اختلافا كبيرا عن تلك الاجراءات القائمة بعض الشيء والشكلية الخاصة بالمرافعة والتي سبق أن شاهدها من قبل . لقد عرف كل فرد في القاهرة ، الآن ، أن « عرابى » قد حوكم ذلك الصباح ، قبل أن يغادر أكبر عدد من سكانها مضاجعهم ، وأنه اعترف بأنه مذنب فى تهمة العصيان ، وأنه سيصدر عليه الحكم بعد الظهر . لقد تفاضلت أنا عن عدائى السافر لصديقى العزيز مستر فيليب Mr. Philip المحرر «بالجريدة الرائدة» (١) ، اذ بعثت اليه بتلغراف موجز من المحكمة : « محاكمة عرابى تبدأ الآن » . وفى فترة الاستراحة بين الاعتراف والنطق بالحكم ، وصلنى رد يسأل فى عجلة عن « الدليل » ، الوثائق ، الأوراق ، الخ . . . ولكن الوقت كان متأخرا جدا .

وبعد ساعة ، تجمع كل الباشوات Pachadom ، ليسمعوا مصير أحمد عرابى . كاد الشارع أمام سجن الدائرة السنية كاد لا يسمح بمرور أحد ، وكانت المحكمة ذاتها مكتظة اكتظاظا سديدا بالنظارة والسيدات المرتديات الملابس الفاخرة وقد احتلن بعض أحسن الأماكن ؛ وألقى « نوبار باشا » بابتسامة رقيقة على الحشد الذى تجمع بجوار المنصة ؛ وجلست مسز ناير Mrs. Napier (التى قدمت من انجلترا منذ بضعة أيام مضت) بجوار زوجها . ومنذ وصولها من انجلترا أظهرت الكثير من التعاطف النسائى مع السيدات الباقيات نزيلات الغرف المظلمة ذات الشبائيك الششعرية ، زوجات العصاة . وكان حضورها الشفوق قد ساعد الى حد كبير فى تطيب خاطر النفوس التى خارت قواها ، وساعدت على تهدئة القلق المستعر عند زوجات وبنات موكلينا . دخل القضاة كما دخلوا من قبل ، كما جئ أيضا بـ « عرابى » ، وكان واقفا فى هدوء أمام قفص الاتهام ، وفى هدوء أيضا كان يراقب المشهد الذى أمامه :

سحب « رهوف باشا » ، فى عصبية ، وثيقتين من حافظة أوراقه السوداء . لم تكن عنده ثقة فى نفسه ليتحدث الى الجمهور الآن ، وبعد أن أوما الى المتهم بأن المحكمة ستبشر عملها الآن لتنفيذ الحكم ، طلب من كاتب الجلسة أن يقرأ الحكم بصوت عال . وقد امتثل الكاتب لقراره ، وكان الحكم على الوجه التالى : -

« لما كان أحمد عرابى باشا قد أقر بأنه اقترف جريمة العصيان حسبما تقضى به المادة السادسة والتسعون من القانون العسكرى العثمانى

(١) المقصود بالجريدة الرائدة the leading journal « جريدة » الجازيت المصرية The Egyptian Gazette (المحقق)



شكل ١١ - عرابى باشا أمام المحكمة العسكرية في ٣ ديسمبر ١٨٨٢

والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثماني ، وبناء على هذا الاعتراف لم يكن أمام المحكمة الا تطبيق المادتين المذكورتين اللتين تعاقبان جريمة العصيان بعقوبة الاعدام . وازاء هذه الدوافع تصدر المحكمة حكمها بالاجماع على أحمد عرابي باشا بالاعدام على جريمة عصيانه لسمو الخديو تطبيقا لنص المادتين والقرارين المذكورين وسيعرض الحكم المذكور على سمو الخديو لابتداء الرأي فيه » .

وأعقب ذلك لحظة صمت ؛ وفي هدوء سحب « رءوف » الوثيقة الثانية من حافظة أوراقه وقال موجها حديثه الى المتهم :
« أحمد عرابي ، ستحاط علما بالمرسوم الذي أصدره صاحب السمو الخديو »

وبعد ذلك نهض كاتب الجلسة مرة أخرى ، وقرأ ما يلي :

« نحن خديو مصر »

بناء على اصدار الحكم بالقصاص على أحمد عرابي باشا بما قر عليه قرار المجلس العسكري في ٢٢ محرم ١٣٠٠ (٣ ديسمبر ١٨٨٢) حسبما تقتضي به المادة السادسة والتسعون من القانون العسكري العثماني والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثماني .

وبناء على ما رأيناه من استعمال ما لنا من حق العفو لأحمد عرابي المذكور .

أمرنا بما هو آت :

أولاً - الحكم الصادر على أحمد عرابي المقتضى جزاؤه بالقصاص وقع تبديله بالنفي الى الأبد من الأقطار المصرية وملحقاتها .

ثانياً - هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على أحمد عرابي بالقتل اذا رجع الى الأقطار المصرية أو ملحقاتها .

ثالثاً - على ناظر الداخلية وناظر الجهادية والبحرية تنفيذ أمرنا هذا كل منهما فيما يخصه .

صدر بمرأى عابدين في ٢٢ محرم ١٣٠٠ (٣ ديسمبر ١٨٨٢)
توقيعات ناظر الجهادية والبحرية (مصطفى فهمي) ناظر الداخلية (رياض)

امضاء محمد توفيق

بأمر الحضرة الخديوية رئيس مجلس النظار (شريف)

ثم ساد صمت . نهض القضاة للاستراحة ، وإذا بواحد أو اثنين من مراسلي الصحف الذى كان طوال الوقت شديد الاهتمام بصير عرابى ، والذى كانت له وجهة نظر مختلفة بالنسبة لأهمية الحركة الوطنية عن تلك التى كانت لها شعبيتها فى مصر - اذ به يصافح عرابى . وكانت « مسز نابير » قد وضعت باقة من الورود على المكتب أمامها ، وكانت تنسوى أن تبعث بها الى « عرابى » بعد المحاكمة . ولكن رجلا كان جالسا بالقرب منها ، وبدون سابق صداقة وبدون معرفة لقصد ، وضع باقة ورودها ، بدون أى تفكير ، فى يدى السجين . عندئذ ، سمعنا صفيرا مرة أو مرتين ، ولكن الحشد الضخم أخذ ينفذ تدريجيا ، وعاد عرابى « الى زنزانته ، واذا بالصحفية مراسلة الجريدة السويسرية (باعتبار أنها ممثلة عاشقة للحرية) تصرخ بصوت عال ، الى حد ما ، طالبة لقاء شخصا . لم أضع وقتنا ، فأرسلت تلغرافا الى الجريدة الرائدة « بنتيجة المحاكمة ، فأصدر مستر فيليب طبعة أو طبعتين خاصتين ، ونتيجة لذلك ، توقف الى الأبد نشر اعتراف « سليمان سامى » ، لأن كل الاهتمام به صار غير ذى موضوع الآن .

وما أن وصل « عرابى » الى زنزانته ، حتى رمى بنفسه على الفور على ركبتيه على سجادة صلاته المطرزة المصنوعة من وبر الجمل ، وكمسلم حق ، صلى صلاة شكر من كل قلبه للعزيز الرحيم ، لانقاذه من بين أعدائه ، وبعد انتهائه من صلاة الشكر ، شكر فى عبارات مؤثرة جدا ، كلا منا ، « مستر نابير » وشخصى ، على كل ما قدمناه له من خدمات جليلة . تركناه يكتب فى هدوء : خطاب شكر وعرفان « لمستر بلنت » الذى كان السبب فى انقاذه حياته .

لقد أثار « مسز نابير » بهدية زهورها ل « عرابى » ، التى رآها الجميع والتى لم تكن مقصودة ، أثارت فى بضعة ساعات فى الواقع ، امتعاضات من كانوا حولنا . لقد صدم هذا الفعل القاهرة بأسرها ، صدمة عميقة ، بل لقد كان النادى الخديوى على استعداد لأن يظهر سخطه من خلال لوم أو طرد زميلى الممتاز ، ولكن لما تبين أنه لا ينتمى الى النادى ، ذهب مظاهرتهم الموالية للخديوى ، أدراج الرياح . على أن « مسيو شارم » استغل هذه الحادثة وبنى عليها أسطورة لا يمكننى أن أنمى نفسى من نقلها (١) ، اذ كتب يقول : « كان ترحيب حماسى ينظر عرابى . قدمت آنسة انجليزية باقة من الزهور الى « مستر نابير » الذى قدمها

(١) مجلة العالمين الاثنين Revue des Deux Mondes عدد اول سبتمبر ١٨٨٢ .

بدوره الى البطل . احمر وجه عرابي ، وسمعت همهمات استنكار ، ولم
 تمض ، بضعة أيام فقط حتى عوقبت هذه المرأة الوقحة على هذا المظهر الممقوت
 الذي يبعث على السخرية ، وقد تلقت هذه المرأة طردا من الاسكندرية ،
 فلما فتحت بهذر ، وجدت باطن الصندوق أبيض منقلا بدموع سوداء .
 أما ما احتواه الصندوق فكان اكليلا جنازيا كبيرا ، وعلى الأشرطة التي
 تربطه كتبت الكتابة التالية : مع نحيات واحترام من أقارب وأصدقاء
 الضحايا التعساء الذين اغتيلوا في الاسكندرية يومى ١١ و ١٢ يوليو
 ١٨٨٢ ، وكانت قائمة الأسماء التي ذيلت الكتابة رهيبية فى طولها .
 اننى أستطيع أن أؤكد أن هذه الحادثة المسرحية لم تحدث على الإطلاق ؛
 وانه ليصعب علينا أن نعرف اذا كان من واجبا أن نعجب أيما اعجاب
 بخيال « مسيو شارم » الحصب ، أم نأسف لافتقاده الفريد لتلك الشهامة
 التي يدعيها وطنه . ويعتقد « مسيو شارم » أن مثل هذا الهجوم على
 انجلترا ، هجوم ملائم أن يقوم به فى كتابه « العصيان العسكرى فى
 مصر » ، لأن الصدق التاريخى والتذوق السليم فى نظره ، يعدان ،
 بطبيعة الحال ، أمرين فى الاعتبار الثانى تماما .

وفى ٧ ديسمبر ، جئ بالباشوات : « محمود سامى » ، و « على
 فهمى » ، و « عبد العال » و « وطلبة » ليمثلوا أمام نفس القضاة ،
 وقدموا نفس الاعتراف ، وحكم عليهم بنفس الحكم ، وطبق عليهم نفس
 مرسوم تخفيف العقوبة ، وبعد ذلك بثلاثة أيام ، جرى ل « محمود فهمى »
 و « يعقوب سامى » نفس ما جرى لمن سبقوهما ، وكتبوا ، أفرادا
 وجماعات ، اعترافات بنفس نص الكلمات التى كتبها عرابي . وكانت
 الظروف التى أحاطت بهذه المحاكمة مماثلة تماما لتلك التى سبق أن
 وصفتها من قبل بالتفصيل . واذا كان هناك احساس بأن الاهتمام العام
 بها قد فتر الى حد ما ، فان السبب الوحيد هو أن الشخصية الرئيسية
 الكبيرة ناقصة . وبعد ذلك ببضعة أيام ، بدأ العمال فى فك معالم المحكمة
 التى كانت قد أقيمت بمنتهى العناية ، وعندما تكلف اقامتها من تكاليف ،
 ولم تعد ترى الزى الفاخر للقضاة التسعة المصريين فى سجن الدائرة
 السنية ، وبهذا الأسلوب انتهت ثلاث المحاكمات من محاكم الدولة الكبرى
 للثورة المصرية فى سنة ١٨٨٢ .

وكتب عرابى هذا الخطاب الى جريدة التايمز :

الى حضرة ناشر علم العدالة والانصاف مدير جرنال التايمز بالنندن

انى قد اتبعت ما اشار به على كل من ذى الشرف المستر برودى والمستر نابيار المحاميان عنى الواجب على الدوام التشكر لهما على ما بدلاه من الهمة والاجتهاد فى مسألتى واعترفت صورة لدى المجلس العسكرى بالعصيان على الخديوى اذ أن وزراء الانكليز قد اعلنوا مرادا بأنى من العصاة فلا أوئل أنهم يبدلوا رأيهم هذا فى دفعة واحدة بل ولا يمكنهم ذلك وامتثلت أن أتوجه الى المحل الذى تعينه لى انكثرتة للإقامة فيه الى أن يأتى الوقت الذى يمكن انكثرتة من تغيير رأيها فيما يخصنى ولذا فانى لست بمتكدر فيما أصابنى ولا من الحكم الذى صدر على لكونه يدل على انى برئ فيما نسب لى من المقتلة والخريق الذى لم يكن لى فيها يد قط بل هى ففائع ضد مشروعاتنا الأساسية والشرعية ولتبقى بأن معاملى فى المستقبل بكرم الأمة الانكليزية فسأفارق مصر مطمئن القلب والناظر خصوصا الاصلاحات التى كنا نرغب فى اجرائها فى بلادنا وانه بعد مضي مدة قليلة يصير ابطال المراقبين وتخرج مصر من ايدي الأجانب المستوطنين الذين احتلوا كل وظيفة بمصر وانه يصير اصلاح حالة المجالس المحلية وتوحيد قوانينها ونشرها والعمل على مقتضاها وان يجعل للأمة مجلس نواب منها يكون لهم صوت ونظر فى مصالح الأمة المصرية وان يصير اعمال حدود المعاملة المراقبين مع الأهالى وبالوقوف على حقيقة لزوم هذا كله ليعلم لدى انكثرتة أن عصيانى له موجب وسبب عظيم - انى ابن فلاح مصرى وقد اجتهدت على قدر طاقتى فى نوال هذه الاصلاحات كلها لوطنى العزيز الذى أنا من ابناءه ومحبىه فلسوء البخت لم يتيسر لى الحصول على الغرض المقصود لكنى اتامل من الأمة الانكليزية أنها تتعم الأشغال التى ابتدأتها فاذا فعلت ما أوئلها منها من الاصلاح وجعلت مصر للمصريين كما هو واجب على ذمتها وشرفها تبين لدى جميع العالم اذ ذاك مساعى ذاك المعاصى وحقيقة مقاصده - ان الأمة المصرية بأسرها كانت معى ومجبة لى كما انى محب لها أبدا فأوئل أنها لا تنسانى عندما تتم انكثرتة لها الاصلاحات التى كنت طالبها وأحاول الوصول اليها وانى لست بمتكدر على ما نالنى بل انى مسرور جدا حيث كان ذلك ذريعة توصل مصر الى ما هى جديرة به من الحرية والعمران وعندما تتم انكثرتة اصلاحاتها أرجو من شفقتها وانسانيتها أن تسمح لى بالعودة الى بلادى العزيزة على لأشاهد ثمرات الفلاح والعمران بوطنى قبل أن أفارق الدنيا .

ها أنا متشكر للمستر غلادسطن واللورد غرانليل لتوسطهم فى مسألتى اذ انقذونى من الخطر العظيم وسيعلمان انى لم أكن عاصيا حيث جعلت نفسى قائدا لأمة كاملة لا ترغب شيئا سوى العدل والانصاف .

وكذلك أعلن تشكرى الى اللورد دوفرين وسير ادوارد مالت حيث أظهرنا نحوى غاية الملائنة وعلو الهمة كما أعلن ممنونيتى لحضرة صديقى العزيز مستر بلونت واخوانه ممنونية لا يمكن لى القيام بواجباتها اذ دافع عنى وأعاننى بنفسه وما له فى وقت الضيق والعسر حين تركتنى أجبائى من المصريين الذين كانوا يلازمون جانبى فى أيام اليسر .

أما ذو الشرف والأمانة المستر برودى والمستر نابيار فانهما بذلا غاية جهدهما فى خلاصى وخلاص اخوانى وأظهرها فى مساعيها من الأمانة وخلص الصداقة ما عجزت عن القيام بواجب شكرهما .

اتصوره وحيث أن سعادتكم كنتم لنا في مدة السجن أذاف بنا من الوالد على أولاده في حسن ملاحظتنا وشوام تفقد حالتنا والتردد علينا والسعي في قضاء مصالحنا الخصوصية وحسن الاجتهاد في معاملتنا بالعدل والانصاف فقد حملتنا مننا لا تمد ولا تعصى وأعجزتنا عن القيام بواجب شكركم عليها فنرجو سعادتكم قبول تقديم احتراماتنا وكامل تشكراتنا لدى سعادتكم .

٤ ديسمبر ١٨٨٢

أحمد عرابي المصري

خاتم

وقد أحسن « عرابي » بصعوبة بالغة وهو يكتب الى « سير ادوارد ماليت » الذي قال ، وأنا أعتقد أنه صادق في قوله ، أنه أساء فهمه منذ البداية . ولو أن « سير ادوارد ماليت » حاول بصدق أن يتغلغل في آمال وأهداف ومدى الحركة الوطنية لو أنه حتى ألقى أذنا صاغية ومتعاطفة للكثير من محن ومآسى المصريين الواقعية ، فأننى واثق أنه ما كانت الاسكندرية قد ضربت ولا كانت حرب اشتعلت في « التل الكبير » . لقد كان خطأ « سير ادوارد ماليت » ناجما من افتقاره التام الى المعلومة الشقة ، إذ أن الناس الذين وضع فيهم ثقته المطلقة أخبروه أن القضية التي كان يقودها « عرابي » ما هي الا أسطورة ، فصدق ما قيل له ، ثم جاء وقت كان مضطرا فيه لأن يستمر في تصديق ما قيل له رغم أنه *malgré lui* وكانت النتيجة هي أننا مازلنا اليوم يواجهنا الموضوع الضخم وهو مستقبل مصر ، ومازال لدينا القليل من الضوء ليهدينا طريقنا أفضل من تلك المعلومات المجنونة المليئة بالأخطاء - أعنى بذلك التقارير الرسمية المصرية *the Egyptian Blue Book* - بعد أن وصلت القاهرة ، لابد أن أقول بكل تأكيد أن « سير ادوارد ماليت » بذل كل ما في وسعه لتيسير مختلف لترتيبات التي لها صلة بمحاكمة « عرابي » ، ولكن الرسالة التي كتبها لخط يده الى « لورد جرانفيل » في اليوم السابق لوصول (١) تعطي

(١) مولاي

القاهرة في ١٧ أكتوبر ١٨٨٢

ان كبت العصيان من خلال انتصار التل الكبير قد أعقبه هدوء تام في أنحاء البلاد ، ان كان فقط على درجات . بدأ الأماي يتغلبون عن الضربة التي أفقدتهم الاحساس لفترة . طبعا لكل القاليد فان المنتصرين سينتهزون الفرصة ليتغلبوا في كل انحاء ويسكوا كل صوت لا يرتفع بالثناء عليهم .

والتقارير الواردة الآن من البلاد يبدو أنها توضح أن الناس لا يصدقون أنه ألقى لقبض على « عرابي » أو أنهم مقتنعون بأنه والسلطات البريطانية قد وصلوا الى اتفاق صالحه . انهم لا يمكنهم أن يفهموا أنه ، رغم أنه انهزم ، فهو يعامل معاملة ليا =

نموذجاً لتقارير غير عادية ، يبدو أنها كانت تصله باسمرار ، وكان من عاداته أن يؤسس عليها آراء لا تقل أهمية عنها ، ومع ذلك ، فقد عزم « عرابي » على أن يتغاضى عن ما فات ، وكتب تشكراته إلى « سير ادوارد ماليت » .

إلى سعادة السير ادوارد ماليت : المندوب البريطاني السياسي في مصر

انى أقدم لسعادتك مزيد تشكراتى على حسن مساعيكم فى معاملتى بالعدل والانصاف وبذل هممكم العالية فى خلاصى من الأخطار التى كانت محدقة بنا فأرجو سعادتك قبول تشكراتى واحتراماتى الفاتقة واخلصى فى دوام الشناء عليكم .

(توقيع) أحمد عرابي المصرى

خاتم

٤ ديسمبر ١٨٨٢

أما الخطاب التالى فقد وجهه الى زميله السجين « أحمد بك رفعت » ، والخطاب نموذج طيب لأسلوب « عرابي » عندما يرأس سلسل واحدا من مواطنيه . لقد كتبه ردا على بطاقة تهنئة بعث بها « أحمد رفعت » له :

اخى وعزيزى المحترم احمد رفعت حفظه الله آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى صديقى العزيز خضر بك اما بعد فلقد سررت وملئت شجاعة وثباتا حين تشرفت بتلاوة مکتوبكم العزيز وقلت لنفسى اثبتى مكانك تحمدي أو تستريحى ، ثم اتى بى الى هيئة مجلس فيه كثير من الرجال والنساء الكل يظهر عليهم السكينة والوقار فتلى فى المجلس عبارة حكم بانتهاء اجل محدود لم يات وتلى بعدها عبارة باستبدال هذا الحكم بالثقى المؤبد والكل غافل عن معنى لكل اجل كتاب ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا قوة الا بالله فقبلنا هذا الحكم صورة وللسياسة احكام وبعد ذلك نشر علينا كثيرا من الورد والرياحين من كان حاضرا المجلس من السيدات الاوروبات

= اعتبارها ، بينما ننتظر حكم محكمة عسكرية ، لأن مثل هذه المعاملة لا تماثل أية معاملة شهدوها من قبل أو سمعوا بها . لقد دبر « عرابي » أن يوحى للناس بالايامن بأنه يمتلكه قوة قدسية لاستعادة عظمة الاسلام ، والقول الشائع بين الناس أنه لا يمكن أن يعدمه أحد ، وأنه مع ذلك سيبرهن على أنه « المهدي » ، وأكثر الناس جهلا يرددون قصة أنه فى الوقت الراهن ، يقوم برحلة لمدة أربعين يوما عبر السموات . و « عرابي » ، بوجه عام ، متمسكة بالتعاطف مع الطبقات الدنيا ، جعله يخطو خطوات سريعة وخطيرة منذ الوقت الذى صار فيه زعيم الشعب المعترف به ، ضد الغزو المسيحي المسلح .

وانفص المجلس كانه كان مجتمع انس فجزاكم الله خيرا على نباتكم وعلى ما اظهروا من
علو الهمة في مجلس الاستفراغ هذا وقد طلبت من ذي الهمة والشرف مستر برودلى انى
لست بفرح من نجاتى من الموت ولكن يكون فرحى وسرورى بخلص اخوانى جميعا الموجودين
بمصر والسجونين بالمديريات وكلفته بالدفاع عنهم جميعا وان يلزم المجلس بان يسمح
دعواهم بالعدل والانصاف لئلا يقال انى اشتريت نقسى بدماء اخوانى الأبرياء الأحرار
فلا يأس عليكم جميعا فالآجال محفوظة ونحن على الحق واعدائنا على الباطل يعلم ذلك من
المساعدات الالهية التى ارسلت لنا احرار الأمة المحاربة لنا بعضهم من تونس وبعضهم من
انكلترا وآخرين من القسطنطينية وايتاليا (١) ومن تحريك قلوب اهل السياسة اجمعين
تلك من آيات الله فلا تكن من القانطين .

اخيكم

٢٤ المحرم ١٣٠٠هـ

أحمد عرابى المصرى

مساء يوم المحاكمة ، وجهت الى دعوة لحضور حفل عشاء فى مطعم
حديقة الازبكية ، وكان صاحب الدعوة « مستر بوميروى Mr. Pomeroy »
المندوب الأمريكى والقنصل العام ، وذلك تكريما « للجنرال والاس
General Wallace » الوزير المفوض للولايات المتحدة فى القسطنطينية ،
وحضر كثيرون من مواطنى المضيف . وكان « سير ادوارد ماليت » من بين
الضيوف أيضا . ولقد طرح موضوع « عرابى » ، وكان هذا أمرا متوقعا ،
باعتباره موضوعا من الموضوعات الرئيسية فى تجاذب أطراف الحديث .
ولقد طرح « مستر برنارد Mr. Bernard » ممثل نيو-يورك هيرالد
New York Herald « بنقله الكامل ، خطته لتملك « مستر بارنوم
Barnum » ومستر جوردن بنيت Gordon Bennett (٢) لموكلنا ،
بل ويبدو أن « الجنرال ولاس » كان من رأى أن الاقتراح جدير بالتفكير
العميق . كانت الآراء التى عبر فيها عن « عرابى » لها من السمات القوية
للمبدأ الجمهورى ما خشيت أنها لابد وستثير مقت « سير ادوارد ماليت »
الشديد . ولقد قيل الشئ الكثير عن اختيار « فيجى Fiji » كمكان
للنقى ، على اعتبار أنه فعلا منتجع أمريكى ترتاده السفن الشراعية الأمريكية

(١) أعتقد أن تلميح « عرابى » هنا المقصود به : لورد دافرين ومستر ناير سانتلانا
ومستر برودلى .

(٢) لم يكن هذا هو الحل الغريب الوحيد الذى اقترح على « لورد دافرين » ، فلقد
علمت من أحسن مصدر موثوق به أن سيدة روسية ذات جسد ونسب ، عرضت كتابة
أن تزوج « عرابى » لو سمح لها بذلك ، ومع ذلك ، فلم ير « لورد دافرين » أنه مطلوب
منه أن ينقل خطابها الى السجن .

Schooners بالاضافة الى ما سينتظر « عرابى » فى الولايات المتحدة من استقبال . قبل هذا ، كانت « فيجى » قد اقترحت فى الدوائر الرسمية على امكان أن تكون مقرا لاقامة العصاة ، ولكن بعد العشاء الذى أقامه « مستر بوميروى » لم يرد ذكرها بعد ذلك على الاطلاق . ووسط ما كان يذكر على أنه مجرد ترويح ومزاح ، كان هناك مزيج جاد من التعاطف الأمين فى مشاعر أصدقائى الأمريكين فى مصر ، وهو شعور أنا شاكر له دائما .

وفى نفس ذلك المساء (٤ ديسمبر) غادر « مستر سبانتلانا » ، الذى أدى لنا خدمات ممتازة ، غادر القاهرة فى طريقه الى روما . وفى الصباح التالى ، زرت « شريف باشا » لأتحدث معه عن مختلف الترتيبات المتصلة برحيل المنفيين لقد احتج وأعرب عن عدم رضا الشخصى للمصالحة التى سبق الوصول اليها ، وشرح لى جانباً من وجهات نظره الخاصة بالنسبة للطابع الحقيقى للحركة الوطنية ، التى أكد لى أنه هو نفسه كان فى الحقيقة رئيسها حتى أقصاه « عرابى » بوقاحة عن ذلك المنصب ، وقال شريف عنه انه (أى عرابى) نظرا لأنه « فلاح » فلا يمكن أن ينجح فى عمله . وفى اعرابى فى حياء عن أسفى لأن الصحافة بوجه عام ، تعطى الى حد ما ترجمة مغايرة لعواطفه ، هز رأسه وأعلن أن مراسلى الصحف لن يلبثوا أن يدفنوه قبل أوانه . وعند ذهابى الى سجن الدائرة السنية فى وقت متأخر بعد الظهر ، وجدت « اسماعيل أيوب » وزملاءه مشغولين فى استجواب زميل « سليمان سامى » فى هروبه الى « كريت » ، أعنى بذلك التاجر القاهرى « حسن موسى العقاد » . وما كدت أجلس حتى نهض المتهم عن عمد : « اسمعونى يا باشوات ! أنا أيضا مثل أحمد عرابى ، أطلب خدمات المحامى الانجليزى ، ولن أتكلم أكثر من هذا اذا رفض طلبى » . ويبدو أن « اسماعيل أيوب » قد أخذ تماما بحق من جرأة الطلب ، بينما أقلية من أعضاء المحكمة رفعوا أيديهم الى جباههم كدلالة صامتة على استنكارهم الشديد لمثل هذه الجرأة التى لم يكن لها سابقة . وبعد ذلك لهث « اسماعيل أيوب » ، وما أن استرد أنفاسه حتى قال موجها حديثه الى : « هل تعلم أن هذا الرجل مضرر نار an incendiary » وصاح زملاء « اسماعيل أيوب » فى صوت واحد : « وكان يوزع العصى على الأهالى ليضربوا بها الأوربيين فى الاسكندرية » ، وقال اسماعيل أيوب : « أنت بكل تأكيد لن تدافع عنه ؟ » ، وبعد مناقشة القضية ، تأجل فى النهاية البت فيها ، حتى تتاح لى فرصة لقاء السجين قبل اتخاذ قرار فيما اذا كنت سأقبل أو لا أقبل أخذ مقدم الأتعاب الذى يرغب أن يدفعه لى . هذا اللقاء ، لقاء المصادفة مع « حسن موسى العقاد » ، لم يكن الا البداية لحادثة من أغرب الحوادث فى محاكمات الدولة فى القاهرة .

الفصل السابع والعشرون

عواصرة القصر

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

بالرغم من أن « محمد على » بدأ يحكم مصر تقريبا فى مستهل القرن التاسع عشر ، الا أن اثنين من أبنائه كانا لا يزالان على قيد الحياة ، بل وكانا أصغر من بعض أقاربهما من الجيل الثالث . كان « الأمير حليم » وأخته « الأميرة زينب هانم » قد غادرا مصر من عدة سنوات مضت ، ومنذ ذلك الوقت ، استقر بهما المقام فى « استانبول » ، وقد تخلى كلاهما عن حياتهما وثروتهما من أجل حلم مشترك : أن يعتلى الأمير عرش والده . وطبقا لنظام الوراثة الاسلامى ، فإن « الأمير حليم » ، باعتبار أنه أكبر الذكور سنا من أفراد أسرة والده ، يصبح « باشا » أو « خديو مصر » بطبيعة الحال ، ولكن سلسلة من الفرمانات الامبراطورية (التى سلمت بها ضمنا كل أوروبا) غيرت التقليد القديم ، فصارت السلطة العليا فى مصر تهبط الآن فى خط مباشر من الأب الى الابن . وبالإضافة الى هذه العوائق الخطيرة جدا ، فقد كان « الأمير حليم » يجد نفسه دائما وجهها لوجه مع التزامه الرزين ، الذى من جرائه تخلى شكليا عن مطالبه ، ووافق على أنه لن يثير أية مشكلة فى المقاضاة بطلبه . وقد اعتبر كل من الأمير وأخته الأميرة دائما أنهما « فى حل » من قسمهما وكرسا بصورة ثابتة حياتهما وثروتهما ترقبا للتاج الوهمى الذى لا أمل فيه .

وكان « الأمير حليم » قد أنفق الآن كل ثروته تقريبا بين أتباعه فى مصر ، وفيما كان يدفعه لصحف القارة الأوروبية من اعانة منتظمة ، ولكن أخته كانت لا تزال غنية ، وكانت على استعداد لأن تنفق مزيدا من المال ، اذا سنحت الظروف بذلك . وكان « حليم » فى ذلك الوقت شخصية

مرغوبا فيها Persona granta عند الباب العالى والقصر، وكان المخرّوف أن تركيا ترحب به فى سرور ، ليحل فى أية لحظة محل ابن أخيه المتقلب الأطوار ؛ ولم تكن فرنسا ، الآن ، فى كافة الاحتمالات ، معارضة تماما للتغير . لأنه مثلما أن ميول « حليم » لم تكن كلها تركية ؛ فمن الواضح أنها كانت فرنسية أيضا . وكاد « حليم » وأخته يقتربان ، فى كل مناسبة ، من احراز نجاح . لقد سمعت أن آماله كثيرا ما كان يسخر الناس منها فى القاهرة ، حتى أطلق الناس عليه فى سخرية « المطالب الدائم بالعرش The Perpetual Candidate »؛ ولكن، كحقيقة، حدث فى ربيع السنة الماضية ، أن أعد فرمان ، فعلا ، بتعيينه ، وكانت قد استؤجرت الباهرة التى ستقله الى مصر ، عندما ألغى المشروع نظرا للمعارضة القوية المشتركة من جانب كل من انجلترا وفرنسا .

ولم يكن « الأمير حليم » وأخته يميلان لأن يجلسا ساكنين فى ظل أحدث خيبة أمل لهما . ان عدم شعبية ابن أخيهما ، « توفيق » التى لا توصف ، قد زادت فى قسوة حزبهم فى مجتمع الحريم Scraglios فى القاهرة ، ورأيا ، وهما راضيين قوة الحزب الوطنى المتزايدة ، وتقدمه السريع ، وكان واضحا أن محنة سياسية كبيرة فى مصر تلوح فى الأفق ، وأنه يمكن أن يكون هناك أمل فى أى شيء ، من جراء الصراع العام الخطير الذى ستسببه بلا شك ، بل يمكن أن يكون هناك أمل حتى فى المستحيل نفسه . فى هذه النقطة فكر « حليم » وأخته فى مشروع تبنى أفكار « عرابى » ، بالاتفاق اما معه أو مع أصدقائه ، وفى النهاية ، يصل « حليم » الى السلطة كحاكم شعبى ، على أكتاف الحزب الوطنى ؛ ونتيجة لذلك ، صار أمرا بالغ الأهمية لهما : الدخول فى نوع من المفاوضات مع الزعماء الوطنيين .

وكان « عثمان باشا فوزى » (١) الوكيل العام « ملائمة زينب » فى القاهرة ، وكانت ذكرى « محمد على الكبير » عنده أسطورة لها تبجيلها ، وكان على استعداد لأن يخاطر بأى شيء من أجل ابن سيده السابق . لقد أوّمن على مهمة جس نبض « عرابى » واخوانه ، ولكى يفعل هذا بصورة فعالة ، صار « عثمان باشا فوزى » التركى ل Turk pur sang من تلك اللحظة وطنيا متحمسا فى كل المظاهر ، ولم يكن هذا بكاف ، اذ كان هناك أمر ضرورى تماما على « عثمان باشا » القيام به وهو أن يبحث عن وسيط سياسى يمكن الاعتماد عليه ليقوم بدور الوساطة فى مفاوضات « حليم » المغرضة مع رؤساء الحزب الوطنى .

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

وبعد تفكير مترو ، قرر « عثمان باشا فوزى » أن يجس نبض « حسن موسى العقاد » ، الذى كان قد عاد منذ بضعة أشهر سابقة من فترة نفي ثانية فى السودان . وصار الآن ينادى علانية بولائه الشديد لـ « عرابى » ولقضية الحرية المصرية ، ولم يكن « حسن موسى » لـ « مضم نار » ولا « متعصبا » ، فهو لم يساعد قط فى حرق الاسكندرية ، ولم يوزع على الاطلاق عصيا على الشعب النائر . لم يكن « حسن موسى » لا أكثر ولا أقل من مغامر سياسى شديد الذكاء ، له عين حادة يبصر بها الفرصة السانحة ، وكان ذا عزم قوى لتحويل التعقيدات القابضة الى أحسن تيسير مستطاع . وبالرغم من أنه كان رجلا له أساليب خطيرة ، الا أنه كان يتطلع الى السياسات على أنها وسيلة لزيادة ثرواته ، وقد تصور أنه رأى فى صداقته لـ « عرابى » كنز الدورادو El Dorado (١) حقيقى لمؤامرة . هناك قصة قديمة عن شاه فارسى سأل واحدا من خلائه ما هى أعظم منة يمكنه أن يمن عليه بها ، فأجابته النديم : « أن تسمح لى يا مولاي بأن أحدثك حديثا هاما لدقيقة واحدة كلمما أخذت مجلسك فى ساحة القضاء » - ولم يكن سلوك « حسن موسى » الا تصورا لنفس الفكرة . لقد كان يتردد على جماعة عرابى لا لشيء الا ليتظاهر بأن له تأثير معين عليه ، وان كان فى الواقع ليس له من تأثير . لقد فهم الشاه الفارسى هدف نديمه ، أما عرابى ، فلم يسبر غور خطة « حسن موسى » الماكرة ، وهذا هو كل الاختلاف . وكان « حسن موسى » (وهو ما أخشى أن أقوله) نقطة ضعيفة فى درع عرابى ، ولكن حتى هنا ، كان شرفه وإيمانه الصادق أكثر وضوحا بصورة نادرة .

ولأول ولآخر مرة ، أستطيع أن أؤكد أن « عرابى » لم يكن فحسب يجهل على الاطلاق بالصفقة التى كانت تتم بين « عثمان باشا فوزى » و « حسن موسى العقاد » التى سأسردها بعد ، بل ولم تكن له على الاطلاق فى أية فترة من فترات حياته أية اتصالات أو علاقات « بالأمير حليم » ، أو بأى من الأشخاص الآخرين الذين لهم اهتمامات فى مؤامرة القصر ، التى صار فيها الشخصية الرئيسية ، وفى الواقع ، لقد دبر أعضاء قومسيون التحقيق أن يكشفوا النقاب عن بعض تفاصيل خيوط هذه الحيانة العظمى المصرية الشديدة التعقيد بأسلوب عجيب ، لأن التحقيق طابق خبراتهم الشخصية السابقة وساعد فى اعطائهم بعض الأهمية من جديد بعد انهيار

(١) يضرب المثل ببلد له ثرائه الأسطورى العريض بـ « الدورادو » (وهى من دول أمريكا الجنوبية) ، وكان لهذا الثراء الأسطورى ما جذب اليها المستكشفين الأسبان الأوائل . (المحقق)

القضية الكبرى • ومن كافة الأشخاص الذين مثلوا أمامهم خلال مباشرتهم أعمالهم ، كان « حسن موسى » أكثرهم ذكاء الى حد كبير وأقلهم اختلاطا • لقد التزم موقف الجهل التام أو الموقف المتروى ، إذ أنه التزم فى اجابته من البداية الى النهاية بعبارة « أنا لا أتذكر non mi ricorbo » • لقد رفض « حسن موسى » على الاطلاق الاجابة على أية أسئلة مخرجة أو تورطه هو نفسه أو أى شخص آخر • وقبل أن أغادر القاهرة ببضعة أيام ، قال « انسماعل أيوب » انه ما من شيء أثر فيه تأثيرا كبيرا لصالح عرابي ، طوال تحرياته ، مثل نتيجة تحرياتهم فى تفاصيل المؤامرة الحليمية Halimist Plot (نسبة الى « الأمير حليم ») • فالدليل على أمانة « عرابي » السياسية فى وجود اغراءات ضخمة لم يكن سلبيا فحسب بل كان وضعيا ، وكان كافيا لأن يخرس أعداءه •

ما كاد يصل « حسن موسى » الى القاهرة ، حتى تعرض بيته لتفتيش دقيق ، وقد وجد فيه الكثير من الأوراق ، ولكن أية ورقة منها لم تكن تفيد فى شيء ، إذ كانت كل خطاباته مكتوبة بنوع من الشفرة طريف جدا : فيها أسود (ج أسد) ونسور وزهور وعندليبات ، وشخصيات تاريخية ، امتزجت فى خلط لا أمل فى كشف ما وراءه • ووسط كل هذه الحثالة من الأوراق ، وجدت ذرة من ذهب ، إذ على جذادة صغيرة من الورق وجدت قائمة طويلة لكمبيالات بمبالغ ضخمة تلقاها « حسن موسى » من « عثمان باشا فوزى » ، اننى أشعر ، عن يقين ، أن هذا الاكتشاف هو الذى دفع « حسن موسى » أن يضمّن خدماى كمحامى ، وفى نفس عصر ذلك اليوم ، وصلتني رسالة فى اثر رسالة من « عثمان باشا فوزى » يتوسل ليلى أن نأتى اليه ونراه بقصد استئناف الدفاع عنه •

لقد اختل « ديلي Delli » « عثمان » و « حسن موسى » زنزانتين تكادان تكونان موجهتين تماما لبعضهما البعض ، فى الطريقة التى قسمت بعد ذلك لتستخدم للسبغة المنفيين بناء على وعد بذلك التقسيم • وعندما رأيتهما فى آخر النهار ، كان كلاهما شديد الانزعاج ، وكان كل واحد منهما يئمنى لو استطاع أن يجعل من الآخر كبش فداء ؛ فقال « حسن موسى » أنجوك أن تنصح « عثمان باشا » أن يعلن أن كل ما فعله هو أنه أعطانى تلك الكمبيالات خلال أكثر الصفقات التجارية براءة ، وليس تحت أية ظروف كتبت الايصال الذى أعطيته له • ورد « عثمان باشا » على ذلك قائلا لى : « قل لى « حسن موسى » أن ايصاله هو المبرر الوحيد لى وأنا فى الحقيقة لا أعرف أكثر مما يعرف طفل لم يولد ، لماذا دفعت الأموال • أليس « حسن موسى » تاجرا ؟ ألا يمكن أن تكون هناك بعض

المعاملات التجارية مع الأمير « حليم » ؟ ألا يمكنك أن ترتب معه وتوحي إليه بمثل هذا الدفاع ؟ » .

وقد قدر لشخصية أخرى مرموقة أن تظهر عند اقتراب مواجهة « حسن موسى » و « عثمان فوزى » ، وكان محررا لها اليوم التالى (٦ ديسمبر) ؛ إذ فى بعض كتب أو أوراق « حسن موسى » ، ورد ذكر للشيخ المبجل « الشيخ حسن العدوى » ، الذى صار الآن ، بعد وفاة رئيسه مؤخرا ، رئيسا للعلماء المصريين وشيخا للجامع الأزهر الشريف . كان « الشيخ العدوى » واهنا كبير السن ضعيفا ، يثن تحت حمل سنواته الثمانين . يكاد يبلغ طوله خمسة أقدام حتى فى أحسن أيامه ، ووجهه مجهود وغائر حتى كادت عيناه لا تبيينان . كان بوجه عام ملتفا بازار ليس نظيفا تماما ، مبطن بخطوط من الفرو . كان يرتدى شالا ناصعا من الكشمير وعمامة جميلة ، وكان يحمل معه مسبحة ومصحفا . وفى زنزانته (التى كان يقاسمه فيها « عبد الغفار بك ») كان يجلس على سجادة فارسية جميلة ، وكان يبدو دائما أنه نصف مدفون فى المصاحف والمخطوطات المزخرفة . لفترة ، أبعدنا عنه ، وبرهن ل « عبد الغفار » ، بأسلوب يبعث على الاقناع ، أن استخدام المحامين الكفرة جريمة ضد القانون ، ويبدو أنه كان على استعداد لأن يلقي علينا محاضرة عن تطفلنا بالدخول فى غرفته ، وبعد ذلك ، غير وجهة نظره تماما ، وطلب منا أن نساعد له لو كنا قادرين على ذلك ، واكتشف أن مختلف الفقرات فى مؤلفات أكثر المعاقين وعيا - تقر بأن المسلم يلجأ الى الكافر فى حالات الخطر المؤكدة والهلاك الوشيك ، ومع ذلك ، كانت روح « حسن العدوى » العجوز لا تزال غير مطمئنة . وتحت هيكله الواهن ، ما لبثت أن اكتشفت وطنيا وباحثا غيورا على العدالة ، وأخلاقيا الى أبعد الحدود . لقد كان مؤيدا قويا ومخلصا ل « عرابى » ، وبالتالي ، تبين أنه لم يثلق من « حسن موسى » الا القليل من المال الذى وهبه صدقات لحساب مسجده . وإذا كانت عندى ذكريات عن اقامتى فى مصر ، فاننى لا أجد أعظم قدرا من أربع سور قرآنية مزخرفة زخرفة جميلة بعث بها الى : الرجل العجوز الأزهرى ، بعث بها اليوم عقب اطلاق سراحه . انها فى الحقيقة هدية لها قدرها ، إذ ندر أن يهدى المسلمون بأمثالها للمسيحيين .

لقد بدأت المحاكمة بمواجهة « عثمان باشا فوزى » ب « حسن موسى العقاد » . استجوب « اسماعيل أيوب » أولهما عن : متى ولماذا ظهر مثل هذه الكمبيالات الكثيرة ل « حسن موسى » ، فأجاب « عثمان باشا فوزى » أن لديه بعض الأوراق فى داره ، تحتاج الى اجراء بحث دقيق عنها ، وانه لا يستطيع أن يعطى أية معلومة بدونها ، ولم يقل « حسن موسى » شيئا ،

ولكنه همس ما يفهم منه أنه كان يدعو الله ألا يجد « عثمان باشا » أوراقه بالمرّة . ثم استدعى الشيخ العجوز ، وسئل في حدة اذا كان قد تلقى أية أموال من « حسن موسى » . ومرة في اثر مرة ، رفض « اسماعيل أيوب » قبول اجاباته . وبعد أن أحس « حسن العدوى » بتعبه واجهاده ، أراح ذراعيه أخيرا على المنضدة ، وتحدث على الوجه التالى : - « أيها الباشوات ! ماذا فعلته حتى ترهقوننى بهذه الصورة ؟ لو كانت لكم زوجات كثيرة وجوار ، فأنتم مدينون لى بوجودهن . ألم يسع « اسماعيل باشا » الى الغاء تعدد الزوجات والحض على الزواج من واحدة ؟ ألم أكن أنا الشيخ الذى برهن على أن تجديد مثل هذا (يقصد قصر الزواج بواحدة) مخالف لكتاب الله تعالى ؟ أهذه هى مكافأتى ؟ » ، وبسرعة أجل انعقاد الجلسة .

فكر « عثمان باشا » طويلا فى قلق فى موضوع أوراقه . لقد صمم (وهذا ما شككت فيه) أن يظهر فى النهاية بعضها ويخفى البعض ، وكانت فكرته هو أن يبرهن على أنه يعمل فحسب كوكيل فى دفع المال أو تظهير الكمبيالات لـ « حسن موسى » ، وفى الوقت نفسه ، لالقاء قليل من الضوء ، ما أمكن ، على وجهات نظر مستخدميه ، وقد قرر القومسيون أن يستأنف تحرياته بعد ذلك بثلاثة أيام (٩ ديسمبر) . وفى المساء السابق ، أخرج « عثمان » مطروفا مهلهلا مكتوبا عليه بالفرنسية : « الى والدى » ، وكان يداخله البيان التالى :

كمبيالات على البنك العثمانى الامبراطورى بمبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه لأمر سعادتلو عثمان باشا ، وكيل صاحبه السمو الأميرة زينب (أرملة كامل باشا) على الوجه التالى :

رقم	٤٣٧٣٦	١٢٠٠	جنيه
رقم	٤٣٧٣٧	١٢٥٠	»
رقم	٤٣٧٣٨	١٣٠٠	»
رقم	٤٣٧٣٩	١٣٥٠	»
رقم	٤٣٧٤٠	١٤٠٠	»
رقم	٤٣٧٤١	١٧٠٠	»
رقم	٤٣٧٤٢	١٨٠٠	»

١٠٠٠٠ جنيه

القسطنطينية ، ١٣ يوتيو ، ١٨٨٢

وفيما يلي إيصال « حسن موسى » :

لقد تسلمت من سعادة عثمان باشا الكمبيالات الأولى والثانية والتي
يبلغ مقدارها ١٠ر٠٠٠ جنيه .

(توقيع) حسن موسى

انعقدت المحكمة في الساعة العاشرة في اليوم المحدد ، وكان مستر
فيليرز Mr. Villiers موجودا ، لتحقيق رغبة « اسماعيل أيوب » وهي
رسم أعضاء القومسيون الذي يرأسه ، لأنه كان لا يزال يحس ببالغ
الحقد على الشهرة والشعبية التي انتهت فجأة على مجموعة المحكمة
العسكرية . في وسط المائدة المغطاة بالجوخ ، جلس الرئيس بينما جلس
سكرتيراه « يوسف أفندي » و « ماهر أفندي » اللذان جلسا قبالة
تقريبا . أما الخمسة أو الستة أعضاء « المتبقون » ، فقد التفتوا حول
المائدة في أعداد متساوية ، واحتلت أنا نفسى كرسيًا قرب واحد من
السكرتيرين ، وبجانب « عثمان باشا فوزى » ؛ و« حسن
العدوى » بجانبه ، في موقع يكاد يكون في مواجهة « سير تشارلز
ويلسون » ومترجمه مستر ماكولوج Mr. Mc Culloch قدم « عثمان
باشا فوزى » أولا أوراقه التي قرئت في حينها ، وقد ساعدت بعض
اشعارات البنك العثماني أيضا في إيضاح أن اجمالي المبلغ الذي تلقاه
« حسن موسى » من الأميرة زينب وصل الى ما يقرب من ثلاثين ألف جنيه .
وقد استجوب « حسن العدوى » مرة أخرى : « هل تلقيت أية أموال
من « عثمان باشا فوزى » ؟ » فكان الجواب : « أبدا » . وفجأة ، بدا أن
« اسماعيل أيوب » مر بذهنه خاطر : تذكر أن الصورة التي ستخلد
أعماله آتية ، ففكر تغيير الاستجواب بأسلوب مسرحي مباغت Coup
de théâtre وخادع ، وفي صوت كالرعد سأل اسماعيل أيوب الشيخ
العجوز الواهن « اذا لم يكن قد تجرأ ووقع وختم على قرار يعلن أن صاحب
السمو الحديو يستحق أن يخلع ؟ » . بدا « حسن العدوى » فجأة وقد
استعداد حماس شبابيه القديم ، فمال الى الأمام ، باسطة يده ، وناظرا في
ثبات الى اسماعيل أيوب ، وقال « آه ، يا باشا ! لا يمكنني بدون أن
أرى الوثيقة التي يتحدثون عنها أن أقول ما اذا كنت قد وقعتها أو
ختمتها ، ولكن هذا ما أقوله فعلا : لو أحضرت لى قرارا لكتب بالمعنى
الذي تذكرونه ، فسأكون على استعداد لأن أوقعه وأختمه في حضوركم ،
حتى لو كان الآن . لو كنتم مسلمين ، فهل تنكرون أن « توفيق باشا »
قد خان بلده ولجأ الى الانجليز ، هل يعد بعد جديرا بأن يحكمنا ؟ » .
ولو أن قنبلة سقطت فجأة وسط الغرفة لما أحدثت ذعرا أعظم من ذلك



شكل ١٢ - الشيخ حسن الدوي أمام كومسيون التحقيق

الفصل الثامن والعشرون

سيدات مصر والوطنية المصرية

لم يحدث فى أى جزء من أجزاء العالم أن خططت المرأة لكى تمارس المزيد من النفوذ السياسى الفعلى مثلما فعلت المرأة فى الشرق ، ولعبه لم يكن للمرأة نفوذ له قوته كدافع فى شئون الدولة مثلما كان نفوذ المرأة فى مصر : اذ فى الحريم المصرى ، وجد عرابى بعضا من أكثر أشياعه وطنية ونفوذا • لقد كانت القضية الوطنية ، حتى فى مراحلها الأولى ، تؤيدها بحرارة : الغالبية العظمى من سيدات مصر ، وقد استمررن فى تأييدها حتى صار الأمل منها ميثوسا ، ولم يكن سرا أن أعلنت أميرات الأسرة الخديوية (باستثناء على الدوام لأم الخديو توفيق وزوجته) تعاطفهن القوى مع « عرابى » • وقد ذكرت « الوقائع الرسمية » حتى اليوم الذى أعقب ضرب الاسكندرية ، الهدايا المجانية من الخيول التى وهبتها للجيش « أم الخديو اسماعيل » المسنة ، وابنته الأميرة « جميلة هانم » ، وشكلت اتحادات تحت رعايتهما لنجدة واغاثة الجرحى فى كفر الدوار واعداد امدادات من الأتيال والضمادات ليستخدما الجراحون فى الجبهة • هذا المظهر فى تاريخ الحرب يقدم بكل تأكيد ردا من الردود الجديرة بالملاحظة تماما على من ينكرون سواء شمولية universality أو تلقائية Suontaneity حركة عرابى •

وبعد بضعة أيام من انتهاء المحاكمة ، دهشت لأن يزورنى خادم أمين من طرف « الأميرة أنجى » أرملة « الخديو السابق سعيد باشا » ،

التي تعد واحدة من أكثر النساء حبا للخير وأكثرهن شهرة في مصر .
جاءني بخضاب من سيدته كما جاءني بكتير من الهدايا الشمينه لكننا
مستتر ناير وشخصي ، واني اذ أنشر رسالتها فيما يلي ، التمس لنفسى
تذرا وحيدا فى نشر رسالتها بما فيها من اطناب فى المديح ، هو أنها
أهم دليل على ما لـ « عرابى » من تأييد فى داخل البلاد ، وفيما يلي نص
رسالة الأميرة :

جناب بهى الشيم سنى الهمم الموسيو برودى الأفوكاتو المحترم

بعد اهدائى لجنايبكم واجبات الشناء بكل احترام كما هو لايق بالمقام

بما ان هذا القطر المصرى قد شرف بوجودكم وآمال السعادة بطلعتكم البهية ونور ذاتكم
المرضية فحصل عندنا وعند عموم أهالى هذا القطر مزيد السرورية من حسن وداد وصدقة
مساعى جنابكم الحيرية التى اوجبت اظهار العدل والانصاف بانفاسى جنابكم الطاهر ،
فلا برحت ايام السعادة الى جنابكم ناظرة ولازلنا مؤملين بمسيلة البارى تعالى مرور العدل
دايما على هذا النسق الذى هو قدركم ثم ولما انشهرتو به من المساعى الحميدة والفعل المبرور
الذى خلد فى قلوب الأهالى السرور حملنى بالشكر لجنايبكم واظهار ممنونيتى لنعوكم حتى
يبيضو تاريخ دولة انكلتري المتصفة بالعدل والكرم وعلو الشرف من القدم لازالت السعادة
محاطة بها مع بقاء عزها حيث أنها هى الواسطة فى ازالة الكرب ولما اشكر خصومها
الجنايب المحتشم جناب الموسيو بلونت الذى له اليد والباع الطويل فبدلك لكونه أجرى
المساعى واهتم بقصد تشريفكم لهذا الوطن حفظكم الله وياه من كل سوء وبلية ليفوز
بالحصول على زيادة السرورية وكذا نتشكر من جناب مندوبكم الذى قام بتادية رسالة
البشارة وشرف سرايتى وأبلغ بما يسر الجميع وزادنى سرورا باظهار الحقائق وعليذلك فانه
لا يمكن تادية كمال الممنونية والتشكرات الكفية بالنسبة لشعورتكم بالمساعى الحميدة التى
خلدت لجنايبكم ذكرا جيلا لا ينكر واتمنا لجنايبكم دوام العزة والاقبال محظوظين بالدولة
البراتنيا العظما ودعم .

١٥ ديسمبر ٨٢

خاتم انجى

بعد ذلك ببضعة أيام ، كان لى شرف الاستماع الى الأميرة ، التى
كانت تود أن تحدثنى حديثا غير متحفظ عن المشاعر الحقيقية للأسرة
الخدوية فيما يتصل بأسباب ونتائج الاحداث الراهنة فى مصر .

قالت الأميرة « ان كل فرد منا يتعاطف سرا ، من بادى الامر ، مع
« عرابى » لأننا كنا نعرف أنه لا يسعى الا لخير المصريين . لقد اعتقدنا
مرة أن « توفيق » كان أيضا فى جانبه ، ولكن عندما اكتشفنا أن
« توفيق » يقصد خيانة مصر ، كرهنه من قلوبنا . ولقد بذل توفيق كل
ما فى وسعه ليجعل حيواتنا بؤسا منذ ذلك الوقت . لقد عرفته الأميرة

« انجى » التى نبجلها جميعا ، عرفته مرتين وفى منتهى الوضوح ، بسوء مسلكه ، ولكن لم ينصلح حاله بأية صورة ، ثم ما لبث بعد ذلك أن ذهب « توفيق » الى الاسكندرية ، وبعدها سمعت أنه انحاز تماما الى الانجليز ثم استقر رأينا جميعا منذ هذه اللحظة أن نتطلع فقط الى « عرابى » للدفاع عن البلد ، وعقدت اجتماعات من كل كبراء مصر فى القاهرة ، حضرها « الأمير ابراهيم » و « الأمير كامل » (١) والأمير أحمد واستقر الرأى بالاجماع بتفويض « عرابى » باستئناف الحرب . لقد رأينا فى « عرابى » محررا ولم يعرف حماسنا له أية حدود . اننا جميعا بعثنا له بخطابات وتلفراف بتهنئته وتشجيعه ، لقد كتبت الأميرة الى « عرابى » خطابا غاية فى الحماسة ، اذ عرضت عليه فيه ، على ما اعتقد ، أن تزوجه باعتباره منقذا لمصر ، فكان كل ما قاله لها عرابى أن تهتم بشئونها وأن تبقى فى دارها . لقد ساهم كل فرد منا فى تكاليف الحرب طبقا لامكانياتنا . وكنا نحن الأميرات مشغولات دائما بعمل ضمادات للجنود ، وفى يوم من ايام سبتمبر ، عاد « عرابى » الى القاهرة وسمعت أول ما سمعت أنه جاء مع برأسى « الجنرال ولسلى » « والأميرال سيموز ، ولكن تبين أن هذه الاشاعات لم تكن صحيحة ، وأنه كان يعانى من هزيمة منكرة . عننا جميعا حزن شديد ، ولكننا لم نكن بالغت الاكتئاب تماما مثلما صرنا عندما علمنا بعودة « توفيق » منتصرا ، لأننا توقعنا جميعا سوء معاملته لنا ، وقد كان : فقد بعث أولا فى طلب الأميرة المسكينة وعنفها لمكاتبتها لـ « عرابى » ، ولكن أمها ، مع ذلك ، أعلنت فى شجاعة أنها هى التى كتبت الخطاب وختمته بخاتم ابنتها ، فكان مآلها الطرد بعد ذلك ، ولكن الأم عنفت بصوت عال : الأغا الذى وشى بهما عند الخديو باستمرارها فى مراسلة « عرابى » ، وضربه فوق رأسه بكرسى ، فجرى بعد ضربه ، وهو يدمى ، الى سلم الخديو «توفيق» ليعلن عن شكواه .

وفى النهاية ، صدرت لنا جميعا الاوامر بالذهاب الى القصر ، كثيرات من السيدات كن يصحن خوفا ، ولكن أم توفيق « عنفتنا بصوت عال وقالت ان بطلنا « عرابى سيسلمه الانجليز لهم ليقتلوه قتلا بطيئاً بالمخاريز bodkins وأمسكت بقائمة فيها أسماء كثيرات منا سجلن

(١) لقد أعلن الأمير كامل أمام قوميون التحقيق أنه حضر الاجتماع ببعض ارادته وأنه لم يخضع لآى ضغط فرض عليه ليؤثر على رأيه ، وأنه صوت عن عمد لاستمرار الحرب لأنه كان يؤمن أن من واجبه أن يفعل ذلك » .

لينفذ فيهن حكم الاعدام (١) ، ولكنى منذ أن تبين أنه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئا سواء لنا أو لعرابى بدون موافقة الانجليز ، من وقتها وهم يكرهون الانجليز الآن أكثر من كراهيتهم لنا . ولما عرف فى القصر أن حياة « عرابى » قد أبقي عليها ، استسلمت النساء لحزن وكآبة شديدين ، كما لو كان الموت قد حل بالأسرة فجأة . كان رأينا عن المستقبل رأيا اجماعيا تماما ، وهو أنه بعد كل ما حدث ، فانه طوال حكم توفيق ، فلن يكون هناك سلام بالنسبة له ، ولنا ، أو لمصر .

وقد أتيت لي فرصة بعد ذلك لرؤية « توفيق باشا » مرتين ، عندما تنازل واستقبلنى فى اجتماع خاص فى قصر عابدين ، وعندما وصلت الى هناك صباح يوم ١٢ ديسمبر ، كانت الأبواب يحرسها حراس بريطانيون ، وبعد تناولى القهوة فى غرفة رئيس المراسيم فى الطابق الأسفل ، قادنى « تونيو بك Tonio Bey » الى سلم عريض من الممر يؤدي الى غرفة مكتب ضخمة مؤثثة بأثاث فرنسي ، وبها ساعات كثيرة وشمعدانات عديدة والسجاد المزخرف بالأسلوب الشرقى، وكان « توفيق » جالسا على كنبه على الطرف الأقصى من الغرفة ، وكان هناك شخص آخر مندثرا كله ، وكان يحتل كرسيه على مسافة بعيدة ، قدمه الى رسميا ، وأخبرنى فى الوقت نفسه ألا أعير اهتماما لزياره لأنه لا يستطيع أن يتحدث أو يفهم أية لغة أوروبية . بعد ذلك سمعت مصادفة أن من كان حاضرا وقت اللقاء ، كان رئيس الاساقفة الأقباط . كان « توفيق » قصير القامة ، مكتنزا وعصبيا ، ولم يكن ينقصه الذكاء على الإطلاق ، كانت عيناه وفمه تكشف بوضوح عن ضعف خطير فى الشخصية . وبالرغم من أن تعليمه كان كله فى مصر ، إلا أنه كان يجيد الفرنسية تماما ، كما كان على المام طيب جدا بالانجليزية . وكانت أفكاره وآراؤه وطريقة تفكيره ، كانت مع ذلك كلها شرقية . كان سلوك « توفيق » سلوكا قلقا بصورة دائمة لا يمكنه التحكم فيه مما يعطى دليلا لا يمكن أن تخطئه على تردده التام فى الوصول الى الغرض . هذا العجز الذى يؤسف له فى اتخاذ قرار يؤدي به دائما الى أن يفعل أفعالا مناقضة تماما لطبيعته الطيبة . « توفيق » ، باختصار ، يعد ملكا شرقيا دستوريا فاشلا *manqué* لقد حاول ، وإن كان لم يحالفه التوفيق ، أن يرضى كلا الجانبين ، كما فشل بمؤامراته فى ارضاء كليهما . وفى وقت من الأوقات ، كان من السهل أن يرأس الوطنيين ويكسب ثقة الشعب المصرى ، ولكنه عن عمد أضاع فرصته . ومن اللحظة التى تشاحن فيها

(١) لقد حذفت جانبا كبيرا من هذا الجزء من القصة (المؤلف) .

مع « عرابى » ، ليضيع وقتنا أولا مع تركيا ثم مع القوتين العظميين ، صار أكثر شخص مكره فى مصر كلها ، ومن الصعب اخفاء الحقيقة . كاد يكون مستقبله أمرا ميثوسا منه ، وكانت أية بداية طيبة تحت رعايته أمرا مستحيلا ، وسيكتب اسمه فى التاريخ على أنه « الأمير » الذى جاء بالانجليز الى مصر ، وهولندا ، لعنه كل المصريين ، بالفعل ، ما بين « قنا والاسكندرية » (١) ، ولم تكن جهود انجلترا المستمرة فى الاستعانة به كوسيط محترم مناسب ، ليتدخل (وكثيرا ما يكون تدخل خير) فى الشئون المصرية . لم يكن فى قيامه بهذا العمل الا تكتيفا لهذه الكراهية ، وأكسب انجلترا صفة المشاركة فى أفعاله مثار الشك والريبة . لقد كانت أفعاله أشبه ما تكون بإبراز قماش أحمر لثور نائر . ان موقف « توفيق » الجنونى الراهن ، يعيد الى الازهان ما كنا نتغنى به فى طفولتنا :

« جلس : هامتى دامتى Hampty Dumpty على السور

« فسقط هامتى دامتى سقطة شديدة

« ولم تستطع كل خيول الملك ولا كل رجاله

« أن يعيدوا ل هامتى دامتى انتصاب قامته مرة أخرى » .

جلس « توفيق باشا » مرة فى ثبات ، على سور الوطنية المصرية ، ولكنه لم يتخل فحسب عن القضية بل خانها ، ثم سقط ، ولكن « لم تستطع كل خيول الانجليز ولا كل رجالهم » أن يعيدوا له حب أو ثقة رعاياه الساخطين عليه .

وبعد أن قدم لى سيجارة ، بدأ الحديو حديثه معى بأن أكد لى بأن آراءه بالنسبة للمحاكمات الأخيرة قد أسبى فهمها تماما فى أوروبا ، وأنه كان هو ، بوجه عام ، ضحية التمويه الخبيث . انه لم يرد أبدا ، أو يؤيد أبدا ، اعدام المسجونين ، وأن تخفيف عقوبتهم كان عن رغبة وكان ممارسة سارة للرأفة والرحمة . لقد لاحظت ، وأنا خجل ، أنه مما يؤسف له أن مراسلى الصبحف الموهوبين والشقات ، قد نقلوا للعالم ترجمة مختلفة تماما لوجهات نظره (٢) ، وبصورة أخص الأوروبية والعربية المحلية التى

(١) يقصد المؤلف بعبارة « ما بين قنا والاسكندرية » : من أقصى البلاد الى أقصاها .
(المحقق)

«Restoration in Egypt
Mr. Ardern Baman

(٢) فى مقاله الشهير عن « عودة الملكية فى مصر
جريدة «Fortnightly Review» كتب مستر آردون بيمان

صورته ، باستمرار ، كما لو كان قد فرض عليه فرضا كتابة قرار النفي .
انه لم يجب ، بل سألني اذا كان عليه أن يلتقى بمزيد من الصحفيين
اذ يجد من الصعب عليه أن يلتقى بهم لقضاء وديا ، وفي الوقت نفسه
لا يقول لهم شيئا ، ثم فجأة ، غير مجرى حديثه الى موضوع جحود أسرته
هو نفسه تجاهه . لقد أنهى عليهم بما فيه نفعهم ولكنهم « تنكروا له
ووخزوه » ، لقد علم أن الأميره ٠٠٠ قد قالت هذا « للورد دافرين » ، وأن
الأميره ٠٠٠ أكدت ما قالته الأميره ، ولكن كل ما قيل ليس صحيحا وقال
انه كم يكون سعيدا لو لم تلاحقه ألسنة الأميرات وأقلام رجال الصحف ،
وقال ان أباه هو نفسه لن يتركه وحده ، فقد كان « توفيق » يبعث
دائما بخطابات غاية في الأدب والاحترام ومع ذلك ، اتهمه « اسماعيل
باشا » لشخص ما ، كتب عنه بعد ذلك في « التايمز » بأنه لا رأس له
ولا قلب ولا شجاعة *ni tefe ni coeur ni courage* (١) حاولت بعد ذلك أن
أتحدث قليلا عن « عرابي » ، فقال الخديو انه يعتقد حتى الآن أن « عرابي »
رجل طيب ، ولم يعتقد اطلاقا للحظة أن عرابي فكر مرة في قتله ، ولو
كانت عنده هذه النية لفعلها مائة مرة عندما كانا معا في القاهرة . أما
بقية الحديث فقد تناول تفكر « توفيق » الجنوني لعجزه عن ارضاء أي
فرد . لقد ائتمنتني ، على أية حال ، لو أمكنني ذلك ، أن أقول عنه انه
لم يكن انتقاميا *vindictive* أو قاسيا *cruel* كان الانطباع
الذي خلفه « الخديو توفيق » على ذهني انطباعا مؤلما جدا ، حتى أنني
لم أكن آسفا ، و « توفينو بك » يقودني مرة أخرى ، مارا بالمستشفيات
الرجاجي الضخم ، هابطا السلالم العريضة المغطاة بالسجاد الى البوابة
الخلفية حيث كان توماس آتكينز *Thomas Atkins* (٢) يمشي ببطء جيئة
وذهابا ، يحافظ على أمن الخديو المصري الذي استعاد ملك ولايته .

معلومة خاصة عن موضوعه جاء فيها : « لم يضمر « عرابي » ل « توفيق » أي سوء نية ،
حق صار واضحا له أن أوربا ستستخدم « توفيق » للتعمية *as a stalking-horse*
في الضغط على الحركة الوطنية . لقد بدا وضع « توفيق » أنه لم يعد يؤيده ولا يقف الى
جانبه : في المقام الأول ، لجريته التي لا تقتفر وهي احضاره الانجليز الى مصر ، ثم اصراره
على أن يريض الانجليز عند بابيه . ومن الغريب تماما ، أن احساس الكراهية الوطنية كان
أقوى ضد الخديو منه ضد الانجليز الذين استدعاهم لتلبية ندائه ضد رغبتهم ، لقد كان
الانجليز ضيوفا لا مرحبا بهم ، وصلوا بناء على دعوة مضييف غير محبوب في بلده . »
(نوفمبر ١٨٨٣ ، ص ٦٣٠) .

(١) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٢) اسم أحد الحراس الانجليز لقصر عابدين ممن كانوا مكلفين بحراسة « الخديو

توفيق » شخصا ، طبقا لتعليمات سلطات الاحتلال البريطاني في مصر .

(المحقق)

وكانت مقابلتي الثانية للخبير نوفيقي . يوم ٣٠ ديسمبر (في
 صحبة مستر نابير) لنودعه قبل مغادرتنا لمصر . هذه الزيارة أتاحت لي
 فرصة تقديم طلب مباشر اليه ، نيابة عن بعض المسجونين الآخرين ، لأن
 « عرابي » كان في طريقه الآن الى « سيلان » . كم كانت دهشتي عندما
 اكتشفت أنه يعرف كل التفاصيل الخاصة بحالاتهم ، اذ تصادف أن نفس
 الأشخاص الذين تحدثت نيابة عنهم كان يمقتهم بصورة خاصة . في
 لقائنا الأول ، سمعت منه الكثير عن اساءات اميرات مصر له ، وأنا الآن ،
 أريد ، وكلّي ثقة ، ما يتصل بسلوك أقاربه في القسطنطينية المنطوى على
 الخيانة . لقد استراح كلانا . على ما أعتقد لانتفاء المقابلة وبهذه
 المناسبة ، كان « طلعت باشا » يحتل المقعد الذي احتله من قبل رئيس
 أساقفة الأقباط ، وبعد أن عبرنا عن امتناننا للكرم الذي غمرنا به ،
 غادرنا القصر ، ومن الصعب أن نجزم اذا كان وضع الحماية «Protectors»
 أو « المحمين protected » يمثل أعظم المشاكل في مصر ، أم أنه
 أوضح انحرافا عن الوضع السليم .

الجريدة خفف من صيغة تلغراف المراسل ، فقرأه الناس في لندن على أنه
« سخط مكبوت Suppressed indignation »

كان واضحا أنه من المحال على « لورد دافرين » أن يتساهل في أمر
الحملة النشطة للمؤامرة الفرنسية المصرية التي جاءت مباشرة في أعقاب
محاكمة « عرابي » ، وكان « رياض » من المعروف أنه واحد من كبار الموحين
بها ، فقد ربتت اليد المتسلطة غير المنظورة على ظهر « شريف » مشجعة ،
في الوقت الذي سحبت فيه « رياض » في حزم من منصب كان يلحق بنا
الكثير من الأضرار ما أمكنه ذلك • ولسوء طالع مستقبل مصر أن « رياض »
كاد يكون في قوته خارج الحكم قدر ما كان له من قوة داخله •



(شكل ١٣) - عليك أن تتوجه الى سيلان ، يا عرابي

لقد تقرر الآن أن على « عرابي » أن يتوجه الى « سيلان » ، ولذلك
حصلت على أطلس صغير واصطحبت معي مستر بيمن Mr. Beaman
وتوجهنا الى السجن (٨ ديسمبر) لأنقل هذه المعلومة الى « عرابي »
وصحبه • وجدنا « عرابي » يكتب رسائل في زنزائه ، وما أن سمع
النبأ الذي حملته له حتى ابتسم في هدوء (لا نني لم أر عرابي يضحك
أبدا) وقال « هذا في الواقع شرف عظيم أن أعدائي لم يرضوا بأن
يصدر فحسب قرار نفبي ، بل يبدو أنهم كانوا راغبين بالفعل في أن.

يبعثوا بى الى الجنة أيضا « ألم تسمع قط أنه عندما افترق أبونا الأولان فى سهول بلاد ما بين النهرين ، بعد طردهما من الجنة ، ذهب أبونا آدم الى سيلان « ومن وقتها سميت باسم « جنة آدم » ، بينما أمنا حواء وصلت الحجاز ، ومن يومها عرفت باسم جنة حواء ؟ » • لا يمكن أن يكون هناك أعدل من هذا ، لقد طردت من مصر « بستان الدنيا » - لأذهب الى سيلان « جنة آدم » • اننى أحيتها على اعتبار أنها قال سعيد • . وبعد أن غادرت زنزانة « عرابى » لأزور بقية المسجونين ، قابلت « اسماعيل أيوب » فى الطرقة ، وأخبرته برأى « عرابى » عن سيلان ، فنطلق الى وهو لا يكاد يصدق ، ثم قال فى اخلاص تام : « يا صديقى العزيز ، ما من شئ سيدفعنى الى تصديق أن فلاحا مثل عرابى خبير جدا فى التاريخ القديم ، كان أعرف منه مثل هذه الحقائق » •

وكان « لورد تشارلز بيرسفورد Lord Charles Berseford » فى القاهرة فى ذلك الوقت ، ولم يبال بأية متاعب للحصول على معلومة صحيحة عن الأسباب الواقعية للعمليات الحربية ، التى شارك هو نفسه فى جزء منها بشكل واضح تماما • وكان من الملاحظ أن قلة من الانجليز صاروا أكثر شهرة منه فى مصر • ومن المؤكد أنه لم تتح لأحد غيره تيسيرات أضخم لاكتشاف الحقيقة الكاملة عن الفصول الأخيرة من تاريخ تلك العمليات الحربية • ولما كان « لورد تشارلز بيرسفورد » تواقا ليسمع عن « عرابى » قصته هو نفسه عن ضرب الاسكندرية ، عرض « مستر نابير » الموضوع على « عرابى » ، وفى اليوم التالى (٩ ديسمبر) طلب « عرابى » من « مستر نابير » أن يحمّل الخطاب التالى الى « لورد تشارلز » :

الى صاحب الدولة والاجلال اللورد شارلس باريسفورد

انى أقدم أعظم التحيات وأزكى التسليمات لخدمتكم وأشكر لدولتكم على ما أظورتموه نحوى من حسن المساعدة وانتصاركم للحق فى المدافعة عنى من غير سبى مثابرة بين الأشباح ولكن الأرواح الحرة متعارضة متعاضدة فى خدمة الانسانية بأعمالها الشريفة هذا وائى أؤكد لدولتكم انه لم يكن بين المصريين والأمة الانكليزية أدنى عداوة أصلا تستوجب حصول أى حاصل بل ولغاية الآن ليس أحد من المصريين يعرف الأسباب التى انبثى عليها حصول الحرب التى حصلت حيث انه لغاية الساعة التى ابتدئ فيها بضرب المدافع على اسكندرية كانت الأمة المصرية محافظة كل المحافظة على حقوق الأمة الانكليزية بل وعلى حقوق اخوانهم الأوروبايين وأظن أن سبب الحرب مجهول أيضا عند الأمة الانكليزية فلما حصل الحرب وكان تقرر بالمجلس المنعقد لذلك تحت رئاسة الخديو ودرويش باشا مندوب السلطان بلزوم الموافقة فألزمنا بأمر المدافعة بمقتضى هذا القرار الشرعى وكانت مدافعتنا عن بلادنا بمقتضى الشرع والقانون لكونها باقرار الخديو الحاكم الشرعى وجميع وكلاء الحكومة ولما كانت

الحرب قائمة فى اسكندرية كانت تأتينا رسل الخديوى يحرضوننا على القتال ويهدوننا على الصبر والثبات مع عدم جودة الأسلحة ورداءة الطوابى وبعد تدمير الطوابى وتعطيل المدافع عقد مجلس آخر تحت رئاسة الخديو ودرويش باشا أيضا للنظر فيما يصير اجراءه بعد ذلك فتقرر فيه بأنه اذا حصل الضرب على الاسكندرية فى اليوم التالى يصير رفع الرايات البيضاء على الطوابى علامة على طلب المكاملة وقد حصل ذلك واننا كنا مستعدين فى كل وقت لطلب الصلح ولكن لما ارسل طلبه باشا للمكاملة قيل له ان « الأميرال سيهور » يطلب تسليم ثلاث طوابى لاتخاذهم معسكرا للجيش الانكليزى وتقرر بالجلس أيضا ان هذا الطلب من حقوق الحضرة السلطانية وقيل من مندوب الأميرال أنه ان لم يجاب لهذا الطلب فانه يصير إعادة الضرب بالمدافع واخذ تلك الطوابى قهرا وحيث ان موقع الاسكندرية لا يناسب لاقامة العسكر فيه ويغشى من اتخاذ خط الرجوع وضبطه من خلفهم بواسطة العساكر الانكليزية اتجهت العساكر المصرية على الرجوع الى جهة كثر الدوار لتكون آمنة على خط الرجعة ومن هذا يعلم انه لو خرجت العساكر الانكليزية ، فى ثانى يوم بعد الظهور وجبت مهانة وكان امكنها حفظ البلد من النهب والحريق أيضا وهذا البيان بناء على طلب المستر نايار المعامى عنى فى المحاكمة ثم ارجو دولتكم قبول احتراماتى الفاتنة لمعالى فخامتكم .

(توقيع) احمد عرابى المصرى

خاتم

١٠ ديسمبر ١٨٨٢

وقد بدا على « عرابى » أثناء الفترة الأخيرة من سجنه الشاق ويجب أن نذكر دائما أنه كان يعيش فى حبس انفرادى صارم ، ولم يكن يخفف عن حدته سوى زياراتنا اليومية له (- بدا عليه قلق ملحوظ ليعلم ما كتب عنه فى أوربا فى الشرق . ان كدره المير منى تغير نبرة الصحافة العربية يبعث الأسى فى نفسى محبيه ، لم يكن حتى ذلك الوقت قد عرف بعد ما فيه الكفاية الفرق بين النجاح والفشل ، ولكى يسرى عن « عرابى » قليلا ، اعتاد واحد من مترجمينا أن يترجم الى العربية مقتطفات من التايمز Times والاستاندرلر Standard والديلى نيوز Daily News وقد اعتاد « عرابى » أن يقرأها باهتمام بالغ ، وكان لهذه الألفة البسيطة مع الصحف الأوروبية ما أعطى « عرابى » أول فكرة عن أن يكتب هو بنفسه ، لينشر فى انجلترا بعض بيانات موجزة دفاعا عن نفسه ، ومن أمثلة ذلك خطاباه اللذان بعث بهما الى « التايمز » . وربما لم يبعث شيء فيه السرور أكثر من بعض الفقرات المختصرة التى كتبت عن مصر فى جريدة « الحق Truth » وكان شديد الميل لاسم الجريدة ، وكان بالغ الغبطة أن يرى أن مستر « لا بوشير Mr. Labouchere » كان على استعداد دائما لأن ينظر الى القضية المصرية بمنظار مصرى . وفى نفس ذلك اليوم ، قبل أن ينتهى حبسه الانفرادى ، قال أنه تواق ليقول الحق.

هذه افكارى اعرضها على نصراء الانسانية ولكم دوام الفضل وأرجوكم قبول احتراماتى
الفائقة .

(توقيع) احمد عربى المصرى

خاتم

١٠ ديسمبر ١٨٨٢

وبعد الانتهاء من نظر قضايا « محمود فهمى » و « يعقوب سامى »
(فى ١٠ ديسمبر) ، صار أمرا ضروريا الآن بالنسبة للسبعة المنفيين
أن يستعدوا للرحيل . وبناء على اقتراحى ، استقر الرأى على تقسيم
الطريقة فى زوايا قائمة حتى زنزانه « عربى » لتسمح للمسجونين السبعة
بأن ينتشروا بدون تحفظ فى الغرف التى تضمها . لقد كان أمرا مرغوبا
فيه بصورة واضحة بأن يسمح لهم بأن يناقشوا فى حرية مختلف
الترتيبات لرحلتهم المرتقبة . لقد كنا فى حيرة شديدة من الزيارات التى
لا تنقطع ، التى كنا نتلقاها من الوكلاء والخدم والأغوات سعييا وراء
معلومة بالنسبة لخطط سادتهم ، وكان واضحا أنه لم يكن فى الامكان
احراز أى تقدم حتى يمكن أن يسمح للمنفيين بالاتصال بأسرهم . وقد
جاء « اسماعيل أيوب » (وقد صار الآن ناظرا للدخلية) ، بقلبه الطيب ،
ليشاهد النجارين وهم يغلقون نهاية الطريقة ، وقرر أنه عندما ينقل
النزلاء الى الأماكن الجديدة ، يجب ألا تمنع أسرهم ، بعد اليوم ، من
الدخول اليهم . كل هذا يبشر بالخير ، وكان موكلونا فى الواقع ، فى
غاية الامتنان لهذا الأسلوب الذى عوملوا به .

وطوال الوقت الذى انصرم بين محاكمة عربى (٣ ديسمبر)
ومحاكمة يعقوب سامى (١٠ ديسمبر) ، تلقى لورد دافرين « أكثر من
برهان واضح على الرضا الذى أحس به المصريون من سياسة الرحمة
والرأفة ، بل كان « سلطان باشا » صادقا بما فيه الكفاية فى الاعراب
عن اقراره الأسلوب الذى اتبع (١) ، بينما اعترف « نوبار » صراحة

(١) رسالة من لورد دافرين الى لورد جراثيل

القاهرة فى ٧ ديسمبر ١٨٨٢

مولاي اللورد

أتشرف بأن أحيط علم مولاي اللورد أن سلطان باشا زارنى اليوم ليعبر لى عن رضاه
البالغ عن الطريقة التى انتهت بها محاكمة عربى وصحبه المسجونين ، ولما كان سلطان باشا
له نفوذه القوى فى البلاد ، فقد كان تعبيره عن رأيه له أهميته .



شكل ١٤ - الاستعداد للمنى - من سناخذ معنا ؟

« طلبه » وحده يعانى من مرض الربو المصاب به ، ولم يشعر بالراحة . لقد كان غريبا أن ترى زعامة « عرابى » التى تنبىء عن نفسها قد أكدت ذاتها الآن ، وبدا أنه كان يفوق كل زملائه ولم يكن هناك شيء يفعل أو يقال دون أن يؤخذ رايه أولا . لقد اعتادوا جميعا على أن يلتزموا بنفس كلماته بل ان « طلبه » حاول أن ينسى تعبته عندما طلب منه « عرابى » أن يكون منبسط الأسارير ، ولا يكدرهم بنظراته الكثيرة . وقد صارت غرفة عرابى ، باتفاق ضمنى ، مكان اجتماعهم العام ، وبناء على طلبى ، لم يضيعوا وقتا فى اعداد قوائم الأشخاص الذين يقترحون مرافقتهم معهم الى « جنة آدم » .

وفى الصباح التالى (١٤ ديسمبر) ، وعند وصولى الى سجن الدائرة السنية ، وجدت هذه القوائم ، وقد تم اعدادها بالفعل ، وكما كان متوقعا ، كانت القوائم تختلف اختلافا كبيرا فى مداها ، ابتداء من « محمود سامى » ، التى تضمنت فقط خادمه الخصوصى ، الى « على فهمى » الذى تضمنت قائمته حتى أغاواته وأقاربه الفقراء . والمائلة المصرية لها بطون كثيرة وبعيدة . وفى أول حماس للفكرة ، يبدو أن بعض موكلينا فكروا فى هجرة كاملة الى سيلان .

وما أن حصلت على هذه القوائم حتى أخذتها الى « اسماعيل أيوب » فى مكتبه الجديد بنظارة الداخلية . ومبنى نظارة الداخلية كان يوما ما

وفى ١٥ ديسمبر ، صدر قرار لا بمصادرة أملاك المنفيين السبعة
فحسب بل « واعتبارهم مدنيا أمواتا ولا يحق لهم أن يرثوا » (٢) وهنا
كان أول انتهاك فاضح لبنود مصالحتنا التي دونها « لورد دافرين »
بنفسه . وفى نفس ذلك المساء عين حراس أتراك وجراكسة على البيوت
التي تقطنها أسر المسجونين ، وفى الصباح التالى أرسلت لجنة منتخبة من
نظارة الداخلية الى كل من هذه البيوت للغرض الظاهرى وهو عمل جرد
للمحتويات . ومما يعد شيئا أبديا فى جبين الحكومة المصرية هو انتهاك
قداسة الحريم واقتحام خلوة النساء بصورة وقحة . وفى ساعة مبكرة
جدا ، تلقيت خطابات عن الموضوع من موكل ، فقد كتب « عرابى » يقول :

جناب المعجب المحترم الستر برودلى المعامى عنى

بلغنى انه صار وضع عساكر على منزلنا ومنع افراد العائلة من الدخول والخروج
بقصد المحافظة على موجودات المنزل وحيث ان المنزل الذى به عائلتى هو بالاجداد وليس لى
بيت فى مصر ولا فى غيرها وإن جميع موجودات القصر ومفروشات ملك حرمتنا ولا يكن
هندها شيء خلاف ملبوسات بدنى فنرجوكم اعلان الحكومة بذلك وفك الحجز عن ملك حرمتنا .

المطيع لله

احمد عرابى المصرى

خاتم

١٦ ديسمبر ١٨٨٢ (توقيع)

وكتب « على فهمى » يقول هو الآخر :

ابلغنى خدمى ان الحراس الذين ارسلهم مدير فبطية البوليس دخلوا منزلنا وممنوا
عل ان يبقوا فيه ، حيث ان المنزل المذكور وجميع موجوداته ومفروشات ملك حرمتنا لأنه
كان مهرها عندما تزوجتها من حريم اسماعيل باشا ، سيدى ، فنرجوكم ان تعملوا على
حمايتنا من هذا الظلم البالغ ،

(توقيع) على فهمى

وعلى الفور ذهب « مستر نابير » الى سجن الدائرة السنية ليهدىء
ما أمكن من قلق المسجونين . وقد بدأت أنا بالبحث عن « اسماعيل
ايوب » ، بينما أخذت « مسز نابير » على عاتقها مهمة مواساة السيدات

(١) نص العبارة القانونية هى كالاتى :

«declaring them civilly dead, and incapable of inheritance»

الكثير من النقاش ، دفعت « عثمان باشا » دفعا لأن يعد بأنه سيصرف كل الحراس من بيوتات المسجونين سوى حارس واحد ، وأن لا يسمح باقتحام المبنى ذاته بأية صورة من الصور ، وأن الأشخاص الداخلين أو الخارجين منه يجب ألا يتعرضوا لاهانة التفتيش الشخصى .

وفى طريقى عائدا الى سكننا ، التقيت بـ « مسز نابير » ، وقد بدا الآن أن الأمور قد صارت فى الواقع أسوأ مما كنت أتخيل . لقد تلقى « مستر نابير » لتوه رسالة من زوجته تخبره فيها أن « اثنين من المدنيين » وبعض الجنود ، دخلوا منزل « على فهمى » وشاهدوا كل غرفة فيه بل ورأوا السيدات وهن غير مرتديات النقاب ؟ وقد زججنا « مسز نابير » أن نحضر الى منزل (على فهمى) فورا ، لأنها غير متأكدة اذا كان الحراس عند باب المنزل سيسمحون لها بالخروج . اننا لم نضيع وقتا فى تحقيق مطلبها ، ولكن قبل أن نصل الى هناك حدث حادث جديد ، ذلك أن « الخديو توفيق » كان معتادا أن يمر بباب « على فهمى » كل يوم ظهرا فى طريقه من المقبر الرسمى فى عابدين الى قصره فى ضاحية الاسماعيلية ، فلما اقتحم رجال البوليس منزل « على فهمى » ، جن جنون الزوجة من هول ما حدث ، وانتظرت مرور الخديو ، فلما ظهرت عربته اندفعت بلا نقاب على وجهها حاسرة الرأس الى الشارع حاملة أصغر أطفالها بين ذراعيها

وهى تصيح قائلة : « يا توفيق ! لقد أهنت امرأة من حريم أبك ، هل نسيت أننى قبل أن أصبح زوجة لـ « على فهمى » كنت فى حريم اسماعيل ؟ أما الآن فأنا مهانة وبلا نقاب كما ترى . ان العار عليك كما هو على أنا ! » أما النظارة فأعادوها برفق خلال حديقة الياسمين وأشجار البرتقال الى دارها . وفى اليوم التالى ، غير « توفيق » طريقه ، ولم يعد يزعم زوجة « على فهمى » أحد بعد ذلك على الإطلاق . وعندما وصلنا الى منزل « على فهمى » كان السلام قد استتب الى حد ما ، وكانت المرأة المسكينة تواسى نفسها ، تصب أحزانها لنا من وراء حجاب بصوت غالبا ما كان يقطعه نحيب بكاء . ولما كانت نكباتها غير عادية على الإطلاق ، (وكانت بعض النسوة اللاتى كن يتوجهن الى دار « محمود سامى » عادة ما يفتشن الحراس) قمنا بأقوى تصديات فى الحى ، منها وحدها يمكن توقع أية ترضية مقنعة . ومرة أخرى ، اذ بـ « اليد الحديدية فى قفاز من المخمل » تجعل الناس يحسون بها : فقد انتدب « الميجور شيرمسيد Major Chermiside » لتهدئة حماس رئيس البوليس الموالى للقصر ، ومن ثم ، انحصر مهام رجال البوليس عند بوابات « العصاة » ، تعتبر من الآن فصاعدا وظيفة بوابين عاديين .

كانت الاستعدادات للرحيل آخذة طريقها في ببطء . وقرر المنفيون أن يتركوا لنا توكيلا لتصفية أعمالهم ، فقامت بأحالتها في الوقت المناسب إلى « مستر بيمان » ، أما عن ترتيبات الرحلة المنتظرة ، فيبدو أنها ندر أن تناولت الآراء العادية للاقتصاد المنزلى المصرى ، وكانت زوجات المنفيين قد بدأن في تزويد أنفسهن بمعدات السفر ، وكانت بالأحرى معدات غير عادية ، وبقدر ما تأكدت منه ، كانت تتكون أساسا من معاطف صوفية ، وكميات ضخمة من السكر والقهوة - وكلاهما بالغ الوفرة إلى حد ما في سيلان . وكان كل زائر في أثر زائر يتبارى في قصه على المنفيين أكثر الأساطير خيالا عن مناخ وأهالى المكان المقدر لهم أن يعيشوا فيه . وقد بعث بعض الأشخاص إلى « عرابى » بالبريد : رسوما كاريكاتورية رسمتها مجلة بنش Punch (اللندنية) عنوانها « عرابى المبارك Arabi the Blest » . وقد أزعجته هذه الرسوم كثيرا ، وهو لا يمكن أن يغفر لرسام المجلة ما رسمه (وهو الذى لا يدخن ولم يذوق طعم الخمر) . اذ رسمه والسيجار في يده ، وماء ألسودا والبراندى على المائدة بجواره . أما زملاؤهم المسجونون فلم يهدأ لهم بال حتى ترجم لهم مترجمونا النص . ولقد كانت قصة « مجلة بنش » الخيالية عن انطباعات « السلطان » على نتيجة المحاكمة ، كانت موضع تقدير سام فى مكان قل أن يحلم كاتب القصة به .

بعد ذلك بيوم أو يومين ، واجهت الحكومة المصرية مشكلة جديدة ، وهى أن المنفيين سيذهبون إلى نفس المكان ، ولكن قد لا تقلهم جميعا سفينة واحدة ، اذ تبين أن سبيل الراحة على ظهر السفينة التى كانت قد احتجزت لهم لا تفى بالغرض ، وسيتركس المسافرون وستضج كل أوربا بشكواهم . كانت هذه هى النظرية التى طرحها لى « اسماعيل أيوب » مع بعض الحياء ، عندما زرتة فى نظارة الداخلية بعد ذلك ببضعة أيام .

ثم أعقب ذلك أن استأجرت الحكومة المصرية باخرة كبيرة اسمها « المريوطية the Marotis » لنقل ووكلينا وعائلاتهم إلى كولومبو Colombo ، وكانت مناسبة بالفعل للرحلة التى كانت تحت رعاية « الكابتن بلومفيلد Captain Bloomfield » ، مراقب الميناء بالاسكندرية . ولما كان من واجبى أن أنصف السلطات المصرية ، فانه لا يسعنى إلا أن أقول ان كل هذه الترتيبات قد نفذت جميعها بغض النظر عن أية نفقات ، ولكن الشئ الوحيد الذى أثار السخرية التامة هو الادعاء الكاذب بعدم وجود أماكن كافية لسفر كل المنفيين معا ، اذ تبين بعد ذلك أن

« المريوطية » يمكن أن تحمل ثلاثة أضعاف راكميها • لقد كانت مجرد فكرة الفصل قد ملأت أذهان المسجونين بالشك والفرع ، ولم يكن من شيء ليدفعهم الى الصعود الى البأخرة (١) تحت هذه الظروف الا محض القوة •

لقد اقترح عليهم أن يكتبوا الى النظارة المصرية من خلال ، معلنين استعدادهم لأن يتخلوا طواعية وعن طيب خاطر حتى عن أضييق سبيل الراحة ، شريطة أن يسافروا جميعهم معا ، وبناء على ذلك كتب واحد من أعوانهم هذا الخطاب الذي لم يكن فيه بالأحرى الا « التذلل » :

الى جناب المستر برودلى الأفوكاتو الانكليزى المحامى عنا

حيث ننا نحب ان نتوجه مع بعضنا بدون اى داعى ضيق معلات بالوابور نظرا لكون راحتنا لا تتم الا بتوجهنا مع البعض بالنسبة لونس حريماتنا واولادنا بالوابور والنساء متشكرين وداعين، للعشرة الخديوى فيما أجرته معنا وما أمنحتنا به من الرفافة والرحمة التى لم كنا نتصورها نحن ولا عائلتنا ولا ننسى لسموه فى اى وقت من الأوقات بل ولا اولادنا أيضا هذا الصنيع الجليل ونحن واولادنا عاجزين عن اداء واجبات تشكراتنا لجناب العالي بالعموم داعين لجنابه العالي بغير الدعوات •

تحريرا فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢

[توقيعات : احمد عبد الغفار - محمود فهمى - عبد العال حلمى - طلبية - عصمت - على فهمى - يعقوب سامى - محمود سامى]

وقد وضع خمسة من المنفيين أختامهم عليه (٢) ، وعندما أحضر الى « عرابى » ، اتجه الى « يعقوب سامى » وسأله : « هل وقعت هذا ؟ كنت أتمنى أن يقطعونى اربا أولا • لقد قلت وأقول ان « نوفيقي » لا يصلح لأن يحكمنا • كيف يمكننى أن أكذب وأعد بأننى سأسأعو الله له بخير الدعوات ؟ اننا على أية حال لم نهبط الى مثل هذه الدرجة » • اننى أذكر أننى لم أر « عرابى » قط أكثر انتهازا للموقف ، ثم قام بنفسه بكتابة المذكرة التالية التى بعثت بها الى جناب المستر برودلى الأفوكاتو المحامى عنا •

(١) كان يطلق عليها فى زمن عرابى اسم « الوابور » أو واپور البحر •
(المحقق)

(٢) ينضح من النص المنقول عن الوثيقة الحظية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقلمة ، أن من ختموا عليه هم :

احمد عبد الغفار - طلبية - عصمت - على فهمى - يعقوب سامى - محمود سامى •
(المحقق)

وقبل أسبوع تماما من انتهاء المصالحة ، كتب « عرابى » هذا الخطاب ،
الذى له طابعه الخاص تماما ، الى « مستر بلنت » :

الى صديقى ومثقتى حياتى ، مستر ويلفريد بلنت حفظه الله ، وبعد (١)

بعد تقديم تحياتى لك

الآن ، عل ان أخبركم أنه لا يعينى شئ بالنسبة للوضع الذى أنا فيه - بالنسبة
للسجن وللاهانات وما سيحدث بعد ذلك ، طالما أننى وقفت نفسى حرة بلدى ، ولن يهمنى
أى شئ سوى خلاص أبنائى ووطنى من شرك أولئك الأفاعى ، ومن أبواب ذلك الثنين الكبير
(حيث يرقدون) - وسيتحقق هذا بحكمة الرجال المتنويرين من الشعب الانجليزى الغيور
على شرفه .

وبعد ذلك ، اذا كان هناك فى العبر بقية ، لوددت ان أعيش حرا فى « دمشق »
مع أولادى ، بعيدا عن أمور السياسة ، طالما ساكون خارج مصر ، ولو لم يسمح لى
« السلطان » والمسلمون بالإقامة بين المسلمين ، اذن ، لفضلت ان أعيش فى لندن بين
أخواننا ، اخوان الانسانية ، كإنسان حر فى أرض الحرية - لا تحت تحفظ ومراقبة ،
وسيفعل مثلما فعل رفاقى الذين قدموا أرواحهم فى سبيل بلدهم . انهم يستحقون ان
يعيشوا أحرارا اننى أقسم بأن أحافظ على قسمى بألا أدخل فى الشئون السياسية طالما
بقيت بعيدا عن وطنى « حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » (صدق الله العظيم) .

ثم ، اما عن كيف ان العدو حاول ان يشرب الشك حولى ، فيما يتصل بحوادث
١١ يونيو و ١٢ يوليو ، فهذا مجرد قذف ، كما أنه لا يمكن ان يؤيده أقل دليل
أو برهان ، طالما ان مثل هذه الأفعال متافية لأدائنا الشريف . لقد حاولوا بهذا تحريض
أوربا لتحطيم ، كما تتحطم الذرات فى الهواء ، الحريات التى اكتسبناها لوطننا ، ومع ذلك
قربما يأتى بعض الخبر من هذا لشعبنا حتى يمكنهم ان يحصلوا على استكمال حريتهم ،
ليفعلوا فى تحويل قلوب الانجليز اليهم ، بالرغم من الجهود التى يبذلها العدو ثلاثية .

اننى لا تعينى الألقاب العفوية الشرفية (وكان لقبه « باشا » ، وقد جرد منه)
لأنى لا أريدها على الإطلاق . اننى راض بشرفى الذاتى ، لأنه هو الذى سيصاحبنى طوال
حياتى وبعد مماتى . اننى لا أربأ إلا أن يلقبونى باسمى فقط .

أحمد عرابى المصرى

القاهرة فى ٢٣ نوفمبر

وفى ٢٤ ديسمبر ، قرأت فى غير ما دهشة الأمر العالى التالى فى
الوقائع المصرية :

(١) لم أشر على النص العربى لهذا الخطاب ضمن وثائق كتاب برودلى المحفوظة بدار
الوثائق بالقلعة ، ولما كان مثبتا فى الأصل الانجليزى ، ترجمته عنه بصورة تقرره من النص
العربى . (المحقق)

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الأحكام الصادرة من المحكمة العسكرية بتاريخ ٢٢ و ٢٦ و ٢٩ محرم سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٣ و ٧ و ١٠ ديسمبر ١٨٨٢ ، وبعد الاطلاع على أوامرنا الصادرة بتاريخ ٢٢ و ٢٦ و ٢٩ محرم سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٣ و ٧ و ١٠ ديسمبر ١٨٨٢ .

وبعد أخذ رأى مجلس نظارنا أمر بما هو آت :

(المادة الأولى)

قد صار تجريد أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى - من جميع الرتب والألقاب وعلامات المشرف الحائزين لها مع محو وترقين أسمائهم من دفاتر ضباط الجيش المصرى محوا مؤبدا .

(المادة الثانية)

على ناظر الداخلية وناظر الحربية والبحرية تنفيذ هذا كل منهما فيما يخصه .

صدر سراى عابدين . فى ١٠ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (٢١ ديسمبر ١٨٨٢) .

(امضاء) محمد توفيق

بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية

(رئيس النظار)

أمضاء

(شريف) ناظر الداخلية ناظر الجهادية والبحرية

(أمضاء) (أمضاء)

(اسماعيل أيوب) (عمر لطفى)

وكان التجريد من الألقاب والرتب وعلامات الشرف (النياشين) أمر متوقعا ، ولكنه كان أمرا شاذا بكل تأكيد محو أسماء المنفيين من دفاتر ضباط الجيش المصرى ، الذى لم يعد له وجود بعد رسميا .

وفى صباح يوم رأس السنة (الكريسما) كان لى حديث أخير طويل مع موكلى جميعهم . أعطانى « عرابى » مسيحته الصغيرة السوداء

العربتان بشوارع لم تكن مألوفاً لهن بالمرّة حتى بلغوا ثكنات قصر النيل وهنا شكّلت مجموعة صغيرة من القوات المصرية على هيئة مربع ، بينما كان الجنود البريطانيون يجولون حول المربع الكبير ، وكانوا محتلين الطرقات العلوية وهم يؤدون واجبهم كمتفرجين ، ومن وقت لآخر كانت تنفرج أساريهم . وضع المسجونون في الوسط ، وقرأ ضابط بصوت مرتخف الى حد ما ، المرسوم الخديوي ، وصدر أمر للمصريين بأن يهتفوا « عاش الخديو ! » وطلب من المنفيين رسمياً ، تسليم سيوفهم ونياشيتهم ، ولكن كان واضحاً من أول وهلة أنهم كانوا قد تركوها حيث كانوا ، ثم طلب من المسجونين بأن يركبوا العربتين ثالثة ، وفي الوقت الذي كان يهيم فيه « عرابي » بالركوب ، صاح قائمقام « مخلص » يدعى « الألفي » قائلاً : « يا عرابي ، لقد جئت بالانجليز الى مصر ! » . هذا اللوم الذي أسىء توقيته يمكن أن يؤخذ على أنه أساس للمشعور المصري نحو الانجليز . وكان قد تجمع جشع من الأهالي ، وندر أن تسمع واحداً يردد عبارة « الله ينقذك » بينما كان السبعة الوطنيون المصريون يهرون بهم في طريقهم عائدين الى السجن . وجدير بالذكر أنه تحت ظروف مماثلة اعتاد المصريون أن يروا الكتافيات épaulettes تنزع من على الأكتاف ، والنياشين تختطف من على الصدور والسيوف تكسر على الركبة ، ولكن كل هذه المشاهد كانت ناقصة هنا . هذا ، ولم يكن تعليق « حسن » غريباً ، إذ قال : « ربنا كبير ! أنت تلاحظ أنه حتى الخديو لم يجرؤ أن يمس عرابي » .

وما أن سمعنا بما حدث لموكليتنا ، حتى توجه « مستر نابير » وأنا الى السجن ، وحاولنا أن نعيد لموكليتنا ، بقدر ما يمكننا ؛ رباطة الجأش التي زعزعت عندهم . وبعد كل ما حدث ، فانه لا بد لي أن اعترف بأنه قد زادت راحتنا النفسية عندما سمعنا أن « المريوطية » قد مرت بالفعل عبر قناة السويس ، وقد صدرت لها الأوامر بأن تتجه الى « سيلان » في المساء التالي . لقد تملكنا أذهاننا مخاوف غير مريحة من مفاجآت جديدة قد تحدث نظراً لأن ثقتنا في المعاملة العادلة للحكومة المصرية قد اهتزت بصورة لا أمل فيها . لقد كان من مصلحة موكليتنا تماماً ، النصيح بتعجيل النهاية .

ومع ذلك ، كان هناك شيء آخر غاية في الأهمية ، الأمر الذي اضطرنّا الى أن نرتبه مع نظارة الداخلية في نفس ليلة رحيل المنفيين . كانوا جميعهم في حاجة الى مال ، بعضهم كان مفلساً تماماً ، وأخيراً نجحنا

الباشرة هرع اليها حسن ، وهو يلهث ، ودخل غرفتها وهو يقول
 ان « عرابى » وصحبه قد غادروا لتوهم سجن الدائرة السنية ، فذهب
 « هستر نابير » (وكان متجهاً الى السويس) لينبحث عن أمته « بينما
 تحركت أنا بأسرع ما يمكننى الى ثكنات قصر النيل » .

كان المشهد عند « قصر النيل » مشهدا يستحق التسجيل فعلاً . لقد
 كان ضوء القمر ساطعاً ، وعندما دخلت الميدان الكبير ، رأيت القطار قد
 تحرك بالفعل . وكانت ثلاثة جوانب من المربع التى تشكل ثكنات الجنود ،
 مبان شاهقة بواجهات لها شرفات عتباتها لها أقواس ولكل طابق فوقه
 الآخر ، أما الجانب الرابع من المربع فكان يضم الصبايونات المذهبة لمبنى
 قصر النيل ونظارة الجهادية المصرية ، وكان بالميدان خط سكة حديد ينقسمه
 ويقسمه الى قسمين تماماً من اليمين الى اليسار ، كاف تماماً لمشتات تحيط
 به وتوزع على كلا الجانبين لتترك مساحة للقطار ليمر . وليس هناك ما يمكن
 أن يسمى رصيفاً ، وكانت قضبان التحويلة على مستوى الرصيف ، وكانت
 « بواكى » الثكنات وعمارة القصر الأكثر بهاء تبدو واضحة كل الوضوح فى
 ضوء القمر الساطع الذى بدا كما لو كاد يعتم لهب المشاعل التى كان يحملها
 بعض جنود الحرس المصرى . وعلى الفور ، تجمعت أمام العربات مجموعة
 صغيرة من النظارة الذين كان يهمهم الأمر ، من بينهم « سير تشارلز
 ويلسون » و « مستر ماكنزى ولاس » و « عثمان باشا غالب » . كان القطار
 طويلاً جداً ، كاد يكون امتداده بطول الميدان من جانب الى الجانب الآخر ؛
 وركب فى المقدمة السيدات مع أطفالهن ، وأمتعتن ، وخلفهن الخدم والحقائب
 الثقيلة وحارس من فرقة بنادق الملك الملكية (الكتبية ٦٠) تحت قيادة
 الميجور فريزر Major Fraser ، وكان هناك أيضاً بعض الضباط
 المصريين وقلة من الجنود المصريين لمصاحبة المنفيين الى السويس .
 وخصصت عربة من عربات الدرجة الأولى ، فى منتصف القطار ، لـ « عرابى »
 وزملائه . وعندما وصلت قصر النيل ، كان الجميع قد أخذوا أماكنهم بالفعل ؛
 « عرابى » و « محمود فهمى » و « عبد العال » كانوا فى ديوان « وطلبة » وعلى
 فهمى « و « محمود سامى » و « يعقوب سامى » فى ديوان آخر . لقد بدوا
 فى صورة أكثر بهجة عن أية مجموعة عادية من الانجليز فى ظروف مماثلة
 لظروفهم . تسلفت نوافذ القطار بصعوبة ، لأودعهم ، ومرة أخرى قال
 « عرابى » بضع كلمات تنم عن امتنانه .

كان أمر بدء الرحيل على وشك أن يصدر عندما جاءنا « مستر بيمان »
 بنياً أن الشرطى المكلف بحراسة منزل « عرابى » لم يكن ليسمح لزوجته
 ولبنه وأختها بمغادرته . ماذا سنفعل ؟ كان الوقت قد تأخر ، ونأظر محطة

سنوات ، « وعبد الغفار بك » لثمانى سنوات « وأحمد رفعت بك »
« والأميرالاي خضر خضر » ، لخمس سنوات ، « وحسن موسى » لعشرين
سنة « (فى مصوع) ، و « محمد الصدر » ذئنى عشر شهرا ، أما « عثمان
باشا فوزى » « وأمين بك شمس » وبقيّة موكلينا ، فكان قد أفرج عنهم
بكفالة أو بدون كفالة ، والتعهد بأن يعيشوا فى المستقبل على « أبعدياتهم »
أو أملاكهم فى الريف . وفى حالات كثيرة ، كانت قيمة الكفالة المحددة
كبيرة ، وكان الأشخاص الذين يحكم عليهم بدفعها يطلب منهم أن يدفعوها
تقدا ، ولكننا أخذنا احتياط ممكن لحماية موكلينا ضد أية مصادرة
نهائية . وشاهدنا نسخا من الايصالات لأنها أودعت فى القنصلية
البريطانية .

وبهذا الأسلوب ، شهدت نهاية سنة ١٨٨٢ نهاية أعمالنا ، فقررت
أن أغادر القاهرة مساء أول يناير ، وكان عمل عاجل فى « تونس » قد
أجبرنى على أن أؤجل لموسم أكثر ملاءمة : زيارتى للأهرامات والمساجد
الغنية بالتفريغات الزخرفية والحليات المعمارية ومقابر الخلفاء والقلعة ،
بل لم يحاول « حسن » المخلص لنا ، أن يشينى عن عزمى بما عرضه على
من أن يرينى القاهرة فى ثمانى ساعات طبقا لخطة خاصة ابتدعها لصالح
الرحالة الانجليز والهنود ، وعجز عن أن يقتضى منى يوما زائدا . لم أكن
فى حالة نفسية تسمح لى بالفرجة . لم أعرف أحدا قط حج الى مصر ولم
ير منها الا القليل ، مثل ، ولكن عوضنى عن ذلك أننى تعرفت بعدد كبير
من المصريين . ان المعرفة التى أحسست أننى اكتسبتها عن عواطف وآراء
الشعب المصرى وأعمق مشاعر قلوبهم عوضتنى أكثر عن معرفتى القاصرة
بأوجه الجمال المادية فى مصر ، كلا ، اننى أريد أن أقول أكثر من هذا -
ولست خجلا أن أقول أنه ، طوال الأسابيع العشرة التى انشغلنا فيها فى
الدفاع عن عرابى وصحبه ، أن كل ما رأيته خارج القاهرة وما أمكن
رؤيته فيها كان محددا جدا فى قصرين وفى مكتبين خاصين وشارعين
وسجن واحد .

وعندما ذكرت تلك الحقائق أثناء وجودى بين موكلينا ، الذين
لم يكونوا قد أحيطوا علما باقتراب عودتى الى « تونس » ، رجائى « أحمد
رفعت بك » بصورة أكثر جدية لو أسمح له ولأسرته أن يصحبونى ، اذ بعد
ما تكشففت له الأمور لم تعد مصر فى نظرة بالمكان الذى يمكنه الإقامة فيه ،
وأحس بكل تأكيد أن رحيلى سيكون دلالة على اهانة جديدة الى حد ما ،
ولقد كان عبثا ما حاوله « عثمان باشا غالب » بنفسه أن يقنع زوجته أن
توتس تحت الحكم الفرنسى أفضل قليلا من « دار الحرب » أو أرض
الكفرة ، ولكن زوجة رفعت قالت ان ما هو خير لزوجها فهو خير لها

كانت هناك مساعدة معنوية انجليزية ، ومؤامرات فرنسية ودسائس تركية (وكلها تجذبه في مختلف الاتجاهات) فيسمح له أن يتولى أعباء واجباته كمنفذ لوصايا testamentary executor « لورد دافرين » ، في أسلوب لائق ومهذب . ان لطفه الذى لا يتغير وشفقته ، سهلت لى دائما انهاء معاملاتي الرسمية مع الحكومة المصرية .

وبعد أن أدت فروض الاحترام لـ « شريف » ، زرت « رياض » لنفس الغرض . لقد كانت المساعدة العظيمة جدا التى قدمها لى ابنه « محمود بك » ، فى أيامى المجهود التى كنت أتردد فيها على غرف الانتظار بنظارة الداخلية ، جعلتنى مشوقا لأن أذكره بهذه اللفتة البسيطة قبل أن أغادر القاهرة . لقد وجدت ناظر الداخلية السابق مستندا الى أريكة ، ويبدو أنه كان مستغرقا فى تلاوة متمعة للقرآن الكريم فى مصحف كبير . لقد بدأ « رياض » سعيدا للقائى ، وبعد « تسليك » ابتدائى لصوته ، بدأ بحديث مرتب بالفرنسية التى يتحدثها بنبرة ألمانية . قال رياض : « اننى أعتقد أن « تونس » تعتمد تماما على المطر ، بينما تعتمد مصر على ريبها كلية على فيضان النيل . أكون شاكرا جدا لو أوضحت لى الفارق الرئيسى بين الزراعة فى البلدين ؟ » فأجبتة قائلا « ، لقد كتبت مؤخرا كتابا عن « تونس » حيث يجد فيه كل المعلومة التى يريد ، وأننى سأبعث لابنه بنسخة من كتابى فور وصولى » ، ولكننى اقترحت فى تلك الآونة أن نتحدث قليلا عن مصر ، اذ أنه أقرب للغرض . تطلع الى فى ثبات ، فرددت على حملته بمثله ، ثم ضحكنا كلانا . نحن الآن يفهم أحدهما الآخر تماما . لعل سعادته نسي أنه فى آخر لقاء لنا تسأل عن موارد المياه التونسية . بدأ « رياض » بعد ذلك بالحديث عن الحوادث الأخيرة فى

= الباهظة ، فعمل على تحسين سمعة البلاد بخفض الضرائب الى حدها الأدنى ، وطرد الموظفين غير الأتقاء وألقى عمل السخرة وبنى المدارس والمستشفيات وأدخل الأساليب الصحية الحديثة التى ظلت لسنوات نموذجا عالميا يحتذى به ، وقد أدى هذا الى رخاء مصر بأن. ضمن للفلاح المصرى أن صارت له ثلاثة محاصيل سنويا ، وراعى أن يكون دخل الفلاح الصغير متقاربا نسبيا من دخل كبار الملاك ، كما أصلح الجيش المصرى ، وزادت التجارة فى عهده ، ومد السكك الحديدية والتيسيرات البريدية والتلغرافية وفد أفلح فى وقف نشاط الحركة الوطنية فى مصر بأن سعى الى مجيء « عباس الثانى » ، المتعاطف مع بريطانيا ، لعرش الحديوية فى مصر . واعتراقا من البرلمان البريطانى بخدماته ، منحه معاشا قدره ٢٥٠٠٠٠ دولار فى سنة ١٩٠٧ .

وبعد عودة « بيرنج » الى إنجلترا ، عين عضوا بمجلس اللوردات ، وقد كتب عدة مقالات عن الحرب العالمية الأولى ، وفى سنة ١٩٠٦ ، عين رئيسا للجنة تقصى الحقائق فى حرب الدردنيل ، وتوفى فى لندن فى ٢٩ يناير ١٩١٧ ، عين رئيسا للجنة تقصى الحقائق فى حرب الدردنيل ، وتوفى فى لندن فى ٢٩ يناير ١٩١٧ . (المحقق)

مصر وعن ضحالة الوطنية المصرية ، وعن الحاجة الملحة الى حكم أوتوقراطي ، واليأس من وجود أى بديل للعصا و « الكرباج » ، كما تحدث عن الطبيعة المنكرة للجميل للأفعى الذى ظن مرة أنه فى مأمن منها وهى تحت كعبه . لقد كان من الصعب تصور أن مثل هذا الرجل الضعيف البنية ، بهيئته القميئة ، له نفوذ شخص لا يدانيه نفوذ فى مصر ، نفوذ قوى بما فيه الكفاية ومتسلط بما فيه الكفاية ، يسمح له بأن تسند اليه ، بعد اعتزاله الحكم ، رئاسة وتمثيل نفس القضية الوطنية التى كان يكرهها من صميم قلبه ويحتقرها . لقد كان موضوعه المفضل هو ابراز ضعف الآخرين - تردد « الخديو » ، ضعف « شريف » ، قصور زملائه السابقين . هل كان يعتقد أنه من المحتمل أن الخديو بتغاضيه علنا أو صمتا عن « اعلان مطالب الجيش » فى سبتمبر هو الذى أدى الى سقوطه ؟ لقد كان جوابه الجاهر هو : هذا من المحتمل جدا *c'est bien possible* . كان يعرف كيف يجب أن تحكم مصر ، ولكنه يجب أن يتبع أساليبه الخاصة ويختار مرؤسيه الخصوصيين . يجب أن تكون له أقصى سلطة داخليا وأدنى تدخل خارجي . فاذا ما أتيح له هذان الشرطان لكان « مصطفى رياض » (لأن هذا هو اسمه الكامل) ، رجلا قويا مسلحا . وقال لى : « قل لى بأمانة ، ما الذى تظنه أحسن : حكم استبدادى *despotism* (اذا أردت أن تسميه كذلك) مع نظام ، أم لبن *leniency* مع فوضى *anarchy* ؟ » لقد كان حديثه ممتعا جدا ، ولكن امكانية تنفيذ مثل هذه الخطة التى كان يدافع عنها فى جراءة ، قد ولت . ان « عرابى » طوال زمن سلطته القصير قد أوضح للمصريين امكانية قيام ادارة قائمة على مبادئ الحرية والعدل والأمانة . ان ما هو مطلوب من انجلترا أن تنفذ فى مجموعها نفس الاصلاحات التى لم تكن تسمح لـ « عرابى » أن يكملها ، ونتيجة لذلك ، صار « رياض » ناظرا غير محتمل ، ولكنه كان أكثر خطورة فى معارضته وهو خارج الحكم عما كان فى الحكم . وطالما أن انجلترا تسعى الى تنفيذ اصلاحاتها وحدها ، بدون أية مساعدة ، وبأنصاف الحلول ، فسيظل دائما شوكة فى جنبها .

وعندما استكملت هذه التوديعات ، كان لزاما على أن أعد العدة لرحلتى ، ونظرا لأنه فى عيد الأضحى يقوم الأوربيون بزيارات تحية للمصريين ، لذلك فانه فى يوم رأس السنة الميلادية يكون من المتوقع أن يزور المصريون الأوربيين ، فلما وصلت الى « بيت المفتى » ، وجدت أن « اسماعيل باشا أيوب » « عثمان باشا غالب » وغيرهما قد شرفوني بالزيارة وتركوا لى بطاقتهم . وقد أدى « حسن » المعجزات بطريقة حزمة لامتعتى ، وأعطيته شهادة رضى بها ، وبقيشيشا سخيا قدره عشرة جنيهات .

لقد بكى بكاء منهرا لفراقنا ، ولكنه واسى نفسه بأن أضاف حمارين الى اصطبله ، الذى سمعت أنه كان منصفا بما فيه الكفاية ، وأطلق على الاصطبل اسم محامى عرابى . قرر « مستر ناير » أن يبقى أسبوعا بعدى ليسوى حساباتنا ويرعى مصالح واحد أو اثنين من موكلينا الباقين .

وبعد تناولنا عشاء الوداع ، وعندما كان كل شىء معدا للرحيل ، قادتنى عربتى لآخر مرة عبر الشارع المألوف لى ، الى سجن الدائرة السنية شبه المهجور ، والذى يقيم فيه الآن بضعة وثلاثون سجيناً فقط . أيقظت رئيس السجنين وسلمته البلاغ التالى الذى حصلت عليه من نظارة الداخلية .

الى عثمان شريف أفندى ، المسئول عن سجن الدائرة السنية
يصرح للسجين « أحمد رفعت بك » بأن يطلق سراحه ويسافر مع
مستر برودلى المحامى الانجليزى ، ومع الضابط من ضبطية البوليس
الذى سيرافقه .

(توقيع) اسماعيل أيوب

ناظر الداخلية

وعند البوابة ، التقيت ، بناء على اتفاق مسبق ، ب « على » رجل البوليس الطويل القامة ، الخطير ذو الوجه المخيف ، وكانت السلطات قد عينته ليراقب موكلى على ظهر السفينة ويحول دون أية مؤامرة فى الطريق ، كان « على » قد تعرف على أصدقاء سجينه ، وكان « على » قد أوّمن على حمل صندوق ضخيم من الصفيح مغلق بقفل ، كان مليئا بالسجائر . قادنا « عثمان أفندى » الى الطابق العلوى وقبل أن أذهب الى غرفة « رفعت » ألقى نظرة أخيرة على الزنانات الشاغرة التى كان ينزل بها « عرابى » وصحبه . كان « رفعت » مرتديا ملابسه ، ومنتظرا هذه الساعات الثلاثة ، لقد بكى الرجل العجوز المسكين « خضر خضر » بكاء مرا لفراقنا ، وودعنا « الشيخ محمد عبده » و « حسن موسى » وواحد أو اثنين آخرين ، ودعونا فى الظلام ، ورجائى « عثمان شريف » أن أزيه عند المسئولين بمزيد من التعريف بالخدمات الجليلة التى أسداها ، وحيانى جنود الفرقة الجبلية ، الانجليزية ، القائمين بالحراسة حيونى تحية الوداع . بعد ذلك بدقيقة ، نقلتنا العربى : « رفعت بك » وأنا ، بسرعة عبر الشوارع الصامتة الى « منزل المفتى » . كان من الصعب على « رفعت » أن يقنع نفسه أن حريته ليست حلما على أية حال . وبعد توقف بضعة دقائق

للاعراب عن اعترافى بالاهتمامات التى أظهرها حيالنا مستر جروس Mr. Grosse وسنيور لويجي S. Luigi فى فندق شبرد ، توجهننا جميعا الى المحطة ، حيث أحضر لنا وكلاء شركة كول Cook تذاكرنا للباخرة الفرنسية « آسيا Asie » ، التى سنستقلها ، والمتجهة الى مالطة Malta .

لقد كان سفر أسرة « رفعت » غير المتوقع بمثابة اشارة لتجمع ضخم من السيدات القاهريات اللاتى جئن الى المحطة النهائية فى مركباتهن المقلعة broughams الأنيقة مصطحات معهن أغواتهن . امتلأت واحدة من غرف الانتظار امتلاء كاملا ، وكان البكاء والعناق يكاد يكون رهيبا ، وقد حضرت « السيدة سارة » ، وهى سيدة غاية فى الجمال ، وهى زوجة « رفعت » المطلقة ، حضرت لتودع أطفالها وان كنت أشك ، با لأخرى ، فى أنها كانت تقصد الإبقاء على واحد من أطفالها لو كان فى امكانها أن تدبر ذلك ؛ بكاؤهما ونواح صديقاتها قد زاد بالفعل من جو الاضطراب الذى ساد المكان ؛ واذ بحرم « حمدى » ، وهى شقيقة « رفعت » ، زوجة عدوى السابق ، صاحب التلغرافات التى عمل على تلطيخها (١) ، اذ بها تلقى بنفسها على رقبة شقيقها ، ولم يكن فى الامكان تهدئتها ، فى حين كانت السيدة « سارة » تبكى وهى ممسكة بابنها الأكبر ، أما زوجة « رفعت » الثانية ، فقد أخذت تطمئن الأطفال الثلاثة (بالرغم من تشبث ضررتها الأكثر جاذبية ، بهم) ، وصعدت بهم فى أمان الى القطار . اتخذ « رفعت » مكانه قبالتى ، ويبدو أنه لم يكن بالغ التأثر بالوضوء التى كانت محتدة حواليه ، بعث لى « حمدى » برسالة مع زوجته ، يقول فيها انه سيصلى من أجلى فى صلاته ، لأنه أنقذ شرف عائلته ، وأنه ما منعه من الحضور ليشكرنى شخصيا الا خوفه من « توفيق » .

وجاء السادة : نابير ، وكيرول Chirol ، وبيمان ، فيليز ، ومكدونالد ، وايفانز Evans وكثير غيرهم من الأصدقاء ، جاءوا الى المحطة ليودعونا الوداع الأخير ، وكم أنا آسف بالغ الأسف اذ لم أستطع أن أنقل الى قرائى الوصف التفصيلى الجدير بالتصوير للمشهد الذى نشرته بعد ذلك « مسز مكدونالد » . تحرك بنا القطار متأخرا عن مواعده بثلاثة أرباع الساعة . احتلت زوجة « رفعت » وأطفالها وخادمتها ديوانا ، فى حين أن « رفعت » و « على » وأنا ، احتلنا الديوان الآخر . ولقد أراد « على » أن يجعل من نفسه شخصا مفيدا بوجه عام ، فوضع سيفه

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

الكبير على رف الديوان المصنوع من الشيك ، وكان يشعل الشموع اذا لزم الأمر ذلك ؛ ويشرف على رعاية الأطفال في المحطات الفرعية ؛ وفي الضوء الرمادي للصباح المبكر ، قص علينا قصة طريفة عن كيف أنه قتل شخصا في بلدته ، مسقط رأسه ، ثم جاء الى مصر كجندى هو ونصيبه . هذا الشرطي الأمين ، لم يسبب لنا قلقا ، وقبل منى هدية ، ثلاثة دولارات . عند افتراقنا . مع كل مظهر من مظاهر السرور . وعندما طلع علينا الفجر ، كان القطار يمر بنا عبر خطوط « عرابي » في كفر الدوار . ومما أراحني كثيرا أن قابلنا في الاسكندرية ترجمان شركة كوك ، الذي تكفل بامتعتنا وأجلسنا في عربات وقادنا الى رصيف السفينة . وبدأ كل شيء قد انتهى بعد دفع ثمن التذاكر . وقد رفض « كمسارينا » أخذ « بقشيش » ، واننى لا أبالغ في ذكر الراحة التي لمسناها مع مثل هذا الترتيب . لقد كادت وكالة شركة كوك أن تكون هيئة ، أهميتها للمسافر المصرى كأهمية شرفة فندق شبرد للسياسى المصرى .

بعد ذلك بساعة أقلت السفينة « آسيا » ، وكان الطقس لدينا ، وكانت اضطرابات السفينة « آسيا » لا يمكن وصفها ، ليت المسافرين في المستقبل يتجنبون ركوبها ما استطاعوا . وعلى مدى خمسة أيام طوال ، كانت مهمتى الوحيدة تتمثل فى الانصات فى صبر العاجز الى مناقشات سياسية ومنازعات أسرية ذات طبيعة مسلية جدا وقد استمرت بدون انقطاع بين الربان وطبيب وندل . قال الأول أنه عن اقتناع : « ديموقراطى حق democratic Legitimist » وقال أن سفينته معروفة بوجه عام باسم يخت مرسيليا Le Yacht de Marseilles أما الثانى فكان « راديكاليا » وحر التفكير ، وكان يمارس ما أسماه بـ « الطب البحرى la médecine maritime » وذلك كتسلية ، وأما الثالث ، فغالبا ما كان ثملا ، وكانت رائحة فمه تفوح منها رائحة ثوم نفاذة ، وأحيانا يؤيد الطبيب وأحيانا يؤيد الربان ، وأصر كلاهما على معاملته كما لو كان محكمة استئناف .

وأخيرا ، فى ساعة متأخرة من بعد ظهر ٧ يناير ، شاهدنا ضوء « سنت الملو St. Elmo » يرحب بنا . وقبل أن تظلم الدنيا رسونا . هبط « رفعت » المسكين (١) من البأخرة فى خوف وهو يرتعد ، ليكتشف

(١) رفض السلطان أن يسمح لـ « رفعت » بالرجوع الى استانبول ، ولذلك ، أبحر رفعت . هو وأسرته الى « تونس » حيث استقبلهم استقبالا كريما الجنرال حميدة بن عياد ، رئيس أسرة عربية نبيلة ، وبعد ذلك بوقت قصير ، توفى أبو « رفعت » ومن خلال الوساطات الطبية لـ « درويش باشا » سمح لرفعت بالعودة الى استانبول ، واذا لم أكن

أن القنصل التركي كان مرءوسا له فيما مضى ، ومرة أخرى صعدت
« الشوارع ذات السلالم » المؤدية الى جراند هوتيل Grand Hotel
وكان سالفو Salvo رئيس الخدم هناك ، ليقابلنى وليقول
لى كما كان يقول من قبل : « نحن سعداء جدا لنرى السنيور المحامى قد
عاد ثانية سالما . ان الشيء الطيب هو أن القائد الانجليزى لم يشنق عرابى
قبل وصول السنيور المحامى » .

..مخطئا كثيرا ، يمكننى أن أقول ان « أحمد بك رقعت » ، قد ترك ، رغم ذلك ، بصمته
فى سياسات الشرق .

بأن الوطنية المصرية لا يمكن أن يكون لها من دفاع • ولقد كان حكم الساعة هو اتهام ، الى حد ما ، وهو حكم ، فى كل الاحتمالات سينقضه التاريخ جملة • ان مشاعر بلد بأسره لا يمكن اخفاؤها الى الأبد •

وبعد نهاية الصراع المقتضب بفترة قصيرة جدا بدأ ضابط انجليزى (١) جرتبة كابتن من ضباط القوات البحرية ، أحرز كلا من الشهرة والنفوذ فى الحرب ذاتها ، والذي من المحتمل أنه لم يكن له دافع للبرهنة على أن العمليات العسكرية التى اشترك فيها هو شخصيا بدور واضح ، لم تكن بدون مبرر - بدأ يكشف لنفسه جوابا عن السؤال : « هل كانت مطالب « عرابى » مشروعة ؟ » ثم بعد ذلك لخص نتيجة أعماله فقال : - « ربما كان من المؤكد أن الحركة يمكن أن تدعى حركة وطنية • وكثير من الانجليز أطلقوا عليها هذا الاسم فى مايو ١٨٨٢ ، عندما بدأت الأمور تأخذ طابع الجدية - وكان من بين هؤلاء الانجليز كثير من الضباط البحريين المشهورين التى يعين للفرقة الانجليزية التى أرسلت الى الاسكندرية فى ذلك الوقت فاذا نظرنا الى الموضوع من وجهة نظر مصرية وليس من وجهة نظر أوربية ، لم يكن هناك شك فى أن « عرابى » كانت معه عواطف الشعب المصرى • وكان أمرا طبعيا ان كان الأوروبيون عاجزين عن أن يأخذوا وجهة نظر محايدة فيما يتصل بهياج الشعب ، نظرا لأن أى تغيير فى وضع الأمور سيؤثر على وضعهم ماديا • وكان فى استطاعة « عرابى » وجزيه أن يعلنوا أنهم كانوا يحاربون من أجل الإصلاحات • وكان البرهان الذى يمكن أن يقدموه على أنه يمثل عدالة قضيتهم هو ، كما ذكر آنفا ، أن انجلترا الآن بسبيل البدء فى نفس هذه الإصلاحات ، وكان فى استطاعتهم أيضا أن يشيروا الى حقيقة أنهم عندما كانوا فى السلطة ، لم يصرف عليهم واحد من المال العام ، أيا كان ، سوى ما كانوا يعتبرونه ضروريا للصالح العام - وهى حالة نادرة وفريدة فى الشرق • ان منهج زيادة الضرائب فى البلاد لا بد أنه يبدو غير عادل تماما بالنسبة للمواطنين المصريين ، وعدم تحقيق العدالة سبب آخر للتبرم ، الى جانب حقيقة أن الأوروبيين كانت تسند اليهم كافة الوظائف ذات المسئولية • « وقد وصل مستر ماكنزى ولاس Mr. Mackenzie Wallace (٢) ، ماديا ، الى نتيجة مماثلة •

(١) الضابط المقصود هو : لورد تحارلز بيريسفور Lord Charles Beresford

فى جريدة التايمز ، عدد ٨ يناير •

(٢) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب •

لقد ذكرنا ، اذن ، ما فيه الكفاية عن القضية التى كان « عرابى » يعانى من أجلها . أما الآن ، فأنا أخطو خطوة أبعد ، اننى لا أجادل فحسب فى أن مصر كلها كانت مع « عرابى » ، بل أؤكد ، دون ما خوف من أى اعتراض ، أنه فى تنفيذ هذه المهمة الوطنية ، أظهر « عرابى » وصحبه أمانة واعية ، واعتدالا وروحا انسانية ستشرفهم على مدى الأيام . وبعد نفى « عرابى » بفترة قصيرة ، عقد فى لندن اجتماع لجمعية الأجانب حملة أسهم قناة السويس ، لندارس شئونهم ، برئاسة مستر بوفيرى Mr. Bouverie ، الذى قال فى الاجتماع : « لقد احتلت مشكلة الأسهم المصرية اهتمام المجلس ، وحتى قيام المشاكل السياسية فى مصر ، كانت الأمور تسير سيرا مرضيا ، وقال انه كان يعتقد دائما أن المشاكل ترجع الى نجاح إيرادات الحكومة المصرية . وقد أثبتت الميزانية العامة عن اغراء كبير . ان كل الحديث عن الوطنية المصرية « وعرابى » والخيطة الطويل من العواطف التى دارت حوله ، كان يعنى فى الواقع ، أن عرابى وأتباعه لهم رغبة فى الحصول على بعض المال . « هل يمكن تصور أى اتهام أكثر من هذا الاتهام الذى لا أساس له والذى ليس هناك ما هو أبشع منه ؟ لقد سبق أن ذكرت عدة حقائق عن « عرابى » وصحبه أكدت ما أسماه « لورد تشارلز بريسفورد » : « أمانتهم النادرة الفريدة » (١) ، بل ان « بلوم باشا Blum Pacha » الذى كان شاهدا معاديا لهم وليس منعازا الى جانبهم ، يؤكد أنه أصدر أمره الى أحد موظفيه وهو المرحوم سليجمان بك Seligman Bey بأن يلتزم التزاما غير عادى بمراجعة حسابات نظارة المالية المصرية أثناء ادارة المجلس العرفى لها فى القاهرة ، وقد راجعها بالفعل فاتضح أن مصاريف الحرب غطتها كلها تقريبا الاكتتابات الشبرعية ، وكل ما فعله عرابى وصحبه هو أنهم صرفوا رواتبهم العادية من الرواتب العسكرية . وكحقيقة تذكر ، أنهم عندما استسلموا يوم ١٥ سبتمبر كانوا يستحقون بالفعل راتب أسبوعين . ونظرا لعدم الاقتناع بما يؤكد صحة سجلات الحكومة ، اتبعت احتياطات مماثلة بالنسبة لحسابات السكة الحديد والتلغراف وغيرها من الخدمات المماثلة (٢) . وجدير بالذكر أن « عرابى » وكبار أعوانه ، بعدما اطلعوا لعدة شهور على ثروة مصر ، وكانت كلها تحت أيديهم ، ذهبوا الى المنفى لا يحمان معهم

(١) انظر الفصل ٢٩ من هذا الكتاب ، وكانت عبارته «Their singularly common honesty»

(٢) انظر الفصل ١٥ من هذا الكتاب .

رئيس من بين أبنائها يقيم العدل بين الناس ويعامل الغنى والفقير على حد سواء ، وينفذ ثورتها الإصلاحية دون ما سفك لدماء . كل هذا كان في استطاعة عرابي أن يفعله خيرا من أى شخص آخر وربما كان له أثره لولا —؟ وإزاء هذا لا يسعنا إلا أن نردد مع عرابي ما قاله هو نفسه ، « لقد تخلت عن جهوده الأقدار » . ولقد حاول الوطنيون طوال فترة سلطانهم القصيرة ، بلا شك ، أن يضعوا مبادئهم موضع التنفيذ (١) .

لقد جاء « لورد دافرين » الى مصر ، باعترافه ، لينقذ الموقف . لقد عكف بضعة شهور على دراسة دقيقة للمطالب المصرية ، وكرس كل جهوده وذكاؤه النادر وخبرته الناضجة لاكتشاف علاج . وأمامي الآن نتيجة أعماله كما عرضها على مجلس البرلمان البريطاني ، وقد وضعت بجانبها بيان « الإصلاحات اللازمة لرخاء مصر » الذى كتبه « عرابي » فى زمرته قبل أسبوع من محاكمته ، كان قد بعث به الى مدير جريدة « التايمز » اللندنية ، فلنقارن بين الاثنين ونحكم على « عرابي » فى ضوء تقرير « لورد دافرين » :

صارت السياسة هى شغله الشاغل ، ولما أجريت الانتخابات نجح فيها ودخل البرلمان ، وناذى فى مقالاته وفى أحاديثه فى البرلمان بإعلان الحرب عن النمسا وإنشاء دولة واحدة تضم كل شمال إيطاليا ، وكللت جهوده بالنجاح ، وكان من أكبر المضدين لـ « جارibaldi Garibaldi » فى توحيد جنوب إيطاليا ، ثم اتحد الشمال والجنوب ليكونا وحدة إيطاليا ، وكان الفضل الأكبر فى هذا التوحيد لجهود كافور ، وقد توج هذا التوحيد قيام الملكية فى إيطاليا ، وكان أول ملك أسند إليه الحكم فيها هو فيكتور ايمانويل الثانى (المحقق)

Victor Emmanuel II

(١) يقول المقال الذى صدر فى Fortnightly Review الذى اقتبست منه من قبل « فى زمن سيادة الحزب الوطنى ، لم يتخلوا عن الفقراء ، وكانت تفحص حالاتهم بعناية تامة . لقد كان الموظف المقتصب يلقي عقابه بلا رحمة ، وكان الحزب وهو فى السلطة يحرص على السلطة ولا يحرص على المال . لقد كان أول صراع من نوعه فى الشرق ضد الرشوة وما يتبعها من شرور . وكان سبب شعبية عرابي التى لم يسبق لها مثيل والتى لم يكن جدال فيها ، تكمن فى الاهتمام الشخصى الذى أولاه للفقراء ليكونوا على قدم المساواة مع الأغنياء ، وفى رفضه الذى لم يحد عنه بقبول مال نظير تحقيقه العدل . اننى أذكر أن سيدة كانت قد جردت من بعض من أملاكها ، قيمتها ما يقرب من ٤٠٠٠ رء (أربعة آلاف) جنيه ، عرضت قضيتها أمام الناظر (الوزير) ، وبعد فترة قصيرة استدعاهما وأخبرها أنها فى مدى يوم أو يومين ستسترد أرضها ، ولما كانت مستعدة حدوث هذا الأمر ، رجته بطبيعة الحال ، أن يتقبل عشرة أفدنة هدية منها وكانت قيمة الهدية المقترحة مساوية لمصاريف القضية تقريبا ، ولكنه رفض الهدية .

خطة « لورد دافرين » لاعادة تنظيم مصر

(٦ فبراير ١٨٨٣)

« لن يكون عملا صعبا ان يمنح الشعب
المصرى حكومة صالحة ، اذ على العكس من ذلك
هناك ظروف كثيرة توضح أن اللحظة الراهنة
ملائمة لافتتاح عهد جديد »

بيان « عرابى » عن اصلاح احوال مصر

(٢٥ نوفمبر ١٨٨٢)

انى وان كنت مسجوناً فى سجن أعدائى
فلا أبالى بما أنا فيه من الاهانة ولا بما سيحدث
بعد ذلك فانى جعلت نفسى وقفاً على تحرير
بلادى من أجل ذلك فلا يهمنى الا سعادتها
وانقاذها من حب الأفاعى القتالة الكثيرة الأنواع
تلك الأفاعى هم الرباويون الذين امتصوا ثروة
المزارعين بالربا الفاحش واغترفوا خيرات البلاد
غرفاً مع سوء المعاملة لأهلها هم والأجانب
المتوظفين فى أعلى المناصب وغيرها بمرتبات
باهظة الشاغلون لمعظم المصالح الأميرية حتى
انجبرت الحكومة على رفث أبناء الوطن منها وهم
الذين بايديهم زمام الحكومة من المسلمين الغير
مصريين المتغلبين على ما ليس لهم بحق فهؤلاء
الآخذون بمقاليد الأمور لا يروق فى أعينهم الا
أن يروا المصريين دائماً فى أسفل درجة من
التأخير والتأخر حتى يستقيم لهم أمر التغلب
على استبعاد أهل البلاد الأحرار بشدة ظلمهم
وتعسفهم اذ أنهم لا يعرفون شيئاً من العلوم
والآداب التى يفضل بها الانسان بعضه بعضاً
الا الكبر والتجبر والضرب والشتيم وما من
شأنه عن المتخلفين به وهؤلاء الذين غرروا
باسماعيل باشا الحديوى السابق وحسنوا له
فعل كل منكر حتى انقلوا البلاد بالدينون
الفاحشة التى ما صرفت الا فى فضى الشهوات
البهيمية طمعا فى ما نالهم من الغنيمة الباردة
التي خص بعضهم منها فوق المائتى ألف جنيه
وما نالوه من الأقطان والأملاك بلا مقابل التى
يزيد ايرادها سنوياً ثلاثين ألف جنيه أو أكثر
هم الأفاعى التى انتهشت لحوم المصريين الذين
لا تناصر لهم اللهم الا أن يقيض الله لهم نصراً
الحق أحرار الأمة الانكليزية الحريصين على
تحرير بنى الانسان ومن أجل أن يكون الدواء
قاطعاً للداء قد شخّصت المرض المصرى ليسهل
على الطبيب تعيين الدواء وحيث أن الأمة
الانكليزية اخذت على نفسها النظر فى أمر
اصلاح مصر على ما فى ذلك من عظم المسئولية
امام العالم المتمدن وامام تاريخ هذا الجيل الكثير

« نتيجة لهذا ، فرضت علينا مسئوليات •
ان اوربا والشعب المصرى ، الذى اخذنا على
عائقنا أن ننقذه من الفوضى ، من حقهما على
حد سواء ، أن يطالبا بأن تدخلنا يجب أن
يكون مفيداً ونتائج راسخة ، وانها يجب أن
تجنب كل اضرار اية قلاقل فى المستقبل ،
وانها يجب أن ترسى على اساس ثابتة مبادئ
العدل والحرية وسعادة الشعوب • »

رابعاً - حيث أنه في المدة المذكورة يكون اقتدار الأهالي على النظر في مصالحهم قد علم لدى العالم حيث أن مجادلاتهم تكون علنية ونشرت في الجرايد عربية والفرنسية تعطى للمجلس حقاً بعد تلك المدة على حسب الاستعداد الذي ظهر في تلك المدة وعند ذلك يكون النظار مسئولين أمام ذلك المجلس .

خامساً - يجب أن توضع قوانين أساسية تتحدد بها سلطة الحاكم وخصائصه وسلطة النظار وبين فيها أن كل أمر صدر من الحاكم بدون إقرار نظاره أو استشارة الناظر الذي يختص بنظارته ذلك الأمر فهو لاغ وعلى ذلك لا تجوز مغالبة الحاكم مع نواب الدول أو نفس الدول إلا بواسطة ناظر خارجية في أي أمر كان .

سادساً - يجب أن توضع قاعدة المساواة بين سكان القطر المصري عموماً لا يفرق فيها بين أجنبي ووطني في جميع المعاملات وقروض الضرائب والرسوم وغير ذلك .

سابعاً - يجب أن توضع القوانين في جميع محاكم القطر المصري وتسن قوانين عادلة توافق أخلاق البلاد وطبائعهم ويراعى تنفيذ تلك القوانين بغاية الدقة بدون تدخل ذوي السلطة في تأويلها واستعمالهم الطرق القديمة في مراعاتها ظاهراً وعدمها في الحقيقة .

« لا شك في حقيقة أن الأجانب في مصر معشون من الضرائب في الوقت الذي يخضع فيه الوطنيون لها ، يزعم فكر المواطن إلى حد بعيد . وإذا كان رفع مثل هذا الحيف الواضح سيفعل الكثير في كبت الشعور العام عند الحكومات الأجنبية المتعاطفة تجاه المصريين ، إذ سيصل شعور تعاطفها في اللحظة التي تتأثر فيها مصالح رعايا المالية . »

« أن المطلب الرئيسي لمصر هو العدالة . وأن نظاماً للمعدل نقيماً ، غير باهظ التكاليف وبسيطاً ، سيبرهن على أنه أكثر فائدة للبلاد من أعظم امتيازات دستورية . وبناء مجتمع في الشرق بسيط جداً ، شريطة أن تقدر الضرائب تقديراً سليماً ؛ وهو لا يتطلب وضع قوانين لاسعاد الناس ، ولكن أكثر التشريعات اتقاناً ستفشل في تحقيق ذلك ما لم تكن القوانين التي ابتدعت لهم قد شرعت تشريعاً منصفاً . »

« في هذه الآونة ليس هناك عدل حقيقي في هذا البلد وأن ما يجري تحت هذا الاسم أن هو إلا مهزلة بالنسبة لكل من المحاكم ذاتها وللسلك القضائي الذي يتظاهر بإدارتها . »

ثامنا - ينظر في أمر توسيع دائرة المعارف وانتشارها في عموم البلاد بطريقة منتظمة واصلاح طرق التعليم والتعلم فيها مع البدء بتعميم العلم بالقوانين التي توضع أو تم وضعها ليكثر في البلاد عدد المستعدين للحكم والقتضاء .

« ومن الواضح ان كل جهودنا لتزويد مصر بجهاز ادارى مناسب ستكون بلا جدوى ما لم يكن في استطاعتنا ان نعتسد على مختلف الاقسام التي يتألف منها الجهاز ليؤدى في كفاءة الواجبات المحددة لها ، ولن يحق للشعب المصرى ان يشكو من ان الادارات مكتظة بصورة غير ملائمة بموظفين اجانب لو كان من الحال ان تجد موظفين وطنيين تعلموا التعليم المناسب ، واذا كان من الحال أيضا توفر المؤهلات التي تؤهل لشغل المناصب الحالية الموكلة الى الاجانب والذين كان شغلهم لها محض ضرورة اقتضاها الوضع . واذا كان هذا الخيف مشروعا بلا شك ، فان في استطاعة الحكومة المصرية وحدها ان تتخلص منه بإخذها بأسلوب حماسى وواع فى تسليم الاجيال الصاعدة . »

تاسعا - يجب ان يرفت من لا لزوم له من الأوروبين ويكتفى منهم بقدر الضرورة مع مراعاة حالة مالية البلاد فى رواتبهم والمناسبة بينها وبين مرتبات الوطنيين حتى لا تقع المنافسة والمنافرة لسبب الامتياز الفاحش .

« ولكن هناك اصلاحات أخرى أساسية سيبدأ بها قبل ان تصبح الخدمة المدنية فى مصر قديرة او اقتصادية . ومن سوء الحظ ، ان ادخال هذه الإصلاحات سيسبب الكثير من السخط ، وسيجلب بعض المتاعب الفردية . »

« لقد اوضح مستر فيتزجيرالد M. Fitzgerald (١) فى تقريره المؤرخ ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ والذي سلمه الى « سير ادوارد ماليت » الذى رفعه بدوره الى مقامكم يا سيادة اللورد ، ان عدد الموظفين فى خدمة الحكومة المصرية ، من المضحك انهم يزيدون عن الحاجة اليهم . »

« وبالرغم من ذلك ، فانه من المرغوب فيه جدا ، وجوب خفض عدد الأوروبين بصورة

(١) هو بيرسى فيتزجيرالد Percy Fitzgerald ، أحد الكتاب الانجليز الذين كان لهم اهتمام بمصر . ولقد ألف « بيرسى » كتابا عنوانه قناة السويس الكبرى The Great Canal of Suez. نشر سنة ١٨٧٢ ، والكتاب يعطى بيانا موجزا عن المشروع وخلفيته ، وكان هذا الكتاب من بين الكتب التى اعتمد عليها « سير ايفلين بيرنج » (لورد كرومر) فى كتابة تقريره عن « الحديو اسماعيل » . (المحقق) .

ملموسة ، وبخاصة في الأماكن التي تضاعف
عددهم فيها لأسباب سياسية . »

عاشرا - يجب ألا يحرم الوطنيون من
الوظائف أيا كانت عالية أو دانية مادام
الاستعداد موجودا ومن رغب من الذين لا ذنب
لهم سوى دعوى تدخلهم في الحوادث الأخيرة
يكونون كغيرهم يدخلون الوظائف على حسب
استعدادهم .

« ليست هناك في مصر خدمات ، وكان
الناس على حق تماما من الشكوى من ذلك ،
أكثر من شكواهم التي حول بوجها مسح
تفصيلي Cadastral Survey للبلاد ، ولم
يكن أمرا غريبا ، أن هذا المطلب ، مطلب
الخدمات ، أثار اهتمام مجلس النواب » .

حادى عشر - تنظر طريقة في وضع حد
للرباويين لمنعهم عن استعمال الفس وادخاله
على الأهالي لسلب أموالهم [وإيقاف الفلاحين
عند حد في الأخذ بالربا .]

« لقد كانت تكاليف المسح التفصيلي باهظة ،
والنتائج ضحلة ، وقام بجمع البيانات
موظفون أوروبيون لم تكن معرفتهم الفنية على
مستوى عال دائما .

« وائنى أقدم الآن ، وأطلب من فخامتكم
أن توجهوا اهتمامكم الى موضوع من أكثر
الموضوعات إثارة للغم وهو المتصل بالظروف
الاجتماعية الراهنة لهذا البلد ، وهو وضع له
خطورته ، ويتمثل في زيادة نسبة ما يمتلكه
الفلاحون من الأراضي بصورة ملحوظة ،
وبخاصة في الدلتا » .

« ومن سوء الحظ أن الدين المرهون والذي
يبلغ ٥٠٠٠٠٠٠ رة جنيه المشار اليه آنفا ،
لا يمثل بأية حال من الأحوال كل ديون
الفلاحين . لقد بلغنى من شخصية مسئولة أنه
مدين على الأقل بـ ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه أو
٤٠٠٠٠٠٠ رة جنيه لراعى فى الريف ، وهو
حامل أسهمه وقادر على أن يبيعه بنفس السعر
المناسب الذى يطالب به الراهن » .

« ولو تحققت بذلك المطالب المعشوية
لمصر ، (١) بتحقيق الأمن الداخلى والخارجية

(١) جدير بالذكر أن « برودى » فى نصه الانجليزى وضع فى هذا الجزء رقم ثانى
عشر . جاء فيه ما ترجمته : « يجب أن توجه عناية الى أشغال الرى وغيرها من أساليب
إخصاب التربة ، فلقد أهملت هذه الأساليب أهلا شديدا ، وهى التى تمس حياة مصر » -

والعدالة . فانه يمكننا بعد ذلك أن نتجه الى التفكير في احتياجاتها المادية . ان ثروة مصر تنبع من ارضها التي تعتمد خصوبتها كلية على النهر ، وسنة بعد أخرى ينقل النيل في مياهه الغزيرة كنسوزا من كنسوز باكتسولوس Pactolus (٢) الأسطورية . »

« وفي اللحظة الراهنة ، نحن نعمل للصالح العام بوجه عام ، ان أمنية كل فرد هي أن تكون مصر آمنة ، رخاء ، سعيدة ، قادرة على أن تسدد ديونها ، قادرة على أن تعمل على استتباب الأمن على طول القناة ؛ والا تدع لأية حالة اضطراب في شئوننا أن تكون مبررا لأي تدخل من الخارج . ان فرنسا وتركيا وكل قوة أوربية يجب أن تكون تواقفة ، كما نحن تواقون أنفسنا ، للوصول الى هذه النتائج ، كما يجب ألا نحسدنا على الوسائل التي نتبعها لفهمان تحقيقها . »

ناني عشر - يكون اجراء جميع ما تقسم تحت ملاحظة وارشاد أمناء من دولة الانكليز الى مدة معينة يمكن بها ظهور الإصلاح واقتدار الأهالي على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم .

هذه الإصلاحات اذا صار مراعاتها في مصر بغاية الدقة تكون حقيقة قد اكتسبت الأمة المصرية نجاحها من أمراضها المزمنة العضالة بحكمة الحكماء الأمناء وجودة الدواء وتكون انكسرت قد أدت واجباتها بكمال الشرف .

٢٥ نوفمبر ١٨٨٢

« ان نفس حقيقة اننا منحنا البلاد نظم التمثيل السياسي لهو برهان على نزاهتنا . » (توقيع) احمد عرابي المصري

اننى أترك لقرائي أن يستخلصوا نتائجهم . قد يكون « لورد دافرين » أدخل تحسينا على خطة عرابي ، أو لعله ابتدع خطة أكثر كمالا ولكنه في النتيجة كان مضطرا لأن يترك لطبقة الباشوات ، التي استعادت سلطانها ، المهمة التي تكاد تكون مستحيلة ، وهي التخطيط لبرنامج وطني بدون الوطنيين .

لم يكن عرابي الوطنى المصرى الوحيد على الإطلاق ، شخصية وكفاءة . لقد كانت عنده بكل تأكيد أحسن المقومات ليقود الناس ، ولكن غيره أظهروا قدرة غير عادية في تنفيذ خطته تنفيذاً عملياً ، وان خطابات « محمود سامي » ، والوثائق الرسمية شواهد مطلقة على قدرات فكرية ،

ولا أدري من أين جاء « برودلى » بهذا النص ، اذ لا وجود له على الإطلاق في الخطاب الذى بعث به « عرابي » الى مدير جريدة « التايمز » اللندنية والذى كتبه بخط يده والمحفوظ بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، والتعليل الوحيد لهذه الاضافة من جانب « برودلى » هو أنه من فرط تقديره لـ « عرابي » اضاف هذه الاضافة حتى لا يكون بيان « عرابي » أقل خطورة من بيان « لورد دافرين » - (المحقق)

(٢) له البحر في الأساطير الاغريقية . (المحقق)

للادارة التركية البحتة التي لم تتغير على مدى نصف قرن ، لا نرى الا
البؤس والعزلة والدمار (١) .

لقد أدرك أقدر اثنين من أعضاء الأسرة الخديوية في مصر بكل وضوح
معنى ونتائج التسلط التركي في تلك البلاد . لقد رأيا ما نجم من
« حماية » السلطان الخليفة من اندماج كامل غير مثمر تماما ، رأيا الدمار
المحتوم للبلد الذي يحكمانه . لا شك أن السيادة التركية لم تفعل شيئا
على الاطلاق ، وفي كل الاحتمالات الانسانية لن نفعل شيئا لصالح مصر .
لقد شلت جهودها في الماضي وقت أن كانت تتطلع الى الحرية ، ولو استمرت
تركيا قوية مطلقة العنان لبشرت بلا شك نفوذا أخطر في المستقبل .

ويجربنا الحديث عن « تركيا » الى وصف ما فيها من الفساد والفوضى
اللذين لا أمل في الخلاص منهما والمذين يستشريان يوما بعد يوم ويعمان
كل ادارة من الادارات التنفيذية التركية سواء في الداخل أو في الخارج .
لقد أكد « مستر جلادستون » في مقال له في سنة ١٨٧٧ (٢) أن
« فنون الزيف لقيت تطورا هاما في تركيا » واستطرد متحدثا عن « الزيف
والخداع والازدراء والانحراف عن العدل ورفض الاصلاح » وهي السمة
التي كانت مميزة لسلوك الباب العالي تجاه أحداث هامة معينة كانت تحتل
الاهتمام العام ، وحدث تحول الى ما هو أسوأ منذ ذلك الوقت . لقد
فشلت الأفكار الغربية التي نادى بها سلطان تركيا ، أمير المؤمنين ، عن
الدعوة الى اقامة جامعة اسلامية Pan-Islamic ، فشلت في اثاره الشقاق
في أوروبا ، بل ان هذه الأفكار قد أدت الى أن تفاقم في تركيا بشكل
ملحوظ الخلل والفساد « والزيف الذي تطور تطورا خطيرا » ، وهو
ما سبق أن شكنا منه « مستر جلادستون » في مقاله (٣) . وجدير
بالذكر ، أنه طوال حكم السلطان عبد العزيز ومن سلفوه ، كانت الادارة
الثنائية للباب العالي والقصر تسير بصورة متعادلة تماما ، وعلى أية حال ،

(١) صدر هذا الكتاب (في سنة ١٩٠٢) قبل تطور الأحداث في شمال افريقيا ، اد
حدث في سنة ١٩٠٠ أن عقدت اتفاقية سرية بين إيطاليا وفرنسا [وكانت وقتها تحتل تونس
(١٨٨١) بعد احتلالها للجزائر (١٨٣١)] بموجبها تطلق فرنسا يدها في مراكش
(سميت المغرب بعد ذلك) وتطلق إيطاليا يدها في طرابلس الغرب (سميت ليبيا بعد
ذلك) وقد نفذت هذه الاتفاقية سنة ١٩١٢ عندما نشبت الحرب بين إيطاليا وتركيا وهزمت
الآخرة فيها ، فضمّت إيطاليا طرابلس الغرب الى مستعمرتها ، وضمت فرنسا مراكش الى
مستعمرتها ، وكانت هذه هي نهاية أملاك الرجل المريض (تركيا) في شمال افريقيا .
(المحقق) .

(٢) و (٣) عنوانه : عدوان في مصر Aggression in Egypt : مجلة
القرن التاسع عشر Mineteenth Cnturey عدد أغسطس ١٨٧٧ ، ص ١٦٣ .

فيما يهيم المظاهر الخارجية ، كانت تشبه بلا شك ، في كثير من الأساليب لعبة المضرب والجمّاح Shuttlecock and battledore (فكانت الادارتان الكبيرتان تمثلان « المضرب » ، بينما العمل القائم يمثل « الجمّاح ») ، ولكن جاء الحل في النهاية ، وكان لا بد من الوصول اليه عاجلا أو آجلا . وكاد القصر يبتلع تماما مهام الباب العالي ، ونتيجة لذلك صارت مقاليد الحكم لكافة الأغراض العملية في أيدي رجل واحد هو السلطان عبد الحميد . صحيح أن أصدقاءه كانوا يؤكدون في غموض أنه أعظم دبلوماسي أوروبا ، ولكن ما كان يعزى اليه من قدرة فائقة كان ينقصه الدليل على ذلك ؛ اذ أن أفعاله الظاهرية كانت تتخالف هذا الادعاء كل الاختلاف . ويكاد يكون من المستحيل انكار أنه في عهد السلطان الخليفة الراهن بلغ سوء الحكم في استانبول ذروة السوء قل أن يدانيها ذروة .

ان مؤسس الأسرة المصرية الخديوية اكتشف الآثار الضارة للتدخل التركي الفعال في شئون بلده ، وتمشيا مع طبيعته الخاصة وآرائه عن الأزمنة التي عاش فيها ، لجأ « محمد علي » الى فصم عرى ارتباط مصر بـ « تركيا » بحد السيف ، وكان ابنه « ابراهيم » قد قاد جيشا مظفرا ، وأغل ما يقرب من مائة ميل من استانبول ، واحتلت قواته الأماكن الاسلامية المقدسة ، وأصبح نفس وجود الامبراطورية العثمانية مهددا ، ولم يتوقف « محمد علي » عن زحفه الا امتثالا لأوامر أوروبا ، ويؤكد ذلك أن فرمان الصادر بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٤١ (الذي حدد في النهاية سلطان محمد علي بأنه وال على مصر) كان قد سبقته اتفاقية جاء في ديباجتها أن السلطان التجأ الى الدولتين العظيمين طالبا اعانتتهما له ومساعدته وسط الصعوبات التي وجد نفسه مترددا فيها نتيجة المسلك العدائي الذي سلكه « محمد علي » ، باشا مصر ، الذي يهدد وحدة الامبراطورية العثمانية واستقلال عرش السلطان » ، وطوال بقية حكم « محمد علي » ، حشد السلاطين الخلفاء « حمايتهم » لمصر في تسلم جزية سنوية تصل الى ما يقرب من ٣٢٥٠٠٠ جنيه .

وقد شهد حكم كل من « عباس » و « سعيد » محاولات متكررة من جانب تركيا لتجديد سياستها القديمة في التدخل الداخلي الفعلي في مصر . وعلى العكس من ذلك ، كان « اسماعيل باشا » على وعي تام تماما الى ضرورة الحفاظ على شبه الاستقلال الذي ناضل من أجله « محمد علي » . لم يحاول أن يتبع طريق الحرب الذي سلكه جده ، بل سعى للحفاظ على تسلطه من بعيد ، وأن يحصل على مزيد من حصانات وامتيازات يمكن أن تضمن له الحكم الذاتي الفعلي على مصر عن طريق عملية يصفها هو نفسه

بأسلوب عذب بما فيه الكفاية ، بأنها عملية تقبيل السجادة kissing the carpet (١) : ف « بفرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ ، ضمن أن تكون الوراثة فى أكبر أبنائه الذكور ، أعنى انتقال وراثة باشوية Packalik مصر فى فرعه المباشر الى الأبد ، مع منحه الحرية الكاملة فى أفعاله بالنسبة للإدارة الداخلية للبلاد ، ومنحه فرمان ٨ يونيو ١٨٦٧ ، لقب « خديو » ، وسلطة عقد اتفاقيات تجارية ، ومنحه امتيازات ، الخ ٠٠٠ وحصل على حقوق هامة أخرى بموجب فرمان ٢٥ سبتمبر ١٨٧٢ ، وكذا فرمان ١٠ سبتمبر ١٨٧٣ ، وأخيرا منح كافة الامتيازات والحصانات التى صدق عليها وأكدها فى وقار ، فرمان شامل صدر فى ٨ يونيو ١٨٧٣ . ولقد نجح « اسماعيل باشا » الى حد كبير فى اضعاف نفوذ سلطان تركيا فى مصر ، بأن طالب أئمة المساجد عند القائهم خطبة الجمعة عند دعائهم الى الله أن يدعوا الله أن ينصر « جيوش الاسلام » بدلا من دعائهم السابق بنصرة « جيوش رأس الامبراطورية العثمانية » . ولقد كانت عملية « تقبيل السجادة » ، لسوء الحظ أكثر العمليات تكلفة ، وكان « اسماعيل باشا » هو وحده « الابن العزيز المحبوب » dearly beloved son عند السلاطين الخلفاء طالما ان عنده شيئا يعطيه . فى أيام رخائه ، نادرا ما كان يجرى الى القاهرة رسل أتراك ومندوبون أتراك ، ثم اذا جاءوا بعد ذلك ، كانوا يأتون فقط كحاملى خطابات تحية أو حاملى نياشين ، وكان « اسماعيل » يرد فى بشاشة على المعونة العسكرية المطلوبة منه ، ويدفع جزية السنوية ، وكانت قد زيدت الآن الى ٧٥٠.٠٠٠ ر. ٧٥٠ جنيه تركى وكان يعطى للسلطان ونظاره هدايا ثمينة كلما أرادوا ذلك ، وصارت عملية « تقبيل السجادة » مثقلة أكثر وأكثر ، ولكن نظام الحكم كان يلبي مطالبها بصورة تبعت على الاعجاب طالما أن النظام دائم ، ولكنها ساعدت بصورة أكثر فعالية فى الدمار المالى للخديو اسماعيل ، ولو أنه كان يعتقد (سواء كان تفكيره سليما أو خاطئا) أن التحرر الفعلى الذى كان يأمل فيه لنفسه ولشعبه ، يستحق منه أعظم تضحية قام بها .

فى الأيام الأوائل من شهر مايو ١٨٨١ ، قمت برحلة الى القسطنطينية . اننى لا أقصد أن أشير بالتفصيل اما الى الخلل السياسى الذى لا يمكن وصفه الذى يسود البلاد ، أو الى الفاقة الاجتماعية التى لا يمكن وصفها بالمثل والتى يبدو أنها ناجمة منه . وأود أن أوضح للقارىء أن هذين الأمرين ليس لهما علاقة بموضوع التسلط التركى فى مصر ،

(١) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .

السلطان من انجلترا هو أن تعترف اعترافا كاملا ، دون ما تحفظ ، وبصورة فعالة ، بوضع مصر ، بأنها ولاية تركية ؛ وأن يسمح لها أن تساعد في اعادة تنظيم نفسها . هذا الترتيب سوف ينقذكم من هوم لا نهاية لها ويمكنكم من تجنب أية مسئولية ، وفي الوقت نفسه لتقودوا دفة الأمور خلوا من التعقيدات الدولية . لا تنخدعوا - ان اسم الاسلام ومكانة الخليفة سيكون لهما فعل السحر على أذهان المصريين . لقد حاول « اسماعيل باشا » أن يقلل من قبضتنا على مصر فعلمناه درسا . حاول أن يسير وحده ، ولكن عندما توقف عن أن يتكىء على تركيا فقد عرشه ، ولما وجدنى أكاد أكون مقتنعا بكلامه ، استمر قائلا : « ان ما اقترحه سهل تنفيذه تماما . ان « مستر جلاستون » عدونا السابق ، قد صار اليوم شخصا عادلا ، انه يدعو جلالة السلطان : « حاكم مصر » ، ان كل ما عليه أن يفعله هو أن يقدم لنا خطته وسنساعد في تنفيذها ، وإذا ما اتفقتنا مرة على موضوع مصر ، فان أهم النتائج لا بد وأن تنطلق بالضرورة من تحالفنا الجديد . اننا سنمثل جبهة متحدة في مواجهة عدونا المشترك ، الروسيا ، بل يمكننا أن ندفع فرنسا الى الانضمام . وأن تحذو حذوكم ، في موضوع « تونس » ، ومع ذلك ، فانكم اذا أصرتم على تجاهل حقوقنا ، فيجب ألا تجأروا بالشكوى لو أننا دخلنا في اتحادات أخرى . »

لقد لقيت آراء « خير الدين باشا » عن موضوع المسألة المصرية وحلها ، موافقة من استانبول ، وبعد بضعة أيام من زيارتي له ، علمت أنه استدعى الى « قصر يلدز » ، ولكن عناده . في موضوع الدستور حال بينه وبين احتمال عودته مرة أخرى للسلطة . والملاحظ اليوم أن كثيرا من حلول مريحة لمشكلات دبلوماسية تلقى تأييدا شديدا ، بل انه لا يساورنى أدنى شك فى أن اقتراحا مماثلا تقريبا للذى طرحه « خير الدين باشا » يلقى أو سيلقى تأييدا فى « داوننج ستريت » ، ولهذا ، فانه من الأهمية بمكان ، فى الفترة الراهنة ، أن يكون من واجب انجلترا أن تفهم المعنى الحقيقي للنموذ التركي فى مصر ، وما من شئ يمكن أن يصوره ، أفضل من تعقب تأثيره فى ذلك البلد طوال السنوات الأربع الأخيرة .

أعود الآن مرة أخرى الى استكمال قصة العلاقات بين مصر وتركيا التى كنت قد وصلت بها الى الفرمان الشامل الذى حصل عليه « اسماعيل باشا » فى سنة ١٨٧٣ . بعد ذلك بست سنوات ، كانت انجلترا وفرنسا سعادتاهما هى فى تحقيق رغبتهما فى اقالة « الخديو اسماعيل » . وكما سبق أن أشرت ، كان أحد الأهداف الرئيسية لسياسته هو أن يخلص مصر تدريجيا من القيود التى كانت تربطها ب « تركيا » . لقد اعتاد أن

يقول انه يرغب في أن يجعل مصر نقطة التقاء حضارة الشرق بحضارة الغرب . لقد أقنعه ادراكه الذكي ، في وقت مبكر من معترك حياته ، أن فكرة التقدم لا تتواءم كلية مع السلطان الخليفة الذي يبتلع كل شيء . وللتخلص من « اسماعيل » ، وقعت كل من انجلترا وفرنسا ، لسوء الطالع في خطأ فادح عندما استغاثتا « بالسلطان عبد الحميد » . أسرع الباب العالي لاستجابة لطلبهما ، لأن نافورات كرم « اسماعيل » السخية قد جفت . فلما تواري « الخديو اسماعيل » عن مسرح الأحداث ، استردت تركيا – وكانت الحكم بينه وبين القوتين العظميين – سيادتها التي كانت قد فقدتها . وكان « خير الدين » في ذلك الوقت في السلطة ، كبيرا للنظار . وفي لقاءاتي معه في القسطنطينية ، كان يشير مرارا وتكرارا الى مصير « اسماعيل » كعلامة انذار لكل من يتجاهل قوة السلطان الخليفة ، التي وصفت في العام الماضي بأنها « أنصع درة في التاج الامبراطوري » .

وفي تلغراف النظارة المؤرخ ٢٧ يونيو ١٨٧٩ الذي طالب « الخديو اسماعيل » بالتنحي عن الحكم ، عين أكبر أبنائه « محمد توفيق باشا » بدلا منه . ولم تكن هناك من وجهات نظر موائمة أفضل من وجهات نظر « السلطان عبد الحميد » . كان الخديو الجديد – صغير السن ، تعوزه الخبرة ، وكان تعليمه بالكامل مصريا ، وكان محبا مخلصا للتأمر من أجل مصلحته الذاتية ، وكان ، كما شاهدنا ، عاجزا تماما عن أن تكون له شخصية ثابتة مستقرة – وعلى الفور ، تطلع الى السلطان ليحميه ضد ذلك النفوذ الأجنبي الأوربي الذي برهن على خطورته في الاطاحة بأبيه ، وفي الوقت نفسه ، لجأ الى اخفاء كرامته المنتقصية بتورطه في قبول الحكم الانجليزيالفرنسي المشترك The Anglo-French Condominium باظهاره في تفاخر ، أن سيده السلطان : الطرف الذي بارك الصفقة . لقد كانت الفرصة طيبة ويجب ألا تضيع . لقد أدخلت بضع كلمات بصورة خادعة في فرمان الجديد الخاص بتوليده ، الصادر يوم ٣٠ يوليو ١٨٧٩ ، كادت أن تحطم تماما نتائج جهود اسماعيل الثمينة من أجل الحكم الذاتي عمليا . وليس غريبا ان يدرك « السلطان عبد الحميد » ، تحت هذه الظروف ، فكرة جعل مصر مركزا لحركة الوحدة الاسلامية ، وهي بعد في مهدها .

ان منشأ هذا الاتجاه الأخير في السياسات الاسلامية يكتنفه الغموض ، وان كان من المعتقد ، بوجه عام ، ان الاتجاه اليه أملتته الضرورة ليكون بمثابة اتحاد في مواجهة المصالح الروسية والانجليزية المشتركة

فى آسيا الوسطى . ثم رأت حركة الوحدة الاسلامىة بعد ذلك ، تحقيقا لغرضها : فصل الخلافة عن السلطنة العثمانىة ، وأخيرا ، فى حالة الدفاع الذاتى ، تبناها السلطان الخليفة نفسه فى صورة اتحاد عام تحت رعايته دفاعا عن الاسلام .

وبعد انتهاء اتفاقية برلين Berlin Treaty ، يبدو أن السلطان وجه اهتمامه الى الولايات النائية فى الامبراطورية الواقعة فى أفريقيا ، لقد عبر دون ما تحفظ ، للبارون د رنج Baron de Ring (١) عن آماله فى أن « أفريقيا ستعوضه عن فقهه لأجل ولاياته الأوربية » وأعلن عن أنه يجب « أن يبذل كل ما فى وسعه ليستعيد فى تلك الأجزاء سيادة وكرامة الماضى » . لقد أعطت أحداث سنة ١٨٨١ غير المتوقعة فى « تونس » شكلا عمليا للنظرية التجريدية « للوحدة الاسلامىة » ، وقد وجد نشاط دعائها العسكريون مجالا متجانسا للعمل : على الشواطىء الجنوبىة للبحر المتوسط . لقد سبق أن رويت فى كتابى « تونس الماضى والحاضر Tunis Past and Present » قصة الصراع اليائس الذى أبقى عليه العرب على حدود طرابلس الغرب (٢) .

لقد حاولت أثناء سردى لروايتى الراهنة ، أن أؤجل الى حد ما الحديث عن أعمال الوفود التركىة فى مصر لأفرد مكانا لوصفها فى الفصل الذى أقوم بكتابته الآن . ولا شك أن قرائى سيذكرون أن من أولى نتائج مطالب الجيش يوم مسيرة عابدين هو قدوم وفد عثمانى الى مصر ، وصل ميناء الاسكندرية يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٨٨١ ، وكان مؤلفا من : « على نظامى باشا » سرياور السلطان عبد الحميد و « على بك فؤاد » من أعضاء مجلس شورى الدولة ونجل « على باشا » الصدر الأعظم المشهور ، وفى معيتهما عدد كبير غيرهم من الشخصيات الهامة مثل « قسدرى بك » و « أحمد راغب باشا » ، الذين روعى فى عناية أن يبقوا فى المؤخرة .

(١) كان الفصل العام لفرنسا فى عهد اسماعيل ، وكان حاضرا وقت مسيرة ضباط الجيش الى قصر عابدين (سبتمبر ١٨٨١) ، والذى قدموا فيها للخديو مطالب الشعب والجيش وكان من أهم مطالب الجيش تنحية عثمان باشا رفقى عن الجهادية لتعسفهم وترقية الأتراك والشراكسة وحرمان الوطنيين من أية ترقية ، وقد تأكد مسير « رنج » من صدق شكواهم ومن وقتها وقف الى جانبهم وكانت له الكلمة المسروعة عند الخديو ، وأيدهم فى المطالبة بعزل عثمان رفقى من نظارة الجهادية ، بل انه تشاجر مع رياض باشا باعتباره مستولا عن كل أعمال رفقى ، فلم يجد الخديو بدا من اعفاء نظارة رياض وتعيين شريف باشا رئيسا للنظار ومحمود سامى البارودى ناظرا للجهادية خلفا لعثمان باشا رفقى . (المحقق) .

(٢) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب .

وحتى يمكن مراقبة مسلكهم مراقبة فعالة ، كان كل فرد من أفراد الوفد له رقم كودى code منفصل للشفرة التليغرافية الخاصة به ، وطلب منه أن يرسل استانبول مباشرة ، ومع ذلك ، يبدو أن ساسة قصر يلدز ، نسوا المثل الفرنسى القائل : « الضمير الآثم لا يحتاج الى من يتهمه » qui s'excuse s'accuse اذ نشر مقال فى جريدة « الوقت » Vakit وهى الجريدة شبه الرسمية نبأ بوصول الوفد باعلان أن المندوبين لا يحملون شيئا أكثر من رسائل بريئة مهذبة وبسيطة » .

ويستطيع صديقنا القديم أحمد رفعت (١) ، أن يقدم لنا ، من حسن الحظ ، باعتباره شاهد عيان ، كشف حساب عن أفعالهم بالقاهرة :

كتب رفعت يقول : « على نظامى باشا » ، تركى ، قائد فرقة ، فى حوالى الخمسين من عمره ، وكان حتى قدومه الى مصر مجرد موظف على قوة الخدمات العسكرية . أما « على فؤاد بك » فهو ابن المرحوم على باشا الذى كان معروفا عنه أنه الصدر الأعظم — أما « على فؤاد بك » فهو فهو لا يزال شابا ، وهو أو كان ، من سكرتارية السلطان الذين هم موضع الثقة ، وأما ملحقهم attaché وكاتبهم ، فهو قدرى افندى (قد رقى ، فصار قدرى بك) ، وربما كان « قدرى » أقدر الثلاثة بالرغم من أنه (مثل أحمد راغب ، ياور السلطان) لم يعتبر عضوا رسميا فى الوفد لقد كان مواطنا من حلب ، وكاتبا له مقدرة ملحوظة ، وكان باعتباره سكرتيرا ثانيا للسلطان ، مسئولاً عن المراسلات الضخمة التى كانت مستمرة مع شيوخ شمال أفريقيا ورؤساء الاخاءات الدينية المختلفة . وكان « قدرى » نادرا ما يرى أو يذكر اسمه ، ولكن عندما انسحب الوفد فجأة ، اتخذ مقره فى صمت فى القاهرة كبوايس سرى للسلطان ، ومنذ بضعة أيام فقط قبل وصول الوفد ، قال لى شريف باشا ، وكان وقتها رئيسا لمجلس النظار : اننى لما كنت على معرفة شخصية ب « على نظامى » و « على فؤاد » ، فينبغى أن يسمح لى بزيارتهما ، وأن استغل الفرصة التى ستتاح لى أحسن استغلال لأتعرف على الغرض الحقيقى من حضورهم الى مصر . وفى نفس ذلك المساء ، تلقيت رسالة بأن الخديو توفيق باشا يطلب منى أن أراه فورا . وبالرغم من أن الساعة كانت قد جاوزت منتصف الليل ، توجهت الى قصر الاسماعيليه ، فقال لى سموه اننى لما كنت سباقوم بزيارة المبعوثين الأتراك ، فقد طلب منى أن ألتزم الصمت التام بالنسبة للأحداث الأخيرة ، ولكنه طلب منى أن ألبأ الى

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

استخدام كل جدل ممكن استخدامه لأوضح لهم ولاء الخديو الكامل الذى لا يتغير لشخص ومصالح السلطان . وفى اليوم التالى ، توجهت الى قصر النزهة ، حيث كانت اقامة الوفد فى نوع من العزلة السياسية political quarantine ، فلم يكن يسمح لأحد فى بادئ الأمر بأن يزورهم بدون تصريح خاص . لقد كان لى بهم لقاء طويل جدا وخاص . لقد تناول حديثنا ثلاث نقاط ، أعنى ، المظاهرات العسكرية وشخص الخديو ووضع ومكانة السلطان فى مصر . لقد لاحظت أن المبعوثين كانوا شديدي القلق بالنسبة للنقطة الأولى ، كما كانوا يودون أن يعرفوا اذا كان يمكن اعتبار أن ما حدث « مقدمة لحركة عربية عامة » ، وما اذا كان أو لم يكن سقوط « رياض » وتولى « شريف » زمام الحكومة مكانه ، قد وضع فى الحقيقة حدا لمطالب الجيش . لقد أعربوا عن رغبتهم الشديدة فى عقد لقاء مع « عرابى » ، ولكنى أوضحت لهم أن « عرابى » قد ذهب مع قواته الى رأس الوادى (التل الكبير) ، « عبد العال » الى دمياط ، وأوضحت لهم أن هذه دلالة على خضوع الجيش . ثم بعد ذلك أعلنوا عن اتفاقهم معى فى أن اللقاء المقترح قد يثير شكوكا ، وكان من الواضح أنهم تخلوا عن الفكرة ، ثم بعد ذلك تحدثوا بالتفصيل عن الخديو . وما لبثت أن لاحظت أنهم كانوا أبعد من أن يقنعوا باخلاصه ، وأنهم كانوا قلقين من جراء ضعف شخصيته . وفى المساء السابق لسفرهم ، قدموا للخديو وثيقة مسهبة ليوقع عليها ، اننى أعرف أنه وقعها ، ولكن لم أستطع أن أحصل على أى مفناح لمحتوياتها . لقد أعرب كل من « شريف باشا » و « حيدر باشا » عن قلقهما البالغ منها . لقد ذكر المبعوثون لكل فرد أنه ليس هناك من شيء يمكن أن ينقذ مصر سوى الاعتراف الكامل « لسيادة » السلطان . لقد أعربوا عن استيائهم الشديد للجهود التى تبذلها القوات العظميان ليعود الوفد من حيث أتى ، ولكن خلال الأيام الأخيرة من اقامتهم ، اتخذوا موقفا بالغ الحيطة ، اذ أن « على نظامى » ألقى خطابا فى الجنود فى القلعة ، وبعد ذلك علمت أنهم بعثوا سرا بواحد من معيبتهم ، ضابط بحرى ، يدعى « أحمد راتب باشا » ، ياور السلطان ، الى الزقازيق ، ليلتقى بـ « عرابى » .

ولا يفوتنى أن أذكر أننى وجدت فى العدد رقم ١٢٣٣ من الوقائع المصرية بيانا عن خطاب ألقاه « على نظامى » فى القوات ، كان مليئا بالعزيز من النصوص القرآنية ، استهله على هذا النحو : - « اعلموا أن الخديو ان هو الا ممثل للسلطان الذى منحه سلطة عامة ، وأن الممثل على شاكلة من يمثله ، وبطاعتكم للخديو أنتم تطيعون السلطان ، وبذلك تنفذون

لا يوجد هناك من دافع الى ذلك ، لا لشيء الا ليرضى حكومة أجنبية « (١) ، ولكي يدحض الاتهام الذى وجهه اليه الخديو ، يبدو أن « عرابى » كتب رسالتين دفاعا عن نفسه ، من خلال « أحمد أسعد » الى « محمد ظافر » المستشار الدينى الخاص للسلطان ، الذى كان مشتركا فى ذلك الوقت فى تشجيع اللاجئين التونسيين تشجيعا فعالا للاستمرار فى حرب العصابات التى كانوا يديرونها على حدود « طرابلس الغرب » ، وكانت الردود التى تلقاها « عرابى » قد سبق أن أطلعت قرائى عليها (٢) .

ان الصورة التى افترضتها سياسة « قصر يلدز » عن مصر أثناء ربيع العام الماضى ، من السهل ادراكها : « عرابى » يوقع بالخديو ، و « الخديو » يوقع ب « عرابى » ، فتتعدد الأمور ، فيكون هناك مبرر للسلطان لأن يتخذ دور المبادرة فى تسوية حاسمة للشئون المصرية . ويبدو أن ارتقاء « راغب باشا » الى منصب رئيس النظار المصرى ، بفضل تأييد ألمانيا ، كانت عملية محسوبة للسير قدما بالخطة (٣) . وقبل تولي راغب باشا منصبه ببضعة أيام ، أرسل الصدر الأعظم التركى الى الخديو بالتلغراف التالى ، والذى وجد بين أوراق عرابى :

« لقد عرض على الحضرة السلطانية تلغرافكم الشامل بانكم منتظرون بغاية الاشتياق مأمورا مغموصا من طرف الدولة العلية وعلى أن الفسابقين الموجودين هناك يعلنون فى مواضع مختلفة أنهم يريدون الأمر الذى يصدر من طرف الدولة العلية اذا لم يوافقواهم . »

فالمذكرة هى هنا جارية فيما يلزم أن يعمل بمصر ، والأوامر التى تستصدر من طرف الدولة العلية لا يتأتى دينا ولا قاعدة ردها وعدم قبولها بالنسبة للمؤمنين الموحدين الذين

(١) هذا نص كان بودى أن أطلع عليه بنفسى لولا عدم وجود أى عند من أعداد الوقائع المصرية فى المدة من أول يوليو الى آخر ديسمبر ١٨٨٢ فى كافة مكاتبات مصر العامة منها والخاصة .

وجدير بالذكر أن الأستاذ محمود الحنيف ، ذكر فى كتابه « أحمد عرابى ، الزعيم المفترى عليه » (ص ٣٨٩) بعث الى السلطان بتلغراف يدور حول هذا المعنى ، وفيما يلى نص ما كتبه : « ٠٠٠ وكان عرابى قد أرسل بتلغراف الى السلطان قال فيه أنه حمل حملا على الحرب وأنه يمتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من خير ، ورجاه ألا يصدق ما يؤكده أعداء وطنه وملته أنه لو وجد فرقا عثمانية فى طريقه فإن ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التى تجعله يعامل اخوانه فى الدين معاملة الأعداء . » وأود أن أضيف أن فحوى التلغراف كان نقلا عن جريدة مصر رقم ١٧ صفحة ٢٢٢ . (المحقق)

(٢) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

(٣) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب .

يقولون « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، فإن الدين والملة شرعا في أهل الاسلام أمر واحد كالجندية في الملل غير الاسلام . فجميع أهل الإيمان مكلفون مع الأخوة بالطاعة والاجتماع على كلمة الله . »

وبعد ذلك بعشرة أيام ، قدم وفد امبراطوري ثان ، قدم في وقار الى الاسكندرية ، كان مؤلفا من « درويش باشا » ، وهو قائد عام ألباني سابق ، و « أحمد أسعد » أحد المقربين الى السلطان عبد الحميد ووكيل الفراشة بالمدينة المنورة . وكان « درويش » أستاذا قديما في النفاق والدهاء الشرقي اللذين كان يخفيهما بأسلوب معين من الخشونة والجفاء ، وبمظهر الاحترام ، كانت مهمته بصورة خاصة « مراقبة الخديو » ومحاولة دفع « عرابي » للذهاب الى القسطنطينية بمحض اختياره . أما « أحمد أسعد » فقد صدرت له من ناحية أخرى تعليمات بأن يتصالح مع الحزب الوطني ويشجعه ، وأن يراجع ، بوجه عام ، أعمال رئيسه ، وكان لكل واحد منهما « كود تلغرافي » مستقل ، وكان كل واحد منهما يسعى لأن يستفيد من وضعه ، أحسن فائدة شخصية ما أمكنه ذلك ، فقد رتب « درويش » بيع عقار له في بلغاريا للخديو مقابل ثروة ، في حين يبدو أن « أحمد أسعد » أفلح في بيع شفرته ، وكان تعليق « أحمد رفعت بك » على زيارته لـ « درويش » يصور بوضوح هذا الدور غير العادي للمؤامرة التركية في مصر . فلقد كتب أحمد رفعت بك يقول : « في يوم ٦ يوليو سافرت من القاهرة الى الاسكندرية لتقديم واجبات الاحترام لـ « درويش باشا » ، قاصدا أن أعود في اليوم التالي ، ولكنه طلب مني أن أؤجل سفري ، وفي اليوم التالي طلب مني أن أقترح على « عرابي » ، بأسلوب صداقة ، أن يذهب « ليعيش مع السلطان » بالقسطنطينية ، وبذلك تنتهي المشكلة ، ففعلت كما طلب مني ، ولكن « عرابي » رفض الفكرة . بعث « درويش باشا » في طلبي في اليوم التالي أيضا وفي هذا اللقاء ، سلمني في يدى انعاما من السلطان يرفعني الى رتبة مدنية مساوية لرتبة اللواء » وقال لي أنه سيكون من الحكمة ألا أعلن ترقيتي لفترة (١) . وبعد ذلك اكتشفت أنه وزع سرا ، انعامات مماثلة على كثيرين » .

وسرد على « رفعت » قصة توضيح خداع درويش الصفيق : في يوم من الأيام ، تحدث حديثا وطنيا عن موضوع الأسرة الخديوية ، وأكد فيه ، في حضور « طلبه باشا » وغيره ، أنه صار من المحال الإبقاء على أى من حقداء «محمد علي » ، على العرش ، وبعد ذلك بفترة قصيرة ، ذكر لنفس

(١) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

الفصل الثالث والثلاثون

مصر الحاضر والمستقبل

اننى لأتساءل مرة أخرى ، هل كان « عرابى » زعيم الحزب الوطنى الذى كانت جذوره عميقة فى قلوب الناس بطول البلاد وعرضها ؟ وهل كانت الحركة التى تزعمها هى النتيجة التلقائية والطبيعية لفكبات وفاقة وآمال المصريين هل كانت مختلف بنود ميثاق « عرابى » الشعبى (اذا استعرنا هذه التسمية الغربية) من الممكن تطبيقها تطبيقا عمليا ، أو بمعنى آخر ، هل كان هناك أى احتمال أن يحاول أهالى مصر أن يسيروا وحدهم مع فرصة طيبة للنجاح ؟ ان أحدث الكتاب الأوربيين الذين أخذوا على عاتقهم أن يقصوا علينا كل شىء عن وادى النيل ، ويقدمون لنا فى الوقت نفسه حلا للمشكلة المصرية ، يصرون على بحث هذه الموضوعات العملية تماما كما لو كانت تمثل حقبة منسية من زمن طويل من الفكر الاغريقى أو الرومانى . ويبدو أنهم سلموا من البداية أن الوطنية المصرية، حقيقة كانت أم زيفا ، قد تخطت مرة وإلى الأبد ، مجال سياسات الواقعية، وكما هم يقررون ، فان الموضوع كله يتيح دراسة طريفة للمؤرخ ، ولكنهم أعلنوا بنفس القوة ، أن موضوع التقصى ميت - وميت ولكنه حفظ الى الأبد ، بعيدا عن الأنظار - باعتبار أنه ينقصه الحيوية ، كآية مومياء من مومياءات الملوك المحفوظة فى المتحف المصرى بالقاهرة . ولا نجد أمامنا فى النهاية الا تقرير فحص بارع عن مآثوا سياسيا ، عن « عرابى » وصحبه ، وكانت تصاحب الفحص نتيجته وهى العلاج أو العمل المقترح ، ويبدو من فوره أنه كله مختلف ولا أمل فيه .

يجيب مستر « ماكنزى دالاس » (١) على أسئلتى الثلاثة التى طرحتها على قرائى (وهو يفترض أن تحرياته هى وحدها بالغة الأهمية من الناحية التاريخية البحتة) • « منذ أيام « محمد على » أو ربما من تاريخ مبكر جدا - لم يكن فى مصر شخص على الإطلاق له قبضة قوية حازمة على البلاد ، مثل « عرابى » ، اذ لم يكن تحت امرته الجيش والبوليس فحسب ، ونتيجة لذلك كان فى موقع يرهب به من يشاء ، بل كان يتمتع أيضا ، كما أوضحت ، بعطف كل قطاع تقريبا من الأهالى الوطنيين •• لم يكتسب « عرابى » نفوذه ولم يحافظ عليه عن طريق الارهاب ، لأنه لم تكن له منذ البداية قوة ليلحق ضررا بأى فرد ، وطوال زمن سلطانه لم يتسبب فى قطع رقبة أى فرد أو شنقه أو رميه بالرصاص • ولو أنه ذهب مع « توفيق » الى صناديق الاقتراع ، ولم تمارس كافة طرق التزوير فى النتيجة ، لحصل « عرابى » على أصوات الأغلبية الساحقة للناخبين الاحرار والمستقلين •• ولو كنا لا نعى أن نقيم شيئا أشبه بنظام دائم فى مصر ، فلماذا جئنا الى مصر بالمرّة ؟ لو كنا لا نعى أن نقيم فى الواقع حكومة صالحة ، فلماذا قضينا على الحزب الوطنى الذى كانت لديه فرصة أفضل بكثير للحفاظ على نظام حكم مختلف عن حكم الخديو الذى أعدناه للحكم ؟ « (٢) •

ولم يتوقف « دالاس » عند هذا الحد ، بل أخذ يسترسل فى مناقشة « مواهب » « الخديو توفيق » فى صورة محايدة ، فكتب يقول : « لم تكن عند توفيق قط ملكة أن يشيع بين رعاياه المحبة أو الحماس ، ثم صار مكروها بكل تأكيد عندما وقف بجانب الأجانب ضد « عرابى » •• ان « الخديو توفيق » أبعد عن أن يوقظ أية مشاعر فى الناس ، ولم تكن له أية خصال لحاكم بعيد النظر ونشيط » •

ويتفق معنى « مستر دالاس » على أن « عرابى » كانت مصر كلها معه ، وقد كان من المتوقع له النجاح فى إقامة حكومة صالحة لو ترك له الأمر وحده • وليس كلانا على خلاف فى رأى فيما هو واضح من افتقار الحاكم الذى فرضناه على المصريين ضد ارادتهم ، الى ممارسة الحكم ، ولكننا فى خلاف ، بصورة خاصة ، حول العلاج الذى يستطيع كلانا أن يصفه للمرض الفتاك الذى يهدد مصر ، ويبدو من حين لآخر مهددا بنتائج

(١) انظر كتابه : « مصر والمسألة المصرية » . Egypt and the Egyptian

Question ص ٣٧٩ •

(٢) مصر والمسألة المصرية ص ٣٧٧ - ٣٩٧ •

وخيمة . ان يضع كلمات تفوه بها « مستر جلاستون » ، رئيس وزراء انجلترا ، تفوه بها مؤخرا أقدمها كنص مناسب اذ قال : « أما وقد جئنا الى مصر ، فنحن ملتزمون بأن ندع الخديو يقف على قدميه وأن « نهىء له بداية طيبة » واذا بقينا يوما واحدا أكثر ، بعد تعهداتنا لأوروبا ، سنكون بذلك قد نكثنا بتعهدنا »

وجدير بالذكر أن « مستر دالاس » وشخصى عاجزان تماما عن أن تتفق على تعريف لطبيعة وظروف « البداية الطيبة fair start » التي يعينها « مستر جلاستون » ، فهو يقول (اذا لم آكن مخطئا فى فهمه) ان « حركة عرابى » أقرب ما يمكن لأن تكون شمولية universal وأن « عرابى » كانت مصر بأسرها معه وتسانده ، وأنه كان أميننا وعادلا ، حتى أن فرصة لاقامة حكومة صالحة ، كانت فرصا أحسن ، ولكننا ساعدنا على تحطيمه . وهو يعترف بأن الخديو توفيق ضعيف ، تعوزه الخبرة ، وليس جديرا بتولى زمام الحكم ، وبالرغم من ذلك ساعدناه ليستعيد قبضته على رعاياه العصاة . ان ما فعلناه بالنسبة لهذا الاجراء قد يكون خطأ ، ولكن كما يقول « مستر والاس » « ما كان لنا أن نتطلع الى الورا » . ان من واجبنا ، بالضرورة ، أن نستمر فى احلال الجديد محل القديم ورتق القديم ، واصلاح هنا ورتق هناك ، حتى تدفع عجلة القدر بالجهاز المصرى الى الحركة مرة أخرى ، وتمكننا من أن نترك البلد ليهتم بشأنه . ومع ذلك ، يعترف « مستر والاس » بأننا قد رميينا بالأدوات الأحسن ملائمة للعمل الذى أقررنا القيام به ، ونحن اليوم نستخدم أدوات غيرها ذات نوعية مشكوك فيها وغير صالحة . ويبدو أن « مستر والاس » يعتقد أن تغيير الخطط العادية قد يكون أمرا ممكنا ، ولكن يجب ألا يسمح لها بأن تتضمن إعادة رسم خطانا السياسية . وهنا الفرق الأساسى فى وجهات نظرنا - اننى اتفق مع « مستر والاس » (وربما أحسن به أقوى من احساس مستر والاس به) أنه بوجه عام ، كان « عرابى » على حق وأننا كنا مخطئين ، واننى اعترض على الإبقاء على نتائج خطئنا بأى منهج ترميم أو أخذ بأنصاف الحلول أيا كانت كياستها . اننى أقولها بشجاعة ، اننا يجب أن نفعل بموجب معلومة « مستر والاس » - وهى معلومة قيمة ومحايدة - المعلومة التى قدمها لنا عن موضوع « الوطنية المصرية » ، واصلاح خطأ أساليبنا . ان علينا أن نفعل مثلما أراد « سير ادوارد ماليت » لنا أن نفعله فى المحنة التى بدأت بالمذكرة الثنائية The Dual Note وانتهت بضرب الاسكندرية (١) : « يجب أن نلجأ الى الحزب الوطنى » ،

(١) انظر الفصل العاشر من الكتاب .

وعرابي وصحبه يجب أن يسمح لهم بالعودة من « سيلان » ومساعدتنا في « البداية الطبية » في مصر - وهي مهمة تختلف أساسا عن مجرد « بداية طبية » شخصية لصالح الحديو ، وهم بكل تأكيد ، لن يتركوا لنا سببا لنندم على كرمنا وان ولاءهم الواضح الذي أظهروه وهم في المنفى ، سيستمر ، وأنا واثق منه ، كما أن الخبرة بالنكبات لن تذهب كلها سدى ، وان حماية معنوية قائمة على تعاطف الشعب المصري لن تكون ، غلى ما أعتقد ، أقل قوة من السيادة الفيزيائية التي ظفرت بها قوة عظمى في المعركة ، والتي يعتمد وجودها ذاته ، الى حد كبير ، على مظهر القوة الذي يمكن أن نبقى عليه للحفاظ على ذكرائها متجددة في أذهان المهزومين . لو أن النفوذ الانجليزي في مصر جاء اذن ليستقر على أساس من الحب والشكر ، لتحدى على الفور كلا من المؤامرة التركية والعداوة العسكرية لقوات البلاد .

ان اقتراحي الأول ، لتحل على مصر السعادة ، وهو اللجوء الى الحزب الوطني وعودة الوطنيين ، قوبل بصيحة استنكار ، ولكنى سأشرح فكرتى ، وقبل أن أشرحها أود أن أذكر أن موكلى « أحمد رفعت بك » عند سفره ؛ أعطانى بيانا موجزا عن طبيعة وامتداد حركة الحزب الوطنى مصحوبا ببعض ايضاحات عملية للمقدرة الادارية التى أحدثها ، كما قال ، ولقد نشرته ليكون أحد ملاحق هذا الكتاب (١) ، وربما سيساعد قرائى فى تكوين رأى بالنسبة لاحتمال اسنداء الوطنيين باعتبار أنهم يشكلون نجاحا كبيرا ، نظر لأن عودة الحديو لتولى حكم البلاد برهنت على أنها علامة فشل وجالبة للأذى والنكبات .

ان اقتراحي اللجوء الى الحزب الوطنى هو من قبيل أنه ظرف سابق لفكرة « بداية طبية » لمصر ، اذ أن عودة الوطنيين لا يتضمن ثورة كاسحة ، اذ لا يحتمل أن يكون « توفيق » و « عرابى » رباين لنفس القارب ، ونتيجة لذلك فمن المحتمل أن سموه سيوجد نفسه مضطرا اما للاستسلام أو التنازل عن الحكم ، ولما كان المستحيل غالبا ما يحدث فى الشرق ، فان أسلوب التعايش modus vivendi بينهما يمكن أن يقوم ، ولكن يكاد يكون أمرا محتوما وضع حد لكل فرصة واقعية نتيجتها مرضية . اننى أترك لقارئى أن يحكم على الحديو توفيق حكما هادئا من قراءته لهذه الصفحات . لقد كان حكم « مستر والاس » بالنسبة لمواهبه أكثر مما يفى لغرضى . كان توفيق ، بمثابة الرمل الذى اخترناه لنقيم عليه بيتنا فى مصر ، ولن

(١) انظر الملحق رقم (١) [المحقق]

يدهشنا أن يتساقط بالفعل حول آذاننا . وسواء قبلنا أم لم نقبل ، فإن « توفيق » مقدر له عاجلا أو آجلا أن يسقط حسابه فى أى برنامج مفيد لمستقبل بلده . ولما لم يكن أى جانب يثق فيه ، لذلك ، فإن كل الأطراف سيهمها سقوطه فى قليل أو كثير ، ولو صحت الشائعة ، فإنه يعد العدة بالفعل لنفى مريب وكريم ، بعيدا عن وادى النيل ؛ حيث لن يخلف وراءه من ذكرى سوى أنه أضعف حفيد لـ « محمد على » وأكثر حاكم كرهه الشعب فى الأسرة الخديوية ، وأنه لم يعينه الا غاز أجنبى .

إن انسحاب « توفيق » لا يتضمن بآى حال من الأحوال أى تغيير فى الأسرة الحاكمة ، ولكن من بين أمرائها من المتوقع أن نجد أكثر من واحد على استعداد بل وقادر على أن يتقبل المبادئ التى نادى بها « عرابى » بالفعل والقول . ان عودة « الوطنية المصرية » لن يكفيها أن نكتب خطابات فياضة مؤيدة ومتبئية لسياسة ، ولكن خديو هذه الحقبة من تاريخ مصر ، من واجبه هو نفسه أن يحمل الراية التى شعارها « مصر للمصريين » ، وأن يساهم فى مخاطر ونكبات المعركة . لم يسع « عرابى » على الإطلاق الى تقويض العرش الذى أقامه « محمد على » أو الى أن يصبح حاكما لمصر هو نفسه . لقد جاهد طويلا ، وبلا جدوى ، ليعمل يدا بيد مع « توفيق » ، ولم يتخل « عرابى » عن ذلك حتى شاهد برهانا فى اثر برهان على عدم الاخلاص من جانب الخديو . عندئذ أدرك عدم جدوى أية محاولة أخرى . وحتى ذلك الوقت ، كان من صميم ولاء « عرابى » أن يحمى ويحرس حياة وشخص حاكمه كحمايته وحراسته لحياته هو نفسه ، حتى ذات الساعة التى غادر فيها « توفيق » قصره فى الرمل لينضم الى القوة الغازية التى سبق للخديو أن أمر بشن الحرب عليها منذ بضع ساعات قليلة فقط . ولما لم يكن عند « عرابى » طموح شخصى ، فقد كان يسعده أن يعمل بسرور من أجل الصالح العام لمصر تحت قيادة أى رئيس سياسى مخلص لأمانته . ان وصول مثل هذا الحاكم الى السلطة يجب أن يكون جزءا لا يتجزأ part and parcel من عودة « الوطنية المصرية » .

وقبل الدخول فى تفاصيل أخرى متصلة بهذه العودة الثانية التى لابد أن تسعى انجلترا لاتمامها عاجلا أو آجلا ، لتهيئة « بداية طيبة » لمصر وعدتها بها ؛ فأنى لا يمكننى أن أمسك عن الإشارة الى نقطتين أخريين ؛ فيهما أتجرا وأعرض على النتائج التى وصل اليها « مستر والاسى » . اننى أعتقد أن تقديراته النسبية لشخصيتى : « نوبار باشا »

(١) النظر الفصل الحادى والثلاثين من هذا الكتاب .

المحقق ()

عندما خضعت كل أملاكه وأملاك أسرته ضمنا لقرضين عامين • وإذا كان الفلاحون قد دفعوا ضرائب فادحة في عهده ، الا أن مصالحهم كانت بكل تأكيد محمية بصورة فعالة عما هي عليه في عهد « توفيق » ، فقد كانت الرعاية اليقظة الدائمة بالنسبة للرعى ، قد جعلتهم أقدر على تحمل أعباء أكبر في عهده عن الأعباء الأقل التي يتحملونها اليوم • لقد كان جمع الضرائب بعد أو وقت الحصاد أنسب الى حد كبير لطبيعة وظروف الفلاح عن دفع الضريبة شهريا أو ربع سنوى • والفلاح المصرى ، كما هو معروف عنه ، مغامر ، ومولع بأن ينفق فى حرية دخل كده وعنائه ، وما لم تجمع الضرائب عندما تتوفر له نقود ، كما كان فى الماضى ، فإنه لا يلبث أن يحطم نفسه (كما يحدث الآن) على يد المرابى فى القرية •

ان أحسن رد على الادعاء هو الاشارة الى المشكلة الصارخة ، مشكلة ديون الفلاحين ، اذ عندما ذهب اسماعيل الى المنفى كانت هذه الديون قد بلغت مليونين من الجنيهات ، أما فى عهد توفيق فقد تخطت الاثنى عشر مليونا ، ومع ذلك ، فإن « مستر والاس » يصر على أن « اسماعيل » هو المسئول عن هذه البلية أيضا •

أما عن الطغيان فى عهد « اسماعيل » ، فقد كان « الكورباچ » موجودا قبل عصره ، وعاصر اختفاه ، ومع ذلك ، كان هناك مزيد من الطرد والنفى والسجن طوال سنتى نظارة رياض « الأبوية » عن طوال سننى حكم « اسماعيل » بأسره • اذا كان لبطون أقدام الفلاحين أن تشهد ، لشهدت ضد الأب ، ولو كانت شواطىء نهر النيل بليغة هي الأخرى لشهدت ضد « الابن » • وكان اسماعيل ، على شاكلته كثير غيره من الحكام ، مجرد فرد فقط لم يحقق نجاحا ضخما • وعندما أدرك أخطاه والى أى مدى غدر به ، صمم على أن ينصف « الوطنية المصرية » • لقد رفضت أوربا أن تسمح له باكمال تجربته وأرسل الى المنفى • لقد مرت بمصر أحلك الأيام منذ غادرها ، ووسط هذه الفوضى الشاملة ، فإنه لمن أسوأ الأمور أن حاكم البلاد الذى كان له نفوذه فيها يوما ما ، يغادرها الى منفاه •

وكتب « مستر والاس » قرب نهاية كتابه : « لم يكن فى استطاعتى أن أكتشف فى مصر أى عنصر وطنى راغبا أو قادرا تلقائيا على أن يتكفل وينفذ بنجاح الإصلاحات التى أعتقد أنها هامة بصورة مطلقة للحفاظ الدائم على النظام وعلى الخير العام للبلاد » ، ولكن الإصلاحات التى يتحدث عنها « مستر والاس » ، كما سبق أن ذكرت من قبل ، مماثلة

لبنود « ميثاق عرابي الشعبي Arabi's Popular charter » ، ويعترف « والاس » بصراحة بأن « عرابي » كان أقدر من أى واحد غيره على تنفيذها . ولذلك فأنا فى حيرة من أمر « مستر والاس » : لماذا يتجاهل النتائج الحتمية لاعترافاته الذاتية ويعجز عن أن يجد الحل للمشكلة التى يثيرها فى عودة « الوطنية المصرية » التى يعترف بوضوح بمدى قوتها .

وهناك خطر بالغ فى التأخير . لقد علمتنا خبرة اثنى عشر شهرا . علمتنا الكثير ، أن آخر عودة للخديوية كانت أكبر خطأ سياسى ، اذ لو أن انجلتروا أيدت « عرابي » والوطنيين ، لظفرت بتعاطف مصر كلها ، ولصارت من دون كافة الألقاب « الحامية » لها ، ولكن كما هو واقع ، أما ما نشارك فيه فقط هو فى كراهية الشعب العميقة انجذور للشخصية المكروهة التى تحميها protage (١) ، وفى النظرة اليها فى افريقيا على أنها عدوة لذات النظم التى ساعدنا فى تسليمها لنصف أوروبا . بل ان حملة أسهم قناة السويس من المصريين أنفسهم قل أن استفادوا من الأسلوب الذى راعت فيه مصالحهم المالية لأن البلد ينحدر ببطء ، بل وبصورة مؤكدة ، الى الافلاس . ان الأخطاء والمغالطات الأساسية التى تكمن تحتها كل خططها للإصلاح والتطوير هى دائما بمثابة روى ربطت حول عنقها . لقد كانت فرصتها الوحيدة للأمان تتمثل فى التراجع الكريم وفى أن تلغى بصراحة ما قامت به . ان المهمة مهمة صعبة ، ولكن يبدو أن « مستر جلادستون » لا يحجج عنها تمثلا بقول الشاعر :

« بوابات أفيرنس Avernus (٢) مفتحة نهارا وليلا ،

« والهبوط هادى والطريق ممهد .

« ولكن العودة مرة أخرى الى ضوء السماء الصافى

« ان هو الا عمل جهد ومشقة » .

واذا رجعنا مرة أخرى الى الآراء التى كان يسلم بها جلادستون فى سنة ١٨٧٧ (٣) ، عن مصر لوجدنا أنه كان صادقا فقط لتقاليده

(١) الشخصية المقصودة هى شخصية الحديو توفيق . (المحقق)

(٢) هو الاسم الذى كانت تطلقه الأساطير على العالم السفلى lower world الذى اشتق اسمه من بحيرة أفيرنس Lake Avernus فى كيانيا Campania بايطاليا . (المحقق)

(٣) انظر مجلة القرن التاسع عشر Nineteenth Century عدد اغسطس ١٨٧٧ ، مقالة بعنوان « عدوان فى مصر Aggression in Egypt »

اتهم بقلّة الحياء وهى تهمة لا تغتفر . وقد وضع فى الفور أسلوب المبادلة reciprocity ، واقترح مستشارو الخديو القانونيون مبدأ أفلاطونيا محصنا للرد على أية أسئلة هو « لا نستطيع non possumus » وكان على مصر أن تقترض قرضا جديدا ، نتيجة لذلك . ولو كان قد ترك لمصر أن تبدأ « بداية طيبة » لأتاحت لانجلترا أن تساعد على الفور ، ولتمكنت من مراجعة أعمال هذا القومسيون الدولى التى كانت أكثر مبالغة فى مجاملته .

لقد سمعنا القدر الكبير عن ديون الفلاحين . لقد وقع فلاحو مصر فى قبضة المرابين ، وكادت تكفى ديونهم لتجر محنة أخطر من أن توصف . ويبدو أن الفلاح المصرى فى حاجة الى نوع من الرعاية الدائمة خوفا من انقراضه . نحن نسمع من حين لآخر عن هذا البنك وذاك المنتظر انشاؤه لينقذ الفلاح كائنسان ، ويقرضه المال بفائدة قدرها ٦٪ أو ٧٪ ليسدد دائئه الذى أقرضه أصلا قرضا بفائدة ٥٠٪ أو ٦٠٪ ، ولكن يبدو أن شيئا من ذلك لن يتحقق ، إذ أن البنوك وغيرها من الشركات المالية لم تكن لها ميل خاص لعملية لن تجبى من ورائها الا الكسب الهزيل ، بعد أن التهم « ديميتري Diemetri » وصحبه ما التهموا بالفعل ، من مكاسب فى يسر تام ، ولذلك لم تكن الأمور لتتقدم فيما وراء مرحلة خطة غير مقبولة ، ولكن هذا المشروع لابد أن يسوى يوما ما عن طريق تحر محلى دقيق ، وعن طريق تخفيض كاسح لفوائد المرابين وانشاء محاكم خاصة لتحديد الاستحقاقات فى الحالات الفردية . انه لما يؤسفنى أن أرى موضوعا بمثل هذه الأهمية الحقيقية قد تأجل لموسم ، ولكن ما من شك فى أنه سيلقى الاهتمام المناسب بعد عودة الوطنيين ، و « عربى » سيساعد « مستر ادجارفينست Mr. Edgar Vincet » الى حد كبير ، فى أن يصل مع من يعرفهم حق المعرفة ، مع مرابى القرى - - « الأفاعى » كما اعتاد أن يدعوهم - الى اتفاق ، كما أن سلطات « يعقوب سامى » التنظيمية يمكن استخدامها لما فيه الصالح العام .

أما عن الأحداث التى أعقبت « عودة الخديوية » ، فيمكن ايجازها فيما يلى :

جاء مسيو بارير Mr. Barère الذى عين مؤخرا قنصلا عاما لفرنسا ، يحمل نياشين جديدة من باريس لكل من بلوم باشا Blum Pacha وصديقى السابق بوريللى بك Borelli Bey وتولى ت . روجرز بك F. T. Rogers Bey فحص قضايا الجلد على الأقدام bastinado فى طنطا بالرغم من الالغاء الرسمى للكورباج . وأوقفت جريدة

« انبرهان » عن الصدور لاساءتها للانجليز . « وبالرغم مما ل » بوريللى بك « من علاقات لا تخفى على أحد ، بجريدة فرنسية معادية عداء مرا لانجلترا ، فقد كان الخديو على وشك أن يمنحه الباشوية ، نظير خدماته التى قدمها للبلاد » ، ومع ذلك كان لا يزال هناك أمل فى بلسم كان يترقبه الفلاحون وهو انشاء بنك التسليف العقارى Credit Foncier فى مصر يسمح بقرض الفلاحين أموالا لسداد ديونهم القديمة نظير فائدة قدرها ٧٪ ، بشرط أن تقوم الحكومة بجمع هذه الفوائد منهم فى نفس الوقت الذى تجمع فيه الضرائب ، ومن بين الأحداث الأخرى أن المحتلفين الهولاندين الاثنى عشر الذين وقع عليهم الاختيار للعمل بالمحاكم المختلطة الجديدة ، من المتوقع مجيئهم للقاهرة لبدء أو دراسة مستهم اللغة العربية توطئة لأن تسند اليهم فى النهاية وظائفهم الرسمية .

وعند مثول هذا الكتاب للطبع ، واجهت انجلترا ومصر مشكلة أخرى لم يسبق لها مثيل فى عظمتها وخطورتها والتى كانت تلوح غامضة فى الأفق من بعيد خلال السنة الماضية . أقدم سبق لى أن وصفت (١) كيف أنه ليلة عيد الاضحى (٢٣ من أكتوبر ١٨٨٢) وصلت أنباء الى القاهرة ، أن المهدي انتصر انتصارا حاسما فى السودان ، ولم تكن الانتفاضة التى تزعمها الا نتيجة طبيعية لضعف وعدم تنظيم الادارة التى حلت محل الحكم الأوتوقراطى القوى فى عهد اسماعيل . ان غياب « اليد التسليطية masterful hand » صار أمرا ملموسا سواء فى مصر أو فى أبعد ملحقاتها . وقد بدأنا الآن فى ادراك النتائج ، ولم يكن للمهدي دخل بوجه عام ، بالمصريين فى دلتا النيل ، وكان كل ما يهدف اليه هو اقامة سيادة سياسية ودينية جديدة ، وأن يقذف بـ « توفيق » و « عرابى » الى البحر اننى أذكر أننى لما تحدثت مع « عرابى » ، وقتها ، عما يهدف اليه المهدي قال لى ان تسريح الجيش قد وضع مصر كلها تحت رحمة المهدي ما لم تستطع مصر الاعتماد على حماية القوات البريطانية لها . وقال عرابى : « ان مهدي السودان عدو للعرب ، لأننا نعرف أنه محتال . نحن سنيون ، ونعلم أن خلاص الاسلام أتى من الجزيرة العربية من قبيلة قريش التى أنتمى أنا نفسى اليها ، ومن واجب المصريين أن يقاوموا جميعهم المهدي على اعتبار أنه عدو خطير ، ولكن الفوضى التى تتفشى فى أرجاء البلاد ستتيح حتى لهذا الدرويش الافريقى فرصة للنجاح » .

وعلى الفور ، صار أمرا ضروريا ارسال تعزيزات الى المناطق التى

(١) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب .

بها قلاقل ، ولكن كيف يتم هذا ؟ ان الجيش المصرى بأسره قد سرح رسميا بهدف تحطيم أى أمل بعيد فى احياء كل بصيص لوطنية كامنة . ولم يكفهم نفى « عرابى » وتجريده من رتبة ، بل قالوا ان عار وخزى الزعيم يجب أن يشاركه فيه كل ضابط مرءوس له ، بل وكل نفر فى الجيش كان يحارب تحت الراية التى كان يحملها وازاء هذا الموقف المتدهور فى السودان ، وكل الأمر بسرعة الى الكولونيل هكس Colonel Hicks ورفاقه الشجعان ، وتوقفت عملية تسريح الجيش واهانتة ، وأمكن جمع ما يمكن جمعه بقدر كاف من الجند المسرحين والمهانين لينضموا تحت لواء الكولونيل هكس ، وقد شاهدت بنفسى نواة فرقة السودان وهى تقادر القاهرة فى طريقها الى السويس . لقد كان مشهدا مؤسفا لا يمكن أن ينسى ، اذ وضع الجنود المصرية فى عربات نقل وعربات نقل المواشى ، كما لو كانوا حيوانات . لقد غادروا العاصمة عزلا من السلاح كمساجين مهانين بكل صور الاهانة ، أما ضباطهم الوطنيون فقد اختيروا من بين من كانوا أكثر كراهية لنظام الحكم الجديد ، وكان نفس تعيينهم اجراء جهروا به وأعلنوه على أنه بمثابة عقوبة وقمع لهم وفى أول يناير ١٨٨٣ ، رست باخرتان بحذاء الرصيف فى السويس واحتشد ظهر واحدة منهما بالجنود المسرحين والمهانين من الكتيبة الأولى التى كان « عرابى » اميراليا لها ، وعلى ظهر الثانية « وقف عرابى » وستة من رفاقه . وبعد ذلك بساعة أو ساعتين ، أجبر الجنود المصريون العزل من السلاح أن يشهدوا فى صمت كتيب الباخرة « المريوطية Mariotis » (التى كان مسافرا عليها عرابى وصحبه منفين خارج بلدهم) وهى تبهر عبر البحر الأحمر وجهتها « سيلان » . وعندما صار ضروريا ، بعد ذلك ، ارسال مزيد من التعزيزات الى السودان ، كانوا يبعثون بتعزيزات الى السودان ، كانوا يبعثون بتعزيزات بنفس الطريقة . وقد أرسل بدفعة أخرى من الجنود الى الجبهة وهم عزل من السلاح ، وكانوا يضربونهم وهم مكبلون فى الأغلال ، بل ان فرقة « عبد العال » المسماة بالفرقة السوداء ، التى كانت تعتبر زهرة الجيش المصرى ، بعثوا بها لتحارب المهدي ، مع كل ما لقيته من المزيد فى الامتهان ، الأمر الذى دفع بهم الى الفرار والتمرد . ولم يكن هناك ما يبعث على الدهشة من أن الكولونيل هكس كان عاجزا هو نفسه عن الصمود بمعاونة مثل هذا الحشد الذى لا فائدة منه ، وما لبثت أن بدت النهاية : اذ بعد مضى ثلاثة عشر شهرا تماما من وصول الأنباء الى القاهرة عن أول نجاح للمهدي ، علمت انجلترا كلها أن الجيش المصرى مع ضباطه الأوربيين ، أبيدوا جميعا فى مسيرتهم الى « الأبيض » ، ولم

يكن هناك من شك في أن التعطش البالغ للانتقام ، وهو ما اتسمت به الأيام الأوائل من « عودة الخديوية » ، قد أسهمت أساسا في هذه الكارثة المؤسفة .

انه من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، القول بأى اتجاه ستتخذ الأمور : فالمهدي المنتصر قد يتقدم الى الخرطوم أو ربما يرضى بنجاحه الراهن ، بل ان تفاصيل الصراع الخطير تكاد تكون غير كاملة تماما ، ولكن لن يأتي هذا التخمين بنتيجة . على أن سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker قد طرح الوضع كله بوضوح أمام أعيننا (١) فهو يذكر لنا أنه لا جدوى من لوم الأشخاص المخطئين على ما حدث ، وأن التدخل عن السودان محفوف بالصعاب والخطر . لقد علمنا أن النكبات الراهنة ان هي الا نتيجة غير مباشرة لطموح « اسماعيل باشا » ، ويعلن سير صمويل بيكر ، من ناحية أخرى ، ان اسماعيل كان مصمما على إلغاء تجارة الرقيق « من محض الاحترام للمشاعر الانجليزية » ، وكتب سير صمويل بيكر يقول : « لقد كانت عند صاحب السمو اسماعيل باشا فكرة ضخمة هي إلغاء تجارة الرقيق واقامة تجارة مشروعة مكانها ، ووضع أساس لحضارة المستقبل بأن يخضع لحكمة هؤلاء المتوحشون المزعجون الذين لا يعرف عنهم التاريخ شيئا حتى الآن ، اذ ما من يلد ضمه اسماعيل باشا » الا وخر به صيادو العبيد slave-hunters ان النكبة التي حدثت ، لتصور تصورا صادقا ضرورة الملحة لحكم قوى في مصر ، والرغبة في اقامة حكومة للبلاد ، بأسرع ما يمكن ، على أساس قومي . ان أنصاف الحلول لن تؤدي الى تفاقم خطر الموقف . اننا لا يمكننا أن ننقل مصر بارسال قوة بوليس الى « سواكن » حتى ولو كنا نعتمد على ولاء كل فرد عضو فيها ، ومع ذلك ، فانه عندما نسمع أن ما يقرب من نصف الكتيبة هربت ما بين القاهرة والسويس ، يمكننا أن نشكل فكرة من الصعوبات التي لابد أن نتوقع مواجهتها .

ولو بذل « سير ايفلين بيرنج » (لورد كرومر) و (بيكر باشا) وأمثالهما ، أقصى ما في وسعهم ، فيستذهب جهودهم سدى (٢) . ولو

(١) انظر جريدة بول مول Pall Mall Gazette ، عدد ٢٧ نوفمبر ١٨٢٨ .
(٢) جدير بالذكر أنه بعد مقتل « مكس باشا » الذي قاد حملته ضد المهدي ، أسندت ادارة مديرية خط الاستواء ، الى « غوردون باشا » الذي حارب المهدي على مدى سنتين (١٨٨٤ - ٨٥) ، وقتل غوردون ، ولم تسترجع مصر السودان الى سنة ١٨٩٨ .
(المحقق)

الملاحق

ملحق رقم (١)

الخطاب الذى بعث به أحمد رفعت بك الى « برودلى » يزوده فيه
ببعض بيانات سريعة تفيده عن :
الحركة الوطنية - الاجتماعين الأول والثانى للجمعية الوطنية
بالقاهرة ، وتعريف بالمجلس العرفى أو لجنة الدفاع الوطنى •

ملحق رقم (٢)

بعض نماذج من وثائق الثورة العربية •

ملحق رقم (٣)

مراجع التحقيق •

ثانيا - بالنسبة للاجتماع الأول للجمعية الوطنية بالقاهرة :

تستطيع أن تؤكد وأنت آمن أنه كان اجتماعا تلقائيا وفي حرية ودون أن يخضع بالمرّة لأى تأثير بارهاب من أى نوع ، وذلك للأسباب التالية :

١ - أن دعوات الحضور نظارة الداخلية هي التي أصدرتها ، وكانت خطابات الدعوة مختومة وموقعا عليها من وكيل نظارة الداخلية، ولم يوقع عليها زميله « وكيل الجهادية » . وقد جاء المدعون ، بما في ذلك عدد ضخم من الشخصيات العامة ، جاءوا من تلقاء أنفسهم وبدون أى نوع من الضغط .

٢ - لم تكن هناك أية كلمة أمر ، ولم يكن الاجتماع مظهرا لقوة مسلحة ، وتركت الأبواب مفتوحة على مصراعيها أثناء المناقشات . وبعد قراءة الخطاب الذى طلب فيه عرابى قرار الشعب ، وبعد قراءة الوثائق الملحقة به ، غضب عدد كبير من الحاضرين ، وبخاصة العلماء والكنسسين، غضبوا من مسلك الخديو ، وكانت رغبتهم اقصاءه عن العرش فوراً استنادا الى الشريعة الاسلامية الحنيفة . وقد رفع البطريك الأرمنى ، لطيف باشا ، الذى كان أميرالا زمن محمد على الكبير ، رفع هو وغيره الأمر الى السلطان ، الذى يرفع اليه سلوك الخديو ، عربين عن رأيهم . أما عكوش باشا ، الذى كان من أشد الموالين للخديو توفيق ، فانه لم يحاول أن يخفف من خطورة الحقائق الموجهة ضد الخديو ، بل أعرب عن رأيه ناصحا بإجراء تحرى فى الأمر ، وأما على مبارك باشا (الذى لم يكن خيرا من البطارقة الأرمنيين واليونان والأقباط ، والذى ادعى بأنه كان فى أية صورة مضطرا لحضور الاجتماع) فقد اقترح ارسال لجنة الى الاسكندرية للتأكد مما اذا كان الخديو ونظاره هم فى الواقع سجناء . أم لا ، فاذا وجد أنهم ليسوا بسجناء ، يدعون للعودة الى القاهرة لتولى زمام الحكومة . وقد أقرت الجمعية هذا الاقتراح وقررت فى الوقت نفسه أن تبث بتقرير كامل عن الظروف الى « الباب العالى » و « قصر يلدز » . وقد أمكن الوصول الى حل معتدل ، وكانت حرية المناقشة التى اتسمت بها التصرفات برهانا كافيا فى ذاتها على عدم وجود أى بارهاب بالمرّة .

طلما أن خط الرجعة الذى هيأته البلاد بين القاهرة والسودان ، ما زال
فى أيدي المصريين .

٨ - أعرب « عرابى » عن استعداده على الفور ، لقبول هذا القرار
الذى انتهى اليه المجلس .

٩ - أعد المجلس خطابا موجها الى الخديو ، وكانت مسودته قد
كتبها « ابراهيم باشا خليل » ، « وبطرس باشا » ، وقد نوقش فى
المجلس فى حرية .

١٠ - حتى الأميران « ابراهيم » و « كامل » اشتركا فى هذه
المداولات .

وبعد ، فهذه المذكرات قد تساعدك فى أن تعرف الحقيقة عنا ،
عندما لن نراك بعد اليوم .

أحمد رفعت بك

القاهرة فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ .

هذه الكتابة
ملك الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

كتاب مرقس البربرودي ابو داود الوكيل في الله اسمع للامور الربية
جاءني اوضح لي اني لم بايدي من الظلم والفرور والاضيق الذي ياتي من الحروب من
من اسنة تارة وتارة اخرى ليهم فاعيد عند السكوت في واخا اوضح لي اني لم الذي ياتي من
والا في السجدة الذي ياتي من الله من القرب والافساة وهو اول نصري يا اورداه وقوات الحزن
الحروب ولير ونفسي في عالم غير ربيهم واخر وسني اوراني ومقتات الحزن تعلوني في الذي
النفوس تعلوني وتعلون فانت امانه عند اوراني نل مني الذي في الحقيقة ضروري والمقتات
الملي عنه الله هو موجود بطرف عند ما هو في الظلم ما ارجو في باسم طلبة المقتات منه
وتسليمونا لآخر الاوران الذي لم لي وانما افر في باسم الله في تلبية سيعم وتسرويه في الشرب
الذي يسمي الله في نفسه ونفسي عزبي تقريرا في ابراهيم انما تنوي الحزن الحروب وسنة ثلاثه
اشحاشي الذي هو الوسط الوحيد في بيت الحشاشي والفتنة ومن بعد قوله جليان الاورد
الذي انا برها قرب عليا وعللي انما يا بد الوان انما تقر في انما فقلت له ان اعرف انما
منه فقال لي انما ابراهيم انما تنوي الحزن في تبايع التسفاسك فليكن الذي قاتل في هذا
في لاد رقب عليا ونفسي في وشربي ونفسي في انما عليه وشربي ونفسي في البر
انما ونفسي يا اولاد الكلب انما ارجو اوراني وبعد ما افر في منه سندير وشربي هو زمه
منه ومنه انما ابراهيم انما تنوي الحزن في تبايع انما اولاد ارجو طلب المقتات وتسليم لي
لا اسر الاواني الذي لم لي في الحقيقة وثانيا فطر ما صابني من ابراهيم انما في الله المحرم في الذي
تحت الخليل الذي لم لي في اولاد هانم في الله بعد الحقيقة
في الله
في الله

تبع محضر استیجاب احمد علی

س قدّم رشق القول بالاعتناء بالناس والاهتمام بهم في الدنيا والآخرة
ب شوقاً إلى أن يكونوا من الذين لا يخجلون من الله ولا من الناس
ج جواب هذا السؤال نعم في عصرنا هو حق زعم الملائكة

عید الفصح من ملاحه و الفصح

[illegible][illegible]

وهذا الوجه الذي هو الوجه الرابع
ما يقول في حاكم دولة سلاطنة المسماة بالبربرية الناس ويقوم بعلاماته فقولوا واحد الفتنه بين المسلمين وشقاقهم ثم انما
المراد الى احكامه وبقية غير التي منه على دولة المؤمنين وبقية الدولة التي هي في دولة الذين القوم به يغذوا قوتهم في بلاد حكومتهم المسلمين وكل عاية
على انه يردوا بعضهم لبعض النوع المسمى ويزيلوا بقية الدائمة على ولادها والمؤنفة للمروج على ذلك الى وشرق وأقصى المروج
على انه يبقوا في المروج المسمى فيكون شرا من بقية التي حاكم على بين قوق الوجوه في السلطة في الدول الاسلاميه او يبقيه في
الحاكم عزله واقامة ببلده لهما فقد على التبع وتزاد عنه في الجواب
الحكم على الدولة المذكورة ولم تكن على ولا كانت بلدا

سے صد تقیر کیا

۱۰۴

س. هذا تعريف لطيف للموضوع ففوضه عنه

ج. لا یرید توصیف نمہ

ج. لا يلزم له هو صفة منه
ب. هذه الورقة منقولة للورقة التي صيرها عاكرا لا محذرة فيتم ووردت بالحق في قوله ثم شرع به عرهما باليعقوبي كاشفاً فيهما
ح. فادركه ثم يبعثه في. فليت بعد بنزله

عزیز فادائے مکتبہ سنیہ شاہجہانی، قلعہ قوہ ہندوستان

[illegible]

کای براسم صابنه تبه لولایک و اسامی مستحقه العظیم کاهو منحه العظیمه الخیریه صلی الله علیه و آله و سلم و عذرت افغانی الزب و شیخ زکریا بن
عالم نقیته العظمی و صابنه تبه لولایک و اسامی مستحقه العظیم کاهو منحه العظیمه الخیریه صلی الله علیه و آله و سلم و عذرت افغانی الزب و شیخ زکریا بن
الاس تعالیه الساس افغانیه و صابنه تبه لولایک و اسامی مستحقه العظیم کاهو منحه العظیمه الخیریه صلی الله علیه و آله و سلم و عذرت افغانی الزب و شیخ زکریا بن

انفل كذبت كانه كل هذا مغير او انفس . وكنت انا الجابر لم اجد فيه عيبا لاسبية تأثر بقوله الخلدوني وانظر الى احواله . جابر عيسى الحميري

الموت و'برقی' موت

[۱۰۷]

وثيقة رقم ٥ - صفحة من مخطوطة استجواب أحمد عرابي باشا أمام قوسميون التحقيق ،
ويقضى بإحكام الله فنقض العهد وأحدث الفتنة بين المسلمين وشق عصاهم
ثم انتهى به الأمر إلى أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين ،،،،
وفيه إشارة إلى الاستفتاء الذي كان يشغل عامة الشعب وقتذاك وهو

هناك الحام عن المستر برودلي زير فضله

يا حبيبتي في ليلة الأربعاء الموافق ٢ محرم ١٣٤٤ في الساعة ١٢ ظهر
وربع المرافقة الساعة ثمانية ورربع الزمان بعد الظهر يوم ٢٠ أكتوبر
نظرة حسنة نشرة ثانياً في الشارع وتقف عند باب السجن العمومي
ثم يعود بعضها فقلت أنه هذا ليس حيزاً احتيازي ومخرجي إلى محل
الراية علمت أنه المجلس منعقد سائياً فخرجت الدفعة رهيبة أنه ذلك في
مستاد فوصل عندنا ذكر زايد ثم بعد ذلك كشف هذا الأمر والدون
أخبرني أنها ذلك كلف المسجونين ما في محله

وثيقة رقم ٦ - رسالة عاجلة بعث بها أحمد عرابي باشا إلى محاميه مستر برودلي ، يطلبه
على أن عربات كثيرة تأتي في الشارع وتقف عند باب السجن العمومي
بعد الظهر ثم يعود بعضها ، ولاحظ أن المجلس (قوميون التحقيق)
منعقد (على غير العادة) ، فساوره الشك ، وطلب من محاميه تحري
الأمر حفاظاً على المسجونين .

مت خلفه نفسي وحسباً أشار به علي القوا كاتر الما يني فاني جزى عن نفسي بالجنابة التي ثبت علي بغير علم



والسعادة العبد دوزييه

اخي اقرء يا له خطي تولى بصن من عكري ابي اقيم في المحل الذي نصيته لي الحكومة وهذا عند تركي بربري

محمود



امتنان لما صدر به احكم علي السبع

وثيقة رقم ٧ - كان الاتفاق قبل المحاكمة العسكرية للزعماء السبعة ان يوقع كل واحد منهم اقرارين :

- (أ) اقرار بالاعتراف على نفسه بالخيانة التي تليت عليه (وهي عصيان اوامر الخديوي) حتى يصدر بعده موسوم بخديوي بالقبو عنه .
- (ب) اقرار بان يقيم في المحل الذي تعينه له الحكومة عند تركه مصر .

وفي هذه الوثيقة الاقراران المذكوران وقعهما محمود سامي باشا البازودي ، باعتباره احد الزعماء السبعة الذين كانت احكامهم متماثلة .

الى صاحب الدولة والوزير اللورد شارلس باريسفورد .
 في اقدم اعظم المحبات وانكي السيدات نقاتم واشكر لدولكم على ما اظهرتموه من حسن الساجدة وانتماءكم الى
 في المدافعة عنى صر غير سبه مقابله بيه (ويشاي كره ودرج الحق ستعارفة ستعاضدة في خدمة الانسانية باعماله
 الشريفة هذا وفي اوكه لدولكم انه لم يحرك بيه العربين والامة الانكليزية اذ في عذوق اهلها نستوجب محطنا ما نحن
 بل ولقاية الدوله لم احدا منها لم يبره بقى الحساب التي انجى عيها مصر في الحرب التي حصلت حينئذ في لقاية الساعة
 التي ابتدى فيها بربط المدافع على اسكندرية كانت الدولة المصرية محافظة كل المحافظة على مقدرة الدولة الانكليزية بل وفي
 حقوق جميع اهلها في الدول باويريه والطهارة سيحرب بحرب ايضا عند الدولة الانكليزية فلما حصل الحرب وكانه تقرر
 بالبحس المنفعة لذلك تحت رجلة المذبذب ورويت باشا عند دول السلف له جزوم المدافعة فانزنا بامر المدافعة
 بمقتضى هذه الفرائد السليمة وكانت مدافعتنا هذه بلودنا بمقتضى الشئ ونذكر . فلو اننا بافرا كندري كاكم السلمي
 بجميع وكلاء الحكومة ولا كانت الحرب قائمة في اسكندرية كانت تأتينا من كندري بحضرة في القتل وبعد موتنا
 على العصور والنبات مع سرة حودة الدولة ودراة الطرقي وبعد ندمير الطرقي وتطمين المدافع عند مجلس
 آخر تحت راية المذبذب ورويت باشا ايضا للظفر فيها بصير اهارة بعد ذلك فنفر قيه بانه اذا كان
 المصري على الاسكندرية في البرم الثاني بصير رفع الدبابات السبقا صر الطرقي عرونة على باب لطفلة وقد حصل
 ذلك واننا كنا مستعدين في كل وقت لطلب الصنيع لكن لما أرسل طلبه باشا للحالة قيل له انه ايزال سمور
 بطلب تسليم ثلاث طرقي لاقادهم مسكرا ليجلس الانكليزي وتقرر بالمجلس اننا انه هذه الطلب من صفوق
 المحقق السليمة وقيل من منعوب اليزال انذ اذا ارى باب الهند طلب فانه يصير احادة لظفر
 بالمدافع واخذ تلك الطرقي قهرا وعين ان موقع اسكندرية لانياب لوقامة العسكرية ونجنى من انجاز
 خطه الرميح وخطه من خندقه بواطة العسكر الانكليزية اجبرت العسكر المصرية على الوجود في جهة كندرية
 لتكونه آمنة على خطه الرميح صر هذه يعلم انه لو ضربت العسكر الانكليزية في ثنائي يوم بعد كندرية لما ر
 وجدت مانعة وكانه امكنها حقله البلد من الغرب والحرب ايضا وهذه البشارة بناؤ على طلب المستر
 نايبار المحمي عنى في المحاكاة ثم واهب دولكم قبول احدا ما في الفائق لمال في احسن
 محمد علي
 المصطفى
 ١٠ ربيع

ملحق (٣)

مراجع التحقيق

أولا - مراجع مخطوطة :

(أ) لم تطبع ولم تصور

١ - أحمد عرابي (باشا) : كشف الستار عن سر الأسرار (محفوظة
بدار الوثائق بالقلعة) .

٢ - وثائق خطية لصقها « مستر برودلي » في نسخة كتابه الضخمة
التي تقع في ٣ مجلدات والتي عنوانها
How We Defended Arabi and His Friends
، والمحفوظة بدار الوثائق بالقلعة أيضا)

٣ - وثائق الثورة العربية (محفوظة بدار الوثائق بالقلعة ، وأهمها
ما يلي :

قضايا المتهمين : (أ) محفظة ٧ دوسيه نمرة ٣٨ محضر
استجواب أحمد رفعت بك أمام قومسيون
التحقيق .

(ب) محفظة ٨ دوسيه نمرة ٥٣ / د / ٧ ،
الأوراق المضبوطة في منزل عرابي باشا

(ج) محفظة ١١ دوسيه نمرة ١٥٤ محضر
استجواب سليمان سامي بك أمام
قومسيون التحقيق .

(ب) مخطوطات مصورة :

٤ - تقرير عرابي باشا الى محاميه « برودلى » الذى كان قد كتبه فى سجنه بالدائرة السننية فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، وأعاد كتابته وهو فى منفاه (أصدره المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١) .

٥ - محضر استجواب عرابي باشا عن التهم الموجهة اليه أمام قومسيون التحقيق (نقلا عن محفوظة ٨ ، دوسيه نمرة (١٥٣) المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقلعة ، والتي أصدرها مصورة عن الأصل: المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١) .

ثانيا - مراجع مطبوعة تناولت الفترة موضوع التحقيق :

٦ - « الأوامر العليا والانعامات » ، الصادرة فى سنة ١٨٨٢ (اصدار نظارة الحقانية بمصر (المطبعة الأميرية ، ١٣٠٢ هـ) .

٧ -

Blunt : W.S. : Secret History of the English Occupation of Egypt.
طبعة ١٩٠٧ (أعاد طبعه مع تصغير حجمه المركز العربى للبحث والنشر ، ١٩٨١) .

٨ - عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية : عصر اسماعيل ج ٢ ط ١٩٣٢ .

٩ - عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، ط ١٩٣٧ .

١٠ - عبد الرحمن الرافعى : الزعيم الثائر : أحمد عرابي ، ط ١٩٦٨ .

١١ - فريدون (جمع وترتيب) : كتاب منشئات السلاطين (بدون تاريخ)

١٢ - فؤاد كرم (جمع وترتيب) النظارات والوزارات المصرية ج ١ ، مطبوعات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، ١٩٦٩ .

١٣ - فيليب جلاد : الادارة والقضاء (٦ مجلدات) ، الاسكندرية ، المطبعة التجارية ، ط ١٨٩١ .

الفهرس

صفحة	
٩	كلمة المحقق
٢٣	المقدمة
٣١	الفصل الأول - مقدم أتعابى
٤١	الفصل الثانى - لقاء فى أسنير على نهر السين
٤٧	الفصل الثالث - من تونس الى الاسكندرية
٥٣	الفصل الرابع - القاهرة
٥٧	الفصل الخامس - أولى مشاوراتنا
٦٥	الفصل السادس - شرفة فندق شبرد
٦٩	الفصل السابع - مناقشات من البداية
٨١	الفصل الثامن - عرابى فى السجن
٩١	الفصل التاسع - استيفاء أوراق عرابى
٩٧	الفصل العاشر - انحراف عن التقارير الرسمية البريطانية
١١٣	الفصل الحادى عشر - أميرالايان اثنان
١٢٤	الفصل الثانى عشر - تقرير كتبه عرابى
١٤٥	الفصل الثالث عشر - بعض موكلين آخرين
١٥٩	الفصل الرابع عشر - ماذا حوته أوراق عرابى
١٦٩	الفصل الخامس عشر - قواعد المرافعات ومعركتها
١٨١	الفصل السادس عشر - مجيء لورد دافرين
١٨٧	الفصل السابع عشر - رواية أحمد رفعت
١٩٧	الفصل الثامن عشر - رواية وكيل نظارة عرابى
٢٠٣	الفصل التاسع عشر - الشيخ محمد عبده - عالم وصحفى
٢١١	الفصل العشرون - كيف استجوب قومسيون التحقيق رفعت بك
٤١٩	

صفحة

٢٢٧	الفصل الحادى والعشرون - سليمان سامى ، المعترف .
٢٤٣	الفصل الثانى والعشرون - كيف تولينا الدفا عن محمود باشا سامى
٢٥١	الفصل الثالث والعشرون - مشروعات للمصالحة
٢٦٣	الفصل الرابع والعشرون - ليلة المحاكمة
٢٧٧	الفصل الخامس والعشرون - ثلاث محاكمات قصيرة من محاكمات الدولة
٢٨٩	الفصل السادس والعشرون - بعد اعلان الحكم
٢٩٧	الفصل السابع والعشرون - مؤامرة القصر
٣٠٧	الفصل الثامن والعشرون - سيدات مصر والوطنية المصرية
٣١٥	الفصل التاسع والعشرون - الى المنفى
٣٣٩	الفصل الثلاثون - مصير أبناء الشعب
٣٥١	الفصل الحادى والثلاثون - انطباعات شخصية عن عرابى وصحبه
٣٦٥	الفصل الثانى والثلاثون - سلطان أم تسلط ؟
٣٨١	الفصل الثالث والثلاثون - مصر الحاضر والمستقبل

٣٩٧

الملاحق :

٣٩٩	ملحق (١) خطاب أحمد رفعت بك الى برودلى .
٤٠٥	ملحق (٢) بعض نماذج من وثائق الثورة العرابية
٤١٥	ملحق (٣) مراجع التحقيق

فهرس الأشكال

٦٠٥	شكل ١ - أحمد عرابى المصرى
١١٥	شكل ٢ - بيت عرابى - مستشفى ليدى سترانجفورد .
١١٨	شكل ٣ - على فهمى باشا
١١٩	شكل ٤ - عبد العال حلمى باشا
١٢٢	شكل ٥ - المتعاطفون مع عرابى من الأهالى خارج سجن الدائرة السنية
١٤٦	شكل ٦ - طلبة عصمت باشا

٤٢٠

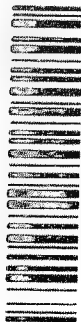
مكتبة
الكتاب
القاهرة
١٩٨٣

هو « قصة مصر والمصريين » الذين ساء لهم أن يتخلى عنهم خديويهم وهم يحاربون الإنجليز وينضم إلى معسكر العدو ، فالتفوا حول زعيمهم « عراب » الذي حارب أعداء الوطن . فلما أدرك هذا الزعيم أنه لن يكون كسب الحرب من نصيبه أثر أن يسلم نفسه هو وزملاؤه الستة في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ لقائد جيش الاحتلال الجنرال « له » حقنا لدماء أبناء الوطن .

ويرجع فضل ترجمة الكتاب إلى قرار اتخذته جمهورية سرى لانكا عام ١٩٨٣ بتحويل أول بيت نزل به عرابي في مدينة كولومبو إلى متحف تخليدا لذكراه ، ووجهت الدعوة إلى الحكومة المصرية لحضور حفل الافتتاح ، وسافر الوفد برئاسة وزير الثقافة السابق الأستاذ محمد عبد الحميد رضوان .

والكتاب مرجع تاريخي وثائقي يفيد المؤرخين والباحثين الذين كانوا يترقبون ترجمته منذ وقت طويل .

Bibliotheca Alexandrina



0348141

مطابع الهيئة المصرية

الثمان ٥٠٠ قرش

وفى الرابع عشر من مايو ، نتيجة لبعض الإشاعات المزعجة ، وصلت لد « سير ادوارد ماليت » تعليمات بأن يقابل عرابى ويخبره بأنه اذا حدث أى انتهاك للسلام ، فان أوروبا بأسرها ، فضلا عن انجلترا وفرنسا ، سيحملونه المسئولية ، شخصيا ، أما لو ظل مخلصا الخ . » فان أعماله وشخصه سينظر اليها نظرة تقديرية . » وأجاب عرابى أنه سيتكفل باستتباب الأمن العام طالما لا تأتى الأساطيل الى الاسكندرية كما وردت الأنباء بذلك ، فتقبل « سير ادوارد ماليت » وعد عرابى ، ولكنه كتب الى « لورد جرانفيل » أن الفائدة السياسية لقدم الاسطول عظيمة جدا لأنها ستبطل الخطر الذى يحتمل أن يهدد الاوربيين فى القاهرة . » وقد استقر الرأى فى كل من « دوننج ستريت Downing Street (١) » وكيه دورساي Quai d'orsay (٢) (وكان من حسن حظ سلام أوروبا أن حل « مسيوودفريسنيه » محل « مسيو جامبيتا » فى رئاسة الوزارة الفرنسية) على ارسال الأسطولين الى الاسكندرية واعطاء التعليمات التالية المتماثلة الى القنصلين العاملين البريطانى والفرنسى فى القاهرة :

اولا - اعلان ان انجلترا وفرنسا تدخلتا فقط لتعزيز سلطة الخديو والحفاظ على الوضع الراهن Status quo (ولكن الخديو نفسه كان قد أعلن موافقته التامة على برنامج « عزيمة » محمود سامى ، وأن مبادئ القضية الوطنية هى نفس اساس العدل ذاته) .
ثانيا - اسداء التصح للخديو باقالة النظارة فى أول مناسبة سانعة . ثالثا - أن يكون مفهوما أنه اذا سارت الأمور على خير مايرام (واسلويا العمل الاوليان محسوبان بدقة تامة ليؤدى الى نتيجة عكسية تماما) فسيعامل عرابى وصحبه معاملة قائمة على التسامح .

وفعل « سير ادوارد ماليت » مثلما وجه . وقدمت المذكرة الثانية المشتركة ، ولكن عرابى رفض الاقضاء الذى فرض عليه ، ورفضت النظارة

فلما رفع الحكم الى الخديو للتصديق عليه ، امتنع عن اقراره لبالغ قسوته ، وتمسكت النظارة باقراره ، ولكن الخديو أصدر ارادة سنية فى ٩ مايو ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى والترخيص للمحكوم عليهم بالتوجه حيثما شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم من رتبهم ونياشينهم ، وأيد الخديو فى موقفه : قنصلا الدولتين العظميين انجلترا وفرنسا .

واستخدم الخلاف بين النظارة والخديو حتى فكرت النظارة فى دعوة مجلس النواب الى اجتماع غير عادى ، وهو اجراء غير دستورى ، اذ أن الخديو هو وحده الذى يملك هذا الحق كما تقضى بذلك المادة ٩ من الدستور . وسوى الخلاف بين الطرفين بتعديل حكم المجلس العسكرى طبقا لما ارتآه الخديو (انظر الرافعى : الزعيم الثائر أحمد عرابى ، ص ٩٩ - ١٠٣) . (المحقق)

(١) مقرر الحكومة البريطانية فى لندن . (المحقق)

(٢) مقرر الحكومة الفرنسية فى باريس . (المحقق)

ثم يصف « عرابى » بعد ذلك بداية المرحلة الجادة من الحركة الوطنية :

« ... ولا أحست نهباء الأهالى الذين هم آباؤنا واخواننا ورؤساء عشائهم حضروا الى مصر وراوا أنه لا حاسم لسلب الأمانة الا افتتاح مجلس نواب للأمة المصرية يضمن لها أرواحها وأموالها وأعراضها وسن قوانين عادلة يعتمد عليها فى حفظ الحقوق تضاهى قوانين المجالس المختلطة وحدود تامة للحاكم والمحكوم ليقف كل عند حده ولا يتعداه مع تغيير هذه النظارة التى فى مدتها سلبت الأمانة وكثر الخوف وكتب بذلك عرائص منهم سلمت بأيديهم عند سقوط النظارة الى دولته شريف باشا عند جعله رئيسا للنظار على يد سلطان باشا بالنيابة عن نهباء الأمة المصرية ورؤسائها ولكون العسكرية والأهالى بعضهم من بعض ومعاملتهم فى الخير والشر واحدة ، فوض هذا الطلب للعسكرية ولكون أن جميع الإليات واستنابت ضباطها لوثقهم بى واعتمادهم على أمانتى فوضوا الى تلك الطلبات . »

« وعند شدة التهورات الواقعة من ناظر الجهادية « داود باشا » وزيادة الخوف كتب من طرفى الى ناظر الجهادية فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ بأن جميع العساكر ستحضر الى ميدان عابدين لعرض طلباتها وطلبات أهاليها على الحضرة الخديوية الساعة ٩ عربى من يوم الجمعة . وفى الميعاد المذكور ، أتت العساكر من محلاتها الى ميدان عابدين بغاية الأدب والاحتشام وقبل ذلك تحرر من طرفى الى كافة قناصل الدول الأوروبية بما سيصير إجراؤه مع الهدوء والسكون فى الوقت المعين وأنه لا خوف على رعاياهم ولا على أموالهم وأنه سيطلب فقط من الخديو ما يجعل البلاد حرة حافظة لحقوقها . »

« ثم عرضنا تلك الطلبات على الحضرة الخديوية بواسطة مستر كوكسن Mr. Cookson فنصل دولة انكلترا باسكندرية حيث كان موجودا وقتها ، فقبل الخديو تلك الطلبات جميعها التى هى مقررّة بأول ديكرتو صدر من جنبه الكريم فى أول ولايته وأن تلك الطلبات هى من اقصى آماله لكونها شرعية جميعها وصدر أمره الكريم بتوجيه النظارة ورياستها الى دولته شريف باشا وانصرفت العساكر داعين له بطول العمر والجميع متشكرين له على احياء البلاد وتحريرها من ضيق دبكة الاستعباد المصرى »

« ولا حصل من شريف باشا التأخير عن قبول الرياسة ، وتقدم له من عهد الأهالى الذين كانوا موجودين خلف أظهرنا فى ميدان عابدين عرايف يلحون عليه فيها بقبول الرياسة ، عليها نحو الأربعة ألف ختم فرحا بخلاصهم من ذاك النظارة التى من جهلة ما أصابهم فى مدتها من الضرر حرمانهم من فوائده سبعة عشر مليون لبرا قيمة المقابلة التى كانت تحصلت منهم فى مدة الخديو السابق لأجل سداد الديون الأجنبية التى كانت على الحكومة بل حرمانهم من أصل المبلغ المذكور برمنه مع أنه كان الواجب اعتباره هذا المبلغ ديناً على الحكومة أسوة بباقي ديون الأوروبيين ، ومن جهلة أعماها رقت الوطنيين من الخدمات الميرية مع استعدادهم وقلة مرتباتهم ، واستخدام كثير من الأوروبيين بمرتبات زائدة مع أن أعمالهم لا يمكن إجراؤها الا بواسطة الأصاغر من الوطنيين ، ولذلك صارت جميع الوظائف المهمة بيد الأوروبيين من غير نظر لأعمالهم خلافا للقاعدة العادلة المرغوبة فى كل حكومة عادلة . »



ثم بعد ذلك ، صور « عرابى » ، فى ايجاز الأحداث التى أدت الى.

فى مختلف بيوتهن . لقد أثبت « اسماعيل أيوب » عدم علمه تماما بكل ما حدث وزودنى بخطاب الى مدير ضبطية البوليس .

توجهت بعد ذلك لزيارة « عثمان باشا غالب » لأول مرة . وهو الذى كان قد دبر لمحو أى ذكر لد « تهاى القلبية » ودفعه ان « ١٠ر٠٠٠ مكيال من القمح » التى كان قد قدمها للمدافعين عن وطنه فى « كفر الدوار » ، وذلك تشفيا منه ومضايقة ما أمكنه ذلك لنفس المدافعين أنفسهم عن وطنه وقعوا فى أيدى أعدائهم . لقد دبر منذ ذلك الوقت لأن يصل الى أرقى مكانة فى الواقع ، وصار ولاؤه الآن لا يرمى اليه شك على الاطلاق . استقبلنى « عثمان باشا » استقبالا مهذبا جدا ، ودخل فى شرح طويل ليبرر لماذا وقف الى جانب « عرابى » حتى نقطة معينة وأنه بعدها صار ضميمه عاجزا عن أن يذهب معه الى أبعد من هذا . كان انطباعى عن « عثمان باشا غالب » أنه لا يمكن الاستفادة منه ، وكان بصورة أساسية نديما عاجزا عن أن يكون صريحا معك ، وهو على استعداد تاما لأن يفعل شيئا يتخيل أنه قد يرضى الحزب الذى فى السلطة . ولم يكن « عثمان باشا » ينقصه الذكاء على الاطلاق . ولو أنه كتب ل « عرابى » الفوز فى الحرب لكان هذا الفوز هو أمنيته كوطنى . كان يبدو قلقا وهو يتحدث عن أى شىء فيما عدا الهدف المباشر لزيارتي . وبينما كنت أنا جالسا على الأريكة فى مكتبه ونحن نتناقش مع تناول القهوة والسجائر ، أطلعنى على درج ملء بصور عرابى ، وقال انه منذ بضعة أيام مضت ، « طبقا لأوامر عليا » ، أعدم أكثر من (ستة صور سالبة وجدت فى مختلف دكاكين المصورين فى القاهرة ، وصادر بضعة آلاف من النسخ المطبوعة ، ولكن بالرغم من كل هذا ، فلا زالت الصور تطبع فى كل أرجاء مصر ، وقرر أنه عاجز تماما عن أن يفهم « كيف أن عرابى وقد هزم — ماذا يريد الناس من عرابى أكثر من هذا ؟ » .

ومديرية بوليس القاهرة كانت هى ذاتها غاية فى الغرابة . كانت بها ساحة قدرة تؤدى الى المديرية ، ويحيط بالساحة سجن من طابقين ، طابعه أشبه بجحور الأرانب ، ويفتقر تماما الى التهوية كافتقاره الى الصرف الصحى . وداخل المدخل الرئيسى ردهة ، مكتظة دائما بالكتب ورجال البوليس وبالشهود وبالناس « المتعطشين للعدالة » ، وعلى بعد ، كانت غرفة مدير البوليس نفسه ، وحول الغرفة أريكة طويلة منخفضة ، وكان المكتب الذى يجلس عليه الرجل العظيم من خشب الماهوجنى ، وبالعرفة نافذتان ضيقتان تطلان على حديقة صغيرة خضراء كاملة الخضرة ، ومليئة بأشجار النخيل التى كنت تسمع حفيفها وأنت جالس . وأخيرا ، بعد

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

How We Defended Arabi and His Friends

(A Story of Egypt and the Egyptians)

By : A. M. Broadley

(London, Chapinan and Hall Ltd., 1884).



شكل (١) - صورة أحمد عرابي المصري وعليها توقيع

إهداء

الى

Wilfred Scawen Blunt

ولفريد سكوين بلنت

Lady Anne Blunt

وليدى آن بلنت

أعز صديقين لـ « عرابى » - صديقاء وقت الشدة

يتشرف المؤلف باهداء هذا السفر لهما •

خطاب عرابى باشا الى المؤلف

الى جناب المحب المحترم المستر برودلى المحامى عنى

ان جميع الأوراق التى تسلمت لحضرتكم المختصة بقضيتى يصير
ابقاها بطرفكم لأجل حفظها لحين لزومها لطرفنا عند الاقتضى ولأجل
حفظها كما ذكر وعدم تسليمها لأحد خلافا .

تعد هذا فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٢

الطابع لله

احمد عرابى

المصرى



Al-Ahram, The Egyptian

عزيزى

ومع ذلك فحضرتكم مرخصين من طرفى فى طبع ما يلزم طبعة
منها ونشر ما يلزم نشره منها بحسب الاقتضى وبذا لزم التحشية وهذا
تفويضا شرعيا معتبرا مرعيا .

خاتم

كلمة المحقق

كان لابد لى من كتابة هذه الكلمة لأقدم للقارئ الكريم كتابا تراثيا ترجمته عن تاريخنا القومى عنوانه : « كيف دافعنا عن عرابى وصحبه » ، مؤلفه مستر برودلى Mr. Broadely كبير محامى عرابى (وكانوا ثلاثة : هو وزميلاه ايف Eve ونابير Napier) ، ألفه فى سنة ١٨٨٤ ، وكان مستر بلنت Mr. Blunt صديق « عرابى » الحميم قد طلب من ثلاثتهم أن يتوجهوا الى القاهرة للدفاع عن « عرابى » ، ولما أحس بخطورة موقفه بعد أن وجهت اليه تهمة العضيان التى كانت عقوبتها الاعدام ، وتكفل « بلنت » هو ومجموعة من كبار الشخصيات الانجليزية بتغطية كافة تكاليف سفر المحامين وإقامتهم فى مصر وأتعاب المحاماة .

والكتاب هو « قصة مصر والمصريين » الذين ساءهم أن يتخلى عنهم خديويهم وهم يحاربون الانجليز وينضم الى معسكر العدو ، فالتفوا حول زعيمهم « عرابى » الذى حارب أعداء الوطن ، فلما ادرك هذا الزعيم أنه لن يكون كسب الحرب من نصيبه آثر أن يسلم نفسه هو وزملاؤه الستة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ لقائد جيش الاحتلال الجنرال لو General lowe حقنا لدماء أبناء الوطن .

أما عن سبب ترجمة هذا الكتاب ، وقد انقضى على صدوره أكثر من مائة عام ، فيرجع الفضل فيه الى ما اتخذته جمهورية سرى لانكا Sri Lanka (سيلان Ceylon قديما) من قرار كريم فى أواخر سنة ١٩٨٣ ، هو تحويل أول بيت نزل به عرابى فى مدينة كولومبو ، الى متحف ، تخليدا لذكراه وهو الذى أقام فى الجزيرة منفيا ثمانية عشر عاما (١٨٨٣ - ١٩٠١) قضى تسع سنوات منها فى كولومبو وتسعا

أخرى فى كندى . ووجهت الدعوة الى الحكومة المصرية لحضور حفل الافتتاح ، فتوجه وفد مكون من السيد وزير الثقافة السابق الأستاذ محمد عبد الحميد رضوان ، ومحافظ الشرقية (مسقط رأس عرابى) الأستاذ أمين ميتكس ، ومندوب من وزارة الخارجية المصرية وبعثت الهيئة العامة للكتاب بمجموعة كتب مؤلفة عن عرابى باللغتين العربية والفرنسية ، لتوضع فى المتحف الى جانب صورة للزعيم وبعض وثائق خطية له مصورة عن أصولها المحفوظة بالنسخة الاولى لكتاب برودلى المودعة بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

فلما علم الأستاذ الدكتور عز الدين اسماعيل الرئيس السابق لمجلس ادارة الهيئة العامة للكتاب - أن كتاب برودلى لم يترجم الى العربية بعد ، رغم أهميته التاريخية التراثية ، أسند الى ترجمته حتى يرى طريقه الى النور وليكون مرجعا تاريخيا وثائقيا ، يفيد المؤرخين والباحثين الذين كانوا يترقبون ترجمته منذ وقت طويل .

فماذا عن الكتاب ؟ انه يتألف من مقدمة وثلاثة وثلاثين فصلا وملحقا واحدا . وقد كتب « برودلى » المقدمة فى ٣ ديسمبر ١٨٨٣ ، بعد مضى سنة كاملة على صدور حكم المحكمة العسكرية الخديوية المصرية برئاسة « روف باشا » فى (٣ ديسمبر ١٨٨٢) على « عرابى » بالنفى الى الأبد من الأقطار المصرية وملحقاتها . ولم يكن تأخير « برودلى » فى كتابتها الا رغبة منه فى الاطمئنان على حسن سلوك الزعماء السبعة فى مفاهيم (وقد تأكد له ذلك) . ومن أن انجلترا ستبر بوعدها ، كما أكد ذلك رئيس وزرائها وقتذاك مستر جلاستون Mr. Gladstone فى اتخاذ قرارها فى البقاء فى مصر أو عدم البقاء فيها ، اذا ما بدأت البلاد فى انتهاج « بداية طيبة » ، خاصة وقد ساعدت فى « عودة الخديوية المصرية » (وكان فى شك فى برها لوعدها ، خاصة وأن ما حدث فى تلك السنة من الهزيمة التى ألحقها « المهدي » فى السودان ، بالجملة التى كان يقودها هكس باشا Hicks Pacha وأبيدت عن آخرها ، ما جعله يستبعد تفكير انجلترا فى مغادرة البلاد - وكان صادقا فى نبوءته) .

وعلى مدى الثلاثة والثلاثين فصلا ، يستعرض « برودلى » كل ما فعله ، منذ تكليف « بلنت » له ولزميله بالدفاع عن عرابى (فى أكتوبر ١٨٨٢) حتى مغادرته لمصر (مع مستهل سنة ١٨٨٣) : اذ غادر انجلترا الى « تونس » لانهاء بعض أعماله فيها ، وفى الطريق أمضى يومين فى « باريس » ، فانتهاز فرصة وجوده فيها وزار « الخديو اسماعيل » فى مقر اقامته فى آسنير Asnières على نهر السين ودار الحديث

بينهما عن مصر ، فذكر الخديو السابق لـ « برودلى » أن الوطنية المصرية قديمة قدم التاريخ وأن جنون الجيل الحالى (يقصد جيل القرن التاسع عشر) بها سببه : افتقاره الى زعيم قوى ، وأن فشل قضيتهم هو نتيجة طبيعة لضعف الحكومة المصرية من ناحية ، ولنجاح المؤامرات التركية من ناحية أخرى ، وأن الوحدة الاسلامية ليست ابداعا جديدا ، ولما تطرق الحديث الى « عرابى » ، رأى أن وجهة نظر الخديوى السابق فيه أنه شخص مخادع يتكلم ولا يفعل الا القليل . ولم يكن « الخديو اسماعيل » راضيا عن ابنه « توفيق » اذ قال عنه انه أظهر نفسه خلوا من « العقل والقلب والشجاعة » وهى الخصال المتطلبة فى حاكم مصر .

ثم سافر « برودلى » الى تونس وبقي بها أياما ، عرف أثناءها أن التونسيين قد بلغتهم هزيمة « عرابى » ، كما علموا بأنه أسر ، وأحسوا كما أحس اخوانهم المصريون ، بمرارة القنوط . وطوال اقامته بتونس ، كان على اتصال تلغرافى بكل من « بلنت » (فى انجلترا) و « نابير فايف » (فى القاهرة) ، اللذين أبلغاه بأنهما أخذوا وعدا من المسؤولين المصريين بمقابلة « عرابى » فى السجن ، وحثاه على تعجيل مجيئه الى القاهرة .

ومن تونس سافر « برودلى » بحرا الى « مالطة » وظل ينتظر بها سفينة تحمله الى الاسكندرية ، ولما كان يتعجل الوصول اليها ، وخوفا من تأخر وصول السفينة المرتقبة ، لم يجد أمامه بدا من أن يسافر على سفينة طوربيد بريطانية تابعة للبحرية الملكية البريطانية ، اسمها هيكل Hecla ، وكانت وجهتها الاسكندرية ، وقد رست به عند مرفأ بالقرب من جمرک الاسكندرية .

وفى الاسكندرية شاهد آثار تخريب طوايها بفعل مدافع البحرية البريطانية ، كما شاهد أيضا آثار حريقها ، ثم استقل قطارا الى القاهرة أوصله الى محطة سكة حديد مصر (رمسيس حاليا) ، ومنها ركب سيارة عامة ومعه متاعه البسيط (وكان أهم ما فيه مراجع قانونية قيمة) ونزل بالفندق الخديوى Hôtel Khedivial (وكان فى الأصل أحد قصور الخديو اسماعيل قبل تحويله الى فندق) وقرر الإقامة فيه حتى يلتقى بزميله « نابير » و « ايف » ، فلما التقى بهما ، نزل بفندق شبرد Shepherd Hotel كما نزلا به هما الاثنان .

وبدا « برودلى » يتعرف على الشخصيات الانجليزية التى لها ثقلا فى المجتمع المصرى وقتذاك ، أمثال: «سير ادوارد ماليت Sir Edward Malet قنصل بريطانيا العام فى مصر ، و « سير تشارلز ويلسون

Sir Charles Wilson « مندوب بريطانيا في كومسيون التحقيق » ثم بعد ذلك تعرف بـ « لورد دافرين Lord Dufferin » المندوب السامي البريطاني في مصر ، كما تعرف بشخصية فرنسية هي « مسيو أوكتاف بوريلي Mr. Octave Borelli » الذي كان يشغل منصب النائب العام ، ومن الشخصيات المصرية التي تعرف عليها : شريف باشا (ناظر النظار) ورياض باشا (ناظر الداخلية) واسماعيل أيوب (رئيس كومسيون تحقيق مصر) وبتروده على شرفة فندق شبرد ، ملتقى الشخصيات الصحفية والسياسية ، تعرف على الرأي العام المصري وقتذاك (الذي كان مزيجا من الرأيين المصري والأجنبي) .

ولما أحس برودلي بأن عمله سيتسع مجاله في المستقبل ، وأنه سيحتاج الى هيئة مكتب كاملة من كتبة وناسخين ومترجمين ، فضلا عن اصطلاحه هو « وناير » (نظرا لسفر « ايف » الى إنجلترا) بالشئون القانونية ، مضافا الى ذلك رغبته في الابتعاد عن أعين الرقباء (خاصة بعد أن عرفوه وعرفوا مهمته) - من أجل ذلك كان لابد لـ « برودلي » من البحث عن مكان هادئ قائم بذاته وبعيد عن فندق شبرد ، يتخذ منه مكتبا يباشر فيه نشاطه ويلتقى فيه بأقارب ومعارف موكله الذين لن ينقطعوا عن زيارته في مختلف الاوقات ، فاستأجر له موظفو فندق شبرد « بيت المفتي » بحي الجمالية بالقاهرة ، وكان يقف بالغرض المطلوب وأقام فيه « برودلي » و « وناير » حتى مغادرتهم مصر في يناير ١٨٨٣ .

وقد اكتشف « برودلي » من البداية ، أن الحكومة المصرية (ممثلة في شخص « بوريلي بك » النائب العام) ستتناوشه في اجراءات المرافعة وفي السماح له ولزميله بزيارة موكليهما في سجن الدائرة السنية (ولو أن « سيرتشارلز ويلسون » كان يذلل لهما الصعاب ، من خلال مباشراته لتوظيفته) وصارا يزوران موكليهما في السجن بصورة تكاد تكون منتظمة .

وقد تعرف برودلي - من خلال سيرتشارلز ويلسون - على « محمد ابن أحمد عرابي » ، قبل زيارته لـ « عرابي » في السجن ، فلما التقى بـ « عرابي » طلب منه ، باعتباره محاميه ، أن يزوده بكل ما لديه من مستندات ليختار منها ما يراه ذا فائدة في الدفاع عنه ، فأصدر عرابي أوامره لابنه محمد ، ولخادمه الخلاسي « محمد بن أحمد » بتنفيذ هذه الرغبة ، وبالفعل أحضرا له مندبلا كبيرا مليئا بالوثائق ، اختار منها ما يفيد ، وحفظ الباقي في القنصلية البريطانية بالقاهرة (وقد رافقه

فى هذه المهمة سير تشارلز ويلسون) ورقما كل وثيقة ووقعا على كل واحدة منها بالأحرف الأولى من اسميهما .

وبعد أن تعددت زيارات « برودلى » لـ « عرابى » فى السجن ، واطمأن اليه بقية المسجونين الذين وكلوه للدفاع عنهم ، طلب من « عرابى » و « على فهمى » و « عبد العال حلمى » و « يعقوب سامى » و « أحمد رفعت » و « الشيخ محمد عبده » و « محمود سامى » أن يكتب كل واحد منهم تقريراً عما حدث له منذ نسليمه لنفسه للقوات البريطانية التى أسلمته بدورها الى الحكومة المصرية . وكان أهم هذه التقارير ، التقرير الذى كتبه « عرابى » والذى اختار له عنوان « الحوادث التى حصلت فى مصر من يناير ١٨٨١ لغاية شهر أكتوبر ١٨٨٢ » .

وكان « برودلى » حريصاً على أن يحضر مع موكلية وقت استجوابهم أمام قومسيون التحقيق الذى كان يعقد جلساته مساء من الثانية بعد الظهر حتى السادسة ، فاذا لزم الأمر عقد جلسات اضافية ، كانت تعقد فى الصباح ، وكثيراً ما كان القومسيون لا يعلن « برودلى » بموعده استجواب موكلية (وفى هذا اخلال بشروط الاتفاق الذى وقعه « مسيو يوربيللى » نيابة عن الحكومة المصرية ، و « برودلى » ، بوصفه ممثلاً للدفاع عن المتهمين) .

وفى ختام أعمال قومسيون التحقيق ، كشف التحقيق عن مؤامرة دبرها « عثمان باشا فوزى » الوكيل العام « للأميرة زينب هانم » بنت محمد على الكبير (وأخت الأمير « حليم » المطالب بعرش الخديوية المصرية) ، ادعى فيها بأن الحزب الوطنى (الذى كان يرأسه « عرابى ») يرشح « الأمير حليم » لعرش الخديوية ، ولم يكن هذا الادعاء الا افتراء على الحزب ، أما حقيقة الأمر فتتلخص فى أن « عثمان باشا » من فرط حبه لـ « محمد على الكبير » وتفانيه فى خدمة أبنائه ، كان كل همه هو أن يصل « الأمير حليم » الى عرش الخديوية المصرية بأى ثمن ، فانضم « عثمان باشا » الى الحزب الوطنى كأحد أعضائه ، وبحث عن شخص يمكن أن يندس بين أعضائه ويقترب من عرابى وقادة الحزب ويوحى اليهم بفكرة ترشيح الحزب للأمير حليم ، فلم يجد الا تاجراً مصرياً مغامراً هو « حسن موسى العقاد » الذى قام بهذه المهمة وكانت أمامه فرصة مواتية هى استياء الحزب من انضمام « توفيق » الى الانجليز وقد أفلح « حسن موسى العقاد » فى ابتزاز عشرة آلاف جنيه من « عثمان باشا » بدعوى صرفها على تمويل الحزب ، ولكن تبين من التحقيق كذبه فى دعواه ، اذ أنه أودع كل المبالغ التى تسلمها من عثمان باشا ، فى حسابه الخاص به ، وسوى

الموضوع حتى لا يصل علم « السراى » الى مؤامرة « الأمير حليم » وأخته ، وكان الضحية هو عثمان باشا ، اذ أن القومسيون قرر أن يدفع « عثمان باشا » أربعة آلاف جنيه كفالة لحسن سلوكه لمدة أربع سنوات ، وأن يقيم فى منزله الريفى . ومما يؤسف له أن الأمير حليم وشقيقته لما علما بما آل اليه الأمر ، تخليا عن « عثمان باشا » فى شدته واستكثابه استقالة من وكالته لأعمالهما ولم يدفعا عنه الكفالة ، ولم يستطع « عثمان باشا » سداد مصاريف اقامته بفندق شبرد ودفعها عنه مستر جروس Mr. Grosse الذى كان يعمل بالفندق .

وبعد انتهاء قومسيون التحقيق من استجواب كافة المتهمين ، وقبل احالة « دوسيهاى » القومسيون الى المحكمة العسكرية التى كانت ستعظر فى القضية ، باعتبار أنها قضية عصيان عقوبته الاعدام - توسط « لورد دافرين » (وكان قد جاء الى مصر مندوبا ساميا لبريطانيا) بين الحكومة المصرية (التى يمثلها « مسيو بوريللى ») والدفاع عن المتهمين (الذى يمثلها « برودلى » و « نابير ») لعقد مصالحة بين الطرفين ، وكانت المصالحة المطروحة تقضى بأن كل الاتهامات الأخرى الموجهة ضد « الباشوات » السبعة ، فيما عدا تهمة العصيان البسيط ، ستسحب ، وسيستدعون للمثول أمام المحكمة العسكرية بتهمة العصيان البسيط ، والذى بموجبه سيترفون بأنهم مذنبون . ومن المفروض أن تسجل عقوبة الاعدام فى هذه الدعوى ، وبعد النطق بها يعقب ذلك مباشرة صدور المرسوم الخديوى المعدل لعقوبة الاعدام الى النفى من مصر وملحقاتها . ثم يعقب ذلك صدور مرسوم بتجريد المسجونين من رتبهم وأملاكهم (ولكن لن تصادر أملاك زوجاتهم) ، ونتيجة لمصادرة أملاك « الباشوات » السبعة ستتكفل الحكومة المصرية بتخصيص راتب مناسب لاعانتهم وعائلاتهم فى المنفى ، كما ستتكفل أيضا بنقلهم على نفقتها الخاصة الى البلد المحدد لهم الإقامة فيه - وقد وافق « الباشوات » السبعة على كل هذه البنود ، وكتبوا الاقرارات والتعهدات المطلوبة وختموها بمحض إرادتهم .

ولم ينس (برودلى) فى غمرة ما ذكره عن أحداث هذه الفترة الخطيرة من تاريخ مصر ، أن يذكر مدى تقدير سيدات مصر ل « عرابى » ، وبخاصة أميرات الأسرة الخديوية ، اذ تقديرا لوطنيته عرضت عليه إحدى الأميرات أن تتزوجه ولكنه اعتذر لها اعتذارا رقيقا قائلا لها ان مكانها أن تعاون بنات وطنها فى تضديد جراح الجرحى المصريين ، كما أن أميرة أخرى هى « الأميرة انجى » (زوجة الخديو سعيد باشا) بعثت الى « برودلى » بخطاب شكر لحسن دفاعه عن عرابى ، وأميرات كثيرات تعرضن لبطش الخديو توفيق من جراء تعاطفهن مع « عرابى » ، وكان

لا يتورع أحيانا عن نفيهن (مثل عيشة هانم التي نفاها هي وخادمتها الى الحجاز (السعودية الآن) - ورغم كل هذا ظلت نساء مصر ، أميرات ووطنيات ، على تقدير رفيع له على وطنيته حتى قبل سفره منقيا ، فقد زودنه بالملابس والحقائب وسجاجيد الصلاة والمصاحف .

ويتعجب « برودلى » من أن الحكومة المصرية لم تكن لتتوقف عن مضايقاتها للباشوات السبعة حتى قبل نفيهم : فمرة يقال لهم أن أربعة منهم سيتوجهون الى « سيلان » وثلاثة الى « هونج كونج » لأن السفينة المقرر سفرهم عليها اسمها « المريوطية the Marotis » ليست بها أماكن تكفى لسفر سبعتهم معا (ثم يتضح بعد ذلك أنها تتسع لثلاثة أضعاف راكبيها) . ومرة أخرى يطلبون منهم تخفيض عدد الأشخاص المرافقين لهم فى منفاهم ، ثم بعد ذلك تصدر الحكومة قرارها بمصادرة أملاك الزعماء السبعة واعتبارهم ، مدينا ، أمواتا ، ولا يحق لهم أن يرثوا ، ثم أعقب ذلك تعيين حراس أترك وجراكسة على بيوتهم لمنع دخول أو خروج أى أشخاص اليهم ، ولم يتم ابعاد العساكر الا بعد توجه « مستر نابير » المحامى ، الى « اسماعيل أيوب » (الذى رقى بعد انتهاء رئاسته لقومسيون التحقيق ، ناظرا للدخلية) ، وكانت آخر هذه المضايقات للزعماء ، ما تمثل فى صدور تعليمات لهم ظهر يوم عيد رأس السنة الميلادية ، بأن يرتدوا معاطفهم ويركبوا فى عربتين أعدتا لنقلهم الى ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير الآن) فلما وصلوا تشكلت مجموعة صغيرة من القوات المصرية على هيئة مربع ، ووقف المسجونون فى وسطه ، وقرأ ضابط ، بصوت مرتجف ، المرسوم الخديوى بتجريدهم من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف الحائزين لها ، مع معجو تقريرين أسمائهم من دفتر ضباط الجيش المصرى محوا مؤبدا ، ثم عادت بهم العربتان مرة أخرى الى السجن ! .

ويصف « برودلى » مدى جمود العقلية الادارية المصرية ، فيقول ساخرا انه احتفظ بساعة ومكان سفر القطار المقل للزعماء السبعة الى السويس على أنه سر عميق ، وتيقنا من « برودلى » و « نابير » أنهما ربما لن يعرفا لا ساعة السفر ولا مكانه ، تركا سايسهما « حسن » عند سجن الدائرة السنية ، حتى اذا حدث شئ مباغت أبلغهما على الفور ، وقد حدث ما توقعاه ، اذ أسرع اليهما « حسن » يلهث ، فوصلا الى القطار فى محطة قصر النيل ولم يكن قد تحرك بعد ، وكان تحركه مساء يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٨٢ ، وركب فى عربات المقدمة السيدات والأطفال والخدم ، كما وضعت فيها الأمتعة ، وقام بالحراسة فيه حراس انجليز

وبعض الضباط المصريين وبعض عساكر مصريين لمصاحبة المنفيين الى السويس ، وخصصت عربية من عربات الدرجة الأولى ، فى منتصف القطار ، لـ « عرابى » وزملائه ، وكان فى وداع القطار عدد من النظار ، ورجال السلطة البريطانية . وبعد أن تحرك القطار واختفى عن الأنظار ، أخذ « برودلى » يسترجع ما شهده ميدان قصر النيل من أحداث . . كيف شهد الكتيبة التى كان يقودها « عرابى » الى قصر عابدين مطالبا بتحقيق مطالب الشعب ، وكيف كان عمله ناظرا للجهادية مقره فى قصر النيل ، وفى مبنى قصر النيل ، عقد « المجلس العرفى » ، التى أئتمن عرابيا على الدفاع عن بلده !

وكان « برودلى » عند وعده لـ « عرابى » بدفاعه عن أبناء مصر من غير الزعماء ، بل اقترح على الحكومة المصرية اصدار مرسوم ادارى بنفى المسجونين منهم ، ووافقت الحكومة المصرية على هذا الاقتراح ، وأدخلت عليه بعض التعديلات لصالح المسجونين بما يتيح « الافراج الفوري » عن عدد كبير منهم سواء بتقديم « ضمان » عن حسن سلوكهم أو « تعهد » بأن تكون اقامتهم فى أملاكهم الخاصة .

ثم تحدث « برودلى » بعد ذلك فى كتابه ، عن انطباعاته الشخصية عن « عرابى » وصحبه ، فذكر مفاخره أنه تبين من مراجعة سجلات الحكومة وحسابات السكة الحديد والتلغراف وغيرها من الخدمات المماثلة أن عرابى واخوانه لم يمسوها على الإطلاق ، وأنهم وهم الذين كانت ثروة مصر كلها تحت أيديهم ، ذهبوا الى المنفى لا يحملون معهم الا ملابسهم التى كانوا يرتدونها والراتب الزهيد الذى صرفته لهم الحكومة المصرية ، وهى حاقدة عليهم » ، بل يذكر « برودلى » أن « بلوم باشا Blum Pacha » الذى أسند اليه مراجعة حسابات نظارة المالية المصرية أثناء ادارة المجلس العرفى لها ، ذكر أن مصاديف الحرب غطتها الاككتابات التبرعية من من الأهالى !! ، ويشيد « برودلى » بالبيان الذى قدمه له « عرابى » فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٢ عن اصلاح أحوال مصر ، وأنه لا يفرق ، ان لم يفرق ، خطة « لورد دافرين » فى ٦ فبراير ١٨٨٣ عن اعادة تنظيم مصر .

ثم أشار « برودلى » بعد ذلك الى الضرر البالغ الذى جرت به تركيا على مصر لرفضها (وقت تصدع العلاقات بين الحديو « توفيق » و « عرابى ») حضور جلسات مؤتمر استانبول الذى دعت اليه الدول الستة الاوربية (انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا) ووجهت الدعوة

الى تركيا فرفضت بدعوى أن درويش باشا ذهب الى مصر لتسوية الخلاف . ويتساءل « برودلى » هل يمكن أن يكون النفوذ التركي في مصر حقيقة سياسية أم خيالا دبلوماسيا ؟ ويتحدث عن سوء الأحوال فى الولايات التابعة للامبراطورية العثمانية وما انتهى اليه الأمر فيها ويضرب لذلك مثلا بـ « تونس » وما انتهى اليه الأمر من احتلال فرنسا لها ، وسوء حال ولاية طرابلس الغرب ، ويشير الى تفشى الفساد والرشوة فى الامبراطورية العثمانية ، ويسوق مثلا على ذلك أنه لولا الرشاوى التى كان يقدحها الحديو اسماعيل على حاشية السلطان ونظاره لما حصل على أحسن الفرمانات التى استفاد منها هو وأبنائه من بعده ، وبخاصة فرمان حصر الوراثية فى العرش فى فرعه فحسب .

واختتم «برودلى» كتابه بما كان يتمنى أن تصبح عليه مصر فى حالة « عودته الوطنية المصرية » لمباشرة نشاطها وفى حالة اعلان العفو عن الزعماء وعودتهم الى مصر ، وفى حالة ما اذا كانت انجلترا صادقة النية فى أن تبدأ مصر « بداية طيبة » ، ولكن للأسف لم تتحقق كل هذه الامنيات ، بل ظل الاحتلال الانجليزى جاثما على صدورنا نحن المصريين حتى عقدت معاهدة التحالف بين مصر وانجلترا فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ ، والتى أعلن بموجبها أن مصر صارت دولة مستقلة ذات سيادة .



كانت هذه المأمة مختصرة اختصارا شديدا بكتاب « برودلى » الذى ترجمته ، فماذا كان على أن أفعله بعد فراغى من ترجمتى له ، وهو المرجع التاريخى التراثى الزاخر بالشخصيات المصرية والأوربية البارزة التى لعبت منذ أكثر من مائة سنة مضت ، أدوارها على مسرح السياسة الملىء بأحداث تلك الفترة ، ثم هناك الوثائق العربية الموجودة به والنادر وجودها فى أى مرجع سواء ؟

أما عما ورد به من الشخصيات العالمية والمحلية والاحداث التى كانت تدور فى فلك تلك الفترة ، فقد كان من السهل تغطية بياناتها من مختلف المراجع والموسوعات العربية منها والأجنبية ، كما هو موضع فى الملحق رقم ٣ الذى عنوانه « مراجع التحقيق » .

وأما عن كيف حققت الوثائق المترجمة بكتاب « برودلى » ، فقد رجعت الى النسخة الاولى من كتابه والمودعة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، اذ بها مجموعة من الوثائق العربية الخطية ملصقة قبالة بعض صفحات الكتاب الانجليزية ، فكنت اذا ما وجدت الاصل العربى

لندن (ضمن ما اقتنته المكتبة من أوراق مستر « بلنت » (١) ، ومن بين الوثائق الأخرى التي احتفظ بها « برودلى » لنفسه ولم يودعها ضمن الوثائق الملتصقة بكتابه : وثيقتان بالتركية ، أحدهما : فرمان ترقية عرابى الى رتبة الباشوية (فى ١٤ مارس سنة ١٨٨٢) وفرمان براءة ترقينه (فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٨٢) والفرمانان مترجمان الى الانجليزية ! ، ثم هناك أيضا الوثيقتان اللتان حررهما أهالى مديرتى الشرقية والاسكندرية ، أولاهما تمجد فى نظارة محمود سامى باشا لأنها منذ تسلمها مقاليد الحكم عملت على تحسين ظروف البلاد ورسخت مبادئ العدالة ودعمت قواعد النظام ومحت أخطاء من سبقوها ، وطالبت بالإبقاء عليها ، أما الثانية ، فقد انتقدت قبول الحديو لمذكرة الدولتين الانجليزية والفرنسية التي تطالب باستعفاء نظارة محمود سامى باشا ، وذكرت أن فى الاستسلام لهذه المذكرة قضاء على امتيازات المصريين وامتيازات الباب العالى ، وأن من يقبلها عليه أن يفصل كلية والى الأبد قضيته عن قضيتنا ، ورفض السكندريون فى هذه الوثيقة أن يربطوا أنفسهم بأية قوة أجنبية حتى لو كان عليهم أن يموتوا من أجل ذلك ، وهناك وثيقة هى حكم كبار علماء الأزهر الشريف على الحديو توفيق بعد أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين ، والى جانب هذه الوثائق ، احتفظ « برودلى » بتقارير : أحمد رفعت (سكرتير مجلس النظارة) ويعقوب سامى (وكيل نظارة الجهادية) والشيخ محمد عبده (مدير تحرير الوقائع المصرية) ، وكذلك تقرير « عرابى » عن العملية الحربية التي قام بتنفيذها لورد ألكستر Lord Alcester (أحد قادة البحرية الانجليزية الذين اشتركوا فى ضرب طوابى الاسكندرية) ، وكان أول من أعلن استيائه لرفع المصريين المدافعين عن بلادهم ، للراية البيضاء) .

ولقد كنت ألبأ فى بعض الحالات فى تحقيقى للوثيقة المترجمة التي لا أجد لها أصلا - كنت ألبأ الى الدوريات التي كانت تصدر فى نفس تلك الفترة (مثل « الوقائع المصرية » أو جريدة « مصر ») ، ولكن كثيرا ما كانت تصدمنى حقيقة أن السنة أو الشهور التي كنت أتمنى الاطلاع عليها فى هذه الدوريات أو تلك أكتشف أن لا وجود لها لأنها بليت (بعد مضى أكثر من مائة سنة عليها) ، فلم يكن أمامى من سبيل

(١) انظر تقرير عرابى المصور عن المخطوطة المحفوظة بجامعة لندن بالمدرسة المذكورة (مطبوعات المركز العربى للبحث والنشر - ١٩٨١) ، بمناسبة الذكرى الثوبى للشورة العرباية) - (المحقق) .

العسكر (الجند) ، الكلة (وجميعها : كلل) (طلقة المدفع) ، الدونمة (الأسطول) ، الشفخانة (دار الشفاء) ، الاستبالية (المستشفى)
الوابور (البخرة أو السفينة) ، الطابية (القلعة / الحصن) .

● اسماء البلدان : لندره (لندن) ، الأستانة (القسطنطينية - استانبول) ، انكلترا (انجلترا) ، روسيا (روسيا) .

كما تميز أسلوب الكتابة ، أحيانا ، بإدماج كلمتين في كلمة مثل :
نقلا عنها (نقلا عن ما) ، بناء عليها تيقنته (بناء على ما تيقنته) ،
فبهذه الليلة (في هذه الليلة) ، وعليذلك (وعلى ذلك) ، بما حصل
(بما حصل لي) ، عندلك (عن ذلك) .

واستكمالا لواجبي كمحقق ، رأيت أن أضيف الى الكتاب - خدمة
للمؤرخ والباحث - ملحقين الى جانب ملحقه الوحيد الذي هو عبارة عن
خطاب بعث به أحمد رفعت الى « برودي » يزوده فيه ببعض بيانات
سريعة تفيد ، عن : الحركة الوطنية ، والاجتماعيين الأول والثاني
للجمعية الوطنية بالقاهرة ، وتعريف بالمجلس العرفي أو لجنة الدفاع
الوطني ، أما عن الملحقين اللذين رأيت اضافتهما فهما على الوجه التالي :

ملحق رقم ٢ - بعض نماذج من وثائق الثورة العربية .

ملحق رقم ٣ - مراجع التحقيق .

وقبل أن اختتم كلمتي هذه ، أود أن أوجه شكرى الى من عاونوني
فى تحقيق هذا الكتاب ، وجميعهم زملائي وأبنائي العاملين بقطاع دار
الكتب والوثائق القومية ، أخص بالذكر منهم الحاج نصر الدين حسين
رئيس القطاع السابق ، ومن دار الكتب الأساتذة : سعد رشيد (مدير
عام الدار) وفتحى الجوهري (رئيس قسم الفهارس الشرقية) والسيدة
قدرية حمروش (رئيس قسم المراجع) والأنسة آمال المغربى (بالمراجع)
ومن دار الوثائق القومية : الأستاذ فؤاد جلال (المدير العام) والسيدة
سوسن عبد الغنى (مدير قاعة الاطلاع) - والسادة زين العابدين
شمس الدين وأحمد منصور ، وسامى اسكندر .

والله ولى التوفيق

عبد الحيد سليم

مقدمة

فى الثالث من ديسمبر ١٨٨٢ ، عاد « أحمد عرابى » الى زنازنته فى سجن الدائرة السننية بالقاهرة ، بعد اعترافه بأنه مذنب ، بعدما وجه اليه من اتهام شكلى بالعصيان ، وحكم عليه بالنفى المؤبد من مصر . وهأنذا اليوم ، فى ٣ ديسمبر ١٨٨٣ ، بعد انقضاء سنة على صدور ذلك الحكم ، أكتب هذه الصفحات التى تروى بالتفصيل قصة الدفاع عن « عرابى » ، كما تحكى من ناحية ، قصة قضيتته . وقد رأيت أن أطرحها على القارئ الانجليزى المنصف ليحكم عليها . وقد كان من المفروض أن تنشر مبكرا عن هذا ، ولكنى فضلت أن أؤخر نشرها . كنت منشغل الفكر وأنا أكتبها لأبدي دورى ، ما استطعت ، من « دور » المحامى الى « دور » المؤرخ ، كما أردت أيضا أن أعرف ماذا كان سلوك السبعة المنفيين الى سيلان Ceylan (١) فيه ما يبرر اعتقادى فى ولائهم وصدق إيمانهم ، كما كان من الضروري انتظار انقضاء السنة الأولى على « عودة الخديوية المصرية » حتى يمكن نقد ما أنجزته نقدا عادلا أو وزنه وفقا لما جنى من ثمارها . وعلى هذا ؛ فإن قصتى التى أرويها عن « عرابى » وصعبه ؛ أرويها بعد مضى سنة على تركهم لفترة ، على الأقل ، جلته السياسات الفعلية .

ان العهود التى أخذتها انجلترا على نفسها بمحض ارادتها ازاء مصر ، لم تف انجلترا بها كاملة ، ويبدو لى أن أى حل نهائى للمسألة المصرية لازال بعيد المنال ، كما كان من قبل ، كما أن ما اقترحنه من مشروع للبدء بـ « بداية طيبة » لم يتجاوز فى تقدمه خطوة واحدة من المرحلة الأولى للمخاطبات الرسمية اننى عاجز عن أن أرى أية نتيجة مرضية يحتمل الوصول اليها .

وقبل أن تصدر انجلترا ، والشعب الانجليزى معها ، حكمهما على مصير دولة تعهدت لها انجلترا فى كل المناسبات ببداية حياة جديدة ،

(١) جمهورية سرى لانكا Sri Lanka ، الآن (المحقق) .

البيانات الاحصائية مثلما كان يفعل أجدادنا في الازمنة الغابرة قبلنا • هناك ثورة ضمنية ضد كل ما هو جامد • وإذا كنت قد انحرفت الى حد ما ، عن « جاذبية الظروف المناسبة » ، فقد انحرفت لأن ذات طبيعة عرضي العام تتطلب ذلك ، وحتى أضمن لقرائى تحقيق رغبتهم الفعلية فى رؤية مصر والمصريين من خلال وجهة نظر مصرية ، ونظرا لانهم على غير استعداد لتتبع برنامج دراسى تاريخى قاس ، فاننى والحالة هذه ، أتبع الى حد ما أسلوب الطبيب الذى يداوى مريضه ، الذى يثق فيه ، باعطائه الدواء داخل أقراص لها رائحة الزنجبيل •

اننى على علم تام بان حل « المسألة المصرية » الذى أشرت اليه ، سيساهم كثيرا فى ايضاح طبيعة الوضع السياسى • اننى واثق أنه ستنبعث صيحة استهزاء ممن سبق لهم عرض بضاعتهم ، وحاولوا أن يقنعوا الجمهور بحكمة مختلف نظرياتهم ، وأكاد أستطيع عد من سيتفقون معى فى الرأى ، اذ لن يزيد عددهم عن أصابع يدي الاثنتين • ولما كنت شديد الايمان باعتقاداتى الشخصية ، فاننى لن أخفف من لهجة انتقادى للأسلوب الذى تشبعه انجلترا فى تعاملها مع مصر • قلة هم الذين يعترفون بأنه كان من الفشل « عودة الخديوية المصرية » تحت رعاية انجلترا ، وقلة هم أيضا الذين اعترفوا بياسهم فى أن تتحقق « بداية طيبة » فى ظل هذه الظروف - ظروف عودة الخديوية المصرية • لو كان ما عملته انجلترا ، بدلا من ذلك ، هو « عودة الوطنية المصرية » لكان عملها هذا عملا جديرا بها ، ولهيأت به فى اعتقادى للمصريين الرخاء والسلام والحكم الذاتى ، ولأسهمت فى وقف طوفان العدوان فى شمال أفريقيا ولما كان من شيء يمكن أن يرفع من مكانة ونفوذ انجلترا فى محافل أوروبا ، من أن تنفذ تلقائيا ، وهى فى أوج نجاحها ونصرها ، الوعود التى وعدت بها بمحض ارادتها ، والتى اعتبرتها هدفها وسببا لحملتها على مصر •

وأثناء مشول هذا المجلد للطبع ، ذهل كل من فى انجلترا لهزيمة هكس باشا Hicks Pacha (١) فى السودان ، رغم ما هو معروف عنه من ذكاء ، وقد لقي حنقه فى معركة مشثومة أمام « الأبيض » ولقى فيها حنقه هو الآخر ادوارد بولدوين ايفانز Edward Baldwin Evans مترجمنا الأمين الغيور • ولا شك أن اباداة المهدي للقوات المصرية سيؤجل جلاء قوات انجلترا عن مصر ، وسيكون فى الوقت نفسه مدعاة للتعجيل فى البدء فى « البداية الطيبة » ، وسأوضح لقرائى فى مكان آخر الى أى

(١) سيجد القارئ تحقيقا مفصلا عن هذا الموضوع بأحد هوامش الفصل الثامن من هذا الكتاب • (المحقق) •

ولازال « عرابى » وصحبه ينتظرون فى صبر ، فى سيلان ، انصافهم الذى يتوقعونه عاجلا أو آجلا ، وكلهم ثقة فى ذلك الانصاف ، انهم يعتقدون فى سلامة طوية انجلترا سواء بالنسبة لمصيرهم الشخصى أو بالنسبة للمصير النهائى لمصر . انهم راضون أن « يقضوا المدة التى أرادها الله لهم » وامتنعوا فى ثبات عن رفع الشكاوى التى لا جدوى من ورائها أو عن إثارة هياج يشير الغضب .

لقد كتب لى « عرابى » هذه الرسالة بعد فترة قصيرة من وصوله الى « سيلان » :

« الى صديقى الأمين والحامى عنى المستر برودل حفظه الله

بعد اهداء مزيد سلامى على حضرتكم نخبركم أننا جميعا وصلنا الى كلمبو بجزيرة سيلان بغاية الصحة فى ١٠ يناير ١٨٨٣ بعد أن قطعنا ١٤ يوما فى سفر البحر وحصل لنا من حكومة الجزيرة غاية الاحرام وحضروا لنا البيوت اللازمة واكرمونا بالاكل الفاخرة التى تكفى لمنازلنا مدة أيام فنحن جميعا نشئ على رجال الحكومة الانكليزية بكل لسان على ما صنعته معنا من حسن الاعتناء كما كنا نأمل فيها وأن البلد وأهويتها وحياتها موافقة جدا وسندخل اولادنا بمدارسها ونحن نتعلم أيضا اللغة الانجليزية ومتى نجحت مسألة سلب املانا كما هو الأمل فى همتكم نكون جميعا فى عيشة راضية ومن هذا الطرف جميع اخواننا وأولادهم يخمسونكم بمزيد السلام ونرجوكم ابلاغ مزيد سلامنا الى اخينا احمد بك رفعت ان كان معكم والى حضرة والدتكم العزيزة العظيمة عذنا ومن معكم ودمتم بخير .

معكم المخلص

(توقيع) احمد عرابى المصرى

٢٤ يناير ١٨٨٣

خاتم

· ومنذ ذلك الوقت ، كانت خطاباته تنطق بنفس الرضا والاستسلام، كما أن المنفيين السبعة ، كرسوا أنفسهم للدراسة المشاهرة للغة الانكليزية، وقد جاءت بنتائج ممتازة . ان ذكاء هؤلاء العصاة الخشنيين لا يمكن أن يكون ترتيبا يبطن نوايا لهم .

ومنذ أيام قلائل مضت ، تلقيت الخطاب التالى باللغة الانجليزية من رئيس الحزب الوطنى السابق ، محمود سسامى ، الذى لم يكن يعرف قواعد اللغة الانجليزية قبل أن يستقر به المقام فى كولومبو colombo .

هذا ، وأثناء إقامتي بالقاهرة ، قام مستر فريدريك فيليرز
 Mr. Frederic Villiers برسم مجموعة من اللوحات من الطبيعة ،
 وهي اللوحات التي تزين هذا السفر ، ومهارة رسمها تتحدث عن ذاتها ،
 ولقد نجحت شركة طباعة الصور الميكانيكية Photo-Mechanical Printing
 Company في نقلها طبقاً للأصل ، وإذا كان مستر فيليرز قد هيأت له
 الظروف في الواقع ، فرصاً لم تنتج لرسام غيره ، إلا أنني أشك في أن
 أي رسام غيره كان في استطاعته أن يغتنم هذه الفرص خيراً منه .

١٠٠٠ بروبي

مكتبة فندق لينكولن ، لندن

أول ديسمبر ١٨٨٣

الفصل الأول

مقدم آتعاى

يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، لم يكن قد مضى على انتصار بريطانيا فى معركة التل الكبير غير أسبوع واحد فقط ، ولم تبد بعد أية دلالة على أن أول زهو حماسى أثاره هذا النصر ، سيتوقف . ووسط الحماس العسكرى الطاغى الذى اتخذ شكلا جديدا ، ووسط التغنى بأغنيات النصر البهيبة ، ندر أن كان هناك متسع من الفراغ أو الوقت للتفكير فى مصير من حلت بهم الهزيمة ، ومع ذلك ، ففى صبيحة ذلك اليوم نشرت جريدة التايمز Times خطابا مطولا من سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker (١)

(١) هو المستكشف الانجليزى للبحيرة الضخمة المجاورة لبحيرة فيكتوريا ، وقد أسماها بيكر بحيرة ألبرت أو ألبرت نيانزا Albert Nyanza على اسم زوج الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا وقتذاك . وفى سنة ١٨٦٩ حضر بيكر الى مصر مرافقا للأمير إدوارد Edward على عهد إنجلترا ، فى حفل افتتاح قناة السويس ، وأثناء الحفل أوعز ولى عهد إنجلترا الى الحديو اسماعيل أن يستعين بخبرة بيكر فى قيادة حملة عسكرية الى أعالي النيل لىسط نفوذ مصر فيه وللقضاء على تجارة الرقيق هناك ، فاستجاب الحديو لطلبه وعين صمويل بيكر (بعد أن أنعم عليه برتبة الباشوية) حاكما على مديرية خط الاستواء لمدة ٤ سنوات تبدأ من أبريل ١٨٦٩ ، وبراتب سنوى قدره ١٠٠٠٠ جنيه ، فلما انقضت مدته خلفه من بعده جوردون Gordon الذى رفض أن يتقاضى أكثر من ٢٠٠٠ جنيه سنويا ١١ وقد أصدر بيكر الكثير من كتب الرحلات منها : البندقية و كلب الصيد فى سيلان (١٨٥٤) The Rifle and the Hound in Ceylon فى سنوات متجولا فى سيلان The Albert Nyanza بحيرة ألبرت Eight years Wandering in Ceylon (١٨٥٥) ، قبصرى (١٨٦٦) ؛ روائد النيل فى الحبشة (١٨٦٧) ، قبرص كما رايتها فى ١٨٧٩ Cyprus as I saw in 1879 (١٨٧٠) ، الحيوانات المفترسة وآساليها The Wild Beasts and Their Ways (١٨٩٠) (المحقق)

المخرمة ، وكان مستر بورج أبعد من أن تنطبق عليه أوصاف القنصل الفرنسي للمواطن المألوف ، إذ يمكن اعتباره أقرب شبهة من الملك هنري الثامن Henry VIII ، وهو يكن أعمق احترام وتقدير للأسيد البريطاني - رمز بريطانيا التي لا تقهر the «invitta Britannia» ، الذي رسم منذ قرن من الزمان فوق نقش كتابي على المخفر المواجه لقصر الحاكم ، والذي يجده له مكانا دائما في كل طلب مألوف دفعا للأذى ، طالما أن مالطة تشتمل جزءا من الامبراطورية البريطانية . شرحت لمستر ب.ب. بورج ما أواجهه من مصاعب ، فذكر لي أن السفينة الملكية « هيكللا » Hecla ستغادر مالطة عند الظهيرة وأتني لو طلبت من الأميرال جرام Admiral Graham أن يسمح لي بالسفر عليها فلا شك أنه سيحقق لي طلبي . ويقتضيني الانصاف أن أذكر عن مستر بورج أنه لم يعبر عن رأيه في عرابي بالتعبيرات المتعطشة للدماء التي اعتدنا سماعها ، بل اكتفى ، على العكس من ذلك ، بتعبيره عن أنه كان يتمنى أمنية صادقة ، أن لو كان العصاة قد أطالوا أمد المناوشات قليلا ، إذ انها أتاحت له أن يبيع مزيدا من التبغ للجنود البريطانيين المغادرين لمالطة ، كما مكنته أيضا من بيع مزيد من المرجان والدنتلا والمصوغات الفضية المخرمة لجيش بريطانيا عند عودته من مصر ، وليس في هذا ما يثير الدهشة لأن مستر بورج يسترجع تلك الأيام السعيدة التي وضع فيها أساس ثروته عندما كان أحد تباعي المخيمات العسكرية Camp-Followers في بلاد القرم Crimea .

وعلى الفور ، هبطت السلالم دون أن أفكر في طعام من فرط سعادة ما سمعت ، وناديت على قارب يحمل علامة القطة السوداء (أما عن لماذا كل ثالث قارب في مالطة يسمى بهذا الاسم ، فهو ما لا أعرف له من سبب) وما لبثت أن بلغت السفينة الملكية « هيكللا » . بعثت ببطاقتي الى قائدها كابتن ويلسون Captain Wilson ، وفضلت أن يكون طلبي هو أن أركب السفينة الى الاسكندرية ، وقد أخبرني على الفور أنه لو صرح لي الأميرال بذلك فسيستجيب لرغباتي عن طيب خاطر ، وبسرعة نقلني قارب « القطة السوداء » الى خليج الترسانة حيث مكتب الأميرال جرام . شرحت مهمتي لواحد من أتباعه الذي عاد الى بعد بضع دقائق ومعه التصريح الذي كنت أتمناه كثيرا ، فبعثت في طلب حقائبي وعدت الى « هيكللا » التي أبحرت بعد نصف ساعة من وصولي اليها . وطوال الرحلة كنت ضيفا على « ميس » الضباط . وكنت سعيدا أن أتاحت لي هذه الفرصة التعرف على شفتهم وكرم ضيافتهم . « هيكللا » سفينة مخزن توربيدو حملتها ٢٠٠٠ طن ، وقد سبق أن أدت أعمالا مجيدة في صور متعددة طوال الأيام الأولى من الحملة البريطانية على مصر ، والتي

يبدو أنها لم تكن معروفة جيدا أو لم يدرك أمرها ، لأنها ظلت لأسباب واضحة ، بعيدة عن الأضواء . لقد كان لخدمات كابتن واطسن Captain Watson المتواضعة ما ساعد في عبور القناة عند الاسكندرية ، فضلا عن مساعدته في تنظيم وتشغيل القطار المدرع . أما القائد نوركوك Norcock فقد خاطر بنفسه مخاطرة بالغة باشتراكه في تدمير مخازن الذخيرة في الطوابي ، واعتقده أمرا جديرا بالتسجيل . وطوال سفرنا ، أمضيت ساعات طويلة في مختبر السفينة أتطلع الى نماذج كل آلة معروفة في قتال الطوربيد ، وقد كان بلا شك احساسا غريبا لأصور أننا كنا في سفرنا نساء في أمان فوق شحنة قابلة للاشتعال كافية لتدمير مدينة أو لتفتيتها ، في لحظة الى ذرات لا يمكن التعرف عليها .

وفي ١٨ أكتوبر ، عند بزوغ الصباح دخلنا الميناء الخارجى للاسكندرية ، وفيما حولنا من مشهد هادئ وآمن ، كان من الصعب التعرف على الأحداث التي كان قد مضى عليها أكثر من ثلاثة أشهر . لقد كنا ، مع ذلك ، أمام طوابي دمرت وفنارات لم ترمم وواجهة قصر رأس التين المحطمة . وقبل الساعة الثامنة ، رست السفينة عند مرفأ بالقرب من الجمر ، فاستأجرت عربة حملتني بسرعة متجهة الى حيث محطة مصر .

أرض الاسكندرية ، وفيها قابلت صديقي القديم ريتشموند ايت
Richard Eve من آلدرشوت Aldershot ، ورتبت معه أن يرافقتني
الى القاهرة كحام في القضية . لا شك أنك وجدت في خدمة السكة
الحديد قدرا كبيرا من الارتباك ، ولكنها كانت أسوأ من ذلك عند وصولنا .
وفي الصباح التالي مررنا كلانا على سير ادوارد ماليث Sir Edward
Malet (١) ، فأخبرنا بأنه بعث بالفعل بتلغراف من عرابي من
خلال وزارة الخارجية البريطانية موجه الى « مستر بلنت » و « سير
و . جريجوري Sir W. Gregory » . (٢) طالبا مساعدة محام انجليزي (٣)
وإضاف أنه يعتقد أن الحكومة البريطانية لم يكن لديها اعتراض على أن
نتولى الدفاع عنه بما لنا من كفاءة وأحالة ، إذا أردنا من هذا من المعلومات ،
الى « سير تشارلز ويلسون Sir Charles Wilson » ، الذي عين مؤخرا
مندوبا بريطانيا بمهام التحقيق الابتدائي ، وقال ان اجراءات المحاكمة
قد اتخذت وفقا للقانون العسكري الفرنسي ، ثم توجهنا بعد ذلك الى
« سير تشارلز ويلسون » الذي أخبرنا أن « عرابي » ، من يومين سابقين ،
تسليمته الحكومة المصرية واحتجزته (وأن « عرابي » كان هادئ النفس
لعله بأن من يتولى حراسته خارج السجن جاورش انجليزي) ، وقال
أنه نتيجة لذلك يجب علينا أن نسعى للحصول على تصريح من « رياض
باشا » ناظر الداخلية ، لزيارة « عرابي » . ولما رجعنا مرة أخرى الى
الوكالة البريطانية حصلنا على خطاب رسمي للتعريف بنا وبمهمتنا ، من
« سير ادوارد ماليث » الى تلك الشخصية المسئولة .

واستطرد مستر « فاير » قائلا : « وفي اليوم التالي توجهنا الى
« رياض باشا » في صحبة « الكولونيل ستيوارت Colonel Stewart » (٤)

(١) شخصية متعددة المواهب ، نشأ نشأة سياسية اذ كان أبوه سياسيا هو الآخر ،
وتقلد مناصب متعددة ، وكان من أنصار القضية الوطنية المصرية وقت أن كان قنصلا عاما
لبريطانيا في مصر (واتخذ له مترجما مستر آردن بيان Mr. Arden Beaman الذي
كان دارسا للغة العربية) وبعد انتهاء عمله بمصر رقى سفيرا لبلدة في برلين (إلحق)
(٢) كان سير ويليام جريجوري معاصرا لجلادستون ، وكان معروف بـ « ليبرالينه » ،
كان من المدافعين هو وصديقه الحميم بلنت ، عن القضية المصرية . كُتب عددا من المقالات
القوية المؤيدة لعرابي في جريدة التايمز ، وزار عرابي ، وتصادفت أن كانت زيارته له
في الوقت الذي زاره بلنت فيه ، وقد قامت صداقة بين جريجوري وعرابي ، وكان اذا
ما عن لعرابي أن يطلع الشعب البريطاني على شيء أن يبعث بما يريد بشره الى جريجوري
ويلنت (وكان كلاهما يحرران مقالات بجريدة التايمز) لينشر له .

(٣) كاد مصير هذه الرسالة أن يكون لسوء الطالع كمصير الخطاب الذي بعث به بلنت
الى عرابي . لقد أرسلت هذه الرسالة الى جريجوري في الوقت الذي كان فيه مسافرا
بالخارج ، ولم تصله الا بعد ذلك بوقت طويل .

(٤) كان الكولونيل ستيوارت ضابطا اسكتلنديا في الكتيبة ١١ فرسان المشهود لهم =

بناءً على طلب سير تشارلز ويلسنون ، الذى قدمنا الى الناظر المصرى .
 عرفت رياض بالفرنسية الغرض من زيارتنا ، وباختصار ، رفض أن
 يسمح لنا بزيارة الأسير لأنه مخالف للقانون المصرى ، ولكن وعده بأنه
 سيكتب للسير ادوارد ماليت عن الموضوع ، وبعد ذلك بعث اليك « مستر
 ايف » بتأخرف قال فيه : « رفض التصريح بمقابلة الأسير ، اذا أمكن
 الحصول عليه سيرسل لك مقدم الأتعاب فوراً » ، وفى يوم ٩ أكتوبر ،
 توجهنا مرة أخرى الى « سير ادوارد ماليت » فقال انه لم يتلق رداً من
 رياض ، ولكنه اعترف بأن تسليم عرابى كان مشروطاً بأن يسمح له بأن
 يتولى محام الدفاع عنه ، وأضاف ان الحكومة الانجليزية لن تتدخل فى
 الحكم اذا تبين أنه مذنب فى مذبحه ١١ يونيو وحريق ونهب الاسكندرية
 أو سوء استخدام الراية البيضاء . بعد ذلك كتب « مستر ايف » مذكرة
 قدمناها فى وقتها المناسب لـ « رياض باشا » : وكان ذلك بعد ظهر
 ذلك اليوم .

واحساساً من « ايف » بخطورة كونه محامياً عن « عرابى » ، قدس
 فى يد الوثيقة التالية التى ربما كان مظهرها جديداً فى إجراءات الدفاع
 المصرية ، ولا بد أنها أذهلت بكل تأكيد متسلمها الى حله كبير :

سعادة رياض باشا ناظر الداخلية لدى صاحب السمو الخديو

انا ، ريتشارد ايف من آلدرشوت ، بانجلترا ، بصفتى محامياً ، وبالتياية عن إجماع
 عرابى باشا ، اعلنكم فيما يلى أنه من الضروري ، بصفتى المحامى عنه ، أن يسمح لى بلقاء
 المدعى عرابى باشا ، وانا لذلك اطلب اعطائى التصريح المطلوب فى الحال حتى يمكننى أن
 اتلقى منه تعليمات عن دفع مقدم الأتعاب ولأعطى تعليمات للمحامى الذى سيتولى الدفاع
 عنه فى اتهامات معينة موجهة ضده ، وتحت أية اتهامات . اجتهد الآن المدعى عرابى باشا ،
 وانى اطلب اكثر من هذا انه فور تسليمكم لهذا الاعلان أن عليكم أن تبلغوا المدعى عرابى
 باشا اننى والتبيل مارك نابير المحترم ، المحامين الانجليزيين عن المدعى عرابى باشا ،
 متواجدان الآن بالقاهرة فى انتظار لقاء عرابى باشا لتلقى تعليماته عن الدفاع عنه عند
 المحاكمة .

بالتفانى فى الخدمة العسكرية . خدم فى الحكومة المصرية أثناء الاحتلال ، وعييل بصر
 فترة ، فلما كلفت الحكومة المصرية غوردون باشا الحاكم العام للسودان بتشكيل جيش لمحاربة
 المهدي ، كان استيوارت من بين القادة الذين أسند اليهم العمل ، فقاد الفرقة الثانية
 بالجيش ، وكان سبب اختيار غوردون له الى جانب كفاءته العسكرية أنه كان على علم
 بالسياسات الاسلامية وحارب استيوارت باستماتة ولكنه أنه بوقت ، وبالتقييد فى جيوب
 سترته وجد بها مفكرة ودليل شفرة تراسل وبينان بالدخيرة المتبقية بالخرطوم ونسخ
 التلغرافات المتبادلة بين غوردون والقاهرة وخطابات غوردون المستمرة التى تطلب النجدة ،
 وبينان بعدد الجنود الثقيلة فى المعسكر وأسلحتهم ، كما وجد من أوراقه على طلبات
 استغاثة موجهة الى كل من البابا فى روما وسلطان تركيا - (المحقق) .

٢ - أنه بالرغم من حقيقة أنني أخبرت رياض باشا ، أنا شخصيا ، يوم ٧ أكتوبر ،
بأننى موجود بالقاهرة كمحام للدفاع عن عرابى باشا ، وأننى أطلب أن يسمح لى فورا
بلقاء السجين ، رفض اعطائى مثل هذا التصريح ، وأصر منذ ذلك التاريخ على مثل هذا
الرفض .

٣ - أنه ، بالإشارة الى ما نشرته جريدة بول مول Pall Mall Gazette (١) فى
عندها الصادر يوم ٣ أكتوبر من أن لورد جرانفيل Lord Granville (٢) كتب يقول :
« يجب أن يقدم كل تيسير معقول للسجناء فى مصر ولأصدقائهم للوصول الى تشاور مهم
فيما يتصل بالدفاع عنهم » ، فان مثل هذا التيسير لم يقدم ، بل على العكس من ذلك ،
وضع كل عائق فى طريق مستشار ومحامى السجناء .

٤ - لم ترد موافقة على الاعلان الرسمي المقدم لرياض باشا (والذي ارفق صورته
منه) ، وأنه على قدر ما أعلمه لم تحط الحكومة المصرية بالسجين علما بحقيقة أنني على
استعداد وراغب فى مساعدته بالدفاع عنه .

اننى يا سيدى ، خادمكم المطيع

مارك نابير

المحام عن عرابى باشا

الى سير ادوارد ماليت ، حامل وسام الحمام Knight Commander of the Bath الخ . . . الخ

« وفى اليوم التالى زاد قلقنا بما سيجنيه من اشاعات سرت فى
القاهرة عن أن « عرابى » أسيئت معاملته فى السجن . وفى ١٤ أكتوبر

(١) صدرت جريدة بول مول فى لندن فى القرن ١٩ ، وكان رئيس تحريرها ويليام
توماس ستيد (William Thomas Stead) ، وكان يعد من أنشط الصحفيين السياسيين فى
عصره وكان له من البراعة الصحفية ما مكنه منسبق الصحفي فى نشر أخبار الوزارة البريطانية
المحاطة بالسرية البالغة ، وكان أول من أدخل نظام اللقاءات الصحفية Journalistic
Interviews فى الصحافة البريطانية ، وكان أول لقاء صحفى قام به هو الذى
عقد مع غوردون Gordon قبل توليه منصب الحاكم العام للسودان خلفا لـ هيكس
باشا Hicks Pacha الذى فشل فى اخماد ثورة المهدي . (المحقق)

(٢) كاد لورد جرانفيل وزيرا للخارجية البريطانية فى وزارة جلاستون Gladstone
وكان متزعا للمجموعة الامبريالية Imperialistic Group فى مجلس الوزراء . تميرت فترة
توليه لوزارة الخارجية البريطانية بالتباطؤ فى الاجراءات ، اذ كان ينتمى الى المدرسة
القديمة التى تقول « لا تؤد عمل اليوم اذا كان فى مقدورك أن تؤجله الى الغد » ، بل
كان هو نفسه ينادى بتبطيء الأمور dawdling matters ، على اعتبار أنك اذا تركتها
فستحل نفسها بنفسها ، وهى سياسة جعلت انجلترا فى عهده أضحوكة أوروبا .
(المحقق)

زارني «سير تشارلز ويلسون Sir Charles Wilson» (١) وجاءنا بخبر طيب هو أنه سيسمح للمحامين الانجليز بالدفاع عن «عرايى» ، وأنه سيكون فى الامكان زيارة «عرايى» ، وبناء على ذلك كتبنا مرة أخرى طلبا رسميا للسماح لنا بزيارته ، وقدمنا الطلب الى رياض باشا . وفى المساء ، جاء «سير تشارلز ويلسون» ليزورنا مرة أخرى ، وان كان قد جاء ليقول ان الحكومة الخديوية تأسف على ما صرحت به وأن التصريح بمقابلة عرايى رفض مرة أخرى . وقد علمنا أن مجلس النظار ، اجتمع فى اليوم التالى «بخصوصنا» لعدة ساعات ، وأنه فضل الاستقالة عن أن يساعدنا . وفى يأس ، استنجدنا مرة أخرى بـ «سير ادوارد ماليت» الذى أكد لنا أن لن تكون هناك محاكمة حتى نرى المتهم ، وأن هذا التأخير الطفيف سيمتيع لنا الفرصة لنعد دفاعها عنه . هذا هو الموقف الآن .

وعلى الفور ، أعربت لزميلي المحامين «ناير» و «ايف» عن أقصى تأييدى القلبي للعمل الطيب الذى قاما به . لقد أزعجت جراتهما الحكومة المصرية بكل تأكيد ، وأثارت نظرات العداء لهما فى أمين الأوربيين المستوطنين والموالين المحليين لـ «سير صمويل بيكر» و «سير جوليان جولدسميد Sir Julian Goldsmid» (٢) ، وكان تأثير جراتهما ملموسا فى القاهرة . لقد كانا صريحين تماما فى موقفهما من القضية المصرية الوطنية ، ولو أنه ليس من الأسلوب المذهب فى مصر أن تدعو الأشياء بأسمائها الصحيحة (٣) . لقد اتفقنا على ألا نتأخر عن الاتصال الدائم

(١) بدأ «سير تشارلز ويلسون» بالسلك الدبلوماسى البريطانى ، فاشتغل قنصلا فى آسيا الصغرى ، ثم عمل بعد ذلك فى القاهرة والخرطوم ، ومن الصدق العجيبة حقا أن يزامله فى الأماكن التى خدم فيها : الكولونيل ستيوارت ، وكان كلاهما فى الحملة التى رأسها غوردون لمحاربة المهدي فى السودان . ومن المعروف عن سير تشارلز ويلسون أنه كان واسع المعرفة ، وقد مكن له ذلك عمله ضابطا فى المخابرات ، وكانت التقارير الرسمية Blue Booke حافلة بخطابات متبادلة بينه فى مصر وبين المسئولين فى لندن ، ولكنه كان منصفاً فى هذه التقارير ومؤيدا للوطنيين المصريين ومظهرا لموقف الخديو توفيق على واقعته تماما . (المحقق)

(٢) كان سير جوليان جولدسميد من القادة العسكريين الذين يبعث بهم دائما فى المهام المستعصية ، وكان «ولسلى» فى حربه لعرايى قد عينه رئيسا للمخابرات ، وقد تركزت خطته هو وولسلى ، فى كسب البدو الى جانبهم قبل بدء «معركة القصاصين» ، ونجحوا فى ذلك ، فكانوا يشترون ضمير البدو مقابل جنيتهم أو ثلاثة جنيتهم . (المحقق)

(٣) المثل الانجليزى المقابل لهذه العبارة هو :
It is not fashionable to call a spade a spade.
(المحقق)

يتوقف عن الحديث عن الضرورة المطلقة في علم التسامح في محاكمة
أسرانا في الحرب ، ومع « عرابي » بصورة أخص . لست متأكدا تماما
إذا كانت نصيحته هذه بالنسبة لهذا الموضوع غير مغرضة تماما ، ولكن
ما أثلج صدري أن أقول أنه راهن « مستر ايف » على جنيه انجليزي
ذهب أنه (أى ايف) لن يقابل موكله - وخسر الضابط الرهان .

كنت سعيدا بمعرفتي « بمستر كامرون » مندوب جريدة « ستاندرد»
الذى أراد أن يرى الشئون المصرية من خلال وجهة النظر الانجليزية
البحثية ، وكاد يكون أول شخص منشق عن الصيحة العامة التي طالبت
بسفك الدماء والانتقام . لقد غادر القاهرة في اليوم التالي متجها الى
أوربا . ومنذ ذلك الوقت ذاع صيته في مدغشقر Madagascar (١)
والصين . اننى لا أنسى أن « مستر كامرون » هو الذى تحدث الى بكلمات
التشجيع الوحيدة التي سمعتها ذلك المساء بين مختلف علية السياسة المصريين
haute politique Egyptienne في شرفة فندق شبرد المحترمة .

(١) هي حاليا جزء من جمهورية ملجاسى Malagasy Republic التي تضم مدغشقر
وصغرى جزر المحيط الهندي . (المحقق)

بما يؤدي الى اثبات أو دحض الاتهامات المقامة » . وبعد مناقشة تلت ذلك عن تفاصيل ترتيباتنا المقترحة انصرف « مسيو بوريللي » واعدنا بالعودة بعد ذلك في المساء بعد مقابلته للنظار المصريين .

فلما عدت الى الشرفة قلت لمراسلي الصحف الذين كانوا جلوسا هناك ، في صبر ، بحثا عن آخر الأنباء . قلت لهم : « أيها السادة ، عندي خبر لكم : » ان الحكم الذي أعلن هنا الليلة الماضية قد نقض - مستر نابير وأنا سيصرح لنا بالدفاع عن عرابي » . وعلى الفور ، كان هناك تدفق على مكتب التلغراف . بل ان دكتور راسل امتطى في نشاط حمارا حصاويا ، وأسرع في اتجاه مكتب التلغراف وبسرعة كان في أثره مندوب متحمس من جريدة الأخبار المركزية Central News » . ولا داعي لأن أقول ان المحامين « نابير » و « ايف » عند وصولهما شاركانني غبطة ورضاي عن أول ثمرات أعمالنا المشتركة .

لم يعد « مسيو بوريللي » ولكني تلقيت منه خطابا ينم عن أدبه ، وكان فاتحة تراسل لطيف من جانبه ، يجب أن أقر بأنه يمكن اتخاذه نموذجا لاتصال بليغ فيما بيننا . ونظرا لما وصلنا اليه من اتفاق ، ارتفعت مكانتي تدريجيا من « مسيو » الى « عزيزي المسيو » ومن « عزيزي المسيو » الى « عزيزي المسيو والزميل » ، ومن « عزيزي المسيو والزميل » الى « صديقي العزيز » ، وأخيرا من « صديقي العزيز الى « صديقي وزميلي العزيز جدا » ، وعندما لم يعد بيننا اتفاق سقطت مكانتي نسبيا بقدر مدى تباعدنا حتى وصلت الى الدرجة التي يقدم فيها مسيو بوريللي تحياته . . الخ . M. Borelli présente ses compliments, Etc. ، وفيما يلي أول خطاب أرسله الى ، وان كان قد فقد شذاه في الترجمة : -

القاهرة في ١٩ أكتوبر

سيدي العزيز

انني ارجو أن تتقبل عذري ، اذ بالرغم من محاولتي الوفاء بوعدي ، لم أتمكن من الحضور الليلة الماضية . انني اعتقد أن كل الصعوبات ستتغلب عليها اليسوم ، واذا ما تحقق هذا ستراني عند بابك . انني مقتنع بأن قيام اتفاق بيننا سيكون أمرا أكثر يسرا مما لو كان مع دبلوماسيين . ارجو أن تقنع مستر نابير لقبول اعتذاراتي .

المخلص لك

١٠ بوريللي

وفى الوقت نفسه تلقيت مذكرة « سير ادوارد ماليت » هذا نصها :

القاهرة فى ١٩ اكتوبر ١٨٨٢

عزيزى مستر برودلى

ان خطوة هامة فى سبيل السير قد امكن القيام بها منذ ان سعدت برؤياكم بالأمس . لقد طلبت من مسيو بوريللى ان يمر عليك ويحدثك عن اجراءات المحكمة ، اذ هو المستشار القانونى لنظارة الداخلية ، كما انه اشترك فى التحقيقات الابتدائية .

المخلص لك

ادوارد ب. ماليت

لقد أدركت الآن حقيقة أننا مقبلون بالفعل على دفاع خطير للقضية ، وأدركت أن مهمتنا لا بد وأن ستكون مهمة طويلة ومكلفة جدا . لقد اقتنعت أننا يجب أن نستأجر بيتا ، اذ لا يمكن لمواطن أن يحتمل سماع النقد اللاذع لرواد شرفة شبرد ، فضلا عن أنه سيكون علينا أن نعين جيشا صغيرا من الكتبة والمترجمين ليساعدونا فى تعاملنا مع المتهمين وفى نسخ السجل الضخم أو الملف الضخم dossier الذى علمنا أنه قد انشئ . بفضل مهارة « بوريللى بك » ومساعديه . وبناء على هذا ، بعثت ببرقية الى مستر بلنت ، لأحيطه علما ، فرد على بالبرقية التالية التى تحمل طابعه المميز : -

برودلى

فندق شبرد بالقاهرة

حكومة الوطن [يقصد الحكومة البريطانية] تعهدت بالتصريح لكم بالمرافعة . لا تقبل أية مساومة .

المصاريف حسب حسن تقديركم . . بلنت

تناولنا الغداء معا بروح معنوية عالية فى مقهى ممتاز فى حدائق الأزبكية ، وبعد ذلك ، فى المساء تعرفت ببعض من أشهر خصومنا : كان من الصعب أن تعرف فى شخصية مشهورة وديدة ومحبوبة مثل شخصية « روجرزبك » (وكان يوما ما قنصل بريطانيا فى القاهرة) جلاد ل « عرابى » على صفحات جريدة « الجازيت المصرية » . وقابلنا أيضا مستر جودول Mr. Goodall الذى حاجج أكثر الاجراءات تطرفا

في غاية من اللطف والأدب ، والذي سمعت عنه عند تعارفنا فقط ، أنه أدى خدمة جليلة أثناء تفشى وباء الكوليرا ، ثم قابلنا في النهاية مستر فيليب Mr. Philip ، رئيس تحرير وصاحب جريدة الجازيت المصرية the Egyptian Gazette الذي حاربنا بجرأة حتى آخر لحظة ، وأعلن في ثبات أن العفوية أكثر أهمية من المحاكمة ، وما لبث أن صار المفسر الملهم للعقيدة السياسية المتبثقة من شرفة شبرد . والآن وقد انتهى القتال ، فأنا أول شخص يتمنى للجريدة الرائدة ولـ « مستر فيليب » كل نجاح يتمناه . لقد امتناه حديثنا الى منتصف الليل ، ومع ذلك لم يبد أن أى واحد منا يميل الى التنازل عن رأيه .

وفي الصباح التالي ، مررت مرة أخرى بـ « سير ادوارد ماليت » ، ويبدو أنه قد تعب بحق من المهمة كلها ، وقال ان موقفه هو نفسه في الموضوع قد أسئ فهمه تماما . وذكر لنا « سير ادوارد ماليت » أن بعض السيدات الانجليزيات حسنات النية بعثن اليه بخطابات غفلا من التوقيع يبصرنه الى مخاطر جريمة سفك دم « عرابي » . وبناء على اقتراحه ، توجهنا جميعا لمقابلة « شريف باشا » ناظر النظار المصري . ولما كانت دواوين الحكومة مغلقة نظرا لأن اليوم كان يوم جمعة ، توجهنا الى قصر شريف الخاص . كان شريف يقطن في قصر منيف ، كان يوما ما ملكا لـ « اسماعيل صديق المفتش » (١) . وكان لبياس صخور القصر

(١) يقتزن اسم « اسماعيل صديق باشا » الملقب بـ « المفتش » بالضائقة المالية التي حلت بمصر في عهد الخديو اسماعيل ، فعجزت الخزانة المصرية عن الوفاء باقساط ديونها مما اضطر الخديو الى اصدار ثلاثة مراسيم متتالية في شهر واحد بطمأنه الدائنين هي : مرسوم ٢ مايو ١٨٧٦ بإنشاء صندوق الدين ثم مرسوم ٧ مايو ١٨٧٦ بتوحيد الديون ثم مرسوم ١١ مايو ١٨٧٦ بإنشاء مجلس أعلى مختلط مؤلف من عشرة أعضاء : خمسة منهم أجانب وخمسة وطنيون من بينهم اسماعيل صديق باشا ناظر المالية المصرية . ولكن الانجليز والفرنسيين لم يقتنعوا بكل هذه المراسيم وطالبوا بقيام رقابة ثنائية ، فأصدر الخديو اسماعيل مرسوما في ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ بقيامها ومثل انجلترا فيها مستر جوشينين Mr. Goschen ومثل فرنسا مسيو جوبير Mr. Joubert . وأثناء التفاوض بخصوص الرقابة الثنائية قتل اسماعيل صديق المفتش في ظروف غامضة ، وإن كان من المؤكد أن مقتله يرجع الى مطالبة « جوشين » باقصاده عن نظارة المالية كشرط أساسي لاصلاحها ، فوافق الخديو على ذلك مضطرا وعين بدلا منه الأمير حسين كامل (السلطان حسين) ، ثم عاد « جوشين » فهدد بمقاضاة اسماعيل صديق باشا أمام المحاكم المختلطة عن العجز الواضح في الميزانية متهما له بتبديد هذا العجز اضرارا بحقوق حملة أسهم قناة السويس ، فأضطرب الخديو من هذا التهديد ، كما أدرك من حديثه مع وزير ماليته أنه لن يبقى على ولائه لمولاه دفاعا عن نفسه وسيشارك الخديو معه في تبديد أموال الدولة لو قدم للمحاكمة . ففكر الخديو في التخلص منه بتدبير مشروع محاكمته بتهمة التآمر على حياة الخديو وإثارة

ونصاعة بياض مرمره ما يبعثان على انبهار البصر تماما . استقبلنا شريف فى غرفة مؤثثة بأرائك وستائر على الطراز الشرقى . ومما هو جدير بالذكر أن هناك تشابها عجيبا بين القصور العريقة فى القدم ذات الزخارف العجيبة القديمة فى تونس وبين قصور القاهرة الأكثر أناقة ، فعلى الأخيرة يلاحظ أن زخارف « الدوم gingerbread » محتفظة بطلائها الذهبى ، فى حين أنه فى الحالة الأولى محى طلاؤها الذهبى من مدة . استقبلنا شريف باشا فى احترام بالغ واستمع فى صبر الى اعتراضاتى التى أعدت توكيدها ، وقدم لى القهوة والسجائر ووعد بتيسير الأمور ما أمكنه . لقد زاره « سير ادوارد ماليت » بعد ذلك على انفراد ، ولكنى كنت أعلم أنه كان مؤيدا ، فى حماس لطلى الذى ألححت فى تحقيقه وهو مقابلة موكلينا على الفور . « وشريف باشا » قد يسهل على المرء أن يخطئه فى شخص أوربى ، فهو يدخل السيجار بدلا من السجائر ويلعب البلياردو بصورة تبعث على الدهشة ، ويلبس خاتما من الياقوت الأزرق ذا جمال غير عادى ، وهو يدعى أنه بالفعل رئيس الحزب الوطنى المصرى . وفى أول لقاء لنا تجنبت كل مناقشة ، محتفظا فى ثبات بالغرض من زيارتى - تسوية لموضوع الدفاع ، والتصريح بزيارة عرابى فى زنزانته ، وفى النهاية وعد شريف باشا بالاتصال بـ « بوريللى بك » .

وقرب الظهر ، صحبنى مستر بيل Mr. Bell ، مشكورا ، لزيارة أخطر خصم لنا ، « رياض باشا » ناظر الداخلية ، الذى كان لا يزال جريح الأحاسيس من تأثير بلاغات واحتجاجات « مستر ايف » . كان رياض يقطن فى منزل متواضع كاد يكون فى ظل القلعة وفى سرية مدينة القاهرة . استقبلنى فى أدب ، ولكنه كان يتحدث الى بأسلوب تشنجى غريب . لم يكن فى استطاعتي أن أعرف ما اذا كان ذلك نتيجة مزاج صفراوى أم نتيجة أزمات الربو التى تنتابه . لقد حاول بلا جدوى أن يتحدث عن تونس بدلا من حديثه عن مصر ، ويبدو أنه قد أعجبه كثيرا بىانى عن الأسلوب الذى اتبعه الفرنسيون فى محاكمتهم فى تونس ،

= الخواطر الدينية ضد الرقابة الثنائية ، وتخلص منه الحديو قبل أن تبدأ محاكمته ، وتنفيدا لذلك الغرض استدعاه الى سراى عابدين وتلطف معه فى الحديث ثم اصطحبه الى سراى الجزيرة ، وما كادت تصل العربية باب القصر حتى نزل الحديو وأصدر أمره بالقبض على « اسماعيل صديق » واعتقاله ثم عهد الى أحد أتباعه فقتله وألقيت جثته فى النيل ، واستمرت المحاكمة التصويرية ماضية فى سبيلها وحكم المجلس المخصوص بنفيه الى اعتقاله وسجنه بها ! (انظر التفاصيل الكاملة : فى كتاب : عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ج ٢ ، ط ١ ص ٧٤) . (المحقق)

وأخيرا ، قال على مضض شديد أنه لن يعارض خططنا بعد اليوم ، وأضاف قائلا أنه « يأمل أن يأتي الله بالخير منها ، وإن كان هو يشك في ذلك كثيرا » . وعندما رأيت رياض في المرة الثانية لم يكن وقتها في الحكم ، وكان « عرابي » في طريقه الى سيلان .

بعد الظهر ، تلقيت رسالة قصيرة من « مسيو بوريللي » يطلب من « مستر نابير » ومنى أنا نفسى ، أن نقوم بزيارته في منزله لنتناقش أكثر عن قواعد الاجراءات المقترحة . كان « بوريللي » يقطن في فيلا تكاد تكون مواجهة للوكالة البريطانية ، مؤتة بأزهى أسلوب للبذخ الشرقى ، وبمساعدة القهوة والسجائر دخلنا في مناقشة جافة بعض الشيء بالنسبة للتفاصيل التي انتهت الى الرجوع مرة أخرى الى « شريف باشا » . كان الموضوع له نتائج بالغة الحيوية ، نظرا لأن بعض التغييرات التي اقترحت في اجتماعنا ستحول بيننا وبين الوصول الى الوضع الأكيد الذي كنت أأمل أن نصل اليه نتيجة ترتيب صارم لاجراءاتنا الخاصة بالمحاكمة ، مستقبلا .

كان « مسيو بوريللي » كريما جدا ، اذ أرسل لنا في وقت متأخر من المساء رسالة قصيرة فيها أننا يجب أن نلتقى لنتحدث عن الاتهامات الموجهة لموكلنا . وهذه الوثيقة تعد على جانب كبير جدا من الأهمية ، اذ ذكرت ما يلي : -

أحمد عرابي وغيره متهمون بالآتى :

أولا : أنه رفع الراية البيضاء ، فى الاسكندرية صباح يوم ١٢ يوليو ، انتهاكا لقوانين الحرب وللقانون الدولى jus gentium وفى الوقت نفسه لسحبه لقواته ، تسببه فى حرق ونهب المدينة المذكورة .

ثانيا : لتحريضه المصريين لرفع السلاح ضد الخديو (وهى جريمة تنطبق عليها المادة (٥) من قانون العقوبات العسكرية والمادة (٥٥) من قانون الجنائيات العثمانى) .

ثالثا : لاستمراره فى الحرب بالرغم من علمه بنبأ السلام (وهى جريمة تنطبق عليها المادة ١١١ من قانون الجنائيات العثمانى) .

رابعا : لتحريضه على حرب أهلية ، ونقله الدمار والمذابح والنهب الى الديار المصرية (وهى جريمة تنطبق عليها المادتان ٥٦ و٥٧ من قانون الجنائيات العثمانى) .

وفى المساء ، تعرفنا على « مستر شنتزler Mr. Schnitzler » وكيل

شركة تلغرافات رويتر Reuter ، فى النادى الخديوى Khedivial Club (١)،
المنتدى المفضل لعلية المسئولين المصريين • وكان أول من ألتقينا به فى
النادى « سير تشارلز ديلسون » الذى كان من المفروض أن يقوم بدور
بالغ الأهمية فى المحاكمة المنتظرة •

كان يومان قد مرا الآن منذ وصولى لقد بدأ لقائنا ب « عرابى » .
فى صورة أخرى ، بعيد المثال كما كان قبل ذلك ، لقد ركزت كل جهودى
فى محاولة لاحتراز أول نجاح فى موضوع اجراءات المحاكمة ، ولكن
يبدو أننا لن نحقق الهدف على الاطلاق •

وفى وقت مبكر جدا صباح اليوم التالى (٢١ أكتوبر) أحضر لى
ساعى « بوريللى بك » رسالة مع وثيقة منسوخة نسخا أنيقا ومطرزة
بعناية بحريز أخضر • بدأت بقراءة الرسالة ، وفيما يلى نصها :

القاهرة فى ٢٠ أكتوبر ١٨٨٢

عزيزى مستر برودلى ،

فيما يلى مسودة للاجراءات التى انوى التقدم بها لأخذ الموافقة عليها من حكومة صاحب
السمو (الخديو) ، لذلك أرجوك أن تخبرنى اذا كانت متوائمة مع اتفاقنا اللفظى • أما عن
التأخير لعشرة أيام ، فلا تنزعج ، وأرجوك أن تتقبل الوضع : فى المقام الأول سيجدونه
مدة طويلة جدا من جانبى ، وفى المقام الثانى ، أنا متأكد أن هذا كاف ؛ ومحققة ،
فان البيان l'Instruction ضد عرابى لم يتم بعد ، وسأؤجل استكمالها لبضعة أيام
لأتمكن من أن تلحق بنا • أنا منتظر منك كلمة رد على الفور ، ولو سمحت أبعث بها
الى ،

المخلص لك

• بوريللى •

ألقيت نظرة على المسودة المنسوخة بعناية والمطرزة بالحريز • كانت
تحتوى نفس النصوص التى سبق أن اعترضت عليها والتى ستؤكد
ادانة المعتقلين ، قلت لرسول « مسيو بوريللى » أن « مستر نابير » وأنا
سنلحق به بعد بضع دقائق • وعندما وصلنا اليه ، حاربنا مرة أخرى ،
على مدى ساعتين من الجهد والتعب ، معركة اجراءات المحاكمة • ومرة
أخرى مرت ب « سير ادوارد ماليت » الذى أخذ على عاتقه أن يوضح

(١) صار اسمه اليوم « النادى الدبلوماسى المصرى » ، ويقع بشارع قصر النيل
بالقاهرة فى مواجهة شركة الخطوط الكويتية • (المحقق)

ل « شريف باشا » من جديد ، عدالة اعتراضى على رأى « مسيو بوريللى » ، وهكذا ضاع يوم ثالث • وفى صباح اليوم التالى قدم الى مرة أخرى مبعوث « مسيو بوريللى » وفى هذه المرة أحضر لى رسالة أخرى ، وأنا لا يمكننى أن أمنع نفسى من اقتباس ما جاء بها :

القاهرة فى ٢١ أكتوبر ١٨٨٢

زميل وصديقى العزيز ،

اخيرا ، المسودة التى أعدناها هذا الصباح والتى وافقنا عليها جميعا اعتمدتها كاملة حكومة صاحب السمو الخديو ، اننى ارى اننا يمكننا ان نضم « عبد العال » و « على فهمى » و « الشيخ عبده » فى المجموعة الأولى ، ثم نحصل على موافقة باغاثة بئد جديد الى دستور المحاكمة وهو « من يعرفون الانجليزية والفرنسية » •

لعلك لاحظت اننى احترمت وعدى بالنسبة لما رتبناه هذا الصباح ، وأنا واثق انه طالما ان الأمر يهمك فستفعل نفس الشيء • يجب ان نلتقى الساعة الثامنة •

المخلص لك جدا

• ا بوريللى

وبعد ذلك بساعة فقط كان كل شيء قد انتهى ، وبوريللى كطرف أول و « مستر نابير » وأنا ، كطرف ثان ، وقعنا الاتفاق التالى كاجراء اتفقنا على الالتزام به : --

عما يجب اتباعه فى سير الدعاوى الجارى اقامتها بمعرفة القومسيون الخصوصى الذى تشكل فى مصر بموجب ديكريتنا خديوى رقم ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ •

البند الأول : عندما يتضح من التحقيق الابتدائى اتهام شخص أو جملة أشخاص فرييس القومسيون يبلغ ذلك حالا الى المتهمين ويعلنهم بأن قضيتهم صار احالتها على المجلس الحربى •

البند الثانى : كل من المتهمين له الحق أن يختار له محاميا يكون اما أبوكاتو وطنى ، واما أجنبى بحيث ان هذا الأبوكاتو يكون مقيم بمصر حين افتتاح المرافعة أمام المجلس الحربى وبالحالة هذه يقتضى بأن الحكومة المصرية تعتمد هذا الأبوكاتو المختار قبل ما أن يواجه المتهم وكل أبوكاتوا له الحق أن ينتخب له أبوكاتو ثان بصفة مساعد ولكن لا يسمح. لهذا المساعد أن يرفع صوته للتكلم •

العاشرة هرع اليها حسن ، وهو يلهث ، ودخل غرفتنا وهو يقول
إن « عرابي » وصحبته قد غادروا لتوهم سجن الدائرة السنية ، فذهب
« مستر ناير » (وكان متجهاً إلى السويس) لينبحث عن أمتهته . بينما
تحركت أنا بأسرع ما يمكنني إلى ثكنات قصر النيل .

كان المشهد عند « قصر النيل » مشيها يستجق التسجيل فعلاً . لقد
كان ضوء القمر ساطعاً ، وعندما دخلت الميدان الكبير ، رأيت انقطار قد
تحرك بالفعل . وكانت ثلاثة جوانب من المربع التي تشكل ثكنات الجنود ،
مبانٍ شاهقة بواجهات لها شرفات عتيقاتها لها أقواس ولكل طابق فوقه
الآخر ، أما الجانب الرابع من المربع فكان يضم الصالونات المذهبة لمبنى
قصر النيل ونظارة الجهادية المصرية ، وكان بالميدان بخط سكة حديد ينتصفه
ويقسمه إلى قسمين تماماً من اليمين إلى اليسار ، أكاف تماماً لمشتات تحيط
به وتوزع على كلا الجانبين لتترك مساحة للقطار ليمر . وليس هناك ما يمكن
أن يسمى رصيفاً ، وكانت قضبان التحويل على مستوى الرصيف ، وكانت
« بوابتي » الثكنات وعمارة القصر الأكثر بهاء تبدو واضحة كل الوضوح في
ضوء القمر الساطع الذي بدا كما لو كاد يعتم لهب المشاعل التي كان يحلها
بعض جنود الحرس المصري . وعلى الفور ، تجمعت أمام العربات مجموعة
صغيرة من النظارة الذين كان يهمهم الأمر ، من بينهم « سير تشسارلز
ويلسون » « ومستر ماكنزي ولاس » « وعثمان باشا غالب » . كان القطار
طويلاً جداً ، كاد يكون امتداده بطول الميدان من جانب إلى الجانب الآخر ،
وركب في المقدمة السيدات مع أطفالهن ، وأمتعتن ، وخلفهن الخدم والحفاظ
الثقيلة وحارس من فرقة بنادق الملك الملكية (الكتيبة ٦٠) تحت قيادة
الميجور فريزر Major Fraser ، وكان هناك أيضاً بعض الضباط
المصريين وقلّة من الجنود المصريين لمصاحبة المنفيين إلى السويس .
وخصصت عربة من عربات الدرجة الأولى ، في منتصف القطار ، لـ « عرابي »
وزملائه . وعندما وصلت قصر النيل ، كان الجميع قد أخذوا أماكنهم بالفعل .
« عرابي » « ومحمود فهمي » « وعبد العال » كانوا في ديوان « وطلبة » « وعلى
فهمي » « ومحمود سامي » « ويعقوب سامي » في ديوان آخر . لقد بدوا
في صورة أكثر بهجة عن أية مجموعة عادية من الانجليز في ظروف مماثلة
لظروفهم . تسلفت نوافذ القطار بصعوبة ، لأودعهم ، ومرة أخرى قال
« عرابي » بضع كلمات تنم عن امتنانه .

كان أمر بدء الرحيل على وشك أن يصدر عندما جاءنا « مستر بيمان »
بنياً أن الشرطي المكلف بحراسة منزل « عرابي » لم يكن ليسمح لزوجته
ابنته وأختها بمغادرته . ماذا سنفعل ؟ كان الوقت قد تأخر ، ونأظر محطة

دائما بين أصابعه وهو يتكلم . أما سحابة القلق التي بدت مخيمة عليه في بادئ الأمر ، فقد أخذت تنقشع عنه تدريجيا ، وقبل انتهاء اعتقاله كاد يكون مبتهجا .

وأثناء قراءته لخطاب مستر بلنت كان يبتسم من وقت لآخر ويرفع يده الى جبهته كعلامة للعرفان بالجميل وبالرضا . هذه العادة ، عادة عرابي عند متابعتها الرسالة دائما ، لاحت لي طريفة بصورة متفردة ، وأسلوبه المذهب بهذه الصورة الغريبة لم يعجز عن التأثير على من شاء واتصل به . وبعد انتهائه من قراءة الخطاب سألتني أن أسمح له باستخدام قلم الحبر والحبر اللذين أتينا بهما ، ليكتب قبل كل شيء بضعة أسطر يشكر فيها مستر بلنت وزوجته . ولما أتم هذا ، اقترح عليه مستر « ايف » على اعتبار أنها نصيحة ، أن يعطينا عرابي مستندا مكتوبا بخط يده ليتمسك بـ « مستر نابير » وبشخصي باعتبارنا محامين له ، وقد وافق على الطلب على الفور ، وختمه بخاتمه توكيدا للوثيقة ، وقام مستر فيليير Mr. Villier مراسل جريدة الجرافيك The Graphic بشفها بعد بذلك (١) ، ولكن المترجم المصرى وقع في بعض أخطاء لا أرى لها تبريرا ، الأمر الذى أثار تعجب وحيرة الرأى العام البريطانى بعد ثلاثة أسابيع من نشرها . وفيما يلي نص الوثيقة بخط عرابي وخاتمه :

« ديوان الحفائية المصرية فى ٢٢ أكتوبر ١٨٨٢ » .

« اننى عينت مستر ريتشارد ايف من الدرشت لندرا أفوكاتيا لى وأفوضه أيضا أن يأخذ للمحاماة عني « الخواجا برودلى من النكنزن (٢) وصاحب الشرف مارك نابير من انترنبل (٣) كلاهما متشرعان » .

(توقيع) أحمد عرابي

خاتم يحمل اسم أحمد عرابي

(١) كانت هذه هى الطريقة المتبعة فى القرن التاسع عشر ، لعدم توافر الامكانيات المتاحة اليوم من مختلف وسائل التصوير الضوئى . (المحقق)
 (٢) يقصد لنكونز ان Lincoln's Inn (المحقق)
 (٣) يقصد اينر تمبل Inner Temple (المحقق)

الفصل التاسع

استيفاء أوراق عرابي

فى اليوم التالى (الاثنين ٢٣ أكتوبر) كان احتفال المسلمين بعيد الأضحى المبارك . ارتدى كل فرد أحسن ملابسه وبدأ كل الباشوات متلألئين فى نياشينهم وأوسمتهم ، وكادت الشوارع حتى فى ساعة مبكرة من النهار يصعب اجتيازها نظرا لازدحامها بالعربات وبالمارة . لقد مرع كل القاهريين وزوجاتهم متدافعين لينعموا بشروق شمس العيد طبقا لعاداتهم المصرية ، « وتوفيق باشا » كاد يضمنه فى هذه المناسبة الرياء والتهانى ، وخارج قصره لم يكن هناك من أحد غير الحراس الانجليز الذين كانوا يسرون جيئة وذهابا ، وكان فى هذا المظهر ما يذكره بالثمن الذى أبقي به على العرش كما يذكره بالمشاعر الحقيقية لرعاياه الشائرين . ولم يمكن الاستقبال الخاص الذى عقده فى نفس اليوم تكريما لأقاربه من الرجال والنساء ، الذين كانوا يؤيدون القضية الوطنية ، لم يكن يقصد به أن ذهنه قد أحس (عن اقتناع) بنفس الرضا الذى أحسوا به . ولقد كان أمرا محيرا الى حد ما لجمهور الشعب the public levée عندما رأوا « ابراهيم أغا التتونجى » ، المتهم بسوء معاملته لـ « عرابي » فى السجن ، وهو يتقدم ليمرر الشبكس (١) ذات الفم العنبرى ، على المندوبين الأجانب .

وبأسرع ما يمكننا توجهنا ، « مستر نابير » وأنا ، الى السجن لنحبي عرابي تحيتنا الصباحية المعتادة ، وكنا قد أحضرنا له حافظة خطابات جلدية

(١) الشبكس chibuks كلمة معناها النارجيلة . (الحق)

ما اقترحت أن أقدمه ، ولذلك فأننى فكرت على الفور فى « مستر ديعيد سانتلانا Mr. David Santillana » أقدر الدارسين للعربية ، الفصحى ، والذى فقد وظيفته كأحد نظار الحكومة التونسية نتيجة معارضته البالغة الحماس ، للمراحل المبكرة للعسودان الفرنسى . وفى نفس ذلك المساء بعثت اليه تلغرافا على روما Rome ليحضر الى القاهرة دون ما إبطاء .

وكأذ يكون الاحتفال بعيد الأضحى يوما مليئا بالأحداث فى القاهرة . وقد ورد تلغراف ينبئ عن قيام ثورة خطيرة فى السودان برئاسة المهدي ، لقد التقيت بـ دكتور شفائينفرت Dr. Schweinfurth الرحالة المشهور ، الذى كانت وجهة نظره من الخبر السيئ الذى بلغنا مؤخرا ، أقيم وجهة نظر ، وساد شرفة فندق شبرد قلق بالغ . لقد كان من حسن الحظ تماما أنه لم يحدث خلط فى أذهان الناس (وفى هذه الحالة سيكون خلطا لا يفتقر) بين قضية « المهدي » وقضية « عرابى » كما حدث لـ « باى تونس » سىء الحظ الذى كان بطريقة أو بأخرى على اتصال تلغرافى بمذبحة فرقة فلاتير Flatters (١) ، كما أنها لم تكن لتشكل أية خطورة على « عرابى » فى هذا الظرف العصيب .

وفى وقت مبكر من الصباح التالى حضر الى غرفتى ابن عرابى بأشبال والشاب محمد بن أحمد . لقد ذكرنا لى أن زوجة عرابى قد وجدت الأوراق ، وبعض الجيران أخافوها بما سرى من إشاعة أن زوجها عليه أن يستسلم لرحمة السلطان . ولم يعرف أحد منهما أين ذهبت الأوراق ؟ وإذا لم يكن قد سبق لى أن تحدثت بصورة جافة ، فقد فعلت ذلك بالفعل وقتها ؛ ثم توسلت اليهما ، مرة أخرى ، أن ينفذا ، بكل ما يواجهما من صعاب ، ما طلبه « عرابى » منهما أن يفعلاه . لقد بدا عليهما الفزع ووعدا بالقيام بمحاولة أخرى ، وبعد ذلك بساعتين عادا فى عربة مغلقة . عبرت الشرفة للقائهما ، فوضع ابن عرابى بين يدي « بقجة » كبيرة ، عدنا الى غرفة الجلوس المشتركة . كانت رسوم قماش « البقجة » عبارة عن رسوم أوراق كوتشينية ، لونها أصفر على أرضية بيضاء (وأنا

(١) كان سبب هذه المذبحة أن قوات الاحتلال الفرنسى فى الجزائر ، أرادت أن تبعث بحملة تاديبية لتأديب قبيلة بنى خمر Khamirs ، وكانت تسكن على الحدود التونسية الجزائرية ، والتى لم تفتقر عن مناوشتها للجزائر منذ احتلال فرنسا لها فى سنة ١٨٦٥ فى عهد الامبراطور نابوليون الثالث Napoléon III وقد اختارت فرنسا لقيادة هذه الحملة الكولونيل فلاتير Colonel Flatters ، ولكن الخبيرين أجهزوا على الحملة تقييلا ، ولم يكونوا يدرون أنهم بفعلتهم هذه قد مهدوا الطريق أمام فرنسا لاحتلال تونس التى استخدمت فى احتلالها مختلف أساليب الدماء والضغط فاجتلبتها فى سنة ١٨٨١ وظلت باقية فيها حتى حصلت على استقلالها فى سنة ١٩٥٥ . (المعلق)

لا زلت أحتفظ به) ، استخرجنا منها عددا ضخما من الوثائق العربية من مختلف الأصناف والأحجام ، وبعد أن صرفنا زائرينا ، مع شكرنا القلبي البالغ قررنا « مستر نابير » وأنا ، انه سوف يكون من الحكمة البالغة أن نودع تلك الأوراق فى القنصلية البريطانية (فأخذتها الى « سير ادوارد ماليت » على الفور ، ووافق على ما اقترحته ، وبناء على رغبتى ، سمح لـ « مستر آردن بيمان Mr. Arden Beaman » ، وهو طالب ومترجم ملحق بالوكالة ، وكان وقتها يؤدي خدمته مع « سير تشارلز ويلسون » ، بأن يقوم بترجمتها ، وفى وقت متأخر من النهار توجهنا : « سير تشارلز » وأنا الى القنصلية البريطانية ووضعنا عليها الأحرف الأولى من اسمينا ، وسجلنا رقما على كل وثيقة منفصلة ، وأخيرا تركناها جميعها فى حيازة « مستر بيمان » ولقد سبب التوصل الى هذه الأوراق مزيدا من الهياج فى القاهرة ، وقد سمعت من وقتها ، فى القسطنطينية ، ما أثار من حقد غير قليل .

ثالثا : ابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين في الفرمانات السلطانية
(١٨٠٠٠ جندى) .

وكان «عرايى» مسبقا لما عمله ، قد أعد خطابات كتبها الى القنصلين
الفرنسى والانجليزى بالقاهرة ذكر فيها أسباب المظاهرة . أذعن الخديو
لكل المطالب مع استعداد وحماس مشوب بالشك الى حد ما ، وبعد ذلك
بثلاثة أيام اذ ب « شريف باشا » (بطل الوطنية المصرية المعترف به فى
أواخر عهد اسماعيل) يعين ناظرا للنظار ، وعقد أول مجلس للنظار وكان
من حاضريه محمود سامى ، (رئيس عرايى المقبل) ناظر الجهادية
واسماعيل باشا أيوب (قاضى عرايى المقبل) ناظرا لنظارة الأشغال
العمومية .

أما دعوة مجلس النواب القديم بأعضائه الـ ١٥٠ ، وزيادة عدد
الجيش فقد صدرت بهما أوامر عالية على التوالى . وبدا كل شئ الآن
يسير فى سهولة ويسر ، ولكن المظاهر كانت خادعة بصورة فريدة :
ف « توفيق باشا » ، فى الوقت الذى كان يؤيد فيه ، ظاهريا ، الوطنيين
المصريين ، كان فى الواقع يتطلع ، مترقبا ، الى مولاه السلطان فى
استانبول . لقد اقترح الباب العالى تعقبا على هذا ، تدخلا عسكريا
وارسال وفد امبراطورى ، ولكن انجلترا وفرنسا رفضتا كلا الاقتراحين .
زار « سير ادوارد ماليت » السلطان الذى رفض قيام نظم نيابية فى مصر .
وعند عودته « سير ادوارد ماليت » الى القاهرة (٢ أكتوبر ١٨٨١) بحث
برسالة هامة الى حكومته أوضح فيها أنه فى هذا الوقت صار على علم
تام بوجود مؤامرات تركية ، وذكر بالتفصيل أسباب المظاهرة التى قامت
فى الشهر الماضى ، وأقر بواقعية المؤامرة التى كانت تستهدف القاء
القبحض على الأميراليات الثلاثة ، وبالمطالب وبالتجاهل المستمر لتنفيذ
الاضلاحات الموعودة ، وعدم ولاء رياض فى علاقاته مع الضباط . وبعد
ذلك بأربعة أيام بعث السلطان بوفد مؤلف من « على نظامى باشا »
ياور السلطان ، و « فؤاد بك » من أعضاء مجلس شورى الدولة ، بعث
بهما السلطان الى الخديو ليكونا بمثابة مساعدين له ومستشارين ، وقد
وصلا الاسكندرية ، فقررت بريطانيا وفرنسا ، عندئذ ، أن ترسلا سفنا
حربية الى ميه الاسكندرية كعلاج للموقف antidote . لقد كتب سير
ادوارد ماليت « (١٠ أكتوبر) يقول : « لقد سببت هذه الاشاعة اضطرابا
كبيرا بين المواطنين » وقال له شريف باشا ، فى وضوح ، ان مثل هذه
الخطوة « ستخلق حتما هياجا بين الشعب العربى بأسره وستؤدى الى
ثورة عامة » ، وعليه فقد تم الوصول الى اتفاق وهو أن يعود المبعوثان
التركيان الى القسطنطينية ، ويلتحق عرايى بفرقته فى داخل البلاد وتغادر

ما تاما ودائما من حق اقرار الميزانية » ولكنه أضاف بأنه يجب
 ان ، اذ « لا بد وأن يؤخذ فى الاعتبار المصالح المالية التى تعمل
 دالة الملكة من أجلها » ، وهو يسأل فى النهاية عما ستكون
 جة لو أن المجلس سمح له بالتصرف فى الإيرادات غير المخصصة
 بين العام ، ويجيب « سير ادوارد ماليت » على الفور (١٦ يناير)
 - بتلغراف بأن المرتبات الرسمية التى لا تنظمها عقود تخضع
 جلس ، الذى قد يلغى مسمح الأراضى ويستغنى عن الكثير من
 من الادارات » ، وتوضح رسالة رسمية كتبت بعد ذلك بثلاثة
 « سلطان باشا » رئيس المجلس وقتذاك (وهو وطنى حى ،
 ذكره كثيرا فى هذا الكتاب) كان يعلن مؤكدا ومراا وتكرارا
 بل بأية صورة تحت ضغط الحزب العسكرى ، بل ذلك الطريق
 حه ويؤيده ، أعنى تصويت المجلس على الجزء « غير المخصص »
 نية ، الذى صدقت عليه الرغبة الجماعية للبلاد ، بوصف المجلس
 تقيقى والمتحدث باسمها .

الموقف أكثر وأكثر نوترا ، وكان شريف باشا يبدو ضعيفا
 ه بين كلا الطرفين ، وفى يوم ٣ من فبراير بعد تلقى الحديو
 من وفد عن مجلس النواب أقال النظارة التى كان
 شريف ، وعين نظارة وطنية خالصة تحت رئاسة محمود باشا
 ووزعت مناصب النظارة المختلفة على الوجه التالى : على صادق
 وأحمد عرابى للجهادية ومصطفى فهمى للخارجية وحسن شريعى
 ، ومحمود فهمى للأشغال العمومية وعبد الله فكرى للمعارف
 ، وبالرغم من معارضة المعتندين الفرنسى والانجليزى ، تأييدا
 المالية للذين يعملان من أجلها ، الا أن الحديو وافق فى ٨ فبراير
 حة الأساسية الجديدة للمجلس ، متضمنة بنود الميزانية : وفى
 سه ، قدم مصطفى فهمى مذكرة قانونية جدا ومقنعة جدا يعارض
 خل القنصلين العامين الأجانب فى شئون ادارية هى شئون
 بعثة ، وفى الوقت نفسه تقريبا ، بعث السلطان بتلغراف الى
 مؤداه أنه (أى الحديو) يجب أن يترك هذه المناقشة الخاصة
 ة ، لمجلس النواب . وقد تقدم رئيس النظارة الجديد الى الحديو
 متزن ولبق ، وتلقى فى اليوم التالى ردا عليه ، وأصل الخطاب
 م فى حوزتى :

طاب الجنب الحديو المعظم أيده الله .

بى محمود سامى باشا

فى قبولكم تأليف هيئة نظارة جديدة مع ما فى ذلك من عظم الأهمية دليا قويا على

وأخيرا في ٩ أغسطس ، حصل « لورد دافرين » من السلطان على « مسودة » قرار اعتبرت فيه الحكومة العثمانية عرابي عاصيا (١) ، ولكن يبدو أن هذا القرار لم ينشر رسميا حتى نهاية الحرب ، وقبل ذلك بيومين ، كان الخديو (وهو الآن سهل الانقياد تماما) قد سره أن يعلن عن غضبه على « عرابي » ، وقد بدأ منشوره على هذه الصورة : —

« نحن خديو مصر »

تعلن لجميع المصريين أن عرابي باشا قد ارتكب آثاما فظيعة جلبت على مصر وأهلها حسارة لا وصف لها وجعلت الدول الأوروبية ناقمة عليها ، فانها باتت الآن تعتبر المصريين أمة غير متمدنة ؛ فهذه الآثام والجرائم منحصرة في عصيان عرابي المذكور وتحريره للقوم على السير تحت لواء العصيان ، وفي الدسائس التي نشأت عنها مذبحة طنطا وغيرها من البلاد ، فاقفتم فيها حركة التجارة وعطلت أعمال الزراعة ثم في عصيانه لأوامر جلالة السلطان العظيم (٢) وهي الأوامر التي صدرت له بالانقطاع عن التظاهر بالعسوان في الاستحكامات والحصون مما بات معلوم النتيجة عن هلاك نفوس وتدمير قلاع وخراب أبنية .

وبعد أن بدد عرابي في أقل من ساعة شمل سكان اسكندرية التي نهبها وأضرمت فيها النار وخرج منها بجيشه ذاهبا الى كفر الدوار حيث عسكر يقوم من غير علمنا وبغير اذاتنا فبعث ذلك على نزول الانكليز الى المدينة لاطفاء النار المضرة فيها ومنع النهب والحفاظة على الراحة . وفوق ذلك منع المهاجرين من العودة الى أوطانهم وقطع بين أهلها وبينهم وسائل الصلة والطلاقة وقطع الماء عن اسكندرية وأعلن جهرا عصيانه بأكاذيبه الفاهرة ، فلذلك عد عاصيا ومستحقا لأشد العقابات بمقتضى الشرع الشريف ؛ ولا يزال مع ذلك عاملا على تعميق الخراب وبفسادة جنده والأهالي المتحدين معه المنقادين لأرائه الوحشية وقد تجاوز الحدود .

(١) فيما يلى نص القرار : « ان الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامتو دولتو محمد توفيق باشا ، وأن أعمال عرابي باشا كانت مخالفة لأرادة الدولة العلية ، ثم التمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه وقال أيضا من الحضرة السلطانية العفو العام ، وأن الشرف الذى ناله أخيرا من الحضرة العلية السلطانية ، انما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم .

وقد تحقق الآن رسميا أن عرابي باشا رجع ذلته السابقة واستبد برئاسة العساكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لا سيما أنها تهدد أساطيل دولة حليفه للدولة العلية السلطانية .

وبناء على ما تقدم يحسب عرابي باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية ، وان تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابي باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ويتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خاله هذه الأوامر ليعرض نفسه لمسئولية عظيمة ، وإن معاملة عرابي باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الأشراف هى مخالفة للشرعية الاسلامية الفراء ومضادة لها بالكلية » .

(٢) هذا يتناقض تناقضا تاما مع تلغراف الخديو الدائى الى السلطان ليلة ضرب الاسكندرية .

هم أنفسهم » ولو تسرب أى شىء بالمرّة من التقارير الرسمية البريطانية عن أسباب « عمليات انجلترا العسكرية » فى مصر ، لكان التبرير لها أن القيام بها كان ضرورة فحسب للدفاع عن المصالح المالية البريطانية فى ذلك البلد . اننى أعتقد أن نفس هذه الشواهد ، التى جانبت الواقع ، لتوضح بما فيه الكفاية لعقل أى شخص محايد أن الحركة التى تزعمها « عرابى » كانت النتيجة الصادقة لمطامح المصريين ، التى تكمل اتفاقا قائما بين رأى العام وتصرفاته كزعيم شعبى ، وأنه ، اذا أخذنا فى اعتبارنا ما فعله السلطان والحدوي ازاءه ، فليس هناك من سند على توجيه اتهام بالعصيان أو بالخيانة العظمى سواء ضد « عرابى » أو صعبه .

الفصل الحادى عشر

أميرالايان اثنان

بعد أسبوعين تماما من وصولى الى القاهرة ، انتقلنا الى جينا الجديد
فى « بيت المفتى » كان لبيتنا مدخلان ، يفضيان الى شوارع مختلفة ،
تسمح بقدر كبير من الزيارات الحرة ، وتسبب مزيدا من التعب للمخبرى
البوليس المخصصين لمراقبتنا ، وكانت الباكية التى بنى البيت على جزء
منها تستخدم كمبيت لفريق من مشعلى مصابيح القاهرة ، وفى وقت متأخر
من الليل ، لم نكن فى استطاعتنا أن نصل الى دارنا الا اذا قفزنا على
أجسادهم فى الظلمة . قبل أن تفسر لى تلك الاجراءات السائدة ،
ظننت ، سذاجة منى ، أنها جزء من نظام جاسوسية تعرضنا له بطبيعة
الحال ، طبقا لعادات البلاد ، كلف واحدا أو اثنين من موكلينا غالبا .
كانت وسط الدار غرفة كبيرة استخدمناها كمكتب عام لنا ولكبتنا ،
Bureau de la défense المدنى « مكتب الدفاع المدنى »
nationale وهذا ما بعثنا عنه بتلغراف الى باريس بالاضافة الى اکتتاب
فيه ب ٥٠٠٠٠ جنيه استرليني لدعمه .

كانت الغرفة المعنية فى شكل مشمن غير منتظم ، وأدت يوما من
الأيام دور صالون قمار عصرى . وطوال تسعة الأشهر التى أقمتها فى
الدار ، شهدنا العديد من الأحداث الغريبة المتصلة بعملنا ، كما أننا
شهدنا لقاءات طيبة جدا لم تكن بالقليلة . لم نكن هناك فى اليوم السابق
لاستقرار رأينا على تغيير اقامتنا . كانت طريقة شرفة فندق شبرد تشكل
صعوبة كبيرة بينما كنا نزل به ، ولكن الآن بدأ أصدقاء وأقارب
المسجونين الوطنيين فى المجيء إلينا . فى بادئ الأمر ، أبدوا تفضيلهم

على جنبه العالى بخصوص عدم توسط الداخلية فى جرنال تحقيق قضية الجراكسة ليس
الا ، وصادقه على ذلك ناظر الخارجية ، فالحق والحق اقول ان هذه العبارة المحزنة التي
لا حقيقة لها هي اصل البلاء الذى صب على مصر صبا .

ويستطرد عرابى قائلا :

« ثم لا يزال ذلك النفور متمكنا من نفس الخديو الى ان جاءت مراكب انكلترا
وفرنسا الحربية وتقدم من حضرات قناصلهما لائحة بناء على رأى ارتاه ابو سلطان باشا
غير جازم به كما صرح بذلك غير مرة ومقتضى تلك اللائحة هو سقوط نظارة محمود سامى
باشا وتوجهى الى اوربا وتباعد على فهمى باشا وعبد العال حلمى باشا الى داخل البلاد
المصرية . ولما كان مقتضى هذه اللائحة هو من الأمور الداخلية التي لا دخل فيها للغير لم
صار قبولها بمجلس النظار لا لأجل حفظ وائيقنا ولكن حرصا على حقوق البلاد التي فوضت
لهدتنا وامانتنا ، اما الخديو فقد قبلها بادية ذى بدء . ولما كانت هذه المسألة من المضلات
واختلف فيها بين الخديو والنظار ، عمل جلسة بديوان النظارة وتقرر فيها طلب أعضاء
مجلس النواب للنظر فيما اختلف فيه وتسوية المسئلة بوجه مرض ، اذ يجوز القانون
ذلك اذا طرأ على البلاد امر غير اعتيادى ، فحضروا النواب وصار اطلاتهم على تلك اللائحة
فجميعهم رفضوا قبولها وطارت الأخبار فى جميع البلاد فحصل فزع شديد واجمع الراى
العمومى على عدم قبولها ، وحضرت عهد البلاد واعيانها الى مصر معلنين برفض هذه اللائحة
ورفض من يقبلها وكتبوا بذلك محركات مختومة باختامهم واحضروها لطرفى لوثوقهم بى
وكذلك لما ياذن الخديو بافتتاح مجلس النواب رسميا ختم على رفض تلك اللائحة كثير من
أعضاء مجلس النواب وجاء كثير من العلماء والتجار والأعيان من كل جهة وقدموا محركات
باختامهم وفتوى شرعية من الفضل العلماء بوجوب خلع الخديو بمقتضى احكام الشرع الشريف
الاسلامى وموجود بعض من تلك المحركات بطرفى وبعضها يوجد بطرف محمود سامى باشا
رئيس النظار ، ولما صمم الخديو على قبول اللائحة وعدم افتتاح المجلس استعفت النظارة
وقبل استعفاؤها (٢٦ مايو) . »

« ثم فى صباح ليلة استعفاء النظارة حضر لمنزلى قناصل جنراية دول المانيا والروسيا
والنمسا وايطاليا ، وكلفونى بان اعطيهم كلمتى بحفظ الأورباويين جميعهم واموالهم
القاطنين فى القطر المصرى فاعتذرت لهم بانى استعفيت من الخديو ، فلم يقبلوا عذرى بل
اجابونى بانهم يشقون بقول وان جميع المصريين متى علموا كفالتى للأورباويين فانهم
يحترمونها غاية الاحترام ، فلوثوقى بان العسكرية لا يفعلون شيئا يخل بشرفهم العسكرية
وان الاهالى يكرمون نزلائهم ، فاعطيت لهم كلمتى بحفظ جميع الأورباويين القاطنين بالقطر
المصرى وحفظ اموالهم كما احافظ على نفسى وعلى اولادى ومالى حين تشكيل هيئة حكومة ،
فانصرفوا مطمئنين . »

« وفى مساء هذا اليوم ، اجتمعوا أعضاء مجلس النواب بمنزل ابو سلطان باشا
رئيس النواب ودعوتى للحضور اليهم فاجبتهم فكلفونى ان احافظ على الأمن العمومى وكان
مهم جملة من العلماء وقاضى مصر . »

« فذكرتهم بانى استعفيت وقبل استعفاى فكيف اكلف بهذا الامر وليس لى صفة
فى الحكومة فاجابنى رئيس المجلس ابو سلطان باشا وسعادة سليمان باشا باطلة أحد الأعضاء
بانهم نواب الأمة وانهم يكلفونى بذلك وانهم لا يقبلون استعفاى وانهم يتوجهون الى

الحالة الأولى وهي الأسرة ، لا يجوز أن يكون أسيرا وحاكما ينظر في مصالح البلاد ، كما أنه لا يجوز ترك البلاد فوضى بلا حاكم ينظر في مصالح أهلها ؛ وفي الحالة الثانية وهي الانحياز ، فكتاب الله يحكم عليه بخروجه من جماعة المسلمين ، وبذلك لا يصح أن يكون حاكما عليهم ، من أجل ذلك تحرر تلغراف منى الى وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى لنظر ذلك في المجلس وتحرر للمباين الهمايونى تلغرافا بذلك . وفى ١٧ يولييه تقريبا ، حضر لى تلغراف من الخديو بوجه على جميع المسؤولية والى السبب فى حدوث الحرب وأن اشغال الطوابى وتركيب المدافع فيها لم كان ينقطع وأنه حصل الصلح ، ومقتضى توجهى له للمكاملة معى مشافهة ، فعلمت من ذلك أنه مأسور وأنه مأمور بطلبى للقبض على وأنه ينقى عن نفسه بنسبة أسباب الحرب الى ، فكتبت له تلغرافا بأن انحياز جنابه الى الجيش المحارب لبلاده أثر فى قلوب الناس تأثرا عظيما والتمست ترفيى بشروط الصلح حتى أتمكن من التوجه الى اسكندرية ، فلم يجاوبنى بشئ ، فكتبت تلغرافا الى وكيل الجهادية للنظر فيما ذكر فى المجلس ، وكذلك تحرر من الخديو ومن راعى باشا الذى كان رعى النظر ، لكافة جهات الحكومة بحصول الصلح ، وبإبطال التجهيزات الحربية ، فتعطلت حركة التجهيزات الحربية نوعا من حصول المناوشات بين مقدمات الجيشين عند حجر النوايسة ، فكتبت لوكيل الجهادية بنظر ذلك فى المجلس وأن المناوشات حاصلة بين مقدمات الجيشين ومن ذلك يعلم أنه لم حصل صلح ، وكتبت للمديريات بإرسال طلبات الجهادية بدون تأخير ولا يلتفتوا لأوامر تصدر بشأنها من غيرى .

« هناك عقد مجلس بديوان الداخلية للنظر فى كل ما ذكر ، حضره وكلاء النظارات ورؤساء الدواوين والمصالح والعلماء والأعيان ، وتذاكروا فيهذا الأمر الذى دهم البلاد ، فقر رايهم على ارسال وفد منهم الى الخديو باسكندرية ويطلبوا منه ومن النظار أن يتوجهوا الى القاهرة عاصمة البلاد فان كانوا مملوكين السراح فيجيبونهم الى ذلك وان كان متهورين على بقائهم فى اسكندرية تحت حفظ العساكر المحاربة للبلاد فيعود الوفد الى مصر ويخبر المجلس ليرى رايه . وتالف هذا الوفد من : على باشا مبارك ورووف باشا ومن العلماء : الشيخ احمد كبوه شيخ طرق الصعايدة بالأزهر والشيخ على نابل ، ومن اتجار السيد احمد بك السيوفى وسعيد بك الشماخ وكيل طرابلس الغرب ، وأرسلوا وعادوا الى مصر ثانيا ما عدا على باشا مبارك والسيد احمد السيوفى حجزا فى اسكندرية . وبعودة الوفد علينا بكفر الدوار ، أفادونا بأن الباطل لا يغنى من الحق شيئا وأن من غش المسلمين فليس منهم وأن السدين باسكندرية تحت قهر الانكليز وأنه لا يستطيع أحد أن يخرج منها الا بورقة رخصة من الانكليز ولكنهم مأمورين بأن يقولوا غير ذلك ، هذا ، ونشر اعلان من الخديو بختم فى ٤ رمضان ١٢٩٩ الموافق ٢٠ يولييه سنة ١٨٨٢ يعلن الناس فيها بعزى حيث أنى لم أعمل على مقتضى الأمر الخديو فى ارسال العساكر الى جهة المعجمى لدفع ومنع عساكر الانكليز عن تلك الجهة بل تركت اسكندرية بلا موجب وأخذ العساكر وتوجهت الى كفر الدوار ، فعرض هذا على المجلس أيضا وصدر أمر من الخديو بالتلغراف الى وكيل الجهادية بذلك وبإبطال التجهيزات الحربية .

« هناك عقد مجلس حافل بإزيد عن خمسمائة نفس ، حضرة ثلاثة من البرنسات وشيخ الاسلام وقاضى مصر والشيخ المفتى والسيد السادات والسيد البكرى وكثير من العلماء الاعلام وبطريرك الأقباط والمطران وكثيرين من القسس وحضره حاخام اليهود ووكلاء نظار الدواوين ورؤساء جميع المصالح ووكلاؤها والمديرون وقضاة المديريات والمفتين اللذين بالأقاليم وكثير من نبهاء مجلس النواب وعمد الأهالى ونهبائها وأعيان التجار وغيرهم وكثير

ألم تكن أرض الله واسعة فأهاجر فيها أو لم كنت أتوجه الى لندره فاحتفى فيها ان في ذلك
لتذكرة لمن يتذكر .

« فالحق ، والحق أقول ، انى لست بعاص ، وانما قمت وقامت البلاد اى الأمة المصرية
فى طلب تحرير بلادها مع غاية الشرف وحفظ الناموس لا ثفاية شخصية كما يفتروا
المبطلون بل انى مكلف بحفظ البلاد من طرف الحضرة السلطانية حيث تبين لعظمته اخلاصى
وسوء مقاصد الخديوى كما ورد فى بذلك كتاب من حضرة الشيخ محمد ظافر من خواص
الذات الشاهانية وكتاب آخر من سعادة أحمد راتب باشا ياور الحضرة السلطانية موجودين
بطرفى الآن ، ثم انى صرت قائد للجيش فى المدافعة عن البلاد بوجه الشرع والقانون وأمر
الخديوى والمجلس أولا وقرار الأمة ثانيا .

« وليس بعد ذلك دليل ولا برهان . هذا ما انتهى اليه البيان ؛ فباحضرات المحامين
عنى : ذو الشرف المستر برودلى ومستر ناير ذو الشرف ومستر ايف ذو الشرف ، وباحضرات
نصراء الانسانية والمحامين عن الحق بأنفسهم وبأموالهم من غير أن تأخذهم فيه لومة لأثم
صديقى الأمين مستر بلونت ذو الشرف والكمال والمشاركين معه من أجبانه المتحفظين على
شرف الانسانية بانجلترا ، هذه الرسالة كتبته ببندى عما صصار من الحوادث الابتدائية
والانتهائية على مقتضى الحق والانصاف بدون شك فيها ولا ريب ، وليس بعد الحق الا الضلال
المبين . » (١) .

أحمد عرابى المصرى

(١) لابد لى أن أوضح هنا أن هناك فارقا بين التقرير الذى كتبه « عرابى » وهو
فى سجن الدائرة السنوية بالقاهرة ، وتقريره الثانى الذى أعاد كتابته وهو فى منفاه
بكولومبو بجزيرة سيلان (سرى لانكا ، الآن) ؛ اذ أن تقريره الثانى (المحفوظ أصله
بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن تحت رقم ١٤١٣٩٤ ضمن
ما اقتنته المكتبة من أوراق مستر بلنت - الذى نشره الأستاذ الدكتور السيد محمود الشنيطى
(مصورا) عن دارة : المركز العربى للبحث والنشر ، سنة ١٩٨١) - هذا التقرير منقح
ومزيد ، اذ قسمه الى قسمين اثنين :

القسم الأول فى بابين :

الباب الأول - فيما يتعلق بالحوادث التى حصلت قبل الحرب

الباب الثانى - الحوادث التى أعقبت ذلك

القسم الثانى فى حوادث الحرب وما يتبعها

وختم تقريره هذا على هذه الصورة : انتهى فى ١٦ ذى الحجة ١٢٩٩ ختم ختم
هجريه

موافق ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ بمدينة كولومبو بجزيرة سيلان

بينما تقريره الأول الذى سجله مستر برودلى ضمن وثائقه (مترجما الى الانجليزية) ذيله
بالعبارة التالية : كتبه فى سجن الدائرة السنوية بالقاهرة فى هذا اليوم ٢٩ أكتوبر
١٨٨٢ . (المحقق) .



طلبة عصمت

(شكل ٦) - طلبة عصمت باشا

و « أحمد بك رفعت » ، ولذلك فقد تقدمنا رسميا بطلب التفويض لنا بتولى الدفاع عن ثمانية من المسجونين السياسيين الذين كانوا ينتظرون الآن محاكمتهم ، وكان من بين هذا العدد : « يعقوب سامى باشا » الذى سمعنا عن مقدرته غير العادية كوكيل لنظارة الجهادية فى نظارة عراقى سمعنا القدر الكبير .

وخلال صباح ٣٠ أكتوبر ، تلقينا خطابا بخط اليد بالفرنسية من « اسماعيل باشا أيوب » ، رئيس قومسيون التحقيق ، يفوضنا لتولى الدفاع عن ثمانية الأشخاص المعنيين . توجهنا الى السجن على الفور ، فقدمنا مستر بيمان Mr. Beaman (وكان وقتها يقوم بالعمل كمترجم للكولونيل « سير تشارلز ويلسون ») الى « طلبة باشا » الذى كان يبدو أنه عاجز عن التعبير عن رضاه لما أحس بوصولنا . « وطلبة باشا » كان بكل تأكيد واحدا من الأشخاص الذين يقول عنهم الفرنسيون « مظهرهم غير جذاب ne paye pas de mine » . كان انسانا غاية فى الحياء ، قصير القامة ، شاحب اللون من قلقه ويعانى من أزمة ربو مزمنة وينفرد بمحيا يخلو من أى تعبير . كان من الصعب أن تتصوره وهو يقود المشاة عند كفر الدوار أو فى تحديه الحديو فى حضور مجلسه ، وطوال متاعبهم فى القاهرة كان يلتصق بعراقى كما يلتصق الطفل الضعيف بأب قوى ، وكان

بيانا عن مسئولياتهم . وكان « سعد الدين بك » ، مدير البحيرة ، قد نال الثقة بسوء معاملته لبعض المسجونين المكروهين بصورة خاصة ، وهم في طريقهم الى السودان . و « محمد حمدي بك » ، وهو تركي ، كان صهر السجين « أحمد رفعت » الذي كان يكن له عداوة شخصية شديدة . لقد دبر براءة ألا يقدم التفاصيل عن ادارته للممتلكات المرحوم « مصطفى فاضل باشا » ، متجاهلا الطلبات الحماسية المتكررة من الباب العالي . لقد عنف « محمد حمدي » لاعطائه أوراقا لناسخينا ، وحتى أثناء نظر قضية عرابي كان سليطا وجاف المعاملة ، بل تمادى الى درجة أنه كان يلطخ كمية من التلغرافات بالخبر ، ويرمي بها على المنضدة أمام أعضاء القومسيون المستأين ، ويتهم موظفينا بتشويهها لغرض شرير . ومن سوء طالعها أننى اكتشفت أن الخبر لم يكن قد جف بعد ، كما أنه لم يكن أحد من كتبنا يباشر عملا منذ اليوم السابق . وبعد تجاة عرابي من الموت ، تكشف ل « حمدي » الحقيقة ، وتغيرت معاملته الى صداقة ، بل صار ذليلا واتصادق مع « رفعت » المسكين ، وشكرنى والدموع فى مآقيه لأننى أنقذت شرف عائلته ولأننى كنت أحمى المصريين بوجه عام . أما « مصطفى راجب بك » و « سليمان يسرى بك » و « مصطفى قبرصى بك » و « محمود مختار أفندى » فلم يكن يعتد لهم برأى فى فئة المحامين البحريين . لقد أوضحوا أنهم كانوا أنفسهم بارعين فى تخويف المساجين والشهود ، ولم يكن فيهم من هو أخطر من « سليمان يسرى » . وعندما بدأ نجم الوطنيين فى الصعود مرة أخرى ، اعتاد « سليمان يسرى » أن يطاردنا ليحصل منا على شهادة أو تزكية ، بدعوى أنها ستساعده ماديا مع رؤسائه .

الى هؤلاء السادة قدمنا « اسماعيل باشا أيوب » (وهو مصرى طويل القامة نحيفها ، يتميز بوجه ذكى معبر) ، فى رزانة صباح يوم ٣١ أكتوبر ، ثم ألقى كلمة كان قد أعدها بهذه المناسبة ، فقال : « ان مقدمكم يشكل فترة فى تاريخنا يجب اعتبارها علامة فى طريق تقدمنا . هذه هى المرة الأولى ، على مدى آلاف هذه السنين يحضر محامون أجانب أمام محكمة مصرية . نحن فرحب بمجيئهم كدلالة على أن انجلترا قد عزمت على أن تهين لنا اصلاحا تشريعيا ومحاكم أفضل » (ويبدو أنه نسى أن هذا كان مطلبها من المطالب الثورية التى طالب بها المساجين النازلين فى الغرف المجاورة له) واستطرد : « وأنا كمصرى ، يسعدنى أن أسمع لهم بأن يتراجعوا . كلنا سنعلم عن « مستر برودى » فى تونس : واننا نأمل أن يفهمنا ويساعدنا هنا » . وقد اختتم اللقاء بتناول القهوة والسجائر وإبداء الاعجاب المتبادل .

ذلك الوقت ، بكل تأكيد ، عبر المحيط الأطلسي . أما بالنسبة لما أسندى الى من نصح ، فأننى أريد فى الواقع أن أشير الى مثلين اثنين ، كتب الى محام انجليزى من تمبل Temple يقترح أنه « لما كان استسلام عرابى غير شرعى ، « فهو لازال من الناحية التكنيكية محتجزا عند القوات البريطانية ، ويستتبع هذا استصدار اعلام قضائى ضد « سير جارنيت ولسلى » أو « سير ادوارد ماليت » باحضار المسجون بجسده writ of habeas corpus للمثول أمام محكمة القضاء العالى للنظر فى أمره . وأما النصيحة الثانية فكانت من ميسير هنرى ديفرييه M. Henri Duveyrier الرحالة المشهور الذى تلقيت منه الخطاب التالى : -

باريس ، ١٨ شارع بيجال Pigalle

اول نوفمبر ١٨٨٢

سيدى ،

اننى بكل احترام احيطكم علما بالى خبرتى كرحالة فى الصحراء الكبرى منذ الثنتين وعشرين سنة مفت ، تجعلنى اعتقد أن « عرابى باشا » لابد وأن له علاقة ما « بطريقة » اخاء دينى اسلامى ، طريقة « سيدى محمد السنوسى » التى تمقت المسيحيين مقتا شديدا . فاذا كان الفراضى هذا صحيحا ، فان ادانة « عرابى باشا » يجب أن تخفف بصورة ما باعتبار انه عضو فى جمعية تتسلط على مشاعره ونزعاته . اننى لا أعرف اذا كانت هذه الاشارة قد تفيدك ، ولكننى اكون شاكرا لو تكرمت وافدتنى عما اذا كان عرابى باشا او لم يكن عضوا فى اخاء دينى مع سيدى محمد السنوسى ، وما اذا كان او لم يكن يتلقى تدعيما من الجمعية . اننى يا سيدى ، اكثر من يكون لك احتراما .

هنرى ديفرييه .

صار الآن مكتبنا الكبير فى دار المفتى مكانا مفضلا كمكان للتردد عليه ، كونت فيه العديد من الصداقات السعيدة ، والتى لا يمكن أن تنسى بسهولة ، فهذا مستر شيروى Mr. Chirol ، كاتب من الكتاب على اللام تام بسياسات الشرق بصورة فريدة ، وكان فى ذلك الوقت يتولى أعمال المراسل الخاص لجريدة ستاندارد Standard ، كان واحدا من زوارنا المترددين علينا وكذلك مستر جون مكدونالد Mr. John Macdonald زميله القدير فى الديلى نيوز Daily News ، وبدأ أيضا كثير من المصريين فى زيارتنا بمزيد من الحرية ، وكان من بينهم شخص غاية فى الذكاء

الفصل الرابع عشر

ماذا حوته أوراق عرابي ؟

فى أول نوفمبر ، سلمنى « مستر بيمان » نسخا أصلية من ترجماته لأوراق « عرابي » التى يبلغ عددها ٦٩ ورقة ، وبفضل ما أوتى من قوة على تكبد العمل الشاق ، أتم مهمته الصعبة فى تسعة أيام ، بالرغم من ضغط أعماله الرسمية . ولو أن القضية العظيمة قد حوربت حتى نهايتها المريرة ، لكان الكثير من الوثائق التى أئتمنا عليها « عرابي » قد لقيت أهميتها البالغة فى دعواه أنه « ليس مذنباً » ردا على اتهامه بالعصيان ، بينما كان فى استطاعة الوثائق الأخرى أن تحت ، على أية حال ، بنفس القوة تقريبا ، على تدعيم الادعاء الذى يطلق عليه الفرنسيون عبارة « مراعاة الظروف المخففة للجريمة وعقابها Circonstances atténucantes » ان ما أقصد اليه هو أن أقدم فى هذا الفصل بضعة أمثلة تصور ما أؤكد عليه الآن وهو أنه لا جدوى من تجميع المزيد من الوثائق لأن فحوى كثير منها متماثل ، وتجميعها لا يساعد الا على البرهنة على امتداد وكثافة الحركة التى يتزعمها ، والذى كان وجودها من وقتها مثار شك بلا مسوغ على الاطلاق .

لم يكن فى استطاعة « عرابي » أن يعثر على الاطلاق على الخطابات الأكثر تأييدا ، وهى خطابات الرسول التركى « أحمد أسعد » ، ولكن ما وجد فى دار « عرابي » من مراسلات أخرى من نفس الشخص تشير بوضوح الى تلك الخطابات المفقودة . ومن حسن الطالع أن زوجة « عرابي » احتفظت بها بمظروفها الاصلى المختوم . وفيما يلى خطابات من « قصر يلدز » :

من الشيخ محمد ظافر مفتي جلاله السلطان

ناظر الجهادية المصرية سعادتلو أفندم

قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم الى جلاله السلطان وجلالته علم من فحواهما جميع عواطفكم الوطنية وتيقظكم وخصوصا وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالته بكل اخلاص وامانة فانها وقعت لدى جلالته موقعا حسنا حتى أن جلالته أمرني أن أبين لكم سروره ورضاه واكتب لكم كالاتي :

حيث ان حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا فيجب على كل مصرى السعى بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا لمنع خروج مصر من ايدينا ووقوعها في قبضة الأجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس في أيدي الفرنسيين فنعن وضعنا كل ثقتنا فيكم ياوالدي لاستعمال قوتكم وعمل كل ما في الامكان لمنع حدوث شيء مثل ذلك - فكن على حذر دائما ولا تفن النظر طرفه عين عن هذه النقطة المهمة ولا تتركوا أية طريقة أو وسيلة من وسائل الاحتياطات والطرق المشورة في عصرنا هذا واضعا نصب عينيكم دائما الغرض الذي نرمى اليه الا وهو الدفاع عن ملتكم وبلادكم وخصوصا يجب عليكم ان تثابروا على حفظ ثقتنا بكم والروابط التي تربطكم بنا .

تلك البلاد هي بلاد مصر التي لها أهمية عظمى لدى انكلترا وفرنسا وخصوصا لدى الأولى ويوجد شرذمة من اصحاب الدسائس والفتن في استانبول يمالئون هاتين الدولتين ويستغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التي تؤدي الى الخراب وسوء المصير . وقد راوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن في مصر وجهوا عنايتهم الى ذلك بششاط وغيرة ؛ فرغبة جلالته الخصوصية هي أن تحذروا من أولئك الخونة الأشرار ومكايدهم وتراقبوا اعمالهم بعيون ساهرة لا تنام وبناء على التلغرافات والأخبار المرسلة من الحديو توفيق باشا أحد أعضاء الجمعية الموما اليها نرى انه ضعيف ومتقلب ولاحظنا ايضا أن كل تلغراف من تلغرافاته لا تؤيد الآخر بل جميعها على طرفي نقيض . وازيدكم معرفة بأن « على نظامي باشا » و « على فؤاد بك » قد أثبا عليك ثناء جميلا لدى الحضرة السلطانية وكذا أحمد راتب باشا ، فقد قص على جلالته موضوع الحديث الذي دار بينكما في عربة السكة الحديدية ما بين محطتي الزقازيق والمحسمة . وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته في « أحمد راتب باشا » ؛ فقد كلمني لهذا السبب ان اظهر لكم ثقته فيكم وأخبركم أنه حيث أن جلالته يقتبركم رجلا ذا استقامة وامانة فهو يطلب منكم قبل كل شيء منع وقوع مصر في قبضة الأجانب وأن لا تتركوا لهم حجة تمكنهم من التدخل في شؤون مصر . هذا وأن التعليمات التي ستصدر الى راتب باشا في هذا الشأن لكم على حديثها .

وقد كتب خطابي هذا وخطاب أحمد راتب باشا بأمر جلالته بمعرفة أحد كتاب جلالته الأخصاء وبعد أن وقعنا عليهما باختامنا في حضرته العلية ختمنا على الظرفين . هذا واعلمكم بصفة خصوصية وسرية أن جلاله السلطان لا يعول على « اسماعيل » ولا « حليم » ولا « توفيق » بل يعول على الرجل الذي يفكر في مستقبل مصر ويثبت الروابط التي تربطه بالخلافة ويعتزم جلالته الاحترام الواجب ويعمل بمقتضى الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير ويؤيد سلطته المستقلة في استانبول وخلافها ولا يعطى رشوة لأولئك الموظفين الخائنين ولا يعيد قيد شعرة عن طريق واجباته ويكون على دراية تامة بدسائس أعدائنا

من الضعف ويحتاج الى البحث الدقيق وراء الدواء الشافى العاجل - وعليه يهمكم قبل كل شيء منع ما عساه ان يؤدي الى التداخل الاجنبى وان لا تحيدوا عن الطريق الحق القويم ولا تصفوا الى الاختلافات التى تسبب الخدعة بل يجب عليكم فى كل الاحوال منع حدوث التدابير الاجنبية التى يقصد منها اثارة الفتن بكل تيقظ وهذا هو غاية جلالة السلطان العظمى .

وبما اننا سنكتب بعضنا فى المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطابتنا فى ايدى الغير - واسهل طريقة وآمنها التى يمكنكم اتخاذها الآن هى ان تعطوا مكاتبتكم الى الرجل الصادق الأمين الذى يحول هذا وآخر من الشيخ محمد ظافر - وأزيد على ذلك انه من الضروري ارسال ضابط سرا يكون عالما بأحوال مصر ويكون من احسد اصدياقكم الذين تضعون ثقتكم فيهم ليقدّم الى اعتاب جلالة السلطان تقارير مسهبة حقيقية عن احوال البلاد . هذا وارجوكم ارسال رد هذا بمعرفة الرجل الذى يحول هذا الخطاب .

أحمد راتب

فى ٢٤ ربيع الآخر ١٢٩٩هـ

ياور جلالة السلطان

و ٢٢ فبراير ١٨٨٢م

ومن الأهمية بمكان أن تأخذ فى الاعتبار التاريخ الذى كتبت فيه تلك الخطابات ووضع الأشخاص الذين كتبوها : ف « أحمد أسعد » بعثه السلطان فى مهام سرية عديدة الى مصر منذ بداية سنة ١٨٨٢ ، ولتيسير هذا التراسل عين فى وظيفة دينية فى الجزيرة العربية ، ويصفه ردهاوس Redhouse بأنه « بديل السلطان فى مسجد الرسول عليه السلام فى المدينة ، ورئيس الوعظ ورئيس المنشدين به » ؛ وأما « محمد ظافر » ، فكان مستشار السلطان الروحى وموضع ثقته ، وكان له وحده حق الجلوس فى حضرته . وكان يحتل جناحا من الغرف تجاور مباشرة الغرف الامبراطورية ؛ ولقد سبق أن وكلت اليه المفاوضات الدقيقة بالنسبة لتحركات عرب « تونس » على حدود « طرابلس الغرب » ؛ أما « أحمد راتب » ، فكان واحدا من الياوران الذين هم موضع ثقته ، والذى لعب دورا هاما (رغم سريته) فى أول مهمة تركية الى مصر .

وفيما يلى فرمانا الرتبة والبراءة الخاصان بعرايى واللذان صدرا على التوالى فى ١٤ من مارس و ٢٤ من يونيو ١٨٨٢ :

فرمان الرتبة :

نحن أمير الأمراء الكرام ذو القدر والاحترام صاحب العز والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى ؛ نيابة عن خديو مصر ، لما كان واحدا من أمراء الجيش الامبراطورى فى مصر ، شخص له شهرته ومكانته .

سـخـيـة لو تركت كوبرى الزيات مفتوحا عندما يتوجه عربى الى الاسكندرية الليلة ؟ » ولما رأى على وجهى ما أثاره اقتراحه ، تظاهر بالضحك وقال انه كان يمزح فحسب ، ولكن هل يمكن الا أن يكون جادا فى عرضه مثل هذا العرض على أشخاص انجليز ؟ لقد كاد أن يرغمنا على أن نشرب بعض النبيذ الذى كنا قد طلبناه له ، كدليل على ايماننا بعدم جدية ما عرضه . وبعد أن غادرنا ، انتابت مستر « أوليفانت » حالة اغماء شديدة coma وصرت أنا مريضا بصورة عنيفة ، وأعتقد أن المرض المروع الذى جاء فى أثر ذلك أنقذ حياتى . وفى وقت متأخر من الليل توجهنا نحن الاثنين الى نقطة البوليس حيث أخذت شهادتنا ، ثم أعقب ذلك خروج الأوربيين من الاسكندرية وبذلك مات الموضوع ، ولقاء أكد « مستر أوليفانت » هذه القصة الغريبة توكيدا تاما .

وكان أحد زوارنا أيضا « السنيور ج . ب . ميسداليا Signor G. B. Messidaglia » ، الذى كان يعمل مع « جيسى باشا Gessi Pacha » ، أحد النواب الثلاثة لحاكم السودان . لقد بقى « ميسداليا » بالقاهرة طوال الفترة العصيبة كلها قبل معركة التل الكبير ، أو بالرغم من أنه كان يعارض عربى شخصيا ، الا انه كان يمتدح علنا ، استتباب النظام الذى كان يلتزم به مرءوسيه ، اذا قال : « لم يكن يظن ، على الاطلاق ، أن يكون فى القاهرة مثل هذا الأمان الفعلى مثلما هو قائم خلال الفترة التى يمكن أن تسمى بحكم الارهاب » ، وقد أطلعنى على وثيقة وقع عليها كل الايطاليين المستوطنين تؤكد السلوك الجدير بالمدح لـ « ابراهيم بك فوزى » رئيس ضبطية القاهرة فى حكومة عربى . وقبل عودته الى السودان مرة أخرى (حيث أدى هناك عملا جليلا) أعطانا « السنيور ميسداليا » رسما كرويا لضرب الاسكندرية ، كان له صيته الذائع فى القاهرة أثناء عمليات كفر الدوار ، وقد استخدم فيه اللون الأخضر والأحمر والأصفر ، واستغنى فيه عن اظهار الأبعاد بالمره ، وكان فى الصورة « عربى » يلوح بسيفه منتصرا بينما كانت

(١) رومولوجيسى Romolo Gessi ايطالى الأب ، أمة أرمينية من القسطنطينية . كان فى نفس عمر جوردون Gordon (حاكم السودان) . وبين الرجلين تشابه عجيب : فالوقت الذى كان فيه « جوردون » يقود جيشه المنتصر فى الصين ، كان « جيسى » يحارب مع « جاريبالدى » لتحرير ايطاليا ، واشترك كلاهما فى حرب القرم واشتركا أيضا فى حرب المصابات غير النظامية ، وكانا من نمط المحاربين الغدائين Commandos وكانا يكمل كل منهما الآخر ، ففى الوقت الذى كان فيه « جوردون » حساسا وانعزاليا ومتشككا ، كان « جيسى » عطوفا اجتماعيا أليفا ، أما الصفة البارزة فيهما فهى البسالة التى لا حدود لها . (المحقق)

سفينة ، على الأقل ، مشتعلة وأخرى تفرق ، وكان « مسيو جبرائيل شارم M. Gabriel Charnes » (١) يرى في هذا الرسم جريمة لا تغتفر تمثل ترجمة لعمليات جريئة لطرف واحد ، نشرها « الوطنيون » وبعثوا بها تلغرافات لتشجيع المصريين . ولو كانت المحاكمة قد استمرت لكنت قدمت مجموعة من الصحف الفرنسية الرسمية التي تكشف كيف أن جامبيتا Gambetta في سنة ١٨٧٠ اقترفت خطأ بنشره بيانات عن نفسه بعيدة كل البعد عن الواقع .



(شكل ١١) وقائع الحرب باسكندرية كما ترى من القاهرة

لقد تقرر الآن ، بغض النظر عن النفقات ، الاعداد لعقد محكمة جديدة في القاعة الكبرى بسجن الدائرة السنية . وبدأ العمال في العمل فيها ليل نهار بسرعة كادت تكون محمومة . وأعتقد أنهم لكي يحموا من سيحتلوها ، من البرد ، نزعوا الأرضية الفاخرة من بلاطات الرخام .

(١) انظر مقال « الضبيان العسكري في مصر » L'Insurrechon Militaire en Egypte مجلة العالمين الاثنين Revue des Deux Mondes شهرى أغسطس وسبتمبر ١٨٨٣ .

البداية الى النهاية ، وهناك خطابات معينة في حوزة عرابي باشا قد نشرت بالفعل ، وقد اكدت محتوياتها تأكيداً قويا ، السرد المثير للدبلوماسية المتوترة لـ « قصر يلدز » التي كشفتها التقارير الرسمية البريطانية Blue Books التي نشرت مؤخرا ، كما اننا نرجو أن نبرهن على أن سمو الخديو كان لفترة طويلة سابقة لبدء العدائات ، متأرجحا بصورة منتظمة بين الحزب الرجعي وبين الوطنيين ، ولكنه بعد وصول درويش باشا وافق كما وافق درويش باشا ، في ثلاثة اجتماعات للنظارة ، في المراحل الأولى للمقاومة - على التوكيد على اتخاذ اجراء حاسم ساندته بنود مبهمة لقرارات لاحقة أعلنت في كل من القسطنطينية ومصر ، وهناك نقاط قانونية أخرى قد تثار ، على ما نعتقد ، اعتراضا على تهمة العصيان ما بين ٢٠ يوليو و ١٣ سبتمبر ، خاصة وأنه طبقا للدستور العثماني العصاة من يشسئون حربا على السلطان ، وهو الذي تكن له كل احترام ، قد دفعهم بالقول وبالفعل لبشسوا الحرب التي سبق أن شئوها على العدو المشترك .

اننا سنسئ الى موكلنا لو اعتمدنا على مجرد المصطلحات القانونية ، ونحن ، بطبيعة الحال يجب أن نصر على تحديد للقانون المعنى الذي سيطبق على القضية ، ولقد سـوينا اجراءات المرافعة ، لهذا الغرض ad hoc ، طبقا للقانون مرافعاتنا ، ولكننا نعتد أساسا على براهيننا على أن عرابي ، ان كان على حق أو على خطأ ، كان يراس بالفعل حركة وطنية وأنه تلقى التأييد المعنوي والمادي من مصر كلها تقريبا ، وأنه كان الشخص الوحيد الذي ترك وحده عندما فشل في تحقيق النصر . هذه الحقائق نحن نشعر بأننا متأكدون من تدعيمها ، وأكثر من هذا سنبرهن على أن الصراع الراهن كان أكثر حرب انسانية عرفت في تاريخ الشعوب ، تميزت بالانعدام التام للدعور من القتال العادي ، وبأن جهود قوادها كانت موجهة ، بصورة متماثلة ، الى حفظ النظام واستتباب الأمن سواء بالنسبة للأشخاص أو الممتلكات . أما عن جرائم الاسكندرية : فإن أية معلومة أعطيت للصحف ، قد وصلتنا بالفعل ، ومع ذلك ، فعلينا أن نعرف من الذين يتهموننا . ان كل ما نستطيع أن نقوله في الوقت الراهن هو أن كل سلوك لاحق لـ « عرابي باشا » هو في ذاته أنصع دليل في صالحه . وإذا كان « عبد القادر » التونسي قد أرسل وحده منغيا الى دمشق ، الا أن غاراته على الجزائر قد فاقت في خطورتها ووحشيتها أية افتراءات على « عرابي » حتى من أعدائه .

اننا لم يسمح لنا بلقاء عرابي . الا في يوم ٢٢ أكتوبر ، وسمح لنا بزيارة موكلينا الآخرين بعد ذلك ببضعة أيام ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأحد أن يتهمنا بعدم المثابرة ، لقد عملنا بلا انقطاع وبمساعدة مجموعة مؤلفة من عشرين ما بين مترجمين وكتبة في فحص وثائق كلا الطرفين . لقد بدأ المدعى بالاتصال فيما يختص بسير القضية أول نوفمبر . وهذا العمل هو اليوم بعيد كل البعد عن الكمال ، وما لم يتم ذلك العمل ، فلن نكون قادرين تماما على أن نبدا ما هو أكثر أهمية وهو استجواب الشهود .

وليس بنا رغبة في أن نستعرض « أسلوب بلاغتنا » أمام المحاكم المصرية ، ونحن على استعداد تام لأن نعرض فقط الدفوع المكتوبة بالعربية لتقرأ في المحكمة علانية ، ولكن ما نطلبه بالفعل هو الوقت الزمنى لفحص الوثائق والأدلة الموجودة التي سيعتمد عليها الدفاع كبراهين كما سبق أن أوضحنا ذلك آنفا ؛ وبدون الموافقة على تحديده ، لن يكون لناقذ حياة « عرابي باشا » سليما أو عادلا، واننا نسلم بأن هذا الأمر له أهميته بالنسبة لمن

الفصل السابع عشر

رواية أحمد رفعت

قبل مجيء « لورد دافرين » للقاهرة بيومين ، كان « أحمد رفعت بك » الذى سبق أن شرحت أنه كان سكرتيرا لمجلس النظار الوطنى ، كان قد أعطانى تقريراً عاماً عن دفاعه ، بالإضافة الى ما قدمه لى من مختلف الملاحظات والمذكرات لمساعدتى فى الاعداد للمحاكمة المقبلة . وكان « رفعت بك » قد جمع روايته باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كتابة وحديثاً ، وقد قصده أن يقص روايته بنص كلماته ، قدر المستطاع .

كتب رفعت يقول : « هل كان حلما شهدت بنفسى فيه مصر كلها ، على مدى شهرين كاملين ، تشن حرباً منظمة أعلنها خديويها ضد دولة كبرى مثل انجلترا ويسانده فى مهامه « عرابى » الذى عهد اليه الخديو نفسه بقيادة تلك الحرب ؟ لو كان هذا كله مجرد رؤيا ، لو كان على أن أستمر فى جهلى لماذا كان على شخص مدنى مثلى أن يبقى زمناً طويلاً فى السجن أنتظر محاكمتى أمام محكمة عسكرية ، فى حين أن نفس ولاية الأمور المدنيين والدينيين المسئولين عن الحرب لازالوا طلقاء ، وإذا كان لا يزال على أن أبقى فى هلع دائم من سوء المعاملة فى زنزانتى على يد عصابة من « الانكشارية » والشماشرجية كما حدث لى فى اليوم الذى ألقيت فيه - اذن ، فليس لى فى الحقيقة الا القليل لأقوله دفاعاً عن نفسى . ان كلماتى لا يمكن أن تساعد فى حل اللغز الذى طرحه أبو الهول للمسألة المصرية ، خلال ما يقرب من سنتين .

« ولكن لم يكن الأمر كذلك ، لقد وصل شعاع ساطع من العدالة الى زنزانتى ؛ اذ أن ذات الانجليز الذين هزمونا فى المعركة يطالبون لنا

وأثناء المظاهرة عند عابدين ، كنت فى صحبة « حيدر باشا يكن » ، وهو من أقارب الحديو ، الذى أخبرنى أنه نصح « توفيق » مرارا وتكرارا أن يقلل نظارة « رياض » لمعارضتها للأمال الشرعية للبلاد ؛ أما ما أعقب هذه الأحداث فقد صار الآن جزءا من التاريخ . وقبل « شريف » النظارة ، ويبدو أنه تبنى البرنامج الوطنى ، وبعد ذلك ببضعة أيام ، اذ ب « سلطان باشا » ، على رأس وفد ضخم ينتظره ويطالبه باسم البلاد بأسرها بالوفاء بوعوده ، وأعقب ذلك دعوة البرلمان المصرى للانعقاد على الفور .

» ثم قدم بعد ذلك الوفد التركى الى مصر برئاسة « على نظامى باشا » ، واننى أفضل أن أعطيك بيانا منفصلا عنه . (*) . وبعد رحيل المندوبين ، أجريت الانتخابات ، وفى النهاية افتتح البرلمان فى الموعد المحدد له برئاسة « سلطان باشا » ، وألقى كل من « سلطان باشا » و « شريف باشا » خطابين كانت تفوح منهما أقصى ليبرالية وأمجى وطنية . وبالرغم من أن قوة الخطاب الأخير منهما كانت ضعيفة بعض الشيء عن قصد ، كما بدا ذلك من ترجمته التى ظهرت فى النسخة الفرنسية للوائح الرسمية ، إلا أن تأثير هذين الخطابين البرلمانيين كان لاشاعة أقوى الآمال فى أرجاء مصر ولاذكاء شعلة الوطنية المصرية المتأججة الآن تاججا كاملا . لقد بدا أن عهدا جديدا قد بدأ ، وفترة تاريخية قد استهلكت ، ولم تعد عبارة « مصر للمصريين » عبارة جوفاء . بعد ذلك بأربعة أشهر ، وقع « شريف » تحت رد فعل الآمال المحبطة والوعود غير المنجزة ، فرفض السير فى اتجاه البرلمان حول موضوع الميزانية ، ولم يجرؤ على المساس باتفاقية استخدام طوائف الموظفين الأوربيين . لقد خضع للأمال الوطنية التى كان يسعى كثيرا لغرسها ، واعتزل منصبه ليخلفه « محمود سامى باشا » ، وكان هذا فى فبراير ١٨٨٢ ، وصرت أنا سكرتيرا لمجلس النظر .

لقد وجد الحماس الشعبى الطاغى منافذ أخرى غير مجرد النقاش البرلمانى ، فقد كان هناك ناديان أو جمعيتان لأعمال الخير Sociétés de bienfaisance هيثنا للحركة الوطنية التى اعترفت بهما اعترافا كاملا (والتى صار « عرابى » بما له من مواهب وقوة شخصية ، رئيسا لها) مجالا هائلا . لقد أنشئنا على أحسن أسلوب نظامى وقانونى ، وتبارى كبار الموظفين المصريين فى تسجيل أسمائهم أعضاء فيهما ، وكانت أولاهما تدعى « المقاصد الخيرية » وكان رئيسها الشرفى « الأمير عباس » ، الابن الأكبر للخديو ، وكان نائب الرئيس « سلطان باشا » نفسه ، فى

(*) استجده فى الصفحات التالية .

وضعى ، وعرضت عليه أن أبعث اليه بالنسخ النى فوض الى تسليمها .



« وفى نظارة « راغب » التى تشكلت فى العشرين من يونيو ، أعيد تعيينى سكرتيرا لمجلس النظار ، ولكن ضرب الاسكندرية بعد ذلك بثلاثة أيام حال دون تسلمى عملى . وفى اليوم التالى ، وردت تليفراغات رسمية من راغب باشا تعلن الحرب بين مصر وانجلترا ، وأنه نتيجة لذلك فقد أصبحت البلاد بأسرها خاضعة للقانون العسكرى .

« دعا « يعقوب باشا سامى » وكيل نظارة الجهادية ، كل زملائه ، بالاضافة الى رؤساء مختلف الادارات ، للحضور الى ديوان الجهادية حيث أخبرهم أن كل قسم من الادارة ، بما فى ذلك الصحافة ، يجب أن يطيع الأوامر المنقولة اليه من خلال ناظر الجهادية ، وأن كل فرد يعجز عن أداء واجبه سيعاقب طبقا لبنود القانون العسكرى .

« وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة أيام ، سمعنا أن الاسكندرية قد احترقت ، واذا بحشود من قاطنيها التعساء تزدحم بهم القاهرة ، التى صارت الآن أشبه بمدينة غزيت ، وأدى الافتقار الى أبناء يعتمد عليها ، الى إثارة قلق عام ، وقد بدأ أى تأكيد لمعلومة أمرا مستحيلا . وفى توجيهى الى ديوان الجهادية ، وجدت أن « يعقوب باشا » ومدير الأمن ، قد اتخذوا كافة الاجراءات اللازمة للمحافظة على النظام ، كما أن اللاجئين عن الاسكندرية قد وزعوا على مختلف المديريات .

« عند هذا التلاقى للأحداث ، أو بعد ذلك بقليل ، تلقى « حسين باشا الدرمللى » (وكيل نظارة الداخلية) بلاغا من ناظر نظارته فى الاسكندرية أنه قد تم الوصول الى السلام ، وأنه نتيجة لذلك ، يجب وقف كل التجهيزات للحرب ، وأن اللاجئين يجب أن يعودوا ثانية الى موطنهم الأصلي ، ؛ ومع ذلك فقد كانت التليفراغات التى وصلت « عرابى » قد صيغت فى لهجة مختلفة تماما . لقد سمعنا من مسئول ثقة أن الحديو قد صار فعلا فى أيدي الأميرال الانجليزى وأن العمليات العسكرية مازالت مستمرة فى « كفر الدوار » .

« وكانت البلاد ، فى الواقع ، بلا حكومة ، عندما تلقيت مذكرة من حسين « باشا » رئيسى المباشر ، تخبرنى أننى قد عينت عضوا فى « المجلس العرفى » الذى سيجتمع فى ديوان الجهادية ، وفى الوقت نفسه تشكلت جمعية عمومية مكونة من كل رؤساء الادارات وكثير من العلماء والموظفين ، وعقد اجتماعها فى ديوان الداخلية . وقد استقر الرأى فى

وبعد ذلك بوقت ، أعد « الشيخ محمد عبده » مذكرة عن أحداث الاسكندرية يوم ١١ يونيو التي بالاضافة الى بيانين أو ثلاثة متماثلة في طبيعتها ، اتارت وقتها الكثير من الحقد . وقد لا يحتمل أن تجسد الحقيقية الصادقة ما يدعمها ، ولكن هناك حقيقة واحدة تبرز واضحة في المناقشة ، أعني أن كارثة مثل هذه الكارثة ، كان من الواضح أنه كانت على غير ما كان يتمناه « عرابي » ، إذ انها كانت تعنى بالنسبة له ، كارثة لا ينقصها الا القليل من الدمار الاجتماعى والسياسى المطلقين ، ولو كان ما أوحى به هو السبب ، لكانت الكارثة ، تعنى انتحارا أخلاقيا متعمدا ، فى حين أنه من الناحية الأخرى ، نتائج نفس الحادث بالنسبة للأعداء ستكون مفيدة بصورة واضحة . والأمـر كله يتخذ موقعا مختلفا تماما ، لو نظر اليه فى مختلف الأضواء الحكومية العريضة ، الغربية منها والشرقية ، فبالنسبة للأولى : ستعتبر مثل هذا الاجراء هو المثير للقيام بمذبحة أو حتى بثورة ، وهى جريمة لا تغتفر ، فى حين أن الثانية ستعتبر ما حدث أمرا له ما يبرره ، وربما تدعو الى التحول بمهارة على الصعيد الدبلوماسى . لقد رأى الشيخ « محمد عبده » بوضوح أن الأمر كان أمر حياة أو موت مع الحديو وحزب القصر المفقـد الثقة فى « عرابي » الذى لم يعد الآن ، بارادة « مصر » وحدها ، بل بموافقة «أوربا » كلها ، الحارس المسئول عن السلام العام ، وكان يعتقد أنهم لم يترددوا فى اتباع نفس هذا الأسلوب المثير للشك الا لاختفاء عداوتهم الناجمة تماما ، والتي صارت اليوم أكثر قوة ، وكان غيره من الناس فى مصر يظنون ويؤكدون نفس الشيء ، وفى هذا كتب « الشيخ محمد عبده » :

« عندما دب الخلاف بين الحديو ونظارة محمود سامى ، سرت اشاعة فى القاهرة ان الحديو سيعاـول ، من خلال اتباعه ، أن يثير شغبا فى القاهرة نفسها ، لذا ، فقد اتخذت احتياطات خاصة لقمع الشغب ، وطوال ما كانت النظارة فى الحكم راعوا هذا الأمر بصفة خاصة .

« واستدعى الحديو « ابراهيم بك توفيق » محافظ البحيرة وطالبة بوجوب جمع شيوخ قبائل البدو واحضارهم له ، فلما التقى بهم الحديو ، قابل الشيوخ بود بالغ ووعدهم بعود ، وأصدر أمره الى المحافظ بان يأمرهم بجمع ٣٠٠٠ من العربان ، وأن يأتوا بهم الى العاصمة من ناحية الجيزة على أمل أنه طالما لا نظام بينهم سينتج عن ذلك شغب فى المدينة ولكن الشيوخ وجدوا أن من الصعب عليهم أن يجمعوا مثل هذا العدد من الرجال نظرا لخوف القبائل من العساكر .

« ولما فشل فى هذا الأمر ، ارسل الحديو الى « عمر لطفى » (وكان محافظا للاسكندرية وقتذاك) بتلغراف بالشفرة اخبره فيه ان « عرابي » قد ضمن الأمن العام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وقد تحمل مسؤولية ذلك أمام القناصل ، فلذا نجح فى ضمانه فان الدول

عن جذادة ورق جاء فيها : « لو كنت مكانه لقلت نفس الشيء » وأعقب ذلك الاستجواب التالي :

الرئيس : موجود بند مندرج في جريدة « الطان » الفرنسية (المؤرخ ١٦ أغسطس موجه الى مديري المديريات والحفاظات تطالبهم بتكذيب ما أشيع عن حدوث مذابح بالقاهرة وتكذيب التقرير الذي يقول ان عرابي تلقى أموالا من حليم باشا (١) وعليه امضاؤك ، فهل تعترف بأنه صدر منك ؟

احمد رفعت : أعترف أن هذا البند صدر مني بناء على أوامر المجلس العرفي الذي كان متشكلا بقصر النيل ، ومن ضمن أعضائه على حسب ما أعلم : سعادة اسماعيل باشا أيوب واسماعيل باشا أبو جبل وجعفر باشا ، وجميع وكلاء الدواوين . والأفكار المشتعل عليها ذلك البند هي أفكار الجميع وموافقة للأحوال ، وهذا التلغراف وخلافه كان يتحرر بمعرفتنا بناء على استصواب المجلس وخصوصا بناء على تنبيه رئيسه يعقوب باشا سامي ، وكلنا كنا مشتركين ، حتى أن التلغراف الذي صدر بالعربي للاستئذان بتبليغ قرار المجلس العمومي الذي انعقد في الداخلية بتقرير « عرابي » في مسنده صار تحريره بمعرفة بطرس باشا .

الرئيس : البند المذكور محرر عنه أفكارك وليس عن أفكار المجلس العرفي كما يتضح من عبارته الصريحة وإدعائك بوجودي ضمن أعضاء المجلس العرفي فلا صيغة له ، فإني لم أحضر هذا المجلس ولم توجد محاضر أو قرارات عليها امضائي .

احمد رفعت : المعلوم أن التلغرافات التي تصدر عن الجوادث والوقوعات ترسل عادة بدون امضاء ، وكانت تلغرافات حوادث الحرب ترسل بهذه الصفة ، فلما وجدنا التلغرافات (المزيفة) المرسلة مندرجة بجرايد أوروبا بصفة كونها صادرة من أحد أعضاء حزب « عرابي » ، وتليت على يعقوب باشا سامي ، وافقني على أن أكذب كوني أحد المتحيزين وأن أوري أن ليس هناك حزب ولا متحيزون بل الأحوال تغيرت وصارت عمومية ملية بناء على اعلان الحرب بأمر الحضرة

(١) العبارات لموضوعة بين أقواس مربعة . بطول هذا الاستجواب ، عبارات سجلها مستر بروثي . بالانجليزية في نص كتابه ، ورايت اضافتها لما فيها من إيضاح لما غمض في الاستجواب . أما نص الاستجواب فمحفوظ بدار الوثائق القومية بالقلعة ضمن وثائق الثورة العربية ، محفوظة ٧ قضايا بالدوسيه ٣٨ . (المحقق)

أحمد رفعت : لم أتذكر أسماءهم إنما أعلم أنه في أحد الأيام حضرت امرأة من الحريم لم أكن متذكرا اسمها أيضاً وقالت انه مزعم اطلاق المدافع باكراً على مصر ، وفي جوابي السابق لم أقل أنني أعرفهم شخصياً .

وبعد يومين استؤنف هذا الاسد
كما قمت من قبل ، بتسجيل كل
وعند مثول « رفعت » (ولم يعد عصب
مرة أخرى كلما يلى :

الرئيس : حيث أنه معلوم أنه لك معرفة تامة باللغة
أوراق بالجهادية محررة بهذه اللغة ، ومن
« نسيم بك » (أحد أمناء القصر الامبراط
ولم يكن عليها امضاء ، فيها هي أطلع عليه
حررتها أم لا ؟

أحمد رفعت : هذه الورقة هي صورة افادة كانت تح
التلغرافات المذكورة فيها ، وبناء على تفهم
باشا سامي رئيس المجلس العرفي ، وباطل
باشا وأحمد باشا نشأت وخلافها ، لم أكن
الآن ، وبعد ذلك تليت رسمياً على أعضاء
سعادة جعفر باشا واسماعيل باشا أبو جبل
باشا وكل من كان حاضراً وقتها ، وب
التصحيحات فيها وتصلق عليها فهم وصد
لا أتذكر من وكلاء الدواوين جميعاً أو منه ر
وبعد ذلك عطيت للتلغرافجي لارسالها ولك
تُرسل .

الرئيس : حيث أن هذه الورقة مسودة واعترفت بألك حررتها فوقع
عليها امضاءك .

أحمد رفعت : قد وقعت عليها .

الرئيس : قد اعترفت بانشاء الورقة المذكورة فقل لنا هل هي مكتوبة
بخطك أو بخط خلافاك ؟

أحمد رفعت : لم تكن مكتوبة بخطي ولم أعلم بخط من .

الرئيس : موجود ورقة ثالثة موقع عليها ختمك وأختام أعضاء المجلس

العرفى ومحرورة بعنوان « بسيم بك » ، فاطلع عليها وقل لنا هل أنت الذى أنشأت عباراتها أم لا ؟ •

أحمد رفعت : نعم هذه الورقة أنشأت عبارتها أيضا بناء على استصواب أوامر المجلس العرفى ، وأتذكر أن أغلب الأعضاء وخصوصا سعادة اسماعيل باشا أبو جبل وسعادة جعفر باشا وسعادة مرعشلى باشا وسعادة أحمد باشا حسنين ، كانوا ممن يرون لزوم أخبار الاستانة أولا فأولا عما هو حاصل •

الرئيس : موجود ورقة رابعة موقع عليها ختمك وإختتام أعضاء المجلس العرفى ومحرورة بعنوان باشوكيل الدولة العلية ، فاطلع عليها وقل لنا هل أنت الذى حررتها أيضا ؟

أحمد رفعت : هذه الورقة هى نسخة ثانية من الورقة المخنوم عليها منى ومن بعض أعضاء المجلس ومعنونة باسم « بسيم بك » وجاوبت عنها الجواب المتقدم •

الرئيس : هنا ورقتان أخريان ، احدهما بعنوان باشوكيل الدولة العلية والثانية بعنوان « بسيم بك » ومختومتان منك ومن بعض أعضاء المجلس العرفى ، فاطلع عليهما وقل لنا ان كنت حررتهما أيضا أم لا ؟

أحمد رفعت : هذان التلغرافان يشتملان على تفصيل واقعة كفر الدوار وكتبتهما ترجمة من التلغرافات التى وردت عن ذلك من عرابى باشا ومختوم عليها من سعادة مرعشلى باشا وبطرس باشا وسامى باشا وابراهيم بك فوزى مأمور الضبطية سابق وأحمد بك وحافظ بك باشكاتب الدائرة السنية وأحمد بك شكرى وكيل الدائرة وخلافهم ، وأرسلها للاستانة •

الرئيس : موجود أيضا ورقتان باللغة التركية بعنوان « بسيم بك » ومختومتان منك ومن بعض أعضاء المجلس العرفى ومؤرختان فى ٢ أغسطس ١٨٨٢ ، فاطلع عليهما وأفد عما اذا كانا من انشائك ومكتوبتين بخطك أم لا ؟

أحمد رفعت : الورقة الأولى مختوم عليها من جميع أعضاء المجلس العرفى ما عدا اثنين أو ثلاثة ، تشتمل على استعجال ورود خبر وصول قرارات المجلسين العموميين السابق انعقادهما بالداخلية وعرض عنها قبله ، والورقة المذكورة انشأتى ومكتوبة بخطى ، والورقة

فلا نخسر الآخرة حتى ، وأنه فى يوم الخميس الموافق ٥ أكتوبر صار
فتح باب أودتى بشدة لم تسبق فى الأيام التى أقمتها قبل ذلك
التاريخ ، وصار هجوم جماعة داخل الأودة ، والباقي بقى خارج
الباب ، وفى مقدمتهم أحمد أفندى كمال المذكور ، فزق على وفزع
بقوله : « قم ، قم » ، فعند قيامى لم أدر لماذا يطلب ذلك ، وكان
بجانبه القواصة الترك واحد واحد ياوران الحضرة الحديوية وخلفه
بتونجى لم أعرف اسمه إنما لو رأيته أعرفه ، فابتدى يمسكنى بيديه
الاثنين من أذرعى ويحسس بغلظة ، ونزل الى صدرى ومن بعده لآخر
أقدامى وبعد التفتيشات والتشبهية بقفل الشبايك والاعتراض على وجود
فرش ، خرجوا ، وبعد ذلك أحد معاوني الجراكسة دخل عندى
وهيئته دلتنى على أنه يبكى على ، ويقول : « مقدر عليك ويلزمك
أن تتجلبد » ، وأظن أنه فى ثانى يوم أو فى اليوم نفسه صار
الابتدا فى تسمير أحد درفات أبواب أودنا والشبايك ووضع
تحصينات حديدية عليها ، وفى يوم السبت التالى لهذه الواقعة يوم
صار احضارى أمام القومسيون ، فاجابنى وقتها كانت تحت تأثير
ما رأيته وما سمعته ، وما كنت أظن حصوله ونسبت أن أذكر أنه
فى ليلة طلبنا من المنزل الساعة ٨ عربى ، ليلا ، كان فراش
الضبطية يبكى بالدموع بحضور خادمى ، مذكأن يوقد الشمعة ،
فاذا كانت حالتى هكذا فى وقت استجوابى فى ٧ و ٩ أكتوبر
١٨٨٢ ، فهل ترون سعادتك مع كل ذلك أن تعتبروا قانونا وشرعا
أن اجاباتى يعول عليها أم لا ؟

الرئيس : هل ترغب بواسطة الاجابة المتقدمة ، رفض اجاباتك السابقة
التي أعطيته قبل حضور الأفوكاتو المحامى عنك ؟

أحمد رفعت : أظن أن سعادتك تصدقون على أن لى الحق فى ذلك ،
خصوصا وأنى ، كما عرضت ، وجدت فى محضر اليومين السابق
ذكرهما الذى سبقت فيهما تارة من طرف سعادتك وتارة بالفرنساوى
من طرف جناب بوريللى بك ، أن بعض سؤالات البيك المؤمأ اليه لم
تكن غير مندرجة فى المحضر المذكور ، ووجدت تحريقات وتغييرات
طلبت من سعادتك التصريح لى ببيان تصحيحها عنها ، لو اعتبرتم
الاجابات المحكى عنها شرعا .

(الرئيس : يمكنك أن تنصرف) .

ولست فى حاجة الى أن أقول أنه فى الوقت الذى غادر فيه قومسيون
التحقيق حتى اليوم الذى غادر فيه « أحمد رفعت بك » مصر (الى الأبد ،
فى كافة الاحتمالات) محكوما عليه بالنفى لخمس سنوات ، فى هذه
المرّة التى بلغت أربعين يوما ، لم يتحرش به أحد أبدا ، بل ان « اسماعيل
أيوب » ، قد اكتفى تماما باستجواب شخصية وطنية سريعة البديهة
وخطيرة .

يعرف عني أبدا أنني أسأت الى انسان أو ألحقته به ضررا واستطرد
 « لمدة ثلاثة أشهر بالقاهرة ، كانت حياة الخديو أتولى حراستها بنفسى
 فى حماس يوما بعد يوم . فلو كانت بى رغبة فى اغتياله ، فكنت
 فعلت ذلك فى أية لحظة . لماذا كان على ، اذن ان أفكر فجأة فى
 فكرة اغتياله فى الوقت الذى كنت أعتقد وقتها انه وقت نكباتنا
 وقت نكباتنا المشتركة ؟ » وأضاف قائلا : « هل أنا اذن فى حاجة الى
 أن أقسم لك قسما غير حادث أن ما قاله « سليمان سامى » محض
 افتراء ؟ » ، وبناء على اقتراحى ، وعد بأن يكتب بيانا كاملا عن تحركاته
 فى تلك الأيام المليئة بالأحداث ، ولكنه رجائى أن أبعث له بخادمه الأمين
 « مجيد » الذى كان دائما الى جواره ، وقال : « اننى كلما أفكر فى ضرب
 الاسكندرية ، اذا بالشعور بالدوخان الذى كان ينتابنى قديما (مشيرا
 الى رأسه) لا يلبث أن يعاودنى وتصبح ذاكرتى فى لبس . اننى أريد
 أن أسأل « محمد » عن نقطة أو نقطتين . وبعد ذلك بيوم ، أكمل البيان
 الذى طلبته منه ، وفيما يلى ترجمة « مستر سائتلانا » لرواية عرابى
 عن كل ما فعله طوال عملية لورد ألكستر Lord Alcester (١) الحربية : -

« أثناء بقائى بالاسكندرية مع النظارة ، فى الفترة من ٧ يوليو
 حتى ١٠ منه ، اعتدت أن أتوجه فى الصباح الى قصر رأس التين ،
 وأعود منه بعد المغرب ، نظرا للاجتماعات المطولة التى كان يعقدها
 النظار ، فى المساء اعتدت أن أكون بنظارة البحرية .

« وفى ١٠ يوليو اجتمع مجلس النظار ، كما عقدت اجتماعات
 أخرى برئاسة الخديو وبحضور المندوبين العثمانيين . وقد استقر
 الرأى على أن من واجبنا أن نرد على نيران البوارج الانجليزية ، بعد أن
 تطلق خمسة أو ستة كلل ، وانفض الاجتماع فى الساعة الخامسة فى
 ذلك اليوم ، وانتقل الخديو وأسرته الى قصر الرمل ، وتوجهت أنا الى
 نظارة البحرية ، وأصدرت التعليمات اللازمة لقائد القوات ، وكان على
 سلاح البيادة أن يساعد الطوبجية ، نظرا لأن عدد رجال الطوبجية كان
 أقل من العدد المطلوب .

« وفى صباح يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ ، فى الساعة السابعة صباحا
 فتحت البوارج (الانجليزية) نيرانها ، فردت عليها الطوابى بناء على

(١) أحد قادة البحرية الانجليزية الذين اشتركوا فى ضرب طوابى الاسكندرية ،
 وكان أول من أعلن استيلاءه لرفع المصريين المدافعين عن بلادهم ، للرأية البيضاء . انظر
 تفاصيل موضوع رفع الراية البيضاء ، والتكيف القانونى والعسكرى له أثناء الحرب ، فى
 الفصل الثالث والعشرين من هذا الكتاب . (المحقق)

الاولامر . ونظرا لأن القذائف كانت تسقط كثيفة جدا على نظارة البحرية توجّهت مع « طلبة الباشا » الى طابية « كوم الدماس » بالقرب من الباب الجديد ، ونظرا لانها كانت مرتفعة جدا ، فقد سمحت لنا برؤية بقية الطوابى . وسقطت القذائف كثيفة جدا فى طريقنا ، وانفجرت واحدة منها بالقرب من الباب الجديد وقتلت ضابطين وستة من رجال البوليس وحصان عربية كانت واقفة .

« بقيت فى الطابية المذكورة حتى العاشرة والنصف بالتوقيت العربى (الرابعة بعد الظهر بالتوقيت الافرنجى) وأثناء الضرب ، جاء كل النظار الينا ، بالاضافة الى رسل من عند الخديو ومن درويش باشا ، يحملون تحيات صاحب السمو ودرويش على الموقف الرائع للقوات ، بالرغم من أن التحصينات لم تكن قد استكملت بعد ، وبالرغم من أن البوارج الانجليزية كانت مسلحة أحسن تسليح ، وفى الساعة الثالثة من نفس اليوم ، جاء من القاهرة « عمر بك رحمى » والشيخ محمد عبده ، وكان معنا أيضا رئيس ضبطينية الاسكندرية « مصطفى بك صبحى » و « سليمان بك سامى ، ويبدو أن الأخير قد فقد عقله اذ كان يتحدث حديثا لا معنى له لم أعره أدنى اهتمام ، نظرا لأننى كنت مشغولا بالحديث مع رئيس الضبطينية حول نقل الموتى والجرحى الذين كانوا فى الطوابى والشوارع ، وسمعت « سليمان سامى » يقول: « يجب أن نغلق القناة » ، فقطعت حديثى للحظة مع ضابط البوليس لأعلق قائلا : « قناة السويس حيادية ويجب ألا تمس » .

« وبعد أن أنهيت حديثى مع رئيس الضبطينية وجهت اللوم الى « سليمان سامى » على تركه قواته فى مثل تلك اللحظة ، وبقيسومه ليقلقنا بما لا معنى له وأمرته بأن يعود ثانية الى موقعه ، وبعد ذلك تركنا ، وكان موجودا وقتها « طلبة باشسا » و « عمر بك رحمى » و « الشيخ محمد عبده » .

« وتوقفت النيران ، وغادرت الطابية ، فوجدت حشدا ضخما جدا قد تجمع بالقرب من الباب الجديد ، وأحاط الناس بى ومنعونى من السير ، وكانوا فى ذعر شديد . أعدت توكيدى لهم وطمأنتهم ، فخرج سعادة « راجب باشا » وأبعدنى عن الحشد ، وأخذنى الى داره ، وكان هناك حضورا : « شريعنى باشا » « سليمان باشا أباطة » و « زبير باشا » و « سلطان باشا » و « اسماعيل حقى باشا » ، وبعد أن صليت العصر ، توجهنا جميعا الى قصر الرمل ، لنعرض حالة الأمور على

الخديو ، وكان ذلك قرب المغرب ، وبقينا هناك حتى الساعة البانية .
عقد اجتماع خلال هذا الوقت برئاسة الخديو وحضره أيضا « درويش
باشا » ، وقد تقرر رفع الراية البيضاء لو فتحت البوارج نيرانها ،
كدلالة على اننا نريد أن نتفاوض ، وقد كلف « طلبه باشا » بأن يذهب
الى الأميرال الانجليزى ليحيطه علما بما استقر عليه الأمر .

« ثم توجهت أنا الى باب شرقى وأصدرت أوامرى الى قائد الموقع
بالاسكندرية أن يرفع الراية البيضاء لو فتحت النيران فى اليوم التالى
قضيت الليلة هناك فى غرفة مخصصة لقائد موقع باب شرقى ، وبعد
منتصف الليل ، جاء « طلبه باشا » وتلقى فى التعليمات التى استقر
رأى المجلس عليها ، وكان فى الغرفة معى طوال غالبية ذلك الوقت ،
« عمر بك رحى » و « خليل بك كامل » .

« وفى الصباح التالى ، فى الساعة السادسة من يوم ١٢ يوليو ،
وصل « محمود باشا سامى » سألت عن وقت وسبب قدومه الى
الاسكندرية ، فقال انه وصل أثناء الليل وأنه توجه الى ضبطينية
الاسكندرية ثم الى دار رئيس المجلس « راغب باشا » وآخرين ، وأخيرا
نزل ببنيسبون فى المدينة وقضى فيه الليلة ، وقد جاء ليرى ، كما قال ،
وضع الأمور ، وكجندى ، كان على استعداد لأن يقاتل من أجل وطنه ،
فشكرته . وبعد ذلك جاء « محمود باشا فهمى » و « عايد بك »
و « سليمان بك سامى » ، وأعقب ذلك حديث عما ينبغى عمله فى حالة
اصرار الأميرال البريطانى على إعادة فتح النيران وأية أماكن يمكن للجيش
أن يعسكر بها فى حالة ما اذا اضطر لترك المدينة . سمحت
ل « محمود باشا فهمى » و « خليل بك كامل » بأن يتوجهوا الى
المحمودية ويقوما بالاستطلاع من « حجز النواتية » الى « كفر الدوار »
وأن يضعوا خطة لأى موقع قد يجدانه أكثر ملاءمة ، وتوجهوا الى مهمتهما
والتزم رئيس البوليس بأوامرى بمساعدة الجرحى الذين كانوا فى
أقصى الطوابى مثل طابية العجمى والمكس وعلى جانب القبارى ، وبعد
هذا توجه « طلبه باشا » الى نظارة البحرية ليباشر مهمته . وفى
الساعة التاسعة والنصف فتحت البوارج نيرانها ، فخرجت من غرفتى
لأشاهد رفع الراية البيضاء ، وتركنى الأشخاص الذين كانوا حضورا
••• تركونى ليتوجهوا الى مواقعهم المختلفة ، وبعد عشرين أو خمسة
وعشرين كلة توقف الهجوم . وبعد ذلك بنصف ساعة ، جاءنى رسول
من عند الخديو ، توجهت الى قصر الرمل وعرضت على الخديو نتيجة
رفع الراية البيضاء على الطوابى . وذكرت له أن عشرين أو خمسة

« وعند وصولي باب شرقي ، وكان ذلك في الخامسة مساءً ، وجاءت الأميرالاي « عايد بك » الذي أخبرني أن هناك إشاعة في المدينة أن الانجليز سيبدأون في إطلاق النيران مرة أخرى ، وأن الأهالي بل وحتى الجنود قد غادروها في حالة فوضى ، وقال انه كان يحاول أن يجمع جنود فرقته . شجعتهم على أن يفعل ذلك ، وأن يمنع جنوده من التفرق ، ووقفت أنا نفسي أمام البوابة لأوقف الجنود . لقد أخبرني « محمود باشا سامي » و « عمر بك رحمي » أن « سليمان سامي » كان مع فصيلة من الجنود في المنشية ، وأنه كان في حالة من الجنون ، وكان يريد حرق المدينة ، ولم يكن لينصت لأية نصيحة ، على الفور بعثت في طلبه ، وأظن أن رسولي اليه كانا « ابراهيم بك فوزي » وضابط آخر لا أتذكر اسمه ، وأصدرت أوامري الى « عايد بك » ليبعث بأربع فرق لمنع الجنود من نهب المحلات . وفي الساعة الحادية عشرة أو ما يقرب من ذلك ، وصل « سليمان سامي » ومعه فرقتان كانتا في حالة فوضى كاملة . سألته عما اذا كان صحيحا أنه أراد أن يحرق المدينة ، فأنكر أنه كانت عنده أية نية من هذا القبيل ، وقال ان كل ما في الأمر أن جنوده كانت تحتل الشوارع المؤدية الى الميناء لمنع نزول القوات الانجليزية ، ولكني لما لاحظت أن بعض الرجال في حوزتهم أتيال وأقمشة أخرى ، فأمرته أن يقبض عليهم ويتعرف على الجنود الذين وجدت معهم هذه الأقمشة . انني لم أتوقف عن تشجيع الجنود وتذكيرهم بشرف رايتهم ، وحاولت بذلك أن أمنعهم من مغادرة المدينة وبسرعة أوقفت مقاومتهم ، بل اني قلت لهم انني قررت ألا أغادر المدينة ، وأنني على استعداد لأن أموت فيها . وسألتهم هل يريدون أن يتركوني وحدي ؟ وبينما كان يدور كل هذا ، جاء « حسن باشا شريعي » و « سليمان باشا أباطة » و « حسين بك الترك » ، ياور الحديو ، مع « محي الدين أفندي » ياور درويش باشا ووجدوني هناك لقد أخبروني أن الجنود الذين كانوا في الرمل كلا البيادة والخيالة ، أحاطوا بالقصر ومنعوا أي واحد من الدخول أو الخروج ، وسألوني عن سبب كل هذا ، ولكنني كنت أنا نفسي في غاية من الدهشة لسماعي بهذا . وعلى الفور ، أرسلت « طلبة باشا » ، الذي كان قد جاء لتوه ، ليأمر الجنود بمغادرة القصر والتحرى عن أسباب هذا السلوك الذي سلكوه ، وأعلنت أمام كل الأشخاص الحاضرين أنني لا دخل لي بما كان يحدث هناك ، ثم سألت بعد ذلك « سليمان بك سامي » لماذا بعث بجنوده البيادة الى الرمل ، فذكر أنه لما وجد بعض

يذكر شيئا عن حريق المدينة ، وكلا الاثنين أنيابه بشدة عن أن يقوم بفعل مثل هذا الفعل ، ولكن سليمان نهض فجأة في غضب واضح ، وعاد بسرعة الى المدينة . طلب عرابي من الشيمي أن يلحق به خشية أن يقترب فعلا أحق » ، ويعيده ثانية . وفعل الشيمي ما طلب منه ، ولكن في اللحظة التي لمس فيها ذراع سليمان ، دفعه الأخير دفعة قوية بذراعه ، فأوقعه أرضا ، فلما نهض ، كان سليمان قد بعد عنه بالفعل مسافة بعيدة الى حد ما .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، اتضح أن الشهادات التي سجلها القومسيون بالإضافة الى شهادة سليمان سامي ، التي وصفها لورد دافرين Lord Dufferin وصفا ملائما بأنها شهادة « مشبوهة tainted » اتضح أنها قاصرة تماما ولا تربط عرابي بحريق الاسكندرية ، وكانت عاجزة تماما عن أن تشكل لأول وهلة prima facie دليلا ضده . ان محاولة توريطه في حوادث ١١ يونيو بالاسكندرية ، كانت في الواقع محاولة فاشلة بصورة مكشوفة جدا (١) . وبعد ذلك ببضعة أيام كانت زنزانة « سليمان سامي » خالية ، إذ أنهم أسرعوا به فجأة الى الاسكندرية لينتظر محاكمة لاعترافه على نفسه بجريمته . وفي الصباح قبل أن يغادر القاهرة الى الأبد ، شاهد عرابي وهو يعبر الساحة المربعة تحته ، وعاد بعد بضع دقائق محكما عليه بالنفي لمدة بسيطة لاتهامه رسميا بالعصيان . ان أصدقاء « سليمان سامي » السابقين قد صاروا الآن ألد أعدائه : ألم يرو قصصا ملفقة عن لقاءاته مع مدير مديرية الاسكندرية ونائب مديرها ، وهو في طريقه الى القاهرة ، أو ما حدث فعلا في الاجتماع السري لقومسيون التحقيق ؟ وفي السجن في الاسكندرية ، وهذه حقيقة ، قام « سليمان سامي » بعدة محاولات فاشلة ، أولا لتخفيف عقوبته ثم لانكار اعترافه الأصلي ، ومع ذلك فلقد تقرر أن يحاكم طبقا لقوانين الشريعة الاسلامية التي تقرر بصورة قاطعة أن اعتراف الشخص على نفسه يمكن أن يؤخذ على أنه إجراء حتمي ضده ، ولكن لا يمكن أن يعد كافيا لدانة آخرين هو اتهمهم في هذه القضية ، ولم تتردد محكمة الاسكندرية العسكرية في ادانته . ومنذ كان الفجر أخذوا في البزوغ صمباح يوم ٩ يونيو ، جاء بـ « سليمان بك سامي بن داود » من السجن وهو يكاد يموت من الرعب مشفق من رقبته حتى مات وسط نفس الأطلال التي ساعد منذ سنة

(١) تلتيت في ذلك الوقت بيانا من الشيخ محمد عبده وآخرين حول هذا الموضوع .

مضت تقريرا على اقامتها . أما عما اذا كان حريق الاسكندرية يشكل جريمة ، اذا نظر اليه على أنه ضرورة عسكرية ، فهو موضوع صعب جدا . لقد اعترف « سليمان سامي » باضرامه النار ، ولكنه ادعى ، تبريرا لذلك ، أنه امتثل لأوامر رئيسه ، التي كانت بمثابة قانون ، ولكن « عرابي » أنكر بصورة متكررة هذا التوكيد . وقد فشل « سليمان سامي » تماما في البرهنة على ادعائه ، ومما يقوى الاعتقاد بأن ادعائه كان مختلعا ، حقيقة أن بيانات « سليمان سامي » كلها كاذبة في نفاصيلها وتحتمل الصديق ونقيضه . اننى أعتقد أن تنفيذ حكم الاعدام عليه حكم يستحقه تماما ، وهناك شيء واحد لا يرقى اليه شك : أنه لم يمت انسان في مصر كان الناس أكثر تقززا منه ولم يترحم عليه أحد مثل ميثة « سليمان سامي » .



شكل ٩ - محمود سامى باشا البارودى

وما أن تلقيت التصريح المطلوب حتى زرت « محمود باشا سامى »
 فى زيارته ، التى وضع فيها القدر المعتاد من المناضلة والكراسى التى
 صنع مقعدها من الخيزران . كان أول طلب له ، وأنا سعيد أن أذكره ،
 أن يسمح له بأن يكتب خطابا يشكر فيه زوجته ، ولا داعى للقول بأننى
 كنت على استعداد لأن أحقق له رغبته ، ثم أعقب ذلك سرده للمقصة
 القديبة ، سوء معاملته فى السجن ، ورد فعل اليأس ، وإعترافات الضعف
 اليائس أمام القومسيون . لقد استفاد محمود سامى أكثر من عرابى من
 « الاتصال الأوربى » . لقد كان أكثر مهارة فى السياسات الحديثة وفى
 الدبلوماسية ، وربما كان أكثر مهارة وأكثر ثقافة من ناظر جهاديته
 السابق ، ولكنه كان يفتقد الاحساس المرهف والوطنية البعيدة تماما
 عن الأثرة ثم الحماسة ، وهى الصفات التى كان يتصف بها عرابى ،
 والتى نجم عنها التأثير المغناطيسى لشخصية كان من الصعب مقاومتها .
 عرابى لم يكن يفكر إلا فى مصر ، صحيح أن محمود سامى كان يفكر أيضا
 فى مصر ، ولكنه كان يفكر قليلا فى نفسه وفى طموحه أيضا ، ولكن
 يجب أن يكون فى الحسبان أن جيل النظار المصريين الذين سبقوهم
 كانوا يفكرون فحسب فى مصباحتهم الشخصية وفى تمجيد أنفسهم ولم
 يفكروا على الإطلاق فى وطنهم الذى كانوا يتظاهرون بمساعدته بحكمهم له !

وكان موكلانا الثمانية الأصليون (اذ اننا قد قررنا فى الوقت الراهن
 أن نتولى الدفاع عن الصاغ « خضر خضر » بدلا من « عثمان باشا فوزى »)

الوقت الذى لجأت فيه سلطات السجن الى انتقام تافه نظرا لتشككتنا فى الأطباء الأتراك وفى الحراس الجراكسة ، فكانت تطلب بصورة متكررة وملحة ، تذوقه أدوية موكلينا قبل أن يتعاطوها ، أو بأن تكون الدعوات لزيارة السجن بعد أن يكون قد خيم عليه الظلام للتأكد من عدم وجود أى تدبير لأية خيانة . وكان الشيخ محمد عبده وأحمد رفعت يتطلعان فى حماس الآن لأن يحاكما محاكمة علنية ، وكاد أولهما يسترد قوته الذهنية العادية ، وساعدنا كثيرا فى اعداد مذكرة مستفيضة عن الشريعة الاسلامية كان مقصدنا أن نعتد عليها ، الى حد ما ، بالاضافة الى تحليل الجريده « الوقائع الرسمية » . وهو أيضا أعادت اليه الثقة كثيرا رؤيا أراحته : فقد حلم أن « توفيق » قد نجح فى أن يلف سلسلة طويلة وثقيلة حول جسمه بأحكام ، ولكن الشيخ ، بقوة فجائية ، كسر قيوده شطرين وأطلق سراح نفسه .



من جانبنا ، بذلنا كل جهد للاعداد للنضال المنتظر بأسلوب يناسب أهمية المصالح التى أؤتمنا عليها ، وعلى افتراض تطبيق أى منهج معروف من مناهج القانون (وهو أمر محال) ، وعلى افتراض أيضا لمحاكمة عادلة أمام محكمة محايدة (وهو أمر لازال محالا) ، فإن الدعوى المثارة بين « الخديو توفيق » و « عرابى » قد عرضت من وجهة نظر قانونية وتكنيكية بصورة جذابة لم يسبق لها مثيل . ولا يمكن لشخص عاقل أن ينشغل بتوكيد المحامى المصرى (الذى كان رفيقى فى السفر منذ ستة أسابيع مضت بين القاهرة والاسكندرية) أن الادعاء الذى فضلته الحكومة الخديوية ضد « العصاة » قد هياكل الفرص « لقضية جميلة » (اذا استخدمنا نص كلمات المحامى المصرى) . من الواضح أن الأشياء المتطلبة التى عجزنا عن توفيرها حتى ما هو أبسطها ، لا شك أنه أثر تأثيرا كبيرا جدا على الوضع الذى وجدنا أنفسنا فيه .

ولقد استرعى انتباهنا فى المقتطف الموجز للاتهامات المعنية والذى سلمه لنا بوريللى بك « أن بنودا معينة من القانونين العثمانيين : القانون العسكرى وقانون العقوبات ، ذكرت بسهولة فى ترتيب ، وان كان هناك سر مكشوف هو أن هذه القوانين لا يمكن تطبيقها على القضية المطروحة ، والقانون العسكرى المصرى القديم منذ عهد محمد على (وهو قانون ميت الآن) لم ينظم بنودا مطابقة لطارىء ممانل ، والقانون العسكرى العثمانى الامبراطورى يمكن تطبيقه فقط بعد المرور بشكليات معينة ، وفى هذا المثال الراهن لا يتضمن واحدا منها . والسلطة المتطلبة وهى

علاقتنا اقتضرت على تبادل الرسائل فحسب . لقد نقلت نسخة من هذه الرسالة بالعربية الى رئيس المحكمة التي ستتولى محاكمته فى القاهرة . لقد كان هدفها الوحيد الحفاظ على حيادية القتال البحرية (وهو ما ظل عرابى وفيها دائما لها) وحماية ارواح وممتلكات الاوربيين فى مصر .

« اننى ابعث اليك بترجمة فرنسية لهذه الوثائق التي تشرف الرجل الذي اضطلعت انت بكرمك البالغ بالدفاع عنه . انه ليمدو لى امرا لا معقولا ان القائد العام للجيش يمكن ان يكون عرضة لعقوبة الاعدام بعد تسليم سيفه للقائد الانجليزى المنتصر . »

(توقيع) فرديناند دلسبس .

لقد كانت خطابات وتلغرافات عرابى تؤكد تماما تعبيرات مسيو دلسبس من مدح لعرابى . ان عرابى لم يتحدث عن ضرورة غلق القناة الا فى اللحظة الأخيرة عندما كانت القوات الانجليزية تطأ قدمها الاسماعيلية فعلا ، وحتى ذلك الوقت ، كان يعتمد على توكيد دلسبس المتكرر له وهو أنه نظرا لحيادها فلن يغزوها العدو . لقد كانت الملامح الرئيسية للتراسل هو القلق المستمر على سلامة الاوربيين المستوطنين . ومن هذه البرقيات ، اخترت ، عشوائيا التلغراف التالى :

« الى سعادة صديقى المحترم مسيو دلسبس بالاسماعيلية

لقد تلقيت رسالتكم بالفرنسية ، وطبقا لاقتراحكم ، لقد اصدروا اوامر لرئيس بوليس القاهرة ان يرعى امن الاورباويين الذين هم فى اسبالية العباسية بالقاهرة ، وان يكفل لهم الحرية الكاملة فى مغادرتها او البقاء فيها . لقد كتبت ايضا لمدير مديرية الشرقية لمضاعفة جهوده للحفاظ على امن الاورباويين فى « الرقادية » والتأكد من عدم تعرضهم تماما لاية مضايقات .

عرابى

وأما عن « شمولية universality » الحركة الوطنية ، فقد تحدثت أنا عنها بالتفصيل فى مكان آخر .

وهكذا ، فى بضع كلمات تهلور الدفاع الذى كنا نقصد أن نعرضه نيابة عن عرابى . لقد كنت فى الوقت نفسه على علم ، وأنا متألم ، أن أعمالنا فيما يتصل بمحكمة القاهرة ، كادت تكون من المؤكد غير مثمرة . لقد كانت محكمة التحقيق والمحكمة العسكرية مجرد تعبير عن الأقلية المنتصرة . لقد كان أسلوبها المختار هو اضافة صورة شبه قانونية جليلة على النتيجة الحتمية ، لمعركة حزبية شرقية ، وزوال الأضعف وبقاء الأقوى ، وفى رفض فى بعض الحالات ، ورضا تام فى أخرى ، صار

مختلف أعضاء هذه المحاكم الأداة السهلة الانقياد للثالوث المصرى
Egyptian triumvirate المرحب لعودة السلطة الخديوية ، « توفيق »
و « شريف » و « رياض » ، الذين كان ثلاثتهم ينادون مرارا وتكرارا بأن
تكون العقوبة الموقعة عليهم عقوبة يستحقونها وعبرة لغيرهم . وكان هذا
أمرا طبيعيا لدارس السياسة الشرقية : لقد أطاح عرابى ، فى بأس ،
بالاثنيين من النظار ، ولولا انقاذ الانجليز لتوفيق لكان سقوطه فى كافة
الاحتمالات البشرية سقوطا ذريعا عن سقوطهما . وكان عرابى اسدو
المشترك للثلاثة جميعهم ، وهو الآن يرقد مهانا ، فمن له الحق فى أن يتدخل
بين المنتقمين وانتقامهم ؟

لقد اعتاد الساسة فى الشرق على أعجب تقلبات فى عجلة القدر :
شعاذون يصبحون رؤساء ، ورؤساء يصبحون شحاذين ، ورجال يغادرون
السجون ليحتلوا مناصب عالية ويتمتعوا بالخطوات الملكية ، ورؤساء
مجالس ورؤساء نظارات سابقون مودعون فى سجون مظلمة فى كل جزء
من الامبراطورية ، ولا يعرف امرؤ ما سوف يحدث غدا . هناك مبدأ محدد
يطلق على كل المبادئ وهو أن الأضعف يحبط مسعا دائما ، وأن الفكرة
المجردة عن التحقيق والمحاكمة العادلة الطيبة فى قضية عرابى ، وقد
حيرت المنتصرين أكثر من حيرتهم لنفس الهزائم التى لحقت بهم هم
أنفسهم من قبل . لقد كانوا يتطلعون الى « اختفاء » المهزوم كجزء لا يتجزأ
من النصر ، ولم يكونوا يتصورون اللحظة أن التعبير الحر عن هذا المبدأ
قد يتعارض مع تحقيقه . اننى أحس احساسا مؤكدا أن « اسماعيل
أيوب » و « رءوف » كانا ، سرا ، يمتنان كافة الاجراءات التى طلب منها
الاشراف عليها ، ولكنهما عزا على أن يقوموا بالمهمة على أنها جزء من
قدرهما ، وحيدا لله على أنهما كانا حكيمين تماما فى تصرفهما لتجنب
احتمال أن يكون مصيرهما كمصير عرابى هما أنفسهما . لقد أحس كلاهما
بالراحة عندما انحصرت وطيفتهما فى النهاية فى شكليات ، وكاد
يحتضنى « رءوف » عندما التقينا مصادفة بعد ذلك بأربعة أشهر فى محطة
سكة حديد مصر .

أمام محكمة مثل هذه المحكمة هبطت فرص نجاحنا حتى وصلت الى
أمل بعيد جدا فى الواقع . وتحت مثل هذه الظروف كنت أبذل كل
جهدى ، فى أمانة ، لأنقل بالفعل مكان القضية من القاهرة الى أقوى
محكمة ، محكمة الراى العام فى أوربا وفى انجلترا ، لأننى كنت أعرف
تمام المعرفة أنها كانت السبيل الوحيد للوصول الى محاكمة عادلة كنا
نطالب بها . عند أول مرحلة من أعمالنا صرنا مقتنعين أن جو العدالة

المصرى الذى دب فيه الفساد ، مقرونا بـ « رد فعل اليأس » السائد سيكون له خطورته حتما على « عرابى » وصحبه ما لم يوجد علاج قوى للموقف ، وعندما تأكد لنا كم كانت قضيتهم عادلة ، أخذ قلقنا على سلامتهم يزداد لحظة بعد أخرى ، ولكن العلاج القوى ما لبث أن جاء لمساعدتنا فى شكل تغيير ملحوظ فى رأى العام المثقف فى انجلترا .

ذلك أنه حوالى ٢٧ نوفمبر صارت كل الأطراف المهتمة بالقضية تميل بدرجة أكبر أو أقل ، الى قبول مصالحة معقولة . لقد كانت الحكومة الانجليزية يقظة تماما الى المضايقات المعوقة فى الشئون المصرية التى مردها الى وجود مازال يبدو فى الأفق من الغموض الشديد الذى يكتنف المحاكمة . وكان كل من الحكومة الانجليزية والرأى العام فى هذا الوقت قد اقتنعا بأنه لا يمكن تنفيذ حكم الاعدام تحت أية ظروف ، وأن المشكلة الحقيقية الوحيدة هى وضع المساجين ، وكان موقف الحكومة الانجليزية موقفا صعبا ، اذ أن ملايين عديدة من الجنهيات قد أنفقت فى سحق حركة وصفت فى مختلف الأوقات بأنها انتفاضة عسكرية *a military rising* وعصيان كبير *great rebellion* وعملية حل لغز *conundrum* عندما لا تكون الحرب حربا وانما يتبين أنها كيدية *vexatious* ومكلفة معا . بعد كل ما ورد ذكره ، لم يكن من المتوقع أن يقر « مستر جلادستون » أى أسلوب ينتهى باعلان أن عرابى لم يكن عاصيا على أية حال ، وأنه لهذا كانت انجلترا بريئة فى شئها الحرب على السلطان والخديو وعرابى فى آن واحد . وكانت الحكومة الانجليزية قد اقسمت بوجود عصيان حقيقى ، واذا ثبت ذلك شكليا ، فهى لا تهتم الا قليلا بما سواه ، ولكن أى شئ مثل حكم الاعدام كان خارج الموضوع تماما . لقد كنت مقتنعا بأن لورد جرانفيل *Lord Granville* سيرفض حكم الاعدام أو حتى النفى الى السودان (نظرا لأن سير ادوارد ماليت *Sir. Edward Malet* قد وصمها على أنها خطيرة بالضرورة) ولكننى كنت متأكدا بالمثل أنه لن يتدخل فى أى حكم آخر يصدر - على سبيل المثال ، السجن لمدة طويلة فى أحد السجون المصرية ، وهو فى الواقع سيكون مفضلا عن عقوبة الاعدام ، أو النفى الى النيل الأبيض . وكنت فى شك فى أن الرأى العام وقتذاك (لأن رد الفعل كان لا يزال الى جانب عرابى) قد يضغط على الحكومة الانجليزية لاكثر من هذا . وكانت نظارة الخارجية الانجليزية ، وأنا متأكد من هذا ، متيقظة للمزايا الكثيرة من تجنب محاكمة ما ، وأقرت دائما أن الاعتراف بالعصيان يمكن اصدار الحكم عليه بدون محاكمة .

وكانت تركيا أكثر ميلا من أى طرف من الأطراف التى يهمها الأمر ،

الفصل الرابع والعشرون

ليلة المحاكمة

عندما تصل كل الاطراف فى نزاع معين الى الايمان بأن المصالحة compromise هى أحسن حل مرغوب فيه للصعوبات التى تواجهها ، فإن تفاصيل الترتيب الذى كان من المفروض أن يتأثر به شكليا ، تصبح فى الواقع أمرا ثانويا فى أهميته ، بيد أنه فى الحالة الراهنة يستلزم الأمر ، بكل تأكيد ، قيام ترتيب خاص الى حد ما ، ففى المقام الأول ، العقوبة الحقيقية التى توقع على « العصاة » لن تتعدى مجرد النفى ، وفى المقام الثانى ، النظرية الانجليزية « للعصيان » يجب أن يكون لها ، بشكل ما ، ما يؤيدها ويؤكددها ، وفى المقام الثالث ، ان ما يعتبر أمرا مرغوبا فيه هو تجنب ما لا يعد ضروريا وهو جرح الكرامة المصرية Egyptian amour propre ، وتجنب ما لا يستوجب الأمر من زيادة تحطيم ما زال يتشدد به من « الهيبة الخديوية Khedivial prestige » لقد كان يهمنى بطبيعة الحال ، أساسا ، البند الأول فى المصالحة ، التى كان مبدؤها كنا على استعداد الآن لقبوله عن اقتناع قوى بأن موكلينا قد يتعسر وضعهم حتما لو رفضنا المصالحة نظرا لأنه كان من الواضح أن الحكومة الانجليزية لن تساعدنا على طول الخط .

ولم يكن قد مر على بقاء « لورد دافيرين » بمصر أكثر من ثلاثة أسابيع ، وكان تأثيره ملموسا جدا بوجه عام . وقد رأت الحكومة المصرية فى النهاية وبوضوح تام أنه لم يعد يصرح لا بالانتقام العنيف ولا بالظلم اللطيف ، وأنهم بعد ذلك ، يجب أن يتخلوا هم أنفسهم عن سياستهم وينتهجوا سياسة جديدة قائمة على أفكار أوربية من العدل والرافة ، ولقد

لـ « عرابى » قصة نابوليون Napoleon كما ورد ذكرها فى مجلس العموم منذ ثلاثة أسابيع مضت (١) . ويبدو أن عرابى زادت دهشته من عقد مثل هذه المقارنة (وكان يوما ما قد درسى بأمان حياة القائد الكورسيكى العظيم) ولكنه أعرب عن شك فيه كثير من التواضع ، فى أنه لم يكن شخصية لها أهميتها ليعامل مثل معاملة ، نابوليون ، فذكرته أن صانع المقارنة كان فى الواقع هو حكم arbiter مصائرهم .

(١) سأل لورد راندولف تشرشل Lord Randolph Churchill اللورد الأول للخزانة البريطانية عما اذا كانت هناك أية سابقة لاستخدام القوات البريطانية كما حدث فى مصر ، لقمع عصيان عسكري ضد حاكم أو حكومة لدولة أجنبية ، وما اذا كانت مثل هذه السوابق قد أكدت أن القوات البريطانية ، وقد اعتقلت زعماء العصاة وغيرهم ممن يمانلهم من المذنبين السياسيين ، قد صدرت لها تعليمات من الحكومة البريطانية بأن تسلمهم ليتصرف معهم حاكمهم أو حكومتهم بعد مساندة القوات البريطانية للحاكم أو الحكومة أو اعادتهما الى سابق عهدهما ؛ واذا كانت هناك سوابق ، فهل من الممكن ذكر السوابق .

مستر جلادستون - ردا على سؤال اللورد النبيل ، سأستهل حديثى بأبداء ملاحظة أننى لا أظن أن المساعدة التى قدمت فى حالة سابقة قد تبعدنا عن نقطة معينة - أننى لست على علم بأية سابقة فى التاريخ لترتيب ممانل لما هو قائم فى مصر ، أدى الى أسلوب من الاجراءات انتهى فى عمليات عسكرية . ان الوضع الذى التزمنا به فى مصر وضع لا أظن تماما أنه يتمشى مع أية أوضاع قد التزمنا بها فى أية دولة أخرى فى حدود ما أعلمه . هناك حالتان تلقيان قدرا معينا من الضوء على الموضوع ، وهاتان الحالتان سأذكرهما للورد النبيل ، احدهما حالة انهاء الحرب الفرنسية الكبيرة فى ووترلو Waterloo فى ذلك الوقت كان الملك لويس الثامن عشر Louis XVIII - قبل المائة يوم ، قد أقام ملكه فى فرنسا ، وكان يعتبر من وجهة نظر حكومة هذا البلد (انجلترا) الحاكم الشرعى للبلاد ، وكانت العملية العسكرية تحت قيادة نابوليون ، وكانت كلها عملية تعد بمثابة مقاومة شرعية شديدة ضد السلطة الشرعية . اننى لا أدخل فى موضوع صوابها ، ولكن هناك رسالة كان قد بعث بها لورد باتهرست Lord Bathurst ، وكان وقتها ناظرا للحربية البريطانية بعث برسالة بتاريخ ٢ يوليو ١٨١٥ ، الى الدوق ويلنجتون Duke of Wellington . وأنا لن أقرأ الفقرة كلها ، ولكننى سأقرأ فقط جزءا منها ، أعتقد أن له أهميته بالنسبة للسؤال الذى طرحه اللورد النبيل . تشير هذه الرسالة الى أن « لورد باتهرست » قد تلقى خطابا من « دوق ويلنجتون » عن موضوع الترتيب الذى قام به القائد العسكرى . وكان الخطاب يتضمن الفقرة التالية : « لا يمكن أن يتصور أنه فى اتفاقية ما تم التفاوض فيها مع هذه السلطات - يعنى السلطات الفرنسية - « تفاوضتم فيها فهاضكم أنكم ستدخلون فى أية ارتباطات ، بها سيظل أن جلالة الملك المعظم ملك فرنسا سيحرم تماما من مجرد مباشرة سلطته فى ازالة قصاصا يستحقه أمثال رعاياه الذين بدسائسهم المتسمة بالخيانة وبعضيانهم الذى قاموا به رغم عدم وجود ما يستفزهم له ، فوتروا على جلالته كل حق فى الرأفة والرفق » . لا شك أن تلك الفقرة تجيب عن السؤال ؛ واللورد النبيل على علم تام بالظروف التى لها صلة بالمرشال لى Michel Ney ، وهى باختصار ظروف لها تماثلها فى تلك الآونة بالوقوف الذى نحن بصدده .

ومرة أخرى ، عاد « عرابي » الى موضوع رفاقه . كيف سينحلون على أساس مقارنة مستر جلادستون التاريخية ؟ لم يكن في استطاعتي الا أن أقول : « سيكون في القضية الراهنة سبعة نابوليون بدلا من نابوليون واحد ، وهذا أفضل بكثير من أن أى واحد منكم يستكمل المقارنة بأن يمثل المارشال لي Maréchal Ney (٢) » ومرة أخرى ، أكدت له أن لا داعي لأى خوف على هذه الرأس . فكر لفترة طويلة ، وأخذ يذرع زنزانته ذهابا وحيث ، ثم التفت الى وقال لي ما يلي : « عندما جئت أنت الى هنا واثمنتك على حياتي وشرفي لتحافظ عليهما . ان ما فعلته وقتها أؤكده اليوم ، وأنا لهذا على استعداد لأن اتبع نصيحتك . أما بالنسبة للنباشين ، فلا يهمني أن أفقدها لأنني لم أكن أسعى لها أبدا ، وأما بالنسبة للأملاكى فليس لي شيء سوى ما خلفه لي أبى ، وهو يكاد يفي لنا بالزاد (٢) . اننى لا يمكن أن أتوقع من انجلترا أن تغير قرارها بالنسبة لشخصي على الفور ، ولكنى أحس ، وكلى تأكيد أنها ستفعل ذلك في المستقبل . اننى سأكتب لك خطابا يدعمك للموافقة على أية بنود تعتقد أنها عادلة وكريمة ، ولكننى سأدعوك لتشاهد أننى أفعل هذا بصورة أكثر على أمل أن تنقذ اخوانى من المعاناة ، وليس لصالحى أنا وحدى . » اننى لم أر « عرابي » قط فى أوج عظمته مثلما كان فى هذا اللقاء البالغ الأهمية .

وبدون لحظة تردد ، جلس وكتب الخطاب التالى :

(٧) كان ميشيل نى Michel Neg (١٧٦٩ - ١٨١٥) من أحسن قواد فرنسا العسكريين فى عهد نابوليون ، انتصر فى معارك كثيرة من معارك نابوليون ، أظهر فيها شجاعة نادرة حتى لقبه نابوليون بأشجع الشجعان le brave des braves وظل على ولائه لنابوليون حتى كانت هزيمته فى هانو Hanau فى سنة ١٨١٤ ، ولما سقطت باريس ، شجع « نى » نابوليون على أن يعتزل الحكم ، وبعد اعتقال نابوليون الحكم وعودة لويس الثامن عشر أخذ « نى » على نفسه الولاء للملك الذى جعله أميرا وأنعم عليه بتيشان سان لوى St. Louis وتمتع بمركز مرموق فى البلاط ، وبدأ كانه كرس حياته لخدمة آل بوربون Bourbons . وعندما هرب نابوليون من البا Elba ونزل عند فريجيس Fréjus فى مارس ١٨١٥ ، أرسل « نى » للقبض عليه ، ولكن « نى » انضم الى نابوليون عند ليون Lyon وشق طريقه الى باريس ، فاستند اليه نابوليون قيادة الفرقين الأولى والثانية ، وفى معركة عند ووترلو Waterloo ، وفى قتال عنيف عند « كاتربرا Quatrebras فقد « نى » ثلاثة جياد امطأها الواحد فى اثر الآخر ، ثم حارب على قدميه حتى منتصف الليل وحوله القتل ، فلما سلمت باريس هرب « نى » الى سويسرا ولكنه ألقى القبض عليه وحوكم على خيائنه ونفذ فيه حكم الاعدام فى ٥ ديسمبر ١٨١٥ رميا بالرصاص فى قصر لكسمبرج Luxembourg . (المحقق) .

(٢) تبين أن دخلها كان أقل من ٢٠٠ جنيه سنويا .

أسلحتهم ويرفضون أن يتفرقوا أو لا يتوقفون عن الثورة عندما تصدر لهم أوامر من سلطة أعلى ، يمكن أن تطبق عليهم عقوبة الاعدام .

مادة ٥٩ - إن من يأخذ على عاتقه ، بدون أمر من الحكومة ، وبدون دافع ، قيادة تقسيم أو مكان محصن أو مدينة الخ ٠٠٠ وأى قائد ، بدون دافع مشروع يستمر فى الحفاظ على قواته تحت السلاح بعد اصدار الحكومة أوامرها له بالتسريح ، يمكن أن تطبق عليه عقوبة الاعدام .

وكان لابد لقومسيون التحقيق أن يكتب ما يلي :

الى المستر بدولى ومستر نابير ، معامبي عرابى باشا

ان من رأى قومسيون التحقيق أن هناك دوافع لارسال عرابى باشا الى المحاكمة أمام المحكمة العسكرية بتهمة العصيان حسبما تقضى به المادة السادسة والتسعون من القانونسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثمانى .
فاذا لم يكن لديكما أى اعتراض لتقدمانه ، فإن القومسيون سيعتبر بالمتهم فوراً لحاكمته أمام المحكمة العسكرية .

رئيس قومسيون التحقيق بمصر

(اسماعيل أيوب)

كان علينا أن نجيب على الفور انه ليس لدينا أى اعتراض ، وبناء عليه كان على « اسماعيل أيوب » (عضو حديث فى المجلس العرفى ، وضيف عرابى فى كفر الدوار) أن يكتب « الى رهوف باشا » (وهو أيضاً عضو حديث فى المجلس المذكور) ما يلي :

المحكمة العسكرية رئيسى سعادتلكم الفندم حضرتارى

انه قد تم استنطاق الشهود فى المسألة المتعلقة بعرابى باشا وقد قر قرار القومسيون على احضار المذكور لدى المحكمة العسكرية لينظر فى دعوى العصيان الموجهة على عرابى باشا حسبما تقضى به المادة السادسة والتسعون من القانونسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسون من قانون الجنايات العثمانى وبناء على ذلك فإن القومسيون يوجه عرابى لتنتشر الدعوى عليه لدى المحكمة العسكرية ويوجه أيضاً سائر المحاضر والأوراق المتعلقة بهذا الأمر الفندم .

رئيس قومسيون التحقيق بمصر

(اسماعيل أيوب)

لم يبق بعد ذلك شئ لتسويته سوى الاتهام والحكم وقرار تعديل الحكم commutation
لقد استكملت .

عاصم باشا « (الحارس القضائي للشباب الصغير « محمد حسنى » الذى
 دس السم لـ « عبد العال ») و « خورشيد باشا » و « سليمان نيازى
 باشا » « عثمان لطيف باش » و « سليمان نجاتي بك » . و « روف »
 من البربر المستوطنين بمصر ، أما البقية ، فكانوا من المماليك الأتراك أو
 المماليك الجراكسة . أما العضو التاسع ، « أحمد حسنين » . فكان
 مصرياً ، وكان وجهه المرح وجسمه الممتلئ ، مألوفاً لكل زائر أوربى ،
 لأنه كان الأميرال الأول لأسطول النيل (١) ، ويبدو أن أوربا كانت قد
 تبارت فى الانعام على « أحمد حسنين » بالنياشين ، بل وبإعادة الانعام
 عليه بها ، إذ أن صدره العريض كان يحمل على الأقل عشرين صليباً من
 الصليبان بما فى ذلك وسام ضابط جوقة الشرف Legion d'honneur (٢)
 وبطبيعة قلبه الزائدة هذئى على نتيجة المحاكمة واعترف لى بأنها كانت حلاً
 سعيدياً لكل الأطراف المعنية . وطوال الوقت الذى كنت أتحدث فيه مع
 الأميرال المصرى ، كان « اسماعيل أيوب » مشغولاً بالكتابة . واقترب
 منى الآن وهو يحمل ورقة ، وقال انه يأمل ، من أجل المظاهر ، اننى
 لا أمارض فى قراءة جانب من قرار الاتهام الذى صاغه هو ، فأجبتة فى
 حزم انه يمكن أن يباشر حكمه الشخصى ، ولكن لو استخدمت أية ورقة
 أخرى غير تلك الأوراق التى كان « عرابى » على علم بها ، فان عرابى
 « لن يعترف بأنه مذنب » ، وفى رباطة جأش تامة ، تنهد فى عمق ، ووضع
 مسودته تحت النشافة ، ولم تتل بعد ذلك على الإطلاق . وبعد ذلك ،
 سحب القضية الاختتام المتصلة بسلاسلهم ، كل على حدة ، وبدءوا فى
 التصديق على الاتهام الشكلى الموجز الذى كان معداً . دخل الغرفة
 الآن « سير تشارلز ويلسون » وهو مرتد أيضاً زيه الرسمى .

عندما توجهت للحاق بـ « مستر نابير » فى زنزانة « عرابى » ، أحضر
 لى كاتبى خطاباً من صديق عابر هو « مسيو جبرائيل شارم » ، رجائى
 فيه أن أحجز له أنسب مقعد يستطيع وهو جالس فيه أن يسجل مذكرات
 عن سير المحاكمة ، ورجائى ، « أن يمتد كرمى ليشمل صديقه » بشارة
 تكلا « (٣) محرر جريدة « الوطن » ، حتى يتمتع مصرى واحسد ، على

(١) Lord High Admiral of the Nile Fleet.

(٢) هو اسمى وسام فى فرنسا ، أنشأه نابوليون الأول Napoléon I ، وكان ينعم
 به مكافأة لمن يقدمون لفرنسا خدمات جليلة . (المحقق)

(٣) كان سوريا بالغ المهارة ، أيد عرابى حتى حدثت المحنة ، وظل قابلاً فى هدوء
 فى سوريا حتى انتهت المحنة ، ثم عاد ليؤيد سياسة خديو مصر ؛ وهو أذكى صحفى وطنى
 التقيت به . كان مخلصاً تماماً لمهمته فى اغتنام الفرص opportunism ، إذ بعهد
 بضعة أيام من انتهاء المحاكمة ، نشر مقالا برهن فيه على تأمر عرابى مع الانجليز ، ذكر
 فيه أنه (أى عرابى) « باع نصر التل الكبير » .

وبعد بضع دقائق ، شاهدت من خلال الباب المفتوح : « عرابى » يعبر الساحة مع « مستر تاير » الذى كان يرتدى رداء الحمامة ، كما شاهدت « عثمان شريف » واثنين من الحراس الجراكسة . مر « عرابى » حول مؤخرة الغرفة ، وبعد أن اجتاز قفص الاتهام من طرفه الى طرفه الآخر (وكان مخططا له أصلا أن يحوى على الأقل عشرين سجيناً) جلس قريبا منى . وفى الوقت نفسه ، اتخذ « مستر تاير » مكانه بجوارى . ساد القاعة صمت رهيب للحظة . كان عرابى يبدو فى بادىء الامر عصبيا ، ولكنه ما لبث أن تمالك كيانه . فتح « رءوف باشا » محفظة أوراق صغيرة ، وقرأ وهو ممسك بورقة أمامه . ما يلى :

« أحمد عرابى باشا ، أنت متهم أمام هذه المحكمة بناء على طلب قومسيون التحقيق بجريمة العصيان ضد الجناب الحيدو حسبما تقضى به المادتان ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى و ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى ، فهل تقرر بالتهمة أم لا ؟ » .

وما أن بدأ « رءوف باشا » بالكلام حتى وقف عرابى . وعندما انتهى قال عرابى : « ان محامى سيجيبان بالنيابة عنى » ، وعلى اثر ذلك ، نهضت أنا ، وقرأت ترجمة فرنسية للاعتراف بالذنب ، ومقدما فى الوقت نفسه النسخة الأصلية بالعربية موقعة ومختومة ، والتي قرأها أيضا كاتب كان يجلس أمام منضدة صغيرة أمام الرئيس . تطلع « رءوف باشا » الى « عرابى » مستعلما ، فطأ عرابى رأسه علامة على موافقته . ثم أعلن الرئيس أن المحاكمة ستؤجل حتى الثالثة بعد الظهر ، وفى مدى خمس دقائق ، أعيد « عرابى » ثانية الى زنزانتة . أما الحاضرون الذين كانوا قلة فقد انصرفوا فى هدوء . أما القضاة التسعة الذين كانوا يرتدون ملابس فاخرة ، فغادروا المبنى ، البعض ركب مركبات مقفولة broughams . والبعض ركب بغالا أو حميرا ذليلة ، عائدين الى مساكنهم الخاصة بهم فى شوارع القاهرة الشبيهة بالمتاهات .

ونظرا لأن الكثير من الزنانات كانت تطل على الساحة الوسطى ، فقد أتاح الفرصة لأن يشاهد « عرابى » فى ذهابه ومجيئه كثيرون من المساجين ، وسببت ، بطبيعة الحال ، الكثير من الاثارة والحدس . وفى فترة الاستراحة بين المحاكمة واصدار الحكم ، توجهت لزيارة موكلينا ، الذين كان عليهم أن يشاركوا ، اذا رغبوا ، فى الاستفادة من المصالحة ؛ وبدون استثناء ، أقرأوا الخطوة التى اتخذها « عرابى » . ولقد فزع محمود سامى « المسكين مما ينتظر أملاكه من مصادرة ، ولعله أدرك ، أكثر من زملائه ، الخطر الحقيقى فى موقفهم » .

الفصل السادس والعشرون

بعد اعلان الحكم

شهد مغرب يوم ٣ ديسمبر كل سكان مصر العرب وهم يحتفلون في صمت ينم عن فطنة بنجاة « عرابي » . ومن دوافع فطنتهم الغنية عن البيان ، أن كانت هذه الأفراح الذاتية متخفية ما أمكن تحت ستار الظلمة والأبواب المغلقة ، ولكنني وصلت ببرهان كاف ، وقتها ، الى أن فرحة الناس كانت عامة وصادقة . وفرحة المسلم الحق تتخذ مظهرا خارجيا بسيطا ، ولكن عندما يرى المرء بوضوح تام هرجا وإخلاصا حقيقيا نابعا من القلب ، يتأكد له أنه لا ينقص هذا المشهد الرائع الا الحماس التام . وفي مثل هذه الحالة ، حالة الفرح عبر الناس عنها بكسائهم الفقراء وتوزيع الصدقات وإقامة صلوات شكر لله . وذبح للعجول السمينة ، وكان كل مصري مصر مسرورين من رافة انجلترا . أما القصر والأثراك الجراكسة ، فقد رفضوا وحدهم أن يهدأ بهم ، وكادت مرارة خيبة أملهم الجديدة تنسيبهم حلاوة انتصارهم الأخير .

زرت « عرابي » في زفزانته في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ، فقال لي أن ثلاثة أمور فقط تشغل باله ، إذ كان يريد ، في المقام الأول ، أن يتأكد من أن زملاءه المساجين لم يعودوا في خطر ؛ ثم أراد أن يعرف بعض الوسائل التي يستطيع بها أن يجعل شعب انجلترا وأوربا على ادراك تام بالدوافع التي أدت به الى أن ينتهج طريقا قد يبدو لأول وهلة أنه لا يستقيم وإعلاناته السابقة عن موضوع « العصيان » ، وكان تواقا لأن يقدم تشكراته الى أولئك الانجليز المسؤولين الذين شاركوا في المحاكمة الأخيرة . وحتى قبل أن أصل الى سجن الدائرة السنية ، كان « عرابي »

قد كتب بالفعل خطاب شكر طويل وبلغ الى أعز أصدقائه « مستر بلنت » وبعد تجاذب حديث عن وضعه الذاتي ، وعن المستقبل المنتظر للسياسات المصرية ، أصر « عرابي » على أن يقدم الى مذكرة عن موضوع « اخوانه في الأسر » (ولقد أقسمت له أنني سأبذل كل ما في وسعي من أجلهم) وأن أبعث له ، عن طريقى ، برسالة الى « التايمز » ، تفسيراً للاعتراف الذى قدمه عند محاكمته وتقديم بعض ما عبر عنه كتابة ، عن شكره لكل من « لورد دافرين » و « سير تشارلز ويلسون » و « سير ادوارد ماليت » . وفى وقت متأخر بعد الظهر ، بعث الى « عرابي » بهذه الخطابات الخمسة (١) ، واعتقد أنها كلها تلقى ضوءاً هاماً على أحسن ملامح شخصية « عرابي » .

لقد تحدث الخطاب الأول فقط عن مصير زملائه وسوء حظهم :

عزيزى المحترم المحامى عني المستر برودل

انى لا احب ان يقال عني انى اشتريت نفسى بدماء اخوانى الأبرياء الذين هم مسجونون معى وبالديريات والمحاكمات من العسكرية والملكية والعلماء والقضاة والمعلمين فأرجو اليكم ان تطلبوا من مجلس التحقيق سماع اجوبتهم ومعاملتهم بالعدل والانصاف حيث انى اعتقد ببراءتهم جميعاً ولم يقع منهم ما يغفل بحقوق الانسانية الا ما نسب الى سليمان سامى بك فانى لا ابرئه من تهمة حريق الاسكندرية لكثرة الشبه عليه كما انى لا اجزم بوقوع الفعل منه فالتحقيق يظهر الحقيقة اما حادثة ١١ يونيو ١٨٨٢ باسكندرية فانى ابرئه منها وابرى جميع ضباط العسكرية وارجوكم ملاحظة حالة جميع اخوانى المسجونين .

(توقيع) أحمد عرابي المصرى

٤ ديسمبر ١٨٨٢

خاتم

(١) لقد اتهمنى «مسيو شارم» باختلاق رسائل عرابي (انظر جريدة عالمين Revue des Deux Mondes سبتمبر ١٨٨٣) وهو مخطئ تماماً ، وأما عن مناقشته لصياغة واحدة منها ، فانى أقرر أننى لم أكن أعلم شيئاً عن صيغتها حتى أتم عرابي كتابتها . وصيغتها الأصلية أمامى الآن (وقد كتبها عرابي من صورته) ، وقد أخبرنى « مستر سانتلانا » (المترجم) وهو أقدر حكم فى هذا المجال ، أنه يعتبر أن قوة عرابي فى الكتابة العربية منمقة لا يفوق فيها من بين الدارسين العرب الذين التقى بهم الا كتابة « خير الدين باشا » ، ومما يؤسف له أن « مسيو شارم » يتحدث عن عرابي على أنه لا يمكنه أن يقرأ أو يكتب أو يفهم .

هنا متشكر لجميع الأمة الانكليزية كما أنى متشكر لك أيها الفاضل ولسائر مدبري
الجرانيل الانكليزية الذين اتحدوا في طلب معاملتي معاملة اخوان بالعدل والانصاف ولأعضاء
القوة الانكليزية الذين ارتفع صوتهم مرارا في خصوص مسألتى واطهار حقوقى وكذلك
متشكر لجنا ب السير تشارلس ولسن الذى تردد الى كثيرا وتمهدنى بأحسن ملاحظة فى أيام
سجنى .

ها انا مهاجر مصر الا أنى متيقن أن الأيام والحوادث ستبين حقوقنا وما كنا عليه من
حب وإن انكلترا لا تندم أبدا على ما أبدته من التسامح والمساهلة مع من قاتلته فى
المعارك حتى يتبين لها حقيقة مسعاه .

أحمد عرابى المصرى

٤ ديسمبر ١٨٨٢

خاتم

وكان خطاب « عرابى » الى « لورد دافرين » كما يلى :

الى صاحب الدولة والاحلال اللورد دوفرين

انى لما كنت قائدا للأمة المصرية فى طلب تحريرها ومعاملتها بالعدل والانصاف ولم
تساعدنى الأقدار الالهية سلمت نفسى لعلو همة الأمة الانكليزية لوئولى بدمتها وشرفها
وقد تحصلت على ما كنت أؤمله منها اذ أنها هى التى توسعت فى أن أحاكم محاكمة علانية
مبنية على الأصول المتعارفة وهى التى وجهت لى رجالا ذوى الشرف والأمانة للمحاكمة عنى
بصفة وكلاء شرعيين فرايت أنه من الفرائض الواجبة على ذمتى ابداء رضائى وشكرى عما
وجدته من حسن المعاملة وأرجو دولتكم أن تقبلوا منى حسن تشكرى بعنايتكم بشانى
وشان اخوانى وتكونوا لسانا لى فى عرض مهنوبتى الى مستر غلادستون واللورد فرانفيل
الفنم .

أحمد عرابى المصرى

٤ ديسمبر ١٨٨٢

خاتم

وكتب « عرابى » الى سير تشارلز ويلسون الخطاب التالى :

الى سعادة السير شارلس ولسن دامت معاليه

انه لعلمى بأنى قائدا لأمة بأكملها لا تطلب شيئا سوى العدل والمساواة وحفظ
الحقوق ولم تقع منى فى مدة تصرفى ما يغفل بحقوق الانسانية بل كنت دائما اطلب المحافظة
على حقوق العموم وحفظ الحياة العمومية سلمت نفسى بصفة أسير الى ذمة وشرف انكلترا
لوئولى بأنها تحسن معاملتى أنا واخوانى الذين كانوا معى وقد تحصلت على ما كنت

الذعر الذى انتاب الحاضرين ، ولقد اختفى الدم بصورة واضحة تحت وجنتى « اسماعيل أيوب » الداكنتين ، وللحظة لم يتحدث أحد . وفى أدب ، دعى « حسن العدوى » ليستريح ، ولم تبد أية محاولة بعد ذلك لاستجوابه . وبعد ذلك ببضعة أيام ، أطلق سراحه بشرط أن يعود فى هدوء الى قريته مسقط رأسه ، حيث لن يعرف تاريخ مصر عنه شيئا أكثر من هذا .

وما لبث أن صار واضحا ، من مزيد من التحرى الذى حدث بعد الظهر ، أن « حسن موسى » قد تلقى مبلغا كبيرا جسدا من « حليم » وأخته ، يدعو أنه سيغرى الحزب الوطنى بالرشوة ، ليعلموا أن « الأمير حليم » هو مرشحهم لعرش الحديوية ، وكان واضحا أيضا بالمثل أنه وضع كل الأموال التى حصل عليها فى حسابه الخاص فى البنك وأنه لم يدفع ولا قرشًا واحدا منها لأى فرد آخر ، وأن « عرابى » لا علم له تماما بدسائسه ، ولكى يرضى ضميره ، يبدو أنه أرسل الى « عرابى » جينا والى « محمود سامى » هدية من الفاكهة . وقد توقف استجوابه قليلا عند هذه النقطة . وكما يقتضىنى واجبى ، بذلت كل ما فى وسعى لأنقذ « حسن موسى » من نتائج أفعاله ، ولو أنه حوكم ، لأمكن ادانته بقضية التآمر الجسيم ، ولكن هذا كان سيضيع حتما ادانة « الأمير حليم » وأخته ، على اعتبار أنهما شريكان له ، وفى النهاية ، نفى « حسن موسى » لعشرين سنة الى « مصوع » ، وكانت تشير كل الاحتمالات الى أنه لن يلبث أن يهرب منها . اننى لم أحس نحوه بأى تعاطف ، اذ أن مؤامراته وضعت ، حتى أمانة « عرابى » العفة فى خطر ، وكانت محض فرصة لكى تثبت للقومسيون اثباتا قاطعا السمعة الحميدة والنزاهة اللتين يتحلى بهما « عرابى » .

أما « عثمان باشا فوزى » ، فلم يجرى لا من نياشينه أو رتبته . لقد أجبر على الاستقالة من وکالته « للأميرة زينب » وواحدا أو اثنين آخرين من أعضاء الأسرة الحديوية ، وأن يدفع ٤٠٠٠ رنة جنية كغرامة لحسن سلوكه لمدة أربع سنوات ، وأن يقيم فى منزله الريفى . ومما يؤسف له أن « الأمير حليم » وشقيقته ، فى قسوة منهما ، تخليا عنه فى شدته ولم يدفعاه عنه الكفالة ، ولم يستطع سداد مصاريف إقامته بشبرد ، ولكن مستر جروس Mr. Grosse ، الذى كان يعمل بفندق شبرد تجشم دفعها نيابة عنه . وباختصار ، لقد ترك الأميران خادمهما السابق المخلص ليواجه مصيره . وفى وحدة تقاعده سيكون أمام « عثمان باشا فوزى » وقت كاف ليتأمل فى زيف وضعه ثقته فى وعود الأمراء ، ولكنه لما كان عزيزا عند الجميع ، فهو لن يلبث أن يعود الى القاهرة .

وهنا أترك « اسماعيل أيوب » وقومسيون التحقيق • أما عن الأخير فقد مات ميتة طبعية بعد ذلك ببضعة أيام ، وأما عن « اسماعيل أيوب » فقد رقى الى منصب ناظر للداخلية ، وبذلك فتح له طريق للحياة له فائدته الفعلية ، ولكن ضعفه وطيبه شخصيته الضعيفة كانتا سببا في اضاعته الفرصة على نفسه • لقد اختفى « اسماعيل أيوب » الآن وابتعد عن مجال السياسات المصرية مثلما اختفى « حسن العدوى » العجوز ، وكان سلفه الذكى « رياض » قد نسج شبكة من النفوذ الشخصى لم تضم فحسب نظارة الداخلية فى القاهرة ، بل ضمت أيضا شعبا عديدة فى داخل البلاد ، وكان « رياض » قد اتخذ ابنه سكرتيرا خاصا له وعديله وكيلا لنظارته ، كما كان أقاربه ومديثوه وتابعوه : مديرين ومديرى مديريات ومشايخ قرى • لقد انتقل هذا التنظيم القوى على هذه الصورة الى « اسماعيل أيوب » الذى وجد نفسه ازاءه ضعيفا جدا ضعفا لا يقوى على مقاومته أو التخلص منه ، وما لبثت أن حيك مؤامرة من هؤلاء المرءوسين كانت سببا فى فشله فى أداء مهام وظيفته ، فحل محله « خيرى باشا » الذى رشحه القصر ، وربما كان من حسن الطالع لمصر ، أن انتقلت اختصاصات الادارة الفعلية لنظارة الداخلية كلها ، تقريبا ، الى أيدي « مستر كليفورد لويدي Mr. Clifford Lloyd » •

الفصل التاسع والعشرون

الى المنفى

بعد أربعة أيام من المحاكمة السورية لـ « عرابى » ، مر زملاؤه « محمود سامى » و « عبد العال » و « طلبية » و « على فهمى » بنفس أسلوب المحاكمة ، وكان لثولهم أمام المحكمة العسكرية فى الصباح وبعد الظهر ، ما جذب حشدا ضخما جدا من النظارة ، ولكن لم تحدث أية حادثة أثناء المحاكمة تستوجب وصفا على أية حال .

وما كاد القضاة ينهضون حتى سمع همس بالخارج بأن « رياض باشا » قد استقال من منصبه ناظرا للدخالية ، وكان صحيحا ما قيل عن أنه كان مريضا وأنه لزم فراشه دبلوماسيا ، ولكنه كان سرا مضوحا إذ انه حزن فى النهاية حزنا يائسا عن واحدة من العشار السياسية الكثيرة التى جاءت بها النهايات غير المتوقعة لمحاكمات الدولة . وكان « رياض باشا » قد وعد باتباع سياسة ذات قصاص مثالى ، ولكنه لم يتخل عن منصبه كـ « ناظر » ، كما تظاهر أصدقاؤه أن يوهموا به ببراعة ، « حتى يقدم احتجاجا وجيها ضد ما نفذ فعلا من اطلاق سراح « عرابى » ، وكان قد صودق فعلا على قرارات تخفيف العقوبة ، وكان مستعدا تماما لأن يتطلع خيبة أمله ، ولكن طلب منه أن يستريح ، بعد ذلك ، بعث رياض طبقا لما تقضيه الضرورة ، بطلب متواضع هو أن يعفى من مهام منصبه ، ثم صار لفترة متوعدة بصورة خطيرة جدا . ولم تكن طبيعة مرضه الذى كان يعانى منه معروفة تماما على الإطلاق . لقد بعث مراسل خاص زكى بتلغراف بأن مرض « رياض » كان « تعطشا للدماء مكبوت Suppressed bloodthirstiness » ولكن رئيس تحرير

فى جريدة « الحق » ، وبناء على ذلك كتب الرسالة التالية الى « مستر لا بوشير » :

الى ناشر لواء الحق والعدل المستر هنرى لا بوشير مدير جرنال التروث

انى اهدى لحضرتكم اذكى التحيات واسنى التسليمات واشكر حضرتكم على ما اديتوه من المدافعة عن الحق واطلب معاملة اخوانى بالعدل والانصاف انتصارا للحق وواجبات الانسانية فلا ريب أن للحق والعدل دعاة واعوانا هم اصحاب الأرواح الطاهرة الذين لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ولا مراة فى أن لسان الحق ينطق بأن حضرتكم واسطة عقدهم وقطب دائرتهم هذا وحيث انى لا يهمنى أبدا الا اصلاح حالة بلادى وسعادة اهلها ولو انى سافرقها فادى انبتك بما يلزم اتخاذه فيها من الأعمال المهمة الموجبة لثروتها ورفاهيتها ولا ينبتك مثل خير حريص على نجاح وطنه :

اولا - يجب تشكيل مجلس نواب للامة المصرية فيها تعرض جميع اللوائح والقوانين عليه وتعطى لأعضائه الحرية التامة فى الدولة ويكون انتخابهم حرا كما فى البلاد المتقدمة وايما يكون لهم الحق فى ابداء رأيهم واعطاء القرارات فقط ولا يلزم الحكومة العمل بما يقرره الا بعد مضي زمن فيه يعلم اقتدار الأهالى على النظر فى مصالحهم بواسطة نشر مجادلاتهم العلانية فى الجرايد العربية والاfrنكية وعند ذلك يكون للنظر مسئولين امام ذلك المجلس والزمن اللازم لذلك لا ينقص عن خمسة اعوام .

ثانيا - يجب أن توضع قاعدة المساواة بين سكان القطر المصرى عموما لا يفرق فيها بين اجنبى ووطنى فى جميع المعاملات وضرب الضرائب والرسوم وتلك المساواة يمكن للحكومة لغو ضريبة الوريكو التى اضرمت بالفقراء كل الضرر .

ثالثا - يجب اتخاذ طريقة عادلة للمساواة بين المزارعين فى اشغال تطهير الترع وحفظ الجسور والاشغال العمومية بحيث أن الشغاليين يستولون على اجرهم حقيقة ويصير ابطال طريقة التسخير التى هى السبب الوحيد فى عدم عمران وتشتيت شمل الفقراء الذين لا قوت لهم الا من كد ايديهم .

رابعا - من أهم اللزوم وضع حد للهرابين لمنهم من استعمال الفس وادخاله على الأهالى لسلب أموالهم وايفاف المزارعين عند حد فى الأخذ بالربا .

خامسا - يجب أن توحيد القوانين فى جميع محاكم القطر المصرى ويراعى تنفيذ تلك القوانين بغاية الدقة بدون تداخل ذوى السلطة فى تأويلها واستعمالهم الطرق القديمة فى مراعاتها ظاهرا وعدمها فى الحقيقة .

سادسا - لا يحرم الوطنيون من الوظائف ايا كانت عالية او دانية مادام الاستعداد موجودا ومن ردت من الذين لا ذنب لهم سوى دعوى تداخلهم فى الحوادث الاخيرة يكونون كفبرهم يدخلون الوظائف على حسب استعدادهم .

سابعا - يكتفى من الموظفين الأوروبيين بقدر الضرورة مع موماعة حالة مالية البلاد فى رواتبهم والمناسبة بينها وبين رواتب الوطنيين حتى لا تقع المنافسة والمنافرة بسبب الامتيازات اللاحقة .

لكل فرد أنه لولا وجود «شمولية التجريم universality of incrimination» لكنت أية نتيجة أخرى مستحيلة ، ومع ذلك ، فمن هذه اللحظة يبدو أن الحكومة المصرية لسبب لا يمكن تعليقه ، قد عازمت على أن تبذل أقصى ما يمكنها لتغيير تفاصيل المصالحة ، للتحامل على موكلينا ، ووجدنا أنفسنا أيضا ، رغم أننا ، ضالعين في اتفاق دائم ينتهي فقط عندما يسافرون الى سيلان .

وقبل أن استمر في سرد وصفى لتوجه « عرابي » وصحبته الى المنفى ، فاني أرى من واجبي ، حتى ولو كان في ذلك تعبي ، أن أجنح أمام قرائي بوضوح مرة أخرى البنود التي على أساسها قبلنا الترتيب الذي وضعه لاجراءات المحاكمة وليس أفضل من أن أذكرها بنفس اللغة التي استخدمها « لورد دافرين » نفسه :

« ستوجه الى « عرابي » وجماعته فقط تهمة العصيان أمام المحكمة العسكرية ، وبالنسبة لهذه التهمة سيترفون بأنهم مذنبون ، وفي حالة ما اذا ما أصدرت المحكمة عليهم حكمها بعقوبة الاعدام ، سيرفع الحكم الى الخديو الذي سيخلفه الى نفي مدى الحياة ، وسيتمتع المسجونون بأنهم سيتوجهون الى أي مكان سيحدد لهم ، والذي سيبتون مالم يدعوا للانتقال منه . ولو حدث أن عادوا خلصة الى مصر ، فيمكن أن تعاقب عليهم عقوبة الاعدام بدون أية محاكمة من جديد ، وبموجب قرار لاحق من الخديو ، ستصادر أملاكهم ، ولكن أملاك زوجاتهم لن تمس ، وتتكفل الحكومة المصرية بمنح كل سجين راتبا يكفي لاعاشته .

وبقرار آخر ، سيجرد المسجونون العسكريون من رتبهم العسكرية . »

هذه الكلمات توضح نص ما وصل اليه الطرفان من اتفاق قبل صدور الحكم على « عرابي » وصحبته .

. وفي صبيحة يوم ١٣ ديسمبر ، تم اقامة التقسيم الخشبي والبواب في نهاية الطريقة ، والحجرات داخلها كنست وأعدت لنزلائها ، وكان خدم المسجونين قد أحيطوا علما بما سيحدث ، وكانوا الآن مستعدين ومتأهبين للمساعدة في مهمة نقل العزال ، وفي وقت قصير ، نقلت السجاجيد وستائر الناموسيات ، والسرائر والاواني النحاسية والفخارية الى الغرف الجديدة ، وعبر « عرابي » المر ، ووقف داخل الستار ليحيى كل اخوانه في الأسر عند وصولهم . كان من الواضح أن عشرة أسابيع المحنة التي فرقت بينهم قد زادت من تقدير كل واحد منهم للآخر ، وكان اللقاء الأول للزعماء الوطنيين السبعة . لقاء قلبيا كما تقضى به تقاليد الشرق ، فكان هناك الكثير من العناق ولمس الأيادي وقليل من الدموع . وقد استمر

قصرًا من القصور البهيجة التي كان يمتلكها « اسماعيل صديق المفتش » ، وكانت ردهته الضخمة الفسيحة وسلماء المزدوجان ، قد أفسدت في الاجتماعات الوطنية التي عقدت في شهرى يوليو وأغسطس ، ولكن لم يحطم فيه شيء أو تغير مكانه . أما الأقمشة الحريرية التي لا تزال تزين النوافذ والأبواب ، فقد صارت الذكريات الوحيدة للزمن الذي كان فيه صاحبها الأصلي يحتل مستوى رفيعا داخل جدرانه . والمعروف أن غرف الانتظار هي المظهر الأساسى للروتين اليومي لكل ادارات الحكومة في الشرق . وقد ساعد التشييد الغريب لنظارة الداخلية المصرية على تحقيق هذا الغرض بشكل غريب : اذ كانت الردهتان العلوية والسفلية تشكلمان ردهتى استراحة رطبتين ومريحتين ، وفيهما تقدم القهوة والسجاير ، وتكون « الدردشة » التي تساعد على قتل الوقت ، بينما يجلس قبلتنا في مكان منعزل مريح وبعيد : رئيس تشريفات ناظر الداخلية ، وكان يدخل من الضيوف الذين سيمثلون أمام حضرة فخامة رئيسه من هم أكثرهم حظوة ، الواحد في أثر الآخر بين صفين من الانكشارية مرتدين ملابس قمرزية موشاة بالذهب . عندما دخلت ، وجدت « اسماعيل أيوب » جالسا على كنبه من المخمل وأمامه منضدة صغيرة مطلية باللاكيه ، وكان مشغولا في استخدام الخاتم الذي كان متصلا بسلسلة ساعة جيبه ، في ختم عديده من الوثائق العربية ، كان يقدمها له في خضوع ابن صهر سلفه . أعطيت « اسماعيل يوب » القوائم التي كنت قد أحضرتهاا معى ، فقال لى انها يجب أن تختصر ، وأنه غير مسموح لأى شخص منفى أن يأخذ معه أكثر من خادم وخادمة ، فوعده بتحقيق ما يتفق ورغباته ، ثم قال لى فى هدوء : « نحن نفكر فى أن نبعث بأربعة من موكلينا الى سيلان Ceylon وثلاثة الى هونج كونج Honk Kong اننى أعتقد أنك لن تجد أية صعوبات ؟ » فأجبت على الفور بأن مثل هذا التغير أكبر خرق لاتفاقنا الأصلي ، واننى بكل تأكيد سأقدم كل اعتراض ممكن فى وسعى أن أقدمه ، وقلت له فى الوقت نفسه اننى مسئول مسؤولية أخلاقية نيابة عن موكلى فى ضرورة التنفيذ الملزم لبنود المصالحة ، وأنه ليس لى أى غرض فى أن أفقد ثقتهم (١) . ورجعت ثانية الى سجن الدائرة السنية ومعى قوائمى ، وأنا أحس فى الواقع بعدم ارتياح .

لقد تغير الآن تماما المشهد فى طريقة المنفيين . كان ثلاثة من الأغوات الأشداء يحرسون ثلاثة من الغرف الداخلية التي كان فيها

(١) بعد كثير من المفاوضات ، صرف النظر عن هذه الفكرة ، ولم يدر المنفيون ، على الإطلاق ، بالخطر الذي كان يتهددهم .

« عرابى » و « عبد العال » و « على فهمى » يستقبلون الزوار لأول مرة منذ سجنهم بعيدا عن زوجاتهم وغيرهم من الأقارب ، وكان وكلاء أعمالهم يحضرون لهم حسابتهم ، والاخوة الفلاحون من داخل البلاد يناقشون ما حل بهم من مآسى ، كما كانوا يتناقشون فى المحاصيل ، وكان التجار يسعون فى اصرار الى الوصول الى تسوية كمبيالاتهم التى لم تسدد بعد . وكان باعة الملابس العسكرية يعرضون بضاعتهم ، وواحد من المسجونين يقلد دور المحامى أمام رءوف باشا رئيس المحكمة العسكرية ، بينما كانت مجموعة طيبة من براعم «العصاة» يعانقون آباءهم من وقت لآخر ويعترضون طريق كل فرد . وما أن انصرفت السيدات ، حتى عقد اجتماع فى غرفة « عرابى » . كانت أنباء التحديد المقترحة قد سببت القليل من الأسى ، ومع ذلك ، لم يكن هناك مفر من الازعان لها . وبعد الكثير من التشاور ، أعدت قوائم جديدة ، وفيما يلى أمثلة أخذت فى عجلة من بين النسخ التى جمعتها :

قائمة قدمها « عبد العال »

١	عبد العال حلمى
١	السيد حلمى
١	ولدا
١	أخي
١	علي الماسى
١	زكية هانم
١	دلفرج
١	خدمته
٦	فقط ستة أشخاص لا غير

قائمة قدمها « على فهمى »

١	على فهمى
١	عزيز فهمى
١	ولدا
١	محمد على فهمى
١	ولدا
١	الست ايدى
١	حميدة هانم
١	زينة هانم
١	رنيج كل هانم
١	فاطمة
١	خليفة
١	صبر
١	خدمته
١	خلامه

١ عبده	خدام
١ محرم	الآغا
١٢ فقط اثني عشر شخص لا غير	

ونتيجة لهذا التحديد الذي فرض الآن ، رفضت زوجات اننين أو ثلاثة من المنفيين مغادرة مصر . لقد كانت الحكومة المصرية بارعة كل البراعة في هذه التعديلات المنيرة للمضايقات التي لا يمكن لأى أوربي عادى أن يتوقع فهمه لها . وجدير بالذكر ، أنه بالنسبة للعقلية الشرقية ، عدم وجود الأغوات معناه امتهان لكرامة النساء ، ولهذا فقد رجا موكلونا ، بشكل حماسى ، أن يصحبهم خندهمهم النوبيون . رجعت ثانية الى « اسماعيل أيوب » ومعى قوائمي الجديدة ، بدأت كلامي بلمسة رجاء لعواطفه الاسلامية بالنسبة للأغوات . وعلى مدى ساعتين كاملتين ، أجلت فيها أعمال نظارة الداخلية ، بينما كنت أناقش مع ناظر الداخلية الموضوع الخطر الشائن ، عما إذا كان « آغا » واحدا يمكن عده على أنه مساو لخادمتين أو العكس بالعكس ، وكانت النتيجة هي أن كل المنفيين ممن اصطحبوا معهم زوجاتهم ، دبروا أن يكون فى معيهم آغا .

وكانت الحكومة المصرية تعرف أفضل من أى شخص آخر أن البيوت التي كانت تقطنها عائلات موكلينا السبعة ، كانت ، بدون استثناء ، اما مؤجرة من غرباء عنهم أو مملوكة ملكية خاصة لزوجاتهم ، ولذلك أعفيت من الاستيلاء عليها ، وكان أربعة من السبعة المنفيين قد تزوجوا من سيدات الحريم الخديوى ، وكان كل مصرى يعلم تمام العلم أن البيوت التي يقمن فيها والأثاثات التي تحتويها هذه البيوت والمجوهرات اللاتي يشزين بهن ، كانت تشكل قيمة المهر الذي دفعه أزواجهن . ونظرا لركة شهور هؤلاء النسوة التعيسات ، كان من الواجب تجنب توجيه أية هانة لهن أو الثورة فى غضب فى وجوههن لأنهن لم يعتدن جميعا عليها ، على ما أعتقد . ولكن ما لبث أن صار واضحا أنه لم يعد هناك اظهار لأى مظهر من مظاهر الشفقة سواء تجاه « العصاة » أو عائلاتهم التي لا تجدد من يدافع عنها (١) .

(١) ذكر « يعقوب سامى » ، فى رزاة ، فى بيان مكتوب أنه عند عودته الى داره فى ليلة من الليالي ، فى وائل صيف سنة ١٨٨٢ وجد زوجته (التي كانت نزيلة سابقة لقصر الخديو) راقدة فى الحديقة ، تكاد تكون فاقدة الوعي ، من جراء الضرب المبرح الذي لقيته من اغوات القصر لافشائها أسرارها الى زوجها والى عرابي ؛ ومنذ تلك اللحظة ، صار يعقوب سامى (رغم أنه تركى الأصل) أشد الوطنيين حماسا .

نرجو تبليغ الحكومة المصرية مقصدنا الوحيد وهو تتميم الوعد الذى بيننا : بأن تسافر سويا الى المحل المعين لسكننا وحيث أننا نحب أن نذهب مع عائلاتنا فى وابور واحد فلا يمكننا التشكى من ضيق المحل فى الوابور وفى ذات الوقت لا يمكننا أن نعبر عن تشكراتنا للحكومة المصرية لما أجرته ولما ستجره لراحة سفريتنا من هذه البلاد .

تحريرا فى ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ - توقيعات وأختام :

محمود سامى

أحمد عرابى

يعقوب سامى

محمود فهمى .

على فهمى

طلبة عصمت

عبد العال حلمى

أحمد عبد الغفار

وكانت الأيام الأخيرة من اقامة موكلينا فى مصر آخذة فى الاقتراب ، وكانت قوائم مصاحبهم فى المنفى قد استقر الرأى عليها أخيرا ، واعتمدت ، وكان المقيمون فى بيوتهم مشغولين فى حزم مختلف أمتعتهم ، وقد قام « مستر بيمان » والميجور شيرمسايده « بمساعدة « سير تشارلز ويلسون » فى مهمة ضمان تخليصهم من أية مضايقات أثناء اعدادهم لأمتعتهم ، ولكن الحكومة المصرية تدخلت مرة أخرى تدخلا غير قانونى ، عندما أعلنت أنه لن يصرح للسيدات أن يأخذن معهن مبلغا ماليا يزيد على ٢٠٠ جنيه . ومن شدة النشاط غير العادى على كلا الجانبين ، شهد صباح يوم عيد رأس السنة الميلادية (الكريسماس) كل الأمتعة وقد أمن عليها فى حينها واعتمدتها مديرية البوليس مسبقا انتظارا لأمر الرحيل الذى كان متوقعا فى كل لحظة .

سيدكر قرائى (١) أنه كان قد اتفق بين كل الأطراف أنه فى وقت لاحق للمحاكمة الصورية أن المنفيين كانوا سيجردون بمرسوم ، من رتبهم ومن ألقابهم ، ولم يكن من أحد يعير أية أهمية لعظمتها وبريقها الخارجى الا « عرابى » ، ولم يؤثر فيه شيء أكثر من توقعه فقدان لقبه ونيشينه ،

(١) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

وسجادة صلاته كتذكّار ، وتبادلت صورا فوتوغرافية مع كل المنفيين .
لقد استقر رأيهم على أن يتقبلوا في سعادة ما هو محتوم ، ويضعوا ثقتهم
التامة في انجلترا ، وأن يراعوا ولاءهم للعهد الذي عاهدوا عليه « لورد
دافرين » ، وأن يظهروا أنفسهم في كل أسلوب أنهم جديرون بالقضية التي
كانوا يعانون من أجلها ، وكانت كلماتهم كلها أمل في مصر وثقة في
انجلترا . كانت تعبيراتهم عن الشكر والعرفان بالجميل لـ « مستر
بلنت » تمس القلب ، كما كانت واضحة ملموسة . تركت سجن الدائرة
السنية وأنا سعيد بلغة وسلوك الأصدقاء الذين لن أراهم أبدا بعد
اليوم .

لم تستطع السلطات المصرية أن تقاوم تسديدها لآخر ضربة لكرامة
وعزة نفس amour propre أعدائها المنفيين ، إذ فكرت ، بدون
علمنا ، في الاحتفال بعيد رأس السنة (الكريسماس) ، باحتفال شكل
انتهاكا مباشرا للبنود التي اتفق عليها كلانا . لم يكن هذا الفعل القمى
من جانبها أكثر من خبث لا أخلاقي ، لأن المشهد الذي ارتجلوه كان بلا
هدف ، ولا معنى له ، بل لم يساعد الا على أن جر على مدبريه سخريّة
الصحافة الأوروبية بأسرها . وبغض النظر تماما عن توكيداتنا الخاصة ،
فإن لغة رسالة « لورد دافرين » (١) توضح بما فيه الكفاية أنه لا
« مستر نابير » ولا أنا نفسى ، كنا نتخيل قط أن تجريد هوكلينا من
نياشين « الشرف العارضة accidental honours » بموجب أمر عال ،
تنتهزها نظارة شريف فرصة ، وتجعل تنفيذها عمليا مشهدا يشهده
الملا . لقد جرح هذا الفعل مشاعر المنفيين جرحا عميقا ، وقتها ، ولكنه لم
يكسب الأشخاص الذين فكروا فيه : لا فائدة ولا مجدا ! وكل مشاهد
محايد لم يتطلع اليه في ضوء آخر غير ضوء الاعتراف الفعلي بالعجز
السياسي .

وهذا هو ما حدث : بعد الساعة الثانية من بعد ظهر يوم عيد رأس
السنة بقليل ، توقفت عربتا أجرة ، فجأة ، أمام سجن الدائرة السنية ،
وأمر المسجونون بأن يرتدوا معاطفهم وأن يتبعوا السجنان « عثمان
شريف » ، ففعلوا ما أمروا به وهم يرتعدون خوفا من خيانة حقيقية خطيرة .
وعندما بلغوا البوابة ، أمروا بأن يدخلوا العربتين في صحبة ضابط
بوليس ، وكان « عرابى » وصحبه مرتدين ملابسهم المدنية ، وواحد أو
اثنين منهم لم يترك لهم فرصة ليلبسوا أحذيتهم الطويلة ، ومرت بهم

(١) انظر الصفحات الأولى من هذا الفصل .

فى أن يحصل كل واحد منهم على ثلاثين جنيهًا مقدما من راتبهم فى « سيلان » (١) .

لم تنس سيدات مصر العظيمات « عرابى » حتى لحظة توجهه الى المنفى ، ففى صمت وحذر من « توفيق » أخذن فى تزويده بما هو مناسب من معدات السفر : واحدة بعثت بحقيبتي سفر انجليزيتى الصنع ، وثانية بعثت له بمصحف كبير وثالثة بعثت له بسجادة صلاة مطرزة ، ورابعة بعثت له بحقيبة ملابس ، وخامسة بعثت له بسلة رحلات وهكذا ولقد كان مخططا أصلا أن قطار خاصا متجها الى السويس يبدأ من التحويلة فى منتصف ثكنات قصر النيل فى الساعة التاسعة تماما مساء يوم ٢٦ ديسمبر . طوال العصر ، نقلت كل أمتعة السفر (ومن بينها طرد خاص بـ « عرابى ») الى هناك ، وسمح للزوجات الباقيات بمصر بتوديع أزواجهن بالسجن . أما عن ساعة ومكان الرحيل فقد احتفظ بهما على أنهما سر عميق . وفى آخر لحظة ، وصلتنا اشارة أن الرحلة ستؤجل نظرا لسيادة الطقس السيء فى السويس . وعلى سبيل الحيلة من احتمال أية مفاجآت ، وكان من حسن الحظ أن فعلنا هذا ، جعلنا مراسلتنا ، حسن ، يتولى مهمة الحراسة فى السجن . وحوالى الساعة

(١) يقول مستر بيمان Mr. Beamen ، فى صديق تام :

« انها حقيقة تسترعى الانتباه ، أنه فى الوقت الذى يستطيع فيه شخص وظيفته وظيفته دنيا فى الوقت الراهن أن يدخر ثروة كافية فى بضعة شهور لتكون ضمانا له ضد ما يواجهه فى المستقبل ، نجد أن المنفيين السبعة ، وهم الآن فى سيلان ، الذين يمكن القول أنهم فى فترة سنة أخذوا على عاتقهم أن يجعلوا مصر ملكا حرا in fee simple ، تركوا وطنهم وهم فى فقر تام ، وعرابى الذى كان فى امكانه أن يجمع أكثر من مليون جنيه ، اعتمد على أصدقائه لبيعوا له بحقيبة مليئة بالملابس ، عن طريق السكة الحديد ، ومن زمن مضى ، القضى ما كانت تنقاضه أسرته من معونة شهرية ، وقبلت هذا الوضع ، فصارت ما تنقاضه عشرة جنيهات شهريا ، وكان هناك أشخاص لم يريدوا أن تذكر أسمائهم ، بعثوا لأسرته بمعونات عن طريقى ، وهذا يعقوب سامى الذى كان يمسك روح عرابى الثانية alter ego : والذي كان قائد القاهرة أثناء شهور الحرب ، كان لبعض الوقت فى منصب يمكنه من أن يجمع منه ثروة طائلة . ترك مصر وأثابه ومنزله الصغير واقع تحت دين ، وهو مفلس تماما . وكذلك كان حال الآخرين . انه ليس من روح عبادة الأبطال المنفيين أو بروح التلميح ضد من خلفهم قد كتبت هذا ، ولكن ندر أن يكون هناك من سبب معروف له تقريره لماذا انتخب الشعب المصرى رجلا ، أسند مسئوليتهم الى أناس نشأوا من نفس طبقتهم ، ممن عرفوا كل الاساءات المريعة التى ألقت بهم ، والذين كانوا على استعداد لأن يدافعوا عن حقوقهم التى اكتشفوها أخيرا - عن أن يبقوا على ولائهم لحاكم انتقل الحكم اليه بالوراثة من مجلة "Fortnightly Review" ، العدد الصادر فى نوفمبر ١٨٨٣ ، ص ٦٣٦ .

مصر قد أعرب عن رفضه لأي تأخير ، وكان الحى الذى يقطن فيه أهل عرابى ، بعيدا بعض الشيء ، ومع ذلك ، فقد أوضح « سير تشالز ويلسون » ، لـ « عثمان باشا غالب » فى نبرة فيها حزم أن القطار لا يمكن أن يتحرك حتى تصل السيدات الغائبات ، وبتاء عليه ، وإزاء هذه الضرورة الملحة ، بعث مدير البوليس بعربته لتبحث عنهن ، ثم أعقب ذلك صمت طويل وغريب ، وجاء بعض الخدم الى ليودعونى ، وكان « مستر نابير » قد حجز مكانا لنفسه ولحقيبة « عرابى » ، وكان واحد أو اثنان من الجنود الانجليز فى ورديتهما ، فصافحا « عرابى » ، بل ان « الميجور فريز » نفسه (وهو ما أشاع الرضا فى نفس موكلينا بشكل واضح جدا) اتخذ مقعدا بجانب « عرابى » . وأخيرا ، قدمت امرأتان مرتديتان ملابس كلها بيضاء ، وبسرعة اختفيتا فى عربة من العربات المخصصة لسيدات المجموعة ، وما أن أغلق الباب ، عليهما حتى أعطيت الإشارة للتحرك . وفى لحظة ، اختفى القطار الذى كان يحمل « عرابى » وصحبه المنفيين ، اختفى خلف جدران قصر النيل . كان الزمن قرب منتصف الليل ، ولكنى بقيت لفترة بعدها تلبية لدعوة بعض ضباط الكتيبة الثانية الجبلية المشاة الخفيفة (١) ، لأشاهد القاعة التى زينت أفخر زينة ، والتى صارت الآن قاعة « الميس mess-room » ، والتى استخدمت فى الأربعة الشهور الماضية فقط فى عقد جلسات اللجنة الوطنية المصرية .

اننى أرى مناسبا تماما ، أن أنهى سردى عن محاكمة عرابى ، برحيله من قصر النيل . ان نفس هذا المبنى الذى شهد نجاحاته المبكرة وانتصاراته الأخيرة ، شهد بالمثل اختفائه لفترة على الأقل ، من على مسرح التاريخ المصرى وهو هنا حررته من السجن : الجندية الساخطة ، ومن قصر النيل سارت الكتيبة التى كان يقودها الى قصر عابدين مطالبة بتحقيق مطالب الشعب pronounciament ، وفى قصر النيل عمل ناظرا للجهادية ، وهنا أيضا عقد المجلس العرفى الذى أئتمنه على الدفاع عن بلده ، وفى قصر النيل ، أود أن أسدل الستار على ذلك الجزء من قصتى التى حاولت أن أقصها . كم كانت أفكار عرابى نفسه غريبة وكذلك انعكاساته غريبة هى الأخرى وهو جالس فى ساحة قصر النيل التى يضيؤها القمر ، ينتظر فى صبر اقلاع القطار الذى كان سينقله فى بضع دقائق بعيدا عن مشهد هو من دون كل الفترات أكثرها أهمية طوال تاريخ حياته ، مشهد سينقله الى المنفى !

الفصل الثلاثون

مصير أبناء الشعب

ما كادت المحكمة العسكرية تنطق بحكمها الشكلى على آخر شخص من « المتهمين من الفئة الأولى » . حتى بدأت الحكومة المصرية ، دون ما عجلة الى حله ما ، فى حصر اهتمامها هى ذاتها فى مصير أبناء الشعب ، ولم تكن السجون فى داخل البلاد مكتظة الى درجة التكدر فحسب ، بل كان لا يزال مودعا فى سجن الدائرة السنية ما يقرب من مائة شخص سجنوا بتهم تتراوح ما بين تهم عامة ، وتهم غير محدودة من تهم الخيانة العظمى ، وقد بعث بعض المتهمين فى المديرىات بوكلائهم الى العاصمة بقصد ضمان خدماتنا لهم ، وقد قبلنا أيضا مقدم أتعاب نيابة عن عديد من المسجونين الذين سجنوا فى سجون فى القاهرة لم يسبق الاعداد لها . extemporized jails ، وقد سمح لنا فقط برؤية موكلينا بعد الموافقة النهائية على المصالحة الخاصة بـ « عرابى » واخوانه المشهورين . وكادت تكون آخر كلمات تفوه بها « عرابى » أثناء انتظاره فى قصر النيل هو تذكيره لى بالمطلب الذى كان كثيرا ما يردده ، وهو السهر على مصير أصدقائه ، ونحن ، بكل تأكيد لم ندخر وسعا فى اتباع تعليماته ، وفى أن نضمن لاتباعه ظروفنا أفضل ، طالما كان من الممكن توقعها .

وفى هذا الوقت (٢٥ ديسمبر) ، كان « مستر نابير » وأنا ، مسئولين مسئولية مشتركة عن مصالح المسجونين التاليين : « الشيخ محمد عبده » و « الاميرالاي عبد الغفار بك » و « أحمد بك رفعت » و « عثمان باشا فوزى » ، « وحسن موسى العقاد » و « الاميرالاي خضر خضر » و « الشيخ حسن العدوى » (الذى سبق أن تحدثت عنه تفصيلا)

بالإضافة الى « أمين بك شمس » و « أحمد بك أباطة » (وكلاهما تاجران كبيران من ملاك الأراضي فى الزقازيق) و « أحمد محمود » و « إبراهيم الوكيل » (وهما عضوا مجلس النواب المصرى) و « حسن باشا شريعى » (وكان ناظرا سابقا للأوقاف) و « مهنا أفندى عمر » (من أعيان أسيوط) و « حسن باشا الدرمللى » (وكيل نظارة الداخلية سابقا) و « سليمان جومور » والأخوان الألفى (أيضا من الزقازيق) و « محمد الصدر » وهو محام وطنى ، « والأميرالاي إبراهيم فوزى » ، وكانوا فى مجموعهم نسعة عشر شخصا .

وكان الاتجاه فى بادىء الأمر ، هو الاستمرار فى اتباع منهج المحاكمات الاسمية ، واصدار الحكم بالسجن والنفى أو الغرامة على كل من وجهت اليهم أقل جنح ممن تبين أنهم مذنبون ، وباستثناء الاتهام الموجه ضد « حسن موسى » و « عثمان باشا فوزى » ، كادت تكون الحالات الأخرى متماثلة ، وكان موكلونا ، مع بقية المصريين ، قد لعبوا فى قليل أو كثير ، دورا بارزا فى النضال من أجل الحرية ، ولم يكونوا أترابا أو جراكسة أو كان لهم أصدقاء ذوو نفوذ فى المحكمة . لقد اختبروا ليدفعوا جريرة وطنيتهم . ونظرا لأن قضية « عرابى » قد سوت ، تكنيكيا ، دعوى العصيان ، لذا ، كان واضحا لنا أنه لم يعد هناك أمل فى المحاكم المصرية . وبينما كنا ننتشاور مع موكلينا عن أكثر الأساليب نفعا لاتباعها ، أفرج قومسيون التحقيق عن « حسن باشا شريعى » و « والاخوان الألفى » و « الأميرالاي إبراهيم فوزى » افرجا غير مشروط .

ومن أجل ما هو أحسن لصالح المتهمين ، تقدمت باقتراح للحكومة المصرية بأن الموضوع يمكن تناوله كله فيما يتصل بالأفراد الذين نمثلهم ، بأن يصدر مرسوم ادارى بنفيهم ، ولم تلق الفكرة موافقة فحسب ، بل امتدت لتشمل الحالات المؤجلة بوجه عام ، وقد أدخلت ، نتيجة لذلك ، تعديلات فى صالح المسجونين لتتيح الافراج الفورى لعدد كبير من الأشخاص ، سواء بتقديم ضمان عن حسن سلوكهم أو بالتعهد بأن تكون اقامتهم فى أملاكهم الخاصة .

وقد طلب من ناظر الداخلية (بالاتفاق مع قومسيون التحقيق وسير تشارلز ويلسون) اعداد قائمة مصنفة بالمسجونين استعدادا لاستصدار المراسيم ، وقد قدمت لنا كل التسهيلات للقيام بأية توكيلات قد نراها ملائمة للملابسات مختلف القضايا التى وكلت الينا ، ولم يقر موكلونا بهذا الترتيب فحسب ، بل ان كثيرا منهم كان سعيدا لتخلصه من أن يحاكم محاكمة علنية ، وحتى لا يضطر لأن يعترف بأنه مذنب .

اننى لم أر « حسن الدرمللى » ولا « حسن باشا شريعى » الا لفترة قصيرة من الوقت حتى يمكننى أن أبدي رأى فى مواهبهما الشخصية .
 أما « أمين بك شمس » و « ابراهيم الوكيل » و « أحمد محمود » و « محمد الصدر » ، فكانوا رجالا أذكيا قادرين تماما على المساعدة فى الحكم الذاتى لبلدهم ، وكانوا أربعتهم ماسونيين Freemasons غيورين .
 أما « أحمد بك أباطة » ، فلم التقي به على الاطلاق ، وقد أفرج عنه فى الزقازيق ، ويذكر عنه أن مئات من مؤاجريه سحبوا القارب الذى كان يحمله عائدا الى بلده فى نشوة نصر الى بيته الكبير فى الشرقية . أما « سليمان جوموز » العجوز ، والأميرالاي ابراهيم فوزى » ، فقد حاربوا أثناء الحرب .

ولما لم يكن فى استطاعة أحد أن يحدد التهمة الصحيحة ضد كل فرد « عاص » ، فقد كانت مهمة أعضاء قومسيون التحقيق الابتدائية مهمة شاقة جدا ، وقد ازدادت حيرتهم بالانشقاق الذى تصدع فى صفوفهم بين الرئيس الجديد وبين عضو آخر ، كان يرى أنه أحق منه فى هذا المنصب .
 وعندما قدمت أخيرا القائمة الى « اسماعيل أيوب » و « سير تشارلز ويلسون » ، كادت تكون بلا فائدة ، إذ أن المسجونين الذين لم يكونوا متهمين بأنهم « توجهوا الى الحرب » اتهموا اتهاما خطيرا بأنهم « كانوا يريدون التوجه الى الحرب » وكانوا « متعاطفين مع الحرب » ، ويتوزعهم جريدة « الطائف » « وبالباسهم حيواناتهم ملابس كتب عليها اسم « جنرال ولسلى » ، « وبدعائهم ل « عرابى » بالفوز ، وبسببهم اسم الخديو » ، الخ .

وانصافا ل « اسماعيل أيوب » ، يجب أن أقول ، أنه بذل كل جهده ليكون محايدا فى عدالته حتى آخر لحظة ، وأتاح لنا كل فرصة ليبحثنا على أن نفعل كل ما يمكننا عمله نبابة عن موكلينا . كانت هذه المفاوضات النهائية متعبة الى أقصى حد ، وأيامى المتبقية لى فى مصر كدت أن استنفدها كلها فى زيارات مجهدة لاتنتهى ، من مكتب اسماعيل أيوب » فى الداخلية الى مجلس النظر حيث « شريف باشا » فى الخارجية ، وأخيرا ، عندما كادوا يعتبروننى المتردد الدائم على غرف الانتظار المصرية هذه ، شعرت بالرضا التام ، وأنا أرى « شريف » و « اسماعيل أيوب » يختتمان المراسيم التى كانت ستنتهى مهمتنا فى مصر . وجدير بالذكر ، أن ابن « رياض » ، « محمود بك » ، وابن شريف ، « أحمد بك » و « بيجرين باشا » بذلوا فى مناسبات كثيرة كل جهدهم لمساعدتى فى التعجيل بالحل .

وفى النهاية سوى كل شئ وبموجب المراسيم التى صدرت الآن (٢٩ ديسمبر) ، نفى « الشيخ محمد عبده » خارج مصر لمدة ثلاث

تأثير عسكري ، أيا كان ، على التعبير عن الإرادة الوطنية . لقد سمعت « يعقوب سامي » نفسه يصدر هذا الأمر في غرفة صغيرة ، خلف الصالون الكبير بسرأي قصر النيل .

رابعاً - بالنسبة للمجلس العرفي أو لجنة الدفاع الوطني :

١ - اعترف « اسماعيل أيوب باشا » نفسه انه استقال من منصبه كعضو فيه ، ولكن اذا لم تكن هناك حرية تامة ، واذا لم تكن هناك أية صورة من صور الكبت ، كيف كان في استطاعته أن يفعل ذلك ؟ وبخاصة بعد زيارته لتحية « عرابي » ، وكان مستقلاً قطاراً خاصاً الى كفر الدوار .

٢ - ستلاحظ أيضاً أن « رهوف باشا » (رئيس المحكمة العسكرية) كان يحضر اجتماعاته باستمرار . وتوقعاته وأخطامه تذيل معظم محاضره ، ولو لم يكن المجلس له مطلق الحرية في أفعاله ، لماذا رجع رهوف من الاسكندرية لينضم اليه ؟ لو كان لا يقر أفعاله ، لماذا لم يحذو حذو « اسماعيل أيوب » ويستقيل ؟

٣ - باشر المجلس في حرية : الرقابة الدستورية على أفعال عرابي ، وعندما اقترح « على مبارك » أن يدخل في مفاوضات معه ، قدم عرابي للمجلس مسودة رده ، الذي أجرى عليه عدة تعديلات .

٤ - أشير في اجتماع المجلس أيضاً الى موضوع سجن مدير مديرية الغربية .

٥ - قرر المجلس ابقاء « عثمان باشا غالب » في منصبه مديراً للمديرية أسيوط بالرغم من أن عرابي كان من بين الراغبين في استعفائه .

٦ - لم يحضر « عرابي » على الإطلاق أى اجتماع من اجتماعات المجلس ، ولم يكن حتى « محمود سامي البارودي » عضواً فيه ، وكان الأشخاص الذين يتكون منهم المجلس ، في الغالبية العظمى ، مستقلين تماماً عن أية اعتبارات حزبية ، ويكفي أن نذكر منهم على سبيل المثال : جعفر باشا ، واسماعيل باشا أبو جبل ، وسامي باشا من ادارة الغناء تجارة الرقيق الذي تلقى تعليمه في انجلترا وأمريكا ، والذي كان زوج ابنته قد تورط في عدائه لـ « عرابي » في مؤامرة الضباط الجراكسة .

٧ - يوم الهزيمة في « التل الكبير » ، وقبل وصول « عرابي » الى القاهرة ، اجتمع المجلس العرفي في قصر النيل ، وقرر بالاجماع ألا تستمر الحرب التي كان من المتوقع ، من حيث المبدأ ، أن تستمر ،

الفصل الحادى والثلاثون

انطباعات شخصية

عن : عرابى وصحبه

إنكاد يكون من الصعب الحكم على « عرابى » وقضيته منفصلين ، ويستتبع هذا ، وهو أمر قد يكون طبعيا ، أنه لابد لهما على المدى البعيد إما أن يصمدا معا أو ينهارا معا . ولعله مما يصعب على اقراره هو ماذا كانت شخصية عرابى نفسه أو طبيعة الحركة التى قادها ، كانا ، لفترة على الأقل ، موضوع مزيد من سوء الادراك ومن سوء العرض . وتجنبنا لأن اختتم كتابى هذا بموعظة سياسية ، تعمدت طوال سردى ، وأثناء السير قدما فى قصة الدفاع عن « عرابى » ، أن أذكر حقيقة فى أثر حقيقة لأبرهن على أن الوطنية المصرية كانت تعبيرا حقيقيا ، وتلقائيا وشموليا لآمال الشعب المصرى بأسره ، وأن « عرابى » انتخبه الصوت الصامت الاجماعى لخمسة ملايين من أبناء شعبه ليكون رئيسا وممثلا له معترفا به ، وأن هدف وموضوع القضية التى كانت تدعى بحق « وطنية » ، كان لارضاء تعطش شرعى تام للعدالة والأمانة الادارية والاضمان الشخصى والمساواة السياسية . وسبب كل هذا السوء فى الادراك وسوء العرض لأول وهلة . لقد اهتمت كل الأطراف فى الحرب المصرية ، بدرجة كبيرة ، فى البرهنة على أن « عرابى » وصحبه كانوا مخطئين لسبب بسيط جدا وهو أنهم اذا لم ينجحوا فيما فعلوه ، اذن ، فمن الواضح تماما أنهم لا بد وأنهم اما مخطئون أو أنهم ضلل بهم هم أنفسهم . ولما كان هناك طرف قوى ومتسلط ، والآخر ضعيف ومهزوم ، فلم يكن من الصعب بث الاعتقاد

الا ملابسهم التي كانوا يرتدونها ، والراتب الزهيسد الذي صرفته لهم
الحكومة المصرية « وهى حاقدة عليهم » .

ولا يساورنى أدنى شك فى أن « عرابى » وصحبه كانوا قادرين
تماما على أن يساعدوا فى حكم ذاتى ذكى لبلادهم وينفسدوا فى مهارة
التغييرات والتحسينات التي خلفوها لنا كوارثين لهم وخلفا لهم . لم يكن
عرابى مجرد حالم أو متحمس بل كان من وجهة النظر المصرية : رجلا
مثقفا وقادرا بطبيعته ، على وعى تام ببلمه واحتياجات بلده ، حباه الله
بالكثير من النشاط والأمانة التامة فى تحقيق الغرض ، ولم تكن مصر
تحتاج لأكثر من هذا ؛ وإذا كان افتقاره الى المعرفة السياسية وجهله
بالتعديل فى السياسات الأوربية سيحرمه من صلاحية أن يكون أعظم
حاكم ، الا أنه لو عمل مع حاكم وطنى عقليته راجحة كرئيس له ، يكون
فى استطاعته أن يساعد المصريين على أن يشقوا طريقهم وحدهم ويمنحهم
العدل والمساواة والأمان وهى الأمور التي كانوا يتوقون اليها . ان مصر
لم تكن فى حاجة الى رجل على شاكلة تاليران Talleyrand (١)
ولا على شاكلة كافور Cavour (٢) ، ان كل ما كانت تحتاجه هو

(١) كان الأمير تاليران (١٧٥٤ - ١٨٣٠) دبلوماسيا فرنسيا شهيد الكثير من
التغييرات فى عهود الحكم الفرنسية (حكومة الثورة - الثورة المضادة - حكم نابليون -
عودة الملكية فى آل بوربون) وخرج منها تاليران كأقوى شخصية سياسية فى عصره
وكان لمهارته البارعة فى مؤتمر فيينا الذى عقد فى شتى ١٨١٤ و ١٨١٥ عقب هزيمة
النمسا ما أتاح لفرنسا وهى المهزومة أن تنخذ وضعها كقوة أوربية كبيرة . وقد ساعده على
ذلك ما شاهده من شقاق بين المنتصرين على فرنسا ، اذ أخذت النمسا والجلتروا جانبا وروسيا
وبروسيا جانبا آخر ، فقال تاليران للمجتمعين أن الحرب التي شنها المنتصرون لم تكن حربا على
فرنسا ، ولم تكن أيضا حربا على آل بوربون بل هى بالأحرى حرب على نابوليون ، وأن
لويس الثامن عشر ، باعتباره الحاكم الشرعى يجب أن يجد تأييدا منكم لا الحاق عقوبة به .
ومن عجيب الأمر أن المنتصرين كان من الصعب عليهم مقاومة جدله ، وحقق ما كان يرمى
اليه من حفظ كرامة فرنسا . (المحقق)

(٢) كان كافور (١٨١٠ - ١٨٦١) أعظم سياسى إيطالى فى القرن التاسع عشر
اتجه أول ما اتجه الى التجارة ، اذ تولى إدارة أملاك أبيه ، وفى طريق ادخاله التحسينات
التي أجريت فى بريطانيا ، تمكن كافور من زيادة دخل أبيه ودخله ودخل المستأجرين ،
وبفضل نصيحة صديق له سويسرى الأصل ، غامر بدخول ميدان الأعمال الحرة فأنشأ
تبوكا ، وبنى سككا حديدية ومصانع ، ودخل ميدان التصدير ونجح فيه ، وكان واسع
الأسفار ، وكانت زيارته للخارج نقطة تحول فى حياته ، اذ أمدته بالمادة العلمية للمقالات
التي أخذ يكتبها عن التجارة الحرة وقانون القمح فى بريطانيا وقوانين الفقراء والمشكلة
الآيرلندية والسكك الحديدية ، وعندما صدرت فى سرديليا قوانين تحرور الصحافة فى سنة
١٨٤٧ ، أنشأ كافور « جريدة البعث It Risogimento » التي صارت الجريدة الرسمية
للراى الساردنى والإيطالى للتحرر ، وتولى هو رئاسة تحريرها ، ومن ذلك الوقت فصاعدا

الانتقاد كان على حكماء هذه الأمة الحريصة على شرفها التعاون على انتقاء الدواء النافع بالأمانة ليكون أقوى تأثيراً في قطع الداء وبما أنى خبير بما يصلح ببلادى حريص على سعادتهما فأعرض أفكارى في شأن ذلك على نصراء الحق بانكلترا والتدبر فيها وهى كما سيذكر :

أولاً - يجب أن يكون حاكم البلاد منبهاً عالماً بأحوالها محبوباً عند أهلها محبة حقيقية ولم يكن من الذين سبقت لهم مشاركة الحديو السابق في مظالمه وأن يكون موثقاً مهنيًا ذا خبرة بتنفيذ القانون لا بالفدر والخيانة ولم يتدنس بارتكاب أمور سابقة [أوجبت انحطاطه من قلوب الأهالي واحتقارهم لمنزلته] ولا أرى في الحالة الراهنة أوفق من إبراهيم باشا نجعل الحديو السابق .

ثانياً - تكون حكومة البلاد مقيدة لهم مجلس نظار يسأل كل فائز منهم عن الأعمال المختصة بنظاراته أمام هيئة ذلك المجلس ويسأل جميعهم أمام الدولة التى تريد أن تضع الأساس للحكومة الى مدة ستعتين فيما يأتى .

ثالثاً - يتشكل مجلس نواب ومجلس شيوخ تعرض عليهما جميع اللوائح والقوانين وتعطى لأعضائهما الحرية التامة فى المدولة ويكون انتخابهما حراً كما فى البلاد المتقدمة وانما يكون لهما حق ابداء آرائهما واعطاء القرار ولا يلزم الحكومة العمل بما يقرره المجلسان ويكون ذلك الى مدة خمس سنين .

« ان حكماها الفعلين لازالت تستجلبهم ، فى الواقع ، من أصل اجنبى ، ولكن الجند الأعلى لنسلبهم كان واحداً من أسرع رجالات القرن الراهن الذى برهن على احييته في تأسيس أسرة ، بتحرره من كان يحكمهم من العبودية التعسفية لسلطان مستبد ولقد آخر خلفاءه على عاتقهم تحرير بلدهم الذى تبنيه ، لا يزالون يسبرون به قدما ، والأمير السدى يتربع على العرش الحديوى الآن يمثل على أية حال . مبدأ الحكم الذاتى والتعاقب والوراثة والاستقلال الاقتصادى » .

« اننى اود أن أطرح على حكومة جلالة الملكة سياسة أكثر حرماً - سياسة تتضمن داخل حدود معينة وحكيمة ، إقامة نظم تمثل الحكم الذاتى ، له مديريات وكميونات ، ذات وجود سياسى ، متحرره من أى تأثير خارجى ، رغم تقديم المساعدة لها فعلاً ، كما ينبغي أن يكون عليه وضعها لفترة ، بالنصيحة المتعاطفة والمساعدة ، وفى الواقع ، ليس هناك طريق وسط يمكن اتباعه . ان وادى النيل يمكن ادارته مالم يكن هناك مطمح فى النجاح من جانب لندن . ان أية محاولة من جانبنا للمشاركة فى مثل هذه المهمة ستحيلنا على الفؤور ، فى نظر مكانه ، الى عناصر موضوع كراهية وشك » بالرغم من أن المجتمع الشرقى لا يلتئم شمله حتى الآن ، الا على يد القوى القسرية للحكم المطلق ، الا أنه مما ينبغي أن يذكر ، من ناحية ، أن الدين الاسلامى دين ديموقراطى أساساً ، ومن ناحية أخرى ، أن الفكرة البدائية هى أن الكبار فى الريف يتجمعون فى مجلس حول زعيمهم ، وهى فكرة لم تختف كلية من تقاليد الناس ، بل ان

المبدأ الانتخابى لازال باقيا لدرجة ما ومتفقاً عليه بين المجتمعات الريفية ، ولهذا فاننا لو كيفنا أنفسنا على ما هو قائم فعلاً ، وحاولنا أن نتوسع فيه بنسب ، قد تبدو لنا أنها مطابقة لاحتياجات واستعدادات البلاد ، لكننا قد نجحنا فى اقامة نظام حى وله وجود ذاتى وفطرى ، له قوة التطوير ، ولتحقيق أهدافنا يجب أن نضع الأساس العريض والعميق » •

« مجمل النظم المصرية المقترحة »

١ - الدائرة الانتخابية فى الريف -
وتتألف من ممثلين من كل قسم يختارهم ناخبون بالقون من الرجال الذين لهم حق التصويت فى القرية •

٢ - مجالس المديرية - (ويتراوح أعضاؤها من اربعة الى ثمانية) ويختارهم ممثلو القرى •

٣ - المجلس التشريعى - ويتكون من ستة وعشرين عضواً ، منهم اثنا عشر يعينهم الحديو بعد استشارة نظاره وستة عشر تنتخبهم مجالس المديرية •

٤ - الجمعية العمومية - وتتكون من ثمانين عضواً : ثمانية من النظار وستة وعشرون أعضاء المجلس التشريعى وستة وأربعون عضواً ينتخبهم ممثلو القرى •

٥ - ثمانية من النظار - مسئولون أمام الحديو •

٦ - سمو الحديو •

« وقد يكون هناك اعتراض على أن الجهاز السابق لا يجسد بالفعل المبدأ البرلماني بدهنى الكلمة لأن كلا من المجلس التشريعى والجمعية العمومية استشاريان أكثر منهما جهازى وضع قوانين ، ولكن قلة من الناس سيكونون على استعداد للالتزام بأن مصر لم تنضج بعد لتكون لها حكومة شعبية بحته » •

وكان « يعقوب سامى » ضابطا اداريا ممتازا ما فى ذلك من شك ، وكان يتميز بالسهولة الفائقة فى الترتيب والتنظيم . أما « على فهمى » و « عبد العال » فكان كلاهما ضابطين ممتازين ؛ أما « محمود فهمى » فكان أحسن مهندس تستطيع أن تفخر به مصر . وايسست بى حاجة الى أن أسوق مزيدا من الأمثلة من بين أبناء الشعب من بين أشياعهم . ان انطباعاتى الشخصية عن « عرابى » وصحبه لا تترك مجالا للشك فى ذهنى فى أنهم لو وجدوا فقط ذلك التعاون المخلص والنابع من القلب من حاكمهم المباشر ، وهو ما كانوا يتوقعونه مرة ، ولو انهم لم يلزمهم سوء الطالع الذى تمثل فى تدخل أجتبى مسلح ، لكان فى استطاعتهم أن يحققوا ، بصورة مرضية ، وبأسلوبهم الخاص وطبقا لرؤاهم الخاصة ، المهمة التى كانت مصر كلها قد ائتمنتهم عليها .

الفصل الثانى والثلاثون

سلطان أم تسلط ؟ (١)

فى سياسات الشرق ، كادت تصبح القاعدة « أن ما يكون من المحال احتمالاه هو الأكثر حدوثا » . لقد سمعت يوما ما شخصية مصرية تقول بكل مظاهر الاخلاص ان هناك شيئين لهما صلة « بعمليات بريطانية الجريئة » الأخيرة ، يبدوان مستحيلين ، لم يكن فى استطاعته أن يفهمهما على الاطلاق : الأول ، لماذا كان الانجليز يريدون دائما أن يأتى الأتراك الى مصر ؟ والثانى ، عندما طلب الانجليز منهم بالفعل أن يأتوا ، لم يأتوا على الاطلاق ؟ (٢) . وعندما يفكر المرء للحظة فى الضرر البالغ الذى جرت به

(١) جزء من هذا الفصل أعيد نقله من مقال صدر فى جريدة *Fortnightly Review* (عدد ديسمبر ١٨٨٣) وكان عنوانه المؤامرات التركية فى مصر *Turkish Intrigues in Egypt* بتصريح خاص من رئيس التحرير ت. ه. س. اسكوت

(٢) فيما يلى موجز لأحداث هذه الفترة وموقف تركيا منها : قام خلاف بين نظارة البارودى والحديو توفيق من جراء قرار المجلس العسكرى الذى أذن الضباط الجراكسة الأربعين المتهمين بالتآمر على عرابى والضباط والنظار المصريين ، فطالب القرار بنفيهم الى أقاصى السودان وتجريدهم من رتبهم ونيابتيهم فلما رفع للحديو ، رأى تعديله نظرا لتعسفه ، فأصدر ارادة سنية فى ٩ مايو بتعديل الحكم ، فثارت النظارة وفكر النظارة فى دعوة مجلس النواب للانعقاد بدون أمر الحديو (وهو إجراء غير دستورى) ، وباجهر البعض برغبتهم فى عزل الحديو وتعيين الأمير حليم باشا بدلا منه ، ولكن سوى الحلاف بتعديل حكم المجلس العسكرى طبقا لما ارتأه الحديو .

فرأت الدولتان العظميان (إنجلترا وفرنسا) عدم السكوت على هذا الوضع ، فقدمتا مذكرة مشتركة للحديو طالبتا فيها باستقالة نظارة البارودى . فقبل الحديو المذكرة المشتركة ،

تركيا على مصر ، فانه يبدو غريبا بكل تأكيد أن ينظر الى التدخل التركي على أنه نوع من « علاج مشروع patent remedy » لشكبات مصر ! ، وانه لأمر غير عادى بالمثل ، عندما نسترجع المؤامرات المتتوية التي لحقت اليها تركيا طوال سنتين كاملتين لتتخذ مبررا لتدخلها - لو استرجعنا ذلك لأدركنا السبب في أنها فشلت في آخر لحظة في جمع الفاكهة التي نضجت وحن قطفها .

سلطان أم تسلط ؟ هل يمكن أن يكون النفوذ التركي حقيقة سياسية أم خيالا دبلوماسيا ؟ هذان السؤالان أكانا يفرضان نفسيهما على المطلعين على مجريات الأحداث في مصر ، وقد دفعني أهمية هذه المشكلة بوجهه خاص ، الى أن أفصلها عن مناقشتي لمستقبل مصر .

لو أراد المرء أن يدرك النتائج المضرة لسوء الحكم التركي ، لكان في استطاعتنا أن نسوق حالة « ولاية » طرابلس الغرب المتاخمة لحدود مصر كمثال مناسب للوصول الى هذا الادراك ، اذ أنه في هذه الولاية ، نتيجة

= فاستقالت النظارة احتجاجا على قبول الخديو للمذكرة ، وتولى الخديو سلطة الحكم مؤقتا وأبقى على عرابي ناظرا للجهادية والبحرية خوفا من انتفاض الجيش على الحكومة .

في هذه الأثناء ، حضر وفد عثماني برئاسة درويش باشا ، (بناء على دعوة من الخديو) لتقصي الحقائق ، وغادر الاسكندرية في ١١ يونيو ١٨٨٢ . وفي هذه الأثناء أيضا رأت الدول الأوروبية الكبرى الست : انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا ، ضرورة عقد مؤتمر في استانبول للنظر في المسألة المصرية ، وعرضت الفكرة على تركيا ولكنها رفضت الاشتراك فيه بحجة أنها بعثت بوفد برئاسة درويش باشا ، وسسوى الموضوع بتولى راجب باشا رئاسة النظارة ، وأن نظارته قادرة على إعادة الأمن والنظام الى نصابها . ومع ذلك عقدت الدول الأوروبية الكبرى الست ٧ جلسات ، عقدت فيهما ميثاقا أسمته ميثاق النزاهة Protocol de Désinteressement يقضى بالأ تفكر أية دولة من الدول الست المجتمعة في احتلال جزء من مصر . ثم أضاف المندوب البريطاني الى هذا الميثاق عبارة : « الا في الأحوال القهرية » .

فلما حدثت مذبة الاسكندرية ، أوضح مندوب بريطانيا في المؤتمر (لورد دافرين) أن أحوال مصر تستدعي التدخل عسكريا في شئونها لقمع الثورة وليعود للخديو نفوذه ، وقال انه ينبغي أن يكون هذا التدخل « تركيا » ، ولما كانت انجلترا واثقة من جمود السياسة التركية وضعفها ، ولما كانت مطمئنة الى انقسام الدول الأوروبية الكبرى في الرأي وعدم اتخاذها قرارا معينا في المسألة المصرية ، انتهزت انجلترا هذه الفرصة ولها ما تستند اليه من ذريعة وهي الاضافة التي أضيفت الى ميثاق النزاهة وهي عبارة « الا في الأحوال القهرية » ، فقامت بواجبها ، وحدها ، بضرب الاسكندرية ، ولم تحرك تركيا ساكنا بل كل ما فعلته أن طلبت من مصر تزويدها بالبيانات عن سير القتال أولا بأول !! (المحقق)

وانما ذكرتهما عرضا فحسب . أذكر اننى بينما كنت فى استانبول ، كان رئيس أغوات السلطان « سعادتلو بهرم أغا » له أسمى نفوذ فى قصر يلدز Yildiz Kiosk . وكان الأهالى المواطنون من الممكن تقسيمهم جميعا بالتحديد الى : من يسمح له بتقبيل راحة يده ، ومن يحكم عليه بحضن بطن قدمه . ولقد علمت أنه استنفست ثلاثة أيام فى مداولات دبلوماسية فيما اذا كان سفير امبراطور ألمانيا يقدم أولا احتراماته الى « بهرم أغا » أم أن من واجب « بهرم أغا » أن يزور السفير الألماني ، وأعتقد أن « بهرم » انتصر فى النهاية . ومن الطريف أيضا أن تعرف أن جلالة السلطان يستخدم ثلاثة آلاف جاسوس فى القسطنطينية وحدها ، وإن خدمات البوليس السرى تكلفه ١٨٠٠٠ جنيه شهريا ، وأنه يقضى وقته فى قراءة تقارير هذه الادارة، وإن أى نوع من العمل ، أيا كان بسيطا، لا يمكن أن ينجز دون اللجوء الى أسلوب منظم أحسن تنظيم وأعيد تنظيمه تماما وهو أسلوب « البقشيش » . وعندما كنت فى العاصمة التركية ، كان الناس يهثون أنفسهم على أنه قد صدر أخيرا فرمان خاص باحتكار التبغ نظير « بقشيش » معتدل قدره ٣٠٠٠ جنيه ، ويبدو أن هذه أول عملية نفذت بنجاح خلال فترة طويلة جدا من الزمان . والسلطان أكثر دأبا ، ويصر على أن تعرض عليه كل ورقة من أوراق الدولة . وأثناء مرحلة خطيرة لمحنة سياسية مؤخرة ، وجد سفير من السفراء : السلطان وأمامه منضدة تكومت عليها وثائق ، وكان مشغولا بقراءتها ، حتى أنه سرت بعدها أشاعة بأن جلالته كان يصحح قواعد تقاسيم الأغنيات التى سيتغنى بها المغنون فى مقاهى احدى المدن المغمورة الواقعة على ضفاف البوسفور !

لقد انتهزت فرصة وقمت بزيارة مبكرة لـ « خير الدين باشا » الذى ترك تونس من خمس سنوات مضت فى فضيحة ، ولكنه « قبل السجادة » تقبيلًا له فعاليته فى استانبول ، فصار الآن « كبير نظار الامبراطورية العثمانية » وهو الآن استقر به المقام فى قصر فخم جديد فى ضواحي القسطنطينية ، وكان لا يزال فى الحكم حتى بضعة شهور فقط ، وذلك نظرا لأن السلطان رفض ، ولا زال يرفض ، مشروعا محكما للدستور العثماني كان « خير الدين » قد جمع مادته مما اكتسبه صيتا كسياسي تونسى ، وتمسك بمشروعه تمسكا شديدا من وقتها ، لقد تحول حديثنا بطبيعة الحال الى مصر ، فقال خير الدين « أنتم والانجليز تواجهون مشكلة رهيبة هناك là bas (يقصد مصر) ، ولكننا نستطيع أن نسويها لكم بأكبر سهولة ممكنة . لا بد وأنكم سترجعون لنا عاجلا ذلك أم آجلا ، اذا أردتم أن تتجنبوا عراكا مع حلفائكم الأوروبيين . ان كل ما يطلبه جلالة

ناموس الله ، اذ يقول جل وعلا : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) . ويبدو واضحا كل الوضوح أن المبعوثين غادروا مصر وفي نيتهم أن ينصحوا السلطان بأن يزيد من نفوذه ، بأن يبدأ اتصالاته بأبرز ضباط الجيش المصرى ، وبخاصة الاتصال بـ « عرابى » .

وظهر مبعوث تركى آخر على المسرح - أحمد أسعد (٢) ، الذى ما لبث أن تعرف على « عرابى » ، ونقل له انطباعه عن الدرس الهام الذى تلقنه عن « تونس » ، وأوضح له بمهارة ، القوة الاضافية التى يمكن للقضية الوطنية أن تستمدّها من هيبة السلطان الخليفة .

وطوال كل هذا الوقت ، استمر « توفيق باشا » فى الحفاظ على علاقاته مع السلطان من خلال « قدرى بك » ووكيله الشخصى الخاص فى القسطنطينية . وقد علم « عرابى » فى النهاية أن الخديو ، فى خطاب من خطابه الى السلطان اتهم « عرابى » بالتآمر لبيع البلاد للانجليز ، وبأنه يعمل ضد مصالح الخليفة .

ومرت أربعة شهور منذ رحيل الوفد ، وصار « عرابى » الآن ناظرا للجهادية وأقوى شخصية فى مصر ، وكان لا يزال يرفض باصرار فكرة مجيء قوات تركية الى مصر ، لو أنه كان يدرك الفوائد التى ستجنيها هذه القضية من تأييد وموافقة الخليفة ، وهى حقيقة سبق أن ألمح اليها « أحمد راتب باشا » وقت مجيء وفد « على نظامى » . اننى لم أر أن وطنية « عرابى » ، وهو المسلم الحق ، قد اهتزت صورتها بشكل ما لمجرد رغبته فى أن يلقي تأييدا معنويا وعونا وتشجيعا من رئيسه الروحى (٣) . وفى تاريخ متأخر ، فى ٨ يوليو ١٨٨٢ ، نشرت الوقائع المصرية خطابا من « عرابى » عن الموضوع كتب فيه : « اننى لم أقل اننى سأحارب الأتراك لو حضروا الى مصر ، بصورة أكثر جرأة مما لو حاربت الانكليز ، لأنه ليس من المعقول أن يبعث أمير المؤمنين بعساكر الى مصر فى وقت

(١) هذا هو ما نقله « برودى » عن عدد الوقائع المصرية الذى لم يسعدنى المظ برؤيته والاطلاع عليه (رغم بحثى عنه فى كافة المكتبات العامة والخاصة) ، وما يؤكد صحة هذا الخبر أن الأستاذ محمود الحفيف ، ذكر فى كتابه « أحمد عرابى ، الزعيم المفقود » عليه ، ص ٢٢٤ ، ما يلى :

« ... وزار على نظامى باشا » ديوان الجهادية فى مقرها بقصر النيل ، وكانت مقر الآلاى الثانى ، واستقبله البارودى بالحفاوة ، وألقى نظامى خطابا بالتركية على الضباط والجند عربيه لهم البارودى ، حثهم فيه على طاعة الخديو . (المحقق)

(٢) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

(٣) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

الأشخاص فى حضور الخديو انه ما من حاكم جدير بأن يكون حاكما مثله . وقبل زيارة « رفعت » لـ « درويش » بضع ساعات ، كان درويش قد قلده « عرابى » النوط الأكبر المجيدى وسلمه براءته أو خطاب ترقيته (١) . وقد سبق أن وضحت بالتفصيل التام ارتباط « درويش باشا » بضرب الاسكندرية . وأثناء تلك الأيام المليئة بالأحداث ، كان على اتصال تليغرافى ساعة بعد ساعة مع « قصر يلدز » . ولم يكده يرجع الخديو الى قصر رأس التين حتى صعد « درويش باشا » الى يخته وتظاهر بأنه أساء فهم اشارات لورد ألكستر (٢) بالتوقف ، وفى الوقت المناسب وصل الى القسطنطينية .

وأثناء الحرب ، وطبقا لتعليمات معينة ، ونظرا لأن الاتصال كان مستمرا ، كانت كل حركة دفاعية يبلغ بها تليغرافيا الى كل من « الباب العالى » و « قصر يلدز » ، وكان المجلس العرفى فى القاهرة ينقل يوميا تفاصيل أعماله وقراراته بأسلوب مماثل ، ومع ذلك ، فقد كان جلالته الامبراطورية بالغ الحكمة تماما لدرجة أنه لم يقد بأية اشارة أكثر من السؤال باستمرار عن أية معلومة ، ومع ذلك ، فقد حدث أخيرا أن قطعت أسلاك التليغراف عبر الصحراء ، ففقد « قصر يلدز » حصيلته اليومية من الأبناء من المؤمنين فى القاهرة .

لقد حاولت أن أوضح المعنى الحقيقى للتأثير التركى والمؤامرة التركية فى بلد تجشمتنا فى سبيله وفى نشاط بالغ ، مثل هذه المسئولية الكبيرة ، ومنذ توقيع اتفاقية برلين ، وتركيا تقوم باختباراتها . لقد اختبرت فى الميزان وتبين أنها عاجزة . لقد كان فسادها وخلل ادارتها يفوق الوصف ، وصار ارتشاء موظفيها أكثر صفاقة . ونظرا لأنها لم تقم بأية محاولة من جانبها لتحقيق وعودها الجميلة عن الإصلاح ، فلقد صار من واجب انجلترا أن تنقذ مصر من حكومة القسطنطينية التى وصفها وزير انجليزى بارز ، أحسن وصف ، بقوله انها « حكومة النصب » . وباختصار ، ان مستقبل مصر يجب ألا يعتمد على تركيا .

(١) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب .

(٢) أحد قادة البوارج البريطانية الرابضة فى مياه الاسكندرية وقتذاك .

تبقى مجرد قول بلا فعل • لقد كان واضحا تماما ، على أية حال ، أن « نوبار باشا » لم يكن له أى دور فى تحقيق هذا الشعار عمليا •

هناك مثل قديم يقول : « الغائبون هم دائما المخطئون » (١) ، وهذا ما حدث مع الخديو اسماعيل الذى عاش مدة طويلة كافية لا لأن يسمع فيها أن أصدقاءه السابقين يتحدثون عنه بالسوء ، بل وأكثر من هذا يشهد منظرًا غير مهذب لشخص أفاده هو بصفة خاصة ، ويستبيح لنفسه فى صفاقة أن يحط من شأنه ، ولا يقصد من وراء ذلك الا تحطيمه ! • صحيح أن اسماعيل اقترف عدة أخطاء ، ولكن ستكون صورته فى التاريخ أفاده أخطاء ، ولكن ستكون صورته فى التاريخ أفضل من « توفيق » أو من « نوبار » • لقد انطلق « اسماعيل » سريعا جدا وبلا ترو تام ، الى الامام فى حياته الطائشة ، ولكن بهدف تطوير مصر ، بما كان يدعو الاتصال بأوروبا European Contact • لقد كانت خطته فى تركيز المشاريع التجارية فى خدمته الشخصية ، خطة خاطئة فى أضخم صورة ، ولكن أفدح أخطائه كلها هو أن يسند الى أجانب أمثال « نوبار باشا » حكم البلاد متحديا العواطف الوطنية ، التى هو نفسه مفجرها الى حد كبير • ويتمسك « مستر والاس » بأن اسماعيل يجب أن يكون موضع مساءلة هو نفسه أساسا عن كوارث الأيام الأخيرة ، ولكننى أعتقد أنه يلقي التبعة على كاهل من هو ليس بمخطئ : يقول لنا ان اسماعيل هو سبب « الدين الوطنى » ، ولكنه نسى كم من المال المقترض استنفد قبل وصوله الى مصر ، وإلى أى مدى أنفق فى الأشغال العمومية بما فى ذلك قناة السويس التى لم تكن تدر بعائد على مصر ، ولكنها وحدها مسئولة عن خمس (١/٥) ديونها • صحيح أن اسماعيل ورث أملاكا ضخمة واشترى غيرها وأن أفراد أسرته حصلوا أيضا بطبيعة الحال ، على أراض بنفس الطريقة ، وإذا كانت الأشغال العامة التى أنفق عليها المال ببذخ انحصرت على الاطلاق ، فى الأماكن التى كانت فيها الأملاك الخديوية ، الا أنها أفادت مصر كلها فى كثير أو قليل ، واحقا للحق لم ينزع « اسماعيل » ملكية أحد مما يملكه ، ولم يأخذ أرض أحد بدون مقابل ، وان ما يقال عن استيلائه على مزرعة كروم نابوث Naboth ، ان صبح هذا ، فهى لا تعدو أن تكون حالة فردية • لقد كان اللوم أقوى من أن يحتمله اسماعيل

(١) نصه بالانجليزية «the absent are always in the wrong»
(المحقق)

شبابه وخبرة سنوات نضجه ، أما عن عون الوطنيين المصريين فستبقى دائما كذكرى باقية للثبات السياسى ، وأما عن وعود انجلترا ، بأن تتيح لمصر « بداية طيبة » فستحقق فى النهاية بطريقة واعية .

وباستعراض هادى لأحداث سنة ١٨٨٣ (وكانت كلها سريعة جدا) يتضح على الفور الاختلاف بين بداية طيبة « بالنسبة للخديو الذى وقف على قدميه مؤخرا ، و « بداية طيبة » بالنسبة لمصر التى لم تقف على قدميها على الاطلاق ، فاذا كانت انجلترا قد توجهت الى مصر بقصد البداية الأولى ، فقد اقتربت شيئا أقرب الى الجريمة السياسية ، ولو كان ما أرادته بأمانة هو أن تحرر مصر من الفوضى ، لكان عذرهما كافيا لتخفيف الجرم . اننى لا أنكر ، أنه لو كان لا بد من قول الصدق ، فإن « البداية الطيبة » بالنسبة لـ « توفيق » كانت تمثل الملامح الرئيسية لأول عودة « للوطنية المصرية » . وأن « البداية الطيبة » بالنسبة لمصر ، يجب أن تكون أساسا لعودتها الثانية ، لأن انجلترا لن تضيف الى الواجب الذى تخلت عنه فصلا خطأ اقترفته » . لنلق نظرة على الماضى .

لقد بدأت فترة « عودة الخديوية » ، بمحاكمات الدولة . ولم تكند تنتهى هذه ، حتى بدأ فى الاسكندرية الانعقاد الوقور لـ « قومسيون العفو الدولى International Indemnity Commission » ، ومرة أخرى تدعى مصر لتستعد للتضحية . ان الخسائر التى ابتلى بها أشخاص معينون من أهالى الاسكندرية كان سببها حرب أعلنها الخديو ، شكليا ، وفيها حارب كل من المصريين والانجليز بعضهما البعض . ان مثل هذا الضرر لا يعطى « حقا » فى العفو . ان الحق المعنوى لمن يحسون بالمعاذلة قل أن يكون أقوى ، لأنهم لا يسهمون بشيء عن طريق دفع الضرائب لمساعدة حكومة مصر . عندما فرض الفرنسيون على التونسيين أن يقدموا تعويضا صغيرا وطفيفا ، نظير الأضرار التى لحقت بالمستعمرين الأجانب فى ضربهم لـ « صفاقس » ، حرصوا على أن يقرر كل متسلم لا يصال بأن ما دفعه من مال انما دفعه عن طيب خاطر وليس تحت قسر قانونى . ان قومسيون الاسكندرية أثناء مباشرته لأعماله أدان الحكومة المصرية وطالبها بدفع تعويض وصل الى ما يقرب من أربعة ملايين جنيه استرلينى ، وكانت أكثر المطالب بعدا عن الصواب ، يوافق عليها بدون حتى أى تظاهر بالمعارضة ، وكان على المصريين أن يدفعوا مرة أخرى نظير ما أسماه « مستر والاس » « الجرة المهشمة the smashed cockery » ، وكان كل عضو من أعضاء القومسيون يعتقد أن من واجبه أن يساند بحماس مطالب مواطنيه ، ولا يمكن لأى مندوب أن يعارض رغبات زميل له والا

قصدت انجلترا أن تحافظ في مخططها على إعادة تنظيم مصر ، وأن تراعى في الوقت نفسه العهود التي أخذتها على نفسها في مواجهة أوروبا كلها ، فإنها لا يمكنها أن تفعل ذلك فقط الا بـ « عودة الوطنية المصرية » في أوسع معناها ، لتحتل مكانتها لركيزة قد تصدع بنيانها ، ولكي تتم هذا الصنيع ، لا بد لها أن تستدعى « عرابي » وصحبه من المنفى ، وتسمح لهم ، تحت رعاية حاكم شعبي همام قادر ، بأن يساعدوا بأسلوبهم الخاص في ضوء ما يرونه هم أنفسهم • وطبقا لنموذج « لورد دافرين » - في وضع برنامج دستوري « للوطنية المصرية » •

ملحق (١)

خطاب من أحمد رفعت بك الى المؤلف

فى غضون بضعة أيام ستعود أنت الى تونس وستتوجه نحن الى المنفى ، ولا شك ان الناس سيكثر سؤالهم نك عن مصر ، لأن أى قرار بالنسبة لمصيرها النهائى هو بعيد كما كان دائما . ان أمانينا القومية قد تحطمت فى هذه اللحظة ، ولكنى لا أعتقد أنها ماتت . ان أعدادنا ، فى هذه اللحظة هو المظفرون وصوتهم له قوة وجلجلة النجاح . انهم يقولون ان الوطنية المصرية (التى أصفها بأنها ترابط كل المغلوبين على أمرهم بحثا عن العدالة) لم يكن لها وجود على الاطلاق ، وهم حتى ولو اعترفوا بأنه كانت هناك روح مثل هذه الروح بالخارج ، فانهم ينكرون . ان « أحمد عرابى » كان رمزها الشرعى ، بل انهم يتمسكون أكثر من هذا بأن الآمال المصرية لا هدف لها ، لأن أهالى مصر غير أهل لأن يقوم بينهم حكم ذاتى ، ونتيجة لذلك يجب أن يحكم عليهم بوصاية دائمة tutelle perpetuelle ويذهب آخرون الى أبعد من هذا ، ويقولون ان عرابى أفزع مصر كلها بالوطنية . وقبل أن نفترق ، استأذنك فى أننى سأترك لك بضع مذكرات ستساعدك فى الرد على ناقدينا ، من واقع شهادة عيان ، لاتنس أن تخبرهم أن مصدرك شخص تركى ، رجل كل مصالحه يجب أن تكون مع الطرف الآخر ، وأنه قوض مستقبله الواعد تعاطفا مع المصريين ، اخوانه فى الدين .

أولا - بالنسبة للحركة الوطنية بوجه عام :

١ - لا تحوى الوقائع الرسمية الا جزء من قوائم الهدايا الوطنية من مال ومؤن أرسلت طواعية من كل أرجاء مصر الى « عرابى » ، وقد سجل المتطوعون أسماءهم بالآلاف كمحاربين ، اذ لا يعقل أن تستطيع قوة أو سلطة ارباب معروفة ، أن تجمع جيشا قوامه مائة ألف رجل فى بضعة أيام . هذه النتيجة التى لم يسبق لها مثيل يجب أن تعزى وحدها الى شعور اجماعى :

٢ - لو كان الأمر عكس ذلك ، لكان لابد أن تنهار المقاومة على النور في مواجهة قوة انجلترا الأقوى : أما وقد كانت نابعة من شعور جماعي ، فقد دامت لشهرين كاملين .

٣ - هناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة ، وهي تعاطف أسمى الشخصيات في البلاد ، تعاطفا تلقائيا مع عرابي (باعتباره المثل للحركة الوطنية ، فقد بعث له الأمراء والأميرات وغيرهم بتلغرافات وخطابات وهدايا تحية له من الفواكه وغيرها إلخ ٠٠٠ ، وكل هذه التلغرافات والخطابات المرسلة اليه نلقبه بـ « حامي حمى الديار المصرية » : فالأميرات - و - والأرامل - بعثن له بأخواتهن الى كفر الدوار باكتتاب في اعتمادات للدفاع العام ، أما الهدايا من الخيول ، فيبدو أنها لم تكن لها نهاية ، فالأمير ابراهيم ، لم يكن راضيا بالحصاة الأولى التي بعث بها ، فأصر على أنه يبعث بأربعة خيول أخرى من أحسن السلالات ، كما أنه اعتاد أن يزور الجرحى علانية في مستشفى العباسية ، وكانت حرم أحمد باشا تشأت الرئيسية الفخرية لاتحاد الأميرات والسيدات اللاتي كن يعملن بصورة لا تعرف الكلل في انتاج الضمادات للجرحى .

٤ - يجب ألا ننسى حماس الهيئات الدينية ، اذ كانت الصلوات ليلا ونهارا في كافة المساجد (وبصورة خاصة في مسجد الحسين والجامع الأزهر) داعين بالنصر لـ « عرابي » والجيش المصري .

٥ - أن حب الشعب المصري كله لـ « عرابي » لم يعرف حدودا . لقد امتد الى صغار الصبية في الشوارع ، وكان الأطفال الصغار والبالغون يرددون كلهم على حد سواء عبارة « الله ينصرك يا عرابي » ، وكان الرجل للشعبي التالي على كل لسان :

يا توفيق يا وش النملة

من قال لك تعمل دي العملة ؟

(أى أنه بفعلته هذه جاء بالانجليز الى مصر)

وفي مدى بضعة أيام قليلة لم يعد لاسم « توفيق » ذكر في مصر ، في حين سمى جيل كامل من شباب المصريين باسم « عرابي » .

ثالثا - بالنسبة للاجتماع الثانى للجمعية الوطنية بالقاهرة :

١ - صدرت دعوات هذا الاجتماع أيضا من وكيل نظارة الداخلية، وقد صدرت فقط عندما رُئي أن الاجراءات التى أقرت فى الاجتماع السابق للجمعية لم تأت بنتيجة وصار الموقف متغيرا من أساسه .

٢ - انتظم الاجتماع ما يقرب من ٤٠٠ شخص بما فى ذلك الأمراء ورؤساء مختلف الطوائف الدينية ، بدون استثناء ، كما حضره أيضا ، الباشوات الذين كانوا مماليك عباس باشا ، وكانوا يهتمون بمصالح توفيق باشا ، الذين تزوجوا حفيدات سيدهم السابق .

٣ - أعرب الأمراء الثلاثة - ابراهيم وأحمد وكمال ، ورئيس قضاة القاهرة والمفتى الحالى وسلفه ، والباشوات المماليك السابق ذكرهم وكل الأشخاص الرسميين وغير الرسميين الحاضرين ، أعربوا من تلقاء أنفسهم ، وفى منتهى الصراحة ، عن غضبهم من الخديو ، وفى كلمتى اثناء المرافعة ، أشرت الى حديثى مع « يعقوب باشا صبرى » مملوك الخديو عباس مع قاضى القضاة ، وسأقتبس فيما يلى نص الكلمات التى تفوه بها الأمير كمال ، فى مكتب ناظر الداخلية وفى حضور عدد كبير من الأشخاص . قال : « فى نظرنا ، لم يعد للخديو وجود اليوم انما سنعترف به لو كان هنا على رأس حكومته وبلده ، ولكن أين هو ؟ هو اما سجين أو حليف لقوة أجنبية غزت مصر . » فصفق له من استمعوا لهذه الكلمات على اعتبار أنها متمشية تمشيا تاما مع واجباتهم الدينية والمدنية .

٤ - وكان القرار هو أنه طالما أن الخديو قد انتهك كلا من فرمانات ومبادئ الشريعة الغراء ، لم يعد قادرا على أن يصدر أوامره ، ويجب أن يثبت عرابى فى منصبه ناظرا للجهادية ، وتوكل اليه مهمة الدفاع الوطنى ، انتظارا لتلقى أوامر من القسطنطينية ، وقد اقترح على القرار بالاجماع برفع الأيدى . وقد ختم على محضر الجلسة procès-verbal كل فرد بكامل ارادته ، وبحماس واضح - وكان القرار الذى أمكن الوصول اليه يعتبر نهاية لمؤامرات القصر ، التى جرت على مصر مثل هذه النكبات التى لا حصر لها خلال السنة الماضية .

٥ - لم يحضر « عرابى » أيا من هذين الاجتماعين ، بل ان « يعقوب سامى » ، وكيل نظارته ، اشترط على الأميرالاي « عبيد بك » أن يحضر هو نفسه ، خشية ألا يعزى ، أو حتى يظن أن يكون هناك

تأثير عسكري ، أيا كان ، على التعبير عن الإرادة الوطنية . لقد سمعت « يعقوب سامي » نفسه يصدر هذا الأمر في غرفة صغيرة ، خلف الصالون الكبير بسراى قصر النيل .

رابعاً - بالنسبة للمجلس العرفى أو لجنة الدفاع الوطنى :

١ - اعترف « اسماعيل أيوب باشا » نفسه انه استقال من منصبه كعضو فيه ، ولكن اذا لم تكن هناك حرية تامة ، واذا لم تكن هناك أية صورة من صور الكبت ، كيف كان فى استطاعته أن يفعل ذلك ؟ وبخاصة بعد زيارته لتحية « عرابى » ، وكان مستقلاً قطاراً خاصاً الى كفر الدوار .

٢ - ستلاحظ أيضاً أن « رهوف باشا » (رئيس المحكمة العسكرية) كان يحضر اجتماعاته باستمرار . وتوقعياته وأختامه تذييل معظم محاضره ، ولو لم يكن المجلس له مطلق الحرية فى أفعاله ، لماذا رجع رهوف من الاسكندرية لينضم اليه ؟ لو كان لا يقر أفعاله ، لماذا لم يحد جذو « اسماعيل أيوب » ويستقيل ؟

٣ - باشر المجلس فى حرية : الرقابة الدستورية على أفعال عرابى ، وعندما اقترح « على مبارك » أن يدخل فى مفاوضات معه ، قدم عرابى للمجلس مسودة رده ، الذى أجرى عليه عدة تعديلات .

٤ - أشير فى اجتماع المجلس أيضاً الى موضوع سجن مدير مديرية الغربية .

٥ - قرر المجلس ابقاء « عثمان باشا غالب » فى منصبه مديراً لمديرية أسيوط بالرغم من أن عرابى كان من بين الراغبين فى استغفائه .

٦ - لم يحضر « عرابى » على الإطلاق أى اجتماع من اجتماعات المجلس ، ولم يكن حتى « محمود سامى البارودى » عضواً فيه ، وكان الأشخاص الذين يتكون منهم المجلس ، فى الغالبية العظمى ، مستقلين تماماً عن أية اعتبارات حزبية ، ويكفى أن نذكر منهم على سبيل المثال : جعفر باشا ، واسماعيل باشا أبو جبل ، وسامى باشا من إدارة الغشاء تجارة الرقيق الذى تلقى تعليمه فى انجلترا وأمريكا ، والذى كان زوج ابنته قد تورط فى عدائه لـ « عرابى » فى مؤامرة الضباط الجراكسة .

٧ - يوم الهزيمة فى « التل الكبير » ، وقبل وصول « عرابى » الى القاهرة ، اجتمع المجلس العرفى فى قصر النيل ، وقرر بالاجماع ألا تستمر الحرب التى كان من المتوقع ، من حيث المبدأ ، أن تستمر ،

ملحق (٢)

بعض نماذج من وثائق الثورة العراقية

وثيقة رقم ١ - تعليمات بعث بها رئيس قوميون مصر (اسماعيل ايوب باشا) الى المحامين « برودى » و « ناير » ، يحيطهما علما بالاجراءات التى ينبغى عليهما اتباعها فيما يتصل بالاشخاص الذين توكلوا فى الدفاع عنهم .

وستمی و کاندھم جلد من س و یبیه المعیہ السنیه حاقا و حل نقبتس اودوی و مدستنبش بنایہ کدقہ احد امن
 عندی لادن جلدان جلد من کتاب بقصد العربی فی علم الدرب و الجلد الاول من تاریخ موصط من القرون ترجم من
 انفرش و دی العربی بطبع مصر و لما سالت حافل الجلدان الی ابن تاضه الکتاب و ملک لادن و مد من احد هاما و اصل
 الی بیتی و لادن و حل کل بیت و کتبش بدو کتب بنامیه غیر یوانه و حل عندی کتوب و مد فرقه ساری و کان صی قادی
 عندی و مد حال الدوله الی تکلیفیه سأل من حالی و طلبت منه الی زبا بد قول الحقی فاذن لی به و کانی ملک فرج
 لادن فرقت من کیمس با کتوب عنده

وثيقة رقم ٤ :- تقرير كتبه الشيخ محمد عبده الى مستر برودى عن زيارة ابراهيم اغنا التوتنجى فى غرفته عندما رحل الى السجن المصرى ، وسرقه كتبه وكيف ان أحد الضباط الانكليز حقق له ما طلبه من تزويده بنسخة من المصحف الشريف .

١٤- محمد علي الأنسي (جمع وترتيب) الدراري اللامعات في منتخبات اللغات (بدون تاريخ) .

١٥- محمد عمارة (دكتور) : الأعمال الكامنة للإمام محمد عبده ، الكتابات السياسية ، ج ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

١٦- محمود الخفيف : أحمد عرابي ، الزعيم المقترى عليه (إعادة طبع) ، المركز العربي للبحث والنشر القاهرة ، ١٩٨١ .

ثالثا - مراجع مطبوعة عن تونس (تناولت قضية لفيضة ، و « بنو خمير »

١٧ و ١٨ -

Broadley, A.M., The Last Punic War, Tunis Past and Present, 2 vols. 1882.

١٩ - د . نقولا زيادة : تونس في عهد الحماية ١٨٨١ - ١٩٣٤ (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٣)

رابعا - موسوعات وقواميس

٢٠ - Concise Oxford Turkish - English, English - Turkish Dictionary, 1975.

٢١ - Hamlyn Encyclopaedic World Dictionary, 1971.

٢٢ - Encyclopedia Britannica, Edn. 1979.

٢٣ - Encyclopedia Americana, Edn. 1980.

٢٤ - La Grande Encyclopédie, Edn. 1922.

صفحة

- شکل ٧ - وقائع الحرب بالاسكندرية كما ترى من القاهرة . ١٧٤
- شکل ٨ - آثار التدمير في ميدان محمد علي بالاسكندرية . ١٧٧
- شکل ٩ - محمود سامي باشا البارودي ٢٤٦
- شکل ١٠ - محمود فهمي باشا ٢٦٨
- شکل ١١ - عرابي باشا أمام المحكمة العسكرية في
٣ ديسمبر ١٨٨٢ ٢٨٥
- شکل ١٢ - الشيخ حسن العدوي أمام قومسيون التحقيق . ٣٠٤
- شکل ١٣ - عليك أن تتوجه الى سيلان يا عرابي . . . ٣١٦
- شکل ١٤ - الاستعداد للمنفي ، من سنأخذ معنا ؟ . . ٣٢٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٥١٧٠

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ١٤٨٥ - ٥